

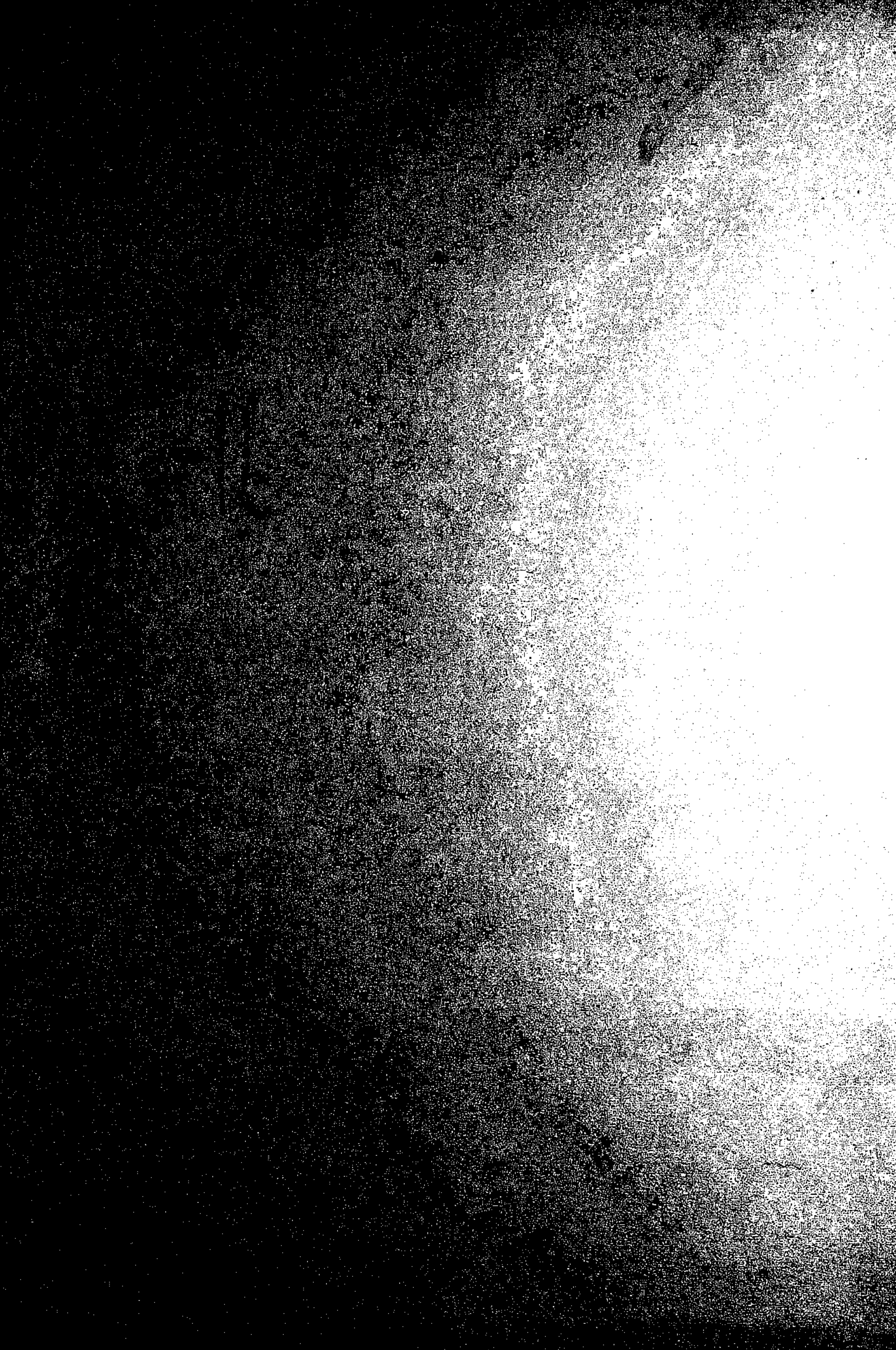
الشيخ الكبير
ابن عسيرة

الاسم

الشيخ الكبير

٢٦-٢٥

دار
امبار التراث العربي



التفسير الكبير
للإمام

الشيخ الفاضل
الشيخ الفاضل

للجزء الخامس والعشرين

الطبعة الثالثة

دار احياء التراث العربي
بيروت

نفسه بالمؤمن ، ويقول إيماني كمايمانك فقال (آمنا) يعني أنا والمؤمن حقاً آمنا ، إشعاراً بأن إيمانه كمايمانه ، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال في القتال ، وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم ، فيصح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا ؟ وهذا الرد يدل على أنه يفهم من كلامه أن خروجه وقاتله كخروجهم وقاتلهم ، لأنه لا يصح الإنكار عليه في دعوى نفس الخروج والقتال ، وكذا قول القائل أنا والملك ألفينا فلاناً واستقبلناه ينكر ، لأن المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظهار كون إيمانهم كمايمان المحقين كان الواحد يقول (آمنا) أي أنا والمحق .

(المسألة الثانية) قوله (فاذا أودى في الله) هو في معنى قوله (وأخرجوا من ديارهم وأودوا في سبيلي) غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد هنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك (وأودوا في سبيلي) وقال هنا (أودى في الله) ولم يقل في سبيل الله واللطفية فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أودى المؤمن في سبيل الله ليرك سبيله ولم يتركه ، وأودى المنافق الكافر فترك الله بنفسه ، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الأذى إلى حد الإكراه ، ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان فلا يترك الله ، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية ، والمؤمن أودى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتي الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة .

(المسألة الثالثة) قوله (جعل فتنة الناس كعذاب الله) قال الزمخشري جعل فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر ، وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله ، وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى ترددوا في الأمر ، وقالوا إن آمنا نتعرض للتأذي من الناس وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام ، واختاروا الاحتراز عن التأذي العاجل ولا يكون التردد إلا عند التساوي ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً لأن العذاب إن كان شديداً كعذاب النار وغيره يموت الإنسان في الحال فلا يدوم التعذيب ، وإن كان مديداً كالحبس والحصر لا يكون شديداً وعذاب الله شديد وزمانه مديد ، وأيضاً عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع ، وأيضاً عذاب الناس عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده عذاب أليم ، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذاباً كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذاباً .

(المسألة الرابعة) قال (فتنة الناس) ولم يقل عذاب الناس لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكليف ابتلاء وامتحاناً وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحاناً من الإنسان كالصبر على العبادات .

(المسألة الخامسة) لو قال قائل هذا يقتضى منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه ، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازاً عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله ، فنقول ليس كذلك ، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً ، وهذا المؤمن المكروه لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً ، بل في باطنه الإيمان ، ثم قال تعالى (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) يعنى دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية ، وفيه فوائد نذكرها في مسائل :

(الأولى) قال (ولئن جاء نصر من ربك) ولم يقل من الله ، مع أن ما تقدم كان كاه بذكر الله كقوله (أودى فى الله) وقوله (كعذاب الله) وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة .

(المسألة الثانية) لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال (ولئن جاء نصر من ربك) والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون (إنا كنا معكم) وهذا يقتضى أن يكونوا قائلين : إنا معكم إذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين ، فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين إنا معكم إذا جاء النصر ، لكن النصر لا يجىء إلا للمؤمن ، كما قال تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر ، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم فى الحال . ثم كر المهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين ، لا يطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة ، فكذلك المسلم وإن كسر فى الحال فالعاقبة للمتقين ، فالنصر لهم فى الحقيقة .

(المسألة الثالثة) فى ليقولن قراءتان : (إحداهما) الفتح حملاً على قوله (من يقول آمنا) يعنى من يقول آمنا إذا أودى يترك ذلك القول ، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم (وثانيتها) الضم على الجمع إسناداً للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم . فإنه المنافقين كانوا جماعة ، ثم بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبس ولا يصح ذلك لهم . لأن التلبس إنما يكون عند ما يخالف القول القلب ، فالسامع يبنى الأمر على قوله ولا يدرى ما فى قلبه فيلتبس الأمر عليه . وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور ، وهو أعلم بما فى صدر الإنسان من الإنسان فلا يلتبس عليه الأمر ، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما فى القلب ، فالمنافق الذى يظهر الإيمان ويضم الكفر كافر ، والمؤمن المكروه الذى يظهر الكفر ويضم الإيمان مؤمن والله أعلم بما فى صدور العالمين ، ولما بين أنه أعلم بما فى قلوب العالمين ، بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم ، والمنافق وإن تكلم فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وقد سبق تفسيره ، لكن فيه مسألة واحدة وهى أن الله قال هناك (فليعلمن الله الذين صدقوا) وقال ههنا (وليعلمن الله الذى آمنوا) فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾

والكافر ، والكافر في قوله كاذب ، فإنه يقول : الله أكثر من واحد ، والمؤمن في قوله صادق فإنه كان يقول الله واحد ، ولم يكن هناك ذكر من يضم خلاف ما يظهر ، فكان الحاصل هناك قسمين صادقاً وكاذباً (١) وكان ههنا المنافق صادقاً في قوله فإنه كان يقول الله واحد ، فاعتبر أمر القلب في المنافق فقال (وليعلن المنافقين) واعتبر أمر القلب في المؤمن وهو التصديق فقال (وليعلن الله الذين آمنوا) .

ثم قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ .

لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة وأحوالهم ، وذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت إلى الكفر بالفتنة ، وبين أن عذاب الله فوقها ، وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر في الذل وعلى الإيذاء لا شيء ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا ؟ فكان جواب المؤمن أن يقول خوفاً من عذاب الله على خطيئة مذهبكم ، فقالوا لا خطيئة فيه وإن كان فيه خطيئة فعلينا ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ولنحمل صيغة أمر ، والمأمور غير الأمر ، فكيف يصح أمر النفس من الشخص ؟ فنقول الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء ، أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم ، قال صاحب الكشاف : هو في معنى قول من يريد اجتماع أمرين في الوجود ، فيقول ليكن منك العطاء وليكن مني الدعاء ، فقوله ولنحمل ، أي ليكن منا الحمل وليس هو في الحقيقة أمر طلب وإيجاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (وما هم بحاملين من خطاياهم) وقال بعد هذا (وليحملن أثقالهم) وأثقالاً مع أثقالهم) فهناك نفي الحمل ، ههنا أثبت الحمل ، فكيف الجمع بينهما ، فنقول قول القائل : فلان حمل عن فلان يفيد أن حمل فلان خف ، وإذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئاً ، فكذلك ههنا ما هم بحاملين من خطاياهم يعني لا يرفعون عنهم خطيئتهم وهم يحملون أوزاراً بسبب إضلالهم ويحملون أوزاراً بسبب ضلالتهم ، كما قال النبي عليه السلام « من سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء » .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الصيغة أمر ، والأمر لا يدخله التصديق والتكذيب ، فكيف يفهم قوله (إنهم لكاذبون) نقول قد تبين أن معناه شرط وجزاء ، فكأنهم قالوا إن اتبعونا نحمل خطاياكم وهم كذبوا في هذا فانهم لا يحملون شيئاً .

(١) في الأصول صادق وكاذب ولما كانا بدلا من خبر كان المنصوب فتعين نصهما

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ
بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى
حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى
إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

نفع عائد عليكم لانقطعوا أيضاً ، ولو قال لهم ما قدر مضرة التخطف في جنب العقاب الدائم الذي
أخوفكم منه إن بقيتم على كفركم لانقطعوا ، لكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث بين كذبهم
في أنهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالآلة ، أن ذلك لا يجري إن آمنوا ، ومثل ذلك
إذا أمكن بيانه للمخضم فهو أولى من سائر ما ذكرنا ، فلذلك قدمه الله تعالى ، والآية دالة على صحة
الحجاج الذي يتوصل به إلى إزالة شبهة المبطلين ، بقي ههنا بحثان :

(الأول) قال صاحب الكشاف في انتصاب رزقاً إن جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى
ما قبله ، لأن معنى يجي إليه ثمرات كل شيء ، ويرزق ثمرات كل شيء واحد ، وأن يكون مفعولاً
له ، وإن جعلته بمعنى مرزوق كان حالاً من الثمرات لتخصيصها بالإضافة ، كما ينتصب عن النكرة
المتخصصة بالصفة .

(الثاني) احتج الأصحاب بقوله (رزقاً من لدنا) في أن فعل العبد خلق الله تعالى ، وبيانه أن
تلك الأرزاق إنما كانت تصل إليهم ، لأن الناس كانوا يحملونها إليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقاً
لله تعالى لما صحت تلك الإضافة ، فإن قيل سبب تلك الإضافة أنه تعالى هو الذي ألقى تلك الدواعي
في قلوب من ذهب بتلك الأرزاق إليهم ، قلنا تلك الدواعي إن اقتضت الرجحان ، فقد بينا في
غير موضع أنه متى حصل الرجحان ، فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود ، وإن لم يحصل
الرجحان انقطعت الإضافة بالكلية . واعلم أنه تعالى إنما بين أن تلك الأرزاق ما وصلت إليهم إلا
من الله تعالى ، لأجل أنهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لا يخافون أحداً سوى الله تعالى ولا
يرجون أحداً غير الله تعالى ، فيبقى نظرهم منقطعاً عن الخلق متعلقاً بالخالق ، وذلك يوجب كمال
الإيمان والإعراض بالكلية عن غير الله تعالى والإقبال بالكلية على طاعة الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً
وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمم رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما
كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ .

وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا

يَفْتَرُونَ ﴿٤١﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا

ثم قال تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ في الذي كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) كان قولهم (ولنحمل خطاياكم) صادراً لاعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر، ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الاقتراء (وثانيها) أن قولهم (ولنحمل خطاياكم) كان عن اعتقاد أن لا حشر، فإذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم أما قلتم أن لا حشر (وثالثها) أنهم لما قالوا إن تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم، يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسألون ويقال لهم لم افتريتم.

ثم قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ .
وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم، وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم، وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصاً بالنبي وأصحابه وأئمة حتى صعب عليهم ذلك، بل قبله كان كذلك كما قال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم) ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبي عليه السلام وقومه ومنهم إبراهيم عليه السلام وغيرهما، ثم قال تعالى (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً) وفي الآية مسائل:

﴿ الأولى ﴾ ما الفائدة في ذكر مدة لبثه؟ نقول كان النبي عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام وإصرارهم على الكفر فقال إن نوحاً لبث ألف سنة تقريباً في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل، وصبر وما ضجر فانت أولى بالصبر لقلّة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك، وأيضاً كان الكفار يفترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يفتروا فان العذاب يلحقهم.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعض العلماء الاستثناء في العدد تكلم بالباقي، فإذا قال القائل لفلان على عشرة إلا ثلاثة، فكأنه قال على سبعة، إذا علم هذا فقوله (ألف سنة إلا خمسين عاماً) كقوله تسعمائة وخمسين سنة، فما الفائدة في العدول عن هذه العبارة إلى غيرها؟ فنقول قال الزمخشري فيه فائدتان (إحداها) أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فإن من قال

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَاً حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعاً

اعلم أن هذا هو (الجواب الثاني) عن تلك الشبهة ، وذلك لأنه تعالى لما بين لأهل مكة ما خصوا به من النعم أتبعه بما أنزله الله تعالى بالأمم الماضية الذين كانوا في نعم الدنيا ، فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم ، والمقصود أن الكفار لما قالوا إننا لا نؤمن خوفاً من زوال نعمة الدنيا ، فالله تعالى بين لهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل هذه النعم ، لا الإقدام على الإيمان ، قال صاحب الكشاف : البطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه ، وانتصبت معيشتها إما بحذف الجار واتصال الفعل كقوله (واختار موسى قومه) أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها ، وإما تضمين بطرت معنى كفرت .

فأما قوله (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً) ففي هذا الاستثناء وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة (وثانيها) يحتمل أن شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم ، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك أهلها ، وإذا لم يبق للشئ مالك معين قيل إنه ميراث الله لأنه الباقى بعد فناء خلقه ، ثم إنه سبحانه لما ذكر أنه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها ، فكان سائلاً أورد السؤال من وجهين (الأول) لماذا ما أهلك الله الكفار قبل محمد ﷺ مع أنهم كانوا مستغرقين في الكفر والعناد؟ (الثاني) لماذا ما أهلكهم بعد مبعث محمد ﷺ مع تمادى القوم في الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد ﷺ؟ فأجاب عن السؤال الأول بقوله (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) وحاصل الجواب أنه تعالى قدم بيان أن عدم البعثة يجرى مجرى العذر للقوم ، فوجب أن لا يجوز إهلاكهم إلا بعد البعثة ، ثم ذكر المفسرون وجهين (أحدهما) (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا) أى فى القرية التى هى أمها وأصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها رسولا لإلزام الحججة وقطع المعذرة (الثانى) وما كان ربك مهلك القرى التى فى الأرض حتى يبعث فى أم القرى يعنى مكة رسولا وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، ومعنى (يتلو عليهم آياتنا) يودى ويبلغ ، وأجاب عن السؤال الثانى بقوله (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فان بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم أنهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله أنهم وإن لم يؤمنوا لكنهم يخرج من نسلهم من يكون مؤمناً قوله تعالى ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا ﴾

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

وَيَوْمَ يناديهم فيقولُ أين شركاءي الذين كنتم تزعمون ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ

تعقلون ، أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقبه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴿

اعلم أن هذا هو (الجواب الثالث) عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لكلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى ، أما أنه خير فلوجهين (أحدهما) أن المنافع هناك أعظم (وثانيهما) أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر ، وأما أنها أبقى فلأنها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر ، فظهر من هذا أن منافع الدنيا لانسبة لها إلى منافع الآخرة البتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال (أفلا تعقلون) يعني أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجاً عن حد العقل ، ورحم الله الشافعي حيث قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى ، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة . فكانه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية ، ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا انصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأى عقل يرتاب في أن نعم الآخرة راجحة عليها ، وهذا هو المراد بقوله (أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقبه) فهو يكون كمن أعطاه الله قدراً قليلاً من متاع الدنيا ثم يكون في الآخرة من المحضرين للعذاب ، والمقصود أنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لولم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضي ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم ، وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى (لكنتم من المحضرين ، فانهم لمحضرون) وفي لفظه إشعار به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام ، وذلك لا يليق بمجالس اللذة إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره .

قوله تعالى ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ، قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ، وقيل ادعوا

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هُوَ الَّذِي أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا
إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا
الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾

شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون. ويوم يناديهم فيقول
ماذا أجبتهم المرسلين. فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴿٦٦﴾ .
اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية أنه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء
(أحدها) قوله (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) لما ثبت أن الكفار
يوم القيامة قد عرفوا بطلان ما كانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم
أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكاً في العبادة وتزعمون أنه يشفع؟ أين هو لينصركم ويخلصكم
من هذا الذي نزل بكم. ثم بين تعالى ما يقوله من حق عليه القول، والمراد من القول هو قوله
(لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) ومعنى حق عليه القول أي حق عليه مقتضاه، واختلفوا
في أن الذين حق عليهم هذا القول من هم؟ فقال بعضهم الرؤساء الدعاة إلى الضلال، وقال بعضهم
الشياطين قوله (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفة والراجع إلى
الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم ففروا غياً
مثل ما غوينا والمراد كما أن غينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعني أن إغواءنا لهم ما ألجأهم إلى
الغواية بل كانوا مختارين بالإقدام على تلك العقائد والأعمال، وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان
أنه قال (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم
فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) وقال تعالى لإبليس (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان
إلا من اتبعك من الغاوين) فقوله (إلا من اتبعك) يدل على أن ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم
لا من قبل إلقاء الشيطان إلى ذلك، ثم قال تبرأنا إليك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ما كانوا إيانا
يعبدون. إنما كانوا يعبدون أهواءهم، والحاصل أنهم يتبرءون منهم كما قال تعالى (إذ تبرأ الذين
اتبعوا من الذين اتبعوا) وأيضاً فلا يمتنع في قوله تعالى (أين شركائي) أن يريد به هؤلاء الرؤساء
والشياطين فانهم لما أطاعوهم فقد صيروهم لمكان الطاعة بمنزلة الشريك لله تعالى، وإذا حمل
الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا إلهنا هؤلاء ما عبدونا إنما عبدوا أهواءهم الفاسدة

(وثانيها) قوله تعالى (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) والأقرب أن هذا على سبيل التقرير لأنهم يعلمون أنه لا فائدة في دعائهم لهم ، فالمراد أنهم لو دعوهم لم يوجد منهم إجابة في النصرة وأن العذاب ثابت فيهم ، وكل ذلك على وجه التوبيخ ، وفي ذكره زدع وزجر في دار الدنيا ، فأما قوله تعالى (لو أنهم كانوا يهتدون) فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوهاً (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما أبصروه في الآخرة (وثانيها) لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا لعدوا أن العذاب حق (وثالثها) ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون (ورابعها) لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الخيل لدفعوا به العذاب (وخامسها) قد آن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون إذا رأوا العذاب ويؤكده ذلك قوله تعالى (لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم) وعندى أن الجواب غير محذوف وفي تقريره وجوه (أحدها) أن الله تعالى إذا خاطبهم بقوله (ادعوا شركاءكم) فهنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شيء كالسدر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيئاً فقال تعالى (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) شيئاً أما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيئاً لاجرم مارأوا العذاب (وثانيها) أنه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهي الأصنام أنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال في حقهم (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) أي هذه الأصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلا جرم مارأت العذاب فان قيل قوله (ورأوا العذاب) ضمير لا يليق إلا بالعقلاء فكيف يصح عوده إلى الأصنام ؟ قلنا هذا كقوله (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) وإنما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا (وثالثها) أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أي والكفار علموا حقيقة هذا العذاب في الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندى خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فان ذلك يقتضى تفكيك النظم من الآية (الأمر الثالث) من الأمور التي يسأل الله الكفار عنها قوله (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعصيت عليهم الأنبياء) أي فصارت الأنبياء كالعمى عليهم جميعاً لا تهتدى اليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس في المشكلات لأنهم يتساوون جميعاً في عمى الأنبياء عليهم والعجز عن الجواب ، وقرىء فعصيت وإذا كانت الأنبياء لهُول ذلك يتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال ، ويفوضون الأمر إلى علم الله تعالى وذلك قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فما ظنك بهؤلاء الضلال ، قال القاضي هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لأن فعلهم لو كان خلقاً من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة والإرادة لما عصيت عليهم الأنبياء ولقالوا إنما أتينا في تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك ، فكانت حججهم على الله تعالى ظاهرة وكذلك القول فيما تقدم لأن الشيطان كان له أن يقول إنما أغويت بخلقك في الغواية ، وإنما قبل من دعوته لمثل ذلك

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾
 وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكُنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

فتكون الحجة لهم في ذلك قوية والعذر ظاهراً (والجواب) أن القاضى لا يترك آية من الآيات
 المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب إلا ويعيد استدلاله بها ، وكما أن وجه استدلاله في الكل
 هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو أن علم الله تعالى بعدم الإيمان مع وقوع
 الإيمان متنافيان لذاتيهما فمع العلم بعدم الإيمان إذا أمر بادخال الإيمان في الوجود فقد أمر
 بالجمع بين الضدين ، والذي اعتمد القاضى عليه في دفع هذا الحرف في كتبه الكلامية قوله خطأ
 قول من يقول إنه يمكن وخطأ قول من يقول إنه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر
 هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب إلا السكوت ، فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهراً
 فثبت أن الإشكال مشترك والله أعلم

قوله تعالى ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ، وربك يخلق ما يشاء
 ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ،
 وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين حال المعذنين من الكفار وما يجرى عليهم من التوبيخ أتبعه بذكر من
 يتوب منهم في الدنيا ترغيباً في التوبة وزجراً عن الثبات على الكفر فقال (فأما من تاب وآمن
 وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين) وفي عسى وجوه : (أحدها) أنه من الكرام تحقيق
 والله أكرم الأكرمين (وثانيها) أن يراد ترجى الثابت وطمعه كأنه قال فليطمع في الفلاح (وثالثها)
 عسى أن يكونوا كذلك إن داموا على التوبة والإيمان لجواز أن لا يدوموا ، واعلم أن القوم
 كانوا يذكرون شبهة أخرى ويقولون (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعنون
 الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفي ، فأجاب الله تعالى عنه بقوله (وربك يخلق ما يشاء ويختار)
 والمراد أنه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضرر فله أن يخص من شاء بما شاء لا اعتراض
 عليه البتة ، وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت أنه حكيم مطلق علم أنه كل ما فعله كان حكمة وصواباً فليس
 لأحد أن يعترض عليه وقوله (ما كان لهم الخيرة) والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر

والخيرة أيضاً اسم للمختار يقال محمد خيرة الله في خلقه إذا عرفت هذا فنقول في الآية وجهان :
 (الأول) وهو الأحسن أن يكون تمام الوقف على قوله (ويختار) ويكون ما نفيًا ، والمعنى
 (وربك يخلق ما يشاء ويختار) ليس لهم الخيرة إذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل (والثاني)
 أن يكون ما بمعنى الذي فيكون الوقف عند قوله (وربك يخلق ما يشاء) ثم يقول (ويختار)
 ما كان لهم الخيرة ، قال أبو القاسم الأنصاري وهذا متعلق المعتزلة في إيجاب الصلاح والأصلح عليه ،
 وأي صلاح في تكليف من علم أنه لا يؤمن ولو لم يكلفه لاستحق الجنة والنعم من فضل الله ،
 فان قيل لما كلفه استوجب على الله ما هو الأفضل لأن المستحق أفضل من المتفضل به قلنا إذا علم
 قطعاً أنه لا يحصل ذلك الأفضل فتوريطه في العقاب الأبدى لا يكون رعاية للصلحة ، ثم قولهم
 المستحق خير من المتفضل به جهل لأن ذلك التفاوت إنما يحصل في حق من يستنكف من تفضله ،
 أما الذي ما حصل الذات والصفات إلا بخلقته وبفضله واحسانه فكيف يستنكف من تفضله ، ثم
 قال (سبحان الله وتعالى عما يشركون) والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والاعزاز والإذلال
 مفوض إليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة
 رسول الله ﷺ وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير غيره في النبوة ، ولما بين عليه بما
 هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال (وهو الله لا إله إلا هو) وفيه تنبيه على كونه قادراً على كل
 الممكنات ، وعالمًا بكل المعلومات ، منزهاً عن النقائص والآفات يجازى المحسنين على طاعتهم
 ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ونهاية تقوية القلب للطيعين ، ويحتمل
 أيضاً أنه لما بين فساد طريق المشركين من قوله (يوم يناديهم) فيقول (أين شركائي) ختم الكلام
 في ذلك باظهار هذا التوحيد وبيان أن الحمد والثناء لا يليق إلا به .

أما قوله (له الحمد في الأولى والآخرة) فهو ظاهر على قولنا لأن الثواب غير واجب عليه
 بل هو سبحانه يعطيه فضلاً وإحساناً فله الحمد في الأولى والآخرة ، ويؤكد ذلك قول أهل الجنة
 (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وآخردعواهم أن الحمد لله رب العالمين)
 أما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله من أهل الجنة ، وأما أهل النار فما أنعم
 عليهم حتى يستحق الحمد منهم ، قال القاضي إنه يستحق الحمد والشكر من أهل النار أيضاً بما فعله
 بهم في الدنيا من التمكين والتيسير والالطاف وسائر النعم ، لأنهم بإساءتهم لا يخرج ما أنعم الله
 عليهم من أن يوجب الشكر ، وهذا فيه نظر . لأن أهل الآخرة مضطرون إلى معرفة الحق فاذا علموا
 بالضرورة أن التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلوا بالضرورة أن الإشتغال بالشكر
 الواجب عليهم يوجب على الله الثواب وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن ذلك مما يخلصهم عن
 العذاب ويدخلهم في استحقاق الثواب أفترى أن الانسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه
 التوبة ؟ كلا ، بل لا بد أن يتوبوا وأن يشتغلوا بالشكر ، ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ
يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾
وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

أما قوله (وله الحكم) فهو إما في الدنيا أو في الآخرة فأما في الدنيا فحكم كل أحد سواه إنما
نفذ بحكمه ، فلو لا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن
حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الأمة حكم الرسول ، فهو الحاكم في الحقيقة ، وأما
في الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم ، لأنه الذي يتولى الحكم بين العباد في الآخرة ، فينتصف
للمظلومين من الظالمين .

أما قوله (وإليه ترجعون) فالمعنى وإلى محل حكمه وقضائه ترجعون ، فإن كلمة إلى لا تنهيه الغاية
وهو تعالى منزله من المكان والجهة .

قوله تعالى ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم
بضياءً أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله
يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا
من فضله ولعلكم تشكرون ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الاجمال بقوله (وهو الله لا إله إلا
هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) فصل عقيب ذلك ببعض ما يجب أن
يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى
يوم القيامة) فنبه على أن الوجه في كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان ، لأن المرء في
الدنيا وفي حال التكليف مدفوع إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ، ولا يتم له ذلك لولا ضوء
النهار ، ولأجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون
بالليل فلا بد منهما والحالة هذه ، فأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل فلذلك
يدوم لهم الضياء واللذات ، فبين تعالى أنه لا قادر على ذلك إلا الله تعالى ، وإنما قال (أفلا تسمعون)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ
 كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

(أفلا تبصرون) لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر قال الكلابي قوله (أفلا تسمعون) معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله (أفلا تبصرون) معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال ، قال صاحب الكشاف السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ، ومنه قولهم في الأشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد ، فإن قيل هلا قال : بنهار تتصرفون فيه ، كما قيل : بليل تسكنون فيه ؟ قلنا ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ، وإنما قرن بالضياء أفلا تسمعون ، لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ، ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضله في الآخر وهو النهار ولإداء الشكر على المنفعتين معاً . واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكناً وابتغاء فصل الله بالليل ممكناً إلا أن الأليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به .

قوله تعالى ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ، ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعدوا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾

اعلم أنه سبحانه لما هجن طريقة المشركين ، أولاً : ثم ذكر التوحيد ودلائله ، ثانياً : عاد إلى تهجين طريقتهم مرة أخرى وشرح حالهم في الآخرة فقال (ويوم يناديهم) أي القيامة فيقول (أين شركائي الذين كنتم تزعمون) والمعنى أين الذين ادعيتهم إلهيتهم لتخلصكم ، أو أين قولكم تقرّبنا إلى الله زانق وقد عدوا أن لا إله إلا الله فيكون ذلك زائداً في غمهم إذا خوطبوا بهذا القول .

أما قوله (ونزعنا من كل أمة شهيداً) فالمراد هبنا واحداً ليشهد عليهم ، ثم قال بعضهم هم الأنبياء يشهدون بأنهم بلغوا القوم الدلائل وبلغوا في إيضاها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائداً في غمهم ، وقال آخرون بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس في كل زمان ويدخل في جملتهم الأنبياء وهذا أقرب لأنه تعالى عم كل أمة وكل جماعة بأن ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الأحوال التي لم يوجد فيها النبي وهي أزمنة الفترات والأزمنة التي حصلت بعد

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٧﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

محمد ﷺ فعلوا حينئذ أن الحق لله ولرسله (وضل عنهم) غاب عنهم غيبة الشيء الضائع (ما كانوا يفترون) من الباطل والكذب .

قوله تعالى ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾

اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم موسى عليه السلام ، وظاهر ذلك يدل على أنه كان ممن قد أمن به ولا يبعد أيضاً حمله على القرابة ، قال الكلبي : إنه كان ابن عم موسى عليه السلام ، لأنه كان قارون بن بصهر بن قاهث بن لاوى ، وموسى بن عمران بن قاهث بن لاوى وقال محمد بن اسحق إنه كان عم موسى عليه السلام ، لأن موسى بن عمران بن بصهر بن قاهث وقارون بن بصهر بن قاهث . وعن ابن عباس أنه كان ابن خالته ، ثم قيل إنه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة ، إلا أنه نافع كما نافع السامري .

أما قوله (فبغى عليهم) ففيه وجوه (أحدها) أنه بغى بسبب ماله ، وبغية أنه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الإيمان ولا عظيمهم مع كثرة أمواله (والثاني) أنه من الظلم ، قيل ملكه فرعون على

بنى إسرائيل فظلمهم (الثالث) قال القفال : بغى عليهم ، أى طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده (الزابع) قال الضحاك : طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوفقهم فى أمر (الخامس) قال ابن عباس تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم (السادس) قال شهر بن حوشب : بغيه عليهم أنه زاد عليهم فى الثياب شبراً ، وهذا يعود إلى التكبر (السابع) قال الكلبي : بغيه عليهم أنه حسد هرون على الحبورة ، يروى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهرون ، فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح ، وكان لموسى الرسالة ، فوجد قارون من ذلك فى نفسه ، فقال يا موسى لك الرسالة ، ولهرون الحبورة ، ولست فى شيء ولا أصبر أنا على هذا ، فقال موسى عليه السلام : والله ما صنعت ذلك لهرون ولكن الله جعله له ، فقال والله لا أصدقك أبداً حتى تأتيني بآية أعرف بها أن الله جعل ذلك لهرون ، قال فأمر موسى عليه السلام رؤساء بنى إسرائيل أن يجيء كل رجل منهم بعصاه ، فجاءوا بها ، فألقاها موسى عليه السلام فى قبة له ، وكان ذلك بأمر الله تعالى ، فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك ، فبانوا يحرسون عصيم فأصبحت عصا هرون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز ، فقال موسى يا قارون أما ترى ما صنع الله لهرون ! فقال والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر ، فاعتزل قارون ومعه ناس كثير ، وولى هرون الحبورة والمذبح والقربان ، فكان بنو إسرائيل يأتون بهداياهم إلى هرون فيضعها فى المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها ، واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والتبع من بنى إسرائيل ، فما كان يأتى موسى عليه السلام ولا يجالسه ، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال « كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى » .

أما قوله (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) ففيه أبحاث :

(الأول) قال الكعبى : أستم تقولون إن الله لا يعطى الحرام فكيف أضاف الله مال قارون إلى نفسه بقوله (وآتيناه) ؟ وأجاب بأنه لا حجة فى أنه كان حراماً ، ويجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وكنزوا فظفر قارون بذلك ، وكان هذا الظفر طريق التملك ، أو وصل إليه بالإرث من جهات ، ثم بالنكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملاً .

(البحث الثانى) المفاتيح جمع مفتاح بكسر الميم وهو ما يفتح به ، وقيل هى الخزائن وقياس واحدها مفتاح بفتح الميم ، ويقال ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله ، والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها ، فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى فى إخوة يوسف عليه السلام (ونحن عصبة) وكانوا عشرة لأن يوسف وأخاه لم يكونا معهم .

إذا عرفت معنى الألفاظ فنقول : ههنا قولان (أحدهما) أن المراد بالمفاتيح المفاتيح وهى التى يفتح بها الباب ، قالوا كانت مفاتيحه من جلود الإبل وكل مفتاح مثل إصبع ، وكان لكل خزنة مفتاح ، وكان إذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلا ، ومن الناس من طعن فى هذا القول

من وجهين (الأول) أن مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ ، ولو أنا قدرنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها أعداد قليلة من المفاتيح ، فأى حاجة إلى تكثير هذه المفاتيح (الثاني) أن الكنوز هي الأموال المدخرة في الأرض ، فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح (والجواب) عن الأول أن المال إذا كان من جنس العروض ، لا من جنس النقد جاز أن يبلغ في الكثرة إلى هذا الحد ، وأيضاً فهذا الذي يقال إن تلك المفاتيح بلغت ستين حملاً ، ليس مذكوراً في القرآن فلا تقبل هذه الرواية ، وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة ، وكان كل واحد منها معيناً لشيء آخر ، فكان يثقل على العصبية ضبطها ومعرفة سبب كثرتها ، وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد ، وعن الثاني أن ظاهر الكنز وإن كان من جهة العرف ما قالوا فقد يقع على المال المجموع في المواضع التي عليها أغلاق (القول الثاني) وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتيح على نفس المال وهذا أبين وعن الشبهة أبعد . قال ابن عباس كانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء ، وكانت خزائنه أربعمئة ألف فيحمل كل رجل عشرة آلاف (القول الثالث) وهو اختيار أبي مسلم : أن المراد من المفاتيح العلم والإحاطة كقوله (وعنده مفاتيح الغيب) والمراد آتيناها من الكنوز ما إن حفظها والإطلاع عليها ليثقل على العصبية أولى القوة والهداية ، أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظها والقائمين عليها أن يحفظوها . ثم إنه تعالى بين أنه كان في قومه من وعظه بأمر (أحدها) قوله (لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) والمراد أن لا يلحقه من البطر والتمسك بالدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلاً ، وقال بعضهم : إنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن إليها ، فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما أحسن ما قال المتنبي :

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالاً

وأحسن وأوجز منه ما قال تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) قال ابن عباس : كان فرحه ذلك شركاً ، لأنه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى (وثانيها) قوله (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) والظاهر أنه كان مقراً بالآخرة ، والمراد أن يصرف المال إلى ما يؤديه إلى الجنة ويسلك طريقة التواضع (وثالثها) قوله (ولا تنس نصيبك من الدنيا) وفيه وجوه (أحدها) لعله كان مستغرق الهم في طلب الدنيا فلأجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والالتذاذ فنراه الواعظ عن ذلك (وثانيها) لما أمره الواعظ بصرف المال إلى الآخرة بين له بهذا الكلام إنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة (وثالثها) المراد منه الإنفاق في طاعة الله فان ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذي يأكل ويشرب قال عليه السلام « فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبية قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعجب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار » (ورابعها) قوله (وأحسن كما أحسن الله إليك) لما أمره

بالإحسان بالمسال أمره بالإحسان مطلقاً ويدخل فيه الإعانة بالمسال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر ، وإنما قال (كما أحسن الله إليك) تنبيهاً على قوله (لئن شكرتم لأزيدنكم) وخامساً قوله (ولا تبغ الفساد في الأرض) والمراد ما كان عليه من الظلم والبغى وقيل إن هذا القائل هو موسى عليه السلام ، وقال آخرون بل مؤمنو قومه ، وكيف كان فقد جمع في هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد ، لكنه أبي أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال إنما أوتيته على علم عندي وفيه وجوه : (أحدها) قال قتادة ومقاتل والكلبي كان قارون أقرأ بني إسرائيل للتوراة فقال إنما أوتيته لفضل علي واستحقاقى لذلك (وثانيها) قال سعيد بن المسيب والضحاك كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون تلك العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعها قارون حتى أضاف عليهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهباً (وثالثها) أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات (ورابعها) أن يكون قوله (إنما أوتيته على علم عندي) أي الله أعطاني ذلك مع كونه عالماً بي وبأحوالي فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل وقوله (عندي) أي عندي أن الأمر كذلك ، كما يقول المفتي عندي أن الأمر كذلك أي مذهبي واعتقادي ذلك ، ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) وفيه وجهان : (الأول) يجوز أن يكون هذا إثباتاً لعلمه بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه في التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له : أولم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يفتر بكثرة ماله وقوته (الثاني) يجوز أن يكون نفيًا لعلمه بذلك كأنه لما قال أوتيته على علم عندي فتصلف بالعلم وتعظم به ، قيل أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ، ورأى نفسه به مستوجة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يبق به نفسه مصارع الهالكين ؟ .

أما قوله (وأكثر جمعاً) فالمعنى أكثر جمعاً للمسال أو أكثر جماعة وعدداً ، وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجموعه من الخطأ العظيم ، وأنه تعالى إذا أراد إهلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه أضعافاً .

فأما قوله (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) فالمراد أن الله تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها ، لأنه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به إلى السؤال ، فإن قيل كيف الجمع بينه وبين قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين) ؟ قلنا يحمل ذلك على وقتين على ما قررناه ، وذكر أبو مسلم وجهاً آخر فقال : السؤال قد يكون للمحاسبة ، وقد يكون للتقرير والتبكيك ، وقد يكون للاستعتاب ، وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله (ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ، هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذون لهم فيعتذرون) .

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ
مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ
اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ نَخَسَفْنَا بِهِ
وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى ﴿ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ، نخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ .

أما قوله (فخرج على قومه في زينته) فيدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها وليس في القرآن إلا هذا القدر ، إلا أن الناس ذكروا وجوهاً مختلفة في كيفية تلك الزينة ، قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الأرجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلبي والثياب الحمر على البغال الشهب ، وقال بعضهم بل خرج في تسعين ألفاً هكذا ، وقال آخرون بل على ثلثمائة . والأولى ترك هذه التقريرات لأنها متعارضة ، ثم إن الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا (يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون) من هذه الأمور والأموال ، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا ، وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم ، لأن الثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة ، وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاث ، قال صاحب الكشاف : ويلك أصله الدعاء بالهلاك ، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى .

أما قوله (ولا يلقاها إلا الصابرون) فقال المفسرون لا يوفق لها والضمير في يلقاها إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان : (أحدهما) إلى ما دل عليه قوله (آمن وعمل صالحاً) يعني هذه الأعمال لا يؤتاها إلا الصابرون (والثاني) قال الزجاج يعني ، ولا يلقى هذه الكلمة وهي قولهم ثواب الله خير إلا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات ، وعلى الرضا بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار .

وأما قوله (نخسفنا به وبداره الأرض) ففيه وجهان : (أحدهما) أنه لما أشر وبطر وعتا نخسف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره ، والفاء تدل على ذلك ، لأن الفاء تشعر بالعلية (وثانيها) قيل إن قارون كان يؤذى نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بني إسرائيل ، وقال إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت ، قال نهرطل فلانة البغي حتى تنسبه إلى نفسها فيرفضه بنو إسرائيل فجعل لها طستاً من ذهب مملوءاً ذهباً فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ، ومن زنى وهو [غير] محصن جلدناه وإن أحصن رجناه ، فقال قارون وإن كنت أنت ؟ قال وإن كنت أنا ، قال فان بني إسرائيل يقولون إنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله تعالى ، فقالت كذبوا بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسى ، فخر موسى ساجداً يبكي ، وقال يارب إن كنت رسولك فاغضب لي ، فأوحى الله عز وجل إليه أن مر الأرض بما شئت فانها مطيعة لك ، فقال يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ، ثم قال : يا أرض خذهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال خذهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال خذهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم ، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ، ثم قال خذهم فانطبقت الأرض عليهم فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ما أظنك استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم ، أما وعزتي لو دعوتني مرة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً . فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ، ثم إن قارون يخسف به كل يوم مائة قامة ، قال القاضي إذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الأرض إلى الأرض السابعة أو دون ذلك فانه لا يمتنع ما روى على وجه المبالغة في الزجر ، وأما قولهم إنه تعالى قال لو استغاث بي لأعنته ، فان صح حمل على استغاثته مقرونة بالتوبة فأما وهو ثابت على ما هو عليه مع أنه تعالى هو الذي حكم بذلك الخسف لأن موسى عليه السلام ما فعله إلا عن أمره فبعيد ، وقولهم إنه يتجلجل في الأرض أبداً . فعيد لأنه لا بد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات ، والذي عندي في أمثال هذه الحكايات أنها قليلة الفائدة لأنها من باب أخبار الآحاد فلا تفيد اليقين ، وليست المسألة مسألة عملية حتى يكتفى فيها بالظن ، ثم إنها في أكثر الأمر متعارضة مضطربة فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب .

أما قوله (وما كان من المنتصرين) فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
 لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَآ أَنْ مِنْ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ
 لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ «٨٢» تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا
 فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ «٨٣»

الله تعالى يقال نصره من عدوه فانتصر ، أى منعه منه فامتنع .

قوله تعالى ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكانه لا يفلح الكافرون ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه السلام وداعياً إلى الرضا بقضاء الله تعالى وقسمته وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبياء الله ورسوله .

أما قوله (ويكان الله) فاعلم أن وى كلمة مفصولة عن كأن وهى كلمة مستعملة عند التنبيه للخطأ وإظهار التندم ، فلما قالوا (ياليت لنا مثل ما أوتي قارون) ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا وى ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ، ويضيق على من يشاء لاهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة (قال سيوييه) سألت الخليل عن هذا الحرف فقال إن وى مفصولة من كان وأن القوم تنبهوا وقالوا امتندمين على ما سلف منهم وى . وذكر الفراء وجهين (أحدهما) أن المعنى ويلىك فحذف اللام وإنما جاز هذا الحذف لكثرتها فى الكلام وجعل أن مفتوحة بفعل مضمرة كأنه قال ويلىك اعلم أن الله ، وهذا قول قطرب حكاه عن يونس (الثانى) وى مفصولة من كأن وهو للتعجب يقول الرجل لغيره وى أما ترى ما بين يديك فقال الله وى ثم استأنف كان الله يبسط فالله تعالى إنما ذكرها تعجيباً لخلقه ، قال الواحدي وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ما قالوه لكتبوها منفصلة ، وأجاب الأولون بأن خط المصحف لا يقاس عليه ، ثم قالوا (لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكانه لا يفلح الكافرون) وهذا تأكيد لما قبله .

أما قوله (تلك الدار الآخرة) فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعنى تلك التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما ، وعن على

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمَلُوا
 السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٨٤» إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِنْ لَرَأَدَكَ إِلَى
 مَعَادِ قَلِّ رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ جَاءٍ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ «٨٥» وَمَا كُنْتَ
 تُرْجَوُ أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ
 «٨٦» وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدَعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا
 تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «٨٧» وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ
 هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «٨٨»

عليه السلام : إن الرجل ليعجبه أن يكون شرك نعله أجود من شرك نعل صاحبه فيدخل تحتها ،
 قال صاحب الكشاف : ومن الطماع من يحمل العلو لفرعون لقوله (إن فرعون علا في الأرض)
 والفساد لقارون لقوله (ولا تبغ الفساد في الأرض) ويقول من لم يكن مثل فرعون وقارون
 فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قرله (والعاقبة للمتقين) كما تدبره علي بن أبي طالب عليه السلام
 قوله تعالى ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسبيئة فلا يجزي الذين عملوا السيئات
 إلا ما كانوا يعملون ، إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى
 ومن هو فى ضلال مبين ، وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن
 ظهيراً للكافرين ، ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن
 من المشركين ، ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه
 ترجعون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن الدار الآخرة ليست لمن يريد علواً فى الأرض ولا فساداً ، بل هى
 للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم فقال (من جاء بالحسنة فله خير منها) وفيه وجوه (أحدها)
 المعنى من جاء بالحسنة حصل له من تلك الكلمة خير (وثانيها) حصل له شىء هو أفضل من تلك
 الحسنة ، ومعناه أنهم يزدون على ثوابهم وقد مر تفسيره فى آخر النمل ، وأما قوله (ومن جاء بالسبيئة
 فلا يجزي الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) فظاهره أن لا يزدوا على ما يستحقون .

وإذا صح ذلك في السيئات دل أن المراد في الحسنات بما هو خير منها ما ذكرناه من مزيد الفضل على الثواب ، قال صاحب الكشاف تقدير الآية : ومن جاء بالسيئة فلا يجزون إلا ما كانوا يعملون ، لكنه كرر ذلك لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ، وهذا من فضله العظيم أنه لا يجزى بالسيئة إلا مثلها ، ويجزى بالحسنة عشر أمثالها ، وههنا سؤالان :

(السؤال الأول) قال تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) كرر ذلك الإحسان واكتفى بذكر الإساءة بمرة واحدة ، وفي هذه الآية كرر ذكر الإساءة مرتين واكتفى في ذكر الإحسان بمرة واحدة ، فما السبب ؟ (الجواب) لأن هذا المقام مقام الترغيب في الدار الآخرة ، فكانت المبالغة في الزجر عن المعصية لائحة بهذا الباب ، لأن المبالغة في الزجر عن المعصية مبالغة في الدعوة إلى الآخرة . وأما الآية الأخرى فهي شرح حالهم فكانت المبالغة في ذكر محاسنهم أولى .

(السؤال الثاني) كيف قال : لا تجزى السيئة إلا بمثلها ؟ مع أن المتكلم بكلمة الكفر إذا مات في الحال عذب أبد الآباد (والجواب) لأنه كان على عزم أنه لو عاش أبدأ لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه . قال الجبائي : وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى أن يعذب الأطفال عذاباً دائماً بغير جرم ، قلنا لا يجوز أن يفعله وليس في الآية ما يدل عليه ، ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة واستقصى في ذلك ، شرح له ما يتصل بأحواله فقال (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) قال أبو علي : الذي فرض عليك أحكامه وفرائضه لرادك بعد الموت إلى معاد ، وتنكير المعاد لتعظيمه ، كأنه قال إلى معاد وأي معاد ، أي ليس لغيرك من البشر مثله ، وقيل المراد به مكة ، ووجهه أن يراد برده إليها يوم الفتح ، ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله ﷺ عليها وقهره لأهلها وإظهار عز الإسلام وإذلال حزب الكفر والسورة مكية ، فكان أن الله تعالى وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً . وقال مقاتل : إنه عليه السلام خرج من الغار وسار في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : تشتاق إلى بلدك ومولدك ، فقال عليه السلام : نعم ، فقال جبريل عليه السلام : فإن الله تعالى يقول (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) يعني إلى مكة ظاهراً عليهم وهذا أقرب ، لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل العود ، وذلك لا يليق إلا بمكة ، وإن كان سائر الوجوه محتملاً لكن ذلك أقرب ، قال أهل التحقيق : وهذا أحد ما يدل على نبوته ، لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزاً ، ثم قال (قل ربي أعلم من جاء بالهدي ومن هو في ضلال مبين) ووجه تعلقه بما قبله أن

الله تعالى لما وعد رسوله الرد إلى معاد ، قال (قل) للمشركين (ربي أعلم من جاء بالهدى) يعنى نفسه وما يستحقه من الثواب فى المعاد والإعزاز بالإعادة إلى مكة (ومن هو فى ضلال مبين) يعنىهم وما يستحقون من العقاب فى معادهم ، ثم قال لرسوله (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) فى كلمة إلا وجهان (أحدهما) أنها للاستثناء ، ثم قال صاحب الكشاف : هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل (وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) ويمكن أيضاً إجراؤه على ظاهره ، أى وما كنت ترجو إلا أن يرحمك الله برحمته فينعم عليك بذلك ، أى ما كنت ترجو إلا على هذا (وأنوجه الثانى) أن إلا بمعنى لكن للاستدراك ، أى ولكن رحمة من ربك ألقى إليك ونظيره قوله (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك) خصصك به ، ثم إنه كلفه بأمور (أحدها) كلفه بأن لا يكون مظاهراً للكفار فقال (فلا تكونن ظهيراً للكافرين) (وثانيها) أن قال (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) الميل إلى المشركين ، قال الضحاك وذلك حين دعوه إلى دين آباءه ليزوجوه ويقاسموه شطراً من ما لهم ، أى لا تلتفت إلى هؤلاء ولا تركزن إلى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله (وثالثها) قوله (وادع إلى ربك) أى إلى دين ربك ، وأراد التشدد فى دعاء الكفار والمشركين ، فلذلك قال (ولا تكونن من المشركين) لأن من رضى بطريقتهم أو مال إليهم كان منهم (ورابعها) قوله (ولا تدع مع الله إلهاً آخر) وهذا وإن كان واجباً على الكل إلا أنه تعالى خاطبه به خصوصاً لأجل التعظيم ، فإن قيل الرسول كان معلوماً منه أن لا يفعل شيئاً من ذلك البتة فما فائدة هذا النهى ؟ قلنا لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره ، ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلاً فى أمورك ، فإن من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه فى التوحيد ، ثم بين أنه لا إله إلا هو ، أى لا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع إلا هو ، كقوله (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذوه وكيلاً) فلا يجوز اتخاذ إله سواه ، ثم قال (كل شيء هالك إلا وجهه) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) اختلفوا فى قوله (كل شيء هالك) فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم ، والمعنى أن الله تعالى يعدم كل شيء سواه ، ومنهم من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعاً به ، إما بالإماتة أو بتفريق الأجزاء ، وإن كانت أجزاءه باقية ، فانه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه ، بل خروجه عن كونه منتفعاً به ، ومنهم من قال : معنى كونه هالكا كونه قابلاً للهلاك فى ذاته ، فان كل ما عداه يمكن الوجود لذاته وكل ما كان يمكن الوجود كان قابلاً للعدم فكان قابلاً للهلاك ، فأطلق عليه اسم الهلاك نظراً إلى هذا الوجه .

واعلم أن المتكلمين لما أرادوا إقامة الدلالة على أن كل شيء سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا : ثبت أن العالم محدث ، وكل ما كان محدثاً فان حقيقته قابلة للعدم والوجود ، وكل ما كان كذلك وجب أن يبقى على هذه الحالة أبداً ، لأن الإمكان من لوازم الماهية ، ولازم الماهية

لا يزول قط ، إلا أنا لما نظرنا في هذه الدلالة ما وجدناها وافية بهذا الغرض ، لأنهم إنما أقاموا الدلالة على حدوث الأجسام والأعراض ، فلو قدروا على إقامة الدلالة على أن ماسوى الله تعالى إما متحيز أو قائم بالمتحيز لم غرضهم ، إلا أن الخصم يثبت موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز ، فالدليل الذى يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ماسوى الله تعالى إلا بعد قيام الدلالة على نفي ذلك القسم الثالث ، ولهم في نفي هذا القسم الثالث طريقان (أحدهما) قولهم لا دليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة بينا سقوطها في السكتب الكلامية (والثانى) قولهم لو وجد موجود هكذا لكان مشاركا لله تعالى في نفي المكان والزمان والإمكان ، ولو كان كذلك لصار مثالا لله تعالى وهو ضعيف ، لاحتمال أن يقال إنهما وإن اشتركا في هذا السلب إلا أنه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بمهنية وحقيقة ، وإذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلى لا يفي بإثبات أن كل شيء هالك إلا وجهه ، والذى يعتمد عليه في هذا الباب أن نقول ثبت أن صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته ، وإلا لاشتركا في الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته ، وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركباً عما به المشاركة وعما به الممايزة وكل مركب ممكن مفتقر إلى جزئه ، ثم إن الجزأين إن كانا واجبين كانا مشتركين في الوجوب ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركيب كل واحد منهما أيضاً ويلزم التسلسل وهو محال ، وإن لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر إليهما أولى أن لا يكون واجباً ، فثبت أن واجب الوجود واحد وأن كل ما عداه فهو ممكن وكل ممكن فلا بد له من مرجح ، وافتقاره إلى المرجح ، إما حال عدمه أو حال وجوده ، فإن كان الأول ثبت أنه محدث ، وإن كان الثانى فافتقار الموجود إلى المؤثر ، إما حال حدوثه أو حال بقاءه ، والثانى باطل لأنه يلزم إيجاد الموجود وهو محال . فثبت أن الافتقار لا يحصل إلا حال الحدوث ، و ثبت أن كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزاً أو قائماً بالمتحيز أو لا متحيزاً ولا قائماً بالمتحيز ، فان نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته ، فاعلم أن هناك فرقا قوياً وإذا ثبت حدوث كل ما سواه و ثبت أن كل ما كان محدثاً كان قابلاً للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر أن كل شيء هالك إلا وجهه ، بمعنى كونه قابلاً للهلاك والعدم ، ثم إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا هذا أولى وذلك لأنه سبحانه حكم بكونها هالكة في الحال ، وعلى ما قلناه فهي هالكة في الحال ، وعلى ما قلتموه أنها ستهلك لأنها هالكة في الحال ، فكان قولنا أولى وأيضاً فالممكن إذا وجد من حيث هو لم يكن مستحقاً للوجود ولا للعدم من ذاته ، فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته ، وأما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالإنسان الفقير الذى استعار ثوباً من رجل غنى ، فان الفقير لا يخرج بسبب ذلك عن كونه فقيراً كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هي هي ، وإنما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح أنها أبدأ هالكة من حيث هي هي ، أما الذين حملوه على أنها

ستعدم فقد احتجوا بأن قالوا : الهلاك في اللغة له معنيان (أحدهما) خروج الشيء عن أن يكون منتفعاً به (والثاني) الفناء والعدم لا جائز حمل اللفظ على الأول لأن هلاكها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال ، لأنها وإن تفرقت أجزاءها فإنها منتفع بها لأن النفع المطلوب كونها بحيث يمكن أن يستدل بها على وجود الصانع القديم ، وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة أو مجتمعة ، وسواء بقيت موجودة أو صارت معدومة . وإذا تعذر حمل الهلاك على هذا الوجه وجب حمله على الفناء . أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال : هلاك الشيء خروجه عن المنفعة التي يكون الشيء مطلوباً لأجلها ، فإذا مات الإنسان قيل هلك لأن الصفة المطلوبة منه حياته وعقله ، وإذا تمزق الثوب قيل هلك ، لأن المقصود منه صلاحته للباس ، فإذا تفرقت أجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التي لأجلها كانت منتفعاً بها انتفاعاً خاصاً ، فلا جرم صح إطلاق اسم الهالك عليها فأما صحة الإستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منتفعة خاصة بالشمس من حيث هي شمس والقمر من حيث هو قمر ، فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء أجزاء العالم بقوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وهذا صريح بأن تلك الأجزاء باقية إلا أنها صارت متصفة بصفة أخرى فهذا ما في هذا الموضوع .

(المسألة الثانية) احتج أهل التوحيد بهذه الآية على أن الله تعالى شيء ، قالوا لأنه استثنى من قوله (كل شيء) استثناء يخرج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت اللفظ ، فوجب كونه شيئاً يؤكد ما ذكرناه في سورة الأنعام ، وهو قوله (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله) واحتجاجهم على أنه ليس بشيء بقوله (ليس كمثل شيء) والكاف معناه المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شيء ومثل مثل الله هو الله فوجب أن لا يكون الله شيئاً ، جوابه : أن الكاف صلة زائدة .

(المسألة الثالثة) استدلت المجسمة بهذه الآية على أن الله تعالى جسم من وجهين (الأول) قالوا الآية صريحة في إثبات الوجه وذلك يقتضي الجسمية (والثاني) قوله (وإليه ترجعون) وكلمة إلى لا تنهيه الغاية وذلك لا يعقل إلا في الأجسام (والجواب) لو صح هذا الكلام يلزم أن يفنى جميع أعضائه وأن لا يبقى منه إلا الوجه ، وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة . وهو بيان ابن سمان وذلك لا يقول به عاقل ، ثم من الناس من قال الوجه هو الوجود والحقيقة يقال وجه هذا الأمر كذا أي حقيقته ، ومنهم من قال الوجه صلة ، والمراد كل شيء هالك إلا هو ، وأما كلمة إلى فالمعنى وإلى موضع حكمه وقضائه ترجعون .

(المسألة الرابعة) استدلت المعتزلة به على أن الجنة والنار غير مخلوقتين ، قالوا لأن الآية تقتضي فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا ، وهذا يناقض قوله تعالى في صفة الجنة (أكلفها دائم) (والجواب) هذا معارض بقوله تعالى في صفة الجنة (أعدت للمقين) وفي صفة النار (وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) ثم إما أن يحمل قوله (كل شيء هالك) على الأكثر ، كقوله

(سورة العنكبوت)

مكية وقيل مدنية وقيل نزلت من أولها إلى رأس عشر بمكة وباقيها بالمدينة أو نزل إلى آخر العشر بالمدينة وباقيها بمكة بالعكس ، وهي سبعون أو تسع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ « ٢ »

(وأوتيت من كل شيء) أو يجمل قوله (أكلها دائم) على أن زمان فنائهما لما كان قليلا بالنسبة إلى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه .

(المسألة الخامسة) قوله (كل شيء هالك) يدل على أن الذات ذات بالفعل ، لأنه حكم بالهلاك على الشيء فدل على أن الشيء في كونه شيئاً قابل للهلاك ، فوجب أن لا يكون المعدوم شيئاً والله أعلم . والحمد لله رب العالمين .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) في تفسير الآية وفيما يتعلق بالتفسير مسائل :

(المسألة الأولى) في تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه (الأول) لما قال الله تعالى قبل هذه السورة (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وكان المراد منه أن يرده إلى مكة ظاهراً غالباً على الكفار ظافراً طالباً للنار ، وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) ولا يؤمروا بالجهاد (الوجه الثاني) هو أنه تعالى لما قال في أواخر السورة المتقدمة (وادع إلى ربك) وكان في الدعاء إليه الطعان والحراب والضراب ، لأن النبي عليه السلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال (أحسب الناس أن يتركوا) (الوجه الثالث) هو أنه تعالى لما قال في آخر السورة المتقدمة (كل شيء هالك إلا وجهه) ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال (له الحكم وإليه ترجعون) يعني ليس كل شيء هالكاً من غير رجوع بل كل هالك وله رجوع إلى الله . إذا تبين هذا ، فاعلم أن منكري الحشر يقولون لافائدة في التكليف فإنها مشاق في الحال ولا فائدة لها في المال إذ لا مال ولا مرجع بعد الهلاك والزوال ، فلا فائدة فيها . فلما بين الله أنهم إليه يرجعون بين أن الأمر ليس على ما حسبه ، بل حسن التكليف ليثيب

الشكور ويعذب الكفور فقال (أحسب الناس أن يتركوا) غير مكلفين من غير عمل يرجعون به إلى ربهم .

(المسألة الثانية) في حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجي ، ولتقدم عليه كلاماً كلياً في افتتاح السور بالحروف فنقول : الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليلتفت المخاطب بسببه إليه ويقبل بقلبه عليه ، ثم يشرع في المقصود . إذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاماً له معنى مفهوم ، كقول القائل اسمع ، واجعل بالك إلى ، وكن لي . وقد يكون شيئاً هو في معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد ويازيد وألا يازيد ، وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتاً غير مفهوم كمن يصفر خاف إنسان ليلتفت إليه ، وقد يكون ذلك الصوت بغير الفهم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه . ثم إن موقع الغفلة كما كان أتم والكلام المقصود كان أهم ، كان المقدم على المقصود أكثر . ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بيا فيقال يازيد ، والغافل ينبه أولاً فيقال إلا يازيد . إذا ثبت هذا فنقول إن النبي ﷺ وإن كان يقظان الجنان لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هي كالمنبهات ، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى ، لأن تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فإذا كان ذلك المقدم كلاماً منظوماً وقولاً مفهوماً فإذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الإلتفات عنه ، أما إذا سمع منه صوتاً بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود ، فاذن تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع على الكلام المقصود فيه حكمه بالغة ، فإن قال قائل فما الحكمة في اختصاص بعض السور بهذه الحروف ؟ فنقول عقل البشر عن إدراك الأشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله أعلم بجميع الأشياء ، لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول كل سورة في أوائلها حروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى (ألم ذلك الكتاب) (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب) ، (المص كتاب أنزل إليك) ، (يس القرآن) ، (ص القرآن) (ق القرآن) ، (ألم تنزيل الكتاب) ، (حم تنزيل الكتاب) إلا ثلاثة سور (كهيعص) ، (ألم أحسب الناس) ، (ألم غلبت الروم) والحكمة في افتتاح السور التي فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هي أن القرآن عظيم والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلاً) وكل سورة في أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه ، لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظاً أو لم يكن ، فكان الواجب أن يكون في أوائل كل سورة منه ، وأيضاً فقد وردت

سور فيها ذكر الإنزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) وقوله (سورة أنزلناها) وقوله (تبارك الذي نزل الفرقان) وقوله (إنا أنزلناه في ليلة القدر) لانا نقول جواباً عن الأول لا ريب في أن كل سورة من القرآن لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فإن قوله تعالى (طه ما أنزلنا عليك القرآن) مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما ، وكتاب آخر يرد منه عليه فيه : إنا كتبنا إليك كتباً إليك كتباً فيها أوامرنا فامتثلها ، لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الأول وعن الثاني أن قوله (الحمد لله ، وتبارك الذي) تسيحات مقصودة وتسيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج إلى منبه بخلاف الأوامر والنواهي ، وأما ذكر الكتاب فيها فليبان وصف عظمة من له التسيح (وسورة أنزلناها) قد بينا أنها من القرآن فيها ذكر انزالها وفي السورة التي ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم في النفس وأثقل .

وأما قوله تعالى (إنا أنزلناه) فنقول هذا ليس واردة على مشغول القلب بشئ غيره بدليل أنه ذكر الكناية فيها وهي ترجع إلى مذكور سابق أو معلوم وقوله (إنا أنزلناه) الهاء راجع إلى معلوم عند النبي ﷺ فكان متنبهاً له فلم ينبه ، وأعلم أن التنبيه قد حصل في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها كما في قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) وقوله (يا أيها النبي اتق الله ، ويا أيها النبي لم تحرم) لأنها أشياء هائلة عظيمة ، فإن تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذي يكون للبعيد الغافل عنها تنبهاً ، وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الإبتداء بالكتاب والقرآن ، وذلك لأن القرآن ثقله وعبئه بما فيه من التكليف والمعاني ، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكليف حيث قال (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً) يعني لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكليف فوجد المعنى الذي في السور التي فيها ذكر القرآن المشتغل على الأوامر والنواهي فإن قيل مثل هذا الكلام ، وفي معناه ورد في سورة التوبة وهو قوله تعالى ؟ (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) ولم يقدم عليه حروف التهجي فنقول الجواب عنه في غاية الظهور ، وهو أن هذا ابتداء كلام ، ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال (أحسب) وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون في أول الكلام لا في أثنائه ، وأما (ألم غلبت الروم) فسيجيء في موضعه إن شاء الله تعالى هذا تمام الكلام في الحروف .

(المسألة الثالثة) في إعراب (ألم) وقد ذكر تمام ذلك في سورة البقرة مع الوجوه المنقولة في تفسيره ونزيد هنا على ما ذكرناه أن الحروف لا إعراب لها لأنها جارية مجرى الأصوات المنبهة .

(المسألة الرابعة) في سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال : (الأول) أنها نزلت في عمار ابن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة (الثاني)

أنها نزلت في أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون (الثالث) أنها نزلت في مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر .

(المسألة الخامسة) في التفسير قوله (أحسب الناس أن يتركوا) يعني أظنوا أنهم يتركون بمجرد قولهم (آمنا وهم لا يفتنون) لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية ، واختلف أئمة النحو في قوله (أن يقولوا) فقال بعضهم : أن يتركوا بأن يقولوا ، وقال بعضهم : أن يتركوا يقولون آمنا ، ومقتضى ظاهر هذا أنهم يمنعون من قولهم آمنا ، كما يفهم من قول القائل تظن أنك تترك أن تضرب زيد أي تمنع من ذلك ، وهذا بعيد فإن الله لا يمنع أحداً من أن يقول آمنت ، ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بإيجاب الفرائض عليهم .

(المسألة السادسة) في الفوائد المعنوية وهي أن المقصود الأقصى من الخلق العبادة والمقصد الأعلى في العبادة حصول محبة الله كما ورد في الخبر « لا يزال العبد يتقرب إلى بالعبادة حتى أحبه وكل من كان قلبه أشد امتلاءً من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله ، لكن للقلب ترجمان وهو اللسان ، ولللسان مصدقات هي الأعضاء ، ولهذا المصدقات مزيكات فإذا قال الإنسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة الله في الجنان ، فلا بد له من شهود فإذا استعمل الأركان في الإتيان بما عليه بنیان الإيمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فإذا بذل في سبيل الله نفسه وماله ، وزكى بترك ما سواه أعماله ، زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله ، فيحرر في جرائد المحبين اسمه ، ويقرر في أقسام المقربين قسمه ، وإليه الإشارة بقوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعني أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزيكين ، بل لا بد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين .

(فائدة ثانية) وهي أن أدنى درجات العبد أن يكون مسلماً فإن مادونه دركات الكفر ، فالإسلام أول درجة تحصل للعبد فإذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه ، لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضاً في شغله ماضياً في فعله ، فينقل من خدمة إلى خدمة أعلى منها مرتبة ، ومنهم من يكون كسلاناً متخلفاً فينقل من خدمة إلى خدمة أدنى منها ، ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير ، ومنهم من يقطع رسمه ويمحى من الجرائد اسمه ، فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عبداً مقبلاً على العبادة مقبولاً للسعادة فينقل من مرتبة المؤمنين إلى درجة الموقنين وهي درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلاً بالخلاعة ، فينقل إلى مرتبة دونه وهي مرتبة العصاة ومنزلة القساء ، وقد يستصغر العيوب ويستكثر الذنوب فيخرج من العبادة محروماً ويلحق بأهل العناد مرجوماً ، ومنهم من يبقى في أول درجة الجنة وهم البله ، فقال الله بشاره للطبيع الناهض (أحسب الناس أن يتركوا) يعني أظنوا أنهم يتركون في أول المقامات لا ، بل ينقلون إلى أعلى الدرجات كما قال تعالى (والذين أوتوا العلم درجات) (فضل الله المجاهدين على القاعدین درجة) . وقال بضده للكسلان (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعني إذا قال آمنت ويتخلف

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾

بالعصيان يترك ويرضى منه ، لابل ينقل إلى مقام أدنى وهو مقام العاصي أو الكافر .
ثم قال تعالى ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ .
ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم (آمنا)
بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم وفي قوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) وجوه : (الأول)
قول مقاتل فليرين الله (الثاني) فليظهن الله (الثالث) فليميزن الله ، فالحاصل على هذا هو أن
المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجديد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل
الامتحان ، فكيف يمكن أن يقال بعلمه عند الامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها وذلك أن علم
الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع ، فقبل التكليف كان الله يعلم أن زيدا مثلاً سيطيع
وعمرأ سيعصى ، ثم وقت التكليف والaitان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الايتان يعلم أنه
أطاع والآخر عصى ولا يتغير عليه في شيء من الأحوال ، وإنما المتغير المعلوم ونبين هذا بمثال
من الحسيات والله المثل الأعلى ، وهو أن المرأة الصافية الصقيله إذا علفت من موضع وقوبل بوجهها
جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابساً ثوباً أبيض ظهر فيها زيد في ثوب أبيض ، وإذا عبر عليها
عمر في لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع في ذهن أحد أن المرأة في كونها حديداً تغيرت ،
أو يقع له أنها في تدويرها تبدلت ، أو يذهب فهمه إلى أنها في صقاتها اختلفت أو يخطر بباله أنها
عن سكانها انتقلت ، لا يقع لأحد شيء من هذه الأشياء ويقطع بأن المتغير الخارجات ، فافهم علم
الله من هذا المثال بل أعلى من هذا المثال ، فإن المرأة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك
فقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) يعني يقع بمن يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك
العلم (وليعلمن الكاذبين) يعني من قال أنا مؤمن وكان صادقاً عند فرض العبادات يظهر منه ذلك
ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقاً كذلك يبين ، وفي قوله (الذين صدقوا) بصيغة الفعل وقوله
(الكاذبين) باسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف في اللفظ أدل على الفصاحة ، وهي أن اسم الفاعل
يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضي لا يدل عليه
كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر فإنه لا يفهم من
صيغة الفعل التكرار والرسوخ ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك إذا ثبت هذا فنقول وقت نزول
الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالاسلام في أوائل إيجاب التكليف وعن قوم مستديمين
للكفر مستمرين عليه فقال في حق المؤمنين (الذين صدقوا) بصيغة الفعل أي وجد منهم الصدق
وقال في حق الكافر (الكاذبين) بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال (يوم ينفع
الصادقين صدقهم) بلفظ اسم الفاعل ، وذلك لأن في اليوم المذكور الصدق قد يرسخ في قلب

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾
 مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾

المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك في أوائل الإسلام .

ثم قال تعالى ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾
 لما بين حسن التكليف بقوله (أحسب الناس أن يتركوا) بين أن من كلف بشيء ولم يأت
 به يعذب وإن لم يعذب في الحال فسيعذب في الإستقبال ولا يفوت الله شيء في الحال ولا في
 المآل ، وهذا إبطال مذهب من يقول التكليف إرشادات والإيعاد عليه ترغيب وترهيب ولا
 يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ما كان عاجزاً عن العذاب عاجلاً فلم كان يؤخر العقاب فقال
 تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) يعنى ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب
 ويثيب من يثيب بحكم الوعد والإيعاد والله لا يخلف الميعاد ، وأما الإمهال فلا يفضى إلى الإهمال
 والتعجيل في جزاء الأعمال شغل من يخاف الفوت لولا الإستعجال .

ثم قال تعالى (ساء ما يحكمون) يعنى حكمهم بأنهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون
 حكم سيء فإن الحكم الحسن لا يكون إلا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك
 فإن الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه ، فحكمهم حكم في غاية السوء والرداءة .

ثم قال ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾

لما بين بقوله : أحسب الناس أن العبد لا يترك في الدنيا سدى ، وبين في قوله (أم حسب
 الذين يعملون السيئات) أن من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن يعترف بالآخرة ويعمل لها
 لا يضيع عمله ولا يخيب أمله ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنا ذكرنا في مواضع أن الأصول الثلاثة وهى الأول وهو الله تعالى
 ووحدانيته والأصل الآخر وهو اليوم الآخر والأصل المتوسط وهو النبي المرسل من الأول
 الموصل إلا الآخر لا يكاد ينفصل في الذكر الإلهى بعضها عن بعض ، فقوله (أحسب الناس أن
 يتركوا أن يقولوا آمنا) فيه إشارة إلى الأصل الأول يعنى أظنوا أنه يكفى الأصل الأول وقوله
 (وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم) يعنى بإرسال الرسل وإيضاح السبل فيه إشارة إلى
 الأصل الثانى وقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) مع قوله (من كان يرجو لقاء الله) فيه
 إشارة إلى الأصل الثالث وهو الآخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر بعض المفسرين في تفسير لقاء الله أنه الرؤية وهو ضعيف فإن اللقاء
 والملاقاة بمعنى وهو في اللغة معنى الوصول حتى أن جمادين إذا توأصلا فقد لاقى أحدهما الآخر .

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ « ٦ »

(المسألة الثالثة) قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله (من كان يرجو لقاء الله) من كان يخاف الله وهو أيضاً ضعيف ، فان المشهور في الرجاء هو توقع الخير لا غير ولانا أجمعنا على أن الرجاء ورد بهذا المعنى يقال أرجو فضل الله ولا يفهم منه أخاف فضل الله ، وإذا كان وارداً لهذا لا يكون لغيره دفعاً للاشتراك .

(المسألة الرابعة) يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالحشر ، فان كان هو الموت فهذا ينبي عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد في الأخبار وذلك لأن القائل إذا قال من كان يرجو الخير فان السلطان واصل يفهم منه أن متصلاً بوصول السلطان يكون هو الخير حتى أنه لو وصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل ، أما قلت ما قلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير ، فلوم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا في المثال ، وإذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء .

(المسألة الخامسة) قوله (من كان يرجو) شرط وجزاؤه (فان أجل الله لآت) والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لا يرجو لقاء الله لا يكون أجل الله آتياً له ، وهذا باطل فما الجواب عنه ؟ نقول المراد من ذكر إتيان الأجل وعد المطيع بما بعده من الثواب ، يعني من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتياً على وجه يثاب هو .

(المسألة السادسة) قال (وهو السميع العليم) ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما ، وذلك لأنه سبق القول في قوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا) وسبق الفعل بقوله (وهم لا يفتنون) وبقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) وبقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك به كالقصور والعلم يشعلهما وهو السميع يسمع ما قالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال (من كذب) وأيضاً عليم يعلم ما يعمل فيثيب ويعاقب وههنا لطيفة وهي أن العبد له ثلاثة أمور هي أصناف حسناته (أحدها) عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع ، وإنما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فاذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله لمسموعه ما لا أذن سمعت ، ولمرئيه ما لا عين رأت ، ولععمل قلبه ما لا خطر على قلب أحد ، كما وصف في الخبر في وصف الجنة .

ثم قال تعالى (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين)
لما بين أن التكليف حسن واقع وأن عليه وعداً وإيعاداً ليس لهادافع ، بين أن طلب الله ذلك

من المكلف ليس لنفع يعود إليه فإنه غنى مطلقاً ليس شيء غيره يتوقف كما له عليه ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه) وقوله تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان إكثار العبد من العمل الصالح واثقانه له ، وذلك لأن من يفعل فعلاً لأجل ملك ويعلم أن الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه ، وإذا علم أن نفعه له ومقدر بقدر عمله يكثر منه ، فإذا قال الله إنه سميع عليم فالعبد يتقن عمله ويخلصه له وإذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه .

(المسألة الثانية) لقائل أن يقول هذا يدل على أن الجزاء على العمل لأن الله تعالى لما قال (من جاهد فانما يجاهد لنفسه) فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده ما لولاه لما ربح فنقول هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالاستحقاق ، وبيانه هو أن الله تعالى لما بين أن المكلف إذا جاهد يشبه فإذا أتى به هو يكون جهاداً نافعاً له ولا نزاع فيه ، وإنما النزاع في أن الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد ، ولا يجوز أن يحسن إلى أحد إلا بالعمل ولا دلالة للآية عليه .

(المسألة الثالثة) قوله (فانما) يقتضى الحصر فينبغي أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك فإن من جاهد ينتفع به ومن يريد ونفعه ، حتى أن الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان فنقول ذلك نفع له فإن انتفاع الولد انتفاع للأب والحصر ههنا معناه أن جهاده لا يصل إلى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى (إن الله لغنى عن العالمين) وفيه مسائل :

(الأولى) تدل الآية على أن رعاية الأصلح لا يجب على الله لأنه بالأصلح لا يستفيد فائدة وإلا لكان مستكماً بتلك الفائدة وهي غيره وهي من العالم فيكون مستكماً بغيره فيكون محتاجاً إليه وهو غنى عن العالمين ، وأيضاً أفعاله غير معللة لما بينا .

(المسألة الثانية) تدل الآية على أنه ليس في مكان وليس على العرش على الخصوص فإنه من العالم والله غنى عنه والمستغنى عن المكان لا يمكن دخوله في مكان لأن الداخل في المكان يشار إليه بأنه ههنا أو هناك على سبيل الإستقلال ، وما يشار إليه بأنه ههنا أو هناك يستحيل أن لا يوجد لا ههنا ولا هناك وإلا لجوز العقل إدراك جسم لافي مكان وإنه محال .

(المسألة الثالثة) لو قال قائل ليست قدرته بقدرة ولا عالميته بعلم وإلا لكان هو في قدرته محتاجاً إلى قدرة هي غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجاً وهو غنى ، نقول لم قلت إن قدرته من العالم وهذا لأن العالم كل موجود سوى الله بصفاته أي كل موجود هو خارج عن مفهوم الإله الحى القادر المرید العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر ، والعلم ليس خارجاً عن مفهوم العالم .

(المسألة الرابعة) الآية فيها بشارة وفيها إنذار ، أما الإنذار فلأن الله إذا كان غنياً عن

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ « ۷ »

العالمين فلو أهلك عباده بعذابه فلا شيء عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم ، وأما البشارة فلأنه إذا كان غنياً ، فلو أعطى جميع ما خلقه لعبده من عباده لا شيء عليه لاستغناؤه عنه ، وهذا يوجب الرجاء التام .

ثم قال تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذين كانوا يعملون ﴾

لما بين إجمالاً أن من يعمل صالحاً فلنفسه بين مفصلاً بعض التفصيل أن جزاء المطيع الصالح عمله فقال (والذين آمنوا) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنها تدل على أن الأعمال مغايرة للإيمان لأن العطف يوجب التغاير .
﴿ المسألة الثانية ﴾ أنها تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان لأن تكفير السيئات والجزاء بالأحسن معلق عليها وهي ثمرة الإيمان ، ومثال هذا شجرة مثمرة لا شك في أن عروقها وأغصانها منها ، والماء الذي يجري عليها والتراب الذي حوالها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل إلا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الإيمان وأيضاً الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والأشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وإن غلبتها عدت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالإيمان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الإيمان هو التصديق كما قال (وما أنت بمؤمن لنا) أي بمصدق واختص في استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله ﷺ على سبيل التفصيل إن علم مفصلاً أنه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الإجمال فيما لم يعلم ، والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحاً بأمره ، ولو نهى عنه لما كان صالحاً فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل في نفسه ، وقالت المعتزلة ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الأمر والنهي ، فالصدق عمل صالح في نفسه ويأمر الله به لذلك ، فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الأمر والنهي ، وعندهم الأمر والنهي يترتب على الحسن والقبح والمسألة بطولها في [كتب] الأصول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ العمل الصالح باق لأن الصالح في مقابلة الفاسد والفساد هو الهالك التالف ، يقال فسدت الزروع إذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هي بعد سالحة أي باقية على ما ينبغي . إذا علم هذا فنقول العمل الصالح لا يبقى بنفسه لأنه عرض ، ولا يبقى بالعامل أيضاً لأنه هالك كما تعالى (كل شيء هالك) فبقاؤه لا بد من أن يكون بشيء باق ، لكن الباقي هو وجه الله

لقوله (كل شئ هالك إلا وجهه) فينبغي أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحاً ، وما لا يكون لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحاً ، فالعمل الصالح هو الذي أتى به المكلف مخلصاً لله .

(المسألة الخامسة) هذا يقتضى أن تكون النية شرطاً في الصالحات من الأعمال وهي قصد الإيقاع لله ، ويندرج فيها النية في الصوم خلافاً لزفر ، وفي الوضوء خلافاً لابن حنيفة رحمه الله .

(المسألة السادسة) العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى (العمل الصالح يرفعه) لكنه لا يرتفع إلا بالكلم الطيب فانه يصعد بنفسه كما قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ، ولهذا قدم الإيمان على العمل ، وههنا لطيفة ، وهي أن أعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه ، وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته ، وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته . فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وإنما ترتفع بغيرها ، والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين في الآية ، وعمل القلب وهو الفكر ينزل إليه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويقول هل من تائب» والتائب النادم بقلبه : وكذلك قوله عليه السلام « يقول الله عز وجل أنا عند المنكسرة قلوبهم» يعنى بالفكرة في عجزه وقدرتى وحقارته وعظمتى ومن حيث العقل من تفكر في آلاء الله وجد الله وحضر ذهنه ، فعلم أن لعمل القلب يأتي الله وعمل اللسان يذهب إلى الله وعمل الأعضاء يوصل إلى الله ، وهذا تنبيه على فضل عمل القلب .

(المسألة السابعة) ذكر الله من أعمال العبد نوعين : الإيمان والعمل الصالح ، وذكر في مقابلتهما من أفعال الله أمرين تكفير السيئات والجزاء بالأحسن حيث قال (لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن) فتكفير السيئات في مقابلة الإيمان ، والجزاء بالأحسن في مقابلة العمل الصالح ، وهذا يقتضى أموراً (الأول) المؤمن لا يدخل في النار لأن إيمانه تكفر سيئاته فلا يدخل في العذاب (الثاني) الجزاء الأحسن المذكور ههنا غير الجنة ، وذلك لأن المؤمن بإيمانه يدخل الجنة إذ تكفر سيئاته ومن كفرت سيئاته أدخل الجنة ، فالجزاء الأحسن يكون غير الجنة وهو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يبعد أن يكون هو الرؤية .

(الأمر الثالث) هو أن الإيمان يستر قبح الذنوب في الدنيا فيستر الله عيوبه في الآخرة ، والعمل الصالح يحسن حال الصالح في الدنيا فيجزيه الله الجزاء الأحسن في العقبى ، فالإيمان إذن لا يطله العصيان بل هو يغلب المعاصى ويسترها ويحمل صاحبها على الندم ، والله أعلم .

(المسألة الثامنة) قوله (لنكفرن عنهم سيئاتهم) يستدعى وجود السيئات حتى تكفر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) بأسرها من أين يكون لهم سيئة ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن وعد الجميع بأشياء لا يستدعى وعد كل واحد بكل واحد من تلك الأشياء ، مثاله : إذا قال الملك لأهل بلد إذا أطعتموني أكرم آباءكم واحترم أبناءكم وأنعم عليكم وأحسن

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

إليكم ، لا يقتضى هذا أنه يكرم آباء من توفى أبوه ، أو يحترم ابن من لم يولد له ولد ، بل مفهومه أنه يكرم أب من له أب ، ويحترم ابن من له ابن ، فكذلك يكفر سيئة من له سيئة (الجواب الثانى) ما من مكلف إلا وله سيئة . أما غير الأنبياء فظاهر ، وأما الأنبياء فلأن ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم ، ولهذا قال تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) .

(المسألة التاسعة) قوله (ولنجزينهم أحسن) يحتمل وجهين (أحدهما) لنجزينهم بأحسن أعمالهم (وثانيهما) لنجزينهم أحسن من أعمالهم . وعلى الوجه الأول معناه نقدر أعمالهم أحسن ما تكون ونجزيم عليها لا أنه يختار منها أحسنها ويجزى عليه ويترك الباقي ، وعلى الوجه (الثانى) معناه قريب من معنى قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقوله (فله خير منها) .

(المسألة العاشرة) ذكر حال المسئى مجملاً بقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) إشارة إلى التعذيب مجملاً . وذكر حال المحسن مجملاً بقوله (ومن جاهد فأنما يجاهد لنفسه) ومفصلاً بهذه الآية ، ليكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله . قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) وفى الآية مسائل :

(الأولى) ما وجه تعلق الآية بمسئلهما ؟ نقول : لما بين الله حسن التكليف ووقوعها ، وبين ثواب من حقق التكليف أصولها وفروعها تحريضاً للتكليف على الطاعة ، ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه ، فقال الانسان إن انقاد لأحد ينبغى أن ينقاد لأبويه ، ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلاً عن غيرهما فلا يمنع أحدكم شيء من طاعة الله ولا يتبعن أحد من يأمر بمعصية الله .

(المسألة الثانية) فى القراءة قرئ حسناً وإحساناً وحسناً أظهرهنا ، ومن قرأ إحساناً فمن قوله تعالى (وبالوالدين إحساناً) والتفسير على القراءة المشهورة هو أن الله تعالى وصى الإنسان بأن يفعل مع والديه حسن التابى بالفعل والقول ، ونكر حسناً ليدل على الكمال ، كما يقال إن لزيد مالا .

(المسألة الثالثة) فى قوله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) دليل على أن متابعتهم فى الكفر لا يجوز ، وذلك لأن الإحسان بالوالدين واجب بأمر الله تعالى فلوترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين ترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن إلى الوالدين ، فاتباع العبد أبويه

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾

لأجل الإحسان إليهما يفضى إلى ترك الإحسان إليهما ، وما يفضى وجوده إلى عدمه باطل فالاتباع باطل ، وأما إذا امتنع من الشرك بقى على الطاعة والإحسان إليهما من الطاعة فأتى به فترك هذا الاحسان ضرورة يفضى إلى الاحسان حقيقة .

(المسألة الرابعة) الإحسان بالوالدين مأمور به ، لأنهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقاءه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازاً ، والله تعالى سبب له في الحقيقة بالإرادة ، وسبب بقاءه بالإعادة للسعادة ، فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه ، ثم قال تعالى (وإن جاهدك لتشرك ب ما ليس لك به علم فلا تطعمهما) فقوله (ما ليس لك به علم) يعنى التقليد في الإيمان ليس بجيد فضلاً عن التقليد في الكفر ، فإذا امتنع الانسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لا يطيعهما أصلاً ، لأن العلم بصحة قولها محال الحصول ، فإذا لم يشرك تقليداً ويستحيل الشرك مع العلم ، فالشرك لا يحصل منه قط .

ثم قال تعالى (إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) يعنى عاقبتكم وما لكم إلى ، وإن كان اليوم مخالطكم ومجالستكم مع الآباء والأولاد والأقارب والعشائر ، ولا شك أن من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة ، وحضوره بين يدي غيره دائم غير منقطع لا يترك مرضى من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه في زمان آخر .

ثم قوله تعالى (فأنبئكم) فيه لطيفة وهي أن الله تعالى يقول لا تظنوا أنى نائب عنكم وآباؤكم حاضررون فتوافقون الحاضرين في الحال اعتماداً على غيبتي وعدم علمي بمخالفتكم إياي فاني حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبئكم جميعه .

ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) . وفي الآية مسائل : (المسألة الأولى) ما الفائدة في إعادة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مرة أخرى ؟ نقول الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتدياً وضالاً بقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وذكر حال الضال بجملاً وحال المهتدي مفصلاً بقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) ولما تم ذلك ذكر قسمين آخرين هادياً ومضلاً فقوله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) يقتضى أن يهتدى بهما وقوله (وإن جاهدك لتشرك) بيان إضلالهما وقوله (إلى مرجعكم فأنبئكم) بطريق الإجمال تهديد المضل وقوله (والذين آمنوا) على سبيل التفصيل وعد الهادى فذكر (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مرة لبيان حال المهتدى ، ومرة أخرى لبيان حال الهادى والذي يدل عليه هو أنه قال (أولاً) (لنكفرن عنهم سيئاتهم) ، وقال (ثانياً) (لندخلنهم في الصالحين) والصالحون هم الهداة لأنه مرتبة الأنبياء ولهذا قال كثير من الأنبياء (الحقنى بالصالحين)

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ
كَعَذَابِ اللّٰهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللّٰهُ
بَآعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾

(المسألة الثانية) قد ذكرنا أن الصالح باق والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية . والمعمول له وهو وجه الله باق ، والعاملون باقون ببقاء أعمالهم وهذا على خلاف الأمور الدنيوية ، فإن في الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفي الآخرة بقاء الفاعل بالفعل .

(المسألة الثالثة) قيل في معنى قوله (لندخلهم في الصالحين) لندخلهم في مقام الصالحين أو في دار الصالحين والأولى أن يقال لا حاجة إلى الاضمار بل يدخلهم في الصالحين أي يجعلهم منهم ويدخلهم في عدادهم كما يقال الفقيه داخل في العلماء .

(المسألة الرابعة) قال الحكماء عالم العناصر عالم الكون والفساد وما فيه يتطرق إليه الفساد فإن الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد ويتكون منه هواء ، وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك تراباً بخلاف الإنسان فإنه يصير تراباً أو شيئاً آخر وعلى هذا فالعالم العلوي ليس بفساد فهو صالح فقوله (تعالى لندخلهم في الصالحين) أي في المجردين الذين لا فساد لهم .

ثم قال تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللّٰهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللّٰهُ بَآعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ، وَلَيَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ .

نقول أقسام المكلفين ثلاثة مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده ، وكافر مجاهر بكفره وعناده ، ومنذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضم الكفر في فؤاده ، والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وبين أحوالها بقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) إلى قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) بين القسم الثالث وقال (ومن الناس من يقول آمنا بالله) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال (ومن الناس من يقول آمنا) ولم يقل آمنت مع أنه وحده الأفعال التي بعده كقوله تعالى (فإذا أُوذِيَ فِي اللّٰهِ) وقوله (جعل فتنة الناس) وذلك لأن المنافق كان يشبه

نفسه بالمؤمن ، ويقول إيماني كما إيمانك فقال (آمنا) يعني أنا والمؤمن حقاً آمنا ، إشعاراً بأن إيمانه كما إيمانه ، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال في القتال ، وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم ، فيصح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا ؟ وهذا الرد يدل على أنه يفهم من كلامه أن خروجه وقاتله كخروجهم وقاتلهم ، لأنه لا يصح الإنكار عليه في دعوى نفس الخروج والقتال ، وكذا قول القائل أنا والملك ألفينا فلاناً واستقبلناه ينكر ، لأن المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظهار كون إيمانهم كما إيمان المحقين كان الواحد يقول (آمنا) أي أنا والمحق .

(المسألة الثانية) قوله (فاذا أودى في الله) هو في معنى قوله (وأخرجوا من ديارهم وأودوا في سبيل) غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد هنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك (وأودوا في سبيل) وقال هنا (أودى في الله) ولم يقل في سبيل الله واللطفية فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أودى المؤمن في سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه ، وأودى المنافق الكافر فترك الله بنفسه ، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الأيداء إلى حد الكراه ، ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان فلا يترك الله ، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية ، والمؤمن أودى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلف الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة .

(المسألة الثالثة) قوله (جعل فتنة الناس كعذاب الله) قال الزمخشري جعل فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر ، وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله ، وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى تردوا في الأمر ، وقالوا إن آمنا نتعرض للتأذي من الناس وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام ، واختاروا الاحتراز عن التأذي العاجل ولا يكون التردد إلا عند التساوي ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً لأن العذاب إن كان شديداً كعذاب النار وغيره يموت الإنسان في الحال فلا يدوم التعذيب ، وإن كان مديداً كالحبس والحصر لا يكون شديداً وعذاب الله شديد وزمانه مديد ، وأيضاً عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع ، وأيضاً عذاب الناس عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده عذاب أليم ، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذاباً كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذاباً .

(المسألة الرابعة) قال (فتنة الناس) ولم يقل عذاب الناس لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكليف ابتلاء وامتحاناً وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحاناً من الإنسان كالصبر على العبادات .

(المسألة الخامسة) لو قال قائل هذا يقتضى منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه ، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازاً عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله ، فنقول ليس كذلك ، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً ، وهذا المؤمن المكروه لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً ، بل في باطنه الإيمان ، ثم قال تعالى (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) يعنى دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضم وأظهر المعية وادعى التبعية ، وفيه فوائد نذكرها في مسائل :

(الأولى) قال (ولئن جاء نصر من ربك) ولم يقل من الله ، مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله (أودى في الله) وقوله (كعذاب الله) وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة .

(المسألة الثانية) لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال (ولئن جاء نصر من ربك) والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون (إنا كنا معكم) وهذا يقتضى أن يكونوا قائلين : إنا معكم إذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين ، فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين إنا معكم إذا جاء النصر ، لكن النصر لا يجىء إلا للمؤمن ، كما قال تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر ، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم في الحال . ثم كر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين ، لا يطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة ، فكذلك المسلم وإن كسر في الحال فالعاقبة للمتقين ، فالنصر لهم في الحقيقة .

(المسألة الثالثة) في ليقولن قراءتان : (إحداهما) الفتح حملا على قوله (من يقول آمنا) يعنى من يقول آمنا إذا أودى يترك ذلك القول ، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم (وثانيتها) الضم على الجمع إسناداً للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم . فإنه المنافقين كانوا جماعة ، ثم بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبس ولا يصح ذلك لهم . لأن التلبس إنما يكون عند ما يخالف القول القلب ، فالسامع يبني الأمر على قوله ولا يدري ما في قلبه فيلتبس الأمر عليه . وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور ، وهو أعلم بما في صدر الإنسان من الإنسان فلا يلتبس عليه الأمر ، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما في القلب ، فالمنافق الذي يظهر الإيمان ويضم الكفر كافر ، والمؤمن المكروه الذي يظهر الكفر ويضم الإيمان مؤمن والله أعلم بما في صدور العالمين ، ولما بين أنه أعلم بما في قلوب العالمين ، بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم ، والمنافق وإن تكلم فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وقد سبق تفسيره ، لكن فيه مسألة واحدة وهى أن الله قال هناك (فليعلمن الله الذين صدقوا) وقال ههنا (وليعلمن الله الذى آمنوا) فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢٥﴾

والكافر، والكافر في قوله كاذب، فإنه يقول: الله أكثر من واحد، والمؤمن في قوله صادق فإنه كان يقول الله واحد، ولم يكن هناك ذكر من يضمن خلاف ما يظهر، فكان الحاصل هناك قسمين صادقاً وكاذباً (١) وكان ههنا المنافق صادقاً في قوله فإنه كان يقول الله واحد، فاعتبر أمر القلب في المنافق فقال (وليعلمن المنافقين) واعتبر أمر القلب في المؤمن وهو التصديق فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا).

ثم قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ .

لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة وأحوالهم، وذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت إلى الكفر بالفتنة، وبين أن عذاب الله فوقها، وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر في الذل وعلى الإيذاء لا شيء. ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا؟ فكان جواب المؤمن أن يقول خوفاً من عذاب الله على خطيئة مذهبكم، فقالوا لا خطيئة فيه وإن كان فيه خطيئة فعلينا، وفي الآية مسائل: (المسألة الأولى) ولنحمل صيغة أمر، والمأمور غير الأمر، فكيف يصح أمر النفس من الشخص؟ فنقول الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء، أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم، قال صاحب الكشاف: هو في معنى قول من يريد اجتماع أمرين في الوجود، فيقول ليكن منك العطاء وليكن مني الدعاء، فقوله ولنحمل، أي ليكن منا الحمل وليس هو في الحقيقة أمر طلب وإيجاب. (المسألة الثانية) قال (وما هم بحاملين من خطاياهم) وقال بعد هذا (وليحملن أثقالهم) وأثقالاً مع أثقالهم) فهناك نفي الحمل، وههنا أثبت الحمل، فكيف الجمع بينهما، فنقول قول القائل: فلان حمل عن فلان يفيد أن حمل فلان خف، وإذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئاً، فكذلك ههنا ما هم بحاملين من خطاياهم يعني لا يرفعون عنهم خطيئتهم وهم يحملون أوزاراً بسبب إضلالهم ويحملون أوزاراً بسبب ضلالتهم، كما قال النبي عليه السلام «من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء» .

(المسألة الثالثة) الصيغة أمر، والأمر لا يدخله التصديق والتكذيب، فكيف يفهم قوله (إنهم لكاذبون) نقول قد تبين أن معناه شرط وجزاء، فكأنهم قالوا إن اتبعونا نحمل خطاياكم وهم كذبوا في هذا فانهم لا يحملون شيئاً.

(١) في الأصول صادق وكاذب ولما كانا بدلا من خبر كان المنصوب فتعين نصهما

وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا

يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا

ثم قال تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ في الذي كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) كان قولهم (ولنحمل خطاياكم) صادراً لاعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر، ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الافتراء (وثانيها) أن قولهم (ولنحمل خطاياكم) كان عن اعتقاد أن لا حشر، فإذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم أما قلتم أن لا حشر (وثالثها) أنهم لما قالوا إن تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم، يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسألون ويقال لهم لم افتريتم .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ . وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعده المؤمنين الصادق بالثواب العظيم، وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم، وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصاً بالنبي وأصحابه وأمه حتى صعب عليهم ذلك، بل قبله كان كذلك كما قال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم) ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبي عليه السلام وقومه ومنهم إبراهيم عليه السلام وغيرهما، ثم قال تعالى (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً) وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الفائدة في ذكر مدة لبثه؟ نقول كان النبي عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الاسلام وإصرارهم على الكفر فقال إن نوحاً لبث ألف سنة تقريباً في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل، وصبر وما ضجر فانت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك، وأيضاً كان الكفار يفترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يغتروا فان العذاب يلحقهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعض العلماء الاستثناء في العدد تكلم بالباقي، فإذا قال القائل لفلان على عشرة إلا ثلاثة، فكأنه قال على سبعة، إذا علم هذا فقوله (ألف سنة إلا خمسين عاماً) كقوله تسعمائة وخمسين سنة، فما الفائدة في العدول عن هذه العبارة إلى غيرها؟ فنقول قال الزمخشري فيه فائدتان (إحداهما) أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فإن من قال

فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً

لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول ألف سنة تقريباً لا تحقيقاً ، فإذا قال إلا شهراً أو إلا سنة يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق (الثانية) هي أن ذكر لبت نوح عليه السلام في قومه كان لبيان أنه صبر كثيراً فالنبي عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه وإذا كان كذلك فذكر العدد الذي في أعلى مراتب الأعداد التي لها اسم مفرد موضوع ، فإن مراتب الأعداد هي الآحاد إلى العشرة والعشرات إلى المائة والمئات إلى الألف ، ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ، ومائة ألف ، وألف ألف .

(المسألة الثالثة) قال بعض الأطباء العمر الانساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم ، والعقل يوافقها فان البقاء على التركيب الذي في الانسان يمكن لذاته ، وإلا لما بقي ، ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لأن المؤثر فيه إن كان واجب الوجود فظاهر الدوام وإن كان غيره فله مؤثر ، وينتهي إلى الواجب وهو دائم ، فتأثيره يجوز أن يكون دائماً فاذن البقاء ممكن في ذاته ، فان لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن لعدم وإلا لما بقي هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل (ثم نقول) لانزاع بيننا وبينهم لأنهم يقولون العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعياً بل هو عطاء إلهي ، وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة ، فضلاً عن مائة أو أكثر قوله تعالى ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾

فيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب من ظلم وتاب ، فان الظلم وجد منه ، وإنما يعذب على الاصرار على الظلم ، فقوله (وهم ظالمون) يعني أهلكتهم وهم على ظلمهم ، ولو كانوا تركوه لما أهلكتهم .

قوله تعالى ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

في الراجع إليه الهاء في قوله (جعلناها) وجهان (أحدهما) أنها راجعة إلى السفينة المذكورة وعلى هذا ففي كونها آية وجوه (أحدها) أنها اتخذت قبل ظهور الماء ولولا إعلام الله نوحاً وإنباؤه إياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة (وثانيها) أن نوحاً أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه ، ثم إن الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة (وثالثها) أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية ، ولولا ذلك لما حصلت النجاة (والرابع) أنها راجعة إلى

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

الواقعة أو إلى النجاة أى جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين .

ثم قال تعالى ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ لما فرغ من الإشارة إلى حكاية نوح ذكر حكاية إبراهيم وفي إبراهيم وجهان من القراءة (أحدهما) النصب وهو المشهور ، و(الثانى) الرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم ، و(الأول) فيه وجهان أحدهما أنه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر إبراهيم ، والثانى أنه منصوب بمذكور وهو قوله (ولقد أرسلنا) فيكون كأنه قال وأرسلنا إبراهيم ، وعلى هذا فى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إذ قال لقومه) ظرف أرسلنا أى أرسلنا إبراهيم إذ قال لقومه لكن قوله (لقومه اعبدوا الله) دعوة والارسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله ، وأرسلنا إبراهيم حين قال لقومه مع أنه يكون مرسل قبله ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الإرسال أمر يمتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسل ، وهذا كما يقول القائل وقفنا للأمر إذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج ، لكن لما كان الوقوف ممتداً إلى ذلك الوقت صح ذلك (الوجه الثانى) هو أن إبراهيم بمجرد هداية الله إياه كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم إلى الرشاد قبل الإرسال ، ولما كان هو مشتغلاً بالدعاء إلى الاسلام أرسله الله تعالى وقوله (اعبدوا الله واتقوه) إشارة إلى التوحيد لأن التوحيد إثبات الإله ونفى غيره فقوله (اعبدوا الله) إشارة إلى الإثبات ، وقوله (واتقوه) إشارة إلى نفي الغير لأن من يشرك مع الملك غيره فى ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم ، ويمكن أن يقال (اعبدوا الله) إشارة إلى الاتيان بالواجبات ، وقوله (واتقوه) إشارة إلى الامتناع عن المحرمات ويدخل فى الأول الاعتراف بالله ، وفى الثانى الامتناع من الشرك ، ثم قوله (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) يعنى عبادة الله وتقواه خير ، والأمر كذلك لأن خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلاً واعتباراً ، أما عقلاً فلأن الممكن لا بد له من مؤثر لا يكون ممكناً قطعاً للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل إذ لنا إله ، وأما التشريك فبطلانه عقلاً وكون خلافه خيراً وهو أن شريك الواجب إن لم يكن واجباً فكيف يكون شريكاً وإن كان واجباً لزم وجود واجبين فيشتركان فى الوجوب ويتباينان فى الإلهية ، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز فيلزم التركيب فهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل ، وأما اعتباراً فلأن الشرف إن يكون ملكاً أو قريب ملك ، لكن الانسان لا يكون ملكاً للسموات والأرضين

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْ ثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا
لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى (واسجد واقرب) .
وقال « ان يتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم » وقال « لا يزال العبد يتقرب بالعبادة
إلى » فالمعطل لا ملك ولا قريب ملك لعدم اعتقاده بملك فلا مرتبة له أصلاً ، وأما التشريك فلأن
من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء خسيصة ، فأذن من يقول إن
ربي لا يماثله شيء أعلى مرتبة ممن يقول سيدي صنم منحوت عاجز مثله ، فثبت أن عبادة الله وتقواه
خير وهو خير لكم أي خير للناس إن كانوا يعلمون ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات .
ثم قال تعالى ﴿ إنما تعبدون من دون الله أو ثاناً وتخلقون إفكاً ﴾ .

ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه ، وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور ، إما لكونه
مستحقاً للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذي اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الهجوع ،
وإما لكونه نافعاً في الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله إليه كالمستخدم بأجرة ، وإما لكونه نافعاً
في المستقبل كمن يخدم غيره متوقفاً منه أمراً في المستقبل ، وإما لكونه خائفاً منه . فقال إبراهيم
(إنما تعبدون من دون الله أو ثاناً) إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها أو ثاناً لا شرف لها .
قوله تعالى ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق
واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ .

إشارة إلى عدم المنفعة في الحال وفي المآل ، وهذا لأن النفع ، إما في الوجود ، وإما في البقاء
لكن ليس منهم نفع في الوجود ، لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها ، ولا نفع في البقاء
لأن ذلك بالرزق ، وليس منهم ذلك ، ثم بين أن ذلك كله حاصل من الله فقال (فابتغوا عند الله
الرزق) فقوله (الله) إشارة إلى استحقاق عبوديته لذاته وقوله (الرزق) إشارة إلى حصول النفع
منه عاجلاً وآجلاً وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (لا يملكون لكم رزقاً) نكرة ، وقال (فابتغوا عند الله الرزق)
معرفاً فما الفائدة ؟ فنقول قال الزمخشري قال (لا يملكون لكم رزقاً) نكرة في معرض النفي أي
لا رزق عندهم أصلاً ، وقال معرفة عند الإثبات عند الله أي كل الرزق عنده فاطلبوه منه ، وفيه وجه
آخر وهو أن الرزق من الله معروف بقوله (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) والرزق

وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ

المبين (٨١)

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِي اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهٗ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٩١)

من الأوثان غير معلوم فقال (لا يملكون لكم رزقاً) لعدم حصول العلم به وقال (فابتغوا عند الله الرزق) الموعود به ، ثم قال (فاعبدوه) أى اعبدوه لكونه مستحقاً للعبادة لذاته واشكروا له أى لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق (وإليه ترجعون) أى اعبدوه لكونه مرجعاً منه يتوقع الخير لا غير .

ثم قال تعالى ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ . لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال (وإن تكذبوا) وفي الخطاب في هذه الآية وجهان : (أحدهما) أنه قوم إبراهيم والآية حكاية عن قوم إبراهيم كأن إبراهيم قال لقومه (إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وأنا أتيت بما على من التبليغ ، فإن الرسول ليس عليه إلا البلاغ والبيان) (والثاني) أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه أن الحكايات أكثرها إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ولهذا كثيراً ما يقول الحاكى لأى شىء حكيت هذه الحكاية فالنبي عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفاً من التعذيب ، فقال في أثناء حكايتهم يا قوم إن تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فإن كذبتهم أخاف عليكم ما جاء على غيركم ، وعلى الوجه الأول في الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ أن قوله (فقد كذب أمم) كيف يفهم ، مع أن إبراهيم لم يسبقه إلا قوم نوح وهم أمة واحدة ؟ (والجواب) عنه من وجهين : (أحدهما) أن قبل نوح كان أقوام كقوم إدريس وقوم شيث وآدم (والثاني) أن نوحا عاش ألفاً وأكثر وكان القرن يموت ويحى أولاده والآباء يوصون الأبناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أمماً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما (البلاغ) وما (المبين) ؟ فنقول البلاغ هو ذكر المسائل ، والإبانه هي إقامة البرهان عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لأن الرسول إذا بلغ شيئاً ولم يبينه فإنه لم يأت بالبلاغ المبين ، فلا يكون آتياً بما عليه .

ثم قال تعالى ﴿ أو لم يروا كيف يبدي الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾ . لما بين الأصل الأول وهو التوحيد ، وأشار إلى الأصل الثاني وهو الرسالة بقوله (وما على

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ

الرسول (إلا البلاغ المبين) شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر ، وقد ذكرنا مراراً أن
الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض في الذكر الإلهي ، فأينما يذكر الله تعالى منها اثنين
يذكر الثالث ، وفي الآية مسائل :

(الأولى) الانسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال (أولم يروا كيف يبدىء الله) ؟
فنقول المراد العلم الواضح الذي كالرؤية والعامل بعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون
من مخلوق وإلا لما كان الخلق الأول خلقاً أول ، فهو من الله هذا إن قلنا إن المراد إثبات نفس
الخلق ، وإن قلنا إن المراد بالبدء خلق الآدمي أولاً وبإعادة خلقه ثانياً ، فنقول العاقل لا يخفى عليه
أن خالق نفسه (١) ليس إلا قادر حكيم يصور الأولاد في الأرحام ، ويخلقهم من نطفة في غاية الإتقان
والإحكام ، فذلك الذي خلق أولاً معلوم ظاهر فأطلق على ذلك العلم لفظ الرؤية ، وقال (أولم يروا)
أي ألم يعلموا علماً ظاهراً واضحاً (كيف يبدىء الله الخلق) يخلقهم من تراب يجمعه فكذلك يجمع
أجزائه من التراب ينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة إليكم ، فإن من نحت حجارات ووضع شيئاً
بجنب شيء ففرقه أمر ما فانه يقول وضعه شيئاً بجنب شيء في هذه النوبة أسهل على لأن الحجارات
منحوتة ، ومعلوم أن آية واحدة منها تصلح لأن تكون بجنب الأخرى ، وعلى هذا المخرج خرج
كلام الله في قوله (وهو أهون) وإليه الإشارة بقوله (إن ذلك على الله يسير) .

(المسألة الثانية) قال (أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق) علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق
وما قال : أولم يروا أن الله خلق ، أو بدأ الخلق ، والكيفية غير معلومة ؟ فنقول هذا القدر من
الكيفية معلوم ، وهو أنه خلقه ولم يك شيئاً مذكوراً ، وأنه خلقه من نطفة هي من غذاء هو من
ماء وثراب وهذا القدر كاف في حصول العلم بإمكان الإعادة فإن الإعادة مثله .

(المسألة الثالثة) لم قال (ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) فأبرز اسمه مرة أخرى ، ولم
يقول إن ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير إبراز ؟ نقول مع إقامة البرهان على أنه يسيراً كده
بإظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضاً بكون ذلك يسيراً ، فإن الإنسان إذا سمع لفظ الله وفهم معناه
أنه الحي القادر ، بقدرته كاملة ، لا يعجزه شيء ، العالم بعلم محيط بذرات كل جسم ، نافذ الإرادة لاراد
لما أراده ، يقطع بجواز الإعادة .

ثم قال تعالى (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة

(١) المراد بنفسه هنا نفس الانسان فهو من إضافة اسم الفاعل لمفعوله لا لفاعله كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، تعالى الله
عن الشبه والمثل والتظهير .

الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

إن الله على كل شيء قدير ﴿

الآية المتقدمة كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال (أو لم يروا) على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه ، وقال في هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري ، وهذا لأن الانسان له مراتب في الادراك بعضهم يدرك شيئاً من غير تعليم وإقامة برهان له ، وبعضهم لا يفهم إلا بإبانة وبعضهم لا يفهمه أصلاً فقال : إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا في الأرض ، أي سيروا فكركم في الأرض وأجبلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال في الآية الأولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه ؟ نقول العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين ، والرؤية أتم من النظر لأن النظر يفضي إلى الرؤية ، يقال نظرت مرأيت والمفضي إلى الشيء دون ذلك الشيء ، فقال في الأول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا في الأرض لتحصل لكم الرؤية ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر هذه الآية بصيغة الأمر وفي الآية الأولى بصيغة الاستفهام لأن العلم الحدسي إن حصل فالأمر به تحصيل الحاصل ، وإن لم يحصل فلا يحصل إلا بالطلب لأن بالطلب يصير الحاصل فكرياً فيكون الأمر به تكليف ما لا يطاق ، وأما العلم الفكري فهو مقدور فوراً الأمر به .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أبرز اسم الله في الآية الأولى عند البدء حيث قال (كيف يبدى الله) وأضمره عند الإعادة وفي هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الإعادة حيث قال (ثم الله ينشئ) لأن في الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال (كيف يبدى الله) ثم قال (ثم يعيده) كما يقول القائل ضرب زيد عمراً ثم ضرب بكرأ ولا يحتاج إلى إظهار اسم زيد اكتفاء بالأول ، وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مسنداً إلى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقول القائل أما علمت كيف خرج زيد ، اسمع مني كيف خرج ، ولا يظهر اسم زيد ، وأما إظهاره عند الإنشاء ثانياً حيث قال (ثم الله ينشئ) مع أنه كان يكفي أن يقول : ثم ينشئ النشأة الآخرة ، فلحكمة بالغة وهي ما ذكرنا أن مع إقامة البرهان على إمكان الإعادة أظهر اسماً من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الإعادة فقال الله مظهراً مبرزاً ليقع في ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ إرادته ويعترف بوقوع بدئه وجواز إعادته ، فان قيل فلم لم يقل ثم الله يعيده لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة ؟ نقول لوجهين (أحدهما) أن الله كان مظهراً مبرزاً بقرب منه وهو في قوله (كيف يبدى الله الخلق) ولم يكن بينهما إلا لفظ الخلق وأما هنا فلم يكن

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ «٢١» وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ «٢٢»

هذ كوراً عند البدء فأظهره (وثانيتها) أن الدليل ههنا تم على جواز الاعادة لأن الدلائل منحصرة في الآفاق وفي الأنفس ، كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) وفي الآية الأولى أشار إلى الدليل النفسى الحاصل لهذا الانسان من نفسه ، وفي الآية الثانية أشار إلى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله (قل سيروا في الأرض) وعندهما تم الدليلان ، فأكد به باظهار اسمه ، وأما الدليل الأول فأكد به بالدليل الثانى ، فلم يقل ثم الله يعيده .

(المسألة الرابعة) في الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال (أو لم يروا كيف بيدي) وههنا قال بلفظ الماضى فقال (فانظروا كيف بدأ) ولم يقل كيف يبدأ ، فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسى الموجب للعلم الحدسى وهو فى كل حال يوجب العلم بيده الخلق ، فقال إن كان ليس لكم علم بأن الله فى كل حال يبدأ خلقاً فانظروا إلى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقاً ، ويحصل المطلوب من هذا القدر فانه ينشى كما بدأ ذلك .

(المسألة الخامسة) قال فى هذه الآية (إن الله على كل شىء قدير) وقال فى الآية الأولى (إن ذلك على الله يسير) وفيه فائدتان (احدهما) أن الدليل الأول هو الدليل النفسى ، وهو وإن كان موجب العلم الحدسى التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق إليه يحصل العلم العام ، لانه بالنظر فى نفسه علم نفسه وحاجته إلى الله ووجوده منه ، وبالنظر إلى الآفاق علم حاجته غيره إليه ووجوده منه ، فتم عليه بأن كل شىء من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين (إن الله على كل شىء قدير) وقال عند الدليل الواحد (إن ذلك) وهو إعادته (على الله يسير) (الثانية) هى أنا بينا أن العلم الأول أتم وإن كان الثانى أعم وكون الأمر يسيراً على الفاعل أتم من كونه مقدوراً له بدليل أن القائل يقول فى حق من يحمل مائة من أنه قادر عليه ولا يقول إنه سهل عليه ، فاذا سئل عن حمله عشرة أمان يقول إن ذلك عليه سهل يسير ، فنقول قال الله تعالى إن لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الأمور عند الله سهل يسير فسيروا فى الأرض لتعلموا أنه مقدور ، ونفس كونه مقدوراً كاف فى إمكان الاعادة .

ثم قال تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقبلون ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير)
لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلاً وحكمة ، وإثابة أهل الإثابة فضلاً ورحمة ، وفى الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال عليه السلام كما كفا عنه «سبقت رحمتي غضبي» فنقول ذلك لوجهين (أحدهما) أن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقه بحكم الإبعاد وعقبه بالرحمة، وكما ذكر، بعد إثبات الأصل الأول وهو التوحيد - التهديد بقوله (وإن تكذبوا فقد كذب أمم وأهلكوا بالتكذيب) كذلك ذكر بعد إثبات الأصل الآخر التهديد بذكر التعذيب، و ذكر الرحمة وقع تبعاً لئلا يكون العذاب مذكوراً وحده وهذا يحقق قوله (سبقت رحمتي غضبي) وذلك لأن الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يمحضه في الذكر بل ذكر الرحمة معه.

(المسألة الثانية) إذا كان ذكر هذا لتخويف العاصي وتفريخ المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل في تحصيل المقصود وقوله (يعذب من يشاء) لا يزر الكافر لجواز أن يقول لعلى لا أكون ممن يشاء الله عذابه، فنقول: هذا أبلغ في التخويف، وذلك لأن الله أثبت بهذا إنفاذ مشيئته إذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع، ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والإبعاد أنه شاء تعذيب أهل العناد، فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال يعذب العاصي، فانه لا يدل على كمال مشيئته، لأنه لا يفيد أنه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه، فاذا لم يفد هذا فيقول الكافر إذا لم يحصل مراده في تلك الصورة يمكن أن يحصل في صورة أخرى، ولنضرب له مثلاً فنقول: إذا قيل إن الملك يقدر على ضرب كل من في بلاده وقال من خالفني أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه، وإذا قيل إنه قادر على ضرب المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين، فاذا قال من خالفني أضربه يقع في وهم المخالف أنه لا يقدر على ضرب فلان المطيع، فلا يقدر على أيضاً لكوني مثله، وفي هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام، لأن الأمن الكلي من الله يوجب الجراءة فيفضي إلى صيرورة المطيع غاصياً.

(المسألة الثالثة) قال (ثم إليه تقلبون) مع أن هذه المسألة قد سبق إثباتها وتقريرها فلم أعادها؟ فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين، فقال تعالى فان تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا أنه فات، فان إليه إيابكم وعليه حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم، ولهذا قال بعدها (وما أنتم بمعجزين) يعني لا تفوتون الله بل الانقلاب إليه ولا يمكن الإنفلات منه، وفي تفسير هذه الآية لطائف (إحداها) هي إعجاز المعذب عن التعذيب إما بالهرب منه أو الثبات له والمقاومة معه للدفع، وذكر الله القسمين فقال (وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء) يعني بالهرب لو صعدتم إلى محل السماك في السماء أو هبطتم إلى موضع السموك في الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع في الإعجاز بالهرب، وأما بالثبات فكذلك لأن الإعجاز إما أن يكون بالاستناد إلى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه أو بالانتصار يقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال، فانكم مالكم من دون الله ولي يشفع ولا نصير يدفع فلا إعجاز

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

لا بالهروب ولا بالثبات (الثانية) قال (وما أنتم بمعجزين) ولم يقل لا تعجزون بصيغة الفعل ، وذلك لأن نفي الفعل لا يدل على نفي الصلاحية ، فان من قال إن فلاناً لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه قوله إنه ليس بخياط (الثالثة) قدم الأرض على السماء ، والولى على النصير ، لأن هربهم الممكن في الأرض ، فان كان يقع منهم هرب يكون في الأرض ، ثم إن فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود في السماء ، وأما الدفع فان العاقل ما أمكنه الدفع بأجمل الطرق فلا يرتقى إلى غيره ، والشفاعة أجمل . ولأن ما من أحد في الشاهد إلا ويكون له شفيع يتسكلم في حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادى الملك لأجله .

ثم قال تعالى ﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ . لما بين الاصلين التوحيد والإعادة وقررها بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال (والذين كفروا بآيات الله ولقائه) إشارة إلى الكفار بالله ، فان لله في كل شيء آية دالة على وحدانيته ، فاذا أشرك كفر بآيات الله وإشارة إلى المنكر للحشر فان من أنكره كفر بلقاء الله فقال (أولئك يئسوا من رحمتي) لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة . لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يرحم ، وإذا كان له جهات متعددة لا يبقى محل للرحمة ، فاذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين فيئسوا من رحمة الله ، ولما أنكروا الحشر وقالوا لا عذاب فناسب تعذيبهم تحقيقاً للأمر عليهم ، وهذا كما أن الملك إذا قال أعذب من يخالفني فأنكره بعيد عنه وقال هو لا يصل إلى ، فاذا أحضر بين يديه يحسن منه أن يعذبه ويقول هل قدرت وهل عذبت أم لا ، فإذا تبين أن عدم الرحمة يناسب الإشراك ، والعذاب الاليم يناسب إنكار الحشر . ثم إن في الآية فوائد (إحداهما) قوله (أولئك يئسوا) حتى يكون منبثاً عن حصر الناس فيهم وقال أيضاً (وأولئك لهم عذاب أليم) لذلك ، ولو قال : أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتي ولهم عذاب أليم ، ما كان يحصل هذه الفائدة فان قال قائل لو اكتفى بقوله (أولئك) مرة واحدة كان يكفي في إفادة ما ذكر ، ثم قلنا لا وذلك لأنه لو قال أولئك يئسوا ولهم عذاب ، كان يذهب وهم أحد إلى أن هذا المجموع منحصر فيهم ، فلا يوجد المجموع إلا فيهم ولكن واحداً منهما وحده يمكن أن يوجد في غيرهم ، فاذا قال أولئك يئسوا وأولئك لهم عذاب أفاد أن كل واحد لا يوجد إلا فيهم (الثانية) عند ذكر الرحمة أضافها إلى نفسه فقال رحمتي وعند العذاب لم يضيفه لسبق رحمته وإعلاماً لعباده بعمومها لهم ولزومها له (الثالثة) أضاف اليأس اليهم

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجِيهِ اللَّهُ مِنَ النَّارِ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

بقوله (أولئك يتسوا) فخرمها عليهم ولو طمعوا لأباحها لهم ، فلو قال قائل ما ذكرت من مقابلة الأمرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضى أن لا يكون العذاب الأليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر ، أو لا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول : معنى الآية أنهم يتسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ، ولا شك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون إلا للكافر بالحشر ، وأما الآخر قال الكافر بالحشر لا يكون مؤمناً بالله ، لأن الإيمان به لا يصح إلا إذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك .

ثم قال ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك آيات لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

لما أتى إبراهيم عليه السلام ببيان الأصول الثلاثة وأقام البرهان عليه ، بقى الأمر من جانبهم . إما الإجابة أو الإتيان بما يصلح أن يكون جوابه فلم يأتوا إلا بقولهم (اقتلوه أو حرقوه) وفي الآية مسائل : (المسألة الأولى) كيف سمى قولهم (اقتلوه) جواباً مع أنه ليس بجواب ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف ، مع أن السيف ليس بجواب ، وإنما معناه لا أقبله بالجواب ، وإنما أقبله بالسيف فكذلك قالوا لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه (الثانى) هو أن الله أراد بيان ضلالهم وهو أنهم ذكروا فى معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب ، فتبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلاً وذلك لأن من لا يجيب غيره ويسكت ، لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات ، أما إذا أجاب بجواب فاسد ، علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه .

(المسألة الثانية) القائلون الذين قالوا اقتلوه هم قومه والمأمورون بقولهم اقتلوه أيضاً هم ، فيكون الأمر نفس المأمور ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن كل واحد منهم قال لمن عداه اقتلوه ، فحصل الأمر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد ، لأن كل واحد أمر غيره (وثانيهما) هو أن الجواب لا يكون إلا من الأكابر والرؤساء ، فاذا قال أعيان بلد كلاً ما يقال اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت إلى عدم قول العبيد والأرذال ، فكان جواب قومه وهم الرؤساء أن قالوا لا تبعهم وأعوانهم اقتلوه ، لأن الجواب لا يباشره إلا الأكابر والقتل لا يباشره إلا الأتباع . (المسألة الثالثة) أو يذكر بين أمرين الثانى منهما ينفك عن الأول كما يقال زوج أو فرد ، ويقال هذا إنسان أو حيوان ، يعنى إن لم يكن إنساناً فهو حيوان ، ولا يصح أن يقال هذا حيوان

أو إنسان إذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فان لم يكن حيواناً فهو إنسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله اقتلوه أو حرقوه كقول القائل حيوان أو إنسان ، (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع ويكون (أو) مستعملاً في موضع بل ، كما يقول القائل أعطيته ديناراً أو دينارين ، وكما يقول القائل أعطه ديناراً بل دينارين قال الله تعالى (قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه) فكذلك ههنا اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه (الجواب الثاني) هو أنا نسلم ما ذكرتم والأمر هنا كذلك ، لأن التحريق فعل مفض إلى القتل وقد يتخلف عنه القتل فان من ألقى غيره في النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حياً يصح أن يقال احترق فلان وأحرقه فلان وما مات ، فكذلك ههنا قالوا اقتلوه أولاً تعجلوا قتله وعذبوه بالنار ، وإن ترك مقاتته نخلوا بسبيله وإن أصر نخلوا في النار مقيله .

ثم قال تعالى (فأنجاه الله من النار) اختلف العقلاء في كيفية الإنجاء ، بعضهم قال برد النار وهو الأصح الموافق لقوله تعالى (يا نار كوني برداً) وبعضهم قال خلق في إبراهيم كيفية استبردمعها النار وقال بعضهم ترك إبراهيم على ما هو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع أذى النار عنه ، والكل ممكن والله قادر عليه ، وأنكر بعض الأطباء الكل ، أما سلب الحرارة عن النار ، قالوا الحرارة في النار ذاتية كالزوجية في الأربعة لا يمكن أن تفارقها ، وأما خلق كيفية تستبرد النار فلأن المزاج الإنساني له طرفا تفريط وإفراط ، فلو خرج عنهما لا يبقى إنساناً أو لا يعيش . مثلاً المزاج إن كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون إنساناً فان صار أحد عشر لا يكون إنساناً وإن صارت الأجزاء الباردة خمسة يبقى إنساناً فاذا صارت أربعة لا يبقى إنساناً لكن البرودة التي يستبرد معها النار مزاج السمندل فلو حصل في الإنسان لمات أو لكان ذلك فان النفس تابعة للمزاج ، وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة في النار والنار كما هي ، والقطنة كما هي ولا تحترق ، فنقول الآية رد عليهم والعقل موافق للنقل ، أما الأول فلو جهين (أحدهما) أن الحرارة في النار تقبل الاشتداد والضعف ، فان النار في الفحم إذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وإن لم ينفخ لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة التي كانت في النار ، فاذا أمكن عدم البعض جاز عدم بعض آخر من ذلك عايناً إلى أن ينتهي إلى حد لا يؤذي الإنسان ، ولا كذلك الزوجية فانها لا تشتد ولا تضعف (والثاني) وهو أن في أصول الطب ذكر أن النار لها كيفية حارة كما أن الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البرودة وهو ماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى ناراً وهو نور غير محرق ، وأما الثاني فأيضاً ممكن وقولهم مدفوع من وجهين (أحدهما) يمنع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادر على أن يخلق النفس الإنسانية في المزاج الذي مثل مزاج الجمد (وثانيهما) أن نقول على أصلكم لا يلزم المحال لأن الكيفية التي ذكرناها تكون في ظاهر الجلد كالأجزاء الرشيعة عليه ولا يتأدى إلى القلب والأعضاء الرئيسية ، ألا ترى أن الإنسان

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوِيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم
مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

إذا مس الجمد زماناً ثم مس جمرة نار لا تؤثر النار في إحراق يده مثل ما تؤثر في إحراق يد من أخرج يده من جيبه ، ولهذا تحترق يده قبل يد هذا . فإذا جاز وجود كيفية في ظاهر جلد الانسان تمنع تأثير النار فيه بالإحراق زماناً فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا تحترق ، (وأما الثالث) فمجرد استبعاد بيان عدم الاعتقاد ونحن نسلم أن ذلك غير معتاد لأنه معجز والمعجز ينبغي أن يكون خارقاً للعادة .

ثم قال تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يعني في إنجائه من النار لآيات ، وهنا مسائل : (المسألة الأولى) قال في إنجاء نوح وأصحاب السفينة (جعلناها آية) وقال ههنا (لآيات) بالجمع لأن الإنجاء بالسفينة شئ تتسع له العقول فلم يكن فيه من الآية إلا بسبب إعلام الله إياه بالاتخاذ وقت الحاجة ، فانه لولاه لما اتخذ له لعدم حصول علمه بما في الغيب ، وبسبب أن الله صان السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة ، وأما الإنجاء من النار فعجيب فقال فيه آيات .

(المسألة الثانية) قال هناك (آية للعالمين) وقال ههنا (لقوم يؤمنون) خص الآيات بالمؤمنين لأن السفينة بقيت أعواماً حتى مر عليها الناس وزأوها فحصل العلم بها لكل أحد ، وأما تبريد النار [فانه] لم يبق فلم يظهر لمن بعده إلا بطريق الايمان به والتصديق ، وفيه لطيفة : وهي أن الله لما برد النار على إبراهيم بسبب اهتدائه في نفسه وهدايته لأبناء جنسه ، وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم أسوة حسنة في إبراهيم ، فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة ، فقال إن في ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون .

(المسألة الثالثة) قال هناك (جعلناها) وقال ههنا (جعلناه) لأن السفينة ما صارت آية في نفسها ولولا خالق الله الطوفان لبقى فعل نوح سفها ، فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية ، وأما تبريد النار فهو في نفسه آية إذا وجدت لا تحتاج إلى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية .

ثم قال تعالى ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً وماواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾
لما خرج إبراهيم من النار عاد إلى عدل الكفار وبيان فساد ما هم عليه ، وقال إذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه ، فليس هذا إلا تقليداً ، فان بين بعضكم وبعض مودة

فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتهم ضلالتهم وجهالتهم فقوله (إنما اتخذتم . . . مودة بينكم) يعنى ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق ، وهو أن يقال قوله (إنما اتخذتم . . . مودة بينكم) أى مودة بين الأوثان وبين عبيدتها ، وتلك المودة هى أن الإنسان مشتمل على جسم وعقل ، ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية ، ثم إن من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية ، ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت إلى اللذات الجسمانية ، كالمجنون إذا احتاج إلى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو إراقة ماء وهو بين قوم من الأكابر فى مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الأكل وإراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت إلى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الأوصاف ومكرمة الأخلاق . . . والعامل يحمل الألم الجسماني ويحصل اللذة العقلية ، حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة ، والألم العقلي . إذا ثبت هذا فهم كانوا قليلي العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لا يكون فوقهم ولا تحتهم ، ولا يمينهم ولا يسارهم ، ولا قدامهم ولا وراءهم ، ولا يكون جسما من الأجسام ، ولا شيئا يدخل فى الأوهام ، ورأوا الأجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها فاتخاذهم الأوثان كان مودة بينهم وبين الأوثان ، ثم قال تعالى (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) يعنى يوم يزول عمى القلوب وتبين الأمور للبيب والغفول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودى ، ويقول المعبود ما هؤلاء عبادتى ويلعن بعضكم بعضاً ، ويقول هذا لذك أنت أوقعتنى فى العذاب حيث عبادتتى ، ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادتك ، ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون ، بل هم مجتمعون فى النار كما كانوا مجتمعين فى هذه الدار كما قال تعالى (وما أواكم النار) ثم قال تعالى (وما لكم من ناصرين) يعنى ليس تلك النار مثل ناركم التى أنجى الله منها إبراهيم ونصره فأنتم فى النار ولا ناصر لكم ، وههنا مسائل :

(المسألة الأولى) قال قبل هذا (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) على لفظ الواحد ، وقال ههنا على لفظ الجمع (وما لكم من ناصرين) والحكمة فيه أنهم لما أرادوا إحراق إبراهيم السلام قالوا نحن نصر آلهتنا كما حكى الله تعالى عنهم (حرقوه وانصروا آلهتكم) فقال أنتم ادعيتم أن لهؤلاء ناصرين فما لكم ولهم ، أى للأوثان وعبيدتها من ناصرين ، وأما هناك ما سبق منهم دعوى الناصر فنفى الجنس بقوله (ولا نصير) .

(المسألة الثانية) قال هناك (ما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) وما ذكر الولي ههنا فنقول : قد بينا أن المراد بالولي الشفييع يعنى ليس لكم شافع ولا نصير دافع ، وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الأوثان أى ما لكم كلكم لم يقل شفييع لأنهم كانوا معترفين أن كلهم ليس لهم شافع لأنهم كانوا يدعون أن آلهتهم شفعاء ، كما قال تعالى عنهم (هؤلاء شفعاؤنا) والشفييع لا يكون

فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾

له شفيح ، فما نفي عنهم الشفيح لعدم الحاجة إلى نفيه لا اعترافهم به ، وأما هناك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون أن لأنفسهم شفعا فنفي .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (مالكم من دون الله) فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصراً وولياً هو الله وليس لهم غيره ولي وناصر وقال همنا (ما لكم من ناصرين) من غير استثناء فنقول كان ذلك وارداً على أنهم في الدنيا فقال لهم في الدنيا ، لا تظنوا أنكم تعجزون الله فما لكم أحد ينصركم ، بل الله تعالى ينصركم إن تبتم ، فهو ناصر معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى ثم يوم القيامة (يكفر بعضكم ببعض) وعدم الناصر عام لأن التوبة في ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقاً .

ثم قال تعالى ﴿ فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ﴾
يعنى لما رأى لوط معجزته آمن (وقال) إبراهيم (إني مهاجر إلى ربي) أي إلى حيث أمرني بالتوجه إليه (إنه هو العزيز الحكيم) عزيز يمنع أعدائي عن إيذائي بعزته ، وحكيم لا يأمرني إلا بما يوافق لكمال حكمته ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فأمن له لوط) أي بعد ما رأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية ، وبقاؤه إلى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى أن أبا بكر لما قبل دين محمد ﷺ وكان نير القلب قبله قبل الكل ، من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر ، فنقول إن لوطاً لما رأى معجزته آمن برسالته ، وإما بالوحدانية فأمن حيث سمع حسن مقالته ، وإليه أشار بقوله (فأمن له لوط) وما قال فأمن لوط .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما تعلق قوله وقال (إني مهاجر إلى ربي) بما تقدم ؟ فنقول لما بالغ إبراهيم في الإرشاد ولم يهتد قومه ، وحصل اليأس الكلي حيث رأى القوم الآية الكبرى (ولم يؤمنوا) وجبت المهاجرة ، لأن الهادي إذا هدى قومه ولم ينتفعوا ببقاؤه فيهم مفسدة لأنه إن دام على الإرشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر صدق وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضى بأفعالنا ، وإذا لم يبق للاقامة وجه وجبت المهاجرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (مهاجر إلى ربي) ولم يقل مهاجر إلى حيث أمرني ربي مع أن المهاجرة إلى الرب توهم الجهة ، فنقول قوله (مهاجر) إلى حيث أمرني ربي ليس في الإخلاص كقوله (إلى ربي) لأن الملك إذا صدر منه أمر برواح الأجناد إلى الموضع الفلاني ، ثم إن واحداً منهم سافر إليه لغرض [في] نفسه يصيبه فقد هاجر إلى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصاً لوجهه فقال (مهاجر إلى ربي) يعني توجهي إلى الجهة المأمور بالمهاجرة إليها ليس طلباً للجهة إنما هو طلب لله :

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ

أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ .

ثم قال تعالى ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم) أن أثر رحمة الله في أمرين في الأمان من سوء العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل إلى المؤمن في الدار الآخرة قطعاً يحكم وعد الله نفي العذاب عنه لنفيه الشرك وإثبات الثواب لإثباته الواحد، ولكن هذا ليس بواجب الحصول في الدنيا، فإن كثيراً ما يكون الكافر في رعد والمؤمن جائع في يومه متفكر في أمر غده لكنهما مطلوبان في الدنيا، أما دفع العذاب العاجل فلأنه ورد في دعاء النبي ﷺ، قوله «وقنا عذاب الفقر والنار» فعذاب الفقر إشارة إلى دفع العذاب العاجل، وأما الثواب العاجل ففي قوله (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) إذا علم هذا فنقول إن إبراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولاً دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار. ولما أتى به مرة بعد مرة مع إصرار القوم على التكذيب وإضرارهم به بالتعذيب، أعطاه الجزاء الآخر، وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) وفي الآية لطيفة: وهي أن الله بدل جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيداً فريداً فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته، ولما كان أولاً قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر، بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل الله فيهم النبوة والكتاب، وكان أولاً لاجاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آناه الله أجره من المال والجاه، فكثير ماله حتى كان له من المواشي ما علم الله عدده، حتى قيل إنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارص بأطواق ذهب، وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة، فصار معروفاً بشيخ المرسلين بعد إن كان خاملاً. حتى قال قائلهم (سمعنا قتي يذكرهم يقال له إبراهيم) وهذا الكلام لا يقال إلا في مجهول بين الناس، ثم إن الله تعالى قال (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) يعني ليس له هذا في الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسنة أو أمل له استدراجاً ليكثر من سيئاته بل هذا له عجالة وله في الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين، فإن كون العبد صالحاً أعلى مراتبه، لما ينال أن الصالح هو الباقي على ما ينبغي، يقال الطعام بعد صالح، أي هو باق على ما ينبغي، ومن بقى على ما ينبغي لا يكون في عذاب، ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب وفي الآية مسألتان: ﴿إحدهما﴾ أن إسماعيل كان من أولاده الصالحين، وكان قد أسلم لأمر الله بالذبح وانقاد

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ
 الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ
 الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

لحكم الله ، فلم لم يذكر؟ فيقال هو المذكور في قوله (وجعلنا في ذريته النبوة) ولكن لم يصرح باسمه
 لأنه كان غرضه تبيين فضله عليه بهية الأولاد والأحفاد ، فذكر من الأولاد واحداً وهو الأبا كبر ،
 ومن الأحفاد واحداً وهو الأظهر . كما يقول القائل إن السلطان في خدمته الملوك والأمراء الملك
 القلاني والأمير الفلاني ولا يعدد [كل] لأن ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصيته ولو
 ذكر غيره لفهم منه التعدد واستيعاب الكل بالذكر ، فيظن أنه ليس معه غير المذكورين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن الله تعالى جعل في ذريته النبوة إجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن
 يسوى بين ولديه ، فكيف صارت النبوة في أولاد اسحاق أكثر من النبوة في أولاد اسماعيل ؟
 فنقول : الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم إلى القيامة قسمين والناس جمعين ، فالقسم الأول
 من الزمان بعث الله فيه أنبياء فيهم فضائل جمعة وجاءوا تترى واحداً بعد واحد ، ومجتمعين في عصر
 واحد كلهم من ورثة اسحاق عليه السلام ، ثم في القسم الثاني من الزمان أخرج من ذرية ولده
 الآخر وهو اسماعيل واحداً جمع فيه ما كان فيهم وأرسله إلى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه
 وسلم وجعله خاتم النبيين ، وقد دام الخلق على دين أولاد اسحاق أكثر من أربعة آلاف سنة
 فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية اسماعيل مثل ذلك المقدار .

ثم قال تعالى ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أنتم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من
 العالمين ، أنتم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ، فما كان جواب
 قومه إلا أن قالوا ائتنا بعدد الله إن كنت من الصادقين ، قال رب انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ
 الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

الإعراب في لوط ، والتفسير كما ذكرنا في قوله (وإبراهيم إذ قال لقومه) وههنا مسائل :
 ﴿ الأولى ﴾ قال إبراهيم لقومه (اعبدوا الله) وقال عن لوط ههنا أنه قال لقومه (لتأتون
 الفاحشة) فنقول لما ذكر الله لوطاً عند ذكر إبراهيم وكان لوط في زمان إبراهيم لم يذكر عن
 لوط أنه أمر قومه بالتوحيد مع أن الرسول لا بد من أن يقول ذلك فنقول حكاية لوط وغيرها

ههنا ذكرها الله على سبيله الاختصار ، فاقصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ، ولم يذكر عنه الأمر بالتوحيد وإن كان قاله في موضع آخر حيث قال (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) لأن ذلك كان قد أتى به إبراهيم وسبقه فصار كالمختص به و لوط يبلغ ذلك عن إبراهيم . وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصاً بلوط ، فإن إبراهيم لم يظهر ذلك [في زمنه] ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره .

(المسألة الثانية) لم سمي ذلك الفعل فاحشة ؟ فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه ، ثم إن الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله في الإنسان ، فمصلحة الشهوة الفرجية هي بقاء النوع بتوليد الشخص ، وهذه المصلحة لا تحصل إلا بوجود الولد وبقائه بعد الأب ، فانه لو وجد ومات قبل الأب كان يفنى النوع بقاء القرن الأول ، لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضى إلى بقاء النوع ، لأننا بينا أن البناء بالوجود وبقاء الولد بعد الأب لكن الزنا وإن كان يفضى إلى وجود الولد ولكن لا يفضى إلى بقاءه ، لأن المياه إذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والإنفاق عليه فيضيع ويهلك ، فلا يحصل مصلحة البقاء ، فاذن الزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التي لأجلها خلقت ، فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستر المصلحة فهو فاحشة ، وإذا كان الزنا فاحشة مع أنه يفضى إلى وجود الولد ولكن لا يفضى إلى بقاءه ، فاللواط التي لا تفضى إلى وجوده أولى بأن تكون فاحشة .

(المسألة الثالثة) الآية دالة على وجوب الحد في اللواط ، لأنها مع الزنا اشتركت في كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة) واشتراهما في الفاحشة يناسب الزجر عنه ، فما شرع زاجراً هناك يشرع زاجراً ههنا ، وهذا وإن كان قياساً إلا أن جامعه مستفاد من الآية ، ووجه آخر ، وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها إبطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلاً ، فوجب أن يعذب من أتى به بإبطار الحجارة به عاجلاً وهو الرجم ، وقوله (ما سبقكم بها من أحد) يشمل وجهين (أحدهما) أن قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر ، (والثاني) أن قبلهم ربما أتى به واحد في النذرة لكنهم بالغوا فيه ، فقال لهم ما سبقكم بها من أحد ، كما يقال إن فلاناً سبق البخلاء في البخل ، وسبق اللثام في اللؤم إذا زاد عليهم ، ثم قال تعالى (أنتم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) بياناً لما ذكرنا ، يعنى تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتغل على المصلحة التي هي بقاء النوع ، حتى يظهر أنه قبيح لم يستر قبحه مصلحة ، وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى (أتأتون الرجال شهوة من دون النساء) يعنى إتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلنكم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله (وتأتون في ناديتكم المنكر) يعنى ما كفا لم قبيح فعلكم حتى تضمون إليه قبح الاظهار ، وقوله (فما كان جواب قومه) في التفسير ، كقوله في قصة إبراهيم (وما كان جواب قومه) وفي الآية مسائل :

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
 إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ «٣١» قَالَ إِن فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ
 وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ «٣٢»

(الأولى) قال قوم إبراهيم (اقتلوه أو حرقوه) وقال قوم لوط (اقتلنا بعذاب الله) وما هددوه ، مع أن إبراهيم كان أعظم من لوط ، فإن لوطاً كان من قومه ، فنقول إن إبراهيم كان يقدر في دينهم ويشتم آلهتهم بتعدد صفات نقصهم بقوله : لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى . والقدر في الدين صعب ، ففعلوا جزاءه القتل والتحريق ، ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم إلى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون إن هذا واجب من الدين ، فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم إبراهيم قول إبراهيم ، فقالوا إنك تقول إن هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول لا يعذب ، فإن كنت صادقاً فأتنا بالعذاب ، فان قيل إن الله تعالى قال في موضع آخر (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم) وقال هنا (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا) فكيف الجمع ؟ فنقول لوط كان ثابتاً على الإرشاد مكرراً عليهم التغيير والنهي والوعيد ، فقالوا أولاً ائتنا ، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ، ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله (فقال رب انصرني على القوم المفسدين) فان الله لا يحب المفسدين ، حتى ينجز النصر .

واعلم أن نبياً من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم ، كما قال نوح (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) يعني المصلحة إما فيهم حالاً أو بسببهم مآلاً ولا مصلحة فيهم ، فانهم يضلون في الحال وفي المآل فانهم يوصون الأولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع ، فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله ، بطلت المصلحة حالاً ومآلاً ، فعدمهم صار خيراً ، فطلب العذاب .

ثم قال تعالى ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ، قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ لما دعا لوط على قومه بقوله (رب انصرني) استجاب الله دعاه ، وأمر ملائكته باهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين ، فجاءوا إبراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) يعني أهل سدوم ، وفي الآية لطيفتان : (إحداهما) أن الله جعلهم مبشرين ومنذرين ،

لكن البشارة أثر الرحمة والإبذار بالهلاك أثر الغضب ، ورحمته سبقت غضبه ، فقدم البشارة على الإبذار . وقال (جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ثم قال (إنا مهلكوا) (الثانية) حين ذكروا البشرى ما عللوا وقالوا إنا نبشرك لأنك رسول ، أو لأنك مؤمن أو لأنك عادل ، وحين ذكروا الإهلاك عللوا ، وقالوا (إن أهلها كانوا ظالمين) لأن ذا الفضل لا يكون فضله بعوض ، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم ، وفيه مسألتان :

(إحداهما) لو قال قائل أى تعلق لهذه البشرى بهذا الإبذار ، نقول لما أراد الله إهلاك قوم وكان فيه إخلاء الأرض عن العباد قدم على ذلك إعلام إبراهيم بأنه تعالى يملأ الأرض من العباد الصالحين حتى لا يتأسف على إهلاك قوم من أبناء جنسه .

(والثانية) قال فى قوم نوح (فأخذهم الطوفان) وقد قلت إن ذلك إشارة إلى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ، ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين ، وههنا قال (إن أهلها كانوا ظالمين) ولم يقل وإنهم ظالمون ، فنقول لا فرق فى الموضوعين فى كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم ، لكن هناك الإخبار من الله وعن الماضى حيث قال (فأخذهم) وكانوا ظالمين ، فقال أخذهم وهم عند الوقوع فى العذاب ظالمون ، وههنا الإخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا (إنا مهلكوا) فالملائكة ذكروا ما يحتاجون إليه فى إبانة حسن الأمر من الله بالإهلاك ، فقالوا (إنا مهلكوهم) لأن الله أمرنا ، وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين ، فحسن أمر الله عند كل أحد ، وأما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا إليه ، فان الكلام عن الملك بغير إذنه سوء أدب ، فنحن ما احتجنا إلا إلى هذا القدر ، وهو أنهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله باهلاكم بياناً لحسن الأمر ، وأما أنهم ظالمون فى وقتنا هذا أو يبقون كذلك فلا حاجة لنا إليه ، ثم إن إبراهيم لما سمع قولهم قال لهم إن فيها لوطاً إشفافاً عليه ليعلم حاله ، أو لأن الملائكة لما قالوا (إنا مهلكوا) وكان إبراهيم يعلم أن الله لا يهلك قوماً وفيهم رسوله ، فقال تعجباً إن فيهم لوطاً فكيف يهلكون ، فقالت الملائكة نحن أعلم بمن فيها ، يعنى نعلم أن فيهم لوطاً فلتنجيته وأهله ونهلك الباقين ، وههنا لطيفة : وهو أن الجماعة كانوا أهل الخير ، أعنى إبراهيم والملائكة ، وكل واحد كان يزيد على صاحبه فى كونه خيراً . أما إبراهيم فلما سمع قول الملائكة (إنا مهلكوا) أظهر الإشفاق على لوط ونسى نفسه وما بشروه ولم يظهرها فرحاً ، وقال (إن فيها لوطاً) ثم إن الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه ، وقالوا إنك ذكرت لوطاً وحده ونحن تنجيته وتنجى معه أهله ، ثم استثنوا من الأهل امرأته ، وقالوا (إلا امرأته كانت من الغابرين) أى من المهلكين ، وفى استعمال الغابر فى المهلك وجهان ، وذلك لأن الغابر لفظ مشترك فى الماضى ، وفى الباقى يقال فيما غبر من الزمان أى فيما مضى ويقال الفعل ماضى وغابر أى باقى ، وعلى الوجه الأول نقول إن ذكر الظالمين سبق فى قولهم (إنا مهلكوا) أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين) ثم جرى ذكر لوط بتذكير إبراهيم وجواب الملائكة ، فقالت الملائكة (إنها

وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ
وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَأَنَّ مِنَ الْغَابِرِينَ «٣٣» إِنَّا مَنزِلُونَ
عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ «٣٤» وَلَقَدْ تَرَكْنَا
مِنْهَا آيَةً يَذَّبُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «٣٥»

من الغابرين) أى الماضى ذكرهم لا من الذين تنجى منهم ، أو نقول المهلك يفنى ويمضى زمانه
والناجى هو الباقي فقالوا (إنها من الغابرين) أى من الراتحين الماضين لا من الباقيين المستمرين ،
وأما على الوجه الثانى فنقول لما قضى الله على القوم بالإهلاك كان الكل فى الهلاك إلا من تنجى
منه فقالوا إنا تنجى لوطاً وأهله ، وأما امرأته فهى من الباقيين فى الهلاك .

ثم قال تعالى (ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا
تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ، إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً
من السماء بما كانوا يفسقون ، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) .

ثم إنهم جاؤا من عند ابراهيم إلى لوط على صورة البشر فظنهم بشراً فخاف عليهم من قومه
لأنهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسىء بهم أى جاءه ما ساءه وخاف
ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعاً كناية عن العجز فى تدبيرهم ، قال الزمخشري يقال
طال ذرعه وذرعه للقادر وضاق للعاجز ، وذلك لأن من طال ذرعه يصل إلى ما لا يصل إليه
قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجهاً معقولاً غير ذلك ، وهو أن الخوف والحزن يوجبان انقباض
الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هو أيضاً والقلب هو المعتبر من الانسان ، فكان الانسان
انقبض وانجمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق ، ويقال فى الحزين ضاق ذرعه
والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال اتسع ذرعه ،
ثم إن الملائكة لما رأوا خوفه فى أول الأمر وحزنه بسبب تدبيرهم فى ثانى الأمر قالوا لا تخف
علينا ولا تحزن بسبب التفكير فى أمرنا ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فان مجرد قول
القائل لا تخف لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم (إنا منجوك وأهلك) وإنا
منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له أنهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه وفى الآية مسائل :
(إحداهما) أنه تعالى قال من قبل (ولما جاءت رسلنا ابراهيم) وقال ههنا (ولما أن
جاءت رسلنا) فما الحكمة فيه ؟ فنقول حكمة بالغة وهى أن الواقع فى وقت المجيء هناك قول

الملائكة (إنا مهلكوا) وهو لم يكن متصلاً بمجيئهم لأنهم بشروا أولاً ولبشوا، ثم قالوا إنا مهلكوا وأيضاً فالتأني واللبث بعد المجيء ثم الأخبار بالهلاك حسن فإن من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجيء به، والواقع هنا هو خوف لوط عليهم، والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئاً من الجناية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير، إذا علم هذا فقوله ههنا (ولما أن جاءت رسلنا) يفيد الاتصال يعني خاف حين المجيء، فان قلت هذا باطل بما أن هذه الحكاية جاءت في سورة هود، وقال (ولما جاءت رسلنا لوطاً) من غير أن، فنقول هناك جاءت حكاية إبراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) فقوله هنالك (ولقد جاءت) لا يدل على أن قولهم (إنا أرسلنا) كان في وقت المجيء. وقوله (ولما جاءت رسلنا لوطاً سئ بهم) دل على أن حزنه كان وقت المجيء. إذا علم هذا فنقول : هناك قد حصل ما ذكرنا من المقصود بقوله في حكاية إبراهيم (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام، ثم قالوا (لا تخف) ولا تحزن (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) فحصل تأخير الانذار، وبقوله في حكاية لوط (ولما جاءت رسلنا) حصل بيان تعجيل الحزن، وأما هنا لما قال في قصة إبراهيم (ولما جاءت) قال في حكاية لوط (ولما أن جاءت) لما ذكرنا من الفائدة.

(المسألة الثانية) قال هنا (إنا منجوك وأهلك) وقال لإبراهيم (لننجينه) بصيغة الفعل فهل فيه فائدة؟ قلنا ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً، والذي يظهر لعقل الضعيف أن هناك لما قال لهم إبراهيم (إن فيها لوطاً) وعدوه بالتنجية ووعد الكريم حتم، وههنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة أخرى قالوا (إنا منجوك) أي ذلك واقع منا كقوله تعالى (إنك ميت) لضرورة وقوعه.

(المسألة الثالثة) قولهم (لا تخف ولا تحزن) لا يناسبه (إنا منجوك) لأن خوفه ما كان على نفسه، نقول بينهما مناسبة في غاية الحسن، وهي أن لوطاً لما خاف عليهم وحزن لأجلهم قالوا له لا تخف علينا ولا تحزن لأجلنا فإنا ملائكة، ثم قالوا له : يا لوط خضت علينا وحزنت لأجلنا، ففي مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك، وفي مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع في أهلك فقالوا (إنا منجوك وأهلك).

(المسألة الرابعة) القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم؟ فنقول الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر، كما أن الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم، فبالدلالة صارت واحدة منهم، ثم إنهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا أنهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء) واختلفوا في ذلك، فقال بعضهم حجارة

وقيل نار وقيل خسف ، وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وإنما يكون الأمر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء ، ثم اعلم أن كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع إبراهيم قدموا البشارة على الانذار حيث قالوا (إنا منجوك) ثم قالوا (إنا منزلون على أهل هذه القرية) ولم يعلموا التنجية ، فما قالوا إنا منجوك لأنك نبي أو عابد ، وعللوا الإهلاك بقولهم (بما كانوا يفسقون) وقالوا بما كانوا ، كما قالوا هناك (إن أهلها كانوا ظالمين) ثم قال تعالى (ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون) أي من القرية فان القرية معلومة وفيها الماء الأسود وهي بين القدس والكرك وفيها مسائل :

(إحداهما) جعل الله الآية في نوح وإبراهيم بالنجاة حيث قال (فأنجيناها وأصحاب السفينة وجعلناها آية) وقال (فأجاء الله من النار إن في ذلك لآيات) وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شيء ؟ نقول نعم ، أما إبراهيم فلأن الآية كانت في النجاة لأن في ذلك الوقت لم يكن إهلاك ، وأما في نوح فلأن الإنجاء من الطوفان الذي علا الجبال بأسرها أمر عجيب إلهي ، وما به النجاة وهو السفينة كان باقياً ، والغرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقي آية ، وأما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الأمر الباقي وهو ههنا البلاد وهناك السفينة وههنا لطيفة : وهي أن الله تعالى آية قدرته موجودة في الإنجاء والإهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الإنجاء لأنها أثر الرحمة وأخر آيات الإهلاك لأنها أثر الغضب ورحمته سابقة .

(المسألة الثانية) قال في السفينة (وجعلناها آية) ولم يقل بيّنة وقال ههنا آية بيّنة نقول لأن الإنجاء بالسفينة أمر يتسع له كل عقل وقد يقع في وهم جاهل أن الإنجاء بالسفينة لا يفتقر إلى أمر آخر ، وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عليها ساقلها وهو ليس بمعتاد ، وإنما ذلك بإرادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفي زمان دون زمان ، فهي بيّنة لا يمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة النجاة بها أمر يكون كذلك إلى أن يقال له فمن أين علم أنه يحتاج إليها ولو دام الماء حتى ينفذ زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ؟ ولو سلب الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون أحوالهم ؟ .

(المسألة الثالثة) قال هناك للعالمين وقال ههنا (لقوم يعقلون) قلنا لأن السفينة موجودة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتذكرون بها حاله ، وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاء ولا يثق أحد بمجرد السفينة ، بل يكون دائماً مرتجف القلب متضرعاً إلى الله تعالى طلباً للنجاة ، وأما أثر الإهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليه إلا من يمر بها ويصل إليها ويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله المرید ، بسبب اختصاصه بمكان ، دون مكان ووجوده في زمان بعد زمان .

وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ
وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي
دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٢٧﴾

ثم قال تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا
تعثوا في الأرض مفسدين ، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾
لما أتم الحكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع في الثالثة وقال (وإلى مدين
أخاهم) واختلاف المفسرون في مدين ، فقال بعضهم إنه اسم رجل في الأصل وحصل له ذرية فاشتهر
في القبيلة كتميم وقيس وغيرهما ، وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم إليه ، واشتهر في القوم ،
والأول كأنه أصح وذلك لأن الله أضاف الماء إلى مدين حيث قال (ولما ورد ماء مدين) ولو كان
اسماً للماء لكاتبت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقة والأصل في الاضافة التغير حقيقة ، وقوله
(أخاهم) قيل لأن شعيباً كان منهم نسباً ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الله تعالى في نوح (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) قدم نوحاً في الذكر
وعرف القوم بالإضافة إليه وكذلك في إبراهيم ولوط ، وههنا ذكر القوم أولاً وأضاف إليهم
أخاهم شعيباً ، فنقول الأصل في جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن المرسل
لا يبعث رسولا إلى غير معين ، وإنما يحصل قوم أو شخص يحتاجون إلى إنباء من المرسل فيرسل
إليهم من يختاره غير أن قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة
يعرفون بها ، فعرفوا بالنبي فقيل قوم نوح وقوم لوط ، وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم
نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال الله (وإلى مدين أخاهم شعيباً)
وقال (وإلى عاد أخاهم هوداً) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد ، وذكر عن شعيب ذلك ؟
قلنا قد ذكرنا أن لوطاً كان له قوم وهو كان من قوم إبراهيم وفي زمانه ، وإبراهيم سبقه بذلك
واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق من إبراهيم فلم يذكره عن لوط وإنما ذكر منه
ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها ، وإن كان هو أيضاً يأمر بالتوحيد ، إذ ما من رسول إلا
ويكون أكثر كلامه في التوحيد ، وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلاً أيضاً في
التوحيد فبدأ به وقال (اعبدوا الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الإيمان لا يتم إلا بالتوحيد ، والأمر بالعبادة لا يفيد لأن من يعبد الله

ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله (اعبدوا الله) ؟ فنقول : هذا الأمر يفيد التوحيد، وذلك لأن من يرى غيره يخدم زيدا وعمرو هناك وهو أكبر أو هو سيد زيد ، فإذا قال له اخدم عمراً يفهم منه أنه يأمره بصرف الخدمة إليه ، وكذا إذا كان لواحد دينار واحد ، وهو يريد أن يعطيه زيدا ، فإذا قيل له أعطه عمراً يفهم منه لانهطه زيدا ، فنقول هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب (اعبدوا الله) ففهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة ويريد وضعها في عبادة غير الله فقال لهم شعيب ضعوها في موضعها وهو عبادة الله ففهم منه التوحيد ، ثم قال (وارجوا اليوم الآخر) قال الزمخشري معناه افعلوا ما ترجون به العاقبة إذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلاً ، ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلاً . وقوله (وارجوا اليوم الآخر) فيه مسائل :

(المسألة الأولى) هذا يدل على صحة مذهبنا ، فان عندنا من عبد الله طول عمره يشبه الله تفضلاً ولا يجب عليه ذلك لأن العابد قد وصل إليه من النعم ما لو زاد على ما أتى به لما خرج عن عهدة الشكر ، ومن شكر المنعم على نعم سبقت لا يلزم المنعم أن يزيد ، وإن زاده يكون إحساناً منه إليه وإنعاماً عليه ، فنقول قوله (وارجوا اليوم) بعد قوله (اعبدوا الله) يدل على التفضل لا على الوجوب فإن الفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به .

(المسألة الثانية) قال (وارجوا اليوم الآخر) ولم يقل وخافوه مع أن ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس ، لفسقه وفجوره ومحبته الدنيا ولا يرجوه إلا قليل من عباده ، فنقول لما ذكر التوحيد بطريق الإثبات وقال (اعبدوا) ولم يذكره بطريق النفي وما قال ولا تعبدوا غيره قال بلفظ الرجاء لأن عبادة الله يرجى منها الخير في الدارين ، وفيه وجه آخر وهو أن الله حكى في حكاية إبراهيم أنه قال إنكم اتخذتم الأوثان مودة بينكم في الحياة الدنيا ، وأما في الآخرة فتكفرون بها ، وقال ههنا لا تكونوا كالذين سبق ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر ، فاقصروا على مودة الحياة الدنيا ، وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ، ثم قال (ولا تعشوا في الأرض مفسدين) يمكن أن يقال نصب مفسدين على المصدر كما يقال قم قائماً أى قياماً ويكون قوله (ولا تعشوا في الأرض مفسدين) كقول القائل اجلس قعوداً لأن العيث والفساد بمعنى ، وجمع الأوامر والنواهي في قوله (اعبدوا الله) وقوله (ولا تعشوا) ثم إن قومه كذبوه بعد ما بلغ وبين ، فخكى الله عنهم ذلك بقوله (فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) ما حكى عن شعيب أمر ونهى والأمر لا يصدق ولا يكذب ، فان من قال لغيره قم لا يصح أن يقول له كذبت ، فنقول كان شعيب يقول الله واحد فاعبدوه ، والحشر كائن فارجوه ، والفساد محرم فلا تقر به ، وهذه الأشياء فيها إخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به .

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ «٢٨» وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ «٢٩»

(المسألة الثانية) قال ههنا وفي الأعراف (فأخذتهم الرجفة) وقال في هود (فأخذتهم الصيحة) والحكاية واحدة ، نقول لا تعارض بينهما فإن الصيحة كانت سبباً للرجفة ، إما لرجفة الأرض إذ قيل إن جبريل صاح فزلزلت الأرض من صيحته ، وإما لرجفة الأفئدة فان قلوبهم ارتجفت منها ، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب ، إذ يصح أن يقال روى فقوى ، وأن يقال شرب فقوى في صورة واحدة .

(المسألة الثالثة) حيث قال (فأخذتهم الصيحة) قال (في ديارهم) وحيث قال (فأخذتهم الرجفة) قال (في دارهم) فنقول المراد من الدار هو الديار ، والإضافة إلى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع ، وأن تكون بلفظ الواحد إذا أمن الإلتباس ، وإنما اختلف اللفظ للطيفة ، وهي أن الرجفة هائلة في نفسها فلم يحتج إلى مهول ، وأما الصيحة فغير هائلة في نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة في الأرض ذكر الديار بلفظ الجمع ، حتى تعلم هيبتها . والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج إلى معظم لامرها ، وقيل إن الصيحة كانت أعم حيث عمّت الأرض والجو ، والزلزلة لم تكن إلا في الأرض فذكر الديار هناك غير أن هذا ضعيف لأن الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة ، فهم ما أصبحوا جاثمين إلا في ديارهم . قوله تعالى ﴿ وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ، وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين ﴾ [١]

ثم قال تعالى (وعاداً وثمود) أي وأهلكنا عاداً وثمود لأن قوله تعالى (فأخذتهم الرجفة) دل على الإهلاك (وقد تبين لكم من مساكنهم) الأمر وما تعتبرون منه ، ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) فقوله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) يعني عبادتهم لغير الله (وصدهم عن السبيل) يعني عبادة الله (وكانوا مستبصرين) يعني بواسطة الرسل يعني فلم يكن لهم في ذلك عذر فان الرسل أوضحوا السبيل . ثم قال تعالى (وقارون وفرعون وهامان) عطفاً عليهم أي : وأهلكنا قارون وفرعون وهامان .

(١) جرت عادة المؤلف أن يذكر الآية بتامها مجردة أولاً ، ثم يعيد تفسيرها كلمة كلمة ، وقد خرج المصنف هنا عن هذه العادة ، فأثبتنا الآية كالمعتاد ووضعناها بين قوسين بربعين هكذا ليفهم أن هذا من صديقتنا (المصحح)

فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ
وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

مِثْلَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا

ثم قال تعالى (ولقد جاءهم موسى بالبينات) كما قال في عاد وثمود (وكانوا مستبصرين)
أى بالرسل ، ثم قال تعالى (فاستكبروا) أى عن عبادة الله وقوله (فى الأرض) إشارة إلى
ما يوضح قلة عقلهم فى استكبارهم ، وذلك لأن من فى الأرض أضعف أقسام المكلفين ، ومن فى
السماء أقواهم ، ثم إن من فى السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته ، فكيف [يستكبر] من فى
الأرض . ثم قال تعالى (وما كانوا سابقين) أى ما كانوا يفوتون الله لأننا بينا فى قوله تعالى (وما
أنتم بمعجزين فى الأرض) أن المراد أن أفطار الأرض فى قبضة قدرة الله .

ثم قال تعالى ﴿ فكلنا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم
من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .
ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب ، وقيل إنه كان بحجارة حماة يقع على واحد منهم وينفذ
من الجانب الآخر ، وفيه إشارة إلى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج ، فان الصوت قيل
سببه تموج الهواء ووصوله إلى الغشاء الذى على منفذ الأذن وهو الصياح فيقرعه فيحس ، والعذاب
بالخسف وهو الغمر فى التراب ، والعذاب بالإغراق وهو بالماء . فحصل العذاب بالعناصر الأربعة
والإنسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه ، فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل مآلته
وجوده سبباً لعدمه ، وما به بقاؤه سبباً لفنائه ، ثم قال تعالى (وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا
أنفسهم يظلمون) يعنى لم يظلمهم بالهلاك ، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك وفيه وجه آخر اللفظ
وهو أن الله ما كان يظلمهم أى ما كان يضعهم فى غير موضعهم فان موضعهم الكرامة كما قال تعالى
(ولقد كرمتنا بنى آدم) لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم فى عبادة الوثن مع خسته .
ثم قال تعالى ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله آلياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ .

لما بين الله تعالى انه أهلك من أشرك عاجلاً وعذب من كذب آجلاً ، ولم ينفعه فى الدارين
معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده ، مثل اتخاذه ذلك معبوداً باتخاذ العنكبوت بيتاً لا يجير
أولياً ولا يريح ثاورياً ، وفى الآية لطائف نذكرها فى مسائل :

(المسألة الأولى) ما الحكمة فى اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال ؟ فنقول فيه وجوه .

(الأول) ان البيت ينبغي أن يكون له أمور : حائط حائل ، وسقف مظل ، وباب يغلّق ، وأمور ينتفع بها ويرتفق ، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين . إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر ، فإن لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس بيت لكن بيت العنكبوت لا يجنّها ولا يكتنّها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار ، فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضرر أو جر نفع ، فإن من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء ، فاذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء ، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء . (الثاني) هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فإن البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضاً الهواء والماء والنار والتراب ، والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار ، والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب ان كان لا يدفع شيئاً يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فإن الشمس بشعاعها تنفذ فيه ، وكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر في الغير ، فإن لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر في العابد ، فإن لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم إن أرادوا أجلوه وإن أحبوا أذلوه (الثالث) أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق ، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت ، فإن العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها ، فإذا نسج على نفسه واتخذ بيتاً يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت ، وكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب ، فإن لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب ، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب .

(المسألة الثانية) مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتاً ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين (أحدهما) أن نسجه فيه فائدة له ، لولاه لما حصل وهو اصطياها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه ، واتخاذهم الأوثان وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا ، لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت (الوجه الثاني) هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتاً أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت اكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة ، لكنهم اتخذوها أولياء كجمل العنكبوت النسج بيتاً وكلاهما باطل .

(المسألة الثالثة) كما أن هذا المثل صحيح في الأول فهو صحيح في الآخر ، فإن بيت العنكبوت إذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منشوراً ، فكذلك أعمالهم للأوثان كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منشوراً) .

(المسألة الرابعة) قال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) ولم يقل آلهة إشارة إلى إبطال الشرك الخفي أيضاً ، فإن من عبد الله رياء لغيره فقد اتخذ ولياً غيره فمثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتاً .

وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتَ لَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

ثم إنه تعالى قال ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .
إشارة إلى ما بينا أن كل بيت فيه إما فائدة الاستظلال أو غير ذلك ، وبيته يضعف عن إعادة
ذلك لأنه يخرب بأدنى شيء ولا يبقى منه عين ولا أثر (فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون) .
ثم قال تعالى ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ﴾
قال الزمخشري : هذا زيادة تؤكد على التمثيل حيث إنهم لا يدعون من دونه من شيء ، بمعنى
ما يدعون ليس بشيء وهو عزيز حكيم . فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشغل
بعبادة ما ليس بشيء أصلاً ، وهذا يفهم منه أنه جعل مانافية ، وهو صحيح ، والعلم يتعلق بالجملة كما
يقول القائل : إني أعلم أن الله واحد حق ، يعني أعلم هذه الجملة ، وإن كنا نجعل ما خبرية فيكون
معناه ما يدعون من شيء فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على إعدامه وإهلاكم ، لكنه حكيم
يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة ، ومن ههنا يكون الخطاب مع أمة محمد ﷺ وعلى
هذا لو قال قائل ما وجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق ؟ فنقول لما قال إن مثلهم كمثل العنكبوت ،
فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الأوثان التي أتخذها وهي تحت تسخيرى ، وإنما هي صورة
كوكب أنا تحت تسخيريه ومنه نفى وضرى وخيرى وشرى ووجودى ودوامى فله سجودى
واعظامى ، فقال الله تعالى الله يعلم أن كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لأن
الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم
للحاضر ولا معبود إلا الله ولا إله سواه .

ثم قال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾

قال الكافرون كيف يضرب خالق الأرض والسماوات الأمثال بالهوام والحشرات كالبعوض
والذباب والعنكبوت ؟ فيقال الأمثال تضرب للناس إن لم تكونوا كالإنعام يحصل لكم منه إدراك
ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه وذلك لأن التشبيه يؤثر في النفس تأثيراً مثل تأثير الدليل ، فإذا قال
الحكيم لمن يغتاب إنك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لأنك وقعت في هذا الرجل وهو غائب
لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع في ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر
على دفعه إن كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر إذا قال له إنه يوجب العذاب ويورث العقاب .

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

ثم قال تعالى ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾

يعنى حقيقةها وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه ، وفيه معنى حكيم وهو أن العلم الحدسى يعلمه العاقل والعلم الفكرى الدقيق يعقله العالم ، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهراً أو كون المدرك عاقلاً ، ولا يحتاج إلى كونه عالماً بأشياء قبله ، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلا بد من عالم ، ثم إنه قد يكون دقيقاً في غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالماً . إذا علم هذا فقوله (وما يعقلها إلا العالمون) يعنى هو ضرب للناس أمثالا وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها إلا العلماء .

ثم إنه تعالى لما أمر الخلق بالإيمان وأظهر الحق بالبرهان . ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصاً فيها عبر ، وأنذرهم على كفرهم بإهلاك من غير ، وبين ضعف دليلهم بالتمثيل ، ولم يهتدوا بذلك إلى سواء السبيل ، وحصل بأس الناس عنهم سلى المؤمنين بقوله :

﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ .

يعنى إن لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكاً فى صحة دينكم ، ولا يؤثر شكهم فى قوة يقينكم ، فان خلق الله السموات والأرض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر ، وبرهان باهر ، وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر ، وفى الآية مسألة يتبين بها تفسير الآية ، وهى أن الله تعالى كيف خص الآية فى خلق السموات والأرض بالمؤمنين مع أن فى خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى (واثن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقال الله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار - إلى أن قال - آيات لقوم يعقلون) فنقول خالق السموات والأرض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب ، وبيانه من حيث النقل والعقل ، أما النقل فقوله تعالى (ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) أخرج أكثر الناس عن العلم يكون خلقهما بالحق مع أنه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال (واثن سألتهم من خلق السموات الأرض ليقولن الله) وأما العقل فهو أن العاقل أول ما ينظر إلى خلق السموات والأرض ويعلم ن لهما خالقاً وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك ، بل يقول إنه خلقهما تقنا محكما وهو المراد بقوله بالحق ، لأن ما لا يكون على وجه الإحكام يفسد ويبطل فيكون اطلا ، وإذا علم أنه خلقهما متقناً يقول إنه قادر كامل حيث خلق وعالم عليه شامل حيث أتقن

اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن

الفحشاء والمنكر

فيقول لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات في الأرض ولا في السموات ولا يعجز عن جمعها كما جمع أجزاء الكائنات والمبدعات ، فيجوز بعث من في القبور وبعثة الرسول ، ويعلم وحدانية الله لأنه لو كان أكثر من واحد لفسدنا ولبطلنا وهما بالحق موجودان فيحصل له الإيمان بتماهيه ، من تخلق ما خلقه على أحسن نظامه ، ثم إن الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله : بقوله تعالى ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

يعنى إن كنت تأسف على كفرهم فاتل ما أوحى إليك لتعلم أن نوحاً ولوطاً وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا في إقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال (اتل) وما قال عليهم ، لأن التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم إلا لتسليته قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الرسول إذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة في قراءته لنفسه فنقول الكتاب المنزل مع النبي المرسل ليس كذلك ، فإن الكتب المسيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام ، مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام . وقسم يكون فيه قانون كلى نحتاج إليه الرعية في جميع الأوقات كما إذا كتب الملك كتاباً فيه إنا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا إليكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فليكن ذلك كمنوال ينسج عليه وال بعد وال . فمثل هذا الكتاب لا يقرأ ويترك بل يعلق من مكان عال ، وكثيراً ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ، ويكون نصب الأعين ، فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلى فيه شفاء للعالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ إلى حد التواتر وينقله قرن إلى قرن ويأخذه قوم من قوم ويثبت في الصدور على مرور الدهور (الوجه الثانى) هو أن الكتب على ثلاثة أقسام كتاب لا تكره قراءته إلا للغير كالقصص فإن من قرأ حكاية مرة لا يقرؤها مرة أخرى إلا لغيره ، ثم إذا سمعه ذلك الغير لا يقرؤها إلا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه لشموه ، وكتاب لا يكرر عليه إلا للنفس كالنحو والفقهاء وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فإنها تكرر للغير وكلما سمعها يلتذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتكرر أيضاً لنفس المتكلم فإن كثيراً ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون أطيب وأذ وأثبت في القلب وأنفذ

حتى يكاد يبكي من رفته دماً ولو أوره البكاء عمى ، إذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان في تلاوته في كل زمان فائدة .

(المسألة الثانية) لم خصص بالأمر هذين الشيتين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة ؟ فنقول لوجهين (أحدهما) أن الله لما أراد تسليته قلب محمد عليه السلام قال له الرسول واسطة بين طرفين من الله إلى الخلق ، فإذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل ، ألا ترى أن الرسول إذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله ، فإذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك إلى وأقم الصلاة لوجهي (الوجه الثاني) هو أن العبادات المختصة بالعبد ثلاثة : وهي الاعتقاد الحق ولسانية وهي الذكر الحسن وبدنية خارجية وهي العمل الصالح ، لكن الاعتقاد لا يتكرر فإن من اعتقد شيئاً لا يمكنه أن يعتقه مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمراً والنبي عليه السلام كان ذلك حاصله عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان ، فلم يؤمر به لعدم إمكان تكراره ، لكن الذكر يمكن التكرار ، والعبادة البدنية كذلك . فأمره بهما فقال : اتل الكتاب وأقم الصلاة .

(المسألة الثالثة) كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ؟ فنقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أي فيه النهي عنهما وهو بعيد لأن إرادة القرآن من الصلاة في هذا الموضع الذي قال قبله (اتل ما أوحى إليك) بعيد من الفهم ، وقال بعضهم أراد به نفس الصلاة وهي تنهى عنهما مادام العبد في الصلاة ، لأنه لا يمكنه الاشتغال بشيء منهما ، فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا وإلا لا يكون مدحاً كاملاً للصلاة ، لأن غيرها من الأشغال كثيراً ما يكون كذلك كالنوم في وقته وغيره فنقول : المراد أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقاً وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هي التي تكون مع الحضور وهي تنهى ، حتى نقل عنه صلى الله عليه وسلم « من لم تنه صلواته عن المعاصي لم يزد بها إلا بعداً » ونحن نقول الصلاة الصحيحة شرعاً تنهى عن الأمرين مطلقاً وهي التي أتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصح صلواته شرعاً وتجب عليه الإعادة ، وهذا ظاهر فإن من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قيل لا يصح فكيف من نوى بصلواته الله وغيره إذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجوه (الأول) هو أن من كان يخدم ملكاً عظيم الشأن كثير الإحسان ويكون عنده بمنزلة ، ويرى عبداً من عبادته قد طرده طرداً لا يتصور قبوله ، وفاته الخبر بحيث لا يرجي حصوله ، يستحيل من ذلك المقرب عرفاً أن يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد إذا صلى لله صار عبداً له ، وحصل له منزلة المصلي يناجي ربه ، فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود ، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (الثاني) هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف إذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لا يباشر عن القاذورات أكثر فاذا لبس واحد منهم ثوب ديباج

مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الأشياء عرفاً ، فكذلك العبد إذا صلى لبس لباس التقوى لأنه واقف بين يدي الله واضع يمينه على شماله ، على هيئة من يقف بمرأى ملك ذي هيئة ، ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته إلى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب إلى الجسم ، فإذا لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر . ثم إن الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع (الثالث) من يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد فإذا دخل في خدمة ملك وأعطاه منصباً له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب إلا في ذلك الموضع ، فلو أراد أن يجلس في صف النعال لا يترك . فكذلك العبد إذا صلى دخل في طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين ، إذ صار من أصحاب اليمين ، فلو أراد أن يقف في غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك ، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال وهذا الوجه إشارة إلى عصمة الله يعني من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر (الرابع) وهو موافق لما وردت به الأخبار وهو أن من يكون بعيداً عن الملك كالسوقي والمناذري والمتعيش لا يبالي بما فعل من الأفعال يأكل في دكان الهراس والرواس ويجلس مع أحباش الناس ، فإذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما إذا صار واحداً من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطي ما كان يفعله ، فإذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميراً حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل في ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان ، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى (واسجد واقترب) فإذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصي والمناهي ، فيتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته ، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقدر معه من نفسه الصغائر فضلاً عن الكبار ، وفي الآية وجه آخر معقول يؤكد المنقول وهو أن المراد من قوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) هو أنها تنهى عن التعطيل والإشراك ، والتعطيل هو إنكار وجود الله ، والإشراك إثبات الوهية لغير الله . فنقول التعطيل عقيدة فحشاء لأن الفاحش هو القبيح الظاهر القبيح ، لكن وجود الله أظهر من الشمس وما من شيء إلا وفيه آية على الله ، ظاهرة وإنكار الظاهر ظاهر الإنكار ، فالقول بأن لا إله قبيح والإشراك منكر ، وذلك لأن الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفسه إلى غير الوالد مع جواز أن يكون له ولد حيث قال (إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول) فالمشرك الذي يقول الملائكة بنات الله وينسب إلى من لم يلد ، ولا يجوز أن يكون له ولد ، ولداً كيف لا يكون قوله منكراً ؟ فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء ، وهذا المنكر وذلك لأن العبد أول ما يشرع في الصلاة يقول الله أكبر ، فبقوله الله ينفي التعطيل وبقوله أكبر ينفي التشريك لأن الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك ، فإذا قال بسم الله نفي التعطيل ، وإذا قال الرحمن الرحيم نفي الإشراك ، لأن الرحمن من يعطى الوجود بالخلق بالرحمة ، والرحيم من

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يعطى البقاء بالرزق بالرحمة ، فإذا قال الحمد لله رب العالمين ، أثبت بقوله الحمد لله خلاف التعطيل وبقوله (رب العالمين) خلاف الإشراك ، فإذا قال (إياك نعبد) بتقديم إياك نفي التعطيل والإشراك وكذا بقوله (وإياك نستعين) فإذا قال (إهدنا الصراط) نفي التعطيل لأن طالب الصراط له مقصد والمعطل لا مقصد له ، وبقوله (المستقيم) نفي الإشراك لأن المستقيم هو الأقرب والمشارك يعبد الأصنام حتى يعبد صورة صورها إله العالمين ، ويظنون أنهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب ، وعلى هذا إلى آخر الصلاة يقول فيها أشهد أن لا إله إلا الله فينفي الإشراك والتعطيل ، وههنا لطيفة وهي أن الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله في قوله (أشهد أن لا إله إلا الله ليعلم المصلي أنه من أول الصلاة إلى آخرها مع الله ، فإن قال قائل فقد بقي من الصلاة قوله وأشهد أن محمداً رسول الله والصلاة على الرسول والتسليم ، فنقول هذه الأشياء في آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة ، وذلك لأن الصلاة ذكر الله لا غير ، لكن العبد إذا وصل بالصلاة إلى الله وحصل مع الله لا يقع في قلبه أنه استقل واستبد واستغنى عن الرسول ، كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت إلى النواب والحجاب ، فقال أنت في هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد ﷺ وغير مستغن عنه فقل مع ذكرى محمد رسول الله ، ثم إذا علمت أن هذا كله بركة هدايته فازكر إحسانه بالصلاة عليه ، ثم إذا رجعت من معراجك وانتهيت إلى إخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامي كما هو ترتيب المسافرين ، واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فيها هية فان أوطأ وقوف بين يدي الله كوقوف المملوك بين يدي السلطان ، ثم إن آخرها جثو بين يدي الله كما يجثو بين يدي السلطان من أكرمه بالإجلال ، كأن العبد لما وقف وأثنى على الله أكرمه الله وأجلسه جثا ، وفي هذا الجثو لطيفة وهي أن من جثا في الدنيا بين يدي ربه هذا الجثو لا يكون له جثو في الآخرة ، ولا يكون من الذين قال الله في حقهم (ونذر الظالمين فيها جثياً) .

ثم قال تعالى ﴿ ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ .

لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم ، فقال (ولذكر الله أكبر) وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة تنبشوا لذلك وتذكروهم بملء أفواهكم وقلوبكم ، لكن ذكر الله أكبر ، فينبغي أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم ، وأما الصلاة فكذلك لأن الله يعلم ما تصنعون ، وهذا أحسن صنعكم فينبغي أن يكون على وجه التعظيم ، وفي قوله (ولذكر الله أكبر) مع حذف بيان ما هو أكبر منه لطيفة وهي أن الله لم يقل أكبر من ذكر فلان لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة ، إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة ، وإنما يقال هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِهْنَاءُ وَإِهْلَامُ وَإِهْلَامُ وَإِهْلَامُ
مُسْلِمُونَ «٤٦» وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ
بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ «٤٧»

الله له الكبر لا لغيره ، وهذا كما يقال في الصلاة الله أكبر أى له الكبر لا لغيره .
ثم قال تعالى ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا
آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِهْنَاءُ وَإِهْلَامُ وَإِهْلَامُ وَإِهْلَامُ
الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾
لما بين الله طريقة إرشاد المشركين ونفع من انتفع وحصل اليأس من امتنع بين طريقة إرشاد
أهل الكتاب فقال (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) قال بعض المفسرين المراد
منه لا تجادلوهم بالسيف ، وإن لم يؤمنوا إلا إذا ظلموا وحاربوا ، أى إذا ظلموا زائد على كفرهم ،
وفيه معنى أطف منه وهو أن المشرك جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالأحسن
ويبالغ في تهجين مذهبه وتوهين شبهه ، ولهذا قال تعالى في حقهم (صم بكم عمى) وقال (لهم أعين
لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) إلى غير ذلك . وأما أهل الكتاب فجاءوا بكل حسن
إلا الاعتراف بالنبي عليه السلام فوحدوا وآمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل والحشر ، فلمقاباة
إحسانهم يجادلون أولاً بالأحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب إلى الضلال آباؤهم ، بخلاف
المشرك ، ثم على هذا فقوله (إلا الذين ظلموا) تبين له حسن آخر ، وهو أن يكون المراد إلا الذين
أشركوا منهم بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة . فانهم ضاهوهم في القول المنكرفهم الظالمون ،
لأن الشرك ظلم عظيم ، فيجادلون بالأحسن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم ، ثم إنه تعالى بين
ذلك الأحسن فقدم محاسنهم بقوله (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإهنا وإهلم واحداً
ونحن له مسلمون) فيلزمنا اتباع ما قاله لمكنه بين رسالتى فى كتبكم فهو دليل مضى ، ثم بعد ذلك
ذكر دليلاً قياسياً فقال (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب) يعنى كما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا عليك
وهذا قياس ، ثم قال (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) لوجود النص ومن هؤلاء كذلك ،
واختلاف المفسرون فقال بعضهم : المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنبينا من أهل الكتاب
كعبد الله بن سلام وغيره وبقوله (ومن هؤلاء) أى من أهل مكة وقال بعضهم : المراد بالذين

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ

الْمُبْطَلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هِيَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا

إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾

آيتناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمداً ﷺ زماناً من أهل الكتاب ، ومن هؤلاء الذين هم في زمان محمد ﷺ من أهل الكتاب وهذا أقرب ، فإن قوله (هؤلاء) صرفه إلى أهل الكتاب أولى ، لأن الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين هنا ، إذ كان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والإعراض عنهم لإصرارهم على الكفر ، وههنا وجه آخر أولى وأقرب إلى العقل والنقل ، وأقرب إلى الأحسن من الجدال المأمور به ، وهو أن نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الأنبياء وبقوله (ومن هؤلاء) أي من أهل الكتاب وهو أقرب ، لأن الذين آتاهم الكتاب في الحقيقة هم الأنبياء ، فإن الله ما آتى الكتاب إلا للأنبياء ، كما قال تعالى (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) وقال (وآتينا داود زبوراً) وقال (وآتانا الكتاب) وإذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله التخصيص ، لأن كل الأنبياء آمنوا بكل الأنبياء ، وإذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله ابن سلام واثنين أو ثلاثة معه أو عدداً قليلاً ، ويكون المزداد بقوله (ومن هؤلاء) غير المذكورين ، وعلى ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين أحدهما المشركين وتكلم فيهم وفرغ منهم والثاني أهل الكتاب وهو بعد في بيان أمرهم ، والوقت وقت جريان ذكرهم ، فإذا قال هؤلاء يكون منصرفاً إلى أهل الكتاب الذين هم في وصفهم ، وإذا قال أولئك يكون منصرفاً إلى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم ، وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه ، وذلك لأن الخلاف في الأنبياء والأئمة قريب من الخلاف في فضيلة الرؤساء والملوك ، فإذا اختلف حزبان في فضيلة ملكين أو رئيسين ، وأدى الاختلاف إلى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم هذان الملكان متوافقان متصادقان ، فلا معنى لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبي ﷺ نحن آمننا بالأنبياء وهم آمنوا بي فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا ، ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) تنفيراً لهم عما هم عليه ، يعني أنكم آمنتم بكل شيء ، وابتزتم عن المشركين بكل فضيلة ، إلا هذه المسألة الواحدة ، وبإنكارها تلتحقون بهم وتبطلون مزاياكم ، فإن الجاحد بآية يكون كافراً .

إفوله تعالى ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ [

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا

نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾

ثم قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك) هذه درجة أخرى بعد ماتقدم على الترتيب ، وذلك لأن المجادل إذا ذكر مسألة مختلفاً فيها كقول القائل : الزكاة تجب في مال الصغير ، فإذا قيل له لم ؟ فيقول كما تجب النفقة في ماله ، ولا يذكر أولاً الجامع بينهما ، فإن قنع الطالب بمجرد التشبيه وأدرك من نفسه الجامع فذاك ، وإن لم يدرك أو لم يقنع يبدى الجامع ، فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب فكذلك هنا ذكر أولاً التمثيل بقوله (وكذلك أنزلنا إليك) ثم ذكر الجامع وهو المعجزة ، فقال ما علم كون تلك الكتب منزلة إلا بالمعجزة ، وهذا القرآن من لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة ، فيعرف كونه منزلاً ، وقوله تعالى (إذن لارتاب المبطلون) فيه معنى لطيف ، وهو أن النبي إذا كان قارئاً كاتباً ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه ، فإن جميع كتبه الأرض وقرائها لا يقدرون عليه ، لكن على ذلك التقدير يكون للبطل وجه ارتباب ، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتبابه فهو أدخل في الإبطال وهذا كقوله تعالى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) أي من مثل محمد عليه السلام و كقوله (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه) .

ثم قال تعالى (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) قوله في صدور الذين أوتوا العلم إشارة إلى أنه ليس من مخترعات آدميين ، لأن من يكون له كلام مخترع يقول هذا من قلبي وخاطري ، وإذا حفظه من غيره يقول إنه في قلبي وصدري ، فإذا قال (في صدور الذين أوتوا العلم) لا يكون من صدر أحد منهم ، والجاهل يستحيل منه ذلك فلا ظهور له من الصدور و يلتحقون عند هذه الأمة بالمشركين ، فظهوره من الله .

ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) قال همنا الظالمون ، ومن قبل قال الكافرون ، مع أن الكافر ظالم ولا تنافي بين الكلامين وفيه فائدة ، وهي أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم إن لكم المزايا فلا تبطلوها بانكار محمد فتكونوا كافرين ، فلفظ الكافر هناك كان بليغاً يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر ، ثم بعد بيان المعجزة قال لهم إن جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرسل فلتتحقون في أول الأمر بالمشركين حكماً ، وملتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين ، أي مشركين ، كما بينا أن الشرك ظلم عظيم ، فهذا اللفظ هنا أبلغ وذلك اللفظ هناك أبلغ .

ثم قال تعالى ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبهتهم وهي بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس ، فقالوا إنك تقول إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى ، وليس كذلك لأن موسى أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئاً منها ، ثم إن الله تعالى أرشد نبيه إلى أجوبة هذه الشبهة منها قوله (إنما الآيات عند الله) ووجهه أن النبي ﷺ ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة ، لأن الرسول يرسل أولاً ويدعو إلى الله ، ثم إن توقف الخلق في قبوله أو طلبوا منه دليلاً ، فالله إن رحمهم بين رسالته وإن لم يرحمهم لا يبين ، فقال أنا الساعة رسول وأما الآية فالله إن أراد ينزلها وإن لم يرد لا ينزلها ، وهذا لأن ما هو من ضرورات الشيء إذا خلق الله الشيء لا بد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الإنسان فلا يخلق الله إنساناً إلا ويكون قد خلق مكاناً أو يخلقه معه ، لكن الرسالة والمعجزة ليست كذلك فالله إذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته أن تعلم له معجزة ، ولهذا علم وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فإن قيل علم رسالتهم ، نقول من ثبت رسالته بلا معجزة فنبتنا كذلك لا حاجة له إلى معجزة لأن رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لم ينزل عليه آية ؟ وهذا لأنهم طلبوا سبق الآية وليست شرطاً حتى تسبقها ، بلى إن كان لهم سؤال فطريقه أن يقولوا يا أيها المدعى نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكننا نريد أن يبين الله لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبئ وتكذيب النبي ، ونعلم بها كونك نبياً وتؤمن بك ، فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة الله أن ينزل آية .

ثم قوله (وإنما أنا نذير مبين) معناه أن الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها لا تتعلق بي ما أنا إلا نذير وليس لي عليه حكم بشئ ثم إنه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر ، وقال هب أن إنزال الآية شرط لكنه وجد وهو في نفس الكتاب .

[فقال تعالى ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ، قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾]

فقال تعالى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) يعني إن كان إنزال الآية شرطاً

فلا يشترط إلا إنزال آية وقد أنزل وهو القرآن فإنه معجزة ظاهرة باقية وقوله (أو لم يكفهم) عبارة تنبيء عن كون القرآن آية فوق الكفاية ، وذلك لأن القائل إذا قال أما يكفي للمسيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبيء عن أن ترك الضرب في حقه كثير فكذلك قوله (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب) وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه : (أحدها) أن تلك المعجزات وجدت وما دامت فإن قلب العصا ثعباناً وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر ، فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب ، وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله (الثاني) هو أن قلب العصا ثعباناً كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان ، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد ، وههنا لطيفة وهي أن آيات النبي عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأن من جعلها انشقاق القمر وهو يعم الأرض ، لأن الخسوف إذا وقع عم وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة في قطر وسقط إيوان كسرى في قطر وانهدت الكنيسة بالروم في قطر آخر إعلماً بأنه يكون أمر عام (الثالث) هو أن غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول إنه سحر عمل بدواء ، والقرآن لا يمكن هذا القول فيه .

ثم إنه تعالى قال (إن في ذلك لرحمة) إشارة إلى أنا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق ، وهذا لأننا بينا أن إظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله ، وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق في ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب ، لأن النبي لا يتميز عن المتنبى لولا المعجزة ، لكن الله له ذلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقوله (وذكري) إشارة إلى أنه معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون ما بقي الزمان .

ثم قال تعالى (لقوم يؤمنون) يعني هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لأن المعجزة كانت غضباً على الكافرين لأنها قطعت أعدائهم وعطلت إنكارهم .

ثم قال تعالى (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) لما ظهرت رسالته وبهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق إذا كذب وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقي وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بيني وبينكم ، كل ذلك إنذار وتهديد يفيد تقريراً وتأكيذاً ، ثم بين كونه كافياً بكونه عالماً بجميع الأشياء . فقال (يعلم ما في السموات والأرض) وههنا مسألة : وهي أن الله تعالى قال في آخر الرعد (ويقول الذين كفروا لست مرسلنا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) فأخر شهادة أهل الكتاب ، وفي هذه السورة قدمها حيث قال (فالذين آتيناكم الكتاب يؤمنون به) ومن هؤلاء من يؤمن به أي من أهل الكتاب فنقول الكلام هناك مع المشركين ، فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم

إن شهادة الله أقوى في إلزامهم من شهادة غير الله ، وههنا الكلام مع أهل الكتاب . وشهادة المرء على نفسه هو إقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو ألزم عليهم .

ثم إنه تعالى لما بين الطرفين في إرشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد إلى الكلام الشامل لها والابذار العام فقال تعالى (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) أي الذين آمنوا بما سوى الله لأن ما سوى الله باطل لأنه هالك بقوله (كل شيء هالك إلا وجهه) وكل ما هلك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ما - سوى الله باطل ، فمن آمن بما سوى الله فقد آمن بالباطل ، وفيه مسائل :

(الأولى) قوله (أولئك هم الخاسرون) يقتضى الحصر أى من أتى بالإيمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتي بأحدهما دون الآخر يذنبى أن لا يكون خاسراً فنقول يستحيل أن يكون الآتى بأحدهما لا يكون آتياً بالآخر ، أما الآتى بالإيمان بما سوى الله فلأنه أشرك بالله فجعل غير الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل يمكن باطل فيكون الله كذلك فيكون إنكاراً لله وكفراً به ، وأما من كفر به وأنكره فيكون قائلاً بأن العالم ليس له إله موجود العالم من نفسه ، فيكون قائلاً بأن العالم واجب والواجب إله ، فيكون قائلاً بأن غير الله إله فيكون إثباتاً لغير الله وإيماناً به .

(المسألة الثانية) إذا كان الإيمان بما سوى الله كفراً به ، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله ، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى هو فى قول القائل قم ولا تقعد واقرب منى ولا تبعد ؟ نقول نعم فيه فائدة غيرها ، وهو أنه ذكر الثانى لبيان قبح الأول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح .

(المسألة الثالثة) هل يتناول هذا أهل الكتاب أى هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله ؟ نقول نعم ، لأنهم لما صح عندهم أن معجزة النبي من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا إنها من عند غير الله ، يكون كمن رأى شخصاً يرمى حجارة ، فقال إن رامى الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد ، فكذلك هم لما قطعوا بأن مظهر المعجزة هو الله وقالوا بأن محمداً مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون إيماناً بالباطل ، وإذا قالوا بأن من أظهر المعجزة ليس بإله مع أنهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونون قائلين بأن ذلك المخصوص الذى هو الله ليس بإله فيكون كفراً به ، وهذا لا يرد علينا فيمن يقول . فلعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد ، فانه أيضاً ينسب فعل الله إلى الغير ، كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها إلى غيره لأن هذا القائل جهل النسبة ، كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين راميتها ، فيظن أن راميتها زيد فيقول زيد هو رامى هذه الحجارة ، ثم إذا رأى راميتها بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بأن يقول هو زيد ، وأما إذا رأى عينه ورمى له الحجارة وقال رامى الحجارة زيد ، يقطع بأنه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾

حيث إنهم كانوا معاندين عالمين بأن الله مظهر تلك المعجزة ، ويقولون بأنها من عند غير الله . ثم قوله (هم الخاسرون) كذلك بأنهم وجوه الخسران ، وهذا لأن من يخسر رأس المال ولا تركه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركه تلك الديون ، فهم لما عبدوا غير الله أفنوا العمر ولم يحصل لهم في مقابلته شيء مما أصلا من المنافع ، واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها .

ثم قال تعالى ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ .

لما أُنذِرهم الله بالخسران وهو أنهم وجوه الإنذار لأن من خسر لا يحصل له في مقابلة قدر الخسران شيء من المنافع وإلا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه ، مثاله إذا خسر واحد من العشرة درهماً لا ينبغي أن يكون حصل له في مقابلة الدرهم ما يساوي نصف درهم ، وإلا لا يكون الخسران درهماً بل نصف درهم ، فإذا خسر ما خسر أعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب وإلا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم ، فقوله (وأولئك هم الخاسرون) تهديد عظيم فقالوا إن كان علينا عذاب فأتنا به ، إظهاراً لقطعهم بعدم العذاب ، ثم إنه أجاب بأن العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم ، لأنه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكماً لا يكون متغيراً منقلباً ، ولكونه رحماً لا يكون غضوباً منزجاً ، ولولا ذلك الأجل المسمى الذي اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة وحكمة ، فيكون غضوباً منقلباً فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم العذاب حين تستعبدون به منه ، كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) .

ثم قال تعالى (وليأتينهم بغتة) اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغتة ، لأن العذاب أقرب المذكورين ، ولأن مسؤلهم كان العذاب ، فقال إنه ليأتينهم ، وقال بعضهم ليأتينهم بغتة أي الأجل ، لأن الآتي بغتة هو الأجل وأما العذاب بعد الأجل يكون معاينة ، وقد ذكرنا أن في كون العذاب أو الأجل آتياً بغتة حكمة ، وهي أنه لو كان وقته معلوماً ، لكان كل أحد يتكل على بعده وعلنه بوقته فيفسق ويفجر معتمداً على التوبة قبل الموت .

وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يحتمل وجهين (أحدهما) تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل أتيتته على غفلة منه بحيث لم يدر ، فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة (والثاني) هو كلام

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ
الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يفيد فائدة مستقلة ، وهي أن العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الأمر ، ويظنون أن العذاب لا يأتيهم أصلاً .

ثم قال تعالى ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ذكر هذا للتعجب ، وهذا لأن من توعد بأمر فيه ضرر يسير كالطمة أو لسكة ، فيرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات ، وأما من توعد ياغراق أو إحراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد ، لا يخطر ببال العاقل أن يقول له هات ما تتوعدني به ، فقال ههنا (يستعجلونك بالعذاب) والعذاب بنار جهنم المحيطة بهم ، فقوله (ويستعجلونك) أولاً إخبار عنهم وثانياً تعجب منهم ، ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم ، فقال تعالى :

﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾
وفيه مسألتان :

﴿ الأولى ﴾ لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام ؟ فنقول لأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع ، فإن من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسفل في العادة العاجلة وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التي تحت القدم ، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطق بالدوس موضع القدم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ولم يقل من فوق رؤوسهم ، ولا قال من فوقهم ومن تحتهم ، بل ذكر المضاف إليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق ، فنقول لأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرؤوس وسواء كان من موضع آخر عجيب ، فلماذا لم يخصه بالرأس ، وأما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب ، وإلا فمن جوانب القدم في الدنيا يكون شعل وهي تحت فذكر العجيب وهو ماتحت الأرجل حيث لم ينطق بالدوس وما فوق على الإطلاق ثم قال تعالى (ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون ، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب ، فإن عملهم كان سبباً لجعل الله إياه سبباً لعذابهم ، وهذا كثير النظم في الاستعمال .

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

ثم قال تعالى ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فايأى فاعبدون ﴾ .
وجه التعلق هو أن الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما فى الإنذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا فى إيذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال مخاطباً للمؤمنين (يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فايأى فاعبدون) إن تعذرت العبادة عليكم فى بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتى بحال ، وبهذا علم أن الجلوس فى دار الحرب حرام والخروج منها واجب ، حتى لو حلف بالطلاق أنه لا يخرج لزمه الخروج ، و [ر] دع حتى يقع الطلاق ثم فى الآية مسائل :

﴿ إحداهما ﴾ (يا عبادى) لم يرد إلا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل فى قوله (يا عبادى) نقول ليس داخل فى قوله (يا عبادى) نقول ليس داخل فيه لوجوه : (أحدها) أن من قال فى حقه (عبادى) ليس للشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخل فى قوله (يا عبادى) (الثانى) هو أن الخطاب بعبادى أشرف منازل المكلف ، وذلك لأن الله تعالى لما خاق آدم آتاه اسماً عظيماً وهو اسم الخلافة كما قال تعالى (إني جاعل فى الأرض خليفة) والخليفة أعظم الناس مقداراً وأتم ذوى البأس اقتداراً ، ثم إن إبليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم ، بل أقدم عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى (فأزلهما الشيطان) ثم إن من أولاده الصالحين من سمي بعبادى فانحنس عنهم الشيطان وتضاءل ، كما قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقال هو بلسانه (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك) فعلم أن المكلف إذا كان عبداً لله يكون أعلى درجة مما إذا كان خليفة لوجه الأرض ولعل آدم كداود الذى قال الله تعالى فى حقه (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) لم يتخلص من يد الشيطان إلا وقت ما قال الله تعالى فى حقه عبدي وعندما ناداه بقوله (ربنا ظلمنا أنفسنا) واجتباها بهذا النداء ، كما قال فى حق داود (واذكر عبدنا داود ذا الأيد) إذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو أعظم من الخلافة ؟ فلا يدخل فى قوله (يا عبادى) إلا المؤمن (الثالث) هو أن هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله ، وذلك لأن الله تعالى (قال ادعوني أستجب لكم) فالمؤمن دعا ربه بقوله (ربنا إنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا) فأجابه الله تعالى بقوله (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) فالإضافة بين الله وبين العبد بقول العبد إلهي وقول الله عبدي تأكدت بدعاء العبد ، لكن الكافر لم يدع فلم يجب ، فلا يتناول يا عبادى غير المؤمنين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان عبادى لا يتناول إلا المؤمنين فما الفائدة فى قوله (الذين آمنوا)

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةٌ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

مع أن الوصف إنما يذكر لتمييز الموصوف ، كما يقال يا أيها المكلفون المؤمنون ، ويا أيها الرجال العقلاء تمييزاً عن الكافرين والجهال ، فنقول الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان أن فيه الوصف كما يقال الأنبياء المكرمون والملائكة المطهرون ، مع أن كل نبي مكرم وكل ملك مطهر ، وإنما يقال لبيان أن فيهم الإكرام والطهارة ، ومثل هذا قولنا الله العظيم وزيد الطويل ، فهنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذ قال (يا عبادي) فهم يكونون عابدين فما الفائدة في الأمر بالعبادة بقوله فاعبدون ؟ فنقول فيه فائدتان (إحداهما) المداومة أي يامن عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل (الثانية) الإخلاص أي يامن تعبدني أخلص العمل لي ولا تعبد غيري .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الفاء في قوله (فإياي) تدل على أنه جواب لشرط فما ذلك ؟ فنقول قوله (إن أرضي واسعة) إشارة إلى عدم المانع من عبادته فكأنه قال إذا كان لا مانع من عبادتي فاعبدوني ، وأما الفاء في قوله تعالى (فاعبدون) فهو لترتيب المقتضى على المقتضى كما يقال هذا عالم فأكرموه فكذلك هنا لما أعلم نفسه بقوله (فإياي) وهو لنفسه يستحق العبادة قال فاعبدون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال العبد مثل هذا في قوله (إياك نعبد) وقال عقيبه (وإياك نستعين) والله تعالى وافقه في قوله (فإياي فاعبدون) ولم يذكر الإعانة نقول بل هي مذكورة في قوله (يا عبادي) لأن المذكور بعبادي لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبيل عنه كان في غاية الإعانة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قدم الله الإعانة وأخر العبد الاستعانة ، قلنا لأن العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض ، فإن الغرض سابق على الفعل في الإدراك ، وذلك لأن من يبني بيتاً للسكنى يدخل في ذهنه أولاً فائدة السكنى فيحمله على البناء ، لكن الغرض في الوجود لا يكون إلا بعد فعل الوساطة ، فنقول الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهي سابقة في إدراكه ، وأما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود ، فإن الإعانة قبل العبادة .

ثم قال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ .

لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان ، فقال لهم إن ما تكرهون لا بد من وقوعه (فإن كل نفس ذائقة الموت) والموت مفرق الأحباب فالأولى أن يكون ذلك في سبيل الله فيجازيكم عليه ، فإن إلى الله مرجعكم ، وفيه وجه أرق وأدق ، وهو أن الله تعالى قال كل نفس إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهي للموت ، ثم إلى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى (لا يذوقون فيها الموت) إذا ثبت هذا فمن يريد ألا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فإن

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾

النفس ذائقة بل يتعلق بغيره وذلك الغير إن كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك بقوله (كل نفس ذائقة الموت ، وكل شيء هالك إلا وجهه) فإذا التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى (فإياي فاعبدون) أي تعلقوا بي ، ولا تتبعوا النفس فإنها ذائقة الموت (ثم إلينا ترجعون) أي إذا تعلقتم بي فموتكم رجوع إلى وليس بموت كما قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء) وقال عليه السلام « المؤمنون لا يموتون بل ينقلون من دار إلى دار » فعلى هذا الوجه أيضاً يتبين وجه التعلق .

ثم قال تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوتهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴾ .

بين ما يكون للمؤمنين وقت الرجوع إليه كما بين من قبل ما يكون للكافرين بقوله (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) فبين أن للمؤمنين الجنان في مقابلة ما أن للكافرين النيران ، وبين أن فيها غرفاً تجري من تحتها الأنهار في مقابلة ما بين أن تحت الكافرين النار ، وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) في مقابلة ما بين أن ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله (ذوقوا ما كنتم تعملون) ثم في الآيتين اختلافات فيها لطائف منها أنه تعالى ذكر في العذاب أن فوقهم عذاباً أي ناراً ، ولم يذكر ههنا فوقهم شيئاً ، وإنما ذكر ما فوق من غير إضافة وهو الغرف ، وذلك لأن المذكور في الموضوعين العقاب والثواب الجسمانيان ، لكن الكافر في الدرك الأسفل من النار ، فيكون فوقه طبقات من النار ، فأما المؤمنون فيكونون في أعلى عليين ، فلم يذكر فوقهم شيئاً إشارة إلى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم .

وأما قوله تعالى (لهم غرف من فوقها غرف) لا ينافي لأن الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهي فوقهم ، ومنها أن هناك ذكر من تحت أرجلهم النار ، وههنا ذكر من تحت غرفهم الماء ، وذلك لأن النار لا تؤلم إذا كانت تحت مطلقاً ما لم تكن في مسامحة الأقدام ومتصلة بها ، أما إذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم وإن كانت تحتها ، أو تكون مسامحة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل في وهدة لا تؤلم ، وأما الماء إذا كان تحت الغرفة في أي وجه كان وعلى أي بعد كان يكون ملتدأ به ، فقال في النار من تحت أرجلهم ليحصل الألم بها ، وقال ههنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان ، ومنها أن هناك قال ذوقوا لإيلاهم قلوبهم بلفظ الأمر وقال ههنا (نعم أجر العاملين) لتفريح قلوبهم لا بصيغة الأمر وذلك لأن لفظ الأمر يدل على انقطاع التعلق

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا
اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

بعده ، فان من قال لأجيره خذ أجرتك يفهم منه أن بذلك ينقطع تعاقدك عنه ، وأما إذا قال ما أتم
أجرتك عندي أو نعم مالك من الأجر يفهم منه أن ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا أجرتم أيها
العاملون وقال هناك (ذوقوا ما كنتم تعملون) فان قال قائل ذوقوا إذا كان يفهم منه الانقطاع
فعداب الكافر ينقطع ، قلنا ليس كذلك لأن الله إذا قال ذوقوا دل على أنه أعطاهم جزاءهم وانقطع
ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائماً ولا ينقص ولا يزداد ، وأما المؤمن إذا أعطاه شيئاً فلا
يتركه مع ما أعطاه بل يزيد له كل يوم في النعم وإليه الإشارة بقوله (للذين أحسنوا الحسنى
وزيادة) أي الذي يصل إلى الكافر يدوم من غير زيادة والذي يصل إلى المؤمن يزداد على الدوام ،
وأما الخلود وإن لم يذكره في حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص .

ثم قال تعالى ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾

ذكر أمرين الصبر والتوكل لأن الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضي لا تدارك
له ولا يؤمر العبد فيه بشيء ، بقى الحاضر واللايق به الصبر والمستقبل واللايق به التوكل ، فيصبر
على ما يصيبه من الأذى في الحال ، ويتوكل فيما يحتاج إليه في الاستقبال .

واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان إلا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله ، فمن علم
ما سواه علم أنه زائل فيكون عليه الصبر إذ الصبر على الزائل هين ، وإذا علم الله علم أنه باق يأتيه
بأرزاقه فان فاته شيء فانه يتوكل على حى باق ، وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب ، فان قوله
(يا عبادي) كان لبيان أنه لا مانع من العبادة ، ومن يؤذى في بقعة فليخرج منها . فحصل الناس على
فسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه ، يترك الأوطان ويفارق الاخوان ، وعاجز وهو
صابر على تحمل الأذى ومواظب على عبادة الله تعالى .

ثم قال تعالى ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾

لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر ما يعين على التوكل وهو بيان حال الدواب
التي لا تدخر شيئاً لغد . ويأتيها كل يوم برزق رغد . وفي الآية مسائل .

(المسألة الأولى) في كآين لغات أربع [لا] غير هذه [و] كآئن على وزن راع وكآين على
وزن ربيع وكى على دع ولم يقرأ إلا كآين وكآئن قراءة ابن كثير .

(المسألة الثانية) كآين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي التي تستعمل استعمال من وماركبتا
وجعل المركب بمعنى كم ، ولم تكتب إلا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب ، لأن كآى

يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلاً لا كأى رجل يكون، فقد حذف المضاف إليه ويقال رأيت رجلاً لا كأى رجل، وحينئذ لا يكون كأى مركباً، فإذا كان كأى ههنا مركباً كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معد يكره وبعليك موصولاً للفرق، وكما تكتب ثمة بالهاء تمييزاً بينها وبين ثمت.

(المسألة الثالثة) كآين بمعنى كم لم تستعمل مع من إلا نادراً وكم يستعمل كثيراً من غير من، يقال كم رجلاً وكم من رجل، وذلك لما بينا من الفرق بين كآين بمعنى كم وكأى التى ليست مركبة، وذلك لأن كآى إذا لم تكن مركبة لا يجوز إدخال من بعدها إذ لا يقال رأيت رجلاً لا كأى من رجل، والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالتزم للفرق. قوله تعالى (لا تحمل رزقها) قيل لا تحمل لضعفها وقيل هى كالقمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر (الله يرزقها وإياكم) بطريق القياس أى لا شك فى أن رزقها ليس إلا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا، فان قال قائل من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات فى الصحراء مسبب والحيوان يسعى إليه ويرعى، فنقول الدليل عليه من ثلاثة أوجه نظراً إلى الرزق وإلى المرتزق وإلى مجموع الرزق والمرتزق، أما بالنظر إلى الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق، وأما بالنظر إلى المرتزق فلأن الاغذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لا بد من تشبته بالأعضاء حتى يصير الحشيش عظاماً ولحمًا وشحمًا، وما ذاك إلا بحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاصمة ودافعة وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وإرادته فهو الذى يرزقها، وأما بالنظر إلى المرتزق والرزق، فلأن الله لو لم يهد الحيوان إلى الغذاء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتذاء، ألا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعاً من أنواع الغذاء حتى يوضع فى فمه بالشدة ليدوق فياً كله بعد ذلك، فان كثيراً ما يكون البعير لا يعرف الخبز ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فياً كله بعد ذلك، فان قال قائل كيف يصح قياس الانسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لا يتعرض إليه إذا أكل منه اليوم شيئاً وترك بقية مجدها غداً، مامد إليه أحد يداً، والانسان إن لم يأخذ اليوم لا يبقى له غداً شيء؟ وأيضاً حاجات الانسان كثيرة فانه يحتاج إلى أجناس اللباس وأنواع الأطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضاً قوت الحيوان مهياً وقوت الانسان يحتاج إلى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل الحاجة ما كان يجده وقت الحاجة، فنقول نحن لا نقول إن الجمع يقدر فى التوكل، بل قد يكون الزارع الحاصد متوكلاً والراعى الساجد غير متوكل، لأن من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده فى الله أنه إن كان يريد رزق من غير زرع، وإن كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل، ومن يصلى وقلبه مع ما فى يد زيد وعمرو هو غير متوكل. وأما قوله حاجات الإنسان كثيرة، فنقول مكاسبه كثيرة أيضاً، فانه يكتسب بيده كالخياط والنساج، وبرجله كالساعى وغيره، وبعينه كالناطور، ولسانه كالحادى والمنادى، وبفهمه كالمهندس والتاجر،

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

لَيَقُولنَّ اللَّهُ فَاِنِّي يُؤْفِكُونَّ (۶۱)

وبعله كالطبيب والفقير ، وبقوة جسمه كالعتال والحمال ، والحيوان لا مكاسب له ، فالرغيف الذي يحتاج إليه الإنسان غداً أو بعد غد ، بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب ، فهو أولى بالتوكل . وأيضاً الله تعالى خلق الإنسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه ، فان الله ملك الإنسان عمائر الدنيا وجعلها بيت تدخل في ملكه شاء أم أبي ، حتى أن نتاج الأنعام وثمار الأشجار تدخل في الملك وإن لم يرده مالك النعم والشجر ، وإذا مات قرن ينتقل ذلك إلى قرن آخر قهراً شأوا أم أبوا ، وليس كذلك حال الحيوان أصلاً ، فان الحيوان إن لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه ، فاذن الإنسان لو توكل كان أقرب إلى العقل من توكل الحيوان ، ثم قال (وهو السميع العليم) سميع إذا طلبتم الرزق ، يسمع ويجيب ، عليم إن سكتكم ، لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم .

ثم قال تعالى ﴿ وائِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولنَّ اللَّهُ فَاِنِّي يُؤْفِكُونَنَّ ﴾ .

نقول لما بين الله الأمر للشرك مخاطباً معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله (يا عبادي الذين آمنوا) وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون إرشاداً للشرك بحيث يسمعه وهذا طريق في غاية الحسن ، فان السيد إذا كان له عبدان ، أو الوالد إذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد ، ينصح أولاً المفسد ، فان لم يسمع يقول معرضاً عنه ، ملتفتاً إلى الرشيد ، إن هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد ، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد ، فان قوله هذا لا يستحق الخطاب يوجب نكاية في قلبه ، ثم إذا ذكر مع المصلح في أثناء الكلام والمفسد يسمعه ، إن هذا أخاك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشغل بصدده ، يكون هذا الكلام أيضاً داعياً له إلى سبيل الرشاد مانعاً له من ذلك الفساد ، فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم أنهم إن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ثم لا يؤمنون ، وفي الآية لطائف (إحداهما) ذكر في السموات والأرض الخلق ، وفي الشمس والقمر التسخير ، وذلك لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة ، فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء ، فإذا الحكمة في تحريكهما وتسخيرهما (الثانية) في لفظ التسخير ، وذلك لأن التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافيّاً ، لأنها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بالوف من السنين ، فالحكمة في تسخيرهما تحركهما في قدر ما يتنفس الإنسان

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

آلافاً من الفراسخ ، ثم لم يجعل لها حركة واحدة بل حركات ، إحداها حركتها من المشرق إلى المغرب في كل يوم وليلة مرة ، والأخرى حركتها من المغرب إلى المشرق ، والدليل عليها أن الهلال يرى في جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس ، ثم يبعد منه إلى جانب الشرق حتى يرى القمر في نصف الشهر في مقابلة الشمس ، والشمس على أفق المغرب ، والقمر على أفق المشرق ، وحركة أخرى حركة الأوج وحركة المائل والتدوير في القمر ، ولولا الحركة التي من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول ، ثم اعلم أن أصحاب الهيئة قالوا الشمس في الفلك مركزية والفلك يدورها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون ، ونحن نقول لا بعد في ذلك إن لم يقولوا بالطبيعة ، فإن الله تعالى فاعل مختار إن أراد أن يحركهما في الفلك والفلك ساكن يجوز ، وإن أراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر ، وسنذكر تمام البحث في قوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) (الثالثة) ذكر أمرين أحدهما خلق السموات والأرض والآخرة تسخير الشمس والقمر ، لأن الإيجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات ، فخلق السموات والأرض إشارة إلى إيجاد الذوات ، وتسخير الشمس والقمر إشارة إلى إيجاد الصفات وهي الحركة وغيرها ، فكأنه ذكر من القبيلين مثالين ، ثم قال تعالى (فأنى يؤفكون) يعنى هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله ، مع أن من علمت عظمتها وجبت خدمته ، ولا عظمتها فوق عظمتها خالق السموات والأرض ، ولا حقارة فوق حقارة الجناد ، لأن الجناد دون الحيوان ، والحيوان دون الانسان ، والانسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشغلون بعبادات أخس الموجودات .

ثم قال تعالى ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ﴾
قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما بين الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الانسان بالرزق ، فقال المعبود إما أن يعبد لاستحقاقه العبادة ، وهذه الأصنام ليست كذلك والله مستحقها ، وإما لكونه على الشأن والله الذي خلق السموات على الشأن جلى البرهان فله العبادة ، وإما لكونه ولي الاحسان والله يرزق الخلق فله الطول والاحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضاً وقوله (لمن يشاء) إشارة إلى كمال الاحسان ، وذلك لأن الملك إذا أمر الخازن باعطاء شخص شيئاً ، فاذا أعطاه يكون له منه ما يسيرة حقيرة ، لأن الآخذ يقول هذا ليس بإرادته وإنما هو بأمر الملك ، وأما إن كان مختاراً بأن قال له الملك إن شئت فأعطه وإن شئت فلا تعطه ، فإن أعطاه يكون له منه جليلة لا قليلة ، فقال الله تعالى الرزق منه وبمشيئته فهو إحسان تام يستوجب شكراً تاماً وقوله تعالى (ويقدر له) أى يضيق له إن أراد ، ثم قال تعالى

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ

(ان الله بكل شيء عليم) أى يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق وفى إثبات العلم ههنا لطائف (إحداهما) أن الرزاق الذى هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجاً وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق ، ولا يؤخر الرزاق الرزق إلا لتقصان فى نفوذ مشيئته كالمملك إذا أراد الاطعام والطعام لا يكون بعد قد استوى ، أو لعدم علمه بمجوع العبيد (الثانية) وهى أن الله باثبات العلم استوعب ذكر الصفات التى هى صفات الاله ومن أنكرها كفر وهى أربعة الحياة والقدرة والارادة والعلم وأما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعاً لا كافراً ، وقد استوفى الأربع ، لأن قوله (خلق السموات والأرض) إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله (يبسط الرزق لمن يشاء) إشارة الى نفوذ مشيئته وإرادته ، وقوله (إن الله بكل شيء عليم) إشارة إلى شمول علمه ، والقادر المريد العالم لا يتصور إلا حياً ، ثم إنه تعالى لما قال (الله يبسط الرزق) ذكر اعترافهم بذلك . فقال :

(ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون)

يعنى هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب ، فالرزق من الله ، ثم قال تعالى (وقل الحمد لله) وهو يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون كلاماً معترضاً فى أثناء كلام كأنه قال : فأحيا به الأرض من بعد موتها (بل أكثرهم لا يعقلون) فذكر فى أثناء هذا الكلام (الحمد) لذكر النعمة ، كما قال القائل :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

(الثانى) أن يكون المراد منه كلاماً متصلاً ، وهو أنهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعملون ، وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك فقل الحمد لله وأكثرهم لا يعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هى من الله (الثالث) أن يكون المراد أنهم يقولون إنه من الله ويقولون بالهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم (فقل الحمد لله) على ظهور تناقضهم (وأكثرهم لا يعقلون) هذا التناقض أو فساد هذا التناقض .

ثم قال تعالى (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ «٦٤»

لو كانوا يعلمون ﴿

لما بين أنهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها إلا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يميلون إليه ليس بشيء بقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا هـو) وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الفرق بين الله واللعب ، حتى يصح عطف أحدهما على الآخر ؟ فنقول الفرق من وجهين (أحدهما) أن كل شغل يفرض ، فإن المكلف إذا أقبل عليه لزمه الإعراض عن غيره ومن لا يشغله شأن عن شأن هو الله تعالى ، فالذي يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الإعراض عن الحق فالإقبال على الباطل لعب والإعراض عن الحق هـو ، فالدنيا لعب أى إقبال على الباطل ، وهـو أى إعراض عن الحق (الثانى) هو أن المشتغل بشيء يرجح ذلك الشيء على غيره لاحتمال حتى يشتغل به ، فإما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتى به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والإعراض عن غيره بالكلية فالأول لعب والثانى هـو ، والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لا تسمى آلات الملاهى فى العرف ، والعود وغيره من الأوتار تسمى آلات الملاهى لأنها تلهى الإنسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية ، فالدنيا للبعض لعب يشتغل به ويقول بعد هذا الشغل أشغل بالعبادة والآخرة ، ولللبعض هـو يشتغل به وينسى الآخرة بالكلية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الله تعالى فى سورة الأنعام (وما الحياة الدنيا) ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا (وما هذه) فنقول لأن المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا ، حيث قال تعالى (فأحيا به الأرض من بعد موتها) فقال هذه والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال (يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال (وما الحياة الدنيا) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (إلا لعب وهـو) وقال ههنا (إلا هـو ولعب) فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة ، فى ذلك الوقت يبعد الاستغراق فى الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد ، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها ، اللهم إلا لما منع يمنع من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا ، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال هناك (وللدار الآخرة خير) وقال ههنا (وإن الدار الآخرة

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مَخْلُصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

لهي الحيوان) فنقول لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج إلى رادع قوى فقال الآخرة خير ، ولما كان هنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى رادع قوى فقال لا حياة إلا حياة الآخرة ، وهذا كما أن العاقل إذا عرض عليه شيان فقال في أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحاً فحسب ، ولو قال هذا جيد وهذا الآخر ليس بشيء يكون ترجيحاً مع المبالغة فكذلك هنا بالغ لكون المكلف متوغلاً فيها .

(المسألة الخامسة) قال هناك (خير للذين يتقون) ولم يقل ههنا إلا هي الحيوان ، لأن الآخرة خير للبتق فحسب أي المتق عن الشرك ، وأما الكافر فالدنيا جنته فهي خير له من الآخرة ، وأما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم .

(المسألة السادسة) كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك ؟ فنقول الحيوان مصدر حي كالحياة لكن فيها مبالغة ليست في الحياة والمراد بالدار الآخرة هي الحياة الثانية ، فكانه قال الحياة الثانية هي الحياة المعبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وكانت هي محل الإدراك التام الحق كما قال تعالى (يوم تبلى السرائر) أطلق عليها الاسم المستعمل في النامى المدرك .

(المسألة السابعة) قال في سورة الأنعام (أفلا تعقلون) وقال ههنا (لو كانوا يعلمون) وذلك لأن المثبت هناك كون الآخرة خيراً وأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل والمثبت ههنا أن لا حياة إلا حياة الآخرة ، وهذا دقيق لا يعرف إلا بعلم نافع .

ثم قال تعالى ﴿ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ .

إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا ، وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووجدوا وأخلصوا ، فإذا أنجاهم وأرجأهم عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا .

ثم قال تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناكم ولتتمتعوا فسوف يعلمون ﴾ وفيه وجهان : (أحدهما) أن اللام لام كي ، أي يشركون ليكون إشراكهم كفرأ بنعمة الإنجاء ، ولتتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون بوبال عملهم حين زوال أملهم (والثاني) أن تكون اللام لام الأمر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد • كما قال تعالى (اعملوا ما شئتم) وكما قال (اعملوا على مكاتبتكم إنني عامل

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

فسوف تعملون (فساد ما تعملون .

ثم قال تعالى ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفيالباطل يؤمنون
وبنعمت الله يكفرون ﴾ .

التفسير ظاهر ، وإنما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها ، فنقول الانسان في البحر يكون على
أخوف ما يكون وفي بيته يكون على آمن ما يكون لاسيما إذا كان بيته في بلد حصين فلما ذكر الله
المشركين حالهم عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم في تلك الحالة راجعة الى الله تعالى ذكرهم حالهم
عند الأمن العظيم وهي كونهم في مكة فإنها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم ، وهي حصين
بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها ، والحصول فيها يدفع الشرور عن
النفوس ويكفها يعني أنكم في أخوف ما كنتم دعوتهم الله وفي آمن ما حصلت عليه كفرتم بالله ، وهذا
متناقض لأن دعاءكم في ذلك الوقت على سبيل الاخلاص ما كان إلا لقطعكم بأن النعمة من الله
لا غير فهذه النعمة العظيمة التي حصلت وقد اعترقتم بأنها لا تكون إلا من الله كيف تكفرون بها ؟
والأصنام التي قطعتم في حال الخوف أن لا آمن منها كيف آمنتم بها في حال الأمن ؟ .

ثم قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم
مشوى للكافرين ﴾ .

لما بين الله الأمور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين أنهم أظلم من يكون ، لأن الظلم
على ما بين وضع الشيء في غير موضعه ، فاذا وضع واحد شيئاً في موضع ليس هو موضعه يكون
ظالماً فاذا وضعه في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لأن عدم الامكان أقوى
من عدم الحصول ، لأن كل ما لا يمكن لا يحصل وليس كل ما لا يحصل لا يمكن ، فالله تعالى لا يمكن
أن يكون له شريك وجعلوا له شريكاً فلو كان ذلك في حق ملك مستقبل في الملك لكان ظالماً
يستحق من الملك العقاب الأليم فكيف إذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك ، وأيضاً
من كذب صادقاً يجوز عليه الكذب يكون ظالماً فمن يكذب صادقاً لا يجوز عليه الكذب كيف
يكون حاله ؟ فاذا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله في تصديق نبيه والنبي في رسالة
ربه والقرآن المنزل من الله إلى الرسول ، والعجب من المشركين أنهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

بالإلهية ، ولم يقبلوا إذا حسب منعت بالرسالة ، والآية تحمل وجهاً آخر وهو أن الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبه ليقول للناس (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) أى إلى جئت بالرسالة وقلت إنها من الله وهذا كلام الله ، وأتم كذبتمنى فالحال دائر بين أمرين ، أما أنا مفتر متنبىء ان كان هذا من عند غير الله أو أتم مكذبون بالحق إن كان من عنده لكنى معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا أقدم على الافتراء لأن (جهنم مثوى للكافرين) والمتنبىء كافر ، وأتم كذبتمنى فجهنم مثواكم إذ هى مثوى للكافرين ، وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) .

ثم قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهديم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

لما فرغ من التقرير والتقريع ولم يؤمن الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله (والذين جاهدوا فينا لنهديم سبلنا) أى من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنة (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى ما قال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقوله (لنهديمهم) إشارة إلى الحسنى وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى المعية والقربة التى تكون للمحسن زيادة على حسناته ، وفيه وجه آخر حكى وهو أن يكون المعنى (والذين جاهدوا فينا) أى الذين نظروا فى دلائلنا (لنهديمهم سبلنا) أى لنحصل فيهم العلم بنا . ولنبن هذا فضل بيان ، فنقول أصحابنا المتكلمون قالوا إن النظر كالشرط للعلم الاستدلالي والله يخلق فى الناظر علماً عقيب نظره وواقفهم الفلاسفة على ذلك فى المعنى وقالوا النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة ، وإذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية ، وعلى هذا يكون الترتيب حسناً ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تقدم العلم والإيمان قال (إنهم لم ينظروا فلم يهتدوا وإنما هو هدى للبتقين) الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهديمهم وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال من الناس من يكون بعيداً لا يتقرب وهم الكفار ، ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديمهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريباً منه يعلم الأشياء منه ولا يعلمه من الأشياء ، ومن يكون مع الشيء كيف يطلبه فقوله (ومن أظلم) إشارة إلى الأول وقوله (والذين جاهدوا فينا) إشارة إلى الثانى وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى الثالث . والله أعلم بأسرار كتابه ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين .

﴿سورة الروم﴾

ستون آية مكية | إلا آية ١٧ فمدنية ، نزلت بعد الانشقاق |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين﴾
 وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول ، فنقول لما قال الله تعالى في
 السورة المتقدمة (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) وكان يجادل المشركين بنسبتهم
 إلى عدم العقل كما في قوله (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في
 الإله كما قال (وإلهنا وإلهكم واحد) وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به
 كما قال (والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) أي أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوهم مراجعتهم
 وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور ، فلما وقعت الكفرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح
 المشركون بذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق ، بل الله تعالى قد
 يريد مزيد ثواب في المحب فيبتليه ويسلط عليه الأعداء ، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى دون
 العذاب الأكبر قبل يوم الميعاد للبعادى ، وفي الآية مسائل :

﴿الاولى﴾ ما الحكمة في افتتاح هذه السورة بحروف التهجي؟ فنقول قد سبق منا أن كل سورة
 افتتحت بحروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما في قوله تعالى (الم
 ذلك الكتاب) ، (المص كتاب) ، (طه ما أنزلنا عليك القرآن) ، (الم تنزيل الكتاب) ، (حم
 تنزيل من الرحمن الرحيم) ، (يس القرآن) ، (ص القرآن) إلا هذه السورة وسورتين أخريين
 ذكرناهما في العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما في موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور
 وهو أن السورة التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت
 عليها الحروف على ما تقدم بيانه في العنكبوت وهذه ذكر في أولها ما هو معجزة وهو الإخبار عن
 الغيب ، فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ، ثم ترد عليه
 المعجزة وتقرع الأسماع .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (في أدنى الأرض) أي أرض العرب ، لأن الألف واللام

فِي بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون « ٤ »

للتعريف والمعهود عندهم أرضهم وقوله تعالى (وهم من بعد غلبهم) أية فائدة في ذكره مع أن قوله (سيغلبون) بعد قوله (غلبت الروم) لا يكون إلا من بعد الغلبة ؟ فنقول الفائدة فيه إظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر الله لأن من غلب بعد غلبه لا يكون إلا ضعيفاً ، فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فاذا غلبوا بعد ما غلبوا ، دل على أن ذلك بأمر الله ، فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا في ضعفهم ويتذكروا أنه ليس بزحفهم ، وإنما ذلك بأمر الله تعالى وقوله (في أدنى الأرض) لبيان شدة ضعفهم ، أي انتهى ضعفهم إلى أن وصل عدوهم إلى طريق الحجاز وكسروهم وهم في بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا إلى المدائن وبنوا هناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم باذن الله .

(المسألة الثالثة) قال تعالى (في بضع سنين) قيل هي ما بين الثلاثة والعشرة ، أبهم الوقت الوقت مع أن المعجزة في تعيين الوقت أتم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لئيبه وما أذن له في إظهارها لأن الكفار كانوا معاندين والأمور التي تقع في البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لا يمكن إنكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف في كلامه ولما وردت الآية ذكر أبو بكر رضي الله عنه أن الروم ستغلب وأنكره أبي بن خلف وغيره ، وناحبوا أبا بكر أي خاطروه على عشرة قلائص إلى ثلاث سنين فقال عليه السلام لأبي بكر البضع ما بين الثلاثة والعشرة فزايده في الإبل وماده في الأجل فجعل القلائص مائة والأجل سبعا ، وهذا يدل على علم النبي عليه السلام بوقت الغلبة .

[قوله تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون)]

ثم قال تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) أي من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها ، يعني إن أراد غلبهم قبل بضع سنين وإن أراد غلبهم بعدها ، وما قدر هذه المدة لعجز وإنما هي إرادة نافذة ، وبناء على الضم لما قطعنا عن الإضافة لأن غير الضمة من الفتحة والكسرة يشبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر ، أما النصب ففي قولك جئت قبله أو بعده ، وأما الجر ففي قولك من قبله ومن بعده فنياً على الضم لعدم دخول مثلها عليه في الأعراب وهو الرفع (ويومئذ يفرح المؤمنون) قيل يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم ، والأصح أنهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لأن غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين بيد، ولو كان المراد ما ذكره لما صح لأن في ذلك اليوم بعينه لم يصل إليهم خبر الكسر فلا يكون فرحهم يومئذ بل الفرحة يحصل بعده .

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ « ٥ » وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ
وَعَدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ « ٦ » يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ « ٧ » أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ

ثم قال تعالى ﴿ ينصر الله ينصر من يشاء ﴾ [وهو العزيز الرحيم ، وعند الله لا يخلف الله وعده
ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون] .
قوله [تعالى (ينصر الله ينصر من يشاء) قدم المصدر على الفعل حيث قال (ينصر الله ينصر)
وقدم الفعل على المصدر في قوله (وأيدك بنصره) وذلك لأن المقصود ههنا بيان أن النصر بيد
الله إن أراد نصر وإن لم يرد لا ينصر ، وليس المقصود النصر ووقوعها والمقصود هناك إظهار
النعمة عليه بأنه نصره ، فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل ، ثم بين أن ذلك الفعل
مصدره عند الله ، والمقصود ههنا كون المصدر عند الله إن أراد فعل فقدم المصدر .

ثم قال تعالى (وهو العزيز الرحيم) ذكر من أسمائه هذين الأسمين لأنه إن لم ينصر المحب بل
سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره ، وإن نصر المحب فذلك لرحمته عليه ، أو نقول إن نصر الله
المحب فلعزته واستغنائاه عن العدو ورحمته على المحب ، وإن لم ينصر المحب فلعزته واستغنائاه عن
المحب ورحمته في الآخرة واصله إليه .

ثم قال تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده) يعني سيغلبون وعدم الله وعداً ووعد الله لا
خلف فيه ، قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي لا يعلمون وعده وأنه لا
خلف في وعده .

ثم قال تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) يعني عليهم منحصر في الدنيا وأيضاً
لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها وهي ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها وهي
مضارها ومتاعها ويعلمون وجودها الظاهر ، ولا يعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون)
والمعنى هم عن الآخرة غافلون ، وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم وإلا فأسباب التذكر حاصلة
وهذا كما يقول القائل لغيره غفلت عن أمرى ، فإذا قال هو شغلتى فلان فيقول ما شغلك ولكن
نت اشتغلت .

ثم قال تعالى ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ﴾ [ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق

النَّاسُ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٧﴾

وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون ﴿٧﴾ .
 قوله [تعالى (أولم يتفكروا في أنفسهم) لما صدر من الكفار الإنكار بالله عند إنكار
 وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) والإنكار بالحشر كما قال
 تعالى (وهم عن الآخرة هم عاقلون) بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله وإلا فأسباب التذكر
 حاصلة وهو [أن] أنفسهم لو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر ، أما الوحدانية فلأن
 الله خلقهم على أحسن تقويم ، ولتذكر من حسن خلقهم جزءاً من ألف ألف جزء وهو أن
 الله تعالى خلق الإنسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به أعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول
 الطعام فيه ، والآخر لخروج الطعام منه ، فإذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض
 بحيث لا يخرج منه ذرة ولا بالرشح ، وتمسكه الماسكة إلى أن ينضج نضجاً صالحاً ، ثم يخرج من المنفذ
 الآخر ، وخلق تحت المعدة عروقا دقاقاً صلاباً كالمصفاة التي يصفي بها الشيء فينزل منها الصافي إلى
 الكبد وينصب الثفل إلى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجهاً إلى الخروج ، وما يدخل في
 الكبد من العروق المذكورة يسمى الماساريقا بالعبرية ، والعبرية عربية مفسودة في الأكثر ، يقال
 لموسى ميثا وللاله إيل إلى غير ذلك ، فالماساريقا معناها ماساريق اشتمل عليه الكبد وأنضجه
 نضجاً آخر ، ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة إلى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق ويندرق في
 العروق الدقاق المذكورة ، وفي الكبد يستغنى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب
 حدة الكبد إلى الكلية ومعه دم يسير تغتذى به الكلية وغيرها ، ويخرج الدم الخالص من الكبد
 في عرق كبير ، ثم يتشعب ذلك النهر إلى جداول ، والجداول إلى سواق ، والسواق إلى رواق
 ويصل فيها إلى جميع البدن ، فهذه حكمة واحدة في خلق الإنسان ، وهذه كفاية في معرفة كون الله
 فاعلاً مختاراً قادراً كاملاً عالماً شاملاً عليه ، ومن يكون كذلك يكون واحداً وإلا لكان عاجزاً
 عند إرادة شريكه ضد ما أراده . وأما دلالة الإنسان على الحشر فذلك لأنه إذا تفكر في نفسه
 يرى قواه صائرة إلى الزوال ، وأجزائه مائلة إلى الانحلال فله فناء ضروري ، فلو لم يكن له حياة
 أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثاً ، وإليه أشار بقوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً)
 وهذا ظاهر ، لأن من يفعل شيئاً للعبث فلو بالغ في إحكامه وإتقانه يضحك منه ، فإذا خلقه للبقاء
 ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لا بد منها ، ثم إنه تعالى ذكر بعد دليل الأنفس دليل الآفاق فقال (ما خلق
 الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) فقوله (إلا بالحق) إشارة إلى وجه دلالتها على
 الوحدانية ، وقد بينا ذلك في قوله (خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للؤمنين)
 ونعيده فإن التكرير في الذهن يفيد التقرير لدى الذهن ، فنقول إذا كان بالحق لا يكون فيها بطلان

فلا يكون فيها فساد . لأن كل فاسد باطل وإذا لم يكن فيها فساد لا تكون آلهة وإلا لكان فيها فساد . كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقوله (وأجل مسمى) يذكر بالأصل الآخر الذي أنكره ثم قال تعالى (وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون) يعني لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء إما في إسعاد أو شقاء ، وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قدم ههنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق ، وفي قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) قدم دلائل الآفاق ، وذلك لأن المفيد إذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فإن فهمه السامع المستفيد فذلك وإلا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة ، وأما المستفيد فإنه يفهم أولاً الأبين ، ثم يرتقى إلى فهم ذلك الأخرى الذي لم يكن فهمه في فهمه بعد فهم الأبين المذكور آخر ، فالمذكور من المفيد آخر مفهوم عند السامع أولاً ، إذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوباً إلى السامع حيث قال (أولم يتفكروا في أنفسهم) يعني فيما فهموه أولاً ولم يرتقوا إلى ما فهموه ثانياً ، وأما في قوله (سنريهم) الأمر منسوب إلى المفيد المسمع فذكر (أولاً) الآفاق فإن لم يفهموه فالأنفس لأن دلائل الأنفس لا ذهول للإنسان عنها ، وهذا الترتيب مراعى في قوله تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) أي يعلمون الله بدلائل الأنفس في سائر الأحوال (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) بدلائل الآفاق .

(المسألة الثانية) وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر ، وأما وجه دلالة على الحشر فكيف هو؟ فنقول وقوع تخريب السموات وعدمها لا يعلم بالعقل إلا إمكانه ، وأما وقوعه فلا يعلم إلا بالسمع ، لأن الله قادر على إبقاء الحادث أبداً كما أنه يبقى الجنة والنار بعد إحداثهما أبداً ، والخلق دليل إمكان عدمه . لأن المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه عدمه ، فاذا أخبر الصادق عن أمره إمكانه وجب على العاقل التصديق والإذعان ، ولأن العالم لما كان خلقه بالحق فينبغي أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لأن هذه الحياة ليست إلا لعباً ولهواً كما بين بقوله تعالى (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) وخلق السموات والأرض للهو واللعب عبث ، والعبث ليس بحق وخلق السموات والأرض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه .

(المسألة الثالثة) قال ههنا (كثيراً من الناس) وقال من قبل (ولكن أكثر الناس) وذلك لأنه من قيل لم يذكر دليلاً على الأصلين ، وههنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولا شك في أن الإيمان بعد الدليل أكثر من الإيمان قبل الدليل ، فبعد الدلائل لا بد من أن يؤمن من ذلك إلا أكثر جمع فلا يبقى إلا أكثر كما هو ، فقال بعد إقامة الدليل (وإن كثيراً) وقوله (ولكن أكثرهم) ثم بعد الدليل الذي لا يمكن الذهول عنه ، والدليل الذي لا يقع الذهول عنه وإن أمكن هو السموات والأرض لأن من البعيد أن يذهل الإنسان عن السماء التي فوقه والأرض التي تحته ، ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمر أمثالهم وحكاية أشكالهم .

أَو لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ
 رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ
 كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسَاءُوا السَّوَاءِ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

فقال تعالى ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد
 منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله
 ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .
 وقال في الدليلين المتقدمين (أو لم يروا) ولم يقل (أو لم يسيروا) إذ لا حاجة هناك إلى
 السير بحضور النفس والسماء والأرض وقال ههنا (أو لم يسيروا فينظروا) ذكرهم بحال أمثالهم
 ووبال أشكالهم ، ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لأن من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم
 تنفعهم قواهم وكانوا أكثر مالا وعمارة ، ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم ، واعلم
 أن اعتماد الإنسان على ثلاثة أشياء قوة جسمية فيه أو في أعوانه إذ بها المباشرة وقوة
 مالية إذا بها التأهب للمباشرة ، وقوة ظهريية يستند إليها عند الضعف والفتور وهي بالحصون
 والعمائر ، فقال تعالى : كانوا أشد منهم قوة في الجسم وأكثر منهم مالا لأنهم أثاروا الأرض
 أي حرثوها ، ومنه بقرة تشير الأرض ، وقيل منه سمي ثوراً ، وأنتم لا حرثة لكم فأموالهم
 كانت أكثر ، وعمارتهم كانت أكثر لأن أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة ، وعمارة أهل
 مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهواهم ، فلما كذبوا أهلكوا فكيف
 أنتم ، وقوله (فما كان الله ليظلمهم) يعني لم يظلمهم بالتكليف ، فان التكليف شريف لا يؤثر له إلا
 محل شريف ولكن هم ظلوا أنفسهم بوضعها في موضع خسيس ، وهو عبادة الأصنام واتباع
 إبليس ، فكان الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح ، لأنه تعالى قال خلقتكم لتربحوا على
 لا الأربح عليكم ، والوضع في [أي] موضع كان الخلق له ليس بظلم ، وأماهم فوضعوا أنفسهم في مواضع
 الخسران ولم يكونوا خلقوا إلا للربح فهم كانوا ظالمين ، وهذا الكلام منا وإن كان في الظاهر
 يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله أهل السنة ، وهو أن هذا الوضع كان بمشيئة الله
 وإرادته ، لكنه كان منهم ومضافاً إليهم .

ثم قال تعالى ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السواء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾

الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون «١١» ويوم تقوم الساعة يبليس
الجرمون «١٢» ولم يكن لهم من شركائهم شفعاؤه وكانوا بشركائهم كافرين «١٣»

كما قال (للذين أحسنوا الحسنى) وقوله تعالى (أن كذبوا) قيل معناه بأن كذبوا أى كان عاقبتهم ذلك بسبب أنهم كذبوا ، وقيل معناه أساءوا وكذبوا فكذبوا يكون تفسيراً لأسأوا وفي هذه الآية لطائف (إحداهما) قال في حق الذين أحسنوا (للذين أحسنوا الحسنى) وقال في حق من أساء (ثم كان عاقبة الذين أسأوا السوأى) إشارة إلى أن الجنة لهم من ابتداء الأمر فان الحسنى اسم الجنة والسوأى اسم النار ، فاذا كانت الجنة لهم ومن الابتداء ، ومن له شيء كلما يزداد وينمو فيه فهو له ، لأن ملك الأصل يوجب ملك الثمرة ، فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين ، وأما الذين أسأوا ، فالسوأى وهى جهنم فى العاقبة مصيرهم إليها (الثانية) ذكر الزيادة فى حق المحسن ولم يذكر الزيادة فى حق المسيء لأن جزاء سيئة سيئة مثلها (الثالثة) لم يذكر فى المحسن أن له الحسنى بأنه صدق ، وذكر فى المسيء أن له السوأى بأنه كذب ، لأن الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ ، وأما السوأى للمسيء عدل والعدل إذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلاً فذكر السبب فى التعذيب وهو الإصرار على التكذيب ، ولم يذكر السبب فى الثواب .

ثم قال تعالى ﴿ الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾ .

لما ذكر أن عاقبتهم إلى الجحيم وكان فى ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدؤ الخلق ، يعنى من خلق بالقدرة والارادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة فإليه ترجعون ، ثم بين ما يكون وقت الرجوع إليه فقال :

﴿ ويوم تقوم الساعة يبليس الجرّمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاؤه وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ .

فى ذلك اليوم يتبين إفلاسهم ويتحقق إفلاسهم ، والإفلاس يأس مع حيرة ، يعنى يوم تقوم الساعة يكون للجرّم يأس محير لا يأس هو إحدى راحتين ، وهذا لأن الطمع إذا انقطع باليأس فاذا كان المرجو أمراً غير ضرورى يستريح الطامع من الانتظار وإن كان ضرورياً بالإبقاء له بؤونه ينفطر فؤاده أشد انفطار ، ومثل هذا اليأس هو الإفلاس ولنين حال الجرّم وإفلاسه بمثال ، وهو أن نقول مثله مثل من يكون فى بستان وحواليه الملاعب والملاهى ، ولديه ما يفتخر به ويباهى ، فيخبره صادق بمجىء عدو لا يرده راد ، ولا يصدده صاد ، إذا جاءه لا يبلغه ريقاً ، ولا يترك له الى الخلاص طريقاً ، فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

مجنون إن هذه الشجرة التي أنت تحتها لها من الخواص دفع الأعدى عنك يكون تحتها ، فيقبل ذلك الغافل على استيفائه ملاذه معتمداً على الشجرة بقول ذلك الصبي فيجيئه العدو ويحيط به ، فأول ما يريه من الأهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيراً آيساً ، مفتقراً ، فكذلك المجرم في دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبي الصادق بأن الله يجزيه ، ويأتيه عذاب يخزيه ، فقال له الشيطان والنفوس الأمارة بالسوء إن هذه الأخشاب التي هي الأوثان دافعة عنك كل باس ، وشافعة لك عند خمود الحواس ، فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى إذا جاءت الطامة الكبرى فأول ما أرتته إلقاء الأصنام في النار فلا يجد إلى الخلاص من طريق ، ويحق عليه عذاب الحريق ، فييأس حينئذ أي إياس وييلس أشد إبلاس . وإليه الإشارة بقوله تعالى (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين) يعني يكفرون بهم ذلك اليوم .

ثم قال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾

ثم بين أمراً آخر يكون في ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى في آية أخرى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) فكان هذه الحالة مترتبة على الإبلاس ، فكأنه أولاً ييلس ثم يميز ويجعل فريق في الجنة وفريق في السعير ، وأعاد قوله (ويوم تقوم الساعة) لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيداً للتخويف ، ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله .

ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ أي في جنة يسرون بكل

مسرة ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

يعني لا غيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم

أعيدوا فيها) وقال (لا يفتر عنهم العذاب) وفي الآيتين مسائل فيها لطائف :

﴿ المسألة الأولى ﴾ بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضوع موضع ذكر المجرمين ، وذلك

لأن المؤمن يوصل إليه الثواب قبل أن يوصل إلى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن

وصل إلى الثواب فيكون أنكى ، ولو أدخل الكافر النار أولاً لكان يظن أن السكل في العذاب

مشتركون ، فقدم ذلك زيادة في إيلاهم ،

فَسَبِّحَانَ اللّٰهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوٰتِ
وَالْاَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ
مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

(المسألة الثانية) ذكر في المؤمن العمل الصالح ولم يذكر في الكافر العمل السيء ، لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان ، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح ، وأما الكافر فهو في الدرجات بمجرد كفره فلو قال : والذين كفروا وعملوا السيئات في العذاب محضرون ، لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع ، فان قيل فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور في القسمين ، فنقول له منزلة بين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة ، بل هو في الأول في العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور ، وفي الآخرة هو في الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الجور كل ذلك بحكم الوعد .

(المسألة الثالثة) قال في الأول (في روضة) على التنكير ، وقال في الآخر في العذاب على التعريف ، لتعظيم الروضة بالتنكير ، كما يقال لفلان مال وجاه ، أي كثير وعظيم .

(المسألة الرابعة) قال في الأول (محبورون) بصيغة الفعل ولم يقل محبورون ، وقال في الآخر (محضرون) بصيغة الإسم ولم يقل محضرون ، لأن الفعل ينبيء عن التجدد والاسم لا يدل عليه فقوله (محبورون) يعني بآتيهم كل ساعة أمر يسرون به . وأما الكفار فهم إذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين .

ثم قال تعالى ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾

لما بين الله تعالى عظمته في الابتداء بقوله (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وعظمته في الانتهاء ، وهو حين تقوم الساعة ويفترق الناس فريقين ، ويحكم على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ، أمر بتنزيهه عن كل سوء ويحمده على كل حال فقال (فسبحان الله) أي سبحوا الله تسيحاً ، وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) في معنى سبحان الله ولفظه ، أما لفظه ففعلان اسم للبصدر الذي هو التسييح ، سمي التسييح بسبحان وجعل علماً له . وأما المعنى فقال بعض المفسرين : المراد منه الصلاة ، أي صلوا ، وذكروا أنه أشار إلى الصلوات الخمس ، وقال بعضهم أراد به التنزيه ، أي نزوهه عن

صفات النقص وصفوه بصفات الكمال ، وهذا أقوى والمصير إليه أولى ، لأنه يتضمن الأول . وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب ، وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك ، وهو الذكر الحسن وبالأركان معهما جميعاً وهو العمل الصالح ، والأول هو الأصل ، والثاني ثمرة الأول والثالث ثمرة الثاني ، وذلك لأن الإلسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه ، وإذا قال ظهر صدقه في مقاله من أحواله وأفعاله ، واللسان ترجمان الجنان والأركان برهان اللسان ، لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان ، وهي مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان ، وهو تنزيه في التحقيق ، فإذا قال نزهوني ، وهذا نوع من أنواع التنزيه ، والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه فيكون أيضاً هذا أمراً بالصلاة ، ثم إن قولنا يناسب ما تقدم ، وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال (فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون) قال إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والإيمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الأركان والكل تنزيهات وتحميدات ، فسبحان الله أي فأتوا بذلك الذي هو الموصل إلى الجبور في الرياض ، والحضور على الحياض .

(المسألة الثانية) خص بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح وذلك لأن أفضل الأعمال أدومها ، لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) والانسان مادام في الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح ، لكونه محتاجاً إلى أكل وشرب وتحصيل ما كول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهي الأول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح في أول الليل ووسطه ، ولم يأمر بالتسبيح في آخر الليل لأن النوم فيه غالب والله من على عباده بالاستراحة بالنوم ، كما قال (ومن آياته منامكم بالليل) فإذا صلى في أول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين إلى التسبيح ، ثم إذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات آخر فصارت ست ساعات ، وإذا صلى أربعاً في أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات ، فإذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة إلى التسبيح وبقي من الليل والنهار سبع ساعات وهي ما بين نصف الليل وثلاثيه لأن ثلاثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات وما بينهما السبع ، وهذا القدر لو نام الانسان فيه لكان كثيراً وإليه أشار تعالى بقوله (قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه) وزيادة القليل على النصف هي ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة إلى النوم والنائم مرفوع عنه القلم ، فيقول الله عبدي صرف جميع أوقات تكليفه في تسبيحي فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية التي إدعيتهم بقولكم (نحن نسبح بحمدك ونقدس لك) على سبيل الانحصار بل هم مثلكم

فمقامهم مثل مقامكم في أعلى عليين ، واعلم أن في وضع الصلاة في أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة ، أما في عدد الركعات فما تقدم من كون الإنسان يقظان في سبع عشرة ساعة ففرض عليه سبع عشرة ركعة ، وأما على مذهب أبي حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتقوى ، فنقول هو مأخوذ من أن الإنسان ينبغي أن يقلل نومه فلا ينام إلا ثلث الليل مأخوذاً من قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه) ويفهم من هذا أن قيام ثلثي الليل مستحسن مستحب مؤكداً باستحباب ولهذا قال عقيبه (علم أن لن تحصوه فتأب عليكم) ذكر بلفظ التوبة ، وإذا كان كذلك يكون الإنسان يقظان في عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة ، وأما النبي عليه السلام فلما كان من شأنه أن لا ينام أضلاً كما قال « تنام عيناى ولا ينام قلبي » جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به ، وإلى هذا أشار تعالى في قوله (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً) أى كل الليل لك للتسبيح فصار هو في أربع وعشرين ساعة مسجداً ، فصار من الذين لا يفترون طرفة عين ، وأما في أوقاته فما تقدم أيضاً أن الأول والآخر والوسط هو المعتبر فشرح التسبيح في أول النهار وآخره ، وأما الليل فاعتبر أوله ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه ، وذلك لأن الظهر ووقتة نصف النهار والعشاء ووقتة نصف الليل لأننا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذى يكون الإنسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقتة في نصف هذا القدر وهو الثلاثة من الليل ، وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخرة إلى الرابعة والخامسة ، ليكون في وسط الليل المعتبر ، كما أن الظهر في وسط النهار ، وأما النبي ﷺ لما كان ليله نهاراً ونومه انتباهاً قال « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك وتأخير العشاء إلى نصف الليل » ليكون الأربع في نصف الليل كما أن الأربع في نصف النهار ، وأما التفصيل فالذى يتبين لى أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما في أول الليل ويؤدى ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ، ولما كان المؤدى من تسبيح النهار في أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل في أوله ركعة لأن سبح النهار طويل مثل ضعف سبح الليل : لأن المؤدى في النهار عشرة والمؤدى في الليل من تسبيح الليل خمس .

(المسألة الثانية) في فضيلة السبحة والحمدلة في المساء والصباح ، ولندكرها من حيث النقل والعقل ، أما النقل فأخبرني الشيخ الورع الحافظ الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسنداً عن النبي ﷺ أنه قال لبعض أصحابه « أتعجز عن أن تأتي وقت النوم بألف حسنة ؟ فتوقف فقال النبي عليه السلام قل سبحان الله والحمد لله والله أكبر مائة مرة يكتب لك بها ألف حسنة » وسمعتة يقول رحمه الله مسنداً « من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر

مرات الله أكبر أدخل الجنة ، وأما العقل فهو أن الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله و صفات ثابتة له من فعله ، أما الأولى فهي صفات كمال و جلال خلافاً نقص ، فإذا أدرك المكلف الله بأنه لا يجوز أن يخفى عليه شيء لكونه عالماً بكل شيء فقد نزّهه عن الجهل و وصفه بضده ، وإذا عرفه بأنه لا يعجز عن شيء لكونه قادراً على كل شيء فقد نزّهه عن العجز ، وإذا علم أنه لا يجرى في ملكه إلا ما يشاء لكونه مريداً لكل كائن فقد وصفه ونزّهه ، وإذا ظهر له أنه لا يجوز عليه الغناء لكونه واجب البقاء فقد نزّهه ، وإذا بان له أنه لا يسبقه العدم لانصافه بالقدم فقد نزّهه ، وإذا لاح له أنه لا يجوز أن يكون عرضاً أو جسماً أو في مكان لكونه واجباً بريئاً عن جهات الإمكان فقد نزّهه . لكن صفاته السلبية والإضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لأتقن فيها عمره ولا يدرك كنهها . فإذا قال قائل مستحضراً بقلبه سبحان الله متذنباً لما يقوله من كونه منزهاً له عن كل نقص فإتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الإجمال يقوم مقام إتيانه به على سبيل التفصيل ، لكن لا ريب في أن من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة بما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تنفي به الأعمار ، فيقول هذا العبد أتى بتسبيحي طول عمره ومدة بقائه فأجازيه بأن أطهره عن كل ذنب وأزينه بخلق الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها ، وكما أن العبد ينزه الله في أول النهار وآخره ووسطه ، فإن الله تعالى يطهره في أوله وهو دنياه وفي آخره وهو عقباه . وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره الذي يحويه إلى أواسط حشره وهو مغناه . وأما الثانية وهو صفات الفعل فالإنسان إذا نظر إلى خلق الله السموات يعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، فإذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، وكذلك القمر وكل كوكب والأرض وكل نبات وكل حيوان يقول الحمد لله ، لكن الإنسان لو حمد الله على كل شيء على حدة لا يفي عمره به ، فإذا استحضر في ذهنه النعم التي لا تعد كما قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ويقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الإجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل ، ويقول عبدي استغرق عمره في حمدي وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم إن الإنسان إذا استغرق في صفات الله قد يدعو عقله إلى التفكير في الله تعالى بعد التفكير في آلاء الله ، فكل ما يقع في عقله من حقيقته فينبغي أن يقول الله أكبر بما أدركه ، لأن المدركات وجهات الإدراكات لا نهاية لها ، فإن أراد أن يقول على سبيل التفصيل الله أكبر من هذا الذي أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدركته من وجه آخر يفي عمره ولا يفي بادراك جميع الوجوه التي يظن الظان أنه مدرك لله بذلك الوجه ، فإذا قال مع نفسه الله أكبر أي من كل ما أتصوره بقوة عقلي وطاقة إدراكي يكون متوغللاً في العرفان وإليه الإشارة بقوله :

العجز عن درك الإدراك إدراك

فقول القائل المستيقظ « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » مفيد لهذه الفوائد ، لكن شرطه

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠٥﴾

أن يكون كلاماً معتبراً وهو الذي يكون من صميم القلب لا الذي يكون من طرف اللسان .
 ﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (وعشياً) عطف على (حين) أى سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشياً ، وقوله (وله الحمد فى السموات والأرض) كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمّدوا الله إذا سبحوه وهذا كما فى قوله تعالى (يعنون عليك أن أسلبوا قل لا تاتموا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) .

﴿المسألة الخامسة﴾ قدم الإسماء على الإصباح وهنا وأخره فى قوله (وسبحوه بكرة وأصيلاً) وذلك لأن هنا أول الكلام ذكر الحشر والإعادة من قوله (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) إلى قوله (فأولئك فى العذاب محضرون) وآخر هذه الآية أيضاً ذكر الحشر والإعادة بقوله (وكذلك تخرجون) والامساء آخر فذكر الآخر ليدرك الآخرة .

﴿المسألة السادسة﴾ فى تعلق إخراج الحى من الميت والميت من الحى بما تقدم عليه هو أن عند الإصباح يخرج الإنسان من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة . وعند العشاء يخرج الإنسان من اليقظة إلى النوم ، واختلف المفسرون فى قوله (يخرج الحى من الميت) فقال أكثرهم يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، ويمكن أن يقال المراد (يخرج الحى من الميت) أى اليقظة من النائم والنائم من اليقظة ، وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أى إحياء الميت عنده وإماتة الحى كتنبيه النائم وتنويم المنتبه .

ثم قال تعالى (ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) وفى هذا معنى لطيف وهو أن الإنسان بالموت تبطل حيوانيته وأمانته الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً) لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والأرض الميتة لا يكون فيها نماء ، ثم إن النائم بالانتباه يتحرك ويحس والأرض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وإسماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك إحياء الميت سهل عليه وإلى هذا أشار بقوله (وكذلك تخرجون) .

ثم قال تعالى ﴿ومن آياته أن خلقكم من التراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾
 لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الأسواء وذكر أن الحمد له على خلق جميع الأشياء وبين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله (فسبحان الله) إلى قوله (وكذلك تخرجون) ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية

باهرة على ذلك ومن جعلها خلق الإنسان من تراب وتقريره هو أن التراب أبعد الأشياء عن درجة الأحياء ، وذلك من حيث كيميته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة ، ومن حيث لونه فانه كدر والروح نير ، ومن حيث فعله فانه ثقيل والأرواح التي بها الحياة خفيفة ، ومن حيث السكون فانه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمته ويسرة وإلى خلف وإلى قدام وإلى فوق وإلى أسفل ، وفي الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الأجسام لأن العناصر أبعد من المركبات لأن المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعد التراب لأن الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الأرواح والنار أقرب لأنها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فانه ممتزج ، وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهي مرتبة النبات الذي ينبت في الأرض ولا يبرز ولا يرتفع ، ثم النباتات وأعلى مراتبها وهي مرتبة الأشجار التي تقبل التعظيم ، ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهي مرتبة الحشرات التي ليس لها دم سائل ولا هي إلى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ، ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الأنعام ولا سيما الفرس تشبه العتال والحمال والساعي ، ثم الانسان ، وأعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذي خلق من أبعد الأشياء عن مرتبة الأحياء حياً هو في أعلى المراتب لا يكون إلا منزهاً عن العجز والجهل ، ويكون له الحد على إنعام الحياة ، ويكون له كمال القدرة ونفوذ الإرادة فيجوز منه الإبداء والاعادة ، وفي الآية لطيفتان : (إحداهما) قوله (إذا) وهي المفاجأة يقال خرجت فإذا أسد بالباب وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان لا أنه صار معدناً ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً وهذا إشارة إلى مسألة حكيمية ، وهي أن الله تعالى يخلق أولاً إنساناً فينبهه أنه يحيى حيواناً ونامياً وغير ذلك لأنه يخلق أولاً حيواناً ، ثم يجعله إنساناً بخلق الأنواع هو المراد الأول ، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة الأولى ، فالله تعالى جعل المرتبة الأخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التي ذكرناها (اللطيفة الثانية) قوله (بشر) إشارة إلى القوة المدركة لأن البشر بشر لا بحركته ، فإن غيره من الحيوانات أيضاً كذلك وقوله (تنتشرون) إلى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب ، إما الإدراك فلكثافته وجموده ، وأما الحركة فثقله وخموده وقوله (تنتشرون) إشارة إلى أن العجيبة غير محتص بخلق الإنسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلاً عن خلق البشر ، وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) وهي أن الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال (خلقكم من تراب) نقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) ما قيل إن المراد من قوله (خلقكم) أنه خلق أصلكم (والثاني) أن نقول : إن كل بشر مخلوق من التراب ، أما آدم فظاهر ، وأما نحن فلأننا خلقنا من

نطفة والنطفة من ضالح الغذاء الذي هو بالقوة بعض من الأعضاء ، والغذاء إما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها ، وإما من النبات والحيوان أيضاً له غذاء هو النبات لكن النبات من التراب ، فإن الحبة من الخنطة والنواة من الثمرة لا تصير شجرة إلا بالتراب وينضم إليها أجزاء مائة ليصير ذلك النبات بحيث يغذو .

(المسألة الثانية) قال تعالى في موضع آخر (وخلق من الماء بشراً) وقال (من ماء مهين) وههنا قال من (تراب) فكيف الجمع ؟ قلنا أما على (الجواب الأول) فالسؤال زائل ، فإن المراد منه آدم ، وأما على (الثاني) فنقول ههنا قال ما هو أصل أول ، وفي ذلك الموضع قال ما هو أصل ثان لأن ذلك التراب الذي صار غذاء يصير مائعاً وهو المني ، ثم ينعقد ويتكون بخلق الله منه إنساناً أو نقول الإنسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فان التراب لا ينبت إلا بالماء ففي النبات الذي هو أصل غذاء الإنسان تراب وماء فان جعل التراب أصلاً والماء لجمع أجزائه المتفتتة فالأمر كذلك وإن جعل الأصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلاان فالأمر كذلك ، فإن قال قائل الله تعالى يعلم كل شيء فهو يعلم أن الأصل ماذا هو منهما ، وإنما الأمر عندنا مشتبه يجوز هذا وذاك ، فإن كان الأصل هو التراب فكيف قال (من الماء بشراً) وإن كان الماء فكيف قال (خلقكم من تراب) وإن كانا هما أصليان فلم لم يقل خلقكم منهما فنقول فيه لطيفة ، وهي أن كون التراب أصلاً والماء أصلاً والماء ليس لذاتيهما ، وإنما هو يجعل الله تعالى فإن الله نظراً إلى قدرته كان له أن يخلق أول ما يخلق الإنسان ثم يفنيه ويحصل منه التراب ثم يدوبه ويحصل منه الماء ، لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة إلى الكامل لا الكامل يكون وسيلة إلى الناقص فخلق التراب والماء أولاً ، وجعلهما أصليين لمن هو أكمل منهما بل للذي هو أكمل من كل كائن وهو الإنسان ، فان كان كونهما أصليين ليس أمراً ذاتياً لهما بل يجعل جاعل فتارة جعل الأصل التراب وتارة الماء ليعلم أنه بإرادته واختياره ، فإن شاء جعل هذا أصلاً وإن شاء جعل ذلك أصلاً ، وإن شاء جعلهما أصليين .

(المسألة الثالثة) قال الحكماء إن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهي التراب والماء والهواء والنار ، وقالوا التراب فيه لثباته ، والماء لاستمساكه ، فان التراب يتفتت بسرعة ، والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب ، والنار للنضج والالتئام بين هذه الأشياء ، فهل هذا صحيح أم لا ؟ فان كان صحيحاً فكيف اعتبر الأمرين فحسب ولم يقل في موضع آخر إنه خلقكم من نار ولا من ريح ؟ فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلاننازعههم فيه إلا إذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك ، وأما إن قالوا بأن الله بحكمته خلق الإنسان من هذه الأشياء فلاننازعههم فيه ، وأما الآيات فنقول ما ذكرتم لا يخالف هذا لأن الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب ، فالأصل الموجود أولهما لا غير

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

فلذلك خصهما ولأن المحسوس من العناصر في الغالب هو التراب والماء ولا سيما كونهما في الإنسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

لما بين الله خلق الانسان بين أنه لما خلق الانسان ولم يكن من الأشياء التي تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالأشخاص وجعله بحيث يتوالد ، فإذا مات الأب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلثة في العبارة لا تنسد ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (خلق لكم) دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع ، كما قال تعالى (خلق لكم ما في الأرض) وهذا يقتضي أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى ، أما النقل فهذا وغيره ، وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها ، وأما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبي لكن الصبي ، لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكليف ، لكن النعمة علينا ما كانت تتم إلا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم ، ولولا ذلك لظهر الفساد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من أنفسكم) بعضهم قال : المراد منه أن حواء خلقت من جسم آدم والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) ويدل عليه قوله (لتسكنوا إليها) يعني أن الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يقال سكن إليه للسكون القلبي ويقال سكن عنده للسكون الجسماني ، لأن كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للأجسام وإلى للغاية وهي للقلوب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وجعل بينكم مودة ورحمة) فيه أقوال قال بعضهم مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكا بقوله تعالى (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه ، ورحمة حالة حاجة صاحبه إليه ، وهذا لأن الإنسان يحب مثلاولده ، فإذا رأى عدوه في شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك ، وما ذلك لسبب المحبة وإنما هو لسبب

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَانِكُمْ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

الرحمة ويمكن أن يقال ذكر من قبل أمرين (أحدهما) كون الزوج من جنسه (والثاني) ما تفضى إليه الجنسية وهو السكون إليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين (أحدهما) يفضى إلى الآخر فالمودة تكون أولاً ثم إنها تفضى إلى الرحمة ، ولهذا فإن الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله (إن في ذلك) يحتمل أن يقال المراد إن في خلق الأزواج آيات ، ويحتمل أن يقال في جعل المودة بينهم آيات (أما الأول) فلا بد له من فكر لأن خلق الإنسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الإرادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو في خروج الولد من بطن الأم ، فإن دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى إلى هلاك الأم وهلاك الولد أيضاً لأن الولد لو سل من موضع ضيق بغير إعانة الله لمات (وأما الثاني) فكذلك لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوى الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فإنها قد تنتفى وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة في نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التي بها يدفع الإنسان المكاره عن حريم حرمه هي من عند الله ولا يعلم ذلك إلا بفكر .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآياتٍ للعالمين ﴾

لما بين دلائل الأنفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والأرض ، فإن بعض الكفار يقول في خلق البشر وغيره من المركبات إنه بسبب ما في العناصر من الكيفيات وما في السموات من الحركات وما فيها من الاتصالات فإذا قيل له فالسما والأرض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب فلا يجد بدأ من أن يقول ذلك بقدرته الله وإرادته ثم لما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس بالاختلاف الذي بين ألوان الإنسان فإن واحداً منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات في الصورة (والثاني) اختلاف كلامهم فإن عريين هما أخوان إذا تكلمتا بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى أن من يكون محجوباً عنهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمه بالغة وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى التمييز الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو إليه ، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه ، وذلك قد يكون بالبصر فخلق

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿۲۳﴾

اختلاف الصور وقد يكون بالسمع نخلق اختلاف الأصوات ، وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة في معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ، ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والأول أصح ، ثم قال تعالى (آيات للعالمين) لما كان خلق السموات والأرض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التي يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الألوان كذلك واختلاف الأصوات كذلك قال (للعالمين) لعموم العلم بذلك .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك آيات لقوم يسمعون ﴾ .

لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلباً للرزق بالنهار ، فذكر من اللوازم أمرين ، ومن المفارقة أمرين ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (منامكم بالليل والنهار) قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهي القيلولة : ثم قال (وابتغائكم) أي فيهما فإن كثيراً ما يكتسب الإنسان بالليل ، وقيل أراد منامكم بالليل وابتغائكم بالنهار فلف البعض البعض ، ويدل عليه آيات أخر . منها قوله تعالى (وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً) وقوله (وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً) ويكون التقدير هكذا : ومن آياته منامكم وابتغائكم بالليل والنهار من فضله ، فأخر الابتغاء وقرته في اللفظ بالفعل إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه ، بل يرى كل ذلك من فضل ربه ، ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع ، منها قوله تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) وقوله (ولتبتغوا من فضله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر ، لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون إلا للحاجة ، فلا يتعب إلا محتاج في الحال أو خائف من المآل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (آيات لقوم يسمعون) وقال من قبل (لقوم يتفكرون) وقال (للعالمين) فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل آيات للعالمين ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما في بعض الأوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان ، فاتهما يدومان بدوام الإنسان

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

فجعلها آيات عامة ، وأما قوله (لقوله يتفكرون) فاعلم أن من الأشياء ما يعلم من غير تفكير ، ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكرة ، ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج إلى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد إليه ، فيفهمه إذا سمعه من ذلك المرشد ، ومنها ما يحتاج إلى بعض الناس في تفهمه إلى أمثلة حسية كالاشكال الهندسية لكن خلق الأزواج لا يقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر ، فإذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية ، وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد ، وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكرة ، فقال (لقوم يسمعون) ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

لما ذكر العرضيات التي للأنفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التي للآفاق ، وقال (يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء) وفي الآية مسائل :

(إحداهما) لما قدم دلائل الأنفس هنا قدم العرضيات التي للأنفس وأخر العرضيات التي للآفاق كما أخرج دلائل الآفاق ، بقوله (ومن آياته خلق السموات والأرض) .

(المسألة الثانية) قدم لوازم الأنفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولاً اختلاف الألسنة والألوان ثم المنام والابتغاء ، و قدم في الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال (يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل) وذلك لأن الانسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة ، وأما اللوازم فيه فقريبة . وأما السموات والأرض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم ، فقدم ما هو أعجب لكونه أدخل في كونه آية ونزيده بياناً فنقول : الانسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وله لون يتميز عن غيره ، وهو يتغير في الأحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة ، والسماء والأرض ثابتان لا يتغيران ، ثم يرى في بعض الأحوال أمطار هائلة وبروق هائلة ، والسماء كما كانت والأرض كذلك ، فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمراً مع تغير المحل وبزيل أمراً مع ثبات المحل .

(المسألة الثالثة) كما قدم السماء على الأرض قدم ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والاحياء .

(المسألة الرابعة) كما أن في إنزال المطر وإنبات الشجر منافع ، كذلك في تقدم البرق والرعد على المطر منفعة ، وذلك لأن البرق إذا لاح ، فالذي لا يكون تحت كن يخاف الابتلال

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ

الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

فيستعمله ، والذي له صهرجج أو مصنع يحتاج إلى الماء أو زرع يسوى مجارى الماء ، وأيضاً العرب من أهل البوادي فلا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللامحة من جانب دون جانب ، واعلم أن فوائد البرق وإن لم تظهر للقيمين بالبلاد فهي ظاهرة للباين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة ، وآية ، وأما كونه آية فظاهر فإن في السحاب ليس إلا ماء وهواء وخروج النار منها بحيث تحرق الجبال في غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله ، قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة وطاقة بالنسبة إلى الهواء والماء . فالهواء أطف منه والماء أكثف فاذا هبت ريح قوية تحرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمساس جسم جسم بعنف ، وهذا كما أن النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فإن قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان ، فيقولون لكن حركة يد الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الأشجار ، فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لا بد لهما من سبب ، وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ، ثم إنا نقول هب أن الأمر كما تقولون فهوب تلك الريح القوية من الأمور الحادثة العجيبة لا بد له من سبب وينتهى إلى واجب الوجود ، فهو آية للعاقل على قدرة الله فيها فرضتم ذلك .

(المسألة الخامسة) قال ههنا (لقوم يعقلون) لما كان حدوث الولد من الوالد أمراً عادياً مطرداً قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام العامة أن ذلك بالطبيعة ، لأن المطرد أقرب إلى الطبيعة من المختلف ، لكن البرق والمطر ليس أمراً مطرداً غير متخلف إذ يقع ببلدة دون بلدة وفي وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار ، فقال هو آية لمن له عقل إن لم يتفكر تفكراً تاماً .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ .

لما ذكر من العوارض التي للسماء والأرض بعضها ، ذكر من لوازمها البعض وهي قيامها ، فإن الأرض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد ، وهذا من اللوازم ، فإن الأرض لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه فإن قيل إنها تتحرك في مكانها كالرحى ولكن اتفق العقلاء على أنها في مكانها لا تخرج عنه ، وهذه آية ظاهرة لأن كونهما في الموضع الذي هما فيه وعلى الموضع

الذي هما عليه من الأمور الممكنة ، وكونهما في غير ذلك الموضع جائز ، فكان يمكن أن يخرجنا منه فلما لم يخرجنا كان ذلك ترجيحاً للجائز على غيره ، وذلك لا يكون إلا بفاعل مختار ، والفلاسفة قالوا كون الأرض في المكان الذي هي فيه طبيعي لها لأنها أثقل الأشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها في مكانها إن كانت ذات مكان فلذاتها بقيامها فيها بطبيعتها ، فنقول قد تقدم مراراً أن القول بالطبيعة باطل ، والذي نزيده ههنا أنكم وافقتمونا بأن ماجاز على أحد المثاليين جاز على المثل الآخر ، لكن مقعر الفلك لا يخالف محده في الطبع فيجوز حصول مقعره في موضع محده ، وذلك بالخروج والزوال فاذن الزوال عن المكان ممكن لاسيما على السماء الدنيا فإنها محددة الجهات على مذهبكم أيضاً والأرض كانت تجوز عليها الحركة الدورية ، كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس إلا بفاعل مختار وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الله من كل باب أمرين ، أما من الأنفس فقوله (خلق لكم) استدلال بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والأرض في قوله (خلق السموات والأرض) ومن لوازم الإنسان اختلاف اللسان واختلاف الألوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البروق والأمطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الأرض ، لأن الواحد يكفي للاقرار بالحق . (والثاني) يفيد الاستقرار بالحق ، ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فإن قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيداً ولهذا قال إبراهيم عليه السلام (بلى ولكن ليطمئن قلبي) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (بأمره) أي بقوله (قوما) أو بإرادته قيامهما ، وذلك لأن الأمر عند المعتزلة موافق للإرادة ، وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع في الأمر الذي للتكليف لا في الأمر الذي للتكوين ، فإنا لا ننازعهم في أن قوله (كن) وكونوا (ويانار كوني) موافق للإرادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا (ومن آياته أن تقوم) وقال قبله (ومن آياته يريكم) ولم يقل أن يريكم ، وإن قال بعض المفسرين إن أن مضرة هناك معناه من آياته (أن يريكم) ليصير كالمصدر بأن ، وذلك لأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدراً ، لأن المستقبل ينبيء عن التجدد ، وفي البرق لما كان ذلك من الأمور التي تتجدد في زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئاً من الحروف المصدرية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكر ستة دلائل ، وذكر في أربعة منها إن في ذلك لايات ، ولم يذكر في الأول وهو قوله (ومن آياته أن خلقكم من تراب) ولا في الآخر وهو قوله (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض) أما في الأول فلأن قوله بعده (ومن آياته أن خلق لكم) أيضاً دليل الأنفس ، فخلق الأنفس وخلق الأزواج من باب واحد ، على ما بينا ، غير أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالسكرير ، فإذا قال (إن في ذلك لايات) كان عائداً إليهما ، وأما في قيام السماء والأرض فنقول في الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها

وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قَانْتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

فلما كان في أول الأمر ظاهراً ففي آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر ، فلم يميز أحداً عن
أحد في ذلك ، وذكر ما هو مدلوله وهو قدرته على الاعادة ، وقال (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض
إذا أنتم تخرجون) وفيها مسائل :

(المسألة الأولى) ما وجه العطف يتم ، وبم تعلق ثم ؟ فنقول معناه والله أعلم إنه تعالى إذا بين
لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم أنه إذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من
الأجداث يخرجون أحياء .

(المسألة الثانية) قول القائل دعا فلان فلانا من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل
كما يقول القائل يا فلان إصعد إلى الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من
الجبل كما يقول القائل يا فلان انزل من الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ، ولا يخفى على العاقل أن الدعاء
لا يكون من الأرض إذا كان الداعي هو الله ، فالمدعو يدعى من الأرض يعني أنتم تكونون في
الأرض فيدعوكم منها فتخرجون .

(المسألة الثالثة) قوله تعالى (إذا أنتم) قد بينا أنه للمفاجأة يعني يكون ذلك بكن فيكون .
(المسألة الرابعة) قال ههنا إذا أنتم تخرجون ، وقال في خاق الانسان أولاً (ثم إذا أنتم
بشر تنتشرون) فنقول هناك يكون خاق وتقدير وتدرج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة
فينفخ فيه روحه ، فاذا هو بشر ، وأما في الاعادة لا يكون تدرج وتراخ بل يكون نداء وخروج ، فلم
يقل ههنا ثم .

ثم قال تعالى ﴿وله من في السموات والأرض كل له قانتون﴾ وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده
وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التي هي الأصل الآخر ، والوحدانية التي
هي الأصل الأول ، أشار إليها بقوله (وله من في السموات والأرض) يعني لا شريك له أصلاً
لأن كل من في السموات وكل من في الأرض ، ونفس السموات والأرض له ومملكه ، فكل له
منقادون قانتون ، والشريك يكون منازعاً مماثلاً ، فلا شريك له أصلاً ثم ذكر المدلول الآخر ، فقال
تعالى (وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أي في نظركم الاعادة أهون من الابداء

لأن من يفعل فعلاً أولاً يصعب عليه ، ثم إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون ، وقيل المراد هوهين عليه كما قيل في قول القائل الله أكبر أى كبير ، وقيل المراد هو أهون عليه أى الاعادة أهون على الخالق من الابداء لأن فى البدء يكون علقه ثم مضغة ثم لحماً ثم عظماً ثم يخلق بشراً ثم يخرج طفلاً يترعرع إلى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله ، وأما فى الاعادة فيخرج بشراً سوياً بكن فيكون أهون عليه ، والوجه الأول أصح وعليه نتكلم فنقول هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لأن فى البدء خلق الأجزاء وتأليفها والاعادة تأليف ولا شك أن الأمر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة ، ولنبين هذا فنقول إلهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل ، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى ، فإذا قال قائل إن الرجل القوى لا يتعب من نقل شعيرة من موضع إلى موضع وسلم السامع له ذلك ، فإذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون ذلك كلاماً معقولاً مبقى على حقيقته .

ثم قال تعالى (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) أى قولنا هو أهون عليه يفهم منه أمران (أحدهما) هو ما يكون فى الآخر تعب كما يقال إن نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل (والآخر) هو ما ذكرنا من الأولوية من غير لزوم تعب فى الآخر فقوله (وله المثل الأعلى) إشارة إلى أن كونه أهون بالمعنى الثانى لا يفهم منه الأول وههنا فائدة ذكرها صاحب الكشاف وهى أن الله تعالى قال فى موضع آخر (هو على هين) وقال ههنا وهو أهون عليه فقدم هناك كلمة على وأخرها هنا ، وذلك لأن المعنى الذى قال هناك إنه هين هو خلق الولد من العجوز وأنه صعب على غيره وليس بهين إلا عليه فقال (هو على هين) يعنى لا على غيرى ، وأما ههنا المعنى الذى ذكر أنه أهون هو الاعادة والاعادة على كل مبدى أهون فقال وهو أهون عليه لا على سبيل الحصر ، فالتقديم هناك كان للحصر ، وقوله تعالى (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) على الوجه الأول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة إليكم له معنى وعلى الوجه الذى ذكرناه له معنى أما على الوجه الأول فليسا قال (وله المثل الأعلى) وكان ذلك مثلاً مضروباً لمن فى الأرض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الأعلى من أمثلة الناس وهم أهل الأرض ولا يفيد أن له المثل الأعلى من أمثلة الملائكة فقال (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) يعنى هذا مثل مضروب لكم (وله المثل الأعلى) من هذا المثل ومن كل مثل يضرب فى السموات ، وأما على الوجه الثانى فمعناه أن له المثل الأعلى أى فعله وإن شبهه بفعلكم ومثله به ، لكن ذاته ليس كمثله شئ فله المثل الأعلى وهو منقول عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . وقيل المثل الأعلى أى الصفة العليا وهى لا إله إلا الله ، وقوله تعالى (وهو العزيز الحكيم) أى كامل القدرة على الممكنات ، شامل العلم بجميع الموجودات ، فيعلم الأحزاء فى الإمكانة ويقدر على جمعها وتأليفها .

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ
فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

ثم قال تعالى ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ لما بين الإعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين بين الواحدانية أيضاً بالمثل بعد الدليل، ومعناه أن يكون له مملوك لا يكون شريكاً له في ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا، وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) ينبغي أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما، ثم إن كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكداً لمعنى المثل وقد يكون موهناً له وههنا وجه المشابهة معلوم ، وأما المخالفة فوجودها أيضاً وهي مؤكدة وذلك من وجوه (أحدها) قوله (من أنفسكم) يعني ضرب لكم مثلاً من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها ، وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكبرها وقدرتها (وثانيها) قوله (مما ملكت أيمانكم) يعني عبدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طار [ى] قابل للنقل والزوال ، أما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لا يخرج له من ملك الله بوجه من الوجوه ، فإذا لم يجوز أن يكون مملوك يمينكم شريكاً لكم مع أنه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه ، بل هو في الحال مثلكم في الآدمية حتى أنكم ليس لكم تصرف في روحه وأدميته بقتل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة ، فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذي هو مملوكه من جميع الوجوه شريكاً له (وثالثها) قوله (من شركاء فيما رزقناكم) يعني الذي لكم هو في الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذي من الله فهو في الحقيقة له فإذا لم يجوز أن يكون لكم شريك في مالكم من حيث الاسم ، فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله (فأنتم فيه سواء) أي هل أنتم ومماليكم في شيء مما تملكون سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك في شيء مما يملكه ، لكن كل شيء فهو لله فما تدعون إلهيته لا يملك شيئاً أصلاً ولا مثقال ذرة من خردل فلا يعبد لعظمته ولا لمنفعة تصل إليكم منه ، وأما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك ، لأن المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الأحرار وإذا لم يكن للملوك مع مساواته إياكم في الحقيقة والصفة عندكم حرمة ، فكيف يكون حال المالك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ
 نَاصِرِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا
 لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

الوجه وإلى هذا أشار بقوله (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) .

(المسألة الثانية) بهذا نبي جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لأن الأغيار إذا لم يصلحوا
 للشركة فليس لهم ملك ولا ملك ، فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم
 ملكهم حتى يعبدوا لنفع وليس لهم قوة وقدرة لأنهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شيء فلا
 تخافونهم كما تخافون أنفسكم ، فكيف تخافونهم خوفاً أكثر من خوفكم بعضاً من بعض حتى
 تعبدوهم للخوف .

ثم قال تعالى (كذلك فصل الآيات لقوم يعقلون) أي ندينها بالدلائل والبراهين القطعية
 والأمثلة والمحاكيات الاقتناعية لقوم يعقلون ، يعني لا يخفى الأمر بعد ذلك إلا على من لا يكون
 له عقل .

ثم قال تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين)
 أي لا يجوز أن يشرك بالمسالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا
 شركاء من غير دليل ، ثم بين أن ذلك بإرادة الله بقوله (فمن يهدي من أضل الله) أي هؤلاء
 أضلهم الله فلا هادي لهم ، فينبغي أن لا يحزنك قولهم ، وههنا لطيفة وهي أن قوله (فمن يهدي من
 أضل الله) مقولما تقدم وذلك لأنه لما قال لأن الله لا شريك له بوجه ما ثم قال تعالى بل
 المشركون يشركون من غير علم ، يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفاً على خلاف رضاه والسيد العزيز
 هو الذي لا يقدر عبده على تصرف يخالف رضاه ، فقال إن ذلك ليس باستقلاله بل بإرادة الله وما
 لهم من ناصرين ، لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لا يغني عنهم شيئاً فلا ناصر لهم .

ثم قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق
 الله) أي إذا تبين الأمر وظهرت للوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت إليهم وأقم وجهك
 للدين ، وقوله (فأقم وجهك للدين) أي أقبل بملكك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى
 (كل شيء هالك إلا وجهه) أي ذاته بصفاته ، وقوله (حنيفاً) أي مائلاً عن كل ما عداه أي أقبل
 على الدين ومل عن كل شيء أي لا يكون في قلبك شيء آخر فتعود إليه ، وهذا قريب من معنى قوله
 (ولا تكونوا من المشركين) ثم قال الله تعالى (فطرت الله) أي ألزم فطرة الله وهي التوحيد

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾
 مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

فان الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم (ألسن بربكم) ؟ فقالوا بلى ، وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) فيه وجوه ، قال بعض المفسرين هذه تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقياً لا يسعد ، وقيل (لا تبديل لخلق الله) أى الوجدانية مترسخة فيهم لا تغير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون الله ، لكن الإيمان الفطرى غير كاف . ويحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبده لا تبديل لخلق الله أى ليس كونهم عبداً مثل كون المملوك عبداً لإنسان فانه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العباداة والعبودية ، وهذا لبيان فساد قول من يقول العباداة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف ، وقول المشركين إن الناقص لا يصلح لعبادة الله ، وإنما الانسان عبد الكواكب والكواكب عبادة الله ، وقول النصارى إن عيسى كان يحل الله فيه وصار إلهاً فقال (لا تبديل لخلق الله) بل كلهم عبدة لا خروج لهم عن ذلك .

ثم قال تعالى (ذلك الدين القيم) الذى لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن ذلك هو الدين المستقيم .

ثم قال تعالى ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ .

لما قال حنيفاً أى مائلاً عن غيره قال (منيبين إليه) أى مقبلين عليه ، والخطاب فى قوله (فأقم وجهك) مع النبى والمراد جميع المؤمنين ، وقوله (واتقوه) يعنى إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العباداة وأقيموا الصلاة . أى كونوا عابدين عند حصول القربة كما قلتم قبل ذلك ، ثم إنه تعالى قال (ولا تكونوا من المشركين) قال المفسرون يعنى ولا تشركوا بعد الايمان أى ولا تقصدوا بذلك غير الله ، وههنا وجه آخر وهو أن الله بقوله (منيبين) أثبت التوحيد الذى هو مخرج عن الاشراك الظاهر وبقوله (ولا تكونوا من المشركين) أراد اخراج العبد عن الشرك الخفى أى لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضا الله فان الدنيا والآخرة تحصيل وإن لم تطلبوها إذا حصل رضا الله وعلى هذا فقوله (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) يعنى لم يجتمعوا على الاسلام ، وذهب كل أحد إلى مذهب ، ويحتمل أن يقال وكانوا شيعاً يعنى بعضهم عبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضَرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً

إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ «٢٣»

للخلاص من النار ، وكل واحد بما في نظره فرح ، وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه ، وإنما يكون فرحه بأن يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لأن كل ما لدينا نافذ لقوله تعالى (ما عندكم ينفذ وما عند الله باق) فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح كما قال تعالى (بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله) جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم ويكون ما أوتوا من فضله الذي لا نفاد له ، ولذلك قال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) لا بما عندهم فان كل ما عند العبد فهو نافذ ، أما في الدنيا فظاهر ، وأما في الآخرة فلأن ما وصل إلى العبد من الالتذاذ بالمأكل والمشروب فهو يزول ، ولكن الله يجدد له مثله إلى الأبد من فضله الذي لا نفاد له فالذي لا نفاد له هو فضله .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ .

لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل ، بين أن لهم حالة يعرفون بها ، وإن كانوا ينكرونها في وقت وهي حالة الشدة ، فان عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع إلى الله ، ويجد نفسه محتاجة إلى شيء ليس كهذه الأشياء طالبة به النجاة (ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) يعني إذا خلصناه يشرك بربه ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني بفلان ، وبسبب الصنم الفلاني ، لا ، بل ينبغي أن لا يعتقد أنه تخلص بسبب فلان إذا كان ظاهراً فانه شرك خفي ، مثاله رجل في بحر أدركه الغرق فهبى الله له لوحاً يسوقه إليه ريح فيتعلق به وينجو ، فيقول تخلصت بلوح ، أو رجل أقبل عليه سبع فيرسل الله إليه رجلاً فيعينه فيقول خلصني زيد ، فهذا إذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفي ، وإن كان بمعنى أن الله خلصني على يد زيد فهو أخفي ، وفيه مسائل :

(الأولى) قوله تعالى (أذاقهم) فيه لطيفة وذلك لأن الذوق يقال في القليل فإن العرف [أن] من أكل ما كولا كثيراً لا يقول ذقت ، ويقال في النقي ما ذقت في بيته طعاماً نفيماً للقليل ليلزم نفي الكثير بالأولى ، ثم إن تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستمرة في الآخرة إذ لهم في الآخرة عذاب قال أذاقهم ولهذا قال في العذاب (ذوقوا مس سقر ، ذوقوا ما كنتم تعملون ، ذق إنك أنت العزيز الكريم) لأن عذاب الله الواصل إلى العبد بالنسبة إلى الرحمة الواصلة إلى عبيد آخرين في غاية القلة (المسألة الثانية) قوله تعالى (منه) أي من الضر في هذا التخصيص ما ذكرناه من الفائدة وهي أن الرحمة غير مطلقة لهم إنما هي عن ذلك الضر وحده ، وأما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ
سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

(المسألة الثالثة) قال ههنا (إذا فريق منهم) وقال في العنكبوت (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ولم يقل فريق وذلك لأن المذكور هناك ضر معين ، وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة إلى الخلق قليل ، والذي لا يشرك به بعد الخلاص فرقة منهم في غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقاً لقلة من خرج من المشركين ، وأما المذكور ههنا الضر مطلقاً فيتناول ضر البر والبحر والأمراض والأهون والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا في ضر ما وتخلصوا منه ، والذي لا يبقى بعد الخلاص مشركاً من جميع الأنواع إذا جمع فهو خلق عظيم ، وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين ، وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم ، فلما كان الناجي من الضر من المؤمنين جمعاً كثيراً ، جعل الباقي فريقاً .

ثم قال [تعالى] ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ، أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون .

قوله [تعالى] (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) قد تقدم تفسيره في العنكبوت بقى بيان فائدة الخطاب ههنا في قوله (فتمتعوا) وعدمه هناك في قوله (وليتمتعوا فسوف يعلمون) فنقول لما كان الضر المذكور هناك ضراً واحداً جاز أن لا يكون في ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد ، فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولا يخلو موضع من المخلصين عن الضر ، فالخاطر يصح خطابه بأنه منهم مخاطب .

ثم قال تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) لما سبق قوله تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم) أي المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فانهم وقت الضر يرجعون إلى الله حقيق ذلك بالاستفهام بمعنى الإنكار ، أي ما أنزلنا بما يقولون سلطاناً ، وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) أم الاستفهام ولا يقع إلا متوسطاً ، كما قال قائلهم :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا أنت أم سالم

فما الاستفهام الذي قبله ؟ فنقول تقديره إذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فاذا نقول ، أم

يتبعون الأهواء من غير علم ؟ أم لهم دليل على ما يقولون ؟ وليس الثاني فيتعين الأول .

(المسألة الثانية) قوله (فهو يتكلم) مجاز كما يقال إن كتابه لينطق بكذا ، وفيه معنى لطيف

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ «٣٦» أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٣٧»

وهو أن المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له ، لأن الكلام هو المسموع وما لا يقبل فكأنه لم يسمع
فكان المتكلم لم يتكلم به ، وما لا دليل عليه لا يقبل ، فإذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم
الدليل وحسن جاز إثبات التكلم للدليل وحسن .

ثم قال [تعالى] ﴿ وإذ أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾
قوله [تعالى] (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) لما بين حال المشرك الظاهر شركه بين
حال المشرك الذي دونه وهو من تكون عبادته الله للدنيا ، فإذا آتاه رضى وإذا منعه سخط وقنط
ولا ينبغي أن يكون العبد كذلك ، بل ينبغي أن يعبد الله في الشدة والرخاء ، فمن الناس من يعبد الله
في الشدة كما قال تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم) ومن الناس من يعبد الله إذا آتاه نعمة
كما قال تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) والأول كالذي يخدم مكرها مخافة العذاب والثاني
كالذي يخدم أجيراً لتوقع الأجر وكلاهما لا يكون من المثبتين في ديوان المرتبين في الجرائد
الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن ، فكذلك القسيان لا يكونان من المؤمنين
الذين لهم رزق عند ربهم ، وفيه مسألة : وهى أن قوله تعالى (فرحوا بها) إشارة إلى دنو همهم
وقصور نظرهم فان فرحهم يكون بما وصل إليهم لا بما وصل منه إليهم ، فان قال قائل الفرح
بالرحمة مأمور به في قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) وههنا ذمهم على الفرح
بالرحمة ، فكيف ذلك ؟ فنقول هناك قال فرحوا برحمة الله من حيث إنها مضافة إلى الله تعالى وههنا
فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما إذا كان من
الله ، وهو كما أن الملك لو حط عند أمير رغيفاً على السماء أو أمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية
طعام يفرح ذلك الأمير به ، ولو أعطى الملك فقيراً غير ملتفت إليه رغيفاً أو زبدية طعام أيضاً
يفرح لكن فرح الأمير يكون ذلك من الملك وفرح الفقير يكون ذلك رغيفاً وزبدية .

ثم قال تعالى (وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم) لم يذكر عند النعمة سبباً لها لتفضله بها
وذكر عند العذاب سبباً لأن الأول يزيد في الإحسان والثاني يحقق العدل . قوله (إذا هم يقنطون)
إذا المفاجأة أى لا يصبرون على ذلك قليلاً لعل الله يفرج عنهم وإنه يذكرهم به .

ثم قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلِيكَ هُمُ الْمَفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾

أى لم يعدوا أن الكل من الله فالمحقق ينبغي أن لا يكون نظره على ما يوجد بل إلى من يوجد وهو الله ، فلا يكون له تبدل حال ، وإنما يكون عنده الفرح الدائم ، ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق ، ولذلك قال (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

ثم قال تعالى ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغي أن تكون مقصورة على حالة الشدة بقوله (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم) ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شيء من الدنيا كما هو عادة المدوكر المتسلسل (١) يعبد الله إذا كان في الخوانق والرباط ، للرخيف والزبدية وإذا خلا بنفسه لا يذكر الله ، بقوله (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) وبين أنه ينبغي أن يكون ، في حالة بسط الرزق وقدره عليه ، نظره على الله الخالق الرازق ليحصل الإرشاد إلى تعظيم الله والإيمان قسماً تعظيم لأمر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، وفيه وجه آخر هو أن الله تعالى لما بين أن الله يبسط الرزق ويقدر ، فلا ينبغي أن يتوقف الإنسان في الاحسان فان الله إذا بسط الرزق لا ينقص بالانفاق ، وإذا قدر لا يزداد بالامسك ، وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) في تخصيص الأقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع أن الله ذكر الأصناف الثمانية في الصدقات فنقول أراد ههنا بيان من يجب الاحسان إليه على كل من له مال سواء كان زكواً أو لم يكن ، وسواء كان بعد الحول أو قبله لأن المقصود ههنا الشفقة العامة ، وهؤلاء الثلاثة يجب الاحسان إليهم وإن لم يكن للمحسن مال زائد ، أما القريب فتجب نفقته وإن كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فإن من لا شيء له إذا بقي في ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته ، وإن لم يكن عليه زكاة ، وكذلك من انقطع في مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها إيصاله إلى مأمن يلزمه ذلك ، وإن لم تكن عليه زكاة والفقير داخل في المسكين لأن من أوصى للمساكين شيئاً يصرف إلى الفقراء أيضاً ، وإذا نظرت إلى الباقي من الأصناف رأيتهم لا يجب صرف المال إليهم إلا على الذين وجبت الزكاة عليهم

(١) المدوكر المتسلسل : لعله اسم لطائفة من بني ساسان وهم المكذوبون والمسؤولون . يعبدون الله رياء وسمعة والخوانق أو الخوانيق جمع خانقاه كلمة أجمعية وهي مكان للعبادات وأما الرباطات فهي جمع رباط وهو المكان يجتمع فيه المجاهدون في سبيل الله على الثغور الإسلامية للحماية على الثغور .

واعتبر ذلك في العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون ، ثم اعلم أن علي مذهب أبي حنيفة رحمه الله حيث قال : المسكين من له شيء ما فنقول ، وإن كان الأمر كذلك لكن لانزاع في أن إطلاق المسكين على من لا شيء له جائز فيكون الإطلاق ههنا بذلك الوجه ، والفقير يدخل في ذلك بالطريق الأولى .

(المسألة الثانية) في تقدم البعض على البعض فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجباً سواء كان في شدة ومخمة ، أو لم يكن كان مقدماً على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة إلا إذا كان في شدة ، ولما كان المسكين حاجته ليست محتصة بموضع كان مقدماً على من حاجته محتصة بموضع دون موضع .

(المسألة الثالثة) ذكر الأقارب في جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذوو القربى ، ولم يذكر المسكين بلفظ ذي المسكنة ، وذلك لأن القرابة لا تتجدد فهي شيء ثابت ، وذو كذا لا يقال إلا في الثابت ، فإن من صدر منه رأى صائب مرة أو حصل له جاه يوماً واحداً أو وجد منه فضل في وقت لا يقال ذوراً وذو جاه وذو فضل ، وإذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيراً يقال له ذو الرأى وذو الفضل ، فقال (ذا القربى) إشارة إلى أن هذا حق متأكد ثابت ، وأما المسكنة فتطراً وتزول ولهذا المعنى قال (مسكيناً ذا مترية) فإن المسكين يدوم له كونه ذا مترية مادامت مسكنته أو يكون كذلك في أكثر الأمر .

(المسألة الرابعة) قال (فات ذا القربى حقه) ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فات ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم ، لأن العبارة الثانية لكون صدور الكلام أولاً للتشريك والأولى لكون التشريك وارداً على الكلام ، كأنه يقول أعط ذا القربى حقه ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى إذا قال الملك خل فلا يدخل ، وفلاناً أيضاً يكون في التعظيم فوق ما إذا قال خل فلاناً وفلاناً بدخلان ، وإلى هذا أشار النبی عليه الصلاة والسلام بقوله « بس خطيب القوم أنت » حيث قال الرجل من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ، ومن عصاهما فقد غوى . ولم يقل ومن عصى الله ورسوله .

(المسألة الخامسة) قوله (ذلك خير) يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال ذلك خير في نفسه ، وإن لم يقس إلى غيره لقوله تعالى (وافعلوا الخير ، فاستبقوا الخيرات) والثاني أولى لعدم احتياجه إلى إضمار ولكونه أكثر فائدة لأن الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة ، عند نزول درجة ما يقاس إليه ، كما يقال السكوت خير من الكذب ، وما هو خير في نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع .

(المسألة السادسة) قوله تعالى (للذين يريدون وجه الله) إشارة إلى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل ، فإن من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله ، وقوله (وجه الله) أي يكون عطاؤه لله لا غير ، فمن أعطى للجنة لم يرد به وجه الله ، وإنما أراد مخلوق الله .

(المسألة السابعة) كيف قال (وأولئك هم المفلحون) مع أن المفلح شرائط آخر ، وهي

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ
زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ «٣٩»

المذكورة في قوله (قد أفلح المؤمنون) فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الأفلاح ، فقوله (والذين هم للزكاة فاعلون) وقوله (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) إلى غير ذلك عطف على المفلح أى هذا مفلح ، وذلك مفلح ، وذلك الآخر مفلح لا يقال لا يحصل الأفلاح لمن يتصدق ولا يصلى ، فنقول هذا كقول القائل العالم مكرم أى نظراً إلى علمه ثم إذا حد في الزنا على سبيل النكال وقطعت يده في السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل ، إنما كان ذلك لأنه أتى بالفسق ، فكذلك إيتاء المال لوجه الله يفيد الأفلاح ، اللهم إلا إذا وجد مانع من ارتكاب محظور أو ترك واجب .

(المسألة الثامنة) لم لم يذكر غيره من الأفعال كالصلاة وغيرها ؟ فنقول الصلاة مذكورة من قبل لأن الخطاب ههنا بقوله (فآت) مع النبي ﷺ وغيره تبع ، وقد قال له من قبل (فأقم وجهك للدين حنيفاً) وقال (منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة) .

(المسألة التاسعة) قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) يفهم منه الحصر وقد قال في أول سورة البقرة (وأولئك هم المفلحون) إشارة إلى من أقام الصلاة وآتى الزكاة ، وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبله وبالآخرة ، فلو كان المفلح منحصرأ في أولئك المذكورين في سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحاً ؟ فنقول هذا هو ذلك لأننا بينا أن قوله (فأقم وجهك للدين) متصل بهذا الكلام فاذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله ، فقد ثبت أنه مؤمن مقيم للصلاة مؤت للزكاة معترف بالآخرة فصار مثل المذكور في البقرة .

ثم قال تعالى (وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون)

ذكر هذا تحريضاً يعنى أنكم إذا طلب منكم واحد بائنين ترغبون فيه وتؤتوناه وذلك لا يربوا عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام « إن الصدقة تقع في يد الرحمن فتربوا حتى تصير مثل الجبل » فينبغى أن يكون إقدامكم على الزكاة أكثر . وقوله تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أى أولئك ذوو الأضعاف كالموسر لذى اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما أتى في كونه حسنة لا في المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغبياً يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشرة مرات على وجه التفضل ، فبالرغيف الواحد يكون له قصر في الجنة فيه من كل شيء ثواباً

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ
يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ «٤٠»
ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ
الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «٤١»

نظراً إلى الرحمة ، وعشر قصور مثله نظراً إلى الفضل . مثاله في الشاهد ، ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لو عوضه بعشرة دراهم لا يكون كرمياً ، بل إذا جرت عادته بأنه يعطى على مثل ذلك ألفاً ، فاذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب .

ثم قال [تعالى] ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

قوله [تعالى] (الله الذي خلقكم) أي أوجدكم (ثم رزقكم) أي أبقاكم ، فان العرض مخلوق وليس بمبقي (ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) جمع في هذه الآية بين إثبات الأصلين الحشر والتوحيد ، أما الحشر فبقوله (ثم يحييكم) والدليل قدرته على الخلق ابتداءً ، وأما التوحيد فبقوله (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) . ثم قال تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) فقوله سبحانه أي سبحوه تسبيحاً أي نزوه ولا تصفوه بالإشراك ، وقوله (وتعالى) أي لا يجوز عليه ذلك وهذا لأن من لا يتصف بشيء قد يجوز عليه فاذا قال سبحوه أي لا تصفوه بالإشراك ، وإذا قال وتعالى فكأنه قال ولا يجوز عليه ذلك .

ثم إنه تعالى قال ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ .

وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وإذا كان الشرك سببه جعل الله إظهارهم الشرك مورثاً لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم (لفسدت السموات والأرض) كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً) وإلى هذا أشار بقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذي عملوا) واختلقت الأقوال في قوله (في البر والبحر) فقال بعض المفسرين : المراد خوف الطوفان في البر والبحر ، وقال بعضهم عدم إنبات بعض الأراضي وملوحة مياه البحار ، وقال آخرون : المراد من البحر المدن ، فان العرب تسمى المدائن بحوراً لكون مبنی عمارتها على الماء . ويمكن أن يقال

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

إن ظهور الفساد في البحر قلة مياه العيون فإنها من البحار ، واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقاً وعصياناً وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس ، فالفسق مشرك بالله بفعله ، غاية ما في الباب أن الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لأن أصل المرء قلبه ولسانه ، فإذا لم يوجد منهما إلا التوحيد يزول الشرك البدني بسببهما ، وقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذي عملوا) قد ذكرنا أن ذلك ليس تمام جزائهم وكل موجب افتراءهم ، وقوله (لعلمهم يرجعون) يعني كما يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أضله ، لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شيء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع ، كما أن السيد إذا علم من عبده أنه لا يرتدع بالكلام ، فيقول القائل لماذا لا تؤدبه بالكلام ؟ فإذا قال لا ينفع ربما يقع في وهمه أنه لا يبعد عن نفع ، فإذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه .

ثم قال تعالى ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾ .

لما بين حالهم بظهور الفساد في أحوالهم بسبب فساد أفواهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم فقال (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أي قوم نوح وعاد وثمود ، وهذا ترتيب في غاية الحسن وذلك لأنه في وقت الامتحان والإحسان قال (الله الذي خلقكم ثم رزقكم) أي آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال (ظهر الفساد في البر والبحر) أي قلل رزقكم ، ثم قال تعالى (سيروا في الأرض) أي هو أعدمكم كما أعدم من قبلكم ، فكأنه قال أعطاكم الوجود والبقاء ، ويسلب منكم الوجود والبقاء ، أما سلب البقاء فياظهار الفساد ، وأما سلب الوجود فبالإهلاك ، وعند الإعطاء قدم الوجود على البقاء ، لأن الوجود أولاً ثم البقاء ، وعند السلب قدم البقاء ، وهو الاستمرار ثم الوجود .

وقوله (كان أكثرهم مشركين) يحتمل وجوهاً ثلاثة (أحدها) أن الهلاك في الأكثر كان بسبب الشرك الظاهر وإن كان بغيره أيضاً كالإهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت (الثاني) أن كل كافر أهلك لم يكن مشركاً بل منهم من كان معطلانافياً لكنهم قليلون ، وأكثر الكفار مشركون (الثالث) أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين آتى ، كما قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة) بل كان على الصغار والمجانين ، ولكن أكثرهم كانوا مشركين .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَمْ يَمْرُدْ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمٌ تُدْعَوْنَ يَصْدَعُونَ «٤٢» مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُمْ يَمْهَدُونَ «٤٤»
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ «٤٥»

ثم قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون ، من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلا أنفسهم يمهدون ﴾ .
لما نهى الكافر عما هو عليه ، أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبي عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فانه أمر به أشرف الأنبياء ، وللمؤمنين في التكليف مقام الأنبياء كما قال عليه الصلاة والسلام « إن الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين » وقد ذكرنا معناه ، وقوله (من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) يحتمل وجهين (الأول) أن يكون قوله (من الله) متعلقاً بقوله (يأتي) والثاني أن يكون المراد (لا مرد له من الله) أي الله لا يرد وغيره . عاجز عن رده فلا بد من وقوعه (يومئذ يصدعون) أي يتفرقون . ثم أشار إلى التفرق بقوله (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلا أنفسهم يمهدون) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً) ولم يقل ومن آمن وذلك لأن العمل الصالح به يكمل الإيمان فذكره تحريضاً للمكلف عليه ، وأما الكفر إذا جاء فلا زنة للعمل معه ، ووجه آخر : وهو أن الكفر قسمان : (أحدهما) فعل وهو الاشرار والقول به ، (والثاني) ترك وهو عدم النظر والإيمان فالعاقل البالغ إذا كان في مدينة الرسول ولم يأت بالإيمان فهو كافر سواء قال بالشرك أو لم يقل ، لكن الإيمان لا بد معه من العمل الصالح ، فان الاعتقاد الحق عمل القلب ، وقول لا إله إلا الله عمل اللسان وشيء منه لا بد منه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (فعليه) فوحد الكناية وقال (فلا أنفسهم) جمعاً إشارة إلى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته ، أما الغضب فمسبق بالرحمة ، لازم لمن أساء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (فعليه كفره) ولم يبين وقال في المؤمن (فلا أنفسهم يمهدون) تحقيقاً لكمال الرحمة فانه عند الخير بين وفصل بشاره ، وعند غيره أشار إليه إشارة .

ثم قال تعالى ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين ﴾ ذكر زيادة تفصيل لما يمهد المؤمن لفعلة الخير وعمله الصالح ، وهو الجزاء الذي يجازيه به الله

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ
الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

والملاك إذا كان كبيراً كريماً ، و وعد عبداً من عباده بأني أجازيك يصل إليه منه أكثر مما يتوقعه
ثم أكد بقوله (من فضله) يعنى أنا المجازى فكيف يكون الجزاء ، ثم إنى لا أجازيك من العدل
وإنما أجازيك من الفضل فيزداد الرجاء ، ثم قال تعالى (إنه لا يحب الكافرين) أو عدمهم بوعد
ولم يفصله لما بيننا وإن كان عند المحقق هذا الإجمال فيه كالتفصيل ، فان عدم المحبة من الله غاية
العذاب ، وأفهم ذلك ممن يكون له معشوق فانه إذا أخبر العاشق بأنه وعدك بالدرهم والدنانير
كيف تكون مسرته ، وإذا قيل له إنه قال إنى أحب فلاناً كيف يكون سروره .
وفيه لطيفة وهى أن الله عندما أسند الكفر والإيمان إلى العبد قدم الكافر فقال
(من كفر فعليه كفره) وعند ما أسند الجزاء إلى نفسه قدم المؤمن فقال (ليجزى الذين آمنوا)
ثم قال تعالى (إنه لا يحب الكافرين) لأن قوله (من كفر) فى الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر
بالوعد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله (من عمل صالحاً) لتحريض المؤمن فالنهي كالأبعاد
والتحريض للتقرير والأبعاد مقدم عند الحكيم الرحيم ، وأما عند ما ذكر الجزاء بدأ بالاحسان
إظهاراً للكرم والرحمة ، فان قال قائل هذا إنما يصح أن لو كان الذكر فى كل موضع كذلك وليس
كذلك فان الله كثير من المواضع قدم إيمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الإثابة ،
فنقول إن كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه ، ونحن نقول بأن كل كلمة وردت فى
القرآن فهى لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة ، وما ذكر على خلافه لا يكون فى درجة ما ورد به
القرآن فلنبين من جملته مثالا وهو قوله تعالى (يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات
فهم فى روضة) قدم المؤمن على الكافر ، وههنا ذكر مثل ذلك المعنى فى قوله (يومئذ يصدعون)
أى يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضاً قدم الكافر فى الذكر لأنه قال من قبل
(ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) فذكر الكافر وإبلاسه ، ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة
يومئذ يتفرقون) فكان ذكر المؤمن وحده لا بد منه ليسين كيفية التفرق بمجموع قوله (يبلس
المجرمون) وقوله فى حق المؤمن (فى روضة يجبرون) لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة
أخرى للتفصيل فقال (وأما الذين كفروا) .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره
ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

قوله [تعالى (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك

بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح ، لما ذكرنا غير مرة أن الكريم لا يذكر لاحسانه عوضاً ، ويذكر لأضراره سبباً لتلا يتوهم به الظلم فقال (يرسل الرياح مبشرات) قيل بالمطر كما قال تعالى (بشرأ بين يدي رحمته) أي قبل المطر ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الأهوية والأحوال ، فان الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد .

ثم قال تعالى (وليذيقكم من رحمته) عطف على ما ذكرنا ، أي ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الأبدان (وليذيقكم من رحمته) بالمطر ، وقد ذكرنا أن الإذاقة تقال في القليل ، ولما كان أمر الدنيا قليلاً وراحتهما نزر قال (وليذيقكم) ، وأما في الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم (ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلمكم تشكرون) لما أسند الفعل إلى الفلك عقبه بقوله (بأمره) أي الفعل ظاهراً عليه ولكنه بأمر الله ، ولذلك لما قال (ولتبتغوا) مسنداً إلى العباد ذكر بعده (من فضله) أي لا استقلال لشيء بشيء ، وفي الآية مسائل :

(الأولى) في الترتيب فنقول في الرياح فوائد ، منها إصلاح الهواء ، ومنها إثارة السحاب ، ومنها جريان الفلك بها فقال (مبشرات) باصلاح الهواء فان إصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الأمطار بعده ، ثم جريان الفلك فإنه موقوف على اختبار من الآدمي باصلاح السفن وإلقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها .

(المسألة الثانية) قال في قوله تعالى (ظهر الفساد ... ليذيقهم بعض الذي عملوا) وقال ههنا (وليذيقكم من رحمته) مخاطب ههنا تشريفاً (ولأن رحمته قريب من المحسنين) فالمحسن قريب فيخطب والمسيء بعيد فلم يخاطبهم ، وأيضاً قال هناك بعض الذي عملوا وقال ههنا (من رحمته) فأضاف ما أصابهم إلى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن إلى رحمته وفيه معنيان : (أحدهما) ما ذكرنا أن الكريم لا يذكر لاحسانه ورحمته عوضاً ، وإن وجد فلا يقول أعطيتك لأنك فعلت كذا بل يقول هذا لك مني . وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندي (وثانيهما) أن ما يكون بسبب فعل العبد قليل ، فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة ، وأما إذا قال (من رحمته) كان غاية البشارة ، ومعنى ثالث وهو أنه لو قال بما فعلتم لكان ذلك موهماً لنقصان ثوابهم في الآخرة ، وأما في حق الكفار فإذا قال بما فعلتم ينبيء عن نقصان عقابهم وهو كذلك .

(المسألة الثالثة) قال هناك (لعلمهم يرجعون) وقال ههنا (ولعلمكم تشكرون) قالوا وإشارة إلى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم .

(المسألة الرابعة) إنما أخر هذه الآية لأن في الآيات التي قد سبق ذكرها قلنا إنه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المنذرات (يريكم البرق) والحادث في الجو في أكثر الأمر نار وريح فذكر الرياح ههنا تذكيراً وتقريراً للدلائل ، ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس في البرق فائدة إن لم يكن مطر ذكر هناك خوفاً وطمعاً ، أي قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا (مبشرات)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

لأن تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم ، و حكمه به حكم جازم .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .

لما بين الأصلين براهين ذكر الأصل الثالث وهو النبوة فقال (ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً) أى إرسالهم دليل رسالتك فانهم لم يكن لهم شغل غير شغلك ، ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن كذبهم أصحابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار وله وجه آخريين تعلق الآية بما قبلها وهو أن الله لما بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبي ﷺ وقال حال من تقدمك كان كذلك وجاءوا أيضاً بالبينات ، وكان في قومهم كافر ومؤمن كما في قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين ، وفي قوله تعالى (وكان حقاً) وجهان : (أحدهما) فانتقمنا ، وكان الانتقام حقاً واستأنف وقال علينا نصر المؤمنين وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد ﷺ أى علينا نصركم أبها المؤمنون (والوجه الثانى) (وكان حقاً علينا) أى نصر المؤمنين كان حقاً علينا وعلى الأول لطيفة وعلى الآخر أخرى ، أما على الأول فهو أنه لما قال فانتقمنا بين أنه لم يكن ظلماً وإنما كان عدلاً حقاً ، وذلك لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الإثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيراً من وجودهم الخبيث ، وعلى الثانى تأكيد البشارة . لأن كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال على فلان كذا ينهى عن اللزوم ، فإذا قال حقاً أكد ذلك المعنى ، وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التى لا تكون عاقبتها وخيمة ، فان إحدى الطائفتين إذا هزمت أولاً ، ثم عادت آخرأ لا يكون النصر إلا للهزيم ، وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم إلا نصرة ، فالكافر إن هزم المسلم فى بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة إذ لا عاقبة له .

ثم قال تعالى ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لِمَبْلُسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ
رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾
فَأَنْتَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الصَّخْمَ الدَّعَاءِ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾

قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿

بين دلائل الرياح على التفصيل الأول في إرسالها قدرة وحكمة . أما القدرة فظاهرة فان الهواء اللطيف الذي يشقه الودق (١) يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار ، وأما الحكمة ففي نفس الهبوب فيما يفضي إليه من إثارة السحب ، ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلاً ومنه ما يكون منقطعاً ، ثم المطر يخرج منه والماء في الهواء أعجب علامة للقدرة ، وما يفضي إليه من إنبات الزرع وإدراج الضرع حكمة بالغة ، ثم إنه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة . وقوله تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله) اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم هو تأكيد كما في قوله تعالى (فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها) وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبل المطر ، والأولى أن يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله ، أي من قبل إرسال الرياح ، وذلك لأن بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس ، فقبل المطر إذا هبت الريح لا يكون مبلساً ، فلما قال من قبل أن ينزل عليهم لم يقل إنهم كانوا مبلسين ، لأن من قبله قد يكون راجباً غالباً على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال من قبله ، أي من قبل ما ذكرنا من إرسال الريح وبسط السحاب ، ثم لما فصل قال (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى) لما ذكر الدلائل قال لمحيي باللام المؤكدة وباسم الفاعل ، فان الانسان إذا قال إن الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله إنه معطيك ، لأن الثاني يفيد أنه أعطاك فكان وهو معط متصفاً بالعطاء ، والأول يفيد أنه سيتصف به ويتبين هذا بقوله إنك ميت فانه أكد من قوله إنك تموت (وهو على كل شيء قدير) تأكيد لما يفيد الاعتراف . ثم قال [تعالى ﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون ، فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين

(١) في الأصل المطبوع بالمطبعة الاميرية ، يشقه البق ، وهو لا معنى له فيما يظهر لي ، ولعل ما ذكرته هو الصواب .

وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ

مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴿
لما بين أنهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين ، وعند ظهوره يكونون مستبشرين ،
بين أن تلك الحالة أيضاً لا يدومون عليها ، بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون
غير ثابتين لنظرهم إلى الحال لا إلى المآل ، وفي الآية مسائل :
(المسألة الأولى) قال في الآية الأولى (يرسل الرياح) على طريقة الإخبار عن الإرسال ،
وقال همنا (ولئن أرسلنا) لا على طريقة الإخبار عن الإرسال ، لأن الرياح من رحمته وهي
متواترة ، والريح من عذابه وهو تعالى رءوف بالعباد يمسخها ، ولذلك نرى الرياح النافعة تهب في
الليالي والأيام في البراري والآكام ، وريح السموم لا تهب إلا في بعض الأزمنة وفي
بعض الأماكن .

(المسألة الثانية) سمي النافعة رياحاً والضارة ريحاً لوجوه (أحدها) النافعة كثيرة الأنواع
كثيرة الأفراد فجمعها ، فإن كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ، ولا تهب الرياح الضارة
في أعوام ، بل الضارة في الغالب لا تهب في الدهور (الثاني) هو أن النافعة لا تكون إلا رياحاً
فإن ما يهب مرة واحدة لا يصلح الهواء ولا ينشئ السحاب ولا يجري السفن ، وأما الضارة بنفحة
واحدة تقتل كريح السموم (الثالث) هو أن الريح المضرة إما أن تضر بكيفية أو بكيفية ، أما
الكيفية فهي إذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم ، وهذا لا يكون للريح في هبوبها وإنما يكون
بسبب أن الهواء الساكن في بقعة فيها حشائش رديئة أو في موضع غائر وهو حار جداً ، أو تكون
متكونة في أول تكونها كذلك وكيفية كان فتكون واحدة ، لأن ذلك الهواء الساكن إذا سخن
ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كاللهيب ، ثم ما يخرج بعد
ذلك من ذلك المكان لا يكون حاراً ولا متكيفاً ، لأن المكث الطويل شرط التكيف ، ألا ترى
أنك لو أدخلت إصبعك في نار وأخرجتها بسرعة لا تتأثر ، والحديد إذا مكث فيها يذوب ، فإذا
تحرك ذلك الساكن وتفرق لا يوجد في ذلك الوقت غيره من جنسه ، وأما المتولدة كذلك فنادرة
وموضع ندرتها واحد . وأما الكمية فالرياح إذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالحلجان ، ومياه
العيون إذا اجتمعت تصير نهراً عظيماً لا تسده السدود ولا يرده الجلود ، ولا شك أن في ذلك
تكون واحدة مجتمعة من كثير ، فلهذا قال في المضرة ريح وفي النافعة رياح .
ثم إنه تعالى لما علم رسوله أنواع الأدلة وأصناف الأمثلة ووعد وأوعده ولم يزد دعاه إلا

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ
مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

فراراً ، وإنبأؤه إلا كفراً وإضراراً ، قال له (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا
ولوا مدبرين) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) في الترتيب فنقول إرشاد الميت محال ، والمحال أبعد من الممكن ، ثم
إرشاد الأصم صعب فانه لا يسمع الكلام وإنما يفهم ما يفهمه بالإشارة لا غير ، والإفهام
بالإشارة صعب ، ثم إرشاد الأعمى أيضاً صعب ، فانك إذا قلت له الطريق على يمينك يدور إلى
يمينه ، ولكنه لا يبقى عليه بل يجرد عن قريب وإرشاد الأصم أصعب ، فلهذا تكون المعاشرة مع
الأعمى أسهل من المعاشرة مع الأصم الذي لا يسمع شيئاً ، لأن غاية الإفهام بالكلام ، فإن مالا
يفهم بالإشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالإشارة ، فان المدوم والغائب
لا إشارة إليهما فقال أولاً لا تسمع الموتى ، ثم قال ولا الأصم ولا تهدي الأعمى الذي دون الأصم .
(المسألة الثانية) قال في (الصم إذا ولوا مدبرين) ليكون أدخل في الامتناع ، وذلك لأن
الأصم وإن كان يفهم فأنما يفهم بالإشارة ، فاذا ولي ولا يكون نظره إلى المشير فإنه يسمع ولا يفهم .
(المسألة الثالثة) قال في الأصم (لا تسمع الصم الدعاء) ولم يقل في الموتى ذلك لأن الأصم
قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوي ولكن صوت الداعي لا يبلغ ذلك الحد فقال
إنك داع لست بملجىء إلى الإيمان والداعي لا يسمع الأصم الدعاء .

(المسألة الرابعة) قال (وما أنت بهادى العمى) أى ليس شغلك هداية العميان كما يقول
القائل فلان ليس بشاعر وإنما ينظم بيتاً وبيتين ، أى ليس شغله ذلك فقوله (إنك لا تسمع الموتى)
نفي ذلك عنه ، وقوله (وما أنت بهادى العمى) يعنى ليس شغلك ذلك ، وما أرسلت له .

ثم قال تعالى (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) لما نفي إسماع الميت والأصم
وأثبت إسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حياً سمياً وهو كذلك لأن المؤمن ترد على قلبه
أمطار البراهين فتثبت في قلبه العقائد الحقة ، ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة ، وهذا
يدل على خلاف مذهب المعتزلة فانهم قالوا الله يريد من الكل الإيمان ، غير أن بعضهم يخالف
إرادة الله ، وقوله (إن تسمع إلا من يؤمن) دليل على أنه يؤمن فيسمعه النبي صلى الله عليه وسلم
ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم (قالوا سمعنا وأطعنا)

ثم قال تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة
ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا

يُؤْفِكُونَ «٥٥»

لما أعاد من الدلائل التي مضت دليلاً من دلائل الآفاق وهو قوله (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً) وذكر أحوال الريح من أوله إلى آخره أعاد دليلاً من دلائل الأنفس وهو خلق آدمي وذكر أحواله ، فقال (خلقكم من ضعف) أي مبناكم على الضعف كما قال تعالى (خلق الإنسان من عجل) ومن ههنا كما تكون في قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنياً أي من حالة فقره ، ثم قال تعالى (ثم جعل من بعد ضعف قوة) فقوله من ضعف إشارة إلى حالة كان فيها جنيناً وطفلاً مولوداً ورضيعاً ومفتوماً فهذه أحوال غاية الضعف ، وقوله (ثم جعل من بعد ضعف قوة) إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتفاله ، وقوله (ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) .

إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هي تمام الضعف ، ثم بين بقوله (يخلق ما يشاء) إن هذا ليس طبعاً بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى في دلائل الآفاق (فيسطه في السماء كيف يشاء وهو العليم القدير) لم قدم العلم على القدرة ؟ وقال من قبل (وهو العزيز الحكيم) فالعزة إشارة إلى تمام القدرة والحكمة إلى العلم ، فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا . فنقول هناك المذكور الإعادة بقوله (وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) لأن الإعادة تكون بكن فيكون ، فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الإبداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ، ثم إن قوله تعالى (وهو العليم القدير) تبشير وإنذار لأنه إذا كان عالماً بأعمال الخلق كان عالماً بأحوال المخلوقات فإن عملوا خيراً عليه وإن عملوا شراً عليه ، ثم إذا كان قادراً فاذا علم الخير أثاب وإذا علم الشر عاقب ، ولما كان العلم بالأحوال قبل الإثابة والعقاب الذين هما بالقدرة قدم العلم ، وأما في الآخرة فالعلم بتلك الأحوال مع العقاب فقال (وهو العليم الحكيم) وإلى مثل هذا مثل هذا أشار في قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) عقيب خلق الإنسان ، فنقول أحسن إشارة إلى العلم لأن حسن الخلق بالعلم ، والخلق المفهوم من قوله (الخالقين) إشارة إلى القدرة ، ثم لما بين ذكر الإبداء والإعادة كالإبداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها .

فقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفِكُونَ ﴾
قيل ما لبثوا في الدنيا غير ساعة . وقيل ما لبثوا في القبور ، وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا إلى وقت النشور (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون من الحق إلى الباطل ومن الصدق إلى الكذب

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ

فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

فِيَوْمِئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ

ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والایمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ .

قوله (وقال الذين أوتوا العلم والایمان) من الملائكة وغيرهم (لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) وتحن نبين ما هو المعنى اللطيف في هاتين الآيتين ، فنقول الموعود بوعده إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله ، والموعود بوعيد إذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها ، لكن المجرم إذا حشر علم أن مصيره إلى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والإبقاء في القبر ، والمؤمن إذا حشر علم أن مصيره إلى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما إن مدة لبثنا قليل وإليه الإشارة بقوله (يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) ويقول الآخر لبثنا مديداً وإليه الإشارة بقوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والایمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) يعني كان في كتاب الله ضرب الأجل إلى يوم البعث ونحن صبرنا إلى يوم البعث (فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) يعني طلبكم التأخير ، لأنكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعترفون به ، فصار مصيركم إلى النار فتطلبون التأخير .

ثم قال تعالى ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ أي لا يطلب منهم الإعتاب وهو إزالة العتب يعني التوبة التي تزيل آثار الجريمة لا تطلب منهم لأنها لا تقبل منهم .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ .

قوله (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من مثل) إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار ، وإلى أنه لم يبق من جانب الرسول تقصير ، فان طلبوا شيئاً آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لا يصعب عليه تكذيب الدلائل ، بل لا يجوز للمستدل أن يشرع في دليل

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «٥٩» فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخْفِنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ «٦٠»

آخر بعد ما ذكر دليلاً جيداً مستقيماً ظاهراً لا غبار عليه وعانده الخصم ، لأنه إما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أولاً يعترف ، فإن اعترف يكون انقطاعاً وهو يقدح في الدليل أو المستدل ، إما بأن الدليل فاسد ، وأما بأن المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال ، وكلاهما لا يجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبي عليه الصلاة والسلام ، وإن لم يعترف يكون الشروع في غيره موهماً أن الخصم ليس معانداً فيكون اجترأؤه على العناد في الثاني أكثر لأنه يقول العناد أفاد في الأول حيث التزم ذكر دليل آخر . فإن قيل فالأنبياء عليهم السلام ذكروا أنواعاً من الدلائل ، نقول سردوها سرداً ، ثم قرروها فرداً فرداً ، كمن يقول الدليل عليه من وجوه : الأول كذا ، والثاني كذا ، والثالث كذا ، وفي مثل هذا الواجب عدم الالتفات إلى عناد المعاند لأنه يزيد به عناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الإتيان بجميع ما وعد من الدلائل فتتخط درجته فاذن لكل مكان مقال . وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى (ولئن جئتكم بأية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) وفي توحيد الخطاب بقوله (ولئن جئتكم) والجمع في قوله (إن أنتم) لطيفة وهي أن الله تعالى قال (ولئن جئتكم بكل آية) جاءت بها الرسل ويمكن أن يجاء بها يقولون أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون . ثم بين تعالى أن ذلك يطبع الله على قلوبهم بقوله (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) فإن قيل من لا يعلم شيئاً أية فائدة في الإخبار عن الطبع على قلبه ؟ نقول المعنى هو أن من لا يعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل ، ثم إنه تعالى سلى قلب النبي ﷺ بقوله (فاصبر إن وعد الله حق) أي أن صدقك يبين وقوله (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) إشارة إلى وجوب مداومة النبي عليه الصلاة والسلام على الدعاء إلى الإيمان فإنه لو سكت لقال الكافر إنه متقارب الرأي ، لا ثبات له . والله أعلم بالصواب . وإليه المرجع والمآب . والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين . وآله وصحبه أجمعين .

﴿ سورة لقمان عليه السلام ﴾

(مكية كلها إلا آيتين نزلتا بالمدينة وهما (ولو أن ما في الأرض من شجرة) الآيتين وإلا آية نزلت بالمدينة وهي (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) لأن الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة وهي ثلاث وقيل أربع وثلاثون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴿٢﴾ هدى ورحمة للمحسنين ﴿٣﴾
الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴿٤﴾ أولئك
على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴿٥﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ الم ، تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾

وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) إشارة إلى كونه معجزة وقال (ولئن جثتهم بآية) إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله (الم تلك آيات الكتاب الحكيم) ولم يؤمنوا بها ، وإلى هذا أشار بعد هذا بقوله (وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً) .

وقوله ﴿ هدى ورحمة للمحسنين ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾

فقوله (هدى) أى بياناً وفرقناً ، وأما التفسير فمثل تفسير قوله تعالى (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى) وكما قيل هناك إن المعنى بذلك هذا ، كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ، ويمكن أن يقال كما قلنا هناك إن تلك إشارة إلى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند إنزال هذه الآيات التي نزلت مع (الم تلك آيات الكتاب الحكيم) لم تكن جميع الآيات نزلت فقال تلك إشارة إلى الكل أى آيات القرآن تلك آيات ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال في سورة البقرة (ذلك الكتاب) ولم يقل الحكيم ، وههنا قال (الحكيم) فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر في أحواله فقال (هدى ورحمة) وقال هناك

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

(هدى للمتقين) فقوله (هدى) في مقابلة قوله (الكتاب) وقوله (نورحة) في مقابلة قوله (الحكيم) ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذى الحكمة كقوله تعالى (فى عيشة راضية) أى ذات رضا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (للمتقين) وقال ههنا (للمحسنين) لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئاً آخر قال (للمتقين) أى يهتدى به من يتقى الشرك والعناد والتعصب ، وينظر فيه من غير عناد ، ولما زاد ههنا رحمة قال (للمحسنين) أى المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الإحسان فالمحسن هو الآتى بالإيمان والمتقى هو التارك للكفر ، كما قال تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ومن جانب الكفر كان متقياً وله الجنة ، ومن آتى بحقيقة الإيمان كان محسناً وله الزيادة لقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى) وزيادة ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال (للمحسنين) لأن رحمة الله قريب من المحسنين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) وقال ههنا (الذين يقيمون الصلاة) ولم يقل يؤمنون لما بيننا أن المتقى هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمناً والمحسن هو الآتى بحق الإيمان ، ويلزمه أن لا يكون كافراً ، فلما كان المتقى دالاً على المؤمن فى الالتزام صرح بالإيمان هناك تبييناً ولما كان المحسن دالاً على الإيمان بالتنصيص لم يصرح بالإيمان وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة) قد ذكرنا ما فى الصلاة وإقامتها مراراً وما فى الزكاة والقيام بها ، وذكرنا فى تفسير الأنفال فى أوائلها أن الصلاة ترك التشبه بالسيد فإنها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة ، وترك التشبه لازم على العبد أيضاً فى أمور فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكى عند اتكائه ، والزكاة تشبه بالسيد . فإنها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات ، والتشبه لازم على العبد أيضاً فى أمور ، كما أن عبد العالم لا يتلبس بلباس الأجناد ، وعبد الجندى لا يتلبس بلباس الزهاد ، وبهما تم العبودية .

ثم قال تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ﴾

لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية بين من حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويشغلون بغيره ، ثم إن فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه (الأول) أن ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح (الثانى) هو أن الحديث إذا كان لهواً لا فائدة فيه كان أقبح

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَرَاءَ

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

(الثالث) هو أن الله قد يقصد به الإحماض كما ينقل عن ابن عباس أنه قال أحضوا ونقل عن النبي ﷺ أنه قال «روحوا القلوب ساعة فساعة» رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً ويشهد له ما في مسلم «يا حنظلة ساعة وساعة» والعوام يفهمون منه الأمر بما يجوز من المطاوعة، والخواص يقولون هو أمر بالنظر إلى جانب الحق فإن الترويج به لا غير فلما لم يكن قصدهم إلا الإضلال لقوله (ليضل عن سبيل الله) كان فعله أدخل في القبح .

ثم قال تعالى (بغير علم) عائد إلى الشراء أى يشتري بغير علم ويتخذها أى (يتخذ السبيل هزواً أولئك لهم عذاب مهين) قوله (مهين) إشارة إلى أمر يفهم منه الدوام، وذلك لأن الملك إذا أمر بتعذيب عبد من عبده، فالجلاد إن علم أنه من يعود إلى خدمة الملك ولا يتركه الملك في الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه، وإن علم أنه لا يعود إلى ما كان عليه وأمره قد انقضى، فإنه لا يكرمه . فقوله (عذاب مهين) إشارة إلى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر، فإن عذاب المؤمن ليظهر فهو غير مهين .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً ، فبشره بعذاب أليم ﴾ .

أى يشتري الحديث الباطل، والحق الصراح يأتيه مجاناً يعرض عنه، وإذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث إن المشتري يطلب المشتري مع أنه يطلبه ببذل الثمن، ومن يأتيه الشيء لا يطلبه ولا يبذل شيئاً، ثم إن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأى شيء يجده ويشترىها، وهم ما كانوا يطلبونها، وإذا جاءتهم مجاناً ما كانوا يسمعونها، ثم إن فيه أيضاً مراتب (الأولى) التولية عن الحكمة وهو قبيح (والثاني) الاستكبار، ومن يشتري حكاية رستم وبهرام ويحتاج إليها كيف يكون مستغنياً عن الحكمة حتى يستكبر عنها؟ وإنما يستكبر الشخص عن الكلام وإذا كان يقول أنا أقول مثله، فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التي من عند الله؟ (الثالث) قوله تعالى (كأن لم يسمعها) شغل المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة (الرابع) قوله (كأن في أذنيه وقراً) أدخل في الإعراض . ثم قال تعالى (فبشره بعذاب أليم) أى له عذاب مهين فبشره أنت به وأوعده، أو يقال إذا كان حاله هذا (فبشره بعذاب أليم) .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا
وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

وقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدون فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم ﴾ .

لما بين حال من إذا تتلى عليه الآيات ولي ، بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار ، فهذا له مراتب من الأقبال والقبول والعمل به ، فإن من سمع شيئاً وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم إن هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف : (إحداهما) توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب (الثانية) تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالاً للراحة إلى القلب ، ولا يبين النعمة ، وإنما يبين عليها تنبيهاً (الثالثة) قال عذاب ، ولم يصرح بأنهم فيه خالدون ، وإنما أشار إلى الخلود بقوله (مهين) وصرح في الثواب بالخلود بقوله (خالدون فيها) ، (الرابعة) أكد ذلك بقوله (وعد الله حقاً) ولم يذكره هناك (الخامسة) قال هناك لغيره (فبشره بعذاب) وقال ههنا بنفسه (وعد الله) ، ثم لم يقل أبشركم به لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون ، لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله ، وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى (يبشرهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم) ولولا قوله (منه) لما عظمت البشارة ، ولو كانت (منه) مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير إضافة ، فإن قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) نقول البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها ، بل بها وبما ذكر بعدها إلى قوله تعالى (نزلاً من غفور رحيم) والنزل ما يهيا عند النزول والأكرام العظيم بعده وهو (العزيز الحكيم) كامل القدرة يعذب المعرض ويشيب المقبل ، كامل العلم يفعل الأفعال كما ينبغى ، فلا يعذب من يؤمن ولا يشيب من يكفر .

ثم قال تعالى ﴿ خلق السموات بغير عمد ترينها ﴾ .

بين عزته وحكمته بقوله (خلق السموات بغير عمد) اختلف قول العلماء في السموات فمنهم من قال إنها مبسوطة كصفيحة مستوية ، وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال إنها مستديرة وهو قول جميع المهندسين ، والغزالي رحمه الله قال نحن نوافقهم في ذلك فإن لهم عليها دليلاً من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز ، وإن كان في الباب خبر تؤوله بما يحتمله ، فضلاً من أن ليس في القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحاً ، بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى (كل في فلك

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنْ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ «١٠»

يسبحون) والفلك اسم لشيء مستدير، بل الواجب أن يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو
مصفحة فهي مخلوقة بقدره الله لا موجودة بإيجاب وطبع، وإذا علم هذا فنقول السماء في مكان وهو
فضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس إلا بقدره مختارة وإليه الإشارة
بقوله (بغير عمد) أي ليس على شيء يمنعها الزوال من موضعها وهي لا تزول إلا بقدره الله تعالى
وقال بعضهم المعنى أن السموات بأسرها وبمجموعها لا مكان لها لأن المكان ما يعتمد عليه ما فيه
فيكون متمكناً والحيز ما يشار إلى ما فيه بسببه يقال ههنا، وهناك وعلى هذا قالوا إن من يقع من
شاهق جبل فهو في الهواء في حيز إذ يقال له ههنا وهناك، وليس في مكان إذ لا يعتمد على
شيء، فإذا حصل على الأرض حصل في مكان، إذا علم هذا فالسموات ليست في مكان تعتمد
عليه فلا عمد لها وقوله (ترونها) فيه وجهان: (أحدهما) أنه راجع إلى السموات أي ليست هي
بعمد وأتم ترونها كذلك بغير عمد (والثاني) أنه راجع إلى العمدة أي بغير عمد مرئية، وإن كان
هناك عمد غير مرئية فهي قدرة الله وإرادته.

ثم قال تعالى ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء
ماء فأنبطنا فيها من كل زوج كريم ﴾ .

أي جبالات راسية ثابتة (أن تميد) أي كراهية أن تميد وقيل المعنى أن لا تميد، واعلم أن الأرض
ثباتها بسبب ثقلها، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح، ولو خلقها مثل الرمل لما
كانت تثبت للزراعة كما نرى الأراضي الرملية ينتقل الرمل الذي فيها من موضع إلى موضع، ثم قال
تعالى (وبث فيها من كل دابة) أي سكون الأرض فيه مصلحة حركة الدواب فاسكننا الأرض
وحركنا الدواب ولو كانت الأرض متزلزلة وبعض الأراضي يناسب بعض الحيوانات لكانت
الدابة التي لا تعيش في موضع تقع في ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب، أما إذا كانت الأرض
ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك في المواضع التي تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها، ثم قال تعالى
(وأنزلنا من السماء ماء) هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده، وتمامها بسكون الأرض لأن البذر إذا
لم يثبت إلى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الأرض متحركة كالرمل لما حصل الثبات
ولما كمل النبات، والعدول من المغايبية إلى النفس فيه فصاحة وحكمة، أما الفصاحة فمذكورة في باب
الالتفات من أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيه
ألا ترى أنك إذا قلت قال زيد كذا وكذا، وقال خالد كذا وكذا، وقال عمرو كذا. ثم إن

هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ «١١» وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ «١٢»

بكرآ قال قولا حسناً يستطاب لما قد تكرر القول مراراً . وأما الحكمة فمن وجهين (أحدهما) أن خلق الأرض ثقيل ، والسماء في غير مكان قد يقع لجاهل أنه بالطبع ، وبث الدواب يقع لبعضهم أنه باختيار الدابة ، لأن لها اختيار ، فنقول الا اول طبيعي والآخر اختياري للحيوان ، ولكن لا يشك أحد في أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعاً فان الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختياراً ، إذ الماء لا اختيار له فهو بارادة الله تعالى ، فقال (وأنزلنا من السماء) (الثاني) هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ، متكررة في كل مكان ، فأسنده إلى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته ، وقوله تعالى (فأنبئنا فيها من كل زوج) أي من كل جنس ، وكل جنس فتحته زوجان ، لأن النبات إما أن يكون شجراً ، وإما أن يكون غير شجر ، والذي هو الشجر إما أن يكون مشمراً ، وإما أن يكون غير مشمر ، والمثمر كذلك ينقسم قسمين ، وقوله تعالى (كريم) أي ذى كرم ، لأنه يأتي كثيراً من غير حساب أو مكرم مثل بغيض للبغيض . ثم قال تعالى ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ قوله تعالى (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) يعنى الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق .

ثم قال تعالى (بل الظالمون في ضلال مبين) أي بين أو مبين للعاقل أنه ضلال ، وهذا لأن ترك الطريق والحيد عنه ضلال ، ثم إن كان الحيد يمناً أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد إلى وراءه فانه يكون غاية الضلال ، فالمقصد هو الله تعالى ، فمن يطلبه ويلتفت إلى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال ، لكن من وجهه إلى الله قد يصل إلى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ، ومن يطلبه ولا يلتفت إلى ما سواه يكون كالذى على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب . وأما الذى تولى لا يصل إلى المقصود أصلاً ، وإن دام في السفر ، والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم في غير موضعها أو الواضعون أنفسهم في عبادة غير الله .

ثم قال [تعالى] ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾

قوله [تعالى] (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله) لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم

ياشراك من لا يخلق شيئاً بمن خلق كل شيء بقوله (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) وبين أن المشرك ظالم ضال ، ذكر ما يدل على أن ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وإن لم يكن هناك نبوة وهذا إشارة إلى معنى ، وهو أن اتباع النبي عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه إظهاراً للتعبيد فكيف ما لا يختص بالنبوة ، بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبي عليه السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وأنه أدركه بالحكمة وقوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) عبارة عن توفيق العمل بالعلم ، فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة ، وإن أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى ، فنقول حصول العمل على وفق المعلوم ، والذي يدل على ما ذكرنا أن من تعلم شيئاً ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيماً وإنما يكون مبخوتاً ، ألا ترى أن من يلقي نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال إنه حكيم ، وإن ظهر لفعله مصلحة وخلوع من مفسدة ، لعدم علمه به أولاً ، ومن يعلم أن الإلقاء فيه إهلاك النفس ويلقى نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال إنه حكيم وإن علم ما يكون في فعله . ثم الذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى (أن اشكر الله) فإن أن في مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله إيتاء الحكمة بقوله (أن اشكر الله) وهو كذلك ، لأن من جملة ما يقال إن العمل موافق للعلم ، لأن الإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر ، فإن اشتغل بالأهم كان عمله موافقاً لعلمه وكان حكمة ، وإن أهمل الأهم كان مخالفاً للعلم ولم يكن من الحكمة في شيء ، لكن شكر الله أهم الأشياء فالحكمة أول ما تقتضى ، ثم إن الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع إلا الشاكر بقوله (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله (ومن كفر فان الله غني حميد) أى الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه ، وفي الآية مسائل ولطائف (الأولى) فسر الله إيتاء الحكمة بالأمر بالشكر ، لكن الكافر والجاهل مأموران بالعكس فينبغي أن يكون قد أوتي الحكمة (والجواب) أن قوله تعالى (أن اشكر لله) أمر تسكوين معناه آتينا الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين ، وفي الكافر الأمر بالشكر أمر تكليف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال في الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل ، وفي الكفران ومن كفر فان الله غني ، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد ، كقول القائل : من دخل دارى فهو حر ، ومن يدخل دارى فهو حر ، فنقول فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر ، وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرار النعمة ، فمن شكر ينبغي أن يكرر ، والكفر ينبغي أن ينقطع فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران ، ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكاله ، بل أبدأ يكون منه شيء في العدم يريد الشاكر إدخاله في الوجود ، كما قال (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك) وكما قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فأشار إليه بصيغة المستقبل ، تنبيهاً على أن الشكر بكاله لم يوجد . وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام ، فقال بصيغة الماضي .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي سِنِينَ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾

(المسألة الثالثة) قال تعالى هنا (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران ، وقال في سورة الروم (ومن كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) فنقول هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل (فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون) وههنا الذكر للترغيب ، لأن وعظ الأب لابن يكون بطريق اللطف والوعد ، وقوله (ومن عمل صالحاً) يحقق ما ذكرنا أولاً ، لأن المذكور في سورة الروم لما كان بعد اليوم الذي لا مرد له تكون الأعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضي ومن عمل ، وههنا لما كان المذكور في الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله (ومن كفر فان الله غني) عن حمد الحامدين ، حميد في ذاته من غير حمدهم ، وإنما الحامد ترتفع مرتبته بكونه حامداً لله تعالى .

ثم قال تعالى ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه وحين جعلناه واعظاً لغيره وهذا لأن علوم مرتبة الإنسان بأن يكون كاملاً في نفسه ومكملاً لغيره فقوله (أن اشكر) إشارة إلى الكمال وقوله (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه) إشارة إلى التكميل ، وفي هذا لطيفة وهي أن الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الأجانب والأقارب فان إرشاد الولد أمر معتاد ، وأما تحمل المشقة في تعليم الأباعد فلا ، ثم إنه في الوعظ بدأ بالأم وهو المنع من الإشراك وقال (إن الشرك لظلم عظيم) أما أنه ظلم فلأنه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى (ولقد كرّمنا بني آدم) في عبادة الخسيس أولاً لأنه وضع العبادة في غير موضعها وهي غير وجه الله وسبيله ، وأما أنه عظيم فلأنه وضع في موضع ليس موضعه ، ولا يجوز أن يكون موضعه ، وهذا لأن من يأخذ مال زيد ويعطى عمراً يكون ظمناً من حيث إنه وضع مال زيد في يد عمرو ، ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتملك لاحق ، وأما الإشراك فوضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبوداً أصلاً .

ثم قال تعالى ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾

لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها في الصورة بين أنها غير متممة ، بل هي واجبة

وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا
فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا جَعَلْنَا لَكَ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ
أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

لغير الله في بعض الصور مثل خدمة الأبوين ، ثم بين السبب فقال (حملته أمه) يعنى لله على العبيد
نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الإبقاء بالرزق وجعل بفضله للأم ماله صورة ذلك وإن لم يكن
لها حقيقة فإن الحمل به يظهر الوجود ، وبالرضاع يحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أى صارت
بقدره الله سبب وجوده . وفصالة في عامين ، أى صارت بقدرته أيضاً سبب بقاءه ، فاذا كان منها ماله
صورة الوجود والبقاء وجب عليه ماله شبه العبادة من الخدمة ، فإن الخدمة لها صورة العبادة ، فإن
قال قائل وصى الله بالوالدين وذكر السبب في حق الأم فنقول خص الأم بالذكر وفي الأب ما وجد
في الأم فإن الأب حمله في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ وقوله (أن اشكرلى ولو الديك)
لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله ، فإن الوجود في الحقيقة من الله وفي
الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال (أن اشكرلى ولو الديك) ثم بين الفرق وقال (إلى
المصير) يعنى نعمتهما محتصة بالدنيا ونعمتى في الدنيا والآخرة ، فإن إلى المصير أو نقول لما أمر
بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء على وقت المصير إلى .

ثم قال تعالى ﴿ وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في
الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾
يعنى أن خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله ، أما إذا أفضى إليه فلا
تطعهما ، وقد ذكرنا تفسير الآية في العنكبوت ، وقال ههنا (واتبع سبيل من أناب إلى) ، يعنى
صاحبهما بجسمك فإن حقهما على جسمك ، واتبع سبيل النبي عليه السلام بعقلك ، فإنه مربى عقلك ،
كما أن الوالد مربى جسمك .

ثم قال تعالى ﴿ يا بنى إسرائيل إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى السموات أو
فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾

لما قال (فأنبئكم بما كنتم تعملون) وقع لابنه أن ما يفعل في خفية يخفى فقال (يا بنى إسرائيل)
أى الحسنة والسيئة إن كانت فى الصعر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر فى موضع حرير
كالصخرة لا تخفى على الله ، وفيه مسائل :

يَا بَنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ

إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾

(المسألة الأولى) قوله (فتسكن) بالفاء لإفادة الاجتماع يعنى إن كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية في موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله لأن الفاء للاتصال بالتعقيب .

(المسألة الثانية) لو قيل الصخرة لا بد من أن تكون في السموات أو في الأرض فما الفائدة في ذكرها؟ ولأن القائل لو قال هذا رجل أو امرأة أو ابن عمرو لا يصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلاً في أحد القسمين فكيف يفهم هذا ، فنقول الجواب عنه من أوجه (أحدها) ما قاله بعض المفسرين وهو أن المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهي لافي الأرض ولا في السماء (والثاني) ما قاله الزمخشري وهو أن فيه إضماراً تقديره فتسكن في صخرة أو في موضع آخر في السموات أو في الأرض (والثالث) أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام في مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز ، أما الثاني فلما بينتم أن من قال هذا في دار زيد أو في غيرها أو في دار عمرو لا يصح لكون دار عمرو داخلة في قوله أو في غيرها ، وأما الأول فلأن قول القائل هذا في دار زيد أو في دار عمرو أو في غيرها صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الأخص أو نقول خفاء الشيء يكون بطرق منها أن يكون في غاية الصغر ومنها أن يكون بعيداً ، ومنها أن يكون في ظلمة ، ومنها أن يكون من وراء حجاب ، فإن انتفت الأمور بأسرها بأن يكون كبيراً قريباً في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العادة ، فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله (إنها إن تك مثقال حبة) إشارة إلى الصغر وقوله (فتسكن في صخرة) إشارة إلى الحجاب وقوله (أو في السموات) إشارة إلى البعد فإنها أبعد الأبعاد وقوله (أو في الأرض) إشارة إلى الظلمات فإن جوف الأرض أظلم إلا ما كن وقوله (يأت بها الله) أبلغ من قول القائل يعلمها الله لأن من يظهر له الشيء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره فقوله (يأت بها الله) أي يظهرها الله للأشهاد وقوله (إن الله لطيف) أي نافذ القدرة (خبير) أي عالم بواطن الأمور .

ثم قال تعالى ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر علي ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾

لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهي العبادة لوجه الله مخلصاً ، وبهذا يعلم أن الصلاة كانت في سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت .

ثم قال تعالى (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) أي إذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فأكمل

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ أَوْ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

غيرك ، فان شغل الانبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكملوا غيرهم ، فان قال قائل كيف قدم في وصيته لابنه الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر ، وقبل قدم النهي عن المنكر على الأمر بالمعروف فانه أول ما قال (يا بني لا تشرك) ثم قال (يا بني أقم الصلاة) ؟ فنقول هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذي يترتب على هذا المعروف ، فان المشرك بالله لا يكون نافياً لله في الاعتقاد وإن كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف في مقابلته منكروالمعروف في معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه ، فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لأنه ورد في التفسير أن ابنه كان مشركاً فوعظه ولم يزل يعظه حتى أسلم ، وأما ههنا فأمره أمراً مطلقاً والمعروف مقدم على المنكر ، ثم قال تعالى (واصبر على ما أصابك) يعني أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه ، وقوله (إن ذلك من عزم الأمور) أي من الأمور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول ، كما تقول أكلت في النهار رغيف خبز أي ما كولي .

ثم قال تعالى ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ .

لما أمره بأن يكون كاملاً في نفسه مكملًا لغيره وكان يخشى بعدهما من أمرين (أحدهما) التكبر على الغير بسبب كونه مكملًا له (والثاني) التبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه فقال (ولا تصعر خدك للناس) تكبراً (ولا تمش في الأرض مرحاً) تبخترأ (إن الله لا يحب كل مختال) يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر (فخور) يعني من يكون مفتخراً بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه ، وفي الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال (أقم الصلاة) ثم قال (وأمر بالمعروف) وفي النهي قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال (ولا تصعر خدك) ثم قال (ولا تمش في الأرض مرحاً) لأن في طرف الإثبات من لا يكون كاملاً لا يمكن أن يصير مكملًا فقدم الكمال ، وفي طرف النفي من يكون متكبراً على غيره يكون متبخترأ لأنه لا يتكبر على الغير إلا عند اعتقاده أنه أكبر منه من وجه ، وأما من يكون متبخترأ في نفسه قد لا يتكبر ، ويتوهم أنه يتواضع للناس فقدم نفي التكبر ثم نفي التبختر ، لأنه لو قد نفي التبختر للزم منه نفي التكبر فلا يحتاج إلى النهي عنه . ومثاله أنه لا يجوز أن يقال لا تفطر ولا تأكل ، لأن من لا يفطر لا يأكل ، ويجوز أن يقال لا تأكل

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ

الْحَمِيرِ «١٩»

ولا تفطر ، لأن من لا يأكل قد يفطر بغير الأكل ، ولقائل أن يقول أن مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لا تفطر ولا تأكل أى لا تفطر بأن تأكل ولا يكون نهين بل واحداً .

ثم قال تعالى ﴿واقصد في مشيك واعضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ لما قال (ولا تمس في الأرض مرحاً) وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذى يخالف غاية الاختلاف ، وهو مشى المتماوت الذى يرى من نفسه الضعف تزهداً فقال (واقصد في مشيك) أى كن وسطاً بين الطرفين المذمومين ، وفي الآية مسائل :

(الأولى) هل للأمر بالعض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشى؟ فنقول : نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها ، وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ، ولا يصيبه عد ، ولا يعلمه أحد والذى يظهر وجوه (الأول) هو أن الإنسان لما كان شريفاً تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطراً فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشى ، فإن عجز عن إدراك مقصوده ينادى مطلوبه فيقف له أو يأتبه مشياً إليه فإن عجز عن إبلاغ كلامه إليه ، وبعض الحيوانات يشارك الإنسان في تحصيل المطلوب بالصوت كما أن الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والحوار والرغاء ولكن لا تتعدى إلى غيرها ، والإنسان يميز البعض عن البعض فإذا كان المشى والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر (الثانى) هو أن الإنسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فإنه حركة وسكون ، وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا الله ، وقد أشار إليه بقوله (إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أى أصلح ضميرك فإن الله خبير ، بقى الأمران فقال (واقصد في مشيك واعضض من صوتك) إشارة إلى التوسط فى الأفعال والأقوال (الثالث) هو أن لقمان أراد إرشاد ابنه إلى السداد فى الأوصاف الإنسانية والأوصاف التى هى للملك الذى هو أعلى مرتبة منه ، والأوصاف التى للحيوان الذى هو أدنى مرتبة منه . فقوله (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) إشارة إلى المكارم المختصة بالإنسان فإن الملك لا يأمر ملكاً آخر بشئ ولا ينهاه عن شئ . وقوله (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً) الذى هو إشارة إلى عدم التكبر والتبختر إشارة إلى المكارم التى هى صفة الملائكة فإن عدم التكبر والتبختر صفتهم ، وقوله (واقصد فى مشيك واعضض من صوتك) إشارة إلى المكارم التى هى صفة الحيوان ثم قال تعالى (إلى أنكر الأصوات لصوت الحمير) وفيه مسائل :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ
نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا
كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠٠﴾

(الأولى) لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى ، نقول أما على قولنا إن المشى والصوت كلاهما موصلان إلى شخص مطلوب إن أدركه بالمشى إليه فذاك ، وإلا فيوقفه بالنداء ، فنقول رفع الصوت يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوة ، وربما يخرق الغشاء الذى داخل الأذن . وأما السرعة فى المشى فلا تؤذى أو إن كانت تؤذى فلا تؤذى غير من فى طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ، ولأن المشى يؤذى آلة المشى . والصوت يؤذى آلة السمع وآلة السمع على باب القلب ، فإن الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشى ، وأما على قولنا الإشارة بالشىء والصوت إلى الأفعال والأقوال فلان القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لان اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى .

(المسألة الثانية) كيف يفهم كونه أنكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد أشد تنفيراً؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المراد أن أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ما ذكرتم وما ذكرتم فى أكثر الأمر لمصلحة وعمارة فلا ينكر ، بخلاف صوت الحمير وهذا وهو الجواب (الثانى) .

(المسألة الثالثة) أنكر هو أفعل التفضيل فمن أى باب هو ؟ نقول يحتمل أن يكون من باب أطوع له من بنائه ، بمعنى أشدها طاعة فان أفعل لا يجىء فى مفعول ولا فى مفعول ولا فى باب العيوب إلا ما شذ ، كقولهم أطوع من كذا للتفضيل على المطيع ، وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول ، وأحق من فلان من باب العيوب ، وعلى هذا فهو فى باب أفعل كأشغل فى باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر ، أو نقول هو من باب أشغل مأخوذاً من نكر الشىء فهو منكر ، وهذا أنكر منه ، وعلى هذا فله معنى لطيف ، وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصبح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك ، والجمار لو مات تحت الحمل لا يصبح ولو قتل لا يصبح ، وفى بعض أوقات عدم الحاجة يصبح وينهق فصوته منكور ، ويمكن أن يقال هو من نكير كأجدر من جدير .

ثم قال تعالى ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة ، وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ .
لما استدل بقوله تعالى (خلق السموات بغير عمد) على الوجدانية ، وبين بحكاية لقمان أن

معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة ، وما جاء به النبي عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الأخلاق كلها حكمة بالغة ، ولو كان تعبداً محضاً للزم قبوله ، فضلاً عن أنه على وفق الحكمة ، استدلال على الوجدانية بالنعمة لأننا بينا مراراً أن الملك يخدم لعظمته ، وإن لم ينعم ويخدم لنعمة أيضاً ، فلما بين أنه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد وإلقائه في الأرض الرواسي . وذكر بعض النعم بقوله (وأنزلنا من السماء ماء) ذكر بعده عامة النعم فقال (سخر لكم ما في السموات) أي سخر لأجلكم ما في السموات ، فإن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفيها فوائد لعباده ، وسخر ما في الأرض لأجل عباده ، وقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة) وهي ما في الأعضاء من السلامة (وباطنة) وهي ما في القوى فان العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ، ألا ترى أن العين والأذن شحم وغضروف ظاهر ، واللسان والأنف لحم وعظم ظاهر ، وفي كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم ، وكذلك كل عضو ، وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائماً ، وهذا أحسن مما قيل فإن على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الأنفس فقوله (ما في السموات وما في الأرض) يكون إشارة إلى النعم الآفاقية ، وقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) يكون إشارة إلى النعم الانفسية ، وفيهما أقوال كثيرة مذكورة في جميع كتب التفاسير ، ولا يبعد أن يكون ما ذكرناه مقولاً منقولاً ، وإن لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغاً معقولاً .

ثم قال تعالى (ومن الناس من يجادل في الله) يعني لما ثبت الوجدانية بالخلق والإنعام فمن الناس من يجادل في الله ويثبت غيره ، إما إلهاً أو منعماً (بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب ، والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب ، وبيانه هو أن العلم تدخل فيه الأشياء الواضحة اللائحة التي تعلم من غير هداية هاد ، ثم الهدى يدخل فيه الذي يكون في كتاب والذي يكون من إلهام ووحى ، فقال تعالى (يجادل) ذلك المجادل لا من علم واضح ، ولا من هدى أتاه من هاد ، ولا من كتاب وكان الأول إشارة إلى من أوتى من لدنه علماً كما قال تعالى (وعلمك ما لم تكن تعلم) (والثاني) إشارة إلى مرتبة من هدى إلى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى (عليه شديد القوى) (والثالث) إشارة إلى مرتبة من اهتدى بواسطة من هدى ولهذا قال تعالى (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) وقال في هذه السورة (هدى ورحمة للمحسنين) وقال في السجدة (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) فالكتاب هدى لقوم النبي عليه السلام ، والنبي هداية من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الأمين ، فقال تعالى : يجادل من يجادل لا يعلم آتيناه من لدنا كشافاً ، ولا يهدى أرسلناه إليه وحياً ، ولا بكتاب يتلى عليه وعظا . ثم فيه لطيفة أخرى وهو أنه تعالى قال في الكتاب (ولا كتاب منير) لأن المجادل منه من كان يجادل من كتاب ولكنه محرف مثل التوراة بعد التحريف ، فلو قال

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ «٢١» وَمَنْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ
وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ «٢٢»

ولا كتاب لكان لقائل أن يقول لا يجادل من غير كتاب ، فان بعض ما يقولون فهو في كتابهم
ولأن المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم ، فقال (ولا كتاب منير) فان ذلك
الكتاب مظلم ، ولما لم يحتمل في المرتبة الأولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى
منير أو حق أو غير ذلك .

ثم قال [تعالى] ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان
الشیطان يدعوهم إلى عذاب السعير ، ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة
الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ .

قوله [تعالى] (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) بين أن مجادلهم
مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح فان النبي عليه السلام يدعوهم إلى كلام الله ، وهم يأخذون
بكلام آباءهم ، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء
ثم إن هنا شيئاً آخر وهو أنهم قالوا (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يعنى نترك القول النازل من
الله ونتبع الفعل ، والقول أدل من الفعل لأن الفعل يحتمل أن يكون جازماً ، ويحتمل أن يكون
حراماً ، وهم تعاطوه ، ويحتمل أن يكون واجباً في اعتقادهم والقول بين الدلالة ، فلو سمعنا قول
قائل افعل ورأينا فعله يدل على خلاف قوله ، لكان الواجب الأخذ بالقول ، فكيف والقول من الله
والفعل من الجهال ، ثم قال تعالى (أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) استفهاماً على
سبيل التعجب في الإنكار يعنى الشيطان يدعوهم إلى العذاب والله يدعو إلى الثواب ، وهم مع هذا
يتبعون الشيطان . ثم قال تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة
الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور) لما بين حال المشرك والمجادل في الله بين حال المسلم الممتسك
لأمر الله فقوله (ومن يسلم وجهه إلى الله) إشارة إلى الإيمان وقوله (وهو محسن) إشارة إلى
العمل الصالح فتكون الآية في معنى قوله تعالى (من آمن وعمل صالحاً) وقوله (فقد استمسك
بالعروة الوثقى) أى تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه إلى أعلى المقامات وفي الآية مسائل :
(الأولى) قال ههنا (ومن يسلم وجهه إلى الله) وقال في سورة البقرة (بل من أسلم وجهه لله)
فعدى ههنا بالي وهناك باللام ، قال الزمخشري معنى قوله (أسلم لله) أى جعل نفسه لله سالماً أى خالصاً

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٢٣» نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ «٢٤»

والوجه بمعنى النفس والذات ، ومعنى قوله (يسلم وجهه إلى الله) يسلم نفسه إلى الله كما يسلم واحد متاعاً إلى غيره ولم يزد على هذا ، ويمكن أن يزداد عليه ويقال من أسلم لله أعلى درجة من يسلم إلى الله ، لأن إلى للغاية واللام للاختصاص ، يقول القائل أسلمت وجهي إليك أي توجهت نحوك وينبغي هذا عن عدم الوصول لأن التوجه إلى الشيء قبل الوصول وقوله (أسلمت وجهي لك) لك يفيد الاختصاص ولا ينبغي عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول ، إذا علم هذا فنقول في البقرة قالت اليهود والنصارى (إن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) فقال الله رداً عليهم (تلك أمانهم قل هاتوا برهانكم) ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى (بلى من أسلم وجهه لله) أي أنتم مع أنكم تركون الله للعالم وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمناً قليلاً تدخلون [النار] ومن كان بكليته لله لا يدخلها ، هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقص بالصورة التي هي الزم أولى فأورد عليهم المخلص الذي ليس له أمر إلا الله وقال أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها ، ثم بين كذبهم وقال بلى وبين أن له فوق الجنة درجة وهي العندية بقوله (فله أجره عند ربه) وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول إلى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة . ثم قال تعالى (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أوثق العرى جانب الله لأن كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له ، ثم قال تعالى (وإلى الله عاقبة الأمور) يعني استمسك بعروة توصله إلى الله وكل شيء عاقبته إليه فإذا حصل في الحال ما إليه عاقبته في غاية الحسن وذلك لأن من يعلم أن عاقبة الأمور إلى واحد ثم يقدم إليه الهدايا قبل الوصول إليه يجد فائدته عند القدوم عليه ، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) .

ثم قال تعالى (ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور و نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ)

لما بين حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر فقال (ومن كفر فلا يحزنك) أي لا تحزن إذا كفر كافراً من يكذب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن ، بل قد يؤنب (١) المكذب على الزيادة في التكذيب إذا لم يكن من الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل ، وأما إذا كان لا يرجو ظهور صدقه يتألم من التكذيب ، فقال فلا يحزنك كفره ، فإن المرجع إلى فأنبئهم بما عملوا فيخجلون وقوله (إن الله عليم بذات الصدور) أي لا يخفى عليه سرهم وعلايتهم

(١) في الطبعة الأميرية دبل قد يؤنب ، وما اثبتته الأقرب إلى المعنى والأظهر إن شاء الله .

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

فينبئهم بما أضمرته صدورهم ، وذات الصدور هي المهلك ، ثم إن الله تعالى فصل ما ذكرنا وقال (نمتعهم قليلاً) أي بقاؤهم مدة قليلة ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله (ثم نضطرهم) أي نسلط عليهم أغلظ عذاب حتى يدخلوا بأنفسهم عذاباً غليظاً فيضطرون إلى عذاب النار فراراً من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يعذبونهم بمقامع من نار، وفيه وجه آخر لطيف وهو أنهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الأمر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدي ربهم بمحضر الأنبياء ، وهو يتحقق بقوله تعالى (فلا يحزنك كفره إنا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) . ثم قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾

الآية متعلقة بما قبلها من جهين (أحدهما) أنه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين أنهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضى أن يكون الحمد لله ، لأن خالق السموات والأرض يحتاج إليه كل ما في السموات والأرض ، وكون الحمد لله يقتضى أن لا يعبد غيره ، لكنهم لا يعلمون هذا (والثاني) أن الله تعالى لما سلى قلب النبي ﷺ بقوله (فلا يحزنك كفره إنا مرجعهم فننبئهم) أي لا تحزن على تكذيبهم فإن صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم إينا ، قال وليس لا يتبين إلا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لأنهم معترفون بأن خلق السموات والأرض من الله ، وهذا يصدقك في دعوى الوحدانية ويبين كذبهم في الاشرار (قل الحمد لله) على ظهور صدقك وكذب مكذيك (بل أكثرهم لا يعلمون) أي ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون لا يعلمون استعمالاً للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلأن يعطى ويمنع ولا يكون في ضميره من يعطى بل يريد أن له عطاء ومنعاً فكذلك ههنا قال لا يعلمون أي ليس لهم علم وعلى الأول يكون لا يعلمون له مفعول مفهوم وهو أنهم لا يعلمون أن الحمد لله ، والثاني أبلغ لأن قول القائل : فلان لا علم له بكذا ، دون قوله فلان لا علم له ، وكذا قوله فلان : لا ينفع زيدا ولا يضره ، دون قوله : فلان لا يضر ولا ينفع .

ثم قال تعالى ﴿ لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾

وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٍ وَالْبَحْرِ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ
مَا نَفَدْتُمْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا
كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

ذكر بما يلزم منه ، وهو أنه يكون له ما فيهما والأمر كذلك عقلا وشرعا ، أما عقلا فلأن ما في السموات المخلوقة مخلوق وإضافة خلقه إلى من منه خلق السموات والأرض لازم عقلا لأنها ممكنة ، والممكن لا يقع ولا يوجد إلا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب أهل السنة أو بواسطة كما يقوله غيرهم ، وكيفما فرض فكله من الله لأن سبب السبب سبب ، وأما شرعاً فلأن من يملك أرضاً وحصل منها شيء ما يكون ذلك لمالك الأرض فكذلك كل ما في السموات والأرض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والأرض وإذا كان الأمر كذلك تحقق أن الحمد كله لله . ثم قوله تعالى (إن الله هو الغني الحميد) فيه معان لطيفة (أحدها) أن الكل لله وهو غير محتاج إليه غير منتفع به وفيها منافع فهي لكم خلقها فهو غني لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه حوائجكم بها (وثانيها) أن بعد ذكر الدلائل على أن الحمد كله لله ولا تصلح العبادة إلا لله افترق المكلفون فريقين مؤمن وكافر ، والكافر لم يحمده الله والمؤمن حمده فقال إنه غني عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين ، وحميد في نفسه فيقتبين به إصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون (وثالثها) هو أن السموات وما فيها والأرض وما فيها إذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غنى إلا الله فهو الغني المطلق وكل محتاج فهو حامد ، لاحتياجه إلى من يدفع حاجته فلا يكون الحميد المطلق إلا الغني المطلق فهو الحميد ، وعلى هذا [يكون] الحميد بمعنى المحمود ، والله إذا قيل له الحميد لا يكون معناه إلا الواصف ، أي وصف نفسه أو عباده بأوصاف حميدة ، والعبد إذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى ، ويحتمل كونه عابداً شاكراً له .

ثم قال تعالى ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ، ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾ لما قال تعالى (الله ما في السموات والأرض) وكان ذلك موهماً لتناهي ملكه لا تحصر ما في السموات وما في الأرض فيهما ، وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن في قدرته وعلوه عجائب لا نهاية لها فقال (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) ويكتب بها والأبحر مداد لا تنفى عجائب صنع الله ، وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجبية ، ووجهها أن العجائب بقوله كن وكن كلمة وإطلاق اسم السبب على المسبب جائز . يقول الشجاع لمن يبارزه أنا موتك ، ويقال للدواء في حق المريض

هذا شفاؤك ، ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمي المسيح كلمة لأنه كان أمراً عجيباً وصنعاً غريباً لوجوده من غير أب ، فإن قال قائل الآية واردة في اليهود حيث قالوا الله ذكر كل شيء في التوراة ولم يبق شيء لم يذكره ، فقال الذي في التوراة بالنسبة إلى كلام الله تعالى ليس إلا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية ، وقيل أيضاً إنها نزلت في واحد قال للنبي عليه السلام إنك تقول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وتقول (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) فنزلت الآية دالة على أنه خير كثير بالنسبة إلى العباد ، وبالنسبة إلى الله وعلومه قليل ، وقيل أيضاً إنها نزلت ردّاً على الكفار حيث قالوا بأن ما يورده محمد سينفد ، فقال إنه كلام الله وهو لا ينفد . وما ذكر من أسباب النزول ينافي ما ذكرتم من التفسير ، لأنها تدل على أن المراد الكلام ، فنقول ما ذكرتم من اختلاف الأقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا ، لأنه إذا صلح جواباً لهذه الأشياء التي ذكرتموها وهي متباينة علم أنها عامة وما ذكرنا لا ينافي هذا ، لأن كلام الله عجيب معجز لا يقدر أحد على الإتيان بمثله ، وإذا قلنا بأن عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه ، لا يقال إنك جعلت الكلام مخلوقاً ، لأننا نقول المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب ، وأما الكلمات فهي من صفات الله تعالى واعلم أن الآية وإن كانت نازلة على ترتيب غير الذي هو مكتوب ، ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله ، فإنه بأمر الرسول كتب كذلك ، وأمر الرسول من أمر الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذي فيه ، ثم إن الآية فيها لطائف (الأولى) قال (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) وحدث الشجرة وجمع الأقلام ولم يقل ولو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام ولا قال ولو أن ما في الأرض من شجرة قلم إشارة إلى التكثير ، يعني ولو أن بعدد كل شجرة أقلاماً (الثانية) قوله والبحر يمدده تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ، ثم قوله (يمده من بعده سبعة أبحر) إشارة إلى بحار غير موجودة ، يعني لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر آخر وقوله (سبعة) ليس لانحصارها في سبعة ، وإنما الإشارة إلى المدد والكثرة ولو بألف بحر ، والسبعة خصصت بالذكر من بين الأعداد ، لأنها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة ، والذي يدل عليه وجوه (الأول) هو أن ما هو معلوم عند كل أحد لحاجته إليه هو الزمان والمكان ، لأن المكان فيه الأجسام والزمان فيه الأفعال ، لكن المكان منحصر في سبعة أقاليم والزمان في سبعة أيام ، ولأن الكواكب السيارة سبعة ، وكان المنجمون ينسبون إليها أموراً ، فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثيرات الواقعة في العادة فاستعملت في كل كثير (الثاني) هو أن الأحاد إلى العشرة وهي العقد الأول وما بعده يتبدى من الأحاد مرة أخرى فيقال أحد عشر واثنان عشر ، ثم المئات من العشرات والألوف من المئات ، إذا علم هذا فنقول أقل ما يلتزم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة ، لأنه يحتاج إلى طرفين مبدأ ومنتهى ووسط ، ولهذا يقال أقل ما يكون الإسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف ، فإذا كانت الثلاثة هو القسم الأول من العشرة التي هو العدد الأصلي تبقى

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾

السبعة القسم الاكثر ، فاذا اريد بيان الكثرة ذكرت السبعة ، ولهذا فان المعدودات في العبادات من التسيجات في الانتقالات في الصلوات ثلاثة ، والمرار في الوضوء ثلاثة تيسيراً للأمر على المكلف اكتفاء بالقسم الاول ، إذا ثبت هذا فنقول قوله عليه السلام « المؤمن يأكل في معي والكافر يأكل في سبعة أمعاء » إشارة إلى قلة الأكل وكثرته من غير إرادة السبعة بخصوصها ، ويحتمل أن يقال إن لجهم سبعة أبواب بهذا التفسير ، ثم على هذا فقولنا للجنة ثمانية أبواب إشارة إلى زيادتها فان فيها الحسنی وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها ، والذي يدل على ما ذكرنا في السبعة أن العرب عند الثامن يزيدون واواً ، يقول الفراء إنها واو الثمانية وليس ذلك إلا للاستئناف لأن العدد بالسبعة يتم في العرف ، ثم بالثامن استئناف جديد (اللطيفة الثالثة) لم يقل في الأقلام المدد لوجهين (أحدهما) هو أن قوله (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) بينا أن المراد منه هو أن يكون بعدد كل شجرة موجودة أقلام فتكون الأقلام أكثر من الأشجار الموجودة وقوله في البحر (والبحر يمد سبعة أبحر) إشارة إلى أن البحر لو كان أكثر من الموجود لاستوى القلم والبحر في المعنى (والثاني) هو أن النقصان بالكتابة يلحق المداد أكثر فانه هو النافذ والقلم الواحد يمكن أن يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد في البحر الذي هو كالمداد . ثم قال تعالى (إن الله عزيز حكيم) لما ذكر أن ملكوته كثيراً أشار إلى ما يحقق ذلك فقال (إنه عزيز حكيم) أي كامل القدرة فيكون له مقدرات لانهاية لها وإلا لانتهت القدرة إلى حيث لا تصلح للايجاد وهو حكيم كامل العلم ففي علمه ما لا نهاية له فتحقق أن البحر لو كان مداداً لما نفذ ما في علمه وقدرته .

ثم قال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر ما يبطل (١) استبعادهم للعشر وقال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ومن لا تفاد لكلماته يقول للوثى كونوا فيكونوا .

ثم قال تعالى (إن الله سميع بصير) سميع لما يقولون بصير بما يعملون فاذا كونه قادراً على البعث ومحيطاً بالأقوال والأفعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل .
ثم قال تعالى ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ﴾ .

(١) في النسخة الاميرية . ياطل ، وهو تصحيف .

يحتمل أن يقال : إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال (ألم تر أن الله يسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض) على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله (يولج الليل فى النهار) وقوله (وسخر الشمس والقمر) إشارة إلى ما فى السموات . وقوله بعد هذا (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله) إشارة إلى ما فى الأرض . ويحتمل أن يقال إن وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول (وما يهلكنا إلا الدهر) والدهر هو الليالى والأيام ، قال الله تعالى هذه الليالى والأيام التى تنسبون إليها الموت والحياة هى بقدره الله تعالى فقال (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) ثم إن قائلنا لو قال إن ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس (١) التى هى فوق الأرض أكثر من التى تحت الأرض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى (وسخر الشمس والقمر) يعنى إن كنتم لا تعترفون بأن هذه الأشياء كلها فى أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة إلى الله تعالى ، فالآجال إن كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس إلا بالله وقدرته ، وفى الآية مسائل :

(الأولى) إيلاج الليل فى النهار يحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال المراد إيلاج الليل فى زمان النهار أى يجعل فى الزمان الذى كان فيه النهار الليل ، وذلك لأن الليل إذا كان مثلاً اثنتى عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجوداً فى زمان كان فيه النهار (وثانيهما) أن يقال المراد إيلاج زمان الليل فى النهار أى يجعل زمان الليل فى النهار وذلك لأن الليل إذا كان كما ذكرنا اثنتى عشرة ساعة إذا قصر صار زمان الليل موجوداً فى النهار ولا يمكن غير هذا لأن إيلاج الليل فى النهار محال الوجود فما ذكرنا من الإضمار لا بد منه لكن الأول أولى لأن الليل والنهار أفعال والأفعال فى الأزمنة لأن الزمان ظرف فقولنا الليل فى زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل فى النهار لأن الثانى يجعل الظرف مظهروفاً . إذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى (يولج الليل فى النهار) أى يوجد فى وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم إيجاد الليل على إيجاد النهار فى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وقوله (وجعل الظلمات والنور) وقوله (واختلاف الليل والنهار) ومن جنسه قوله (خلق الموت والحياة ليلوكم أيكم أحسن عملاً) وهذا إشارة إلى مسألة حكمية ، وهى أن الظلمة قد يظن بها أنها عدم النور والليل عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك إذ فى الأزل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن ولا يمكن أن يقال كان فيه موت أو ظلمة أو ليل فهذه الأمور كالأعمى والأصم فالعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر وعدم السمع إذ الحجر والشجر لا يبصر لهما ولا سمع ولا يقال لشيء منهما إنه أصم أو أعمى إذا علم هذا فنقول ما يتحقق فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء لخلافهما وإلا لما كان يقال له أعمى وأصم وما يكون فيه اقتضاء شيء ، ويترتب عليه مقتضاه

(١) فى النسخة الأميرية : تكون النفوس ، وهى لا معنى لها ولعل ما ذكرته هو الصواب

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ

الْكَبِيرُ « ٣٠ »

لا تطلب النفس له سبباً ، لأن من يرى المتعیش في السوق ، لا يقول لم دخل السوق وما يثبت (١) على خلاف المقتضى تطلب النفس له سبباً ، كمن يرى ملكاً في السوق يقول لم دخل ، فاذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان أعمى ولا يقول لم صار فلان بصيراً ، وإذا كان كذلك قدم الله تعالى ما تطلب النفس سببه وهو الليل الذي هو على وزان العمى والظلمة والموت لتكون كل واحد طالباً سببه ثم ذكر بعده الأمر الآخر .

(المسألة الثانية) قال (يوج) بصيغة المستقبل وقال في الشمس والقمر سخر بصيغة الماضي لأن إيلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) .

(المسألة الثالثة) قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذي فيه سلطان القمر على النهار الذي فيه سلطان الشمس لما بينا أن تقديم الليل كان لأن النفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار ، وههنا كذلك ، لأن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب ، والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذي لا يكون عجيباً .

(المسألة الرابعة) ما تعلق قوله تعالى (وأن الله بما تعملون خبير) بما تقدم ؟ نقول لما كان الليل والنهار محل الأفعال بين أن ما يقع في هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى على الله .

(المسألة الخامسة) قوله تعالى (ألم تر) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه الآكثرون ، وكأنه ترك الخطاب مع غيره ، لأن من هو غيره من الكفار لا فائدة للخطاب معهم لإصرارهم ، ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبي عليه الصلاة والسلام ناظرون إليه (الوجه الثاني) أن يقال المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحداً فيقول لجمع عظيم : يا مسكين إلى الله مصيرك ، فمن نصيرك ، ولماذا تقصيرك . فقوله (ألم تر) يكون خطاباً من ذلك القبيل أي يا أيها الغافل ألم تر هذا الأمر الواضح .

ثم قال تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير) ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله (إن الله هو الغني الحميد) وقوله (إن الله عزيز حكيم) وقوله (إن الله سميع بصير) وأشار إلى الإرادة والكمال بقوله (ما نفدت كلمات الله) وبقوله (يوج الليل في النهار) وعلى الجملة فقوله (هو الغني) إشارة إلى كل صفة سلبية فانه إذا كان غنياً لا يكون عرضاً محتاجاً إلى الجوهر في القوام ، ولا جسماً محتاجاً إلى الحيز في الدوام ، ولا شيئاً من

(١) في النسخة الأميرية ، وما يثبت ، ولعل ما ذكرته هو الأول .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

الممكنات المحتاجة الى الموجد ، وذكر بعده جميع الأوصاف الثبوتية صريحاً وتضمناً ، فان الحياة في ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أى ذلك الاتصاف بأنه هو الحق والحق هو الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذى لازوال له وهو الثبوت ، فان المذهب الصحيح أن وجوده غير حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظراً إليه والله له الثبوت والوجود نظراً إليه فهو الحق وما عداه الباطل لأن الباطل هو الزائل يقال بطل ظله إذا زال وإذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاماً لانقص فيه .

ثم اعلم أن الحكماء قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الأشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتفٍ وتام وفوق التمام (فالناقص) ما ليس له ما ينبغي أن يكون له كالصبي والمريض والأعمى (والمكتفى) وهو الذى أعطى ما يدفع به حاجته فى وقته كالإنسان والحيوان الذى له من الآلات ما يدفع به حاجته فى وقتها لكنها فى التحلل والزوال (والتام) ما حصل له كل ما جاز له ، وإن لم يحتاج إليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا ينقص الله منها لهم شيئاً كما قال جبريل عليه السلام « لو دنوت أملة لا احترقت » لقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) (وفوق التمام) هو الذى حصل له ما جاز له وحصل لما عداه ما جاز له أو احتاج إليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال ، فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له أو احتاج إليه فهو فوق التمام إذا ثبت هذا فنقول قوله (هو الحق) إشارة إلى التمام وقوله (وأن الله هو العلى الكبير) أى فوق التمام وقوله (وهو العلى) أى فى صفاته وقوله (الكبير) أى فى ذاته وذلك ينافى أن يكون جسماً فى مكان لأنه يكون حينئذ جسداً مقدراً بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيراً بالنسبة إلى المفروض لكنه كبير من مطلقاً أكبر من كل ما يتصور .

ثم قال تعالى ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليرىكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

ثم قال تعالى (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليرىكم من آياته) لما ذكر آية سماوية بقوله (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر) وأشار الى السبب والمسبب ذكر آية أرضية ، وأشار إلى السبب والمسبب فقوله (الفلك تجرى) إشارة إلى المسبب وقوله (بنعمت الله) إشارة إلى السبب أى إلى الريح التى هى بأمر الله (ليرىكم من آياته) معنى يرىكم بإجرائها بنعمته (من آياته) أى بعض آياته ، ثم قال تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ
فَمَنَّهُمْ مَّقْتَصِدٍ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

صبار شكور) صبار في الشدة شكور في الرخاء ، وذلك لأن المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء عند النعم والآلاء فيصبر إذا أصابته نقمة ويشكر إذا أتته نعمة وورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» إشارة إلى أن التكليف أفعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام «الصوم صبر والأفعال شكر على المعروف» . ثم قال تعالى ﴿ وإذا غشيهم موج كالأظلال دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ .

لما ذكر الله أن في ذلك آيات ذكر أن الكل معترفون به غير أن البصير يدركه أولاً ومن في بصره ضعف لا يدركه أولاً ، فإذا غشيه موج ووقع في شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه مخلصاً أي يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه ، فإذا نجاه من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله (فمنهم مقتصد) وقد يعود إلى الشرك وهو المراد بقوله (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (موج كالأظلال) وجمع الأظلال ، وقيل في معناه كالجبال ، وقيل كالسحاب إشارة إلى عظم الموج ، ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول وإذا نظرت في الجرية الواحدة من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة .
﴿ المسألة الثانية ﴾ قال في العنكبوت (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله) ثم قال (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وقال ههنا (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد فنقول لما ذكر ههنا (أمراً عظيماً) وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار ، أو مقتصد في الإخلاص فبقى معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص ، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وما يجحد بآياتنا) في مقابلة قوله تعالى (إن في ذلك آيات) يعني يعترف بها الصبار الشكور ، ويجحد أي الختار الكفور والصبار في موازنة الختار لفظاً ، ومعنى والكفور في موازنة الشكور ، أما لفظاً فظاهر ، وأما معنى فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر ، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر ، لأن الصبور إن لم يكن يعهد مع أحد لا يعهد منه الاضرار ، فإنه يصبر ويفوض الأمر إلى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْرَنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَنَكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٢٢٣﴾

العهد فينقضه ، وأما أن الكفور في مقابلة الشكور معنى فظاهر .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم وأخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .
لما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى لأنه تعالى لما كان واحداً أوجب التقوى البالغة فإن من يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير ، ثم أكد الخوف يذكر اليوم الذي يحكم الله فيه بين العباد ، وذلك لأن الملك إذا كان واحداً ويعهد منه أنه لا يعلم شيئاً ولا يستعرض عباده ، لا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف ، ثم أكد بقوله (لا يجزي والد عن ولده) وذلك لأن المجرم إذا علم أن له عند الملك من يتكلم في حقه ويقضى ما يخرج عليه برفد من كسبه لا يخاف ، مثل ما يخاف إذا علم أنه ليس له من يقضى عنه ما يخرج عليه ، ثم ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالأدنى على الأعلى ، وذكر الولد والوالد جميعاً فيه لطيفة ، وهي أن من الأمور ما يبادر الأب إلى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لا يبادر إلى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد ، ومنها ما يبادر الولد إلى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد كإهانة ، فإن من يريد إحضار والد أحد عند وال أوقاض يهون على الإبن أن يدفع الإهانة عن والده ويحضر هو بدله ، فإذا انتهى الأمر إلى الإيلام يهون على الأب أن يدفع الإيلام عن ابنه ويتحمله هو بنفسه فقوله (لا يجزي والد عن ولده) في دفع الآلام (ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) في دفع الإهانة ، وفي قوله (لا يجزي) وقوله (ولا مولود هو جاز) (لطيفة أخرى) وهي أنا ذكرنا أن الفعل يتأني وإن كان ممن لا ينبغي ولا يكون من شأنه لأن الملك إذا كان يخيط شيئاً يقال إنه يخيط ولا يقال هو خياط ، وكذلك من يحمك شيئاً ولا يكون ذلك صنعه يقال هو يحمك ولا يقال هو حائك ، إذا علمت هذا فنقول الإبن من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزي لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال في الوالد لا يجزي وقال في الولد (ولا مولود هو جاز) .
ثم قال تعالى (إن وعد الله حق) وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تحقيقاً لليوم يعني

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

اخشوا يوماً هذا شأنه وهو كائن لو عد الله به ووعدته حق (والثاني) أن يكون تحقيقاً لعدم الجزاء
يعنى (لا يجزى والد عن ولده) لأن الله وعد به (بالاتزر وازرة وزر أخرى) ووعد الله حق ،
فلا يجزى والأول أحسن وأظهر .

ثم قال تعالى (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) يعنى إذا كان الأمر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فإنها
زائلة لوقوع [ذلك] اليوم المذكور بالوعد الحق .

ثم قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعنى الدنيا لا ينبغي أن تغركم بنفسها ولا ينبغي أن تغتروا
[بها] وإن حملكم على محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه
الدنيا إلى نفسها فيميل إليها ومنهم من يوسوس في صدره الشيطان ويزين في عينه الدنيا ويؤمله
ويقول إنك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة ، فهام عن
الأميرين وقال كونوا قسماً ثالثاً ، وهم الذين لا يلتفتون إلى الدنيا ولا إلى من يحسن الدنيا في الأعين .
ثم قال تعالى ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس
ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾

يقول بعض المفسرين إن الله تعالى نبي علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن
المقصود ليس ذلك ، لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذى كان فى كتيب رمل فى زمان الطوفان ونقله
الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة ، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره ، ولأنه يعلم أنه يوجد بعد
هذه السنين ذرة فى بركة لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره ، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر
وإنما الحق فيه أن نقول لما قال الله (اخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده) وذكر أنه كائن
بقوله (إن وعد الله حق) كأن قائلها قال فمتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم بما لم يحصل
لغير الله وأمكن هو كائن ، ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مراراً على البعث (أحدهما) إحياء
الأرض بعد موتها كما قال تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار
رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لحى الموتى) وقال تعالى (ويحيى الأرض بعد
موتها وكذلك تخرجون) وقال ههنا يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر
عليها كما هو قادر على إحياء الأرض حيث قال (وهو الذى ينزل الغيث) وقال (ويحيى الأرض)

(وثانيهما) الخلق ابتداء كما قال (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) وقال تعالى (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) إلى غير ذلك فقال ههنا (ويعلم ما في الأرحام) إشارة إلى أن الساعة وإن كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها ، وكما هو قادر على الخلق في الأرحام كذلك يقدر على الخلق من الرخام ، ثم قال لذلك الطالب علمه : يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيا نمرساها ، فلك أشياء أهم منها لا تعلمها ، فانك لا تعلم معاشك ومعادك ، ولا تعلم ماذا تكسب غداً مع أنه فعلك وزمانك ، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك ، فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون ، فالله ما أعلمك كسب غداً مع أن لك فيه فوائد تبنى عليها الأمور من يومك ، ولا أعلمك أين تموت مع أن لك فيه أغراضاً تهيب أمورك بسبب ذلك العلم وإنما لم يعلمك لكي تكون في وقت بسبب الرزق راجعاً إلى الله تعالى متوكلاً على الله ولا أعلمك الأرض التي تموت فيها كي لا تأمن الموت وأنت في غيرها ، فاذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه ، وهي الساعة ، وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون وقد أعلمت الله على لسان أنبيائه .

ثم قال تعالى (إن الله عليم خبير) لما خصص أولاً علمه بالأشياء المذكورة ، بقوله (إن الله عنده علم الساعة) ذكر أن علمه غير مختص بها ، بل هو عليم مطلقاً بكل شيء ، وليس علمه علماً بظاهر الأشياء فحسب ، بل خبير علمه وأصل إلى بواطن الأشياء ، والله أعلم بالصواب .

﴿سورة السجدة﴾

وتسمى سورة المضاجع مكية عند أكثرهم
وهي تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأُرِيَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
أَفْتَرِيَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿الم، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾

لما ذكر الله تعالى في السورة المقدمة دليل الوجدانية وذكر الأصل وهو الحشر وختم
السورة بهما بدأ ببيان الرسالة في هذه السورة فقال (الم، تنزيل الكتاب لا ريب فيه) وقد علم
ما في قوله (الم) وفي قوله (لا ريب فيه) من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال (من رب
العالمين) وقال من قبل (هدى ورحمة للمحسنين) وقال في البقرة (هدى للمتقين) وذلك لأن من يرى
كتاباً عند غيره، فأول ما تصير النفس طالبة تطلب ما في الكتاب فيقول ما هذا الكتاب؟ فإذا قيل هذا
فقه أو تفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو؟ ولا يقال أولاً: هذا الكتاب تصنيف من؟ ثم يقول
فيما ذا هو؟ إذا علم هذا فقال أولاً هذا الكتاب هدى ورحمة، ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره
بلفظ رب العالمين لأن كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس إلى مطالعته.
ثم قال تعالى ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من
قبلك لعلهم يهتدون﴾

يعنى أتعرفون به أم تقولون هو مفترى، ثم أجاب وبين أن الحق أنه حق من ربه ثم بين
فائدة التنزيل وهو الإنذار، وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ كيف قال (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير) مع أن النذر سبقوه (الجواب)
من وجهين (أحدهما) معقول والآخر منقول، أما المنقول فهو أن قريشاً كانت أمة أمية
لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد، فإنهم كانوا من أولاد إبراهيم وجميع

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

أنبياء بنى إسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قوماً من وقت آدم إلى زمان محمد بلا دين ولا شرع؟ وإن كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعني ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصاً بالعرب بل أهل الكتاب أيضاً لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وإنما أتى الرسل آباءهم ، وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم كيف والذي عليه إلا كثرون أن آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفاراً ولأن النبي أوعدهم وأوعدهم بالعباد ، وقال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وأما المعقول وهو أن الله تعالى أجرى عادته على أن أهل عصر إذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلفظ بعباده ويرسل رسولا ، ثم إنه إذا أراد طهرهم بإزالة الشرك والكفر من قلوبهم وإن أراد طهر وجه الأرض باهلاكهم ، ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الأرض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال (لتندرك قوماً ما أتاهم) أى بعد الضلال الذى كان بعد الهداية لم يأتهم نذير .

(المسألة الثانية) لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفي ماعداه فقوله (لتندرك قوماً ما أتاهم) يوجب أن يكون إنذاره مختصاً بمن لم يأتهم نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلاً إلى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولاً إليهم نقول هذا فاسد من وجوه (أحدها) أن التخصيص لا يوجب نفي ماعداه (والثاني) أنه وإن قال به قائل لكنه وافق غيره في أن التخصيص إن كان له سبب غير نفي ماعداه لا يوجب نفي ماعداه ، وههنا وجد ذلك لأن إنذارهم كان أولى ، ألا ترى أنه تعالى قال (وأنذر عشيرتكم الأقربين) ولم يفهم منه أنه لا ينذر غيرهم أو لم يؤمر بإنذار غيرهم وإنذار المشركين كان أولى ، لأن إنذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم يندروا إلا بسبب إنكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لأجل ذلك (الثالث) هو أن على ما ذكرنا لا يرد ما ذكره أصلاً ، لأن أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون مرسل إلى الكل على درجة سواء ، وبهذا يتبين حسن ما اخترناه ، وقوله (لعلمهم يهتدون) يعنى تنذركم راجياً أنت اهتداهم .

ثم قال تعالى ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ .
لما ذكر الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل ، فقال (الله الذى

خلق السموات والأرض (الله مبتدأ وخبره الذي خلق يعنى الله هو الذي خلق السموات والأرض ولم يخلقهما إلا واحد فلا إله إلا واحد ، وقد ذكرنا أن قوله تعالى (فى ستة أيام) إشارة إلى ستة أحوال فى نظر الناظرين وذلك لأن السموات والأرض وما بينهما ثلاثة أشياء ولكل واحد منها ذات وصفة فنظراً إلى خلقه ذات السموات حالة ونظراً إلى خلقه صفاتها أخرى ونظراً إلى ذات الأرض وإلى صفاتها كذلك ونظراً إلى ذات ما بينهما وإلى صفاتها كذلك فهى ستة أشياء على ستة أحوال . وإنما ذكر الأيام لأن الإنسان إذا نظر إلى الخلق رآه فعلاً والفعل ظرفه الزمان والأيام أشهر الأزمته، وإلا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل ما يقول القائل لغيره : إن يوماً ولدت فيه كان يوماً مباركا

وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلاً ولا يخرج عن مراده ، لأن المراد هو الزمان الذى هو ظرف ولادته .

ثم قال تعالى (ثم استوى على العرش) اعلم أن مذهب العلماء فى هذه الآية وأمثالها على وجهين (أحدهما) ترك التعرض إلى بيان المراد (وثانيهما) التعرض إليه والأول أسلم وإلى الحكمة أقرب ، أما أنه أسلم فذلك لأن من قال أنا لا أتعرض إلى بيان هذا ولا أعرف المراد من هذا ، لا يكون حاله إلا حال من يتكلم عند عدم وجوب الكلام أو لا يعلم شيئاً لم يجب عليه أن يعلمه ، وذلك لأن الأصول الثلاثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسول لكن الحشر أجمعنا واتفقنا أن العلم به واجب والعلم بتفصيله أنه متى يكون غير واجب ، ولهذا قال تعالى فى آخر السورة المتقدمة (إن الله عنده علم الساعة) فكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الإجمال وتعالى عن وصات الإمكان وصفات النقصان ، ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هى ، وصفة الاستواء مما لا يجب العلم بها فمن ترك التعرض إليه لم يترك واجباً ، وأما من يتعرض إليه فقد يخطئ فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالأول غاية ما يلزمه أنه لا يعلم ، والثانى يكاد أن يقع فى أن يكون جاهلاً مركباً وعدم العلم الجهل المركب كالسكوت والكذب ولا يشك أحد فى أن السكوت خير من الكذب ، وأما إنه أقرب إلى الحكمة فذلك لأن من يطالع كتاباً صنفه إنسان وكتب له شرحاً والشارح دون المصنف فالظاهر أنه لا يأتى على جميع ما أتى عليه المصنف ، ولهذا كثيراً ما نرى أن الإنسان يورد الإشكالات على المصنف المتقدم ثم يجىء من ينصر كلامه ويقول لم يرد المصنف هذا وإنما أراد كذا وكذا وإذا كان حال الكتب الحادثة التى تكتب عن علم قاصر كذلك ، فما ظنك بالكتاب العزيز الذى فيه كل حكمة يجوز أن يدعى جاهل أنى علمت كل سر فى هذا الكتاب ، وكيف ولو ادعى عالم أنى علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلانى يستقبح منه ذلك ، فكيف من يدعى أنه علم كل ما فى كتاب الله ؟ ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لأن تأخير البيان إلى

وقت الحاجة جائز ولعل في القرآن ما لا يحتاج إليه أحد غير نبيه فيبين له لا لغيره ، إذا ثبت هذا علم أن في القرآن ما لا يعلم ، وهذا أقرب إلى ذلك الذي لا يعلم ، للتشابه البالغ الذي فيه ، لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفي بعض ما يعلمه قطعاً أنه ليس بمراد ، وهذا لأن قائلاً إذا قال إن هذه الأيام أيام قرء فلانة يعلم أنه لا يريد أن هذه الأيام أيام موت فلانة ولا يريد أن هذه الأيام أيام سفر فلانة ، وإنما المراد منحصر في الطهر أو الحيض فكذلك ههنا يعلم أن المراد ليس ما يوجب نقصاً في ذاته لاستحالة ذلك ، والجلوس والاستقرار المكاني من ذلك الباب فيجب القطع بنفي ذلك والتوقف فيما يجوز بعده (والمذهب الثاني) خطرو من يذهب إليه فريقان (أحدهما) من يقول المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكاني (وثانيهما) من يقول المراد الاستيلاء والأول جهل محض والثاني يجوز أن يكون جهلاً والأول مع كونه جهلاً هو بدعة وكاد يكون كفراً ، والثاني وإن كان جهلاً فليس بجهل يورث بدعة ، وهذا كما أن واحداً إذا اعتقد أن الله يرحم الكفار ولا يعاقب أحداً منهم يكون جهلاً وبدعة وكفراً ، وإذا اعتقد أنه يرحم زيدا الذي هو مستور الحال لا يكون بدعة ، غاية ما يكون أنه اعتقاد غير مطابق ، وما قيل فيه : إن المراد منه استوى على ملكه ، والعرش يعبر به عن الملك ، يقال الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وإن لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة) إشارة إلى البخل ، مع أنهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة ، ولو كان مراد الله ذلك لكان كذباً جل كلام الله عنه ، ثم لهذا فضل تقرير وهو أن الملوك على درجات ، فمن يملك مدينة صغيرة أو بلاداً يسيرة ما جرت العادة بأن يجلس أول ما يجلس على سرير ، ومن يكون سلطاناً يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك في خدمته يكون له سرير يجلس عليه ، وقدامه كرسي يجلس عليه وزيره ، فالعرش والكرسي في العادة لا يكون إلا عند عظمة المملكة ، فلما كان ملك السموات والأرض في غاية العظمة ، عبر بما ينهى في العرف عن العظمة ، وما ينبك لهذا قوله تعالى (إنا خلقنا ، وإنا زينا ، ونحن أقرب ، ونحن نزلنا) أيظن أو يشك مسلم في أن المراد ظاهره من الشريك وهل يجده محملاً ، غير أن العظيم في العرف لا يكون واحداً وإنما يكون معه غيره ، فكذلك الملك العظيم في العرف لا يكون إلا إذا سرير يستوى عليه فاستعمل ذلك مريداً للعظمة ، وما يؤيد هذا أن المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الأرض حتى لم يبق له مكان ، أيظن أنهم يريدون به أنه صار لا مكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان ، ولا سيما من يقول بأن إلهه في مكان كيف يخرج الإنسان عن المكان ؟ فكما يقال للمقهور الهارب لم يبق له مكان مع أن المكان واجب له ، يقال للقادر القاهر هو متمكن وله عرش ، وإن كان التنزه عن المكان واجباً له ، وعلى هذا كلمة ثم معناها خلق السموات والأرض ، ثم القصة أنه استوى على الملك ، وهذا كما يقول القائل : فلان أكرمني وأنعم علي مراراً ، ويحكى عنه أشياء ، ثم يقول إنه ما كان يعرفني ولا كنت فعلت معه ما يجازيني

بهذا ، فنقول ثم للحكاية لا للحسكى (الوجه الآخر) قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش ، واستوى جاء بمعنى استولى نقلاً واستعمالاً . أما النقل فكثير مذکور في كتب اللغة منها ديوان الأدب وغيره مما يعتبر النقل عنه . وأما الاستعمال فنقول القائل :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

وعلى هذا فکلمة ثم ، معناها ما ذكرنا كأنه قال خاق السموات والأرض ، ثم ههنا ما هو أعظم منه استوى على العرش ، فانه أعظم من الكرسي والكرسي وسع السموات والأرض (والوجه الثالث) قيل إن المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولا يفيد أنه في مكان ، وذلك لأن الإنسان يقول استقر رأى فلان على الخروج ولا يشك أحد أنه لا يريد أن الرأى في مكان وهو الخروج ، لما أن الرأى لا يجوز فيه أن يقال إنه متمكن أو هو مما يدخل في مكان إذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن ، حتى إذا قال قائل استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكن وكونه في مكان ، وإذا قال قائل استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك في فلان ، فنقول القائل الله استقر على العرش لا ينبغي أن يفهم كونه في مكان ما لم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون في مكان أو لا يجوز ، فإذن فهم كونه في مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون في مكان ، فجواز كونه في مكان إن استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشيء على نفسه وهو محال ، ثم الذي يدل على أنه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكاناً له وجوه من القرآن (أحدها) قوله تعالى (وإن الله هو الغنى) وهذا يقتضى أن يكون غنياً على الإطلاق ، وكل ما هو في مكان فهو في بقائه محتاج إلى مكان ، لأن بديهة العقل حاكمة بأن الحيز إن لم يكن لا يكون المتحيز باقياً ، فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز ، وكل ما ينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه في استمراره ، فالقول باستقراره يوجب احتياجه في استمراره وهو غنى بالنص (الثاني) قوله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى ، فإذن لا يكون في ذلك الوقت في مكان ، فجاز عليه أن لا يكون في مكان ، وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون في مكان (الثالث) قوله تعالى (وهو معكم) ووجه التمسك به هو أن على إذا استعمل في المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكلمة مع إذا استعملت في متمكنين يفهم منها اقترانها بالذات كقولنا زيد مع عمرو إذا استعمل هذا فإن كان الله في مكان ونحن متمكنون ، فقوله (إن الله معنا) وقوله (وهو معكم) كان ينبغي أن يكون للاقتران وليس كذلك ، فان قيل كلمة مع تستعمل لكون ميله إليه وعليه معه أو نصرته يقال الملك الفلاني مع الملك الفلاني ، أى بالإعانة والنصر ، فنقول كلمة على تستعمل لكون حكمه على الغير ، يقول القائل لولا فلان على فلان لا أشرف في الهلاك ولا أشرف على الهلاك ، وكذلك يقال لولا فلان على أملاك فلان أو على أرضه لما حصل له شيء منها ولا أكل

حاصلها بمعنى الإشراف والنظر ، فكيف لا نقول في استوى على العرش إنه استوى عليه بحكمه كما نقول هو معنا بعله (الرابع) قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ولو كان في مكان لا يحاط به المكان وحينئذ فيما أن يرى وإما أن لا يرى ، لا سبيل إلى الثاني بالاتفاق لأن القول بأنه في مكان ولا يرى باطل بالإجماع ، وإن كان يرى فيرى في مكان أحاط به فتدركه الأبصار . وأما إذا لم يكن في مكان فسواء يرى أو لا يرى لا يلزم أن تدركه الأبصار . أما إذا لم ير فظاهر . وأما إذا روى فلأن البصر لا يحيط به فلا يدركه . وإنما قلنا إن البصر لا يحيط به لأن كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان ، ولو تدبر الإنسان القرآن لوجده مملوءاً من عدم جواز كونه في مكان ، كيف وهذا الذي يتمسك به هذا القائل يدل على أنه ليس على العرش بمعنى كونه في المكان ، وذلك لأن كلمة ثم للتراخي فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبله أما أن يكون في مكان أو لا يكون ، فإن كان يلزم محالان (أحدهما) كون المكان أزلياً ، ثم إن هذا القائل يدعى مضادة الفلسفي فيصير فلسفياً يقول بقدم سما من السموات (والثاني) جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضي إلى حدوث الباري أو يبطل دلائل حدوث الأجسام ، وإن لم يكن مكان وما حصل في مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ، ولو جاز لما أمكن أن يقال بأن الجسم لو كان أزلياً ، فإما أن يكون في الأزل ساكناً أو متحركاً لأنهما فرعا الحصول في مكان ، وإذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم ، لأنه إن سلم أنه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وإن لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم في الأزل لم يكن في مكان ثم حصل في مكان فلا يتم دليله في حدوث العالم ، فيلزمه أن لا يقول بحدوثه ، ثم إن هذا القائل يقول إنك تشبه الله بالمعدوم فإنه ليس في مكان ولا يعلم أنه جعله معدوماً حيث أحوجه إلى مكان ، وكل محتاج نظراً إلى عدم ما يحتاج إليه معدوم ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام .

ثم قال تعالى ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ لما ذكر أن الله خالق السموات والأرض ، قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والأرض واحد هو إله السموات ، وهذه الأصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا ، وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا إله غير الله ، ولا نصره من غير الله ولا شفاعة إلا بإذن الله فعبادتهم لهم لهذه الأصنام باطلة ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصرؤكم ولا شفعاؤكم ، ثم قال تعالى (أفلا تتذكرون) ما علمتموه من أنه خالق السموات والأرض وخلق هذه الأجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الأصنام حتى تنصركم والمملك العظيم لا يكون عنده لهذه الأشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ « ه »

ثم قال تعالى ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ .

لما بين الله تعالى الخلق بين الأمر كما قال تعالى (ألا له الخلق والأمر) والعظمة تتبين بهما فان من يملك بمالك كثيرين عظام تكون له عظمة ، ثم إذا كان أمره نافذا فيهم يزداد في أعين الخلق ، وإن لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته ، وقوله تعالى (ثم يعرج إليه) معناه والله أعلم أن أمره ينزل من السماء على عباده وتعرض إليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر ، فإن العمل أثر الأمر . وقوله تعالى (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فيه وجوه : (أحدها) أن نزول الأمر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون وهو في يوم فان بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة فينزل في مسيرة خمسمائة سنة ، ويعرج في مسيرة خمسمائة سنة ، فهو مقدار ألف سنة (ثانيا) هو أن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر ، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله تعالى (في يوم كان مقداره ألف سنة) يعني (يدبر الأمر) في زمان يوم منه ألف سنة ، فكم يكون شهر منه ، وكم تكون سنة منه ، وكم يكون دهر منه ، وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر ، فسواء يعبر بالآلاف أو بالخمسين ألفاً لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون في الخمسين أكثر وبين فائدتها في موضعها إن شاء الله تعالى (وفي هذه لطيفة) وهو أن الله ذكر في الآية المتقدمة عالم الأجسام والخلق ، وأشار إلى عظمة الملك ، وذكر في هذه الآية عالم الأرواح والأمر بقوله (يدبر الأمر) والروح من عالم الأمر كما قال تعالى (ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) وأشار إلى دوامه بلفظ يوم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال في العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول ، وإنما الواقع في الزمان يمتد فيوجد في أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة ، فأشار هناك إلى عظمة الملك بالمكان وأشار إلى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وأمره . واعلم أن ظاهر قوله (يدبر الأمر) في يوم يقتضى أن يكون أمره في يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره في زمان حادث فيكون حادثاً وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف ، وكلمة كن فكيف فهم من كلمة على كونه في مكان ، ولم يفهم من كلمة في كون أمره في زمان ثم بين أن هذا الملك العظيم النافذ الأمر غير غافل ، فإن الملك إذا كان أمراً ناهياً يطاع في أمره ونهيه ، ولا يمكن يكون

ذَلِكَ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ
وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٧﴾

غافلا لا يكون مهيباً عظيماً كما يكون مع ذلك خبيراً يقظاً لا تخفى عليه أمور الممالك والممالك فقال (ذلك عالم الغيب والشهادة) ولما ذكر من قبل عالم الأشباح بقوله (خلق السموات) وعالم الأرواح بقوله (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) قال (عالم الغيب) يعلم ما في الأرواح (والشهادة) يعلم ما في الأجسام أو نقول قال (عالم الغيب) إشارة إلى ما لم يكن بعد (والشهادة) إشارة إلى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لأنه أقوى وأشد إنباء عن كمال العلم ، ثم قال تعالى (العزيز الرحيم) لما بين أنه عالم ذكر أنه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة رحيم واسع الرحمة على البررة ، ثم قال تعالى (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله (خلق السموات والأرض وما بينهما) وأتمه بتوابعه ومكملاته ذكر الدليل الدال عليها من الأنفس بقوله (الذي أحسن كل شيء) يبنى أحسن كل شيء مما ذكره وبين أن الذي بين السموات والأرض خلقه وهو كذلك لأنك إذا نظرت إلى الأشياء رأيتها على ما ينبغي صلاحية الأرض للنبات والنبات وسلاسة (١) الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء لتقدر عليه في كل موضع وحركة النار إلى فوق ، لأنها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لا شيء هناك يقبل الاحتراق وقوله (وبدأ خلق الإنسان من طين) قيل المراد آدم عليه السلام فإنه خلق من طين ، ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمي أصله مني والمني أصله غذاء ، والأغذية إما حيوانية ، وإما نباتية ، والحيوانية بالآخرة ترجع إلى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو طين .

قوله تعالى ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ .

وقوله تعالى (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) على التفسير الأول ظاهر لأن آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة ، وعلى التفسير الثاني هو أن أصله من الطين ، ثم يوجد من ذلك الأصل سلالة هي من ماء مهين ، فإن قال قائل التفسير الثاني غير صحيح لأن قوله (بدأ خلق الإنسان) ثم جعل نسله دليل على أن جعل النسل بعد خلق الإنسان من طين فنقول لا بل التفسير الثاني أقرب إلى الترتيب اللفظي فإنه تعالى بدأ بذكر الأمر من الابتداء في خلق الإنسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم

(١) في الطبعة الأميرية : وسلاسة الهواء ، وهي فيما أظن معرفة عما أثبتته لأن السلاسة للهواء أنسب .

ثُمَّ سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وَجَعَلْتُ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ

قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يبعد أن يقال (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) عائد إلى آدم أيضاً لأن كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة ، وذلك بعد خلق آدم ، واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر) ودلائل الأنفس أدل على نفاذ الإرادة فإن التغيرات فيها كثيرة وإليه الإشارة بقوله (ثم جعل نسله ثم سواه) أي كان طيناً فجعله منياً ثم جعله بشراً سوياً ، وقوله تعالى (ونفخ فيه من روحه) إضافة الروح إلى نفسه كإضافة البيت إليه للتشريف ، واعلم أن النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بأن عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله بقوله (ونفخ فيه من روحه) أي الروح التي هي ملكة كما يقول القائل داري وعبدى ، ولم يقل أعطاه من جسمه لأن الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال وجعل لكم مخاطباً ولم يخاطب من قبل وذلك لأن الخطاب يكون مع الحي فلما قال (ونفخ فيه من روحه) خاطبه من بعده وقال جعل لكم ، فإن قيل الخطاب واقع قبل ذلك كما في قوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب) فنقول هناك لم يذكر الأمور المرتبة وإنما أشار إلى تمام الخلق ، وههنا ذكر الأمور المرتبة وهي كون الإنسان طيناً ثم ماء مهيناً ثم خلقاً مسوياً بأنواع القوى مقوى بخاطب في بعض المراتب دون البعض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الترتيب في السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة ، وذلك لأن الإنسان يسمع أولاً من الأبوين أو الناس أموراً يفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الأمور ويجريها ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام وذهن كامل فيستخرج الأشياء من قبله ومثاله شخص يسمع من أستاذ شيئاً ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها ، ثم يصير له أهلية التصنيف فيكتب من قلبه كتاباً ، فكذلك الإنسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الأمور الخفية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر في السمع المصدر وفي البصر والفؤاد الاسم ، ولهذا جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع ، لأن المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل

وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّآ لَنفِ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ

كَافِرُونَ « ١ »

واحد فإن الانسان لا يضبط في زمان واحد كلامين ، والأذن محله ولا اختيار لها فيه فان الصوت من أى جانب كان يصل إليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بإدراك البعض دون البعض ، وأما الإبصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فإنها تتحرك إلى جانب مرئى دون آخر وكذلك الفؤاد محل الإدراك وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره وإذا كان كذلك فلم يكن للمحل في السمع تأثير والقوة مستبدة ، فذكر القوة في الأذن وفي العين والفؤاد للمحل نوع اختيار ، فذكر المحل لأن الفعل يسند إلى المختار ، ألا ترى أنك تقول سمع زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو إلا نادراً ، لما بينا أن المختار هو الأصل وغيره آله ، فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له ، والعين كالأصل وقوة الإبصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آله ، فذكر في السمع المصدر الذى هو القوة وفي الإبصار والأفئدة الاسم الذى هو محل القوة ولأن السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا لا يسمع الانسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك في زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما .

(المسألة الرابعة) لم قدم السمع ههنا والقلب في قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) فنقول ذلك يحقق ما ذكرنا ، وذلك لأن عند الإعطاء ذكر الأذن وارتقى إلى الأعلى فقال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذى يسمعون به بمن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها ، وقد ذكرنا هناك ما هو السبب في تأخير الإبصار مع أنها في الوسط فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهاما بالطبع فجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرها متأخرة .

ثم قال تعالى ﴿ وقالوا أنذا ضللنا في الأرض إننا لنبى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ لما قال (قليلاً ما تشكرون) بين عدم شكرهم بإتيانهم بضده وهو الكفر وإنكار قدرته على إحياء الموتى وقد ذكرنا أن الله تعالى ، في كلامه القديم ، كما ذكر أصليين من الأصول الثلاثة لم يترك الأصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله (تنزيل الكتاب) إلى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وذكر الوحدانية بقوله (الله الذى خلق) إلى قوله (وجعل لكم السمع والأبصار) ذكر الأصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى (وقالوا أنذا ضللنا في الأرض) وفيه مسائل :

قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

(المسألة الأولى) الواو للعطف على ما سبق منهم فإنهم قالوا محمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا الحشر ليس بممكن .

(المسألة الثانية) أن تعالى قال في تكذيبهم الرسول في الرسالة أم يقولون بلفظ المستقبل وقال في تكذيبهم إياه في الحشر ، وقالوا بلفظ الماضي ، وذلك لأن تكذيبهم إياه في رسالته لم يكن قبل وجوده وإنما كان ذلك حالة وجوده فقال يقولون يعنى هم فيه ، وأما إنكارهم للحشر كان سابقاً صادراً منهم ومن آباؤهم فقال وقالوا .

(المسألة الثالثة) أنه تعالى صرح بذكر قولهم في الرسالة حيث قال (أم يقولون) وفي الحشر حيث قال (وقال أنذا) ولم يصرح بذكر قولهم في الواحدانية ، وذلك لأنهم كانوا مصرين في جميع الأحوال على انكار الحشر والرسول ، وأما الواحدانية فكانوا يعترفون بها في المعنى ، إلا ترى أن الله تعالى قال (واثن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فلم يقل قالوا إن الله ليس بواحد وإن كانوا قالوه في الظاهر .

(المسألة الرابعة) لو قال قائل لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذى لا ريب فيه ولما ذكر الواحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من طين ، ولما ذكر إنكارهم الحشر لم يذكر الدليل ، نقول في الجواب : ذكر دليله أيضاً وذلك لأن خلق الإنسان ابتداء دليل على قدرته على إعادته ، ولهذا استدل الله على إمكان الحشر بالخلق الأول كما قال (ثم يعيده وهو أهون عليه) وقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وكذلك خلق السموات كما قال تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى) وقوله تعالى (أئنا لفي خلق جديد) أى أئنا كائنون في خلق جديد أو واقعون فيه (بل هم بلبقاء ربهم كافرون) إضراب عن الأول يعنى ليس إنكارهم لمجرد الخلق ثانياً بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثانى لما اعترفوا بالعذاب والثواب ، أو نقول معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم ، فإنهم أنكروه فأنكروا المنفضى إليه ، ثم بين ما يكون لهم من الموت إلى العذاب .

فقال تعالى ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

يعنى لا بد من الموت ثم من الحياة بعده وإليه الإشارة بقوله (ثم إلى ربكم ترجعون) وقوله (الذى وكل بكم) إشارة إلى أنه لا يغفل عنكم وإذا جاء أجلكم لا يؤخركم إذ لا شغل له إلا هذا وقوله (يتوفاكم ملك الموت) ينبىء عن بقاء الأرواح فان التوفى الاستيفاء والقبض هو الأخذ والإعدام المحض ليس بأخذ ، ثم إن الروح الزكى الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرُمُونَ نَاكَسُوا رُءُوسَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا
فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم، والأول ينمو ويزيد ويزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته، والحكمة يقولون إن الأرواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوى خير من بدنها وتكمل به، والأرواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثانى فإن أرادوا ماذكرها فقد وافقونا وإلا فيغير النظر فى ذلك بحسب إرادتهم فقد يكون قولهم حقاً وقد يكون غير حق، فان قيل هم أنكروا الإحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك دليل الإحياء ودفع استبعاد ذلك فانهم قالوا ما عدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك؟ فقال الملك يقبض الروح والأجزاء تتفرق فجمع الأجزاء لا بعد فيه، وأمر الملك برد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضاً، فقوله (قل يتوفاكم ملك الموت) أى الأرواح معلومة فترد إلى أجسادها.

ثم قال تعالى ﴿ ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ .

لما ذكر أنهم يرجعون إلى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الاجمال بقوله (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم) يعنى لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجباً، وقوله (ترى) يحتمل أن يكون خطاباً مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفياً لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالكذب، ويحتمل أن يكون عاماً مع كل أحد كما يقول القائل إن فلاناً كريم إن خدمته ولو لحظة يحسن إليك طول عمرك ولا يريد به خاصاً، وقوله (عند ربهم) لبيان شدة الخجالة لأن الرب إذا أساء إليه المربوب، ثم وقف بين يديه يكون فى غاية الخجالة .

ثم قال تعالى (ربنا أبصرنا وسمعنا) يعنى يقولون أو قائلين (ربنا أبصرنا) وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم لأن الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم، وقوله (ربنا أبصرنا وسمعنا) أى أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً، وقولهم (إنا موقنون) معناه إنا فى الحال آمننا ولكن النافع الايمان والعمل الصالح، ولكن العمل الصالح لا يكون إلا عند التكليف به وهو فى الدنيا فارجعنا للعمل، وهذا باطل منهم فان الايمان لا يقبل فى الآخرة كالعمل الصالح أو نقول المراد منه أنهم ينكرون الشرك كما قالوا (وما كنا مشركين) فقالوا إن هذا الذى جرى علينا ما جرى إلا بسبب ترك العمل الصالح. وأما الايمان فانا موقنون وما أشركنا .

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾

ثم قال تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ جواباً عن قولهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا) وبيانه هو أنه تعالى قال إني لو أرجعتكم إلى الإيمان لهديتكم في الدنيا ولما لم أهدكم تبين أني ما أردت وما شئت إيمانكم فلا أردكم ، وقوله (ولو شئنا لآتينا) صريح في أن مذهبنا صحيح حيث نقول إن الله ما أراد الإيمان من الكافر وما شاء منه إلا الكفر ، ثم قال تعالى (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم) أي وقع القول وهو قوله تعالى لإبليس (لأملأن جهنم منك ومن تبعك) هذا من حيث النقل وله وجه في العقل وهو أن الله تعالى لم يفعل فعلاً خالياً عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف في أنه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل ؟ وإذا علم أن فعله لا يخلو عن الحكمة فقال الحكماء حكمة أفعاله بأمرها لا تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الإجمال ، فكل ضرب يكون في العالم وفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلي وهو أن الفعل إما أن يكون خيراً محضاً أو شراً محضاً أو خيراً مشوباً بشر وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان ، إذا علم هذا فخلق الله عالماً فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوي وخلق عالماً فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلي ولم يخلق عالماً فيه شر محض ، ثم إن العالم السفلي الذي هو عالمنا ، وإن كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الأول الذي خيره غالب ، فانك إذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالمضار ، تجد المنافع أكثر ، وإذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر ، وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ، ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلاً من أول عمره إلى آخره كالأنبياء عليهم السلام والأولياء ، والكافر لا يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلاً غاية ما في الباب أن الكافر يحبط خيره ولا ينفعه ؛ إنما يستحيل نظراً إلى العادة أن يوجد كافر لا يسقى العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه في عمره ، وكيف لا وهو في زمن صباه كان مخلوقاً على الفطرة المقتضية للخيرات ، إذا ثبت هذا فنقول قالوا لولا الشر في هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة في الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذي فيه الخير الغالب والشر القليل ثم إن ترك خلق هذا القسم إن كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لأجل الشر القليل لا يناسب الحكمة ، ألا ترى أن التاجر إذا طلب منه درهم بدينار ، فلو امتنع وقال في هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكي فيقال له لكن في مقابله خير كثير وهو حصول الدينار في ملكك وكذلك

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

الإنسان لو ترك الحركة الدسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب إلى مخالفة الحكمة فاذا نظر إلى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف فخلق العالم الذي يقع فيه الشر وإلى هذا أشار بقوله (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فقال الله تعالى في جوابهم (إني أعلم ما لا تعلمون) أي أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لأن الخير فيه كثير، ثم بين لهم خيره بالتعليم، كما قال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) يعني أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوي لا يناسب الحكمة. وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب، فقوله تعالى (أنجعل فيها من يفسد فيها) إشارة إلى الشر، وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله (وعلم آدم الأسماء) فان قال قائل فإله تعالى قادر على تخلص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ما قاله الله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) يعني لو شئنا لخلصنا الخير من الشر، لكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول، فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة، لأن ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة، وإن كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فيخلق له ما فيه من الخير الكثير، وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح إن الخير في القضاء والشر في القدر، فالله قضى بالخير ووقع الشر في القدر بفعله المأهول عن القبح والجهل، وقوله (من الجنة والناس) لأنه تعالى قال لإبليس (لأملأن جهنم منك وبمن تبعك) وهذا إشارة إلى أن النار لمن في العالم السفلي، والذين في العالم العلوي مبرهون عن دخول النار وهم الملائكة، وهذا يقتضي أن لا يكون إبليس من الملائكة وهو الصحيح. وقوله (أجمعين) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تأكيذاً وهو الظاهر (والثاني) أن يكون حالاً، أي مجموعين، فان قيل كيف جعل جميع الإنس والجن بما يملأ بهم النار؟ نقول هذا لبيان الجنس، أي جهنم تملأ من الجن والإنس لا غير أمناء للملائكة، ولا يقتضي ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملائكة الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس، فان قيل فهذا يقتضي أن تكون جهنم ضيقة تمتلئ ببعض الخلق نقول هو كذلك وإنما الواسع الجنة التي هي من الرحمة الواسعة والله أعلم. ولما بين الله تعالى بقوله (ولو شئنا لآتينا) أنهم لا رجوع لهم قال لهم إذا علمتم أنكم لا رجوع لكم.

قوله تعالى ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾

وفي تفسير الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قوله (فذوقوا بما نسيتم لقاء) لقاء يحتمل أن يكون منصوباً بذوقوا ، أى ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم ، وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسى هو الميثاق الذى أخذ منهم بقوله (ألسنت بربكم قالوا بلى) أو بما فى الفطرة من الوجدانية فى نفسى بالإقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوباً بقوله (نسيتم) أى بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا ، وعلى هذا لو قال قائل النسيان لا يكون إلا فى المعلوم أولاً إذا جهل آخره نقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ، ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان إشارة إلى كونهم منكبين لأمر ظاهر كمن ينكر أمراً كان قد علمه .

(المسألة الثانية) قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون إشارة إلى اليوم ، أى ذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم (وثانيها) أن يكون إشارة إلى لقاء اليوم ، أى ذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اللقاء (وثالثها) أن يكون إشارة إلى العذاب ، أى ذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم ، ثم قال إنا نسيناكم ، أى تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعله الناسى قطعاً لرجائكم ، ثم ذكر ما يلزم من تركه إياهم كما يترك الناسى وهو خلود العذاب ، لأن من لا يخلصه الله فلا خلاص له ، فقال (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون)

(ثم قال تعالى إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون)

قوله تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) إشارة إلى أن الإيمان بالآيات كالحاصل ، وإنما ينسأه البعض فاذا ذكر بها خر ساجداً له ، يعنى انقادت أعضاؤه له ، وسبح بحمده ، يعنى ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك ، وهم لا يستكبرون ، يعنى وكان قلبه خاشعاً لا يتكبر ومن لا يستكبر عن عبادة فهو المؤمن حقاً .

ثم قال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ونما رزقناهم ينفقون) يعنى بالليل قليلاً ما يهجعون وقوله (يدعون ربهم) أى يصلون ، فان الدعاء والصلاة من باب واحد فى المعنى أو يطلبونه وهذا لا ينافى الأول لأن الطلب قد يكون بالصلاة ، والحمل على الأول أولى

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

لأنه قال بعده (وبما رزقناهم ينفقون) وفي أكثر المواضع التي ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى (ويقيمون الصلاة وبما رزقناهم ينفقون) وقوله (خوفاً وطمعاً) يحتمل أن يكون مفعولاً له ويحتمل أن يكون حالا ، أي خائفين طامعين كقولك جاؤني زوراً أي زائرين ، وكأن في الآية الأولى إشارة إلى المرتبة العالية وهي العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى (إذا ذكروا بها خروا) فانه يدل على أن عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وإن لم يكن خوف وطمع . وفي الآية الثانية إشارة إلى المرتبتين الأخيرتين وهي العبادة خوفاً كما يخدم الملك الجبار مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعاً في بره ، ثم بين ما يكون لهم جزاء فعلهم .

ثم قال تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾

يعنى بما تقرر العين عنده ولا تلتفت إلى غيره يقال إن هذا لا يدخل في عيني ، يعنى عيني تطلع إلى غيره ، فإذا لم يبق تطلع للعين إلى شيء آخر لم يبق للعين مسرح إلى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد ، وهذا فيه لطيفة وهي أن من العبد شيئاً وهو العمل الصالح ، ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والإكرام ، فله تعالى أن يقول جزاء الإحسان إحسان ، وأنا أحسنت أولاً والعبد أحسن في مقابلته ، فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض ، وله أن يقول جعلت الأول تفضلاً لا أطلب عليه جزاء ، فإذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شيء لأنى أبرأته مما عليه من النعم فكان هو آتياً بالحسنة ابتداء ، وجزاء الإحسان إحسان ، فأجعل الثواب جزاء كلاهما جائز ، لكن غاية الكرم أن يجعل الأول هبة ويجعل الثاني مقابلاً وعوضاً لأن العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء ، وإنما الله يتفضل بثق ولكن لا يطمئن قلبه ، وإذا قيل له الأول غير محسوب عليك والذي أتيت به أنت به باد ولك عليه استحقاق ثواب يثق ويطمئن ثم إذا عرف أن هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول فعلى جزاء نعم الله السابقة ولا أستحق به جزاء ، فإذا أثابه الله تعالى يقول الذي أتيت به كان جزاء ، وهذا ابتداء إحسان من الله تعالى يستحق حمداً وشكراً فيأتي بحسنة فيقول الله إنى أحسنت إليه جزاء فعله الأول وما فعلت أولاً لا أطلب له جزاء فيجازه ثالثاً فيشكر العبد ثالثاً فيجازه رابعاً وعلى هذا لا تنقطع المعاملة بين العبد والرب ، ومثله في الشاهد اثنان تحابا فأهدى أحدهما إلى الآخر هدية ونسيها والمهدى إليه يتذكرها فأهدى إلى المهدى عوضاً فرآه المهدى الأول ابتداءً لنسيانه ما أهداه إليه فجازه بهدية فقال المحب الآخر ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة ، وهذه هدية ما عوضتها فيعوض ويعوض

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا
فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ
النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَسْكَذِبُونَ ﴿٢٠﴾

عنه المحب الآخر ويتسلسل الأمر بينهما ولا ينقطع التهادى والتحاب ، بخلاف من أرسل إلى واحد هدية وهو يتذكرها فاذا بعث إليه المهدي إليه عوضاً يقول المهدي هذا عوض ما أهديت إليه فيسكت ويترك الإهداء فينقطع ، واعلم أن التكاليف يوم القيامة ، وإن ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لا ترتفع بل العبد يعبد ربه في الجنة أكثر مما يعبد في الدنيا ، وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال في حقهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) غاية ما في الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هي بمقتضى الطبع ومن جملة الأسباب الموجبة لدوام نعم الجنة هذا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وإن قرب العبد منه بل تزداد لذتها . ثم قال تعالى ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلمهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ .

لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوى الفريقان ، ثم بين أنهما لا يستويان ، ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل ، فقال (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلمهم جنات المأوى) إشارة إلى ما ذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض فلما آمن العبد وعمل صالحاً قبله منه كأنه ابتداء فجازاه بأن أعطاه الجنة ثم قال تعالى (نزلاً) إشارة إلى أن بعدها أشياء لأن النزل ما يعطى الملك النازل ، وقت نزوله قبل أن يجعل له راتباً أو يكتب له خبزاً وقوله (بما كانوا يعملون) يحقق ما ذكرنا وقوله تعالى (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها) إشارة إلى حال الكافر ، وقد ذكرنا مراراً أن العمل الصالح له مع الإيمان أثر أما الكفر إذا جاء فلا التفات إلى الأعمال ، فلم يقل وأما الذين فسقوا وعملوا السيئات لأن المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل ، لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه ، وقوله في حق المؤمنين (لهم) بلام التملك زيادة إكرام لأن من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولاً على العارية وله استرداده ، وإذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولاً على نسبة الملكية إليه وليس

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

له استرداده بحكم قوله وكذلك في قوله (لهم جنات) ألا ترى أنه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان في عليه أنه يخرج منه منها قال (اسكن أنت وزوجك الجنة) ولم يقل لكما الجنة وفي الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال (لكم الجنة) و (لهم جنات) وقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا) إشارة إلى معنى حكيم ، وهو أن المؤلم إذا تمسك والالم إذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الأطباء إن حرارة حمى الدق بالنسبة إلى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار إلى الماء المسخن ، ثم إن المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمسك الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية ، وكذلك الانسان إذا وضع يده في ماء بارد يتألم من البرد ، فاذا صبر زماناً طويلاً تثلج يده ويبطل عنه ذلك الألم الشديد مع فساد مزاجه ، إذا علمت هذا فقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) إشارة إلى أن الإله لا يسكن عنهم بل يرد عليهم في كل حال أمر مؤلم يحدد وقوله (ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) يقرر ما ذكرنا ومعناه أنهم في الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار ، فلما ذاقوه كان أشد إيلاًماً لأن من لا يتوقع شيئاً فيصيبه يكون أشد تأثراً ، ثم إنهم في الآخرة كما في الدنيا يجزمون أن لا عذاب إلا وقد وصل إليهم ولا يتوقعون شيئاً آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الأول ، وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب فوق ما نحن فيه فاذن معنى قوله تعالى (ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) ليس مقتصراً على تكذيبهم الذي كان في الدنيا بل (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وقيل لهم ذوقوا عذاباً كذبتهم به من قبل ، أما في الدنيا بقولكم لا عذاب في الآخرة ، وأما في الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه .

ثم لما هددهم قال تعالى ﴿ ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ .

يعنى قبل عذاب الآخرة نديقنهم عذاب الدنيا . فان عذاب الدنيا لانسبة له إلى عذاب الآخرة لأن عذاب الدنيا لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً فان العذاب الشديد في الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه فلا يمتد ، وإن أراد المعذب أن يمتد عذاب المعذب لا يعذبه بعذاب في غاية الشدة ، وأما عذاب الآخرة فشديد ومديد ، وفي الآية مسألتان :

﴿ إحداهما ﴾ قوله تعالى (ولنديقنهم من العذاب الأدنى) في مقابلته العذاب الأقصى والعذاب الأكبر في مقابلته العذاب الأصغر ، فما الحكمة في مقابلة الأدنى بالأكبر ؟ فنقول حصل في عذاب الدنيا أمران : (أحدهما) أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل في عذاب الآخرة أيضاً أمران (أحدهما) أنه بعيد والآخر أنه عظيم كثير ، لكن القرب في عذاب الدنيا هو الذي يصلح

للتخويف به ، فان العذاب العاجل وإن كان قليلاً قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلاً ، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل ، وأما في عذاب الآخرة فالذي يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال في عذاب الدنيا (العذاب الأدنى) ليحترز العاقل عنه ولو قال (لنذيقنهم من العذاب الأصغر) ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلاً وقال في عذاب الآخرة الأكبر لذلك المعنى ، ولو قال دون العذاب الأبعد الأقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبير ، وبالجملة فقد اختار الله تعالى في العذابين الوصف الذي هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فهما الحكمة بالغة .

(المسألة الثانية) قوله تعالى (لعلمهم يرجعون) لعل هذه الترجي والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) معناه لنذيقنهم إذاعة الراجين كقوله تعالى (إنا نسيناكم) يعني تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت إليه أصلاً ، فكذلك ههنا نذيقنهم على الوجه الذي يفعل بالراجي من التدرج (وثانيهما) معناه نذيقنهم العذاب إذاعة يقول القائل لعلمهم يرجعون بسببه ، ونزيد وجهاً آخر من عندنا ، وهو أن كل فعل يتلوه أمر مطلوب من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر ، كما يقال فلان أتجر ليربح ، ثم إن هذا التعليل إن كان في موضع لا يحصل الجزم بحصول الأمر من الفعل نظراً إلى نفس الفعل وإن حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فانه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء كذا ، كما يقال يتجر رجاء أن يربح ، وإن حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدر ذلك في صحة قولنا يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظراً إلى التجارة وإن كان الجزم حاصلًا نظراً إلى الفعل ، لا يصح أن يقال يرجو وإن كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان حز رقبة عدوه رجاء أن يموت ، لا يصح لحصوله الجزم بالموت عقيب الحز نظراً إليه وإن أمكن أن لا يموت نظراً إلى قدرة الله تعالى ، وبصريح قولنا قوله تعالى في حق إبراهيم (والذي أطع أن يغفر لي خطيئتي) مع أنه كان عالماً بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلًا من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى (وارجوا اليوم الآخر) مع أن الجزم به لازم إذا علم ما ذكرنا فنقول في كل صورة قال الله تعالى (لعلمهم) فان نظرنا إلى الفعل لا يلزم الجزم ، فان من التعذيب لا يلزم الرجوع لزوماً بيناً فصح قولنا يرجو وإن كان عليه حاصلًا بما يكون غاية ما في الباب أن الرجاء في أكثر الأمر يستعمل فيما لا يكون الأمر معلوماً فأوهم أن لا يجوز الإطلاق في حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجي يجوز في حق الله تعالى ، ولا يلزم منه عدم العلم ، وإنما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفاداً من الفعل فيصح حقيقة الترجي في حقه على ما ذكرنا من المعنى .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ
وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا
وَكَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾

ثم قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون ،
ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل ، وجعلنا منهم
أمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾

قوله تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) يعنى لنذيقهم ولا يرجعون
فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولا والنقم ثانيا ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد ، لأن من
يكفر بالله ظالم فان الله لذوى البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه بل هو
شاهد على كل شئ كما قال تعالى (أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) أى دليلك الله لا يحتاج
بانير الباطن إلى دليل على الله ، ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شئ فمن لم يكفه الله
فسائر الموجودات سواء ، كان فيها نفع أو ضرر كاف فى معرفة الله كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى
الآفاق وفى أنفسهم) فإن لم يكفهم ذلك فبسبغهم عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، فالأول الذى لا يحتاج
إلى غير الله هو عدل والثانى الذى يحتاج إلى دليل فهو متوسط والثالث الذى لم تكفه الآفاق ظالم
والرابع الذى لم تقنعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه آخر ، وهو الذى إذا أذيق
العذاب لا يرجع عن ضلالتة ، فان الاكثر كان من صفتهم أنهم إذا مسهم ضرر دعوا ربهم منيبين
إليه فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) .
ثم قال تعالى (إنا من المجرمين منتقمون) أى لما لم ينفعهم العذاب الأدنى فأنا منتقم منهم
بالعذاب الأكبر .

ثم قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) لما قررا الأصول الثلاثة على ما بيناه عاد إلى الأصل
الذى بدأ به وهو الرسالة المذكورة فى قوله (لتندر قوما ما أتاهم من نذير) وقال (قل ما كنت
بدعاً من الرسل) بل كان قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبي ﷺ ووجود
من كان على دينه إلزاماً لهم ، وإنما لم يختار عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لأن اليهود
ما كانوا يوافقون على نبوته ، وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ «٢٥» أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ «٢٦»

بالمجمع عليه ، وقوله (فلا تكن في مرية من لقاءه) قيل معناه فلا تكن في شك من لقاء موسى فانك تراه وتلقاه ، وقيل بأنه رآه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن في شك من لقاء الكتاب فانك تلقاه كما لقي موسى الكتاب ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل لتسلية النبي عليه السلام فانه لما أتى بكل آية وذكرها وأعرض عنها قومه حزن عليهم ، فقيل له تذكر حال موسى ولا تحزن فانه لقي ما لقيت وأوذى كما أوديت ، وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة ، وهي أن أحداً من الأنبياء لم يؤذ قومه إلا الذين لم يؤمنوا به ، وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فان لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بني إسرائيل أيضاً آذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله جهره ومثل قولهم (اذهب أنت وربك فقاتلا) ثم بين له أن هدايته غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى ، فقال (وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا) بحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ثم بين أن ذلك يحصل بالصبر ، فقال (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق .

ثم قال تعالى ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ قوله (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) هذا يصلح جواباً لسؤال : وهو أنه لما قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون) كان لقاتل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقا وسبيل الحق واحد ، فقال فيهم هداة والله بين المبتدع من المتبع كما بين المؤمن من الكافر يوم القيامة ، وفيه وجه آخر ، وهو أن الله تعالى بين أنه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الأمم فينبغي أن لا يأمن من آمن وإن لم يجتهد ، فان المبتدع معذب كالكافر ، غاية ما في الباب ، أن عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم .

ثم قال تعالى (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون) قد ذكرنا أن قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) تقرير لرسالة محمد ﷺ وإعادة لبيان ما سبق في قوله (لتندر قوماً ما أتاهم

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

من نذير من قبلك) ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد ، فقال تعالى (أو لم يهد لهم كم
أهلكنا من قبلهم) وقوله (يمشون في مساكنهم) زيادة إبانة ، أي مساكن المهلكين دالة على
حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها ، وقوله تعالى (إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون) اعتبر فيه
السمع ، لأنهم ما كان لهم قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم ، فقال أفلا يسمعون ، يعنى
ليس لهم درجة المتعلم الذى يسمع الشيء ويفهمه .

ثم قال تعالى ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم
وأنفسهم أفلا يبصرون ، ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾
قوله تعالى (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) لما بين الإهلاك وهو الإمامة
بين الإحياء ليكون إشارة إلى أن الضر والنفع بيد الله ، والجرز الأرض اليابسة التى لا نبات فيها
والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات . ثم قال تعالى (فنخرج به زرعاً تأكل منه
أنعامهم وأنفسهم) قدم الأنعام على الأنفس فى الأكل لوجوه (أحدها) أن الزرع أول ما ينبت
يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان (والثانى) وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه . وأما
غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان ، فكأن الحيوان يأكل الزرع ، ثم الإنسان يأكل من الحيوان
(الثالث) إشارة إلى أن الأكل من ذوات الدواب . والإنسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة
العقلية فكالمه بالعبادة . ثم قال تعالى (أفلا يبصرون) لأن الأمر يرى بخلاف حال الماضين ، فإنها
كانت مسموعة ، ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح
إن كنتم صادقين) إلى آخر السورة ، فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة
فى أولها بقوله (لتندر قوماً) وفى آخرها بقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب) وذكر التوحيد
بقوله (الذى خلق السموات والأرض) وقوله (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان
من طين) وفى آخر السورة ذكره بقوله (أو لم يهد لهم) وقوله (أو لم يروا أنا نسوق) وذكر
الحشر فى أولها بقوله (وقالوا أئنا ضلنا فى الأرض) وفى آخرها بقوله (ويقولون متى
هذا الفتح) .

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾ أى لا يقبل إيمانهم فى تلك الحالة ، لأن الإيمان المقبول هو الذى يكون فى دار الدنيا ، ولا ينظرون ، أى لا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا ليؤمنوا فيقبل إيمانهم ، ثم لما بين المسائل وأتقن الدلائل ولم يفهمهم . قال تعالى (فأعرض عنهم) أى لا تناظرهم بعد ذلك وإنما الطريق بعد هذا القتال . وقوله (وانتظر إنهم منتظرون) يحتمل وجوهاً (أحدها) وانتظر هلاكهم فانهم ينتظرون هلاكك ، وعلى هذا فرق بين الانتظارين ، لأن انتظار النبي ﷺ بأمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان (وثانيها) وانتظر النصر من الله فانهم ينتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين (وثالثها) وانتظر عذابهم بنفسك فانهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء ، كما قالوا (فأتنا بما تعدنا ، وقالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) إلى غير ذلك ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين ، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين .

(سورة الأحزاب)

(سبعون وثلاث آيات وهي مدنية ياجماع)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ . في تفسير الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ في الفرق بين النداء والمنادى بقوله يا رجل ويا أيها الرجل ، وقد قيل فيه ما قيل ونحن نقول قول القائل يا رجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضاً وينبئ عن خطر خطب المنادى له أو غفلة المنادى (أما الثاني) فذكر (وأما الأول) فلأن قوله (يا أي) جعل المنادى غير معلوم أو لا فيكون كل سامع متطوعاً إلى المنادى فاذا خص واحداً كان في ذلك إنباء الكل لتطلعهم إليه ، وإذا قال يا زيد أو يا رجل لا يلتفت إلى جانب المنادى إلا المذكور إذا علم هذا فنقول (يا أيها) لا يجوز حمله على غفلة النبي لأن قوله (النبي) ينافي الغفلة لأن النبي عليه السلام خبير فلا يكو غافلاً فيجب حمله على خطر الخطب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأمر بالشئ . لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبي عليه السلام كان متقياً فما الوجه فيه ؟ نقول فيه وجهان : (أحدهما) منقول وهو أنه أمر بالمداومة فإنه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس ههنا إلى أن أجيئك ، ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم ، أي دم على ما أنت عليه (والثاني) وهو معقول لطيف ، وهو أن الملك يتقى منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجاجه فالنبي لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثاني ، وأما الثالث فالخاص لا يأمنه ما دام في الدنيا . وكيف الأمور الدنيوية شاغلة والآدمي في الدنيا تارة مع الله ، وأخرى مقبل على ما لا بد منه ، وإن كان معه الله وإلى هذا إشارة بقوله (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) يعني يرفع الحجاب عنى وقت الوحي ثم أعود إليكم كأني متمكم فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور (الوجه الثاني) هو أن النبي عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد عليه ومرتبه حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه تركاً للافضل ، فكان له في كل ساعة تقوى متجددة فقوله (اتق الله) على هذا أمر بما ليس فيه وإلى هذا أشار عليه الصلاة والسلام بقوله

وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾

«من استوى يومه فهو مغبون» ولأنه طلب من ربه بأمر الله إياه به زيادة العلم حيث قال (وقل رب زدني علماً) وأيضاً إلى هذا وقعت الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة» يعنى يتجدد له مقام يقول الذى أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيئاً ، إذا علم هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم بحكم (إنما أنا بشر مثلكم) كان قد وقع له خوف ما يسير من جهة السنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم بدليل قوله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) فأمره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد إلا الحق وزاد الله به درجته فكان ذلك بشارة له ، فى (يا أيها النبي) أنت ما بقيت فى الدرجة التى يقنع منك بتقوى ، مثل تقوى الآحاد أو تقوى الأوتاد بل لا يقنع منك إلا بتقوى تنسيك نفسك ألا ترى أن الإنسان إذا كان يخاف فوت مال إن هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه ، فكذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لا يبقى الخوف من أحد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخاف زيداً أو عمراً خف عمراً فان زيداً لا يقدر عليك إذا كان عمرو معك فلا يكون ذلك أمراً بالخوف من عمرو فانه يخافه وإنما يكون ذلك نهياً عن الخوف من زيد فى ضمن الأمر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسيه زيداً .

ثم قوله تعالى ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ يقرر قولنا أى اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ينبغى أن لا يطيع أحداً غير الله؟ نقول لوجهين (أحدهما) أن ذكر الغير لا حاجة إليه لأن غيرهما لا يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام الاتباع ، ولا يتوقع أن يصير النبي عليه السلام مطيعاً له بل يقصد اتباعه ولا يكون عنده إلا مطاعاً (والثانى) هو أنه تعالى لما قال (ولا تطع الكافرين والمنافقين) منعه من طاعة الكل لأن كل من طلب من النبي عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أو منافق لأن من يأمر النبي عليه الصلاة والسلام بأمر أمر إيجاب معتقداً على أنه لو لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافراً .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ إشارة إلى أن التقوى ينبغى تكون عن صميم قلبك لا تخفى فى نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذى يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف فى نفسه ويتجلد فان التقوى من الله وهو عليم ، وقوله (حكيماً) إشارة إلى دفع وهم متوهم وهو أن متوهمها لو قال إذا قال الله شيئاً وقال جميع الكافرين والمنافقين مع أنهم أقارب النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً آخر ورأوا المصلحة فيه وذكروا وجهاً معقولاً . فاتباعهم لا يكون إلا مصلحة فقال الله

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾

تعالى إنه حكيم ولا تكون المصلحة إلا في قول الحكيم ، فاذا أمرك الله بشيء فاتبعه ولو منعك أهل العالم عنه .

وقوله تعالى ﴿ واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ، ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ .

يقرر ما ذكرنا من أنه حكيم فاتباعه هو الواجب ، ثم قال تعالى (إن الله كان بما تعملون خبيراً) لما قال إنه عليم بما في قلوب العباد بين أنه عالم خبير بأعمالكم فسووا قلوبكم وأصلحوا أعمالكم . ثم قال تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) يعني اتق الله وإن توهمت من أحد فتوكل على الله فإنه كفى به دافعاً ينفع ولا يضر معه شيء وإن ضر لا ينفع معه شيء .

ثم قال تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) قال بعض المفسرين الآية نزلت في أبي معمر كان يقول لي قلبان أعلم وأفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فرد الله عليه بقوله (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وقال الزمخشري قوله (وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم) أي ما جعل لرجل قلبين كما لم يجعل لرجل أمين ولا لابن أبوين ، وكلاهما ضعيف بل الحق أن يقال إن الله تعالى لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله (يا أيها النبي اتق الله) فكان ذلك أمراً له بتقوى لا يكون فوقها تقوى ومن يتقى ويخاف شيئاً خوفاً شديداً لا يدخل في قلبه شيء آخر ألا ترى أن الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكان الله تعالى قال يا أيها النبي اتق الله حق تقاته ، ومن حقها أن لا يكون في قلبك تقوى غير الله فإن المرء ليس له قلبان حتى يتقى بأحدهما الله وبالآخره غيره فان اتقى غيره فلا يكون ذلك إلا بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره وذلك لا يليق بالمتقى الذي يدعى أنه يتقى الله حق تقاته ، ثم ذكر للنبي عليه الصلاة والسلام أنه لا ينبغي أن يتقى أحداً ولا مثل ما اتقيت في حكاية زينب زوجة زيد حيث قال الله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) يعني مثل تلك التقوى لا ينبغي أن تدخل في

قلبك ثم لما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام بتلك الحالة ذكر ما يدفع عنه سوء . فقال (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) أى وما جعل الله دعى المرء ابنه ثم قدم عليه ما هو دليل قوى على اندفاع القبح وهو قوله (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى أنكم إذا قلتم لأزواجكم أنت على كظهر أمى فلا تصير هى أمأ بإجماع الكل ، أما فى الاسلام فلأنه ظهار لا يحرم الوطء ، وأما فى الجاهلية فلأنه كان طلاقاً حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من جديد ، فإذا كان قول القائل لزوجته أنت أمى أو كظهر أمى لا يوجب صيرورة الزوجة أمأ كذلك قول القائل للدعى أنت ابى لا يوجب كونه ابناً فلا تصير زوجته الإبن فلم يكن لأحد أن يقول فى ذلك شيئاً فلم يكن خوفك من الناس له وجه كيف ولو كان أمراً مخوفاً ما كان يجوز أن تخاف غير الله أو ليس لك قلبان وقلبك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغى أن تخاف أحداً

ثم قال تعالى (ذلکم قولکم بأفواہکم) فيه لطيفة وهو أن الكلام المعتبر على قسمين (أحدهما) كلام يكون عن شىء كان فيقال (والثانى) كلام يقال فيكون كما قيل والأول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكون والآخر كلام الصديقين الذين إذا قالوا شيئاً جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذى يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار أو نباح الكلب ، لأن الكلام المعتبر هو الذى يعتمد عليه والذى لا يكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه ، والله تعالى لما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغى أن يحترز من التخلق بأخلاقها ، فقول القائل : هذا ابن فلان مع أنه ليس ابنه ليس كلاماً فإن الكلام فى الفؤاد وهذا فى الفم لا غير ، واللطيفة هى أن الله تعالى ههنا قال (ذلکم قولکم بأفواہکم) وقال فى قوله (وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواہهم) يعنى نسبة الشخص إلى غير الأب قول لا حقيقة له ولا يخرج من قلب ولا يدخل أيضاً فى قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم .

ثم قال تعالى (والله يقول الحق) إشارة إلى معنى لطيف وهو ان العاقل ينبغى أن يكون قوله إما عن عقل أو عن شرع فإذا قال فلان ابن فلان ينبغى أن يكون عن حقيقة أو يكون عن شرع بأن يكون ابنه شرعاً وإن لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لسته أشهر ولداً وكانت الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فانا نلحقه بالزوج الثانى لقيام انفراس ونقول إنه ابنه وفى الدعى لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به لأنه لا يقول إلا الحق وهذا خلاف الحق لأن أباه مشهور ظاهر ووجه آخر فيه وهو أنهم قالوا هذه زوجة الابن فتحرم وقال الله تعالى هى لك حلال ، وقولهم لا اعتبار به فانه بأفواہهم كأصوات البهائم ، وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله (وهو يهـدى السبيل) يؤكد قوله (والله يقول الحق) يعنى يجب اتباعه لكونه حقاً ولكونه هادياً وقوله تعالى (ذلکم قولکم بأفواہکم والله يقول الحق) فيه لطيفة وهو أن الكلام الذى بالفم فحسب يشبه صوت البهائم الذى يوجد لا عن قلب ، ثم إن الكلام الذى بالقلب قد

ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فآخوانكم في الدين
ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم
وكان الله غفوراً رحيماً « ٥ »

يكون حقاً وقد يكون باطلاً ، لأن من يقول شيئاً عن اعتقاد قد يكون مطابقاً فيكون حقاً ، وقد لا يكون فيكون باطلاً ، فالقول الذي بالقلب وهو المعتبر من أقوالكم قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً لأنه يتبع الوجود ، وقول الله حق لأنه يتبعه الوجود فانه يقول عما كان أو يقول فيكون ، فإذن قول الله خير من أقوالكم التي عن قلوبكم فكيف تكون نسبتته إلى أقوالكم التي بأفواهكم ، فإذن لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغى وتتركوا قول الله الحق فمن يقول بأن تزوج النبي عليه الصلاة والسلام بزينة لم يكن حسناً يكون قد ترك قول الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفم . ثم قال تعالى (وهو يهدي السبيل) إشارة إلى أن اتباع ما أنزل الله خير من الأخذ بقول الغير . ثم بين الهداية وقال ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فآخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم) أرشد وقال (هو أقسط عند الله) أى عدل فانه وضع الشئ في موضعه وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ترك الإضافة للعموم أى عدل كل كلام كقول القائل الله أكبر (وثانيهما) أن يكون ترك الإضافة للعموم أى عدل كل كلام ابن فلان ثم تم الإرشاد وقال (فان لم تعلموا آباءهم فآخوانكم في الدين ومواليكم) يعنى قولوا لهم إخواننا وأخو فلان فان كانوا محرزين فقولوا مولى فلان ، ثم قال تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) يعنى قول القائل لغيره يا بنى بطريق الشفقة ، وقول القائل لغيره يا بنى بطريق التعظيم ، فانه مثل الخطأ ألا ترى أن اللغو في اليمين مثل الخطأ وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان في قول القائل ابني والسهم في قوله ابني من غير قصد إلى إثبات النسب سواء ، وقوله (ولكن ما تعمدت قلوبكم) مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ما سبق وهو الجناح يعنى ما تعمدت قلوبكم فيه جناح (وكان الله غفوراً رحيماً) يغفر الذنوب ويرحم المذنب وقد ذكرنا كلاماً شافياً في المغفرة والرحمة في مواضع ، ونعيد بعضها هنا فنقول المغفرة هو أن يسترد القادر القبيح الصادر من تحت قدرته حتى أن العبد إذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لا يقال إنه غفر له ، والرحمة هو أن يميل إليه بالإحسان لعجز المرحوم إليه لالعوض فإن من مال إلى إنسان قادر كالسلطان لا يقال رحمه ، وكذا من أحسن إلى غيره رجاء في خيره أو عوضاً عما صدر منه آنفاً من الإحسان لا يقال رحمه ، إذا علم هذا

النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَوُا الْأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا
إِلَىٰ أَوْلِيَاءِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

فالمغفرة إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه ستر عليه ثم رآه مفلساً عاجزاً فرحه وأعطاه ما كفاه، وإذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناها أنه مال إليه لعجزه فترك عقابه ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه .

ثم قال تعالى ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾

قوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) تقرير لصحة ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من الزوج بزینب وكان هذا جواب عن سؤال وهو أن قائلاً لو قال هب أن الأدياء ليسوا بأبناء كما قلت لكن من سماه غيره ابناً إذا كان لدعيه شيء حسن لا يليق بمروءته أن يأخذه منه ويطعن فيه عرفاً فقال الله تعالى النبي أولى بالمؤمنين جواباً عن ذلك السؤال وتقريره هو أن دفع الحاجات على مراتب؛ دفع حاجة الأجنبي ثم دفع حاجة الأقارب الذين على حواشي النسب ثم دفع حاجة الأصول والفصول ثم دفع حاجة النفس، والأول عرفاً دون الثاني وكذلك شرعاً فإن العاقلة تتحمل الدية عنهم ولا تتحملها عن الأجنبي والثاني دون الثالث أيضاً وهو ظاهر بدليل النفقة والثالث دون الرابع فإن النفس تقدم على الغير وإليه أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله «أبدأ بنفسك ثم بمن تعول» إذا علمت هذا فالإنسان إذا كان معه ما يغطي به إحدى الرجلين أو يدفع به حاجة عن أحد شقي بدنه، فلو أخذ الغطاء من أحدهما وغطى به الآخر لا يكون لأحد أن يقول له لم فعلت فضلاً عن أن يقول بثمها فعلت، اللهم إلا أن يكون أحد العضوين أشرف من الآخر مثل ما إذا وقى الإنسان عينه بيده ويدفع البرد عن رأسه الذي هو معدن حواسه ويترك رجله تبرد فإنه الواجب عقلاً، فمن يعكس الأمر يقال له لم فعلت، وإذا تبين هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل من يدهن شعره ويكشف رأسه في برد مفرط قاصداً به تربية شعره ولا يعلم أنه يؤذي رأسه الذي لا نبات لشعره إلا منه، فكذلك دفع حاجة النفس لفراغها إلى عبادة الله تعالى ولا علم بكيفية العبادة إلا من الرسول عليه الصلاة والسلام، فلو دفع الإنسان حاجته لا للعبادة فهو ليس

دفعاً للحاجة لأن دفع الحاجة ما هو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلاً عن أن يكون حاجة وإذا كان للعبادة فترك النبي الذي منه يتعلم كيفية العبادة في الحاجة ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع إهمال أمر الرأس ، فتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد شيئاً حرم على الأمة التعرض إليه في الحكمة الواضحة .

ثم قال تعالى (وأزواجه أمهاتهم) تقريراً آخر ، وذلك لأن زوجة النبي ﷺ ما جعلها الله تعالى في حكم الأم إلا لقطع نظر الأمة عما تعلق به غرض النبي عليه الصلاة والسلام ، فاذا تعلق خاطره بامرأة شاركت الزوجات في التعلق فحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره ، فلو قال قائل كيف قال (وأزواجه أمهاتهم) وقال من قبل (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم) إشارة إلى أن غير من ولدت لا تصير أمّاً بوجه ، ولذلك قال تعالى في موضع آخر (إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم) فنقول قوله تعالى في الآية المتقدمة (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) جواب عن هذا معناه أن الشرع مثل الحقيقة ، ولهذا يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة إلى الشريعة . كما أن امرأتين إذا ادعت كل واحدة ولداً بعينه ولم يكن لهما بينة وحلفت إحداها دون الأخرى حكم لها بالولد ، وإن تبين أن التي حلفت دون البلوغ أو بكر بينة لا يحكم لها بالولد ، فعلم أن عند عدم الوصول إلى الحقيقة يرجع إلى الشرع ، لا بل في بعض المواضع على الدور تغلب الشريعة الحقيقة ، فإن الزاني لا يجعل أباً لولد الزنا . إذا ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل هذه أمي قول يفهم لاعتق حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة . وأما قول الشارع [فم] حق والذي يؤيده هو أن الشارع به الحقائق حقائق فله أن يتصرف فيها ، ألا ترى أن الأم ما صارت أمّاً إلا بخلق الله الولد في رحمها ، ولو خلقه في جوف غيرها لمكانت الأم غيرها ، فاذا كان هو الذي يجعل الأم الحقيقية أمّاً فله أن يسمى امرأة أمّاً ويعطيها حكم الأمومة ، والمعقول في جعل أزواجه أمهاتنا ، هو أن الله تعالى جعل زوجة الأب محرمة على الإبن ، لأن الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها ، فإن تزوج الإبن بمن كانت تحت الأب يفضي ذلك إلى قطع الرحم والعقوق ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام أشرف وأعلى درجة من الأب وأولى بالإرضاء ، فإن الأب يربي في الدنيا فحسب ، والنبي عليه الصلاة والسلام يربي في الدنيا والآخرة ، فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء ، فإن قال قائل : فلم لم يقل إن النبي أبوكم ويحصل هذا المعنى ، أو لم يقل إن أزواجه أزواج أيكم . فنقول لحكمة ، وهي أن النبي لما بينا أنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبي عليه الصلاة والسلام ، فلو قال أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأيد ، ولأنه لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الأب لقوله عليه الصلاة والسلام « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ولذلك فإن المحتاج إلى القوت لا يجب عليه صرفه إلى الأب ، ويجب عليه صرفه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم إن أزواجه لهم حكم زوجات

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

الأب حتى لا تحرم أولادهن على المؤمنين ولا أخواتهن ولا أمهاتهن ، وإن كان الكل يحرم من في الأم الحقيقية والرضاعية .

ثم قال تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطوراً) إشارة إلى الميراث ، وقوله (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم) معروفاً إشارة إلى الوصية ، يعني إن أوصيتم فغير الوارثين أولى ، وإن لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم ، فإن قيل فعلى هذا أى تعلق للميراث والوصية بما ذكرت نقول تعلق قوى خفى لا يتبين إلا لمن هداه الله بنوره ، وهو أن غير النبي عليه الصلاة والسلام في حال حياته لا يصير له مال الغير ، وبعد وفاته لا يصير ماله لغير ورثته ، والنبي عليه الصلاة والسلام في حال حياته كان يصير له مال الغير إذا أراد ولا يصير ماله لورثته بعد وفاته ، كأن الله تعالى عوض النبي عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على تملك مال الغير وعوض المؤمنين بأن ماتركه يرجع إليهم ، حتى لا يكون حرج على المؤمنين في أن النبي ﷺ إذا أراد شيئاً يصير له ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع إليهم فقال تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) يعني بينكم التوارث فيصير مال أحدكم لغيره بالإرث والنبي لا توارث بينه وبين أقاربه فينبغي أن يكون له بدل هذا أنه أولى في حياته بما في أيديكم (الثاني) هو أن الله تعالى ذكر دليلاً على أن النبي عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ، ثم إذا أراد أحد برأ مع صديق فيوصى له بشئ فيصير أولى من قريبه وكأنه بالوصية قطع الإرث وقال هذا مالى لا ينتقل عنى إلا إلى من أريده ، فكذلك الله تعالى جعل لصديقه من الدنيا ما أراد ثم ما يفضل منه يكون لغيره وقوله « كان ذلك في الكتاب مسطوراً » فيه وجهان (أحدهما) في القرآن وهو آية الموارث والوصية (والثاني) في اللوح المحفوظ .

ثم قال تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالإتقاء بقوله (يا أيها النبي اتق الله) وأكده بالحكاية التي خشى فيها الناس لكي لا يخشى فيها أحداً غيره وبين أنه لم يرتكب أمراً يوجب الخشية بقوله (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أكده بوجه آخر وقال (وإذ أخذنا من النبيين) كأنه قال اتق الله ولا تخف أحداً واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين في أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع وفيه مسائل :

لَيْسَ سَأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا « ٨ » يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا « ٩ » إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ
وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ

(المسألة الأولى) المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين إرسالهم وأمرهم بالتبليغ .

(المسألة الثانية) خص بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن
موسى وعيسى كان لهما في زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجاً على قومهما ، وإبراهيم كان العرب
يقولون بفضلله وكانوا يتبعونه في الشعائر بعضها ، ونوحاً لأنه كان أصلاً ثانياً للناس حيث وجد
الخلق منه بعد الطوفان ، وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان
للعمارة ونبوته كانت مثل الإرشاد للأولاد ولهذا لم يكن في زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب ، وأما
نوح فكان مخلوقاً للنبوة وأرسل للانداز ولهذا أهلك قومه ، وأغرقوا .

(المسألة الثالثة) في كثير من المواضع يقول الله (عيسى بن مريم ، والمسيح بن مريم) إشارة
إلى أنه لا أب له إذ لو كان لوقع التعريف به ، وقوله (وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) غلط الميثاق هو
سؤالهم عما فعلوا في الإرسال كما قال تعالى (ولنساءن المرسلين) وهذا لأن الملك إذا أرسل
رسولاً وأمره بشيء وقبله فهو ميثاق ، فاذا أعليه بأنه يسأل عن حاله في أفعاله وأقواله يكون ذلك
تغليظاً للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة ، وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من
قوله تعالى (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) هو الإخبار
بأنهم مسؤولون عنها كما قال النبي عليه الصلاة والسلام « كلكم راع وكلكم مسئول » وكما أن الله
تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الأنبياء قامين بأمر أمتهم وإرشادهم إلى سبيل الرشاد .
ثم قال تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً) .

يعنى أرسل الرسل وعاقبة المكلفين إما حساب وإما عذاب ، لأن الصادق محاسب والكافر
معذب ، وهذا كما قال على عليه السلام « الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب » وهذا مما
يوجب الخوف العام فيتأكد قوله (يا أيها النبي اتق الله) .

ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذكروا نعمته الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم
ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ

بِاللَّهِ الظُّنُونَا «١٠»

زأغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴿

تحقيقاً لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لأن في واقعة اجتماع الأحزاب واشتداد الأمر على الأصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبي عليه السلام الخندق ، كان الأمر في غاية الشدة والخوف بالغاً إلى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فإنه كاف أمره ولا يأمن مكره فإنه قادر على كل ممكن فكان قادراً على أن يقهر المسلمين بالكفار مع أنهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم ، وقوله (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) إشارة إلى ما فعل الله بهم من إرسال ريح باردة عليهم في ليلة شاتية وإرسال الملائكة وقذف الرعب في قلوبهم حتى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل في جوف الليل والحكاية مشهورة ، وقوله (وكان الله بما تعملون بصيراً) إشارة إلى أن الله علم التجاءكم إليه ورجاءكم فضله فنصركم على الأعداء عند الاستعداد ، وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غير الله فإن قوله (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) أي الله يقضى حاجتكم وأنتم لا ترون ، فإن كان لا يظهر لكم وجه الأمان فلا تلتفتوا إلى عدم ظهوره لكم لأنكم لا ترون الأشياء فلا تخافون غير الله (والله بصير بما تعملون) فلا تقولوا بأنا نفعل شيئاً وهو لا يبصره (فإنه بكل شيء بصير) وقوله (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم) بيان لشدة الأمر وغاية الخوف ، وقيل (من فوقكم) أي من جانب الشرق (ومن أسفل منكم) من جانب الغرب وهم أهل مكة وزأغت الأبصار أي مالت عن سنتها فلم تلتفت إلى العدو لكثرة (وبلغت القلوب الحناجر) كناية عن غاية الشدة ، وذلك لأن القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيقاص فيأصق بالخنجرة وقد يفضى إلى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى (حتى إذا بلغت الروح الحلقوم) وقوله (وتظنون بالله الظنونا) الألف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعنى تظنون كل ظن لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئاً ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة ، لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام « ظنوا بالله خيراً » ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى (ذلك ظن الذين كفروا) وقوله (إن يتبعون إلا الظن) فإن قال قائل المصدر لا يجمع ، فما الفائدة في جمع الظنون؟ فنقول لاشك في أنه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجعل مصدراً كما يقال ضربته سيّطاً وأدبته مراراً فكانه قال ظننتم ظناً بعد ظن أي ما ثبتتم على ظن فالفائدة هي أن الله تعالى لو قال : تظنون ظناً ، جاز أن يكونوا مصيبين فاذا قال : ظنونا ، تبين أن فيهم من كان ظنه كاذباً لأن الظنون قد تكذب كلها

هٰنَا لَكَ اِبْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ
طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ
يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

وقد يكذب بعضها إذا كانت في أمر واحد مثاله إذا رأى جمع من بعيد جسماً وظن بعضهم أنه زيد وآخرون أنه عمرو وقال ثالث إنه بكر ، ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين والمرئى شجر أو حجر . وقد يكون أحدهم مصيباً ولا يمكن أن يكونوا كلهم مصيبين فقوله (الظنوناً) أفاد أن فيهم من أخطأ الظن ، ولو قال تظنون بالله ظناً ما كان يفيد هذا .

ثم قال تعالى ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ .

أى عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق ، والامتحان من الله ليس لاستبانة الأمر له بل لحكمة أخرى وهى أن الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الملائكة والأنبياء ، كما أن السيد إذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالماً بأنه يخالفه فيبين الأمر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه حيث لا يقع لأحد أنها بظلم أو من قلة حلم وقوله (وزلزلوا) أى أزعجوا وحركوا فمن ثبت منهم كان من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وبذكر الله تطمئن مرة أخرى ، وهم المؤمنون حقاً .

ثم قال تعالى ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ .

فسر الظنون وبينها ، فظن المنافقون أن ما قال الله ورسوله كان زوراً ووعدهما كان غروراً حيث قطعوا بأن الغلبة واقعة وقوله (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم) أى لا وجه لإقامتكم مع محمد كما يقال لا إقامة على الذل والهوان أى لا وجه لها (ويثرب) اسم للبقعة التى هى المدينة فارجعوا أى عن محمد ، وانفقوا مع الأحزاب تخرجوا من الأحزان ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بأن بيوتنا عورة أى فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على أتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله (وما هي بعورة) وبين قصدهم وما تكن صدورهم وهو الفرار وزوال القرار بسبب الخوف .

وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا
إِلَّا يَسِيرًا «١٤» وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبَارَ وَكَانَ
عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا «١٥» قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا
لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا «١٦» قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ
سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا «١٧»

ثم قال تعالى ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سألوا الفتنة لآتوها وما تلبسوا بها إلا يسيراً ﴾ إشارة إلى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لأن من يفعل فعلاً لغرض ، فإذا فاته الغرض لا يفعله ، كمن يبذل المال لكي لا يؤخذ منه بيته فإذا أخذ منه البيت لا يبذله فقال الله تعالى هم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا ولو دخلها الأحزاب وأخذوها منهم لرجعوا أيضاً ، وليس رجوعهم عنك إلا بسبب كفرهم وحبهم الفتنة ، وقوله (ولو دخلت عليهم) احتمال أن يكون المراد المدينة واحتمل أن يكون البيوت ، وقوله (وما تلبسوا بها) يحتمل أن يكون المراد الفتنة (إلا يسيراً) فإنها تزول وتكون العاقبة للمتقين ، ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أى ما تلبسوا بالمدينة إلا يسيراً فان المؤمنين يخرجونهم .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الدِّبَارَ وكان عهد الله مسئولا ، قل لن ينفَعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا ﴾ .
بيانا لفساد سريرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فانهم قبل ذلك تخلفوا وأظهروا عذراً وندماً ، وذكروا أن القتال لا يزال لهم قدماً ثم هددهم بقوله (وكان عهد الله مسئولا) وقوله (قل لن ينفَعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) إشارة إلى أن الأمور مقدره لا يمكن الفرار مما وقع عليه القرار ، وما قدره الله كائن من أمر بشيء إذا خالفه يبقى في ورطة العقاب آجلاً ولا ينتفع بالمخالفة عاجلاً ، ثم قال تعالى (وإذا لا تمتعون إلا قليلا) كأنه يقول ولو فررتم منه في يومكم مع أنه غير ممكن لما دمتم بل لا تمتعون إلا قليلا . فالعاقل لا يرغب في شيء قليل مع أنه يفوت عليه شيئاً كثيراً ، فلا فرار لكم ولو كان لما متعتم بعد الفرار إلا قليلا .

ثم قال تعالى ﴿ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ .

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ
 الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا «١٨» أَشْحَةَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ
 تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ
 حَدَادٍ أَشْحَةَ عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَيْتُكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
 يَسِيرًا «١٩»

بيانا لما تقدم من قوله (ان ينفعكم الفرار) وقوله (ولا يجدون لهم من دون الله) تقرير
 لقوله (من ذا الذي يعصمكم) أى ليس لكم ولى يشفع لحبته إياكم ولا نصير ينصركم ويدفع
 عنكم السوء إذا أتاكم .

ثم قال تعالى ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس
 إلا قليلا ، أشحة عليكم ﴾ .

أى الذين يثبطون المسلمين ويقولون تعالوا إلينا ولا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وفيه
 وجهان (أحدهما) أنهم المنافقون الذين كانوا يقولون للأنصار لا تقاتلوا وأسلموا محمداً إلى قریش
 (وثانيهما) اليهود الذين كانوا يقولون لأهل المدينة تعالوا إلينا وكونوا معنا وهلم بمعنى تعال أو
 احضر ولا تجمع فى لغة الحجاز وتجمع فى غيرها فيقال للجماعة هلموا وللنساء هلمن ، وقوله (ولا
 يأتون البأس إلا قليلا) يؤيد الوجه الأول وهو أن المراد منهم المنافقون وهو يحتمل وجهين
 (أحدهما) (لا يأتون البأس) بمعنى يتخلفون عنكم ولا يخرجون معكم وحينئذ قوله تعالى (أشحة
 عليكم) أى بخلاء حيث لا ينفقون فى سبيل الله شيئاً (وثانيهما) لا يأتون البأس بمعنى لا يقاتلون
 معكم ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت الحضور معكم ، وقوله (أشحة عليكم) أى بأنفسهم
 وأبدانهم .

ثم قال تعالى ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من
 الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله
 أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ .

إشارة إلى غاية جبنهم ونهاية روعهم ، واعلم أن البخل شبيه الجبن ، فلما ذكر البخل بين سبيه
 وهو الجبن والذى يدل عليه هو أن الجبان يبخل بماله ولا ينفقه فى سبيل الله لأنه لا يتوقع الظفر

يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ
فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾
لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

فلا يرجو الغنيمة فيقول هذا اتفاق لا بد له فيتوقف فيه، وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاعتناء
فيهون عليه إخراج المال في القتال طمعاً فيما هو أضعاف ذلك، وأما بالنفس والبدن فكذلك
فان الجبان يخاف قرنه ويتصور الفشل فيجبن ويترك الإقدام، وأما الشجاع فيحكم بالغبلة والنصر
فيقدم، وقوله تعالى (فاذا ذهب الخوف سلقوكم) أى غلبوكم بالأسنة وأذوكم بكلامهم يقولون
نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتكم وكسرتكم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الأوفر من الغنيمة
وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالإياب، وقوله (أشحة على الخير) قيل الخير المال ويمكن
أن يقال معناه أنهم قليلوا الخير في الحالتين كثير وشر في الوقتين في الأول يدخلون، وفي
الآخر كذلك .

ثم قال تعالى (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً) يعنى لم
يؤمنوا حقيقة وإن أظهروا الإيمان لفظاً فأحبط الله أعمالهم التي كانوا يأتون بها مع المسلمين
وقوله (وكان ذلك على الله يسيراً) إشارة إلى ما يكون في نظر الناظر كما في قوله تعالى (وهو
أهون عليه) وذلك لأن الإحباط إعدام وإهدار، وإعدام الأجسام إذا نظر الناظر يقول الجسم
بتفريق أجزائه، فان من أحرق شيئاً يبقى منه رماد، وذلك لأن الرماد إن فرقه الريح يبقى منه
ذرات، وهذا مذهب بعض الناس والحق هو أن الله يعدم الأجسام ويعيد ما يشاء منها، وأما العمل
فهو في العين معدوم وإن كان يبقى يبقى بحكمه وآثاره، فاذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم
حقيقة وحكما فالعمل إذا لم يعتبر فهو معدوم في الحقيقة بخلاف الجسم .

ثم قال تعالى ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في
الأعراب يسألون عن أنباءكم ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا ، لقد كان لكم في رسول الله
أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .
أى من غاية الجبن عند ذهابهم كانوا يخافونهم وعند مجيئهم كانوا يودون لو كانوا في البوادي
ولا يكونون بين المقاتلين معاً لهم عند حضورهم كأنهم غائبون حيث لا يقاتلون كما قال تعالى

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾

(ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا).

ثم قال تعالى ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ .

لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو أنهم قالوا هذا ما وعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا (وصدق الله ورسوله) في مقابلة قولهم (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) وقولهم (وصدق الله ورسوله) ليس إشارة إلى ما وقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وإنما هي إشارة إلى بشارة وهو أنهم قالوا (هذا ما وعدنا الله) وقد وقع وصدق الله في جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله (وما زادهم إلا إيماناً) بوقوعه وتسليماً عند وجوده .

ثم قال تعالى ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نجه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾

إشارة إلى وفاتهم بعهدهم الذي عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت فمنهم من قضى نجه أى قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ، ومنهم من هو بعد في القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد وما بدلوا تبديلاً بخلاف المنافقين فإنهم قالوا لا نولى الأديبار فبدلوا قولهم وولوا أديبارهم وقوله (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) أى بصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا وقوله (إن شاء) ذلك فيمنعهم من الإيمان

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي

قُلُوبِهِمُ الرِّيبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

أو يتوب عليهم إن أراد : وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبي عليه الصلاة والسلام عن إيمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله (وكان الله غفوراً) حيث ستر ذنوبهم و(رحيماً) حيث رحمهم ورزقهم الإيمان فيكون هذا فيمن آمن بعده أو نقول (ويعذب المنافقين) مع أنه كان غفوراً رحيماً لكثرة ذنوبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم فقال (ورد الله الذين كفروا بغيظهم) أى مع غيظهم لم يشفوا صدراً ولم يحققوا أمراً (وكفى الله المؤمنين القتال) أى لم يوجههم إلى قتال (وكان الله قوياً) غير محتاج إلى قتالهم عزيزاً قادراً على استئصال الكفار وإذلالهم .

ثم قال تعالى ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيحهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾

أى عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة من صياصيحهم من قلاعهم وقذف في قلوبهم الرعب حتى سلخوا أنفسهم للقتل وأولادهم ونسائهم للسبي فريقاً تقتلون وهم الرجال ، وتأسرون فريقاً وهم الصبيان والنسوان ، فان قيل هل فى تقديم المفعول حيث قال فريقاً تقتلون وتأخيره حيث قال (وتأسرون فريقاً) فائدة ؟ قلت قد أجبنا أن ما من شئ من القرآن إلا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر ، والذي يظهر من هذا والله أعلم أن القائل يبدأ بالأهم فالأهم والأعرف فالأعرف والأقرب فالأقرب ، والرجال كانوا مشهورين فكان القتل وارداً عليهم والأسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبي والأسر أظهر من القتل لأنه يبقى فيظهر لكل أحد أنه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الأخرى ، وإن شئنا نقول بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله (فريقاً تقتلون) فعل ومفعول والأصل فى الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل ، أما أنها جملة فعلية فلا أنها لو كانت اسمية لكان الواجب فى فريق الرفع وكان يقول فريق منهم تقتلون فلما نصب كان ذلك بفعل مضمرة يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقاً تقتلون والحامل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفعول ، وههنا كذلك لأنه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم وأنه قذف فى قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون إلى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يكون زمان وقد يمنع مانع فيفوته فلا يعلم أنهم هم المقتولون ، فأما إذا قال فريقاً مع سبق فى قلوبهم الرعب إلى سماعه يستمع إلى تمام الكلام وإذا كان الأول فعلاً ومفعولاً قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على

وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُن تَرْضْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْن أُمْتَعَنَّ وَأَسْرَحْنَ سَرَّاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُن تَرْضْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَانِ اللَّهُ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

الأصل فعدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم إذا عرف حالهم وما يجي بعده يكون مصروفاً إليهم ، ولو قال بعد ذلك وفريقاً تأسرون فمن سمع فريقاً ربما يظن أن يقال فيهم يطلقون ، أو لا يقدر عليهم فكان تقديم الفعل ههنا أولى ، وكذلك الكلام في قوله (وأنزل الذين ظاهروهم) وقوله (وقذف) فان قذف الرعب قبل الإنزال لأن الرعب صار سبب الإنزال ، ولكن لما كان الفرح في إنزالهم أكثر ، قدم الإنزال على قذف الرعب والله أعلم .
ثم قال تعالى ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ .

فيه ترتيب على ما كان ، فان المؤمنين أولاً تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم ثم أموالهم التي كانت في بيوتهم وقوله (وأرضاً لم تطئوها) قيل المراد القلاع وقيل المراد الروم وأرض فارس وقيل كل ما يؤخذ إلى يوم القيامة (وكان الله على كل شيء قديراً) هذا يؤكد قول من قال إن المراد من قولهم (وأرضاً لم تطئوها) هو ما سيؤخذ بعد بنى قريظة ، ووجهه هو أن الله تعالى لما ملككم تلك البلاد ووعدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوى الاتكال على الله تعالى وقال ليس الله ملككم هذه فهو على كل شيء قدير يملككم غيرها .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾

وجه التعلق هو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله « الصلاة وما ملكت أيمانكم » ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله (يا أيها النبي اتق الله) ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فانهن أولى الناس بالشفقة ، ولهذا قدمهن في النفقة . وفي الآية مسائل فقهية منها أن التخيير

هل كان واجباً على النبي عليه السلام أم لا ؟ فنقول التخيير قولاً كان واجباً من غير شك لأنه إبلاغ الرسالة ، لأن الله تعالى لما قال له قل لهم صار من الرسالة ، وأما التخيير معنى فبني على أن الأمر للوجوب أم لا ؟ والظاهر أنه للوجوب ، ومنها أن واحدة منهن لو اختارت الفراق هل كان يصير اختيارها فراقاً والظاهر أنه لا يصير فراقاً وإنما تبين المختارة نفسها بإبانه من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً) ومنها أن واحدة منهن إن اختارت نفسها وقتلنا بأنها لا تبين إلا بإبانه من جهة النبي عليه السلام فهل كان يجب على النبي عليه السلام الطلاق أم لا ؟ الظاهر نظراً إلى منصب النبي عليه السلام أنه كان يجب ، لأن الخلف في الوعد من النبي غير جائز بخلاف واحد منا ، فانه لا يلزمه شرعاً الوفاء بما يعد ومنها أن المختارة بعد البيئونة هل كانت تحرم على غيره أم لا ، والظاهر أنها لا تحرم ، وإلا لا يكون التخيير ممكناً لها من التمتع بزينة الدنيا ، ومنها أن من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبي عليه الصلاة والسلام طلاقها أم لا ؟ الظاهر الحرمة نظراً إلى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى أن النبي عليه السلام لا يباشره أصلاً ، بمعنى أنه لو أتى به لعوقب أو عوتب ، وفيها لطائف لفظية منها تقديم اختيار الدنيا ، إشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام غير ملتفت إلى جانبين غاية الإلتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه ، ومنها قوله عليه السلام (أسرحكن سراحاً جميلاً) إشارة إلى ما ذكرنا ، فان السراح الجميل مع التأذي القوي لا يجتمع في العادة ، فلم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يتأثر من اختيارهن فراقه بدليل أن التسريح الجميل منه ، ومنها قوله (وإن كنتن تردن الله) إعلماً لمن بأن في اختيار النبي عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هي الدين وقوله (أعد للحسنات منكن) أي لمن عمل صالحاً منكن ، وقوله (تردن الله ورسوله والدار الآخرة) فيه معنى الإيمان ، وقوله (للحسنات) لبيان الإحسان حتى تكون الآية في المعنى ، كقوله تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن) وقوله تعالى (من آمن وعمل صالحاً) وقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والأجر العظيم الكبير في الذات الحسن في الصفات الباقى في الأوقات ، وذلك لأن العظيم في الأجسام لا يطلق إلا على الزائد في الطول وفي العرض وفي العمق ، حتى لو كان زائداً في الطول يقال له طويل ، ولو كان زائداً في العرض يقال له عريض ، وكذلك العميق ، فاذا وجدت الأمور الثلاثة قيل عظيم ، فيقال جبل عظيم إذا كان عالياً ممتداً في الجهات ، وإن كان مرتفعاً فحسب يقال جبل عال ، إذا عرفت هذا فأجر الدنيا في ذاته قليل وفي صفاته غير خال عن جهة قبسح ، لما في ما كوله من الضرر والثقل ، وكذلك في مشروبه وغيره من اللذات وغير دائم ، وأجر الآخرة كثير خال عن جهات القبسح دائم فهو عظيم .

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ
وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ
صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

ثم قال تعالى ﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾

لما خيرهن النبي ﷺ واخترن الله ورسوله أدهن الله وهددهن للتوقى عما يسوء النبي عليه السلام ويقبح بهن من الفاحشة التي هي أصعب على الزوج من كل ما تأتي به زوجته وأوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان (إحداهما) ان زوجة الغير تعذب على الزنا بسبب ما في الزنا من المفاسد وزوجة النبي تعذب إن أتت به لذلك وإليذاء قلبه والإضرار بمنصبه، وعلى هذا بنات النبي عليه السلام كذلك، ولأن امرأة لو كانت تحت النبي ﷺ وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبي عليه السلام، ويكون ذلك الغير خيراً عندها من النبي وأولى، والنبي أولى من النفس التي هي أولى من الغير، فقد نزلت منصب النبي مرتبتين فتعذب من العذاب ضعفين (تأنيتهما) أن هذا إشارة إلى شرفهن، لأن الحرمة عذابها ضعف عذاب الأمة إظهاراً لشرفها، ونسبة النبي إلى غيره من الرجال نسبة السادات إلى العبيد لكونه أولى بهم من أنفسهم، فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتي من أمهات المؤمنين، وأم الشخص امرأة حاكمة عليه واجبة الطاعة، وزوجته مأمورة بحكومة له وتحت طاعته، فصارت زوجة الغير بالنسبة إلى زوجة النبي عليه السلام كالامة بالنسبة إلى الحرمة، واعلم أن قول القائل من يفعل ذلك في قوة قوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) من حيث إن ذلك ممكن الوقوع في أول النظر، ولا يقع في بعض الصور جزماً. وفي بعض يقع جزماً من مات فقد استراح، وفي البعض يتردد السامع في الأمرين، فقوله تعالى (من يأت منكن بفاحشة) عندنا من القبيل الأول، فان الأنبياء صان الله زوجاتهم عن الفاحشة، وقوله تعالى (وكان ذلك على الله يسيراً) أي ليس كونك تحت النبي عليه السلام وكونك شريفاً جليلات مما يدفع العذاب عنك، وليس أمر الله كأمر الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الأعرزة بسبب كثرة أولياتهم وأعوانهم أو شفعاتهم وإخوانهم.

ثم قال تعالى ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾

قوله تعالى (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً) بياناً لزيادة ثوابهن، كما بين

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ

الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقَلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾

زيادة عقابهن (نوتها أجرها مرتين) في مقابلة قوله تعالى (يضاعف لها العذاب ضعفين) مع لطيفة وهي أن عند إيتاء الأجر ذكر الموتى وهو الله ، وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال (يضاعف) إشارة إلى كمال الرحمة والكرم ، كما أن الكريم الحى عند النفع يظهر نفسه وفعله ، وعند الضر لا يذكر نفسه ، وقوله تعالى (وأعتدنا لها رزقاً كريماً) وصف رزق الآخرة بكونه كريماً ، مع أن الكريم لا يكون إلا وصفاً للرزاق إشارة إلى معنى لطيف ، وهو أن الرزق في الدنيا مقدر على أيدي الناس ، التاجر يسترزق من السوق ، والمعاملين والصناع من المستعملين ، والملوك من الرعية والرعية منهم ، فالرزق في الدنيا لا يأتي بنفسه ، وإنما هو مسخر للغير يمسكه ويرسله إلى الأغيار . وأما في الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك في الظاهر فهو الذي يأتي بنفسه ، فلا أجل هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم إلا الرزاق ، وفي الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق .

قوله تعالى ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً ﴾

ثم قال تعالى (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) لما ذكر أن عقابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلاً أجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة إلى الإمام ، فقال (لستن كأحد) ومعنى قول القائل ليس فلان كإحد الناس ، يعنى ليس فيه مجرد كونه إنساناً ، بل وصف أخص موجود فيه ، وهو كونه عالماً أو عاملاً أو نسيباً أو حسيباً ، فان الوصف الأخص إذا وجد لا يبقى التعريف بالأعم ، فان من عرف رجلاً ولم يعرف منه غير كونه رجلاً يقول رأيت رجلاً فان عرف عليه يقول رأيت زيداً أو عمراً ، فكذلك قوله تعالى (لستن كأحد من النساء) يعنى فيكن غير ذلك أمر لا يوجد فى غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين ، وكما أن محمداً عليه السلام ليس كأحد من الرجال ، كما قال عليه السلام « لست كأحدكم » كذلك قرأه اللاتى يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة .

ثم قوله تعالى (إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون متعلقاً بما قبله على معنى لستن كأحد إن اتقيتن فإنه الأكرم عند الله هو الاتقى (وثانيهما) أن يكون متعلقاً بما بعده على معنى إن اتقيتن فلا تخضعن والله تعالى لما منعهن من الفاحشة وهى الفعل القبيح منعهن من مقدماتها وهى المحادثة مع الرجال والانقياد فى الكلام للفاسق . ثم قوله تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فسق وقوله تعالى (وقلن قولا معروفاً) أى ذكر الله ، وما تحتجن إليه

وَقَرْنَ فِي يُوْتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ
وَأَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ
أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾

من الكلام والله تعالى لما قال (فلا تخضعن بالقول) ذكر بعده (وقلن) إشارة إلى أن ذلك ليس
أمراً بالإيذاء والمنكر بل القول المعروف وعند الحاجة هو المأمور به لا غيره .

ثم قال تعالى ﴿ وقرن في يوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة
وأطعن الله ورسوله ﴾ .

قوله تعالى (وقرن في يوتكن) من القرار وإسقاط أحد حرفي التضعيف كما قال تعالى
(فظلمت تفكهنون) وقيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعد عد وقوله (ولا تبرجن تبرج الجاهلية
الأولى) قيل معناه لا تتكسرن ولا تتغجن ، ويحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتكن وقوله
تعالى (الجاهلية الأولى) فيه وجهان : (أحدهما) أن المراد من كان في زمن نوح والجاهلية
الأخرى من كان بعده (وثانيهما) أن هذه ليست أولى تقتضى أخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة
كقول القائل : أين الأكايرة الجبارة الأولى .

ثم قال تعالى (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) يعنى ليس التكليف فى النهى
فقط حتى يحصل بقوله تعالى (لا تخضعن ، ولا تبرجن) بل فيه وفى الأوامر (فأقمن الصلاة)
التي هي ترك التشبه بالجبار المتكبر (وآتين الزكاة) التي هي تشبه بالكريم الرحيم (وأطعن الله)
أى ليس التكليف منحصرأ فى المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل ما نهى الله عنه فاتمى عنه

ثم قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

يعنى ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تنفعن الله فيما أتين به . وإنما نفعه لكن وأمره تعالى
إيا كن لمصلحتكن ، وقوله تعالى (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم) فيه لطيفة وهي أن
الرجس قد يزول عيناً ولا يطهر المحل فقوله تعالى (ليذهب عنكم الرجس) أى يزيل عنكم الذنوب
ويطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة ، ثم إن الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب
المذكرين بقوله (ليذهب عنكم الرجس) ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم ، واختلفت الأقوال
فى أهل البيت ، والأولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلى منهم لأنه كان
من أهل بيته بسبب معاشرته بينت النبي عليه السلام وملازمته للنبي .

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا
خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ
وَالْمُتَّصِدِّقِينَ وَالْمُتَّصِدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ

ثم قال تعالى ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ أى القرآن (والحكمة)
أى كلمات النبي عليه السلام إشارة إلى ما ذكرنا من أن التكليف غير منحصر في الصلاة والزكاة ،
وما ذكر الله في هذه الآية فقال (واذكرن ما يتلى) ليعلمن الواجبات كلها فيأتين بها ، والمحرمات
بأسرها فينتهين عنها .

[وقوله] ﴿ إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ إشارة إلى أنه خير بالبوطن ، لطيف فعلمه يصل إلى
كل شيء ومنه اللطيف الذى يدخل فى المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة .
ثم قال تعالى ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ لما أمرهن ونهاهن وبين ما يكون
لهن وذكركن لهن عشر مراتب (الأولى) الاسلام والانقياد لأمر الله (والثانية) الإيمان بما يرد
به أمر الله ، فان المكلف أولاً يقول كل ما يقوله أقبله فهذا إسلام ، فاذا قال الله شيئاً وقبله صدق
مقالته وصحح اعتقاده فهو إيمان ثم إعتقاده يدعو إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد
وهو (المرتبة الثالثة) المذكورة بقوله ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ ثم إذا آمن وعمل صالحاً كمل فيكمل
غيره ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق فى كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله ﴿ والصادقين
والصادقات ﴾ ثم إن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى
﴿ والصابرين والصابرات ﴾ ثم إنه إذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله
﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ أو نقول لما ذكر هذه الحسنات أشار إلى ما يمنع منها وهو إما حب
الجاه أو حب المال من الأمور الخارجية أو الشهوة من الأمور الداخلة ، والغضب منهما يكون
لأنه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمر مشتبه فقوله (والخاشعين والخاشعات)
أى المتواضعين الذين لا يميلهم الجاه عن العبادة ، ثم قال تعالى ﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ أى
الباذلين الأموال الذين لا يكثرونها لشدة محبتهم إياها . ثم قال تعالى ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ إشارة
إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله . ثم قال تعالى ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾
أى الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية .

وَالْحَافِظَاتِ وَالَّذَا كَرَيْنَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالَّذَا كَرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

ثم قال تعالى ﴿والذا كرين الله كثيراً والذا كرات﴾ يعنى هم في جميع هذه الأحوال يذكرون الله ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقهم وصومهم بنية صادقة لله ، واعلم أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا ، وفي قوله بعد هذا (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) وقال من قبل (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن أو عسر فإن الإنسان أكله وشربه وتحصيل ما كوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائماً بالصلاة ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويشربه وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) ولأن جميع الأعمال صحتها بذكر الله تعالى وهي النية .

ثم قال تعالى ﴿أعد الله لهم مغفرة﴾ تمحو ذنوبهم وقوله ﴿وأجراً عظيماً﴾ ذكرناه فيما تقدم . ثم قال تعالى ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾

فيل بأن الآية نزلت في زينب حيث أراد النبي ﷺ تزويجها من زيد بن حارثة فكرهت إلا النبي عليه السلام وكذلك أخوها امتنع فنزلت الآية فرضيا به ، والوجه أن يقال إن الله تعالى لما أمر نبيه بأن يقول لزوجاته إنهن مخيرات فهم منه أن النبي ﷺ لا يريد ضرر الغير فمن كان ميله إلى شيء يمكنه النبي عليه السلام من ذلك ، ويترك النبي عليه السلام حق نفسه لحظ غيره ، فقال في هذه الآية لا ينبغي أن يظن ظان أن هوى نفسه متبعه وأن زمام الاختيار بيد الإنسان كما في الزوجات ، بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فما أمر الله هو المتبع وما أراد النبي هو الحق ومن خالفهما في شيء فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ، لأن الله هو المقصد والنبي هو الهادي الموصل ، فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادي فهو ضال قطعاً .

ثم قال تعالى ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي

وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مَبْدِيهِ وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ
تَخْشِيَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لَكِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا «٢٧»
مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ

في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا كها
لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً
وهو زيد أنعم الله عليه بالإسلام (وأنعمت عليه) بالتحريم والإعتاق (أمسك عليك زوجك)
هم زيد بطلاق زينب فقال له النبي أمسك أي لا تطلقها (واتق الله) قيل في الطلاق، وقيل في
الشكوى من زينب، فان زيدا قال فيها إنها تكبر على بسبب النسب وعدم الكفاءة (وتخفي
في نفسك ما الله مبديه) من أنك تريد التزوج بزينب (وتخشى الناس) من أن يقولوا أخذت زوجة
الغير أو الإبن (والله أحق أن تخشاه) ليس إشارة إلى أن النبي خشي الناس ولم يخش الله بل المعنى
الله أحق أن تخشاه وحده ولا تخش أحداً معه وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضاً، فاجعل الخشية
له وحده كما قال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله).

ثم قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا كها) أي لما طلقها زيد وانقضت عدتها
وذلك لأن الزوجة مادامت في نكاح الزوج فهي تدفع حاجته وهو محتاج إليها، فلم يقض منها
الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك إذا كان في العدة له بها تعلق لإمكان شغل الرحم فلم يقض
منها بعد وطره، وأما إذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فيقضى منها الوطر
وهذا موافق لما في الشرع لأن التزوج بزوجة الغير أو بمعنته لا يجوز فلماذا قال (فلما قضى)
وكذلك قوله (لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً)
أي إذا طلقوهن وانقضت عدتهن، وفيه إشارة إلى أن التزويج من النبي عليه السلام لم يكن لقضاء
شهوة النبي عليه السلام بل لبيان الشريعة بفعله فان الشرع يستفاد من فعل النبي وقوله (وكان أمر
الله مفعولاً) أي مقضياً ما قضاه كائن.

ثم بين أن تزوجه عليه السلام بها مع أنه كان مبيناً لشرع مشتمل على فائدة كان خالياً من المفساد فقال:
(ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله

وَكَانَ أَمْرَ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا «٣٨» الَّذِينَ يَبْلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا «٣٩»

قدراً مقدوراً) يعنى كان شرع من تقدمه كذلك ، كان يتزوج الأنبياء بنسوة كثيرة أبكار ومطلقات الغير (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أى كل شىء بقضاء وقدر والقدر التقدير وبين المفعول والمقدور فرق مقول بين القضاء والقدر ، فالقضاء ما كان مقصوداً فى الأصل والقدر ما يكون تابعاً له ، مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان أو قرية يصح منه فى العرف أن يقول فى جواب من يقول لم جئت إلى هذه القرية ؟ إني ماجئت إلى هذه وإنما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت فى طريقى وإن كان قد جاءها ودخلها ، إذا عرفت هذا فإن الخير كله بقضاء وما فى العالم من الضرر بقدر ، فالله تعالى خالق المكلف بحيث يشتهى ويغضب ، ليكون اجتهاده فى تغليب العقل والدين عليهما مثاباً عليه بأبلغ وجه فأفضى ذلك فى البعض إلى أن زنى وقتل فالله لم يخالفهما فيه مقصوداً منه القتل والزنا وإن كان ذلك بقدر الله إذا علمت هذا ففى قوله تعالى أولاً (وكان أمر الله مفعولاً) وقوله ثانياً (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) لطيفة وهى أنه تعالى لما قال (زوجناكها) قال (وكان أمر الله مفعولاً) أى تزويجنا زينب إياك كان مقصوداً متبوعاً مقضياً مراعى ، ولما قال (سنة الله فى الذين خلوا) إشارة إلى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أى كان ذلك حكماً تبعياً ، فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة يوجب كون الأشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا الله تعالى أراد أن يخلق ما ينضج الأشياء وهو لا يكون إلا محرقاً بالطبع فخلق النار للنفع فوق اتفاق أسباب أوجبت احتراق دار زيد أو دار عمرو ، فنقول معاذ الله أن نقول بأن الله غير مختار فى أفعاله أو يقع شىء لا باختياره ، ولكن أهل السنة يقولون أجرى الله عادة بكذا أى وله أن يخلق النار بحيث عند حاجة إنضاج اللحم تنضج وعند مساس ثوب العجوز لا تحرق ، ألا ترى أنها لم تحرق إبراهيم عليه السلام مع قوتها وكثرتها لكن خلقها على غير ذلك الوجه بمحض إرادته أو الحكمة خفية ولا يسأل عما يفعل ، فنقول ما كان فى مجرى عادة تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء ، وما يكون على وجه يقع لعقل قاصر أن يقول لم كان ولماذا لم يكن على خلافه نقول بقدر ، ثم بين الذين خلوا بقوله :

(الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً)

يعنى كانوا هم أيضاً مثلك رسلاً ، ثم ذكره بحالهم أنهم جردوا الخشية ووجدوها بقوله (ولا يخشون أحداً إلا الله) فصار كقوله (فهداهم اقتده) وقوله (وكفى بالله حسيباً) أى محاسباً

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤٠﴾

فلا تخش غيره أو محسوباً فلا تلتفت إلى غيره ولا تجعله في حسابك .

ثم قال تعالى ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ .

لما بين الله ما في تزوج النبي عليه السلام بزینب من الفوائد بين أنه كان خالياً من وجوه المفسد ، وذلك لأن ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصراً في التزوج بزوجة الابن فانه غير جائز فقال الله تعالى إن زیداً لم يكن ابناً له لا بل أحد الرجال لم يكن ابن محمد ، فان قائل النبي كان أباً أحد من الرجال لأن الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى (وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً) والصبي داخل فيه ، فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الرجل في الاستعمال يدخل في مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبي عليه السلام ابن كبير يقال إنه رجل (والثاني) هو أنه تعالى قال (من رجالكم) ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر ، ثم إنه تعالى لما نفى كونه أباً عقبه بما يدل على ثبوت ما هو في حكم الأبوة من بعض الوجوه فقال (ولكن رسول الله) فان رسول الله كالأب للأمة في الشفقة من جانبه ، وفي التعظيم من طرفهم بل أقوى فإن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، والأب ليس كذلك ، ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله (وخاتم النبيين) وذلك لأن النبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئاً من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده ، وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدي ، إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد وقوله (وكان الله بكل شيء عليماً) يعني علمه بكل شيء دخل فيه أن لا نبي بعده فعلم أن من الحكمة إكمال شرع محمد صلى الله عليه وسلم بتزوجه بزوجة دعيه تكميلاً للشرع وذلك من حيث إن قول النبي صلى الله عليه وسلم يفيد شرعاً ولكن إذا امتنع هو عنه يبقى في بعض النفوس نفرة ، ألا ترى أنه ذكر بقوله ما فهم منه حل أكل الضب ثم لما لم يأكله بقي في النفوس شيء ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع أنه في بعض الملل لا يؤكل وكذلك الأرنب .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن السورة أصلها ومبناها على تأديب النبي ﷺ وقد ذكرنا أن الله تعالى بدأ بذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع أهله وأقاربه بقوله (يا أيها النبي قل لأزواجك) والله تعالى يأمر

وَسَبِّحُوهُ بِكْرَةٍ وَأَصِيلاً «٤٢» هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً «٤٣» تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ

عبادة المؤمنين بما يأمر به أنبياء المرسلين فأرشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) كما قال لنبيه (يا أيها النبي اتق الله) . (ثم هنا لطيفة) وهي أن المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر ، أما النبي لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال (اتق الله) فان المخلص على خطر عظيم وحسنة الأولياء سيئة الأنبياء وقوله (ذكراً كثيراً) قد ذكرنا أن الله في كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة إذ لا مانع من الذكر على ما بينا .

وقوله تعالى (وسبحوه بكرة وأصيلاً) أي إذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتزويه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل للصلاة تسبيحه بكرة وأصيلاً إشارة إلى المداومة وذلك لأن مرید العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام « لو أن أولكم وآخركم » ولم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة في العموم .

ثم قال تعالى (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً) يعني هو يصلي عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريماً للمؤمنين على الذكر والتسبيح (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) يعني يهديكم برحمته والصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار فقول بأن اللفظ المشترك يجوز استعماله في معنيه معاً وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول إلى الشافعي رضي الله عنه وهو غير بعيد فإن أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العناية جزءاً منهما وكان بالمؤمنين رحيماً بشاراً لجميع المؤمنين وإشارة إلى أن قوله (يصلي عليكم) غير مختص بالسامعين وقت الوحي .

ثم قال تعالى (تحييتهم يوم يلقونه سلام) لما بين الله عنايته في الأولى بين عنايته في الآخرة وذكر السلام لأنه هو الدليل على الخيرات فان من لقي غيره وسلم عليه دل على المصافاة بينهما وإن لم يسلم دل على المنافاة وقوله (يوم يلقونه) أي يوم القيامة وذلك لأن الإنسان في دنياه غير مقبل بكليته على الله وكيف وهو حالة نومه غافل عنه وفي أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه ، وأما في الآخرة فلا شغل لأحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء .

وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾

ثم قال تعالى ﴿ وأعد لهم أجراً كريماً ﴾ لو قائل قائل الإعداد إنما يكون من لا يقدر عند الحاجة إلى الشيء عليه ، وأما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فحيث يلقاه الله يؤتیه ما يرضى به وزيادة فما معنى الإعداد من قبل فنقول الإعداد للا كرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك إذا قيل له فلان واصل ، فاذا أراد إكرامه يهيئ له بيتاً وأنواعاً من الإكرام ولا يقول بأنه إذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتیه ما يرضيه فكذلك الله لكامل الإكرام أعد للذا كراماً كريماً والكرام قد ذكرناه في الرزق أى أعدله أجراً يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فإنه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه إلا بقدر . وقوله (تحييتهم يوم يلقونه سلام) مناسب لحالهم لأنهم لما ذكروا الله في دنياهم حصل لهم معرفة ولما سبحوه تأكدت المعرفة حيث عرفوه كما ينبغى بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم في الدنيا فأحسن إليهم بالرحمة ، كما قال تعالى (هو الذى يصلى عليكم) وقال (وكان بالمومنين رحيماً) والمتعارفان إذا التقيا وكان أحدهما شقيقاً بالآخر والآخر معظماً له غاية التعظيم لا يتحقق بينهما إلا السلام وأنواع الإكرام .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبي عليه السلام من ربه فقوله في ابتدائها (يا أيها النبي اتق الله) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع ربه وقوله (يا أيها النبي قل لأزواجك) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وقوله (يا أيها النبي إنا أرسلناك) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع عامة الخلق وقوله تعالى (شاهداً) يحتمل وجوهاً (أحدها) أنه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً) وعلى هذا فالنبي بعث شاهداً أى متحملاً للشهادة ويكون في الآخرة شهيداً أى مؤدياً لما تحمله (ثانيها) أنه شاهد أن لا إله إلا الله ، (وعلى هذا لطيفة) وهو أن الله جعل النبي شاهداً على الوجدانية والشاهد لا يكون مدعياً فالله تعالى لم يجعل النبي في مسألة الوجدانية مدعياً لها لأن المدعى من يقول شيئاً على خلاف الظاهر والوجدانية أظهر من الشمس والنبي عليه السلام كان ادعى النبوة فجعل الله نفسه شاهداً له في مجازاة كونه شاهداً لله فقال تعالى (والله يشهد أنك لرسوله) (وثالثها) أنه شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراف وشاهد في الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد وقوله (ومبشراً ونذيراً وداعياً) فيه ترتيب حسن وذلك من حيث إن النبي عليه السلام أرسل شاهداً بقول لا إله إلا الله ويرغب في ذلك بالبشارة فإن لم يكف

ذلك يرهب بالإندار ثم لا يكتفى بقولهم لا إله إلا الله بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك) وقوله (وسراجاً منيراً) أى مبرهنناً على ما يقول مظهراً له بأوضح الحجج وهو المراد بقوله تعالى (بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وفيه لطائف (إحداهما) قوله تعالى (وداعياً إلى الله باذنه) حيث لم يقل وشاهداً باذنه ومبشراً وعند الدعاء قال وداعياً باذنه ، وذلك لأن من يقول عن ملك إنه ملك الدنيا لا غيره لا يحتاج فيه إلى إذن منه فإنه وصفه بما فيه وكذلك إذا قال من يطيعه يسعد ومن يعصه يشقى يكون مبشراً ونذيراً ولا يحتاج إلى إذن من الملك في ذلك ، وأما إذا قال تعالوا إلى سباطه ، واحضروا على خوانه يحتاج فيه إلى إذنه فقال تعالى (وداعياً إلى الله باذنه) ووجه آخر وهو أن النبي يقول إني أدعو إلى الله والولي يدعو إلى الله ، والأول لا إذن له فيه من أحد ، والثاني مأذون من جهة النبي عليه السلام كما قال تعالى (قل هذه سبيلي أدعوا إلى على بصيرة أنا ومن اتبعني) وقال عليه الصلاة والسلام « رحم الله عبداً سمع مقالتي فادأها كما سمعها » والنبي عليه السلام هو المأذون من الله في الدعاء إليه من غير واسطة .

(اللطيفة الثانية) قال في حق النبي عليه السلام سراجاً ولم يقل إنه شمس مع أنه أشد إضاءة من السراج لفوائدها ، أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شيء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فإذا انطفأ الأول يبقى الذي أخذ منه ، وكذلك إن غاب والنبي عليه السلام كان كذلك إذ كل صحابي أخذ منه نور الهداية كما قال عليه السلام « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وفي الخبر لطيفة وإن كانت ليست من التفسير ولكن الكلام يجر الكلام وهي أن النبي عليه السلام لم يجعل أصحابه كالسراج وجعلهم كالنجوم لأن النجم لا يؤخذ منه نور بل له في نفسه نور إذا غرب هو لا يبقى نور مستفاد منه ، وكذلك الصحابي إذا مات فالتابعي يستنير بنور النبي عليه السلام ولا يأخذ منه إلا قول النبي عليه السلام وفعله ، فأنوار المجتهدين كلهم من النبي عليه السلام ولو جعلهم كالسراج والنبي عليه السلام أيضاً سراج كان للمجتهد أن يستنير بمن أراد منهم ويأخذ النور بمن اختار ، وليس كذلك فإن مع نص النبي عليه السلام لا يعمل بقول الصحابي فيؤخذ من النبي النور ولا يؤخذ من الصحابي فلم يجعله سراجاً وهذا يوجب ضعفاً في حديث سراج الأمة والمحدثون ذكروه وفي تفسير السراج وجه آخر وهو أن المراد منه القرآن وتقديره إنا أرسلناك ، وسراجاً منيراً عطفاً على محل الكاف أى وأرسلنا سراجاً منيراً وعلى قولنا إنه عطف على مبشراً ونذيراً يكون معناه وإذا سراج لأن الحال لا يكون إلا وصفاً للفاعل أو المفعول ، والسراج ليس وصفاً لأن النبي عليه السلام لم يكن سراجاً حقيقة أو يكون كقول القائل رأيت أسداً أى شجاعاً فقوله سراجاً أى هادياً مبيناً كالسراج يرى الطريق ويبين الأمر .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً «٤٧» وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْيَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً «٤٨» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ
عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سِرَّاحاً جَمِیلاً «٤٩»

وقوله تعالى ﴿وبشر المؤمنين﴾ عطف على مفهوم تقديره إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً فاشهد
وبشر ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه، وأما البشارة فإنها ذكرت إبانة للكرم ولأنها غير واجبة
لولا الأمر. وقوله تعالى ﴿بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ هو مثل قوله (وأعد لهم أجراً عظيماً)
فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من الله كبير فكيف إذا كان مع ذلك كبارة أخرى.
وقوله تعالى ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾
إشارة إلى الإنذار يعنى خالفهم وورد عليهم وعلى هذا فقوله تعالى (ودع أذاهم) أى دعه
إلى الله فإنه يعذبهم بأيديكم وبالنار، ويبين هذا قوله تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً)
أى الله كاف عبده، قال بعض المعتزلة لا يجوز تسمية الله بالوكيل لأن الوكيل أدون من الموكل
وقوله تعالى (وكفى بالله وكيلاً) حجة عليه وشبهته واهية من حيث إن الوكيل قد يوكل للترفع
وقد يوكل للعجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف، وقوله تعالى (وكفى بالله وكيلاً)
يتبين إذا نظرت فى الأمور التى لأجلها لا يكفى الوكيل الواحد منها أن لا يكون قوياً قادراً على
العمل كالمملك الكثير الأشغال يحتاج إلى وكلاء لعجز الواحد عن القيام بجميع أشغاله، ومنها أن
لا يكون عالماً بما فيه التوكيل، ومنها أن لا يكون غنياً، والله تعالى عالم قادر وغير محتاج
فيكفى وكيلاً.

ثم قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن
فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾.

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى فى هذه السورة ذكر مكارم الأخلاق وأدب نبيه
على ما ذكرناه، لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل فكلمنا ذكر للنبي مكرمة
وعليه أدباً ذكر للمؤمنين ما يناسبه، فكما بدأ الله فى تأديب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر ما يتعلق
بجانب الله بقوله (يا أيها النبي اتق الله) وثى بما يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد
(يا أيها النبي قل لأزواجك) وثالث بما يتعلق بجانب العامة بقوله (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي أَتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ
مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ

كذلك بدأ في إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات) ثم كما ثلث في تأديب النبي بجانب الأمة ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم ، فقال بعد هذا (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) وبقوله (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) وفي الآية مسائل :

(إحداهما) إذا كان الأمر على ما ذكرت من أن هذا إرشاد إلى ما يتعلق بجانب من هو من خواص المرء فلم خص المطلقات اللاتي طلقن قبل المسيس بالذكر ؟ فنقول هذا إرشاد إلى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها مادونها وبيانه هو أن المرأة إذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد ، ولهذا قال الله تعالى في حق المسوسة (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) وإذا أمر الله بالتمتع والإحسان مع من لا مودة بينه وبينها فما ظنك بمن حصلت المودة بالنسبة إليها بالإفشاء أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما والقرآن في الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لاتفى بها الأقلام ولا تكفى لها الأوراق ، وهذا مثل قوله تعالى (فلا تقل لها أف) لو قال لا تضربها أو لا تشتمها ظن أنه حرام لمعنى مختص بالضرب أو الشتم ، أما إذا قال لا تقل لها أف علم منه معان كثيرة وكذلك ههنا لما أمر بالإحسان مع من لا مودة معها علم منه الإحسان مع المسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه .

وقوله (إذا نكحتم المؤمنات) التخصيص بالذكر إرشاد إلى أن المؤمن ينبغي أن ينكح المؤمنة فانها أشد تحصيماً لدينه ، وقوله (ثم طلقتموهن) يمكن التمسك به في أن تعليق الطلاق بالنكاح ، لا يصح لأن التطلق حينئذ لا يكون إلا بعد النكاح والله تعالى ذكره بكلمة ثم ، وهي للتراخي وقوله (فما لكم عليهن من عدة) بين أن العدة حق الزوج فيها غالب وإن كان لا يسقط باسقاطه لما فيه من حق الله تعالى ، وقوله (تعتدونها) أي تستوفون أتم عددها (فتعوهن) قيل بأنه مختص بالمفوضة التي لم يسم لها إذا طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة ، وقيل بأنه عام وعلى هذا فهو أمر وجوب أو أمر ندب اختلف العلماء فيه ، فمنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة أيضاً ، ومنهم من قال للاستحباب فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشيء ، وقوله تعالى (وسرحوهن سراحاً جميلاً) الجمال في التسريح أن لا يطالبها بما آتاها .

ثم قال تعالى (يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك

الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

بما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرت معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً .

ذكر للنبي عليه السلام ما هو الأولى فإن الزوجة التي أوتيت مهرها أطيب قلباً من التي لم توت ، والمملوكة التي سبها الرجل بنفسه أظهر من التي اشتراها الرجل لأنها لا يدري كيف حالها ، ومن هاجرت من أقارب النبي عليه السلام معه أشرف ممن لم تهاجر ، ومن الناس من قال بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه إعطاء المهر أولاً ، وذلك لأن المرأة لها الامتناع إلى أن تأخذ مهرها والنبي عليه السلام ما كان يستوفي ما لا يجب له ، والوطء قبل إتياء الصداق غير مستحق وإن كان كان حلالاً لنا وكيف والنبي عليه السلام إذا طلب شيئاً حرم الامتناع عن المطلوب والظاهر أن الطالب في المرة الأولى ، إنما يكون هو الرجل لحياء المرأة فلو طلب النبي عليه السلام من المرأة التمكن قبل المهر للزم أن يجب وأن لا يجب وهذا محال ولا كذلك أحدنا ، وقال ويؤكد هذا قوله تعالى (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي) يعني حينئذ لا يبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها ، وقوله تعالى (إن أراد النبي أن يستنكحها) إشارة إلى أن هبتها نفسها لا بد معها من قبول وقوله تعالى (خالصة لك من دون المؤمنين) قال الشافعي رضي الله عنه معناه إباحة الوطء بالهبة وحصول الزوج بلفظها من خواصك ، وقال أبو حنيفة تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبداً ، والترجيح يمكن أن يقال بأن على هذا فالتخصيص بالواهبية لا فائدة فيه فإن أزواجه كلهن خالصات له وعلى ما ذكرنا يتبين للتخصيص فائدة وقوله (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم) معناه أن ما ذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك وأما حكم أمتك فعندنا علمه ونبيته لهم وإنما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام فإن له في النكاح خصائص ليست لغيره وكذلك في السراري ، وقوله تعالى (لكيلا يكون عليك حرج) أي تكون في فسحة من الأمر فلا يبقى لك شغل قلب فينزل الروح الأمين بالآيات على قلبك الفارغ وتبلغ رسالات ربك بحمدك واجتهادك ، وقوله

تُرْجَى مِنْ تَشَاءَ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءَ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِنْ عَزَلْتَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ
كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾
لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَجَبَكَ حَسَنًا
إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾

تعالى (وكان الله غفواً رحيماً) يغفر الذنوب جميعاً ويرحم العبيد .

ثم قال تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهم وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ .

لما بين أنه أحل له ما ذكرنا من الأزواج بين أنه أحل له وجوه المعاشرة بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم ، وذلك لأن النبي عليه السلام بالنسبة إلى أمته نسبة السيد المطاع والرجل وإن لم يك نبياً فالزوجة في ملك نكاحه والنكاح عليها رق ، فكيف زوجات النبي عليه السلام بالنسبة إليه ، فإذا هن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات ، والإرجاء التأخير والإيواء الضم (ومن ابتغيت ممن عزلت) يعني إذا طلبت من كنت تركتها فلا جناح عليك في شيء من ذلك ومن قال بأن القسم كان واجباً مع أنه ضعيف بالنسبة إلى المفهوم من الآية قال المراد (ترجى من تشاء) أى تؤخرهن إذا شئت إذ لا يجب القسم فى الأول وللزوج أن لا ينام عند أحد منهم ، وإن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فابدأ بمن شئت وتمم الدور والأول أقوى .

ثم قال تعالى ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ .

يعنى إذا لم يجب عليك القسم وأنت لا تترك القسم (تقر أعينهن) لتسويتك بينهن ولا يحزن بخلاف ما لو وجب عليك ذلك ، فليلة تكون عند إحداهن تقول ما جاءنى لهوى قلبه إنما جاءنى لأمر الله وإيجابه عليه (ويرضين بما آتيتهن) من الإرجاء والإيواء إذ ليس لهن عليك شيء حتى لا يرضين .

ثم قال تعالى ﴿ والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليماً حليماً ﴾ .

أى إن أضمرن خلاف ما أظهرن فالله يعلم ضمائر القلوب فإنه عليم ، فإن لم يعاتبهن فى الحال فلا يغتررن فإنه حليم لا يعجل .

ثم قال تعالى ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن

إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً ﴿ .

لما لم يوجب الله على نبيه القسم وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله ذكرهن ما جازاهن به من تحريم غيرهن على النبي عليه السلام ومنعه من طلاقهن بقوله (ولا أن تبدل بهن) وفيه مسائل :
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (لا يحل لك النساء من بعد) قال المفسرون من بعدهن والأولى أن يقال لا يحل لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما يؤتیهن من الوصل والهجران والنقص والحرمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ولا أن تبدل بهن) يفيد حرمة طلاقهن إذ لو كان جائزاً لجاز أن يطلق الكل ، وبعدهن إما أن يتزوج بغيرهن أولاً يتزوج فإن لم يتزوج يدخل في زمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبي ، وكيف وهو يقول «النكاح سنتي» وإن تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ من المفسرين من قال بأن الآية ليس فيها تحريم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى أن لا يحل لك النساء غير اللاتي ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ، وأما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن وقوله (ولا أن تبدل بهن) منع من شغل الجاهلية فإنهم كانوا يبادلون زوجة بزوجة فينزل أحدهم عن زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته ، وعلى التفسيرين وقع خلاف في مسألتين (إحداهما) حرمة طلاق زوجاته (والثانية) حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الأول حرم الطلاق ومن فسر على الثاني حرم التزوج بالكتابيات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ولو أعجبك حسنهن) أي حسن النساء قال الزمخشري قوله (ولو أعجبك) في معنى الحال ، ولا يجوز أن يكون ذو الحال قوله (من أزواج) لغاية التنكير فيه ولكون ذي الحال لا يحسن أن يكون نكرة فإذن هو النبي عليه السلام ، يعني لا يحل لك النساء ولا أن تبدل بهن من أزواج وأنت معجب بحسنهن .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ظاهر هذا ناسخ لما كان قد ثبت له عليه السلام من أنه إذا رأى واحدة فوَقعت في قلبه موقعاً كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها ، وهذه المسألة حكمية وهي أن النبي عليه السلام وسائر الأنبياء في أول النبوة تشدد عليهم برحاء الوحي ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع أصحابهم لا يمنعهم من ذلك مانع ، ففي أول الأمر أحل الله من وقع في قلبه تفريراً لقلبه وتوسيعاً لصدره لئلا يكون مشغول القلب بغير الله ، ثم لما استأنس بالوحي وبمن على لسانه الوحي نسخ ذلك ، إما لقوته عليه السلام للجمع بين الأمرين ، وإما أنه بدوام الانزال لم يبق له مألوف من أمور الدنيا ، فلم يبق له التفات إلى غير الله ، فلم يبق له حاجة إلى إحلال التزوج بمن وقع بصره عليها .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ
 نَاطِرِينَ إِنِّيهِ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ
 لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ
 وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ
 وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُوجَهُ مِنْ

(المسألة السادسة) اختلف العلماء في أن تحريم النساء عليه هل نسخ أم لا؟ فقال الشافعي
 نسخ وقد قالت عائشة ما مات النبي إلا وأحل له النساء، وعلى هذا فالناسخ قوله (يا أيها النبي إنا
 أحللتنا لك أزواجك) إلى أن قال (وبنات عمك) وقال (وامرأة مؤمنة) على قول من يقول
 لا يجوز نسخ الكتاب بخبر الواحد إذ الناسخ غير متواتر إن كان خبراً.
 ثم قال تعالى (إلا ما ملكت يمينك) لم يحرم عليه المملوكات لأن الإيذاء لا يحصل بالمملوكة،
 ولهذا لم يحز للرجل أن يجمع بين ضرتين في بيت للحصول التسوية بينهما وإمكان الخصوصية، ويجوز
 أن يجمع الزوجة وجمعاً من المملوكات لعدم التساوي بينهما ولهذا لا قسم لهن على أحد.
 ثم قال تعالى (وكان الله على كل شيء رقيباً) أي حافظاً عالماً بكل شيء قادراً عليه، لأن الحفظ
 لا يحصل إلا بهما.

ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير
 ناظرين إناه)

لما ذكر الله تعالى في النداء الثالث (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً) بياناً لحاله مع أمته العامة
 قال للمؤمنين في هذا النداء لا تدخلوا إرشاداً لهم وبياناً لحالهم مع النبي عليه السلام من الاحترام
 ثم إن حال الأمة مع النبي على وجهين (أحدهما) في حال الخلوة والواجب هناك عدم إزعاجه
 وبين ذلك بقوله (لا تدخلوا بيوت النبي) (وثانيهما) في الملاء والواجب هناك إظهار التعظيم كما
 قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) وقوله (إلى طعام غير ناظرين إناه) أي
 لا تدخلوا بيوت النبي إلى طعام إلا أن يؤذن لكم.

ثم قال تعالى (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا أطعتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن
 ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من

بَعْدَهُ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهم وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴿٥٣﴾
لما بين من حال النبي أنه داع إلى الله بقوله (وداعياً إلى الله) قال ههنا لا تدخلوا إلا إذا دعيتم يعني كما أنكم ما دخلتم الدين إلا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه إلا بعد دعائه وقوله (غير ناظرين) منصوب على الحال . والعامل فيه على ما قاله الزمخشري لا تدخلوا قال وتقديره لا تدخلوا بيوت النبي إلا مأذونين غير ناظرين ، وفي الآية مسائل :

(الأولى) قوله (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام) إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم ، فلا يكون منعاً من الدخول في غير وقت الطعام بغير الإذن ، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى الطعام فإن لم يؤذن لكم إلى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لآكل طعام لا يجوز ، نقول المراد هو الثاني ليعم النهي عن الدخول ، وأما قوله فلا يجوز إلا بالإذن الذي إلى طعام ، نقول : قال الزمخشري الخطاب مع قوم كانوا يجيئون حين الطعام ويدخلون من غير إذن فمنعوا من الدخول في وقته بغير إذن ، والأولى أن يقال المراد هو الثاني لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل وقوله (إلى طعام) من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ما عداه ، لا سيما إذا علم أن غيره مثله فان من جاز دخوله بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله إلى غير طعامه بإذنه ، فان غير الطعام يمكن وجوده مع الطعام ، فان من الجائز أن يتكلم معه وقتما يدعوه إلى طعام ويستقصيه في حوائجه ويعلمه بما عنده من العلوم مع زيادة الإطعام ، فاذا رضى بالكل فرضاه بالبعض أقرب إلى الفعل فيصير من باب (ولا تقل لها أف) وقوله (غير ناظرين) يعني أنتم لا تنتظروا وقت الطعام فانه ربما لا يتهاون .

(المسألة الثانية) قوله تعالى (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) فيه لطيفة وهي أن في العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن لا تدخلها إلا بإذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلاً لا بالدعاء ولا بالدعاء ، فقال لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم لا تدخلوا لا تدخلوا وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا ، وإنه قيل وقته وقيل استواؤه وقوله (إلا أن يؤذن) يفيد الجواز وقوله (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) يفيد الوجوب فقوله (ولكن إذا دعيتم) ليس تأكيداً بل هو يفيد فائدة جديدة .

(المسألة الثالثة) لا يشترط في الإذن التصريح به ، بل إذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال (إلا أن يؤذن) من غير بيان فاعل ، فالإذن إن كان الله أو النبي أو العقل المؤيد بالدليل

إِنْ تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ يُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا «٥٤»

جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى (أو صديقكم) وحدث الصداقة لما ذكرنا ، فلو جاء أبو بكر وعلم أن لا مانع في بيت عائشة من بيوت النبي عليه السلام من تكشف أو حضور غير محرم عندها أو علم خلو الدار من الأهل أو هي محتاجة إلى إطفاء حريق فيها أو غير ذلك ، جاز الدخول .

(المسألة الرابعة) قوله (فإذا طعمتم فانتشروا) كأن بعض الصحابة أطال المكث يوم وليلة النبي عليه السلام في عرس زينب ، والنبي عليه السلام لم يقل له شيئاً ، فوردت الآية جامعة لآداب ، منها المنع من إطالة المكث في بيوت الناس ، وفي معنى البيت موضع مباح اختاره شخص لعبادته أو اشتغاله بشغل فيأتيه أحد ويطيل المكث عنده ، وقوله (ولا مستأنسين لحديث) قال الزمخشري هو عطف على (غير ناظرين) مجرور ، ويحتمل أن يكون منصوباً عطفاً على المعنى ، فإن معنى قوله تعالى (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) لا تدخلوها هاجمين ، فعطف عليه (ولا مستأنسين) ثم إن الله تعالى بين كون ذلك أدباً وكون النبي حليماً بقوله (إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق) إشارة إلى أن ذلك حق وأدب ، وقوله كان إشارة إلى تحمل النبي عليه السلام ، ثم ذكر الله أدباً آخر وهو قوله (وإذا سألتهم من متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) لما منع الله الناس من دخول بيوت النبي عليه السلام ، وكان في ذلك تعذر الوصول إلى الماعون ، بين أن ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب ، وقوله (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) يعنى العين روضة القلب ، فإذا لم تر العين لا يشتهي القلب . أما إن رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي ، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر ، وعدم الفتنة حينئذ أظهر ، ثم إن الله تعالى لما علم المؤمنين الأدب أكد بما يحملهم على محافظته ، فقال (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه ، وقوله تعالى (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) قيل سبب نزوله أن بعض الناس قيل هو طلحة بن عبيد الله ، قال ابن عشت بعد محمد لأنكحن عائشة ، وقد ذكرنا أن اللفظ العام لا يغير معناه سبب النزول ، فإن المراد أن إيذاء الرسول حرام ، والتعرض لنسائه في حياته إيذاء فلا يجوز ، ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقاً . ثم أكد بقوله (إن ذلكم كان عند الله عظيماً) أى إيذاء الرسول

ثم قال تعالى (إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً) .

يعنى إن كنتم لا تؤذونه في الحال وتعزمون على إيذائه أو نكاح أزواجه بعده ، فالله عليم بذات الصدور .

لَا جُنَاحَ عَلَيَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ
وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ

ثم إن الله تعالى لما أنزل الحجاب استثني المحارم بقوله (لا جناح عليهن في آباتهن ولا أبناهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخواتهن ولا نساءهن ولا ما ملكت أيمانهن) وفي الآية مسائل :

(الأولى) في الحجاب أوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال . فلم لم يستثن الرجال عن الجناح ، ولم يقل لا جناح على آباتهن ؟ فنقول قوله تعالى (فاسألوهن من وراء حجاب) أمر بسدل الستر عليهن وذلك لا يكون إلا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب وجب عليهن ، ثم أمر الرجال بتركهن كذلك ، ونهوا عن هتك أستارهن فاستثنين عند الآباء والأبناء (وفيه لطيفة) وهي أن عند الحجاب أمر الله الرجل بالسؤال من وراء حجاب ، ويفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الأولى ، وعند الاستثناء قال تعالى (لا جناح عليهن) عند رفع الحجاب عنهن ، فالرجال أولى بذلك .

(المسألة الثانية) قدم الآباء لأن اطلاعهم على بناتهن أكثر ، وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات في حال صغرهن ، ثم الأبناء ثم الإخوة وذلك ظاهر . إنما الكلام في بنى الإخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الأخوات ، لأن بنى الأخوات آباؤهم ليسوا بمحارم إنما هم أزواج خالات آبائهم ، وبنى الأخوة آباؤهم محارم أيضاً ، ففي بنى الأخوات مفسدة ما وهي أن الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الإخوة .

(المسألة الثالثة) لم يذكر الله من المحارم الأعمام والأخوال ، فلم يقل ولا أعمامهن ولا أخوالهن لوجهين (أحدهما) أن ذلك علم من بنى الإخوة وبنى الأخوات ، لأن من علم أن بنى الأخ لأخ للعمات محارم علم أن بنات الأخ للأعمام محارم ، وكذلك الحال في أمر الخال (ثانيهما) أن الأعمام ربما يذكرون بنات الأخ عند آبائهم وهم غير محارم ، وكذلك الحال في ابن الخال .

(المسألة الرابعة) (ولا نساءهن) مضافة إلى المؤمنات حتى لا يجوز التكشف للكافرات في وجهه .

(المسألة الخامسة) (ولا ما ملكت أيمانهن) هذا بعد الكل ، فإن المفسدة في التكشف لهم ظاهرة ، ومن الأئمة من قال المراد من كان دون البلوغ .

وَاتَّقِنِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا «٥٥» إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ
عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا «٥٦»

ثم قوله تعالى ﴿ واتقن الله ﴾ عند الممالك دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور . وقوله ﴿ إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾ في غاية الحسن في هذا الموضع ، وذلك لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فقال إن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض ، فخلوتكم مثل ملتكم بشهادة الله تعالى فاتقوا .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نساءه احتراماً أكمل بيان حرمة ، وذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين حالة خلوته ، وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله (لا تدخلوا بيوت النبي) وحالة يكون في ملائكة . والملائكة إما الملائ الأعلى ، وإما الملائ الأدنى ، أما في الملائ الأعلى فهو محترم ، فإن الله وملائكته يصلون عليه . وأما في الملائ الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الصلاة الدعاء يقال في اللغة صلى عليه ، أى دعاه ، وهذا المعنى غير معقول في حق الله تعالى فإنه لا يدعو له ، لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث . فقال الشافعي رضى الله عنه استعمل اللفظ بمعان ، وقد تقدم في تفسير قوله (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) والذى نزيده ههنا هو أن الله تعالى قال هناك (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) جعل الصلاة لله وعطف الملائكة على الله ، وههنا جمع نفسه وملائكته وأسند الصلاة إليهم فقال (يصلون) وفيه تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا لأن أفراد الواحد بالذكر وعطف الغير عليه يوجب تفضيلاً للمذكور على المعطوف ، كما أن الملك إذا قال يدخل فلان وفلان أيضاً يفهم منه تقديم لا يفهم لو قال فلان وفلان يدخل فلان ، إذا علمت هذا ، فقال في حق النبي عليه السلام إنهم يصلون إشارة إلى أنه في الصلاة على النبي عليه السلام كالأصل وفي الصلاة على المؤمنين الله يرحمهم ، ثم إن الملائكة يوافقونه فهم في الصلاة على النبي عليه السلام يصلون بالإضافة كأنها واجبة عليهم أو مندوبة سواء صلى الله عليه أو لم يصل وفي المؤمنين ليس كذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذا دليل على مذهب الشافعي لأن الأمر للوجوب فتجب الصلاة على النبي عليه السلام ولا تجب في غير التشهد فتجب في التشهد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ سئل النبي عليه السلام كيف نصلى عليك يا رسول الله ؟ فقال « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ

عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾

كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

(المسألة الرابعة) إذا صلى الله وملائكته عليه فأى حاجة إلى صلاتنا؟ نقول الصلاة عليه ليس لحاجته إليها وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه ، كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له إليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه منا شفقة علينا ليثينا عليه ، ولهذا قال عليه السلام « من صلى على مرة صلى الله عليه عشرأ »

(المسألة الخامسة) لم يترك الله النبي عليه السلام تحت منة أمته بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الأمة حيث قال (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) وقوله (وسلووا سليمان) أمر فيجب ولم يجب في غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا السلام عليك أيها النبي في التشهد وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد ليكمل السلام عليه ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد لأنها كانت مؤكدة بقوله (إن الله وملائكته يصلون على النبي) .

ثم قال تعالى ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾ فصل الأشياء بتبيين بعض أضرارها ، فبين حال مؤذى النبي ليبين فضيلة المسلم عليه واللعن أشد المحذورات لأن البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره . ألا ترى أن الملك إذا تغير على مملوك إن كان تأذيه غير قوى يزجره ولا يطرده ولو خير المجرم [بين] أن يضرب أو يطرد عندما يكون الملك في غاية العظمة والكرم يختار الضرب على الطرد ، ولا سيما إذا لم يكن في الدنيا ملك غير سيده ، وقوله (في الدنيا والآخرة) إشارة إلى بعد لارجاء للقرب معه ، لأن المبعد في الدنيا يرجو القربة في الآخرة ، فاذا أبعد في الآخرة فقد خاب وخسر ، لأن الله إذا أبعد وطرده فمن الذى يقربه يوم القيامة ، ثم إنه تعالى لم يحصر جزاءه في الإبعاد بل أوعده بالعذاب بقوله (وأعد لهم عذاباً مهيناً) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) ذكر إيذاء الله وإيذاء الرسول وذكر عقبيه أمرين اللعن والتعذيب فاللعن جزاء الله ، لأن من آذى الملك يبغضه عن بابه إذا كان لا يأمر بعذابه ، والتعذيب جزاء إيذاء الرسول لأن الملك إذا آذى بعض عبده كبير يستوفى منه قصاصه ، لا يقال فعلى هذا من يؤذى الله ولا يؤذى الرسول لا يعذب ، لانا نقول انفكك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال لأن من آذى الله فقد آذى الرسول ، وأما على الوجه الآخر وهو أن من يؤذى النبي عليه السلام ولا يؤذى الله كمن عصى من غير إشراك ، كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر ، فقد آذى النبي عليه السلام غير أن الله

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا

بِهَتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلغنه بكونه يبعده عن الباب .
 (المسألة الثانية) أكد العذاب بكونه مهيناً لأن من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضربه فان أمر بحبسه في موضع عيز ، أو أمر بضربه رجلاً كبيراً يدل على أن الأمر هين ، وإن أمر بضربه على ملاء وحبسه بين المفسدين ينبيء عن شدة الأمر ، فمن آذى الله ورسوله من المخلدن في النار فيعذب عذاباً مهيناً ، وقوله (أعد لهم) للتأكيد لأن السيد إذا عذب عبده حالة الغضب من غير إعداد يكون دون ما إذا أعد له قيداً وغلاً ، فان الأول يمكن أن يقال هذا أثر الغضب فإذا سكت الغضب يزول ولا كذلك الثاني .

ثم قال تعالى ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ .

لما كان الله تعالى مصلياً على نبيه لم ينفك إيذاء الله عن إيذائه ، فان من آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين أنكم إن أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبي كما صليت عليه ، لا ينفك إيذاؤكم عن إيذاء الرسول فيأثم من يؤذيكم لكون إيذائكم إيذاء الرسول ، كما أن إيذائي إيذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله وللملائكة والرسول والمؤمنين صار لا يكاد ينفك إيذاء أحد منهم عن إيذاء الآخر كما يكون حال الأصدقاء الصادقين في الصداقة ، وقوله (بغير ما اكتسبوا) احتراز عن الأمر بالمعروف من غير عنف زائد ، فان من جلد مائة على شرب الخمر أو حد أربعين على لعب النرد آذى بغير ما اكتسب أيضاً ، ومن جلد على الزنا أو حد الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب ، ويمكن أن يقال لم يؤذ أصلاً لأن ذلك إصلاح حال المضروب ، وقوله (فقد احتملوا بهتاناً) البهتان هو الزور وهو لا يكون إلا في القول والإيذاء ، قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمناً بالضرب أو أخذ ماله لا يكون قد احتمل بهتاناً ، فنقول : المراد والذين يؤذون المؤمنين بالقول . وهذا لأن الله تعالى أراد إظهار شرف المؤمن ، فلما ذكر أن من آذى الله ورسوله لعن ، وإيذاء الله بأن ينكر وجود الله بعد معرفة دلائل وجوده أو يشرك به من لا يبصر ولا يسمع أو من لا يقدر ولا يعلم أو من هو محتاج في وجوده إلى موجد وهو قول ذكر إيذاء المؤمن بالقول ، وعلى هذا خص الأنبياء بالقول بالذكر لأنه أعم وأتم ، وذلك لأن الإنسان لا يقدر أن يؤذى الله بما يؤلمه من ضرب أو أخذ ما يحتاج إليه فيؤذيه بالقول ، ولأن الفقير الغائب لا يمكن إيذاؤه بالفعل ، ويمكن إيذاؤه بالقول بأن يقول فيه ما يصل إليه فيتأذى ، والوجه الثاني في

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ
جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لئن لم
يُنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ
ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾

الجواب هو أن نقول قوله بعد ذلك (وإنما مبيناً) مستدرك فكأنه قال احتمال بهتاناً إن كان بالقول
وإنما مبيناً كيفاً كان الإيذاء ، وكيفاً كان فإن الله خص الإيذاء القولي بالذكر لما بينا أنه أعم
ولأنه أعم لأنه يصل إلى القلب ، فإن الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل في القلب
والآذان سبيله .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾
لما ذكر أن من يؤذى المؤمنين يحتمل بهتاناً وكان فيه منع المكلف عن إيذاء المؤمن ، أمر
المؤمن باجتناب المواضيع التي فيها التهم الموجبة للتأذي لئلا يحصل الإيذاء الممنوع منه . ولما
كان الإيذاء القولي مختصاً بالذكر اختص بالذكر ما هو سبب الإيذاء القولي وهو النساء فإن
ذكرهن بالسوء يؤذي الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فإن من ذكر امرأة بالسوء تأذت
وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها ، ومن ذكر رجلاً بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه ، وكان في الجاهلية
تخرج الحرة والأمة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم ، فأمر الله الحرائر بالتجليب .

وقوله ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ قيل يعرفن أنهن حرائر فلا يتبعن ويمكن أن يقال
المراد يعرفن أنهن لا يزين لأن من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة لا يطمع فيها أنها تكشف
عورتها فيعرفن أنهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن . وقوله ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ يغفر لكم
ما قد سلف برحمته ويثيبكم على ما تأتون به راحماً عليكم .

وقوله تعالى ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك
بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾ .
لما ذكر حال المشرك الذي يؤذى الله ورسوله ، والمجاهر الذي يؤذى المؤمنين ، ذكر حال
المسر الذي يظهر الحق ويضمير الباطل وهو المنافق ، ولما كان المذكور من قبل أقواماً ثلاثة
نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة : وهم المؤذون الله ، والمؤذون الرسول ، والمؤذون المؤمنين ، ذكر من
المسرین ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة : (أحدها) المنافق الذي يؤذى الله سرّاً (والثاني) الذي

مَلْعُونِينَ أَيْنَ مَا تُثَقَّفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ
خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ
إِنَّمَا عَلَيْهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

في قلبه مرض الذي يؤذى المؤمن باتباع نسائه (والثالث) المرجف الذي يؤذى النبي عليه السلام بالإرجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ وهو لاء ، وإن كانوا قوماً واحداً إلا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا في مقابلة قوله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) حيث ذكر أصنافاً عشرة وكلهم يوجد في واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار وقوله (لغرينك بهم) أى لنسلطنك عليهم ولنخرجهم من المدينة ، ثم لا يجاوزونك وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج ، ويحتمل أن يكون المراد لغرينك بهم ، فاذا أغريناك لا يجاورونك ، (والأول) كقول القائل يخرج فلان ويقراً إشارة إلى أمرين (والثاني) كقوله يخرج فلان ويدخل السوق في الأول يقراً وإن لم يخرج وفي الثاني لا يدخل إلا إذا خرج . والاستثناء فيه لطيفة وهي أن الله تعالى وعد النبي عليه السلام أنه يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده إظهاراً لشوكته ، ولو كان النبي بارادة الله من غير واسطة النبي لأخلى المدينة عنهم في الطف أن [بقوله] كن فيكون ، ولكن لما أراد الله أن يكون على يد النبي لا يقع ذلك إلا بزمان وإن لطف فقال (ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا) وهو أن يتهيؤا ويتأهبوا للخروج .

ثم قال تعالى ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ .

أى في ذلك القليل الذي يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك وإذا خرجوا لا ينفكون عن المدلة ، ولا يجردون ملجأ بل أينما يكونون يطلبون ويؤخذون ويقتلون . ثم قال تعالى ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ .

يعنى هذا ليس بدعا بكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الأحكام ، أما الأفعال والأخبار فلا تنسخ .

ثم قال تعالى ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما عليها عند الله ﴾ .

لما بين حالهم فى الدنيا أنهم يلعنون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكروا ما يكون لهم فيها فقال (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت القيامة (قل إنما عليها عند الله) لا يتبين لكم ، فان الله أخفاها لحكمة هى امتناع المكلف عن الاجترار وخوفهم منها فى كل وقت .

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ
 وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ
 وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا
 ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

ثم قال تعالى ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ إشارة إلى التخويف ، وذلك لأن
 قول القائل الله يعلم متى يكون الأمر الفلاني ينبيء عن إبطاء الأمر ، ألا ترى أن من يطالب مديوناً
 بحقه فإن استمهله شهراً أو شهرين ربما يصبر ذلك ، وإن قال له اصبر إلى أن يقدم فلان من سفره
 يقول الله يعلم متى يحىء فلان ، ويمكن أن يكون محىء فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا
 (وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) يعنى هى فى علم الله فلا تستبسطوها فرمما تقع عن قريب
 والقريب فعيل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، قال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ولهذا
 لم يقل لعل الساعة تكون قريبة .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً ﴾ يعنى كما أنهم
 ملعونون فى الدنيا عندهم فكذلك ملعونون عند الله (وأعد لهم سعيراً) كما قال تعالى (لعنهم الله
 فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً خالدين فيها أبداً) مطيلين المسكت فيها مستمرين لا أمد لخروجهم
 وقوله ﴿ لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ لما ذكر خلودهم بين تحقيقه وذلك لأن المعبذب
 لا يخلصه من العذاب إلا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه ، ولا ولى لهم يشفع ولا نصير يدفع .
 ثم قال تعالى ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ، وقالوا
 ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾
 لما بين أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين أن بعض أعضائهم أيضاً لا يدفع العذاب عن
 البعض بخلاف عذاب الدنيا فإن الإنسان يدفع عن وجهه الضربة إتقاء بيده فإن من يقصد رأسه
 ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطأطئ رأسه كي لا يصيب وجهه ، وفى الآخرة (تقلب وجوههم
 فى النار) فما ظنك بسائر أعضائهم التى تجعل جنة للوجه ووقاية له (يقولون يا ليتنا أطعنا الله
 وأطعنا الرسول) فيتحسرون ويندمون حيث لا تغنيهم الندامة والحسرة ، لحصول عليهم بأن
 الخلاص ليس إلا للطيع . ثم يقولون (إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنى بدل طاعة الله تعالى
 أطعنا السادة وبدل طاعة الرسول أطعنا الكبراء وتركنا طاعة سيد السادات وأكبر الأكابرة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا

وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

فبدلنا الخير بالشر ، فلاجرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران ، ثم إنهم يطلبون بعض التشفق بتعذيب المضلين ويقولون (ربنا آثم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) أى بسبب ضلالهم وإضلالهم وفي قوله تعالى (ضعفين والعنهم لعناً كبيراً) معنى لطيف وهو أن الدعاء لا يكون إلا عند عدم حصول الأمر المدعو به والعذاب كان حاصل لهم واللعن كذلك فطلبوا ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم (ضعفين) وزيادة اللعن بقولهم (لعناً كبيراً) .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ﴾

لما بين الله تعالى أن من يؤذى الله ورسوله يلعن ويعذب وكان ذلك إشارة إلى إيذاء هو كفر ، أرشد المؤمنين إلى الامتناع من إيذاء هودونه وهو لا يورث كفراً ، وذلك مثل من لم يرض بقسمة النبي عليه السلام وبحكمه بالنبي لبعض وغير ذلك فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) وحديث إيذاء موسى مختلف فيه ، قال بعضهم هو إيذاؤهم إياه بنسبته إلى عيب في بدنه ، وقال بعضهم [إن] قارون قررمع امرأة فاحشة حتى تقول عند بنى إسرائيل إن موسى زنى بي فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة ألقى الله في قلبها أنها صدقت ولم تقل ما لقتت وبالجملة الإيذاء المذكور في القرآن كاف وهو أنهم قالوا له (اذهب أنت وربك فقاتلا) وقولهم (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وقولهم (لن نصبر على طعام واحد) إلى غير ذلك فقال للمؤمنين لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول إلى القتال أى لا تقولوا (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه « وإذا أمركم الرسول بشئ فأتوا منه ما استطعتم » وقوله (فبرأه الله مما قالوا) على الأول ظاهر لأنه أبرز جسمه لقومه فرأوه وعلوا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وأمر الملائكة حتى عبروا بهرون عليهم فرأوه غير مجروح فعلوا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذى رموه به ، وعلى ما ذكرنا (فبرأه الله مما قالوا) أى أخرجه عن عهدة ما طلبوا بإعطائه البعض إياهم وإظهاره عدم جواز البعض وبالجملة قطع الله حجبتهم ثم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم . وقوله ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أى ذا وجهة ومعرفة ، والوجيه هو الرجل الذى يكون له وجه أى يكون معروفاً بالخير ، وكل أحد وإن كان عند الله معروفاً لكن المعرفة المجردة لا تكفى فى الوجهة ، فإن من عرف غيره لكونه خادماً له وأجيراً عنده لا يقال هو وجيه عند فلان ، وإنما الوجهية من يكون له خصال حميدة تجعل من شأنه أن يعرف ولا ينكر وكان كذلك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال ، أما الأفعال فالخير ، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله ومن قال الصدق قال قولا سديداً ، ثم وعدهم على الأمرين بأمرين : على الخيرات بإصلاح الأعمال فان بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالداً في الجنة ، وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب .

ثم قال تعالى ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ فطاعة الله هي طاعة الرسول ، ولكن جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع فانه يفعل الواحد اتخذ عند الله عهداً وعند الرسول يداً وقوله (فقد فاز فوزاً عظيماً) جعله عظيماً من وجهين (أحدهما) أنه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب ، حتى أن من أراد أن يضرب غيره سوطاً ثم نجا منه لا يقال فاز فوزاً عظيماً ، لأن العذاب الذي نجا منه لو وقع ما كان يتفاوت الأمر تفاوتاً كثيراً (والثاني) أنه وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدى .

ثم قال تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها وحملها الإنسان أنه كان ظلوماً جهولاً ﴾

لما أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدب النبي عليه السلام بأحسن الآداب ، بين أن التكليف الذي وجهه الله إلى الإنسان أمر عظيم فقال (إنا عرضنا الأمانة) أى التكليف وهو الأمر بخلاف مافى الطبيعة ، واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السموات ولا فى الأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه ؛ الجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا فى الملائكة لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منبهين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ فى الأمانة وجوه كثيرة منها من قال هو التكليف وسمى أمانة لأن من قصر فيه

فعليه الغرامة ، ومن وفر فله الكرامة . ومنهم من قال هو قول لا إله إلا الله وهو بعيد فان السموات والأرض والجبال بألسنتها ناطقة بأن الله واحد لا إله إلا هو ، ومنهم من قال الأعضاء فالعين أمانة ينبغي أن يحفظها والأذن كذلك واليد كذلك ، والرجل والفرج واللسان ، ومنهم من قال معرفة الله بما فيها والله أعلم

(المسألة الثانية) في العرض وجوه منهم من قال المراد العرض ومنهم من قال الحشر ومنهم من قال المقابلة أي قابلنا الأمانة على السموات فرجحت الأمانة على أهل السموات والأرض .
(المسألة الثالثة) (في السموات والأرض) وجهان (أحدهما) أن المراد هي بأعيانها ، (والثاني) المراد أهلها ، ففيه إضمار تقديره : إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات والأرض .
(المسألة الرابعة) قوله (فأبين أن يحملنها) لم يكن إياؤهن كإباء إبليس في قوله تعالى (أبن أن يكون مع الساجدين) من وجهين (أحدهما) أن هناك السجود كان فرضاً ، وههنا الأمانة كانت عرضاً (وثانيهما) أن الإباء كان هناك استكباراً وههنا استصغاراً استصغرن أنفسهن ، بدليل قوله (وأشفقن منها) .

(المسألة الخامسة) ما سبب الإشفاق ؟ نقول الأمانة لا تقبل لوجوه (أحدها) أن يكون عزيزاً صعب الحفظ كالأواني من الجواهر التي تكون عزيزة سريعة الانكسار ، فإن العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبورها ولو كانت من الزجاج لقبورها ، في الأول لأمانته من هلاكها ، وفي الثاني لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك (والثاني) أن يكون الوقت زمان شهب وغارة فلا يقبل العاقل في ذلك الوقت الودائع ، والأمر كان كذلك لأن الشيطان وجنوده كانوا في قصد المكلفين إذ العرض كان بعد خروج آدم من الجنة (الثالث) مراعاة الأمانة والإتيان بما يجب كأيداع الحيوانات التي تحتاج إلى العلف والسقي وموضع مخصوص يكون برسمها ، فإن العاقل يمتنع من قبولها بخلاف متاع يوضع في صندوق أو في زاوية بيت والتكليف كذلك فانه يحتاج إلى تربية وتنمية .

(المسألة السادسة) كيف حملها الانسان ولم تحملها هذه الأشياء ؟ فيه جوابان (أحدهما) بسبب جهله بما فيها وعلمهن ، ولهذا قال تعالى (إنه كان ظلوماً جهولاً) . (والثاني) أن الأشياء نظرت إلى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن ، والانسان نظر إلى جانب المكلف ، وقال المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها وإذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها ، وقال (إياك نعبد وإياك نستعين) .

(المسألة السابعة) قوله تعالى (إنه كان ظلوماً جهولاً) فيه وجوه (أحدها) أن المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه من الإخراج من الجنة (ثانيها) المراد الانسان يظلم بالعصيان ويحمل ما عليه من العقاب (ثالثها) إنه كان ظلوماً جهولاً ، أي كان من شأنه الظلم والجهل

يقال فرس شمس ودابة جموح وماء ظهور أى من شأنه ذلك ، فكذلك الانسان من شأنه الظلم والجهل فلما أودع الأمانة بقى بعضهم على ما كان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وترك الجهل كما قال تعالى فى حق آدم عليه السلام (وعلم آدم الأسماء كلها) وقال فى حق المؤمنين عامة (والراستخون فى العلم يقولون آمنا به) وقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (رابعها) (إنه كان ظلوماً جهولاً) فى ظن الملائكة حيث قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها) وبين علمه عندهم حيث قال تعالى (أنبئوني بأسماء هؤلاء) وقال بعضهم فى تفسير الآية إن المخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كالبهايم ثم تدرك الشعير الذى تأكله ولا تتفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل ، قالوا وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله (ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء) فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات والتكليف لم يكن إلا على مدرك الأمرين إذ له لذات بأمور جزئية ، فمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفة ، وأما غيره فإن كان مكلفاً يكون مكلفاً لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فان الخطاب يسمى مكلفاً لما أن المكلف مخاطب فسمى الخطاب مكلفاً وفى الآية لطائف (الأولى) الأمانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أميناً عليها والقول قول الأمين فهو فائز ، بقى أولاده أخذوا الأمانة منه والآخذ من الأمين ليس بمؤمن ، ولهذا وارث المودع لا يكون القول قوله ولم يكن له بد من تجديد عهد واثمان ، فالؤمن اتخذ عند الله عهداً فصار أميناً من الله فصار القول قوله فكان له ما كان لآدم من الفوز . ولهذا قال تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى كما تاب على آدم فى قوله تعالى (فتاب عليه) والكافر صار آخذاً للأمانة من المؤمن فبقى فى ضمانه ، ثم إن المؤمن إذا أصاب الأمانة فى يده شئ بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والأمين لا يضمن مافات بغير تقصير ، والكافر إذا أصاب الأمانة فى يده شئ ضمن وإن كان بقضاء الله وقدره ، لأنه يضمن مافات وإن لم يكن بتقصير (اللطيفة الثانية) خص الأشياء الثلاثة بالذكر لأنها أشد الأمور وأحملها للأثقال ، وأما السموات فلقولها تعالى (وخلقنا فوقكم سبعاً شداداً) والأرض والجبال لا تخفى شدتها وصلابتها ، ثم إن هذه الأشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الأمانة عليها واكتفى بشدتها وقوتها فامتنع ، لأنهن وإن كن أقوياء إلا أن أمانة الله تعالى فوق قوتهن ، وحملها الإنسان مع ضعفه الذى قال الله تعالى فيه (وخلق الإنسان ضعيفاً) ولكن وعده بالاعانة على حفظ الأمانة بقوله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فان قيل فالذى يعينه الله تعالى كيف يعذب فلم يعذب الكافر ؟ نقول قال الله تعالى «أنا أعين من يستعين بي ويتوكل على » والكافر لم يرجع إلى الله تعالى فتركه مع نفسه فيبقى فى عهدة الأمانة (اللطيفة الثالثة) قوله

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

تعالى فأبين (أن يحملنها) وقوله تعالى (وحملها الإنسان) إشارة إلى أن فيه مشقة بخلاف ما لو قال فأبين أن يقبلنها وقبلها الانسان ، ومن قال لغيره افعل هذا الفعل فان لم يكن في الفعل تعب يقابل بأجرة فاذا فعله لا يستحق أجرة فقال تعالى (وحملها) إشارة إلى أنه مما يستحق الأجر عليه أى على مجرد حمل الأمانة ، وإما على رعايتها حق الرعاية فيستحق الزيادة فان قيل فالكل حملوها ، غاية ما في الباب أن الكافر لم يأت بشيء زائد على الحمل فينبغي أن يستحق الأجر على الحمل فنقول الفعل إذا كان على وفق الاذن من المالك الأمر يستحق الفاعل الأجرة ، ألا ترى أنه لو قال احمل هذا إلى الضيعة التي على الشمال فحمل ونقلها إلى الضيعة التي على الجنوب لا يستحق الأجرة ويلزمه ردها إلى الموضع الذي كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الإذن فغرم وزالت حسناته التي عملها بسببه . ثم قال تعالى ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

أى حملها الإنسان ليقع تعذيب المنافق والمشرک ، فان قال قائل لم قدم التعذيب على التوبة نقول لما سمي التكليف أمانة والأمانة من حكمها اللزوم أن الخائن يضمن وليس من حكمها اللزوم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللزام والأجر على الحفظ إحسان والعدل قبل الإحسان وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لم عطف المشرک على المنافق ، ولم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وعند التوبة أعاد اسمه وقال ويتوب الله ولو قال ويتوب على المؤمنين كان المعنى حاصلًا؟ نقول أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله كالكلام المستأنف ويجب هناك ذكر الفاعل فقال (ويتوب الله) ويحقق هذا قراءة من قرأ ويتوب الله بالرفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الله في الإنسان وصفين الظلوم والجهول وذكر من أوصافه وصفين فقال (وكان الله غفوراً رحيماً) أى كان غفوراً للظلوم ورحيماً على الجهول ، وذلك لأن الله تعالى وعد عباده بأنه يغفر الظلم جميعاً إلا الظلم العظيم الذي هو الشرك كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وأما الوعد فقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وأما الرحمة على الجهل فلأن الجهل محل الرحمة ولذلك يعتذر المسيء بقوله ما علمت .

(وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى أعلم عبده بأنه غفور رحيم ، وبصره بنفسه فرآه ظلوماً جهولاً ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله أعلم . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبي الأمي وآله .

﴿سورة سبأ﴾

مكية وقيل فيها آية مدنية وهي (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك الآية)
وهي أربع وقيل خمس وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ
وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾
السور المفتحة بالحمد خمس سور سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف
وسورتان في الأخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع
النصف الأول ومع النصف الأخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها
منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته وخلق لنا ما نقوم
به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم فلنا حالتان الابتداء
والإعادة وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء فقال في النصف الأول
(الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل
عليه قوله تعالى فيه (هو الذي خلقكم من طين) إشارة إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية
وهي الكهف (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً) إشارة إلى الشكر
على نعمة الإبقاء، فإن الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لا تبع كل واحد هواه ولو وقعت
المنازعات في المشتبهات وأدى إلى التقاتل والتفاني، ثم قال في هذه السورة (الحمد لله) إشارة إلى
نعمة الإيجاد الثاني ويدل عليه قوله تعالى (وله الحمد في الآخرة) وقال في الملائكة (الحمد لله)
إشارة إلى نعمة الإبقاء ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلاً والملائكة بأجمعهم لا يكونون
رسلاً إلا يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين كما قال تعالى (وتلقاهم الملائكة) وقال تعالى عنهم
(سلام عليكم فادخلوها خالدين) وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى
(الحمد لله رب العالمين) إشارة إلى النعمة العاجلة وقوله (مالك يوم الدين) إشارة إلى النعمة

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرَجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ « ٢ »

الاجلة قرئت في الافتتاح وفي الاختتام ، ثم في مسائل :

(المسألة الأولى) الحمد شكر والشكر على النعمة والله تعالى جعل ما في السموات وما في الأرض لنفسه بقوله (له ما في السموات وما في الأرض) ولم يبين أنه لنا حتى يحجب الشكر نقول جواباً عنه الحمد يفارق الشكر في معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وإن لم ينعم على الحامد أصلاً ، فإن الإنسان يحسن منه أن يقول في حق عالم لم يجتمع به أصلاً أنه عالم عامل بارع كامل فيقال له إنه يحمد فلاناً ولا يقال إنه يشكره إلا إذا ذكر نعمه أو ذكره على نعمه فالتعالى محمود في الأزل لا تصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور ولا يزال على ما أبدى من الكرم وأسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفي ذكر العظمة وفي كونه مالك ما في السموات وما في الأرض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله (له ما في السموات وما في الأرض) يوجب شكراً أتم بما يوجبه قوله تعالى (خلق لكم ما في الأرض) وذلك لأن ما في السموات والأرض إذا كان لله ونحن المنتفعون به لا هو ، يوجب ذلك شكراً لا يوجبه كون ذلك لنا .

(المسألة الثانية) قد ذكرتم أن الحمد ههنا إشارة إلى النعمة التي في الآخرة ، فلم ذكر الله السموات والأرض ؟ فنقول نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهي ما في السموات وما في الأرض ، ثم قال (وله الحمد في الآخرة) ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال (وهو الحكيم الخبير) إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخير ، والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى في الآخرة .

(المسألة الثالثة) الحكمة هي العلم الذي يتصل به الفعل فإن من يعلم أمراً ولم يأت بما يناسب عمله لا يقال له حكيم ، فالفاعل الذي فعله على وفق العلم هو الحكيم ، والخبير هو الذي يعلم عواقب الأمور وبواطنها فقوله (حكيم) أي في الابتداء يخاق كما ينبغى وخبير أي بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر إلى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم في الابتداء خبير في الانتهاء .

ثم بين الله تعالى كما أخبره بقوله (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور)

ما يلج في الأرض من الحبة والأموات ويخرج منها من السنابل والأحياء وما ينزل من السماء

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالَمِ الْغَيْبِ لَا
يَعزبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا
أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ « ٣ » لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ « ٤ »

من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن ، وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى
(إليه يصعد الكلم الطيب) ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله (والعمل الصالح يرفعه)
وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء ، لأن الحبة تبذر أولاً ثم
تسقى ثانياً .

(المسألة الثانية) قال وما يعرج فيها ولم يقل يعرج إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة
ومرتبة النفوس الزكية وهذا لأن كلمة إلى للغاية ، فلو قال وما يعرج إليها لفهم الوقوف عند
السموات فقال (وما يعرج فيها) ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال في الكلم الطيب (إليه
يصعد الكلم الطيب) لأن الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول إليه ، وأما السماء فهي دنيا
وفوقها المنتهى .

(المسألة الثالثة) قال (وهو الرحيم الغفور) رحيم بالإيزال حيث ينزل الرزق من السماء ،
غفور عند ما تعرج إليه الأرواح والأعمال فرحم أولاً بالانزال وغفر ثانياً عند العروج .
ثم بين أن هذه النعمة التي يستحق الله بها الحمد وهي نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى
(وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) ثم رد عليهم وقال (قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب
لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب
مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم)

أخبر بإيمانها وأكد باليمين ، قال الزمخشري رحمه الله : لو قال قائل كيف يصح التأكيده باليمين
مع أنهم يقولون لا رب وإن كانوا يقولون به ، لكن المسألة الأصولية لا تثبت باليمين وأجاب عنه
بأنه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وبيان
كونه دليلاً هو أن المسى قد يبقى في الدنيا مدة مديدة في اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد
يدوم في دار الدنيا في الآلام الشديدة مدة ويموت فيها ، فلولا دار تكون الأجزية فيها لكان

الأمر على خلاف الحكمة، والذي أقوله أنا هو أن الدليل المذكور في قوله (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة) أظهر، وذلك لأنه إذا كان عالماً بجميع الأشياء يعلم أجزاء الأحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام، وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة، وعلى هذا فقوله تعالى (في السموات ولا في الأرض) فيه لطيفة وهي أن الإنسان له جسم وروح والأجسام أجزاءها في الأرض والأرواح في السماء فقوله (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات) إشارة إلى علمه بالأرواح وقوله (ولا في الأرض) إشارة إلى علمه بالأجسام، وإذا علم الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد في المعاد. وقوله (ولا أصغر من ذلك) إشارة إلى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب، وعلى هذا فلو قال قائل فأى حاجة إلى ذكر الأكبر، فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الأكبر؟ فنقول لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر، لكونها محل النسيان، أما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته، فقال الإثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر أيضاً مكتوب فيه، ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء فقال (ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) ذكر فيهم أمرين الإيمان والعمل الصالح، وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم، فالمغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله عليه السلام فيما أخبرنا به تاج الدين عيسى بن أحمد بن الحاكم البندهي قال أخبرني والدي عن جدي عن محي السنة عن عبد الواحد المليجي عن أحمد بن عبد الله النعيمي عن محمد بن يوسف الفربري عن محمد بن اسماعيل البخاري « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان » والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فإن من عمل لسيد كريم عملاً، فعند فراغه من العمل لا بد من أن ينعم عليه إنعاماً ويطعمه طعاماً، ووصف الرزق بالكريم قد ذكرنا أنه بمعنى ذى كرم أو مكرم، أو لأنه يأتي من غير طلب بخلاف رزق الدنيا، فإنه ما لم يطلب ويتسبب فيه لا يأتي، وفي التفسير مسائل:

(المسألة الأولى) قوله (أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون لهم ذلك جزاء فيوصله إليهم لقوله (ليجزى الذين آمنوا)، (وثانيهما) أن يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشئ. آخر لأن قوله (أولئك لهم) جملة تامة إسمية، وقوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا) جملة فعلية مستقلة، وهذا أبلغ في البشارة من قول القائل. ليجزى الذين آمنوا رزقاً.

(المسألة الثانية) اللام في ليجزى للتعليل، معناه الآخرة للجزاء، فإن قال قائل: فما وجه المناسبة؟ فنقول: الله تعالى أراد أن لا ينقطع ثوابه فجعل للمكاف داراً باقية ليكون ثوابه واصلاً إليه دائماً أبداً، وجعل قبلها داراً فيها الآلام والأسقام وفيها الموت ليعلم المكاف مقدار ما يكون

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ ﴿٥﴾

فيه في الآخرة إذا نسبه إلى ما قبلها وإذا نظر إليه في نفسه .

(المسألة الثالثة) ميز الرزق بالوصف بقوله كريم ولم يصف المغفرة واحدة هي للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقوم والحميم ، ومنه الفواكه والشراب الطهور ، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ، ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها .

ثم قال تعالى ﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ .

لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين ، وقوله (والذين سعوا في آياتنا) أى بالابطال ، ويكون معناه الذين كذبوا بآياتنا وحينئذ يكون هذا في مقابلة ما تقدم لأن قوله تعالى (آمنوا) معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فان قيل من أين علم كون سعيهم في الإبطال مع أن المذكور مطلق السعي ؟ فنقول فهم من قوله تعالى (معاجزين) وذلك لأنه حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز وبالسعي في التقرير والتبليغ لا يكون الساعي معجزاً لأن القرآن وآيات الله معجزة في نفسها لا حاجة لها إلى أحد ، وأما المكذب فهو آت ياخفاء آيات بينات ، فيحتاج إلى السعي العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به ، وقيل بأن المراد من قوله (معاجزين) أى ظانين أنهم يفوتون الله ، وعلى هذا يكون كون الساعي ساعياً بالباطل في غاية الظهور ، ولهم عذاب في مقابلة لهم رزق ، وفي الآية لطائف (الأولى) قال ههنا (لهم عذاب) ولم يقل يحزيهم الله ، وقد تقدم القول منا أن قوله تعالى (ليحزي الذين آمنوا) يحتمل أن يكون الله يحزيهم بشيء آخر ، وقوله (أولئك لهم مغفرة) إخبار عن مستحقهم المعد لهم ، وعلى الجملة فاحتمال الزيادة هناك قائم نظراً إلى قوله (ليحزي) وههنا لم يقل ليحزيهم فلم يوجد ذلك (الثانية) قال هناك لهم مغفرة ثم زادهم فقال (ورزق كريم) وههنا لم يقل إلا لهم عذاب من رجز أليم ، والجواب تقدم في مثله (الثالثة) قال هناك (لهم مغفرة ورزق كريم) ولم يقله بمن التبعية فلم يقل لهم نصيب من رزق ولا رزق من جنس كريم ، وقال ههنا (لهم عذاب من رجز أليم) بلفظة صالحة للتبويض وكل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة إليها والرجز قيل أسوأ العذاب ، وعلى هذا (من) لبيان الجنس كقول القائل خاتم من فضة ، وفي الأليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على أن الأليم وصف العذاب كأنه قال عذاب أليم من أسوأ العذاب والجر على أنه وصف للرجز والرفع أقرب نظراً إلى المعنى ، والجر نظراً إلى اللفظ ، فان قيل فلم تنحصر الأقسام في المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعي المعجز لجواز أن يكون أحد مؤمناً ليس له عمل صالح أو كافر متوقف ، فنقول إذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم أن المؤمن قريب الدرجة من تقدم أمره والكافر قريب الدرجة من سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم ، وإن لم يكن في السكرامة مثل رزق الذي عمل صالحاً

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ « ٦ » وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلِّ مِمزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ « ٧ »

وللكافر غير المعاند عذاب وإن لم يكن من أسوأ الأنواع التي للكاذبين المعاندين .

ثم قال تعالى ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

لما بين حال من يسعى في التكذيب في الآخرة بين حاله في الدنيا وهو أن سعيه باطل فإن من أوتي علماً لا يغتر بتكذبه ويعلم أن ما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق ، وقوله هو الحق يفيد الحصر أى ليس الحق إلا ذلك ، وأما قول المكذب فباطل ، بخلاف ما إذا تنازع خصمان ، والنزاع لفظي فيكون قول كل واحد حقاً في المعنى ، وقوله تعالى (ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) يحتمل أن يكون بياناً لكونه هو الحق فإنه هاد إلى هذا الصراط ، ويحتمل أن يكون بياناً لفائدة أخرى ، وهى أنه مع كونه حقاً هادياً والحق واجب القبول فكيف إذا كان فيه فائدة في الاستقبال وهى الوصول إلى الله ، وقوله (العزيز الحميد) يفيد رغبة ورهبة ، فإنه إذا كان عزيزاً يكون ذا انتقام ينتقم من الذى يسعى في التكذيب ، وإذا كان حميداً يشكر سعى من يصدق ويعمل صالحاً ، فإن قيل كيف قدم الصفة التى للهبة على الصفة التى للرحمة مع أنك أبدأ تسعى فى بيان تقديم جانب الرحمة ؟ نقول كونه عزيزاً تام الهبة شديد الانتقام يقوى جانب الرغبة لأن رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك ، فالعزة كما تخوف ترجى أيضاً ، وكما ترغب عن التكذيب ترغب فى التصديق ليحصل القرب من العزيز .

ثم قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ .

وجه الترتيب : هو أن الله تعالى لما بين أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم بقوله (قل بلى وربى لتأتينكم) وبين ما يكون بعد إتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات ، بين حال المؤمن والكافر بعد قوله (قل بلى وربى لتأتينكم) فقال المؤمن هو الذى يقول الذى أنزل إليك الحق وهو يهدى ، وقال الكافر هو الذى يقول هو باطل ، ومن غاية اعتقادهم وعنادهم فى إبطال ذلك قالوا على سبيل التعجب (هل ندلكم على رجل منكم ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد؟) وهذا كقول القائل فى الاستبعاد ، جاء رجل يقول إن الشمس تطلع من المغرب إلى غير ذلك من المحالات .

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ
وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشَأَ نَحْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ

ثم قال تعالى ﴿ أفترى على الله كذباً أم به جننة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ هذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تمام قول الذين كفروا أولاً أغنى هو من كلام من قال (هل ندلكم) ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال (هل ندلكم) كأن السامع لما سمع قول القائل (هل ندلكم على رجل) قال له : أهو يفترى على الله كذباً؟ إن كان يعتقد خلافه ، أم به جننة [أى] جنون؟ إن كان لا يعتقد خلافه (وفي هذا الطيفة) وهى أن الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه ، ولهذا قسم ولم يحزم بأنه مفتر ، بل قال مفتر أو مجنون ، احترازاً من أن يقول قائل كيف يقول بأنه مفتر ، مع أنه جائز أن يظن أن الحق ذلك فظن الصدق يمنع تسمية القائل مفترياً وكذباً فى بعض المواضع ، ألا ترى أن من يقول جاء زيد ، فإذا تبين أنه لم يجىء وقيل له كذبت ، يقول ما كذبت ، وإنما سمعت من فلان أنه جاء ، فظننت أنه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن ، فهم احترزوا عن تبين كذبهم ، فكل عاقل ينبغي أن يحترز عن ظهور كذبه عند الناس ، ولا يكون العاقل أدنى درجة من الكافر ، ثم إنه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب) فى مقابلة قولهم (أفترى على الله كذباً) وقوله (والضلال البعيد) فى مقابلة قولهم (به جننة) وكلاهما مناسب . أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذنة ، لأنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه إلى الكذب . وأما الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه فى الإيداء ، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب ، ولكن ينسبه إلى عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون ، ثم وصف ضلالهم بالبعد ، لأن من يسمى المهتدى ضالاً يكون هو الضال ، فمن يسمى الهادى ضالاً يكون أضل ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادى كل مهتد . ثم قال تعالى ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازياً على السيئات والحسنات ذكر دليلاً آخر وذكر فيه تهديداً . أما الدليل فقوله (من السماء والأرض) فإنهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مراراً ، وكما قال تعالى (وائت سألهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ويدلان على الحشر لأنهما يدلان على مال قدرته ومنها الإعادة ، وقد ذكرناه مراراً ، وقال تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

وأما التهديد فبقوله (إن نشأ نخسف بهم الأرض) يعني نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف . ثم قال تعالى ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾ أي لكل من يرجع إلى الله ويترك التعصب ثم إن الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده ، ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جلتهم داود كما قال تعالى عنه (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) وبين ما أتاه الله على أنابته فقال :

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد ﴾ وفي الآية مسائل : (المسألة الأولى) قوله تعالى (منا) إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام ، وتقريره هو أن قوله (ولقد آتينا داود منا فضلاً) مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل : آتى الملك زيدا خلعة ، فاذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد أنه كان من خاص ما يكون له ، فكذلك إيتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض ، ومثل هذا قوله تعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان) فان رحمة الله واسعة تصل إلى كل أحد في الدنيا لكن رحمة في الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال (يبشرهم ربهم برحمة منه) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله (يا جبال أوبي معه) قال الزمخشري (يا جبال) بدل من قوله (فضلاً) معناه آتينا فضلاً قولنا يا جبال ، أو من آتينا ومعناه قلنا يا جبال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرئ أوبي بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبي من الأوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع ، وقيل بأن معناه سيرى معه ، وفي قوله (يسبحن) قالوا هو من السباحة وهي الحركة المخصوصة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرئ (والطير) بالنصب حملاً على محل المنادى والطير بالرفع حملاً على لفظه . ﴿ المسألة الخامسة ﴾ لم يكن الموافق له في التأويب منحصرأ في الجبال والطير ولكن ذكر الجبال ، لأن الصخور للجمود والطير للنفور (١) تستبعد منهما الموافقة ، فاذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى ، ثم إن من الناس من لم يوافقهم وهم القاسية قلوبهم التي هي أشد قسوة من الحجارة . ﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (وألنا له الحديد) عطف ، والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر في قوله يا جبال تقديره قلنا (يا جبال) أوبي وألنا ، ويحتمل أن يكون عطفاً على آتينا تقديره آتينا فضلاً وألنا له .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ألان الله له الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير ، فانه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذي يكتب به ، فأى عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله ، قيل

(١) في الأصل : للنفور بالقاف المناء والصواب للنفور بالقاف الفوقية الموحدة ، والنفور ضد الجمود .

أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ «١١» ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين
القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه
من عذاب السعير «١٢»

إنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال فالآن له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهي
الدروع ، وإنما اختار الله له ذلك ، لأنه وقاية للروح التي هي من أمره وسعى في حفظ الأدمى
المكرم عند الله من القتل ، فالزرد خير من القواس والسياف وغيرهما .
ثم قال تعالى ﴿ أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴾
قيل إن أن ههنا للتفسير فهي مفسرة ، بمعنى أي اعمل سابغات وهو تفسير (أنا) وتحقيقه لأن
يعمل ، يعني أنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل
المستقبل للبصير فيكون معناه : أنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهي الدروع الواسعة ذكر
الصفة ويعلم منها الموصوف وقدر في السرد ، قال المفسرون أي لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب
ولا توسع الثقب فتقلقل المسامير فيها ، ويحتمل أن يقال السرد هو عمل الزرد ، وقوله (وقدر في
السرد) أي الزرد إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب إنما هو اكتساب والكسب يكون
بقدر الحاجة وباقي الأيام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب
بل حصل به القوت فحسب ، ويدل عليه قوله تعالى (واعملوا صالحاً) أي لستم مخلوقين إلا للعمل
الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه ، والكسب قدروا فيه ، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله (إني
بما تعملون بصير) وقد ذكرنا مراراً أن من يعمل لملك شغلاً ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن
العمل ويتقنه ويجتهد فيه ، ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيباً آخر وهو سليمان ، كما قال تعالى
(وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) .

وذكر ما استفاد هو بالإجابة فقال ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له
عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾
وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرى . (ولسليمان الريح) بالرفع وبالنصب وجه الرفع (ولسليمان الريح)
مسخرة أو سحرت (لسليمان الريح) ووجه النصب (ولسليمان) سحرنا (الريح) وللرفع وجه آخر

وهو أن يقال معناه (ولسليمان الريح) كما يقال لزيد الدار ، وذلك لأن الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد .

(المسألة الثانية) الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفاً لجملة إسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز أولاً يحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ماذا كنا لداود ولسليمان الريح ، وأما على النصب فعلى قولنا (وألنا له الحديد) كأنه قال وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح .

(المسألة الثالثة) المسخر لسليمان كانت ريحاً مخصوصة لا هذه الرياح ، فانها المنافع عامة في أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح .

(المسألة الرابعة) قال بعض الناس: المراد من تسخير الجبال وتسييحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شيء (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) ، وكان هو عليه السلام يفقه تسييحها فيسبح ، ومن تسخير الريح أنه راض الخيل وهي كالريح وقوله (غدوها شهر) ثلاثون فرسخاً لأن من يخرج للتفرج في أكثر الأمر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك ، وقوله في حق داود (وألنا له الحديد) وقوله في حق سليمان (وأسلنا له عين القطر) أنهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أي أناساً أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده [و] عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء بمكنة .

(المسألة الخامسة) أقول قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال) وقوله (ولسليمان الريح عاصفة) لو قال قائل ما الحكمة في أن الله تعالى قال في الأنبياء (وسخرنا مع داود الجبال) وفي هذه السورة قال (يا جبال أوبي معه) وقال في الريح هناك وههنا (ولسليمان) تقول الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضيفها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب ، والريح لم يذكر فيها أنها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لي وهو أن على قولنا (أوبي معه) سيرى فالجبل في السير ليس أصلاً بل هو يتحرك معه تبعاً ، والريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها ، فلم يقل الريح مع سليمان ، بل سليمان كان مع الريح (وأسلنا له عين القطر) أي النحاس (ومن الجن) أي سخرنا له من الجن ، وهذا ينبىء عن أن جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر .

واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء في حق داود وثلاثة في حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان ، وذلك لأن الثقل مع ما هو أخف منه إذا تحركا يسبق الخفيف الثقل ويبقى الثقل مكانه ، لكن الجبال كانت أثقل من الأدمى والأدمى أثقل من الريح فقدر الله أن سار الثقل مع الخفيف أي الجبال مع داود على ما قلنا (أوبي) أي سيرى وسليمان وجنوده مع الريح الثقل مع الخفيف أيضاً ، والطيور من جنس تسخير الجن لأنهما

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ
رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾

لا يجتمعان مع الإنسان ؛ الطير لنفوره من الإنس والإنس لنفوره من الجن ، فان الإنسان يتقى مواضع الجن ، والجن يطلب أبدأ اصطياد الانسان والإنسان يطلب اصطياد الطير فقدر الله أن صار الطير لا ينفر من داود بل يستأنس به ويطلبه ، وسليمان لا ينفر من الجن بل يسخره ويستخدمه وأما القطر والحديد فتجانسهما غير خفي (وههنا لطيفة) وهي أن الآدمي ينبغي أن يتقى الجن ويحتنبه والاجتماع به يقضى إلى المفسدة ولهذا قال تعالى (أعود بك من همزات الشياطين وأعود بك رب أن يحضرون) فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم فنقول قوله تعالى (من يعمل بين يديه باذن ربه) إشارة إلى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة (ولطيفة أخرى) وهي أن الله تعالى قال ههنا (باذن ربه) بلفظ الرب وقال (ومن يزغ منهم عن أمرنا) ولم يقل عن أمر ربه ، وذلك لأن الرب لفظ ينبيء عن الرحمة ، فعند ما كانت الإشارة إلى حفظ سليمان عليه السلام قال (ربه) وعندما كانت الإشارة إلى تعذيبهم قال (عن أمرنا) بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف وقوله تعالى (ندقه من عذاب السعير) فيه وجهان : (أحدهما) أن الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقارع من نار فالإشارة إليه (وثانيهما) أن السعير هو ما يكون في الآخرة فأوعدهم بما في الآخرة من العذاب ثم قال تعالى ﴿ يعملون له ما يشاء من محارِبٍ وَتَمَاثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴾ .

المحارِب إشارة إلى الأبنية الرفيعة ولهذا قال تعالى (إذ تسوروا المحراب) والتماثيل ما يكون فيها من النقوش ، ثم لما ذكر البناء الذي هو المسكن بين ما يكون في المسكن من ماعون الأكل فقال (وجفان كالجواب) جمع جاية وهي الحوض الكبير الذي يجي الماء أى يجمعه وقيل كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس (وقدور راسيات) ثابتات لا تنقل لكبرها ، وإنما يعرف منها في تلك الجفان ، وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قدم المحارِب على التماثيل لأن النقوش تكون في الأبنية وقدام (الجفان) في الذكر على (القدور) مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل ، فنقول : لما بين الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السباط الذي يمد في تلك الدور ، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيه ، وأما القدور فلا تكون فيه ، ولا تحضر هناك ، ولهذا قال (راسيات) أى غير منقولات ، ثم لما بين حال الجفان العظيمة ، كان يقع في النفس أن الطعام الذي يكون فيها في أى شيء يطبخ ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتِهِ

(المسألة الثانية) ذكر في حق داود اشتغاله بآلة الحرب ، وفي حق سليمان بحالة السلم وهي المساكن والمآكل وذلك لأن سليمان كان ولد داود ، وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة ، واستوى داود على الملك ، فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده ، ولأن سليمان لم يقدر أحد عليه في ظنه فتركوا الحرب معه وإن حاربه أحد كان زمان الحرب يسيراً لإدراكه إياه بالريح فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام .

(المسألة الثالثة) لما قال عقيب قوله تعالى (أن تعمل سابعات) اعملوا صالحاً ، قال عقيب ما يعملها الجن (اعملوا آل داود شكراً) إشارة إلى ما ذكرنا أن هذه الأشياء حالية لا ينبغي أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة فيها وإنما الواجب الذي ينبغي أن يكثر منه هو العمل الصالح الذي يكون شكراً ، وفيه إشارة إلى عدم الالتفات إلى هذه الأشياء ، وقلة الاشتغال بها كما في قوله (وقدر في السرد) أي اجعله بقدر الحاجة .

(المسألة الرابعة) انتصاب شكراً يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون مفعولاً له كقول القائل جئتك طمعاً وعبدت الله رجاء غفرانه (وثانيها) أن يكون مصدراً كقول القائل شكرت الله شكراً ويكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل جلست قعوداً ، وذلك لأن العمل شكر فقوله (اعملوا) يقوم مقام قوله (اشكروا) (وثالثها) أن يكون مفعولاً به كقولك اضرب زيداً كما قال تعالى (واعملوا صالحاً) لأن الشكر صالح .

(المسألة الخامسة) قوله (وقليل من عبادي الشكور) إشارة إلى أن الله خفف الأمر على عباده ، وذلك لأنه لما قال (اعملوا آل داود شكراً) فهم منه أن الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغي لا يمكن ، لأن الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج إلى شكر آخر وهو بتوفيق آخر ، فداوماً تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر ، فقال تعالى إن كنتم لا تقدرون على الشكر التام فليس عليكم في ذلك حرج ، فإن عبادي قليل منهم الشكور ويقوى قولنا أنه تعالى أدخل الكل في قوله (عبادي) مع الإضافة إلى نفسه ، وعبادي بلفظ الإضافة إلى نفس المتكلم لم ترد في القرآن إلا في حق الناجين ، كقوله تعالى (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) وقوله (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) فإن قيل على ما ذكرتم شكر الله بتامه لا يمكن وقوله (قليل) يدل على أن في عباده من هو شاكر لأنعمه ، نقول الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله ، وأما الشكر الذي يناسب نعم الله فلا قدرة عليه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، أو نقول الشاكر التام ليس إلا من رضى الله عنه ، وقال له يا عبادي ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك أنك شاكر لأنعمي بأسرها ، وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلفك شكرها .

ثم قال تعالى (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ «١٤»
 لَقَدْ كَانَ لِسَبَآءٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ
 رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ «١٥»

فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴿ لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين أنه لم ينبج من الموت ، وأنه قضى عليه الموت ، تنبيهاً للخلق على أن الموت لا بد منه ، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه ، وفيه مسائل: (المسألة الأولى) كان سليمان عليه السلام يقف في عبادة الله ليلة كاملة ويوماً (١) تاماً وفي بعض الأوقات يزيد عليه ، وكان له عصا يتكئ عليها واقفاً بين يدي ربه ، ثم في بعض الأوقات كان واقفاً على عادته في عبادته إذ توفي ، فظن جنوده أنه في العبادة وبقي كذلك أياماً وتمادى شهوراً ، ثم أراد الله إظهار الأمر لهم ، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوق وعلم حاله .

وقوله تعالى ﴿ فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ كانت الجن تعلم ما لا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك ، بل الإنسان لم يثبت من العلم إلا قليلاً فهو أكثر الأشياء الحاضرة لا يعلمه ، والجن لم تعلم إلا الأشياء الظاهرة وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان ، وتبين لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حي . وقوله (ما لبثوا في العذاب المهين) دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير ، لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين . ثم قال تعالى ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾

لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه ، بحكاية أهل سبأ ، وفي سبأ قراءتان بالفتح على أنه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على أنه اسم قبيلة وهو الأظهر ، لأن الله جعل الآية لسبأ والفاهم هو العاقل لا المسكان فلا يحتاج إلى إضمار الأهل وقوله (آية) أي من فضل ربهم ، ثم بينها بذكر بدله بقوله (جنتان عن يمين وشمال) قال الزمخشري آية آية في جنتين ، مع أن بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان ؟ وأجاب بأن المراد لكل واحد جنتان أو عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات ، ولا اتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة ، قوله (كلوا من رزق ربكم) إشارة إلى تكميل النعم عليهم

(١) قوله وربما ، الواو فيه معنى أو ، وبذلك تنصور الزيادة على اليوم أو الليلة إذ ليس للإنسان بعد اليوم التام واللييلة الكاملة وقت آخر ويزيده .

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ
خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَمَشَى مِنْ سُدرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦٥﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي
إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧٥﴾

حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض ، وقوله (واشكروا له) بيان أيضاً لكمال النعمة .
فإن الشكر لا يطلب إلا على النعمة المعتبرة ، ثم لما بين حالهم في مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم
بيان النعمة بأن بين أن لا غائلة عليه ولا تبعة في المال في الدنيا ، فقال (بلدة طيبة) أى طاهرة عن
المؤذيات لاحتية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم ، وقال (ورب غفور) أى لاعتقاب عليه ولا
عذاب في الآخرة ، فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة حالية خالية عن المفاسد المآلية .

ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم
سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشى من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما
كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾

فبين كمال ظلمهم بالإعراض بعد إبانة الآية كما قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر آيات ربه ثم
أعرض عنها) ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال (إننا من المجرمين منتقمون) وكيفيته أنه تعالى
أرسل عليهم سيلا غرق أموالهم وخرّب دورهم ، وفي العرم وجوه (أحدها) أنه الجرذ الذى سبب
خراب السكر ، وذلك من حيث إن بلقيس كانت قد عمدت إلى جبال بينها شعب فسدت الشعب
حتى كانت مياه الأمطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها أبواباً ثلاثة مرتبة
بعضها فوق بعض وكانت الأبواب يفتح بعضها بعد بعض . فنقب الجرذ السكر ، وخرّب السكر
بسيه وانقلب البحر عليهم (وثانيها) أن العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهى الحجارة
(ثالثها) اسم للوادي الذى خرج منه الماء وقوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط) بين به
دوام الخراب ، وذلك لأن البساتين التى فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فإذا
تركت سنين تصير كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل
ثمار وتكثر الأشجار ، والخمط كل شجرة لها شوك أو كل شجرة ثمرتها مرة ، أو كل شجرة ثمرتها
لا تؤكل ، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا فى بعض الأوقات ، يكون عليه شىء
كالغص أو أصفر منه فى طعمه وطبعه ، والسدر معروف وقال فيه قليل لأنه كان أحسن أشجارهم
فقله الله ، ثم بين الله أن ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال (ذلك جزيناهم بما كفروا
وهل نجازي) أى لا نجازي بذلك الجزاء (إلا الكفور) قال بعضهم : المجازاة تقال فى النعمة والجزاء

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ
 سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ «١٨» فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِد بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
 فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ «١٩»

في النعمة لكن قوله تعالى (ذلك جزيناهم) يدل على أن الجزاء يستعمل في النعمة ، ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهي في أكثر الأمر تكون بين اثنين ، يؤخذ من كل واحد جزاء في حق الآخر . وفي النعمة لا تكون مجازاة لأن الله تعالى مبتدئ بالنعمة .

ثم قال تعالى ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة : وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

أى بينهم وبين الشام فانها هي البقعة المباركة . وقرى ظاهرة أى يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الأخرى ، فان قال قائل : هذا من النعم والله تعالى قد شرع في بيان تبديل نعمهم بقوله (وبدلناهم بجناتهم جنتين) فكيف عاد مرة أخرى إلى بيان النعمة بعد النعمة ؟ فنقول ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخط والأثر . ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى ، ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادى والبرارى بقوله (ربنا باعد بين أسفارنا) وقد فعل ذلك ، ويدل عليه قرامة من قرأ ربنا بعد على المبتدأ والخبر ، وقوله (وقدرنا فيها السير) إلا ما كن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لا تتجاوز ، فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار ، وكانوا يخذون إلى قرية ويروحون إلى أخرى ما أمكن في العرف تجاوزها ، فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جاداً حتى يقطعها ، وقوله (سيروا فيها ليالي وأياماً) أى كان بينهم ليال وأيام معلومة ، وقوله (آمنين) إشارة إلى كثرة العماره ، فان خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرقيق لا يكون في مثل هذه الأماكن ، وقيل بأن معنى قوله (ليالي وأياماً) تسيرون فيه إن شئت ليالي وإن شئت أياماً لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلاً ، لئلا يعلم العدو بسيرهم ، وبعضها يسلك نهاراً لئلا يقصدهم العدو ، إذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة ، وقوله تعالى (قالوا ربنا باعد بين أسفارنا) قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يسألوا بطراً كما طلبت اليهود الثوم والبصل ، ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر كما يقول القائل لغيره اضربنى إشارة إلى أنه لا يقدر عليه . ويمكن أن يقال : (قالوا ربنا باعد) بلسان الخيال ، أى لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا
كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ
وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم ، وقوله (وظلوا أنفسهم) يكون بيانا لذلك ، وقوله (فجعلناهم أحاديث) أى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا ، يقال : تفرقوا أيدى سبا ، وقوله (ومزقناهم كل ممزق) بيان لجعلهم أحاديث ، وقوله تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ أى ظنه أنه يغويهم كما قال (فبعزتك لأغوينهم) وقوله (فاتبعوه) بيان لذلك أى أغواهم ، فاتبعوه (إلا فريقا من المؤمنين) قال تعالى فى حقهم (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) ويمكن أن يقال (صدق عليهم ظنه) فى أنه خير منه كما قال تعالى عنه (أنا خير منه) ويتحقق ذلك فى قوله فاتبعوه ، لأن المتبوع خير من التابع وإلا لا يتبعه العاقل والذى يدل على أن إبليس خير من الكافر ، هو أن إبليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان فى امتناعه ترك عبادة الله عنادا ككفر ، والمشرك يعبد غير الله فهو كفر بأمر أقرب إلى التوحيد ، وهم كفروا بأمر هو الإشراف ، ويؤيد هذا الذى اخترناه الاستثناء ، وبيانه هو أنه وإن لم يظن أنه يغوى الكل ، بدليل أنه تعالى قال عنه (إلا عبادك منهم المخلصين) فما ظن أنه يغوى المؤمنين فما ظنه صدقه ولا حاجة إلى الاستثناء ، وأما فى قوله (أنا خير منه) اعتقد الخيرية بالنسبة إلى جميع الناس بدليل تعليله بقوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) وقد كذب فى ظنه فى حق المؤمنين ، ويمكن الجواب عن هذا فى الوجه الأول ، وهو أنه وإن لم يظن إغواء الكل وعلم أن البعض ناج ، لكن ظن فى كل واحد أنه ليس هو ذلك الناجى ، إلى أن تبين له فظن أنه يغويه فكذب فى ظنه فى حق البعض وصدق فى البعض .

ثم قال تعالى ﴿ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ ﴾ .

قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أن علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو فى كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه ، فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما فى نفس الأمر فعلم الله فى الأزل أن العالم سيوجد ، فاذا وجد علمه موجودا بذلك العلم ، وإذا عدم يعلمه معدوماً بذلك ، مثاله : أن المرأة المصقولة فيها الصفاء

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ
الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ
قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها ، ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته ، والمرأة لم تتغير في ذاتها ولا تبدلت في صفاتها ، إنما التغير في الخارجات فكذلك ههنا قوله (إلا لنعلم) أي ليقع في العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن وكان قبله فيه أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو . وقوله (وما كان له عليهم من سلطان) إشارة إلى أنه ليس بملجئ وإنما هو آية ، وعلامة خلقها الله لتبين ماهو في علمه السابق ، وقوله (وربك على كل شيء حفيظ) يحقق ذلك أي الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم عالم بما سيقع ، فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة ، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه حفظه ولا العاجز .

ثم قال تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ .
لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكروهم بمن مضى عاد إلى خطابهم وقال لرسوله ﷺ قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم ثم بين أنهم لا يملكون شيئاً بقوله (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) .
واعلم أن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة (أحدها) قول من يقول الله تعالى خلق السماء والسموات وجعل الأرض والأرضيات في حكمهم ، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد الكواكب والملائكة التي في السماء فهم آلهتنا والله إلههم ، فقال الله تعالى في إبطال قولهم (إنهم لا يملكون في السموات شيئاً) كما اعترفتم ، قال ولا في الأرض على خلاف ما زعمتم (وثانيها) قول من يقول السموات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فان الله خلق العناصر والتركيبات التي فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا لغير الله معه شركا في الأرض والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له ، فقال في إبطال قولهم (وما لهم فيها من شرك) أي الأرض كالسماء لله لا لغيره ، ولا لغيره فيها نصيب (وثالثها) قول من قال : التركيبات والحوادث كلها من

الله تعالى لكن فوض ذلك إلى السكواكب ، وفعل المأذون ينسب إلى الآذن ويسلب عن المأذون فيه ، مثاله إذا قال ملك لمملوكه اضرب فلاناً فضربه يقال في العرف الملك ضربه ويصح عرفاً قول القائل ما ضرب فلان فلاناً ، وإنما الملك أمر بضربه فضرب ، فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى في إبطال قولهم (وماله منهم من ظهير) ما فوض إلى شيء شيئاً ، بل هو على كل شيء حفيظ ورقيب (ورابعها) قول من قال إنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى في إبطال قولهم (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فلا فائدة لعبادتكم غير الله فان الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أي أزيل الفرع عنهم ، يقال قرد البعير إذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد الصلب ، وفي قوله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق) وجوه (أحدها) الفرع الذي عند الوحي فان الله عندما يوحى يفرع من في السموات ، ثم يزيل الله عنهم الفرع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله ؟ فيقول قال الحق أي الوحي (وثانيها) الفرع الذي من الساعة وذلك لأن الله تعالى لما أوحى إلى محمد عليه السلام (فزع من في السموات) من القيامة لأن إرسال محمد عليه السلام من أشراط الساعة ، فلما زال عنهم ذلك الفرع قالوا ماذا قال الله قال جبريل (الحق) أي الوحي (وثالثها) هو أن الله تعالى يزيل الفرع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل أحد بأن ما قال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه ، ثم يقبض روحه على الإيمان المتفق عليه بينه وبين الله تعالى ، ويضر ذلك القول من سبق منه خلافه فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه وبين الله تعالى ، إذا علمت هذا فنقول على القولين الأولين قول الله تعالى (حتى) غاية متعلقة بقوله تعالى (قل) لأنه بينه بالوحي لأن قول القائل قل لفلان للانذار حتى يسمع المخاطب ما يقوله ، ثم يقول بعد هذا الكلام ما يجب قوله فلما قال (قل) فزع من في السموات ، ثم أزيل عنه الفرع ، وعلى الثالث متعلقة بقوله تعالى (زعمتم) أي زعمتم الكفر إلى غاية التفريع ، ثم تركتم ما زعمتم وقلتم قال الحق ، وعلى القولين الأولين فاعل قوله تعالى (قالوا ماذا) هو الملائكة السائلون من جبريل ، وعلى الثالث الكفار السائلون من الملائكة والفاعل في قوله (الحق) على القولين الأولين هم الملائكة ، وعلى الثالث هم المشركون .

واعلم أن الحق هو الموجود ثم إن الله تعالى لما كان وجوده لا يرد عليه عدم كان حقاً مطلقاً لا يرتفع بالباطل الذي هو العدم والكلام الذي يكون صدقاً يسمى حقاً ، لأن الكلام له متعلق في الخارج بواسطة أنه متعلق بما في الذهن ، والذي في الذهن متعلق بما في الخارج ، فإذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما في ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما في الخارج لكن للصدق متعلق يكون في الخارج فيصير له وجود مستمر وللكذب متعلق لا يكون في الخارج ، وحينئذ إما أن لا يكون له متعلق في الذهن فيكون كالمعدوم من الأول وهو الألفاظ التي تكون صادرة

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى

أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

عن معاند كاذب ، وإما أن يكون له متعلق في الذهن على خلاف ما في الخارج فيكون إعتقاداً باطلاً جهلاً أو ظناً لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل ، وكلام الله لا بطلان له في أول الأمر كما يكون كلام الكاذب المعاند (ولا يأتيه الباطل) كما يكون كلام الظان ، وقوله تعالى (وهو العلي الكبير) قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير) أن (الحق) إشارة إلى أنه كامل لا نقص فيه فيقبل نسبة العدم ، وفوق الكاملين لأن كل كامل فوقه كامل فقوله (وهو العلي الكبير) إشارة إلى أنه فوق الكاملين في ذاته وصفاته ، وهذا يبطل القول بكونه جسماً وفي حين ، لأن كل من كان في حين فإن العقل يحكم بأنه مشار إليه وهو مقطع الإشارة لأن الإشارة لو لم تقع إليه لما كان المشار إليه هو ، وإذا وقعت الإشارة إليه فقد تناهت الإشارة عنده ، وفي كل موقع تقف الإشارة بقدر العقل على أن يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين ماخذ الإشارة والمشار إليه أكثر من هذا البعد لكان هذا المشار إليه أعلى فيصير علياً بالاضافة لا مطلقاً وهو على مطلقاً ولو كان جسماً لكان له مقدار ، وكل مقدار يمكن أن يفرض أكبر منه فيكون كبيراً بالنسبة إلى غيره لا مطلقاً وهو كبير مطلقاً .

ثم قال تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ قد ذكرنا مراراً أن العامة يعبدون الله لا لكونه إلهاً ، وإنما يطلبون به شيئاً ، وذلك إما دفع ضرر أو جر نفع فنبه الله تعالى العامة بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم) على أنه لا يدفع الضرر أحد إلا هو كما قال تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) وقال بعد إتمام بيان ذلك (قل من يرزقكم من السموات والأرض) إشارة إلى أن جر النفع ليس إلا به ومنه ، فإذا إن كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضرراً أو لم يدفع وسواء نفعكم بخير أو لم ينفع فإن لم تسكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضرر وجر النفع . ثم قال تعالى ﴿ قل الله ﴾ يعني إن لم يقولوا هم فقل أنت الله يرزق (وههنا لطيفة) وهي أن الله تعالى عند الضرر ذكر أنهم يقولون الله ويعترفون بالحق حيث قال (قالوا الحق) وعند النفع لم يقل إنهم يقولون ذلك وذلك لأن لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضرر هو الله حيث يقولون في الضرر كما قال تعالى (وإذا مس الناس ضرر دعوا ربهم منيبين إليه) وأما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك فلذلك قال (قل الله) أي هم في حالة الراحة غافلون عن الله .

ثم قال تعالى ﴿ وإنا أو إياكم لعلَىٰ هدى أو في ضلالٍ مبين ﴾ وفيه مسائل :

قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾

(المسألة الأولى) هذا إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال الآخر هذا الذي تقوله خطأ وأنت فيه مخطيء يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع في الفهم فيفوت الغرض ، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك في أنه مخطيء والتماهى في الباطل قبيح والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق فنجتهد ونبصر أينما على الخطأ ليجتزأ منه يجتهد ذلك الخصم في النظر ويترك التعصب وذلك لا يوجب نقصاً في المنزلة لأنه أوم بأنه في قوله شك ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه (وإنا أو إياكم) مع أنه لا يشك في أنه هو الهادي وهو المهتدى وهم الضالون والمضلون .

(المسألة الثانية) في قوله (لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ذكر فى الهدى كلمة على وفى الضلال كلمة فى لأن المهتدى كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة التعلّى ، والضال منغمس فى الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة فى .

(المسألة الثالثة) ووصف الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لأن الهدى هو الصراط المستقيم الموصل إلى الحق والضلال خلافه لسكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال وبعضه بين من بعض ، فميز البعض عن البعض بالوصف .

(المسألة الرابعة) قدم الهدى على الضلال لأنه كان وصف المؤمنين المذكورين بقوله (إنا) وهو مقدم فى الذكر .

ثم قال تعالى ﴿ قل لا تسألون عما أجرمتنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ أضاف الإجماع إلى النفس وقال فى حقهم (ولا نسأل عما تعملون) ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم وقوله (لا تسألون) (ولا نسأل) زيادة حث على النظر وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذاً بجرمه فاذا اجترز نجاً ، ولو كان البرى يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر .

ثم قال تعالى ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ أكد ما يوجب النظر والتفكر ، فان مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب ، فكيف إذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله (يفتح) قيل معناه يحكم ، ويمكن أن يقال بأن الفتح ههنا مجاز وذلك لأن الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحه على طريق الحقيقة . ثم إن الأمر إذا كان فيه انغلاق وعدم وصول إليه فإذا بينه أحد يكون قد فتحه وقوله (وهو الفتاح العليم) إشارة إلى أن حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه .

قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

ثم قال تعالى ﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلاً بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ قد ذكرنا أن المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الأشراف الأعزة يعبدونه لأنه يستحق العبادة لذاته فلما بين أنه لا يعبد غير الله لدفع الضرر إذ لا دافع للضرر غيره بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) وبين أنه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله (قل من يرزقكم من السموات والأرض) بين ههنا أنه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال (قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلاً بل هو الله العزيز الحكيم) أي هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهي القدرة الكاملة والحكمة وهي العلم التام الذي عمله موافق له .

ثم قال تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ لما بين مسألة التوحيد شرع في الرسالة فقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافة) وفيه وجهان (أحدهما) كافة أي إرساله كافة أي عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها (والثاني) كافة أي أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر والهوى للبالغة على هذا الوجه (بشيراً) أي تحثهم بالوعد (ونذيراً) تزجرهم بالوعيد (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك لالخفائه ولكن لغفلتهم . ثم قال تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ لما ذكر الرسالة بين الحشر وقال ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ قد ذكرنا في سورة الأعراف أن قوله (لا تستأخرون) يوجب الإنذار ، لأن معناه عدم المهلة عن الأجل ولكن الاستقدام ما وجهه ؟ وذكرنا هناك وجهه ونذكر ههنا أنهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لا استعجال فيه كما لا أمهال ، وهذا يفيد عظم الأمر وخطر الخطب ، وذلك لأن الأمر الحقيق إذا طالبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه على وقت بخلاف الأمر الخطير وفي قوله تعالى (لكم ميعاد يوم) قراءات (أحدها) رفعهما مع التنوين وعلى هذا يوم بدل (وثانيها) نصب يوم مع رفع ميعاد والتنوين فيهما ميعاد يوماً قال الزمخشري ووجهه أنه منصوب بفعل محذوف كأنه قال ميعاد أعنى يوماً وذلك يفيد التعظيم والتحويل ، ويحتمل أن يقال نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يوماً

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ
الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلِ يَقُولُ الَّذِينَ
أَسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَلَّاتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

كما يقول القائل : أنا جائيك يوماً وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كما أنه يقول لكم ميعاد تعلمونه يوماً وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل إنه مقتول يوماً (الثالثة) الإضافة لكم ميعاد يوم كما في قول القائل سحق ثوب للتبيين وإسناد الفعل إليهم بقوله (لا تستأخرون عنه) بدلا عن إقوله (لا يؤخر عنكم) زيادة تأكيد لوقوع اليوم .

ثم قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ لما بين الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله (وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن) وذلك لأن القرآن مشتمل على الكل وقوله (ولا بالذي بين يديه) المشهور أنه التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر ، ويحتمل أن يقال إن المعنى هو أنا لا تؤمن بالقرآن أنه من الله ولا بالذي بين يديه أي ولا بما فيه من الإخبارات والمسائل والآيات والدلائل ، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم العموم ، لأن أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله ولا بالذي فيه من الرسالة وتفصيل الحشر ، فإن قيل : أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر ، فنقول إذا لم يصدق واحد ما في الكتاب من الأمور المختصة به يقال فيه إنه لم يؤمن بشيء منه وإن آمن ببعض ما فيه لكونه في غيره فيكون إيمانه لا بما فيه . مثاله : أن من يكذب رجلا فيما يقوله فاذا أخبره بأن النار حارة لا يكذبه فيه ولكن لا يقال إنه صدقه لأنه إنما صدق نفسه ، فانه كان عالما به من قبل وعلى هذا فقوله بين يديه أي الذي هو مشتمل عليه من حيث إنه وارد فيه .

وقوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أَلَّاتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾

لما وقع اليأس من إيمانهم في هذه الدار بقولهم ان تؤمن فإنه لتأييد النفي وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه يراهم على أذل حال موقوفين للسؤال يرجع بعضهم إلى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة أخطوا في أمر يقول بعضهم كان ذلك بسببك ويرد عليه الآخر مثل ذلك ، وجواب لو محذوف ، تقديره : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون لرأيت عجبا ، ثم بدأ بالاتباع لأن المضل أولى بالتوبيخ فقال (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أَلَّاتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) إشارة إلى أن

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ
إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مَجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ
مَكَرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا

كفرهم كان لمانع لا لعدم المقتضى لانهم لا يمكنهم أن يقولوا ما جاءنا رسول ، ولا أن يقولوا
قصر الرسول ، وهذا إشارة إلى إتيان الرسول بما عليه لأن الرسول لو أهمل شيئاً لما كانوا
يؤمنون ولولا المستكبرون لا منوا .

ثم قال تعالى ﴿ وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ
جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾ ،

رداً لما قالوا إن كفرنا كان لمانع (نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم
مجرمين) يعنى المانع ينبغى أن يكون راجحاً على المقتضى حتى يعمل عمله ، والذي جاء به هو الهدى ،
والذى صدر من المستكبرين لم يكن شيئاً يوجب الامتناع من قبول ما جاء به فلم يصح تعليلكم
بالمانع ، ثم بين أن كفرهم كان إجراماً من حيث إن المعذور لا يكون معذوراً إلا لعدم المقتضى
أو لقيام المانع ولم يوجد شيء منهما .

ثم قال تعالى ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا
أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾ .

لما ذكر المستكبرون أنا ما صددناكم وما صدر منا ما يصلح مانعاً وصارفاً اعترف المستضعفون به
وقالوا (بل مكر الليل والنهار) منعنا ، ثم قالوا لهم إنكم وإن كنتم ما أتيتم بالصارف القطعى والمانع
القوى ولكن انضم أمركم إيانا بالكفر إلى طول الأمد والامتداد في المدد فكفرنا فكان قولكم
جزء السبب ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يكون المراد بل مكركم بالليل والنهار فحذف المضاف
إليه . وقوله (إذ تأمرونا أن نكفر بالله) أى تنكره (ونجعل له أنداداً) هذا يبين أن المشرك
بالله مع أنه فى الصورة مثبت لكنه فى الحقيقة منكر لوجود الله لأن من يساويه المخلوق المنحوت
لا يكون إلهاً ، وقوله فى الأول (يرجع بعضهم إلى بعض القول) يقول الذين استضعفوا بلفظ
المستقبل ، وقوله فى الآيتين المتأخرتين (وقال الذين استكبروا ، وقال الذين استضعفوا) بصيغة
الماضى مع أن السؤال والتراجع فى القول لم يقع إشارة إلى أن ذلك لا بد وأن يقع ، فإن الأمر
الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع ، ألا ترى إلى قوله تعالى (إنك ميت ولهم ميتون) .

وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا
هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ
﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

ثم قال تعالى ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا
هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ .

معناه أنهم يتراجعون القول في الأول ، ثم إذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع
الدال على الندامة ، وقيل معنى الإسرار الإظهار أى أظهروا الندامة ، ويحتمل أن يقال بأنهم لما
تراجعوا في القول رجعوا إلى الله بقولهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً)
ثم أجيوا وأخبروا بأن لا مرد لكم فأسروا ذلك القول ، وقوله (وجعلنا الأغلال في أعناق الذين
كفروا) إشارة إلى كيفية العذاب وإلى أن مجرد الرؤية ليس كافياً بل لما رأوا العذاب قطعوا
بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الأغلال في أعناقهم ، وقوله (يجزون إلا ما كانوا
يعملون) إشارة إلى أن ذلك حقهم عدلاً .

ثم قال تعالى ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ،
وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ .

تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم وبياناً لأن إيذاء الكفار الأنبياء الأخيار ليس بدعا ، بل
ذلك عادة جرت من قبل وإنما نسب القول إلى المترفين مع أن غيرهم أيضاً قالوا (إنا بما أرسلتم
به كافرون) لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول ، ألا ترى أن الله قال عن الذين
استضعفوا إنهم قالوا للمستكبرين لولا أنتم لكانوا مؤمنين ، ثم استدلوا على كونهم مصيبين في
ذلك بكثرة الأموال والأولاد فقالوا (نحن أكثر أموالاً وأولاداً) أى بسبب لزومنا لديننا ، وقوله
(وما نحن بمعذبين) أى في الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلاً خيراً من حالكم ، وأما آجلاً فلا نعذب إما
إنكاراً منهم للعذاب رأساً أو اعتقاداً لحسن حالهم في الآخرة أيضاً قياساً [على حسن حالهم في الدنيا] .
ثم إن الله تعالى بين خطأهم بقوله ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ؕ آمَنُونَ ﴿٣٧﴾
وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنْ
رَبِّي يَبْسُطِ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ
يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

يعنى أن الرزق في الدنيا لا تدل سعته وضيقة على حال الحق والمبطل فكم من موسر شقي
ومعسر تقي (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى أن قلة الرزق ورضك العيش وكثرة المال وخصب
العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح ،
ثم بين فساد استدلالهم بقولهم ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من
آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴾ .
يعنى قولكم نحن أكثر أموالاً فنحن أحسن عند الله حالاً ليس استدلالاً صحيحاً ، فإن المال
لا يقرب إلى الله ولا اعتبار بالتعزز به ، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان والذي يدل
عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح إقبال على الله
واشتغال بالله ومن توجه إلى الله وصل ومن طلب من الله شيئاً حصل ، وقوله (فأولئك لهم جزاء
الضعف) أى الحسنة فإن الضعف لا يكون إلا فى الحسنة وفى السيئة لا يكون إلا المثل ،
ثم زاد وقال (وهم فى الغرفات آمنون) إشارة إلى دوام النعيم وتأيبده ، فإن من تنقطع
عنه النعمة لا يكون آمناً .

ثم بين حال المسىء بقوله ﴿ والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون ﴾
وقد ذكرنا تفسيره ، وقوله (أولئك فى العذاب محضرون) إشارة إلى دوام أيضاً كما قال
تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وكما قال تعالى (وما هم عنها بغائبين) .
ثم قال تعالى مرة أخرى ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم
من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافى نعمة الدنيا ، بل
الصالحون قد يحصل لهم فى الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم فى العقبى بناء على الوعد ، قطعاً
لقول من يقول : إذا كانت العاجلة لنا والأجلة لهم فالنقد أولى ، فقال هذا النقد غير مختص بكم

فان كثيراً من الأشقياء مدقعون ، وكثير من الأتقياء ممتعون وفيه مسائل :

(الاولى) ذكر هذا المعنى مرتين : مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم ، ومرة لبيان أنه غير مختص بهم كأنه قال وجود الترف لا يدل على الشرف ، ثم إن سلمنا أنه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك ، فان الله يملكهم دياركم وأموالكم ، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى لم يذكر أولاً لمن يشاء من عباده ، بل قال لمن يشاء ، وثانياً قال لمن يشاء من عباده ، والعباد المضافة يراد بها المؤمن ، ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر ، فان الكافر دابره مقطوع ، وماله إلى الزوال ، وماله إلى الزوال . وأما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله ، ومخلف الله خير ، فان ما في يد الإنسان في معرض البوار والتلف وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف ، ثم أكد ذلك بقوله (والله خير الرازقين) وخيرية الرازق في أمور (أحدها) أن لا يؤخر عن وقت الحاجة (والثاني) أن لا ينقص عن قدر الحاجة (والثالث) أن لا ينكده بالحساب (والرابع) أن لا يكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك .

أما (الاول) فلا نه عالم وقادر (والثاني) فلا نه غني واسع (والثالث) فلا نه كريم ، وقد ذكر ذلك بقوله (يرزق من يشاء بغير حساب) وما ذكرنا هو المراد ، أي يرزقه حلالاً لا يحاسبه عليه (والرابع) فلا نه على كبير والثواب يطلبه الأدنى من الأعلى ، ألا ترى أن هبة الأعلى من الأدنى لا تقتضى ثواباً .

(المسألة الثانية) قوله تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً » وذلك لأن الله تعالى ملك على وهو غني ملي ، فاذا قال أنفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه ، كما إذا قال قائل : ألق متاعك في البحر وعلى ضمائه ، فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البديل فيحصل البديل ، ومن لم ينفق فالزوال لازم للسال ولم يأت بما يستحق عليه من البديل فيفوت من غير خلف وهو التلف ، ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن مالا من أمواله في معرض الهلاك يبيعه نسيئة ، وإن كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الإمهال (١) إلى الهلاك ، فان لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ ، ثم إن حصل به كفيل مليء ولا يبيع ينسب إلى قلة العقل ، فان حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون ، ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريب من الجنون ، فان أموالنا كلها في معرض الزوال المحقق ، والإنفاق على الأهل والولد إقراض ، وقد حصل الضامن الملي وهو الله العلي وقال تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) ثم رهن عند كل واحد إما أرضاً أو بستاناً أو طاحونة أو حماماً أو منفعة ، فان الإنسان لا بد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها مال وكل ذلك ملك الله وفي يد الإنسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام ، ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجوراً ولا مشكوراً .

(١) في النسخة الأميرية إلى الاممال . ولكن ما كتبناه أولى وانسب لسياق الكلام .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾

قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ

مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

(المسألة الثالثة) قوله (خير الرازقين) ينبيء عن كثرة في الرازقين ولا رازق إلا الله ، فما الجواب عنه؟ فنقول عنه جوابان (أحدهما) أن يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك في قوله تعالى (وهو أحسن الخالقين) (وثانيهما) هو أن الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة ، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز ، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة ، مثال الأول العلم ، فإن الله يعلم أنه واحد والعبد يعلم أنه واحد بطريق الحقيقة ، وكذلك العلم بكون النار حارة ، غاية ما في الباب أن علمه قديم وعلينا حادث ، مثال الثاني الرازق والخالق ، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئاً فإن الله هو المعطى ، ولكن لأجل صورة العطاء منه سمي معطياً ، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وإنسان ، مثال الثالث الأزلى والله وغيرهما ، وقد يقال في أشياء في الإطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازاً كالأستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله . ثم قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ لما بين أن حال النبي ﷺ كحال من تقدمه من الأنبياء ، وحال قومه كحال من تقدم من الكفار ، وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم ، بين ما يكون من عاقبة حالهم فقال (ويوم نحشرهم جميعاً) يعني المكذبين بك وبين تقدمك ، ثم نقول لمن يدعون أنهم يعبدونهم وهم الملائكة ، فإن غاية ما ترتقى إليه منزلتهم أنهم يقولون نحن نعبد الملائكة والسكواكب ، فيسأل الملائكة أم كانوا يعبدونكم إهانة لهم ، فيقول كل منهم سبحانك نزهك عن أن يكون غيرك معبوداً وأنت مسبودنا ومعبود كل خلق ، وقولهم (أنت ولينا من دونهم) إشارة إلى معنى لطيف وهو أن مذاهب الناس مختلفة ؛ بعضهم لا يسكن المواضع المعمورة التي يكون فيها سواد عظيم ، لأنه لا يترأس هناك فيرضى لضياح والبلاد الصغيرة ، وبعضهم لا يريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها إلى الأكياس ، ثم إن الفريقين جميعاً إذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الأرزاق الذين لا التفات إليهم أصلاً يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لا يؤبه به ، ولو أن رجلاً سكن جبلاً ووضع بين يديه شيئاً من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان ، وهو

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ «٤٢»

يقول هؤلاء أتباعي وأشياعي ، ولا أدخل المدينة مخافة أن أحتاج إلى خدمة السلطان العظيم والتردد إليه ينسب إلى الجنون ، فكذلك من رضى بأن يترك خدمة الله وعبادته ، ورضى باستتباع اھمج الذين هم أضل من البهائم وأقل من الهوام يكون مجنوناً ، فقالوا (أنت ولينا من دونهم) يعنى كونك ولينا بالمعبودية أولى ، وأحب إلينا من كونهم أوليائنا بالعبادة لنا وقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) أى كانوا ينقادون لأمر الجن ، فهم فى الحقيقة كانوا يعبدون الجن ، ونحن كنا كالقبلة لهم ، لأن العبادة هى الطاعة وقوله تعالى (أكثرهم بهم مؤمنون) لو قال قائل جميعهم كانوا تابعين للشياطين ، فما وجه قوله (أكثرهم بهم مؤمنون) فإنه ينبىء أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم ؟ نقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم فقالوا أكثرهم لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار (الثانى) هو أن العبادة عمل ظاهر والايمان عمل باطن فقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا (أكثرهم بهم مؤمنون) عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما فى القلوب فان القلب لا اطلاع عليه إلا الله ، كما قال تعالى (إنه علم بذات الصدور) .

ثم بين أن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال ﴿ فالיום لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ وفيه مسائل :
(المسألة الأولى) الخطاب بقوله (بعضكم) مع من ؟ نقول يحتمل أن يكون الملائكة لسبق قوله تعالى (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) وعلى هذا يكون ذلك تنكيلاً للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر ، ويصحح هذا قوله تعالى (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) وقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ولأنه قال بعده (ونقول للذين ظلموا ذوقوا) فأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا .

وعلى هذا يكون الكفار داخلين فى الخطاب حتى يصح معنى قوله (بعضكم لبعض) أى الملائكة للكفار ، والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه فى أمر مخاطباً بسببه ، كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك فى كلام أنتم قلتم ، على معنى أنت قلت ، وهم قالوا ، ويحتمل أن يكون معهم الجن أى لا يملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجن ، وإذا لم تملكوها لأنفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب هم الكفار لأن ذكر اليوم يدل على حضورهم ، وعلى هذا فقوله (ونقول للذين ظلموا) إنما ذكره تأكيداً لبيان حالهم فى الظلم ، وسبب نكالهم من الإثم ولو قال (فذوقوا عذاب النار) لكان كافياً لكنه ، لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة ، فانهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا

وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانْتُمْ يَعْبُدُونَ ۖ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ مَا تُعْبُدُونَ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

عليه من الظلم والعناد والإثم والفساد يتحسرون ويندمون .

(المسألة الثانية) قوله (نفعاً) مفيد للحسرة ، وأما الضرر فما الفائدة فيه مع أنهم لو كانوا يملكون الضرر لما نفع الكافرين ذلك؟ فنقول لما كانت العبادة تقع لدفع ضرر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين أنهم ليس فيهم ذلك الوجه الذي يحسن لأجله عبادتهم .

(المسألة الثالثة) قال (ههنا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) وقال في السجدة (عذاب النار الذي كنتم به) جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل ، والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول ما رأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) أي العذاب المؤبد الذي أنكرتموه بقولكم (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) أي قلتم إن العذاب إن وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم ، وههنا أول ما رأوا النار لأنه مذكور عقب الحشر والسؤال فقيل لهم (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) .

ثم قال تعالى ﴿ وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانْتُمْ يَعْبُدُونَ ۖ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ مَا تُعْبُدُونَ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

إظهاراً لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا (سبحانك أنت ولينا) أي لأهلية لنا إلا لعبادتك من دونهم أي لأهلية لنا لأن نكون معبودين لهم ولا لنفع أو ضرر كما قال تعالى (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضرراً) ثم مع هذا كله إذا قال لهم النبي عليه السلام كلاماً من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه ، فإن لله في كل شيء آيات دالة على وحدانيته أنكروها وقالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم يعني يعارضون البرهان بالتقليد (وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى) وهو يحتمل وجوهاً : (أحدها) أن يكون المراد أن القول بالوحدانية (إفك مفترى) ويدل عليه هو أن الموحدين كان يقول في حق المشرك إنه يافك كما قال تعالى في حقهم (أفكاً آلهة دون الله تريدون) وكما قالوا للرسول (أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا) (وثانيها) أن يكون المراد (ما هذا إلا إفك) أي القرآن إفك وعلى الأول يكون قوله (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ «٤٤» وَكَذَّبَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ
 «٤٥» قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا
 مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ «٤٦»

(إلا سحر مبين) إشارة إلى القرآن وعلى الثاني يكون إشارة إلى ما أتى به من المعجزات وعلى الوجهين
 فقوله تعالى (وقال الذين كفروا) بدلا عن أن يقول وقالوا للحق هو أن إنكار التوحيد كان
 مختصاً بالمشركين ، وأما إنكار القرآن والمعجزات [فقد] كان متفقاً عليه بين المشركين وأهل
 الكتاب [فقال] تعالى (وقال الذين كفروا للحق) على وجه العموم .

ثم قال تعالى ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، وكذب الذين
 من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ .

وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير تأكيد لبيان تقليدهم يعني يقولون عندما تتلى عليهم الآيات
 البينات هذا رجل كاذب وقولهم (إفك مفترى) من غير برهان ولا كتاب أنزل عليهم ولا رسول أرسل
 إليهم ، فالآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية ، ولم يأتوا بها أو بالتقلبات وما عندهم كتاب
 ولا رسول غيرك ، والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول الله ، ثم بين أنهم كالذين
 من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود ، وقوله تعالى (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) قال المفسرون
 معناه : وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر ، ثم إن
 الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء ، وعندى [أنه] محتمل ذلك وجهاً آخر وهو
 أن يقال المراد (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أي الذين من قبلهم ما بلغوا
 معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان ، وذلك لأن كتاب محمد عليه السلام أكمل من سائر
 الكتب وأوضح ، ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح ، وبرهانه أوفى ، وبيانه أشنى ، ثم
 إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبين أتاهم من الرسل أنكروا عليهم وكيف لا ينكر
 عليهم ، وقد كذبوا بأفصح الرسل ، وأوضح السبل ، يؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى (وما آتيناهم
 من كتب يدرسونها) يعني غير القرآن ما آتيناهم كتاباً وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، فلما كان
 المؤتى في الآية الأولى هو الكتاب ، فحمل الإيتاء في الآية الثانية على إيتاء الكتاب أولى .

ثم قال تعالى ﴿قل إنما أعظم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تفكروا ما بصاحبكم
 من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾

ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل فقوله (أن تقوموا لله) إشارة إلى التوحيد وقوله (ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم) إشارة إلى الرسالة وقوله (بين يدي عذاب شديد) إشارة إلى اليوم الآخر وفي الآية مسائل :

(الأولى) قوله (إنما أعظكم بواحدة) يقتضى أن لا يكون إلا بالتوحيد ، والإيمان لا يتم إلا بالاعتراف بالرسالة والحشر ، فكيف يصح الحصر المذكور بقوله (إنما أعظكم بواحدة) ؟ فقول التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد. يشرح الله صدره ويرفع في الآخرة قدره فالنبي ﷺ أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيئ لهم أسباب السعادات ، وجواب آخر وهو أن النبي ﷺ ما قال إني لا آمركم في جميع عمرى إلا بشئ واحد ، وإنما قال أعظكم أولاً بالتوحيد ولا آمركم في أول الأمر بغيره لأنه سابق على الكل ويدل عليه قوله تعالى (ثم تفكروا) فإن التفكير أيضاً صار مأموراً به وموعوظاً .

(المسألة الثانية) قوله (بواحدة) قال المفسرون أنها على أنها صفة خصلة أى أعظكم بخصلة واحدة ، ويحتمل أن يقال المراد حسنة واحدة لأن التوحيد حسنة وإحسان وقد ذكرنا في قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) أن العدل نبي الإلهية عن غير الله والإحسان إثبات الإلهية له ، وقيل في تفسير قوله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) أن المراد هل جزاء الإيمان إلا الجنان ، وكذلك يدل عليه قوله تعالى (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله) .

(المسألة الثالثة) قوله (مثنى وفرادى) إشارة إلى جميع الأحوال فإن الإنسان إما أن يكون مع غيره أو يكون وحده ، فإذا كان مع غيره دخل في قوله (مثنى) وإذا كان وحده دخل في قوله (فرادى) فكأنه يقول تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله .

(المسألة الرابعة) قوله (ثم تفكروا) يعنى اعترفوا بما هو الأصل والتوحيد ولا حاجة فيه إلى تفكير ونظر بعد ما بان وظهر ، ثم تفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر ، فانه يحتاج إلى تفكير ، وكلمة ثم تفكير ما ذكرنا ، فانه قال (أن تقوموا لله ثم تفكروا) ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبي عليه السلام فقال (ما بصاحبكم من جنة) .

(المسألة الخامسة) قوله (ما بصاحبكم من جنة) يفيد كونه رسولا وإن كان لا يلزم في كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولا ، وذلك لأن النبي عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورة للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب إما الجن أو الملك ، وإذا لم يكن الصادر من النبي ﷺ بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدره الله تعالى من غير واسطة ، وعلى التقديرين فهو رسول الله ، وهذا من أحسن الطرق ، وهو أن يثبت الصفة التي هي أشرف الصفات في البشر بنبي أحسن الصفات ، فانه لو قال أولاً هو رسول الله كانوا يقولون فيه النزاع ، فاذا قال ما هو بمنزلة لم

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمِ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

يسعهم إنكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله في قوة لسانه وبيانه (١) فإذا ساعدوا على ذلك لزمهم المسألة. ولهذا قال بعده إن هو إلا نذير ، يعني إما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين أنه ليس به جنة فهو نذير . (المسألة السادسة) قوله (بين يدي عذاب شديد) إشارة إلى قرب العذاب كأنه قال ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدي العذاب أي سوف يأتي العذاب بعده .

ثم قال تعالى ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ﴾ لما ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبياً ذكر وجهاً آخر يلزم منه أنه نبي إذا لم يكن مجنوناً لأن من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل إذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروي يكون مجنوناً ، فالنبي عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلاً ، فإن كل أحد يقصده ويعاديه ولا يطلب أجراً في الدنيا فهو يفعل الآخرة ، والكاذب في الآخرة معذب لا مثاب ، فلو كان كاذباً لكان مجنوناً لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب ، فهو نبي صادق وقوله (وهو على كل شيء شهيد) تقرير آخر للرسالة وذلك لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة . بأن يدعى شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهي بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول في إفادة العلم بدليل أن من قال لقوم إني مرسل من هذا الملك إليكم ألزمكم قبول قولي والملك حاضر ناظر ، ثم قال للملك أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فقل لهم إني رسولك فإذا قال إنه رسولي إليكم لا يبقى فيه شك كذلك إذا قال يا أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فألسني قبائك فلو ألبسه قبائه في عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله ، كذلك حال الرسل إذا قال الأنبياء لقومهم نحن رسل الله ، ثم قالوا يا إلهنا إن كنا رسلك فأنطق هذه الحجارة أو أنشر هذا الميت ففعله حصل الجزم بأنه صدقه .

ثم قال تعالى ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) يقذف بالحق في قلوب المحققين ، وعلى هذا الوجه للآية بما قبلها تعلق ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما بين رسالة النبي ﷺ بقوله (إن هو إلا نذير لكم) وأكده بقوله (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم) وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بإنزال الذكر عليه ، كما قال تعالى عنهم (أنزل عليه الذكر من بيننا) ذكر ما يصلح جواباً لهم فقال (قل إن ربي يقذف بالحق) أي في القلوب إشارة إلى أن الأمر بيده يفعل ما يريد ويعطي ما يشاء لمن يشاء .

ثم قال تعالى (علام الغيوب) إشارة إلى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو أن من يفعل شيئاً

(١) في النسخة طبعة بولاق : في قوة لسانه وباله ولما كان غير واضحة المعنى فقد التفتاها هكذا لأن اللازم لقوة اللسان قوة البيان .

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشئ لا يوجد في غيره لا يكون عالماً وإنما فعل ذلك اتفاقاً ، كما إذا أصاب السهم موضعاً دون غيره مع تسوية المواضع في المحاذاة فقال (يقذف بالحق) كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب ما يفعله فهو يفعل ما يريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب إذ هو علام الغيوب (الوجه الثاني) أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما كما قال في سورة الأنبياء (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضاً ظاهر وذلك من حيث إن براهين التوحيد لما ظهرت ودحضت شبههم قال (قل إن ربي يقذف بالحق) أي على باطلكم ، وقوله (علام الغيوب) على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم إلا على التوحيد والرسالة ، وأما الحشر فعلى وقوعه لا برهان غير إخبار الله تعالى عنه ، وعن أحواله وأهواله ، ولولا بيان الله بالقول لما بان لأحد بخلاف التوحيد والرسالة ، فلما قال (يقذف بالحق) أي على الباطل ، إشارة إلى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال (علام الغيوب) أي ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لا خلف فيه فإن الله علام الغيوب ، والآية تحتل تفسيراً آخر وهو أن يقال (ربي يقذف بالحق) أي ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على الرجحين الأولين متعلق بالمفعول به أي الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء في قوله (وقضى بينهم بالحق) وفي قوله (فاحكم بين الناس بالحق) والمعنى على هذا الوجه هو أن الله تعالى قذف ما قذف في قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم ما في قلوبهم وما في قلوبكم .

ثم قال تعالى ﴿ قل جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد ﴾ .

لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال ، ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه (أحدها) أنه القرآن (الثاني) أنه بيان التوحيد والحشر وكل ما ظهر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم (الثالث) المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام ، ويحتمل أن يكون المراد من (جاء الحق) ظهر الحق لأن كل ما جاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق ، وقد بينا أن الحق هو الموجود ، ولما كان ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر ، كان حقاً لا ينتفى ، ولما كان ما يأتون به من الإشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلاً لا يثبت ، وهذا المعنى يفهم من قوله (وما يبدى الباطل) أي الباطل لا يفيد شيئاً في الأولى ولا في الآخرة فلا إمكان لوجوده أصلاً ، والحق المأثى به لا عدم له أصلاً ، وقيل المراد لا يبدى الشيطان ولا يعيد ، وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى (قل إن ربي يقذف بالحق) لما كان فيه معنى قوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) كان يقع لتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَمَا أَضَلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي
إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥١﴾

فأبطله ودمغه ، فقال هنا ليس للباطل تحقق أولاً و آخراً ، وإنما المراد من قوله (فدمغه) أى فيظهر بطلانه الذى لم يزل كذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى فى موضع آخر (وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) يعنى ليس أمراً متجدداً زهوق الباطل ، فقوله (وما يبدىء الباطل) أى لا يثبت فى الأول شيئاً خلاف الحق (ولا يعيد) أى لا يعيد فى الآخرة شيئاً خلاف الحق .

ثم قال تعالى ﴿ قل إن ضللت فأنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربى إنه سميع قريب ﴾ .

هذا فيه تقرير الرسالة أيضاً وذلك لأن الله تعالى قال على سبيل العموم (من اهتدى فلنفسه) وقال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم (وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربى) يعنى ضلالى على نفسى كضلالكم ، وأما اهتدائى فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم ، وإنما هو بالوحي المبين ، وقوله (إنه سميع) أى يسمع إذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتىكم من غير تأخير ، ليس يسمع عن بعد ولا يلحق الداعى .

ثم قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴾

لما قال (سميع) قال هو قريب فإن لم يعذب عاجلاً ولا يعين صاحب الحق فى الحال فيوم الفرع آت لا فوت ، وإنما يستعجل من يخاف الفوت . وقوله (ولو ترى) جوابه محذوف أى ترى عجباً (وأخذوا من مكان قريب) لا يهربون وإنما الأخذ قبل تمسكهم من الهرب .

ثم قال تعالى ﴿ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ .

أى بعد ظهور الأمر حيث لا ينفع إيمان ، قالوا آمنا (وأنى لهم التناوش) أى كيف يقدر على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون إلا فى الدنيا وهم فى الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة ، فإن قيل فكيف قال كثير من المواضع إن الآخرة من الدنيا قريبة ، ولهذا سماها الله الساعة وقال (لعل الساعة قريب) نقول الماضى كالأمس الدابر بعد ما يكون إذ لا وصول إليه ، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنين فانه آت ، فيوم القيامة الدنيا بعيدة باضها وفى الدنيا يوم القيامة قريب لإتيانه والتناوش هو التناول عن قرب . وقيل عن بعد ، ولما جعل الله الفعل مأخوذاً كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال (من مكان بعيد) والمراد ماضى من الدنيا .

ثم بين الله تعالى أن إيمانهم لا نفع فيه بسبب أنهم كفروا به من قبل ، والإشارة فى قوله

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ «٥٤» وَحِيلَ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ إِنْهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ «٥٤»

(آمننا به) وقوله ((وقد كفروا به من قبل)) إلى شيء واحد، إما محمد عليه الصلاة والسلام وإما القرآن وإما الحق الذي أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى، وقوله ((ويقذفون بالغيب)) ضد يؤمنون بالغيب لأن الغيب ينزل من الله على لسان الرسول، فيقذفه الله في القلوب ويقبله المؤمن، وأما الكافر فهو يقذف بالغيب، أى يقول ما لا يعلمه، وقوله ((من مكان بعيد)) يحتمل أن يكون المراد منه أن مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من أنهم لا يقدرّون على أعمال كثيرة إلا إذا كانوا أشخاصاً كثيرة، فكذلك المخلوقات الكثيرة وأخذوا بعد الإعادة من حالهم وعجزهم عن الإحياء، فإن المريض يداوى فإذا مات لا يمكنهم إعادة الروح إليه، وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ، ويحتمل أن يقال إنهم كانوا يقولون بأن الساعة إذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا، كقول قائلهم (ولئن رجعت إلى ربي إنلى عنده للحسنى) فكانوا يقولون ذلك فان كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن إحساس فان ما لا يجب عقلاً لا يعلم إلا بالإحساس أو بقول الصادق، فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد، فان قيل قد ذكرت أن الآخرة قريب فكيف قال من مكان بعيد؟ نقول الجواب عنه من وجه (أحدهما) أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد ﷺ ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيداً عنده (الثاني) أن الحكاية يوم القيامة، فكانه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا، ويحتمل وجهاً آخر وهو أنهم في الآخرة يقولون (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا.

ثم قال تعالى ((وحيل بينهم وبين ما يشتهون)) من العود إلى الدنيا أو بين لذات الدنيا، فان قيل : كيف يصح قولك ما يشتهون من العود مع أنه تعالى قال ((كما فعل بأشياءهم من قبل إنهم كانوا في شك مرّيب)) وما حيل بينهم وبين العود؟ قلنا لم قلتم إنه ما حيل بينهم، بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم يقبل، وقوله (مرّيب) يحتمل وجهين (أحدهما) ذى ريب (والثاني) موقع فى الريب، وسند كره فى موضع آخر إن شاء الله تعالى، والله أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه أجمعين.

((تم الجزء الخامس والعشرون، ويليه السادس والعشرون وأوله سورة فاطر))
وقد راجعه على النسخة الأميرية الأستاذ محمد اسماعيل انصاوى بالإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف

فهرست

الجزء الخامس والعشرون من التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازي

صفحة	صفحة
٣٥	٢
قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه) .	قوله تعالى (إنك لا تهدي من أحببت) الآية
٣٦	٤
» » (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية .	» » (وكم أهلكنا من قرية)
٣٧	٥
» » (ومن الناس من يقول آمنا) .	» » (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا) الآية
٤٠	٦
» » (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) الآية .	» » (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي) الآيات
٤١	٩
» » (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) الآية .	» » (فأما من تاب وآمن) الآيات
٤٢	١١
» » (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) .	» » (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً) الآيات .
٤٣	١٢
» » (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله) الآية .	» » (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) الآيات .
٤٤	١٣
» » (إنما تعبدون من دون الله أوثانا) الآية .	» » (إن قارون كان من قوم موسى)
٤٥	١٧
» » (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) الآية .	» » (فخرج على قومه في زينته)
» » (أولم يروا كيف يبدى الله الخلق) الآية .	» » (وأصبح الذين آمنوا مكانه)
٤٦	٢٠
» » (قل سيروا في الأرض) الآية .	» » (من جاء بالحسنة فله خير منها)
٤٨	٢٥
» » (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) الآيات .	تفسير سورة العنكبوت .
٥٠	قوله تعالى (ألم ، أحسب الناس أن يتركوا) الآيات .
» » (والذين كفروا بآيات الله ولقائه) الآية .	» » (ولقد فتنا الذين من قبلهم) الآية
٥١	» » (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) الآيات .
» » (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا) الآية .	» » (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) الآية .
	» » (والذين آمنوا وعملوا الصالحات)

صفحة	صفحة
۸۴	۵۳
» قوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) »	» قوله تعالى (وقال إنما اتخذتم من
۸۵	» دون الله أو ثاناً) الآية .
» (والذين آمنوا وعملوا) »	» (فآمن له لوط) الآية .
۸۶	» (والذين صبروا) الآيات .
» (والذين سألتهم من خلق) الآية	» (ووهبنا له اسحق ويعقوب) .
۸۸	» (ولوطاً إذ قال لقومه) »
» (الله يبسط الرزق) »	» (ولما جاءت رسلنا
۸۹	» (ولئن سألتهم من نزل) »
» (وما هذه الحياة الدنيا) »	» إبراهيم بالبشرى) الآيات .
۹۲	» (ولما أن جاءت رسلنا
» (فاذا ركبوا في الفلك) »	» لوطاً سيء بهم) الآيات .
۹۳	» (أولم يروا أنا) الآيات .
» (والذين جاهدوا فينا) الآية	» (وإلى مدين أخاهم شعيباً) .
۹۴	» (وعاداً وثمود وقد تبين
تفسير سورة الروم ۹۵	» لكم من مساكنهم) الآيات .
» قوله تعالى (ألم تغلبت الروم) الآيات .	» (فكلما أخذنا بذنبه) »
» (أولم يسيروا في) »	» (مثل الذين اتخذوا من
» (ويوم تقوم الساعة) »	» دون الله أولياء) الآية .
» (فسبحان الله حين) »	» (وإن أو هن البيوت
» (ومن آياته أن خلقكم) »	» لبيت العنكبوت) الآيات
» (أولم يخلق لكم من) »	» (وما يعقلها إلا العالمون) »
» (من أنفسكم أزواجاً) الآية .	» (اتل ما أوحى إليك) »
» (ومن آياته خلق السموات	» (ولذكر الله أكبر) »
» والأرض) الآية	» (ولا تجادلوا) الآيات .
» (ومن آياته منامكم بالليل) »	» (وما كنت تتلو) »
» (« يريك البرق) »	» (وقالوا لولا أنزل عليه) الآية .
» (ومن آياته أن تقوم السماء	» (أولم يكفهم) الآيات .
» والأرض بأمره) الآية .	» (ويستعجلونك بالعذاب
» (وإن من في السموات	» الآيات
» والأرض) الآيات .	» (يا عبادي الذين آمنوا) الآية .
» (ضرب لكم مثلا) الآية	» ۸۳
» ۱۱۸	

صفحة	صفحة
١٤٨	١١٩
قوله تعالى (يا بني أقم الصلاة) الآية	قوله تعالى (بل اتبع الذين ظلموا) الآية .
١٤٩	١٢٠
» (ولا تصعر خدك للناس) »	» (منيبين إليه واتقوه) »
١٥٠	١٢١
» (واقصد في مشيك) »	» (وإذامس الناس ضراً) »
١٥١	١٢٢
» (ألم تر وأن الله يخزلكم) »	» (ليكفروا بما آتيناكم) »
١٥٣	١٢٣
» (وإذا قيل لهم اتبعوا) »	» (وإذا أذقنا الناس رحمة) »
١٥٤	١٢٤
» (ومن كفر فلا يحزنك) »	» (فأت ذا القربى حقه) »
١٥٥	١٢٦
» (ولئن سألتهم من خلق) »	» (وما آتيتم من رباً) »
١٥٦	١٢٧
» (ولو أن ما فى الأرض) »	» (الله الذى خلقكم) »
١٥٨	١٢٨
» (ألم تر أن الله يولج الليل) »	» (ظهر الفساد فى البر) »
١٦٠	١٢٨
» (ذلك بأن الله هو الحق) »	» (قل سيروا فى الأرض) »
١٦١	١٢٩
» (ألم تر أن الفلك تجرى) »	» (فأقم وجهك للدين) »
١٦٢	١٣٠
» (وإذا غشيهم موج كالأظلال) »	» (ليجزى الذين آمنوا) »
دعوا الله) الآية	» (ومن آياته أن يرسل) »
١٦٣	١٣٢
» (يا أيها الناس اتقوا ربكم) »	» (ولقد أرسلنا من قبلك) »
١٦٤	١٣٤
» (إن الله عنده علم الساعة) الآية	» (وما أنت بهادى العمى) »
١٦٦	١٣٥
تفسير سورة السجدة	» (الله الذى خلقكم) »
» (ألم ، تنزيل الكتاب) »	» (ويوم تقوم الساعة) »
لا ريب فيه) الآيات .	» (وقال الذين أوتوا العلم) »
١٦٧	١٣٧
» (الله الذى خلق السموات) »	» (فى يومئذ لا ينفع الذين) »
والأرض) الآية .	» (كذلك يطبع الله) »
١٧٢	١٣٩
» (يدبر الأمر من السماء) »	تفسير سورة لقمان
إلى الأرض) الآية .	قوله تعالى (ألم ، تلك آيات الكتاب) »
١٧٣	١٤٠
» (ذلك عالم الغيب) »	» (ومن الناس من يشتري) »
١٧٤	١٤١
» (ثم سويه ونفخ فيه من) »	» (وإذا تتلى عليه آياتنا) »
روحه) الآية .	» (إن الذين آمنوا وعملوا) »
١٧٥	١٤٣
» (وقالوا أئذا ضللتنا) الآية .	» (وألقى فى الأرض) »
١٧٦	١٤٤
» (قل يتوفاكم ملك الموت) »	» (هذا خلق الله فأروني) »
الذى وكل بكم) الآية .	» (وإذا قال لقمان لابنه) »
١٧٧	١٤٧
» (ولو ترى إذا) الآية .	» (وإن جاهدك على أن) »

صفحة	صفحة
١٩٦ تفسير قوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) .	١٧٨ قوله تعالى (ولوشئنا لآتينا كل نفس هديها) الآية .
١٩٦ قوله تعالى (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم) .	١٧٩ » » (فذوقوا بما نسيتم) الآية .
١٩٧ » » (ليسأل الصادقين عن صدقهم) .	١٨٠ » » (إنا نؤمن بآياتنا) .
» » (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) .	١٨١ » » (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم) الآية .
١٩٨ تفسير هذه الآية .	١٨٢ » » (أفمن كان مؤمناً) الآية
١٩٩ قوله تعالى (هنالك ابتلى المؤمنون) .	١٨٣ » » (ولنذيقنهم من العذاب) .
» » (وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض معنى الظنون بيان وأقسامها)	١٨٤ » » (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) الآيات .
٢٠٠ قوله تعالى (ولودخلت عاهم من أقطارها)	١٨٦ » » (إن ربك هو يفصل) الآية .
» » (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل)	١٨٧ » » (أولم يروا أنانسوق الماء) .
» » (قل من ذا الذي يعصمكم من الله) .	١٨٩ تفسير سورة الأحزاب
» » (قد يعلم الله المعوقين منكم)	قوله تعالى (يا أيها النبي اتق الله) الآية .
» » (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك) .	١٩٠ » » (ولا تطع الكافرين والمنافقين) الآية .
٢٠٢ » » (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم) .	١٩١ » » (واتبع ما يوحى إليك من ربك) الآيات .
» » (يحسبون الأجواب لم يذهبوا) .	» » (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) .
» » (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)	١٩٢ » » (ذلكم قولكم بأفواهكم) .
» » (ولما رأى المؤمنون الأحزاب)	» » (والله يقول الحق)
	١٩٣ » » (ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله) الآية .
	» » (وهو يهدي السبيل)
	١٩٤ » » (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) .
	١٩٥ » » (وأزواجه أمهاتهم)

صفحة	صفحة
۲۱۱	۲۰۳
قوله تعالى (أعد الله لهم مغفرة) .	قوله تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا)
» » ۲۱۱ (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) .	» » (ليجزي الصادقين بصدقهم)
» » (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه)	» » (ورد الله الذين كفروا
» » ۲۱۲ (أمسك عليك زوجك) .	بغیظهم) .
» » (فلما قضى زيد منها وطراً) .	» » ۲۰۴ (وكفى الله المؤمنين القتال) .
» » (ما كان على النبي من حرج) .	» » (وأنزل الذين ظاهروهم) .
» » (سنة الله في الذين خلوا) .	» » (وقذف في قلوبهم الرعب) .
» » ۲۱۳ (وكان أمر الله قدر أمقذوراً)	» » ۲۰۵ (وأورثكم أرضهم وديارهم)
» » (الذين يبلغون رسالات الله) .	» » (يا أيها النبي قل لأزواجك) .
» » (ولا يخشون إلا الله) .	» » (وإن كنتم ترذون الله ورسوله)
» » ۲۱۴ (ما كان محمد أباً أحسن رجالكم)	» » ۲۰۶ (فتعالين أمتككن) .
» » (يا أيها الذين آمنوا اذكروا	» » (وأسر حكن سرا حاً جميلاً) .
الله) .	» » (أعد للحسنات) .
» » ۲۱۵ (وسبحوه بكرة وأصيلاً) .	» » ۲۰۷ (يانساء النبي من يأت منكن
» » (هو الذي يصلي عليكم) .	بفاحشة) .
» » (تحيتهم يوم يلقونه) .	» » (ومن يقنت منكن)
» » ۲۱۶ (وأعد لهم أجراً كريماً) .	» » ۲۰۸ (يانساء النبي لستن كأحد
» » (يا أيها النبي إنا أرسلناك) .	من النساء) .
» » ۲۱۷ (وداعياً إلى الله باذنه) .	» » (إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول)
» » ۲۱۸ (وبشر المؤمنين) .	» » ۲۰۹ (وقرن في بيوتكن) .
» » (ولا تطع الكافرين) .	» » (وأقمن الصلاة) .
» » (يا أيها الذين آمنوا إذا	» » (إنما يريد الله ليذهب عنكم
نكحتم المؤمنات) .	الرجس) .
» » ۲۱۹ (يا أيها النبي إنا أحللتنا لك) .	» » ۲۱۰ (واذكرن ما يتلى في بيوتكن)
» » ۲۲۰ (وكان الله غفوراً رحيماً) .	» » (إن الله كان لطيفاً) .
» » ۲۲۱ (ترجى من تشاء ممنهن) .	» » (إن المسلمين والمسلمات)
» » (ذلك أدنى أن تقرأ عينهن) .	الآيات .
» » (والله يعلم ما في قلوبكم) .	» » ۲۱۱ (والذاكرين الله كثيراً) .

صفحة	صفحة
۲۲۳ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا	۲۲۱ قوله تعالى (لا يمل لك النساء من بعد).
لا تكونوا كالذين آذوا موسى	۲۲۳ » » (إلا ما ملكت يمينك) .
(وكان عند الله وجيهاً)	۲۲۳ » » (وكان الله على كل شيء رقيباً).
» » ۲۳۴ (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله)	» » (يا أيها الذين آمنوا
» » (ومن يطع الله ورسوله)	لا تدخلوا بيوت النبي) .
» » (إنا عرضنا الأمانة على	» » (ولكن إذا دعيتم فادخلوا).
السموات)	» » (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام).
» » ۲۳۵ (فأبين أن يحملنها)	» » ۲۲۴ (فاذا أطعمتم فانتشروا) .
» » (إنه كان ظلوماً جهولاً)	» » (إن تبدوا شيئاً أو تخفوه).
» » ۲۳۷ (ليعذب الله المنافقين)	» » ۲۲۶ (لا جناح عليهن في آباءهن).
سورة سبأ ۲۳۸	» » (فاسألوهن من وراء حجاب)
» » (الحمد لله الذي له ما في	» » ۲۲۷ (واتقين الله) .
السموات)	» » (إن الله وملائكته يصلون
» » ۲۳۹ (يعلم ما يلج في الأرض)	على النبي) .
» » ۲۴۰ (وقال الذين كفروا لا تأتينا	» » ۲۲۸ (إن الذين يؤذون الله
الساعة)	ورسوله) .
» » ۲۴۱ (أولئك لهم مغفرة ورزق	» » ۲۲۹ (والذين يؤذون المؤمنين
كريم)	» » ۲۳۰ (يا أيها النبي قل لأزواجك
» » ۲۴۲ (والذين سعوا في آياتنا)	» » (ذلك أدنى أن يعرفن) .
» » (أولئك لهم عذاب من	» » ۲۳۰ (لئن لم ينزله المنافقون)
رجز أليم)	» » ۲۳۱ (ملعونين أينما تقفوا)
» » ۲۴۳ (ويرى الذين أوتوا العلم)	» » (سنة الله في الذين خلوا)
» » (وقال الذين كفروا هل	» » (يسألك الناس عن الساعة)
ندلكم على رجل)	» » ۲۳۲ (وما يدريك لعل الساعة
» » ۲۴۴ (أفترى على الله كذباً)	تكون قريباً) .
» » (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم)	» » (إن الله لعن الكافرين)
» » ۲۴۵ (إن في ذلك لآية لكل	» » (لا يجدون ولياً ولا نصيراً)
عبد منيب)	» » (يوم تقلب وجوههم في النار)

صفحة	صفحة
۲۵۹ قوله تعالى (ولوترى إذ الظالمون)	۲۴۵ قوله تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا)
۲۶۰ » (وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا)	۲۴۶ » (أن اعمل سابقات)
» (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا)	» (ولسليمان الريح)
۲۶۱ » (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب)	۲۴۸ » (يعملون له ما يشاء)
» (وما أرسلنا في قرية)	۲۴۹ » (فلما قضينا عليه الموت)
۲۶۲ » (وما أموالكم ولا أولادكم)	» (وقليل من عبادي الشكور)
» (والذين يسعون في آياتنا معاجزين)	۲۵۰ » (فلما خر تبينت الجن)
۲۶۴ » (ويوم نحشرهم جميعاً)	» (كلوا من رزق ربكم)
۲۶۵ » (فالיום لا يملك بعضهم لبعض نفعا)	۲۵۱ » (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سليل العرم)
» (وإذا تتلى عليهم آياتنا)	۲۵۲ » (وجعلنا بينهم وبين القرى)
۲۶۷ » (وما آتيناكم من كتب)	۲۵۳ » (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه)
» (قل إنما أعظكم بواحدة)	» (وما كان له عليهم من سلطان)
۲۶۹ » (قل ما سألتكم عن أجر)	۲۵۴ » (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله)
» (قل إن ربي يقذف بالحق)	۲۵۶ » (قل من يرزقكم)
۲۷۰ » (قل جاء الحق)	» (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال)
۲۷۱ » (قل إن ضللت فإنما أضل لِنَفْسِي)	۲۵۷ » (قل لا تسألون عما أجرمتنا)
۲۷۲ » (وقد كفروا به من قبل)	۲۵۸ » (قل أروني الذين ألحقتم به شركاء)
» (وحييل بينهم وبين ما يشتهون)	» (وما أرسلناك إلا كافة)
	۲۵۹ » (وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن)

(تم الفهرست)

التفسير الكبير

للإمام

الشيخ الفاضل
الشيخ الفاضل
الشيخ الفاضل

لمؤلفه الشيخ الفاضل
الشيخ الفاضل

الطبعة الثالثة

دار احياء التراث العربي
بيروت

(سورة فاطر)
(أربعون وخمس آيات مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا) قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة في أكثر الأمر، ونعم الله قسيان: عاجلة وآجلة، والعاجلة وجود وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى، وقوله تعالى (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإيجاد، واستدللنا عليه بقوله تعالى (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا) وقوله في الكهف (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) إشارة إلى النعمة العاجلة التي هي الإبقاء، فإن البقاء والصلاح بالشرع والكتاب، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم، فكان يفضى ذلك إلى التقاتل والتفاني، فإنزال الكتابات نعمة يتعلق بها البقاء العاجل، وفي قوله في سورة سبأ (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة) إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بالحشر، واستدللنا عليه بقوله (يعلم ما يلج في الأرض) من الأجسام (وما يخرج منها وما ينزل من السماء) من الأرواح (وما يعرج فيها) وقوله عن الكافرين (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل بلى وربى) وههنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة، ويدل عليه قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أى يجعلهم رسلا يتلقون عباد الله، كما قال تعالى (وتتلقاهم الملائكة) وعلى هذا فقوله تعالى (فاطر السموات) يحتمل وجهين (الأول) معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس (والثاني) (فاطر السموات والأرض) أى شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ويدل عليه قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) فإن في ذلك اليوم تكون الملائكة رسلا، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأن قوله كما فعل بأشياهم بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمننت. كما قال تعالى عنهم (وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش) فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بإرساله الملائكة إليهم

أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّثْنِيٍّ وَثَلَاثٍ وَرُبَاعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلٍ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ

مبشرين، وبين أنه يفتح لهم أبواب الرحمة.

وقوله تعالى ﴿أولى أجنحة مثني وثلاث ورباع﴾ أقل ما يكون لدى الجناح أن يكون له جناحان وما بعدهما زيادة، وقال قوم فيه إن الجناح إشارة إلى الجهة، وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شيء، وكل شيء فهو تحت قدرته ونعمته، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما أخذوه بإذن الله، كما قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقوله (عليه شديد القوى) وقال تعالى في حقهم (فالمدبرات أمراً) فهما جناحان، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة، وفيهم من يفعله لا بواسطة، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات، ومنهم من له أربع جهات وأكثر، والظاهر ما ذكرناه أولاً وهو الذي عليه إطباق المفسرين.

وقوله تعالى ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ من المفسرين من خصصه وقال المراد الوجه الحسن، ومنهم من قال الصوت الحسن، ومنهم من قال كل وصف محمود، والأولى أن يعمم، ويقال الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء.

وقوله تعالى ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ يقرر قوله (يزيد في الخلق ما يشاء).

ثم قال تعالى ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الأمر، وقال ما يفتح الله للناس، يعني إن رحم فلا مانع له، وإن لم يرحم فلا باعث له عليها، وفي الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه (أحدها) التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة في الذكر، وهو وإن كان ضعيفاً لكنه وجه من وجوه الفضل (وثانيها) هو أنه أنثى الكناية في الأول فقال (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائداً إلى ما، ولكن قال تعالى (لها) ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهي وصلة إلى من رحمته، وقال عند الإمساك (وما يمسك فلا مرسل له) بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذي لا يرسل هو غير الرحمة فإن قوله تعالى (وما يمسك) عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة) فإنه مخصص مبين (وثالثها) قوله (من بعده) أي من بعد الله، فاستثنى هنا وقال لا مرسل له إلا الله فنزل له مرسل، وعند الإمساك

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تُوفِّكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبَنَّ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾

الإمساك قال لا تمسك لها ، ولم يقل غير الله لأن الرحمة إذا جاءت لا ترتفع فان من رحمه الله في الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره ، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الإيمان .

ثم قال تعالى ﴿ وهو العزيز ﴾ أى كامل القدرة ﴿ الحكيم ﴾ أى كامل العلم .
ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم ﴾ لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال فقال (اذكروا نعمة الله) وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء .
فقال تعالى ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء .
وقال تعالى ﴿ يرزقكم من السماء والأرض ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء .
ثم بين أنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ نظراً إلى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شيء . قد ير نافرذ الإرادة في كل شيء . ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ونظراً إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو .

ثم قال تعالى ﴿ فإني توفِّكون ﴾ أى كيف تصرفون عن هذا الظاهر ، فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت .

ثم لما بين الأصل (الأول) وهو التوحيد ذكر الأصل (الثاني) وهو الرسالة فقال تعالى ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ .

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذب في العذاب . والمكذب له الثواب بقوله تعالى ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ ثم بين الأصل (الثالث) وهو الحشر .
فقال تعالى ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ
أَصْحَابِ السَّعِيرِ «٦» الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ «٧»

أى الشيطان وقد ذكرنا ما فيه من المعنى اللطيف فى تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل نخبف الرأى فيغتر بأدنى شىء ، وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن إذا جاءه غار وزين له ذلك الشىء وهون عليه مفسده ، وبين له منافع ، يغتر لما فيها من اللذة مع ما ينضم إليه من دعاء ذلك الغار إليه ، وقد يكون قوى الجأش غزير العقل فلا يغتر ولا يغتر فقال الله تعالى (لا تغرنكم الحياة الدنيا) إشارة إلى الدرجة الأولى ، وقال (ولا يغرنكم بالله الغرور) إشارة إلى الثانية ليكون واقعاً فى الدرجة الثالثة وهى العليا فلا يغتر ولا يغتر .

ثم قال تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ لما قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار ، وقال (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) ولا تسمعوا قوله ، وقوله (فاتخذوه عدوا) أى اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح .

ثم قال تعالى ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن من يكون له عدو فله فى أمره طريقان : (أحدهما) أن يعاديه مجازاة له على معاداته (والثانى) أن يذهب عداوته بإرضائه ، فلما قال الله تعالى (إن الشيطان لكم عدوا) أمرهم بالعداوة وأشار إلى أن الطريق ليس إلا هذا ، وأما الطريق الآخر وهو الإرضاء فلأفائدة فيه لأنكم إذا راضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤدبكم إلا إلى السعير .

واعلم أن من علم أن له عدو لا مهرب له منه وجزم بذلك فانه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر ، فكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان أن يهرب منه فانه معه ، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه ، فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان ، فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة . ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله . فقال :

﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد ﴾ فالمعادى للشيطان وإن كان فى الحال فى عذاب ظاهر وليس بشديد ، والإنسان إذا كان عاقلاً يختار العذاب المنقطع اليسير دفعا للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى أن الإنسان إذ عرض فى طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التى فى الدنيا إلى النار التى فى الآخرة دون نسبة الشوك إلى النار العاجلة . وقال تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ قد ذكر تفسيره مراراً ،

أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾
 وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقِنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ
 الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾

وبين فيه أن الإيمان في مقابلته المغفرة فلا يؤبد مؤمن في النار ، والعمل الصالح في مقابلته الأجر الكبير .
 ثم قال تعالى ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء
 فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .
 يعني ليس من عمل سيئاً كالذي عمل صالحاً ، كما قال بعد هذا بآيات وما يستوى الأعمى
 والبصير ولا الظلمات ولا النور ، وله تعلق بما قبله وذلك من حيث إنه تعالى لما بين حال المسيء
 الكافر والمحسن المؤمن ، وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيئاً إلا قليل ، فكان الكافر يقول الذي له
 العذاب الشديد هو الذي يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها ، والذي
 له الأجر العظيم نحن الذين دنا على ما كان عليه آباؤنا فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فإن
 المحسن غير ، ومن زين له العمل السيئ فرآه حسناً غير ، بل الذين زين لهم السيئ دون من أساء وعلم
 أنه مسيء فإن الجاهل الذي يعلم جهله والمسيء الذي يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذي لا يعلم
 يصر على الذنوب والمسيء العالم له صفة ذم بالإساءة وصفة مدح بالعلم . والمسيء الذي يرى
 الإساءة إحساناً له صفتا ذم الإساءة والجهل ، ثم بين أن الكل بمشيئة الله ، وقال (فإن الله يضل من
 يشاء ويهدي من يشاء) وذلك لأن الناس أشخاصهم متساوية في الحقيقة والإساءة والإحسان ،
 والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فاذا عرفها البعض دون البعض لا يكون ذلك باستقلال
 منهم ، فلا بد من الاستناد إلى إرادة الله .

ثم سلى رسول الله ﷺ حيث حزن من إصرارهم بعد إتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال:
 ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم نفسك حسرات ﴾ كما قال تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) .
 ثم بين أن حزنه إن كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبما يصنعون لو أراد إيمانهم وإحسانهم
 لصددهم عن الضلال ورددهم عن الإضلال ، وإن كان لما به منهم من الأيذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم
 على ما يصنعون .

ثم عاد إلى البيان فقال تعالى ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميث
 فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ
يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ﴿١٠﴾

هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لأن الهواء قد يسكن ، وقد يتحرك وعند
حركته قد يتحرك إلى اليمين ، وقد يتحرك إلى اليسار ، وفي حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب ،
وقد لا ينشئ ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر ، وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قال تعالى (والله الذي أرسل) بلفظ الماضي وقال (فتشير سحاباً) بصيغة
المستقبل ، وذلك لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى في
في العدم لا زماناً ولا جزءاً من الزمان ، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه
كان وكأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة والتقدير
كالإرسال ، ولما أسند فعل الاثارة إلى الريح وهو يؤلف في زمان فقال (تثير) أي على هيئتها .

(المسألة الثانية) قال (أرسل) إسناداً للفعل إلى الغائب وقال (سقناه) بإسناد الفعل إلى المتكلم
وكذلك في قوله (فأحيينا) وذلك لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال ،
ثم لما عرف قال أنا الذي عرفتني سقت السحاب وأحييت الأرض فنفى الأول كان تعريفاً بالفعل
العجيب ، وفي الثاني كان تذكيراً بالنعمة فان كما [ل] (١) نعمة الرياح والسحب بالسوق والاحياء وقوله
(سقناه وأحيينا) بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرناه من الفرق بين قوله (أرسل) وبين قوله (تثير) .

(المسألة الثالثة) ما وجه التشبيه بقوله (كذلك النشور) فيه وجوه (أحدها) أن الأرض
الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة (وثانيها) كما أن الريح يجمع القطع
السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعض الأشياء (وثالثها) كما أن نسوق الريح والسحاب
إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت .

(المسألة الرابعة) ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل
شيء آية تدل على أنه واحد ، فنقول لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض ، وذكر من الأمور
الساوية الأرواح وإرسالها بقوله (جاعل الملائكة رسلاً) ذكر من الأمور الأرضية الرياح
وإرسالها بقوله (والله الذي أرسل الرياح) .

ثم قال تعالى (من كان يريد العزة فله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح
يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور)

(١) في الأصل الأميري ، فان كما نعمة ، ولا معنى لها وقد زدت اللام ليستقيم الكلام .

لما بين برهان الايمان إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم ، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون إن هذه آلهتنا ، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهي عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له ، فقال إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة ، فهي كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز ، ومن يتعزز عليه فهو الذليل وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قال في هذه الآية (فله العزة جميعاً) وقال في آية أخرى (والله العزة ورسوله وللمؤمنين) فقوله (جميعاً) يدل على أن لا عزة لغيره فنقول قوله (فله العزة) أى في الحقيقة وبالذات وقوله (ورسوله) أى بواسطة القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول ، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطة النبي ﷺ ألا ترى قوله تعالى (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) .

(المسألة الثانية) قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) تقرير لبيان العزة ، وذلك لأن الكفار كانوا يقولون نحن لا نعبد من لانراه ولا نحضر عنده ، لأن البعد من الملك ذلة ، فقال تعالى إن كنتم لا تصلون إليه ، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن رد كلامه في وجهه فهو ذليل ، وأما هذه الأصنام لا يتبين عندها الدليل من العزيز إذ لا علم لها فكل أحد يمسها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحاً رفعه إليه ، ومن عمل سيئاً رده عليه فالعزيز من الذى عمله لوجهه والدليل من يدفع الذى عمله فى وجهه ، وأما هذه الأصنام فلا تعلم شيئاً فلا عزيز يرفع عندها ولا ذليل ، فلا عزة بها بل عليها ذلة ، وذلك لأن ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده وربّه وإلهه حجارة أو خشباً ماذا يكون هو ! .

(المسألة الثالثة) فى قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) وجوه (أحدها) كلمة لا إله إلا الله هى الطيبة (وثانيها) سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر طيب (ثالثها) هذه الكلمات الأربع وخامسة وهى تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم ، فهو إليه يصعد .

(المسألة الرابعة) قوله تعالى (والعمل الصالح يرفعه) وفى الهاء وجهان (أحدهما) هى عائدة إلى الكلم الطيب أى العمل الصالح هو الذى يرفعه الكلم الطيب ورد فى الخبر « لا يقبل الله قولاً بلا عمل » (وثانيهما) هى عائدة إلى العمل الصالح وعلى هذا فى الفاعل الرافع وجهان (أحدهما) هو الكلم الطيب أى الكلم الطيب يرفع العمل الصالح ، وهذا يؤيده قوله تعالى (من عمل صالحاً) من ذكر أو أنثى وهو مؤمن (وثانيهما) الرافع هو الله تعالى .

(المسألة الخامسة) ما وجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثانى حيث يصعد الكلم

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي
كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

بنفسه ويرفع العمل بغيره ، فنقول الكلام شريف ، فان امتياز الانسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى (ولقد كرمتنا بني آدم) أى بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره ، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يمنع ومن دونه لا يجد الطريق إلا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة إن كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة ، وإن كان ظاهراً أمن في نفسه ودمه وأهله وحرمة في الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح ، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، (ووجه آخر) القلب هو الأصل وقد تقدم ما يدل عليه ، وقال النبي ﷺ « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » وما في القلب لا يظهر إلا باللسان وما في اللسان لا يتبين صدقه إلا بالفعل ، فالقول أقرب إلى القلب من الفعل ، ألا ترى أن الإنسان لا يتكلم بكلمة إلا عن قلب ، وأما الفعل قد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولأن النائم لا يخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو في أكثر الأمر لا يتكلم في نومه إلا نادراً ، لما ذكرنا إن الكلام بالقلب ولا كذلك العمل ، فالقول أشرف .

(المسألة السادسة) قال الزمخشري المكر لا يتعدى فبم انتصاب السيئات ؟ وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيئات فهو وصف مصدر محذوف ، ويحتمل أن يقال استعمل المكر استعمال العمل فعدها تعديته كما قال (الذين يعملون السيئات) وفي قوله (الذين يعملون السيئات) يحتمل ما ذكرناه أن يكون السيئات وصفاً لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيئات ، وعلى هذا فيكون هذا في مقابلة قوله (والعمل الصالح يرفعه) إشارة إلى بقاءه وارتقائه (ومكر أولئك) أى العمل السيء (هو يبور) إشارة إلى فنائه .

ثم قال تعالى ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ قد ذكرنا مراراً أن الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها في عدد محصور منحصرة في قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس ، كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح شرع

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ
وَمَنْ كُلَّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ
مَوَآخِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢١﴾

في دلائل الأنفس ، وقد ذكرنا تفسيره مراراً وذكرنا ما قيل من أن قوله (من تراب) إشارة إلى خلق آدم (ثم من نطفة) إشارة إلى خلق أولاده . وبيننا أن الكلام غير محتاج إلى هذا التأويل بل (خلقكم) خطاب مع الناس وهم أولاد آدم كلهم من تراب ومن نطفة لأن كلهم من نطفة والنطفة من غذاء ، والغذاء بالآخرة ينتهي إلى الماء والتراب ، فهو من تراب صار نطفة .

وقوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع) إشارة إلى كمال العلم ، فإن ما في الأرحام قبل الانخلاق بل بعده مادام في البطن لا يعلم حاله أحد ، كيف والام الحاملة لا تعلم منه شيئاً ، فلما ذكر بقوله (خلقكم من تراب) كمال قدرته بين بقوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) كمال علمه ثم بين نفوذ إرادته بقوله (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) فيبين أنه هو القادر العالم المريد والأصنام لا قدرة لها ولا علم ولا إرادة ، فكيف يستحق شيء منها العبادة ، وقوله (إن ذلك على الله يسير) أي الخلق من التراب ويحتمل أن يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير ، ويحتمل أن يكون المراد أن العلم بما تحمله الأنثى يسير والكل على الله يسير ، والأول أشبه فإن اليسير استعماله في الفعل أليق ،

ثم قال تعالى ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

قال أكثر المفسرين : إن المراد من الآية ضرب المثل في حق الكفر والإيمان أو الكافر والمؤمن ، فالإيمان لا يشتبه بالكفر في الحسن والنفع كما لا يشتبه البحران العذب الفرات والملح الأجاج . ثم على هذا ، فقوله (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والإيمان دون حال البحرين لأن الأجاج يشارك الفرات في خيره ونفع إذ اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفلك تجرى فيهما ، ولا نفع في الكفر والكافر ، وهذا على نسق قوله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل) وقوله (كالحجارة أو أشد قسوة) ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) والأظهر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث إن البحرين يستويان في الصورة ويختلفان في الماء ، فإن أحدهما عذب فرات والآخر ملح

يُوجِ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوجِ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا
يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

أجاج ، ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المتساويان ، ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة ، فإن اللحم الطرى يوجد فيهما ، والحلية تؤخذ منهما ، ومن يوجد في المتشابهين اختلافاً ومن المختلفين اشتباهاً لا يكون إلا قادراً مختاراً . وقوله (وما يستوى البحران) إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) قال أهل اللغة لا يقال في ماء البحر إذا كان فيه ملح ماء ، وإنما يقال له ملح ، وقد يذكر في بعض كتب الفقه يصيرها ماء البحر مالحاً ، ويؤخذ قائله به . وهو أصح بما مما يذهب إليه القوم وذلك لأن الماء العذب إذا ألقى فيه ملح حتى ملح لا يقال له إلا مالح ، وماء ملح يقال للماء الذي صار من أصل خلقته كذلك ، لأن المالح شيء فيه ملح ظاهر في الذوق ، والماء المالح ليس ماء وملحاً بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر في الذوق ، بخلاف ما هو من أصل خلقته كذلك ، فلما قال الفقيه المالح أجزاء أرضية سبخة يصيرها ماء البحر مالحاً راعى فيه الأصل فإنه جعله ماء جاوره ملح ، وأهل اللغة حيث قالوا في البحر ماؤد ملح جعلوه كذلك من أصل الحلقة ، والأجاج المر ، وقوله (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) من الطير والسمك وتستخرجون حلية تلبسونها من اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه مواخر) أي ماخرات تمخر البحر بالجرىان أي تشق ، وقوله (ولتبتغوا من فضله ولعلمكم تشكرون) يدل على ما ذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته .

ثم قال تعالى ﴿ يوج الليل في النهار ويوج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ استدلال آخر باختلاف الأزمنة وقد ذكرناه مراراً ، وذكرنا أن قوله تعالى بعده (وسخر الشمس والقمر) جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسي الواقعة فوق الأرض وتحتها ، فإن في الصيف تمر الشمس على سمت الرؤوس في بعض البلاد المائلة في الآفاق ، وحركة الشمس هناك حائلية فتقع تحت الأرض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفي الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ «١٤»

تعالى (وسخر الشمس والقمر) يعنى سبب الاختلاف وإن كان ما ذكرتم ، لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته فهو الذى فعل ذلك .

ثم قال تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) . أى ذلك الذى فعل هذه الأشياء من فطر السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكا والملك مخدوم بقدر ملكه ، فاذا كان له الملك كله فله العبادة كلها ، ثم بين ما ينافى صفة الإلهية ، وهو قوله (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) ، (وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف (أحدهما) أن الخلق بالقدرة والإرادة (والثانى) الملك واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس) ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهاً أى معبوداً ، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين (أحدهما) أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التى الأصنام على صورتها وطوالها فقال لا ملك لهم ولا ملكهم إله شيئاً ولا ملكوا شيئاً (وثانيهما) أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئاً لملكه فاذا لم يملك قطميراً ما خلق قليلاً ولا كثيراً .

ثم قال تعالى ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ .

إبطالا لما كانوا يقولون إن فى عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها ، والله لا يرى ولا يصل إليه أحد فقال هؤلاء لا يسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب ، يسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة ، وقال هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا إنهم يحيون لأن ذلك إنكار للحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع فى المعقول فلا يمكن وقوعه فى المحس به ، ثم إنه تعالى قال (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) لما بين عدم النفع فيهم فى الدنيا بين عدم النفع منهم فى الآخرة بل أشار إلى وجود الضرر منهم فى الآخرة بقوله (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى باسراكم بالله شيئاً ، كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) أى

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

الإشراك وقوله (ولا ينبئك مثل خبير) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك خطاباً مع النبي ﷺ ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن الخشب والحجريوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة ، وهذا القول مع كون الخبر عنه أمراً عجيباً هو كما قال ، لأن الخبر عنه خبير (وثانيهما) هو أن يكون ذلك خطاباً غير مختص بأحد ، أي هذا الذي ذكر هو كما قال (ولا ينبئك) أيها السامع كائناً من كنت (مثل خبير) .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ لما كثر الدعاء من النبي ﷺ والإصرار من الكفار وقالوا إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمراً بالغاً ويهددنا على تركها مبالغاً فقال تعالى (أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني) فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التعريف في الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لأن الخبر لا يخبر في إلا أكثر إلا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو في ظن المتكلم أن السامع لا علم له به ، ثم أن يكون معلوماً عند السامع حتى يقول له أيها السامع الأمر الذي تعرفه أنت فيه المعنى الفلاني كقول القائل زيد قائم أو قام أي زيد الذي تعرفه ثبت له قيام لا علم عندك به ، فإن كان الخبر معلوماً عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيهاً لا تفهيماً يحسن تعريف الخبر غاية الحسن ، كقول القائل الله ربنا ومحمد نبينا ، حيث عرف كون الله رباً ، وكون محمد نبياً ، وههنا لما كان كون الناس فقراء أمراً ظاهراً لا يخفى على أحد قال (أنتم الفقراء) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إلى الله) إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه وهذا يوجب عبادته لسكونه مفتقراً إليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره ، ثم قال (والله هو الغني) أي هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وأنتم من احتياجكم لا تجيونه ولا تدعونه فيجيئكم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في قوله (الحميد) لما زاد في الخبر الأول وهو قوله (أنتم الفقراء) زيادة وهو قوله (إلى الله) إشارة لوجوب حصر العبادة في عبادة زاد في وصفه بالغنى زيادة وهو كونه حميداً إشارة إلى كونكم فقراء وفي مقابلته الله غني وفقركم إليه في مقابلة نعمه عليكم لكونه حميداً واجب الشكر ، فليست أنتم فقراء والله مثلكم في الفقر بل هو غني على الإطلاق وليست أنتم لما افتقرتم إليه ترككم غير مقضى الحاجات بل قضى في الدنيا حوائجكم ، وإن آمنتكم يقضي في الآخرة حوائجكم فهو حميد .

إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ «١٦» وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ «١٧»
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

ثم قال تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ بيانا لغناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها أنه تعالى قال (إن يشأ يذهبكم) أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج إليه ، فإن المحتاج لا يقول فيه إن يشأ فلان هدم داره وأعدم عقاره ، وإنما يقول لولا حاجة السكني إلى الدار لبعثها أو لولا الافتقار إلى العقار لتركها ، ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله (ويأت بخلق جديد) يعني إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال وعظمة فلو أذهب لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقاً جديداً أحسن من هذا وأجمل وأتم وأكمل .

ثم قال تعالى ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي الإذهاب والإتيان وههنا مسألة : وهي أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة في القائم بنفسه حيث قال في حق نفسه (وكان الله قوياً عزيزاً) وقال في هذه السورة (إن الله عزيز غفور) واستعمله في القائم بغيره حيث قال (وما ذلك على الله بعزيز) وقال (عزيز عليه ما عنتم) فهل هما بمعنى واحد أم بمعنيين ؟ فنقول العزيز هو الغالب في اللغة يقال من عزب أي من غلب سلب ، فالله عزيز أي غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله (وما ذلك على الله بعزيز) أي لا يغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله (عزيز عليه ما عنتم) أي يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب .

وقوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ متعلق بما قبله ، وذلك من حيث إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا تحمل نفس ذنب النفس فالنبي ﷺ لو كان كاذباً في دعائه لكان مذنباً وهو معتقد بأن ذنبه لا تحمونه أنتم فهو يتوق ويحترز ، والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم فتفكروا واعلموا أنكم إن ضلنم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول (أكابركم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (وازرة) أي نفس وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل ولا تزر نفس وازرة وزر أخرى لفائدة (أما الأول) فلأنه لو قال ولا تزر نفس وزر أخرى ، لما علم أن كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة في أمرها (ووجه آخر) وهو أن قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى ، قد يجتمع معها أن

إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى
فَأَنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

لا تزر وزراً أصلاً كالمعصوم لا يزر وزر غيره ومع ذلك لا يزر وزراً رأساً فقوله (ولا تزر
وازره) بين أنها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير (وأما) ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة
ولزومها للموصوف .

ثم قال تعالى (وإن تدع مثقلة) إشارة إلى أن أحداً لا يحمل عن أحد شيئاً مبتدئاً ولا بعد
السؤال ، فإن المحتاج قد يصبر وتقضى حاجته من غير سؤاله ، فإذا انتهى الافتقار إلى حد الكمال
يحوجه إلى السؤال .

(المسألة الثانية) في قوله (مثقلة) زيادة بيان لما تقدم من حيث إنه قال أولاً (ولا تزر
وازره وزر أخرى) فيظن أن أحداً لا يحمل عن أحد لكون ذلك الواحد قادراً على حمله ، كما
أن القوى إذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لا تحمل عنه ، وأما إذا كان الحمل ثقيلاً قد يرحم الحامل
فيحمل عنه فقال (مثقلة) يعنى ليس عدم الوزر لعدم كونه محلاً للرحمة بالثقل بل لكون النفس
مثقلة ولا يحمل منها شيء .

(المسألة الثالثة) زاد في ذلك بقوله (ولو كان ذا قربي) أى المدعو لو كان ذا قربي لا يحمله
وفي الأول كان يمكن أن يقال لا يحمله لعدم تعلقه به كالعدو الذى يرى عدوه تحت ثقل ، أو الأجنبي
الذى يرى أجنبياً تحت حمل لا يحمله عنه فقال (ولو كان ذا قربي) أى يحصل جميع المعانى الداعية
إلى الحمل من كون النفس وازرة قوية تحتفل وكون الأخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس
عليها حمل وكونها سائلة داعية فإن السؤال مظنة الرحمة ، لو كان المسئول قريباً فاذن لا يكون التخلف
إلا لمانع وهو كون كل نفس تحت حمل ثقيل .

ثم قال تعالى (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة) إشارة إلى أن
لا إرشاد فوق ما أتيت به ، ولم يفدهم ، فلا تنذر إنذاراً مفيداً إلا الذين تمتلئ قلوبهم خشية وتتخلى
ظواهرهم بالعبادة كقوله (الذين آمنوا) إشارة إلى عمل القلب (وعملوا الصالحات) إشارة إلى
عمل الظواهر فقوله (الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة) فى ذلك المعنى ، ثم لما بين (أن
لا تزر وازرة وزر أخرى) بين أن الحسنة تنفع المحسنين .

فقال (ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه) أى فتزكيتة لنفسه .

ثم قال تعالى (وإلى الله المصير) أى المتزكى إن لم تظهر فائدته عاجلاً فالمصير إلى الله يظهر
عنده فى يوم اللقاء فى دار البقاء ، والوازر إن لم تظهر تبعة وزره فى الدنيا فهى تظهر فى الآخرة
إذ المصير إلى الله .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ «١٩» وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ «٢٠» وَلَا
الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ «٢١» وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ

ثم قال تعالى ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾
لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر ، وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلاً بالبصير والأعمى ،
فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى ، وفي تفسير الآية مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة في تكثير الأمثلة ههنا حيث ذكر الأعمى والبصير ، والظلمة
والنور ، والظل والحرور ، والأحياء والأموات ؟ فنقول الأول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير
والكافر أعمى ، ثم إن البصير وإن كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئاً إن لم يكن في ضوء فذكر
للإيمان والكفر مثلاً ، وقال الإيمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور ، والكفر
ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد ، ثم ذكر لما ألها ومرجعها مثلاً وهو الظل والحرور ،
فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة والكافر بكفره في حر وتعيب ، ثم قال تعالى (وما يستوى الأحياء
ولا الأموات) مثلاً آخر في حق المؤمن والكافر كأنه قال تعالى حال المؤمن والكافر فوق حال
الأعمى والبصير ، فإن الأعمى يشارك البصير في إدراك ما . والكافر غير مدرك إدراكاً نافعاً فهو
كالميت ويدل على ما ذكرنا أنه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولاً (وما يستوى الأعمى والبصير)
وعطف الظلمات والنور والظل والحرور ، ثم أعاد الفعل ، وقال (وما يستوى الأحياء ولا الأموات)
كأنه جعل هذا مقابلاً لذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كرر كلمة النفي بين الظلمات والنور والظل والحرور والأحياء الأموات ،
ولم يكرر بين الأعمى والبصير ، وذلك لأن التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل
والحرور مضادة ، فالظلمة تنافي النور وتضاده والعنى والبصر كذلك ، أما الأعمى والبصير ليس
كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيراً وهو بعينه يصير أعمى ، فالأعمى والبصير لا منافاة
بينهما إلا من حيث الوصف ، والظل والحرور والمنافاة بينهما ذاتية لأن المراد من الظل عدم الحر
والبرد فلما كانت المنافاة هناك أتم ، أكد بالتكرار ، وأما الأحياء والأموات ، وإن كانوا كالأعمى
والبصير من حيث إن الجسم الواحد يكون حياً محلاً للحياة فيصير ميتاً محلاً للموت ولكن المنافاة
بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير ، كما بينا أن الأعمى والبصير يشتركان في إدراك
أشياء ، ولا كذلك الحي والميت ، كيف والميت يخالف الحي في الحقيقة لا في الوصف على ما تبين
في الحكمة الإلهية .

(المسألة الثالثة) قدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحرور ، وأخره في مثلين وهو البصر والنور ، وفي مثل هذا يقول المفسرون إنه لتواخي أو آخر الآي ، وهو ضعيف لأن تواخي الأواخر راجع إلى السجع ، ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملاً له على تغيير المعنى ، وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى ، فنقول الكفار قبل النبي ﷺ كانوا في ضلالة فكانوا كالأعمى وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبي ﷺ وبين الحق ، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقتهم كالنور فقال وما يستوى من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان ، فلما كان الكفر قبل الإيمان في زمان محمد ﷺ ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ، ثم لما ذكر المال والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لقوله في الإلهيات سبقت رحمتي غضبي ، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات في عدم إدراك الحق من جميع الوجوه فقال (وما يستوى الأحياء) أي المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات ، ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخروهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين ، وقدم الأعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها .

(المسألة الرابعة) فان قلت قابل الأعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الأحياء بالأموات بلفظ الجمع ، وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع في أحدهما والواحد في الآخر ، فهل تعرف فيه حكمة؟ قلت نعم بفضل الله وهدايته ، أما في الأعمى والبصير والظل والحرور ، فلأنه قابل الجنس بالجنس ، ولم يذكر الأفراد لأن في العميان وأولى الأبصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوي فرداً من الجنس الآخر كالبصير الغريب في موضع والأعمى الذي هو تربية ذلك المكان ، وقد يقدر الأعمى على الوصول إلى مقصد ولا يقدر البصير عليه ، أو يكون الأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البليد البصير ، فالتفاوت بينهما في الجنسين متطوع به فان جنس البصير خير من جنس الأعمى ، وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر ، إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حياً من الأحياء ، فذكر أن الأحياء لا يساويون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد ، وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الإشراك على ما بيننا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الأصنام التي هي على صورة الملائكة ، وإلى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد بين ، فقال الظلمات كلها إذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوي النور ، وقد ذكرنا في تفسير قوله (وجعل الظلمات والنور) السبب في توحيد النور وجمع الظلمات ، ومن جملة ذلك أن النور لا يكون إلا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور والمستنير . مثاله الشمس

إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا
 نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذيرٌ
 ﴿٢٤﴾ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات
 وبالزبر وبالكتاب المنير ﴿٢٥﴾

إذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذي يمسك الشعاع ، فان البيت الذي فيه كوة يدخل منها الشعاع إذا كان في مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتاً آخر ويبسط الشعاع على أرضه يرى البيت الثاني مضيئاً والأول مظلماً ، وإن لم يكن هناك حائل كالبيت الذي لا كوة له فانه لا يضيء ، فإذا حصلت الأمور الثلاثة يستنير البيت وإلا فلا تتحقق الظلمة بفقد أي أمر كان من الأمور الثلاثة .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ وفيه احتمال معنيين (الأول) أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى فإن الله يسمع الموتى والنبي لا يسمع من مات وقبر ، فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي (والثاني) أن يكون المراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم فانه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له هؤلاء لا يسمعون إلا الله ، فانه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء ، وأما أنت فلا تسمع من في القبور ، فما عليك من حسابهم من شيء .

ثم قال تعالى ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ بياناً للتسليّة .
 ثم قال تعالى ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ لما قال ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ بين أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه إنما هو نذير باذن الله وإرساله .
 ثم قال تعالى ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ تقريراً لأمرين (أحدهما) لتسليّة قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملاً لتأذي القوم (وثانيهما) إلزام القوم قبوله فانه ليس بدعا من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعى ما ادعاه الرسل ويقرره .

وقوله تعالى ﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾

يعنى أنت جئتكم بالبينات والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضاً أتاهم بمثل ذلك وفعّلوا بهم ما فعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلاً إلا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمداً صلى الله عليه وسلم (وبالزبر وبالكتاب المنير)

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

والكل آتيناها محمداً ، فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام أجمعين ، وهذا يكون تقريراً مع أهل الكتاب ، واعلم أنه تعالى ذكر أموراً ثلاثة أولها البينات ، وذلك لأن كل رسول فلا بد له من معجزة وهي أدنى الدرجات ، ثم قد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبهات وإن لم يكن فيه نسخ وأحكام مشروعة شرعاً ناسخاً ، ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الإلهية ، ومن يكون كذلك فهو من أولى العزم فقال الرسل تبين رسالتهم بالبينات وإن كانوا أعلى مرتبة فبالزبر ، وإن كانوا أعلى فبالكتاب والنبي آتيناها الكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب .

ثم قال تعالى ﴿ ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ﴾ .
أى من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبي عليه السلام ، وقوله (فكيف كان نكير) سؤال للتقرير فانهم علموا شدة إنكار الله عليهم وإتيانه بالأمر المنكر من الاستئصال .

ثم قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ .
وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفي تفسيرها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار ، وقال (ألم تر) وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار وقال (والله الذي أرسل الرياح) وفيه وجهان (الأول) أن انزال الماء أقرب إلى النفع والمنفعة فيه أظهر فانه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعظم دلالاته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جداً ، فقال له غيره أين هو ، فانه يقول له في الموضع الفلاني ، فان لم يره ، يقول له الحق معك إنه خفي وأنت معذور ، وإذا كان بارزاً يقول له أما تراه هذا هو ظاهر (والثاني) وهو أنه ذكره بعدما قرر المسألة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بضرورة بوجوه الدلالات ، فقال له أنت صرت بصيراً بما ذكرناه ولم يبق لك عذر ، ألا ترى هذه الآية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المخاطب من هو يحتمل وجهين (أحدهما) النبي ﷺ وفيه حكمة وهي أن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم ، كما أن السيد إذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الإرشاد ، يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا

وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ

ويكرر معه ما ذكره مع الأول ويكون فيه إشعار بأن الأول فيه نقيصة لا يستأهل للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة (والآخر) أن لا يخرج إلى كلام أجنبي عن الأول ، بل يأتي بما يقاربه لئلا يسمع الأول كلاماً آخر فيترك التفكير فيما كان فيه من النصيحة .

(المسألة الثالثة) هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد عمرات مختلفة وفيه لطائف (الأولى) قال أنزل وقال أخرجنا ، وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول : قال الله تعالى (ألم تر أن الله أنزل) فإن كان جاهلاً يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له ، فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه إنه بالطبع فهو بإرادة الله ، فلما كان ذلك أظهر أسنده إلى المتكلم (ووجه آخر) هو أن الله تعالى لما قال (إن الله أنزل) علم الله بدليل ، وقرب المتفكر فيه إلى الله تعالى فصار من الحاضرين ، فقال له أخرجنا لقربه (ووجه ثالث) الإخراج أتم نعمة من الإنزال ، لأن الإنزال لفائدة الإخراج فأسند الأتم إلى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب .

(اللطيفة الثانية) قال تعالى ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾

كأن قائلاً قال اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع . ألا ترى أن بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره ، فقال تعالى اختلاف البقاع ليس إلا بإرادة الله وإلا فلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض ، والجدد جمع جدة وهي الخطة أو الطريقة ، فإن قيل الواو في (ومن الجبال) ما تقديرها ؟ نقول هي تحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الألوان ، وفي الأشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة ، رادة على من ينكر الإرادة في اختلاف ألوان الثمار (ثانيهما) أن تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال ، قال الزمخشري : أراد ذو جدد (واللطيفة الثالثة) ذكر الجبال ولم يذكر الأرض كما قال في موضع آخر (وفي الأرض قطع متجاورات) مع أن هذا الدليل مثل ذلك ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر في الأول (أخرجنا به ثمرات) كان نفس إخراج الثمار دليلاً على القدرة ثم زاد عليه بياناً ، وقال مختلفاً كذلك في الجبال في نفسها دليل للقدرة والإرادة ، لأن كون الجبال في بعض نواحي الأرض دون بعضها والاختلاف الذي في هيئة الجبل فإن بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع دليل للقدرة والاختيار ، ثم زاده بياناً وقال جدد بيض ، أي مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها ، كما أن إخراج الثمرات في نفسها دلائل واختلاف

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

ألوانها دلائل .

(المسألة الرابعة) مختلف ألوانها ، الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون ، أى بيض مختلف ألوانها ، وحرر مختلف ألوانها ، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص ، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص ، وكذلك الأحمر ، ولو كان المراد أن البيض والحرر مختلف الألوان لكان مجرد تأكيد والأول أولى ، وعلى هذا فنقول لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحرر والسود ، بل ذكره بعد البيض والحرر وآخر السود الغرايب ، لأن الأسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرايب يكون بالغاً غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف .

(المسألة الخامسة) قيل بأن الغريب مؤكد للأسود ، يقال أسود غريب والمؤكد لا يجيء إلا متأخراً فكيف جاء غرايب سود ؟ نقول قال الزمخشري : غرايب مؤكد لذى لون مقدر فى الكلام كأنه تعالى قال سواد غرايب ، ثم أعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهى زيادة التأكيد لأنه تعالى ذكره مضمراً ومظهراً ، ومنهم من قال هو على التقديم والتأخير ، ثم قال تعالى (ومن الناس والدواب والأنعام) استدلالاً آخر على قدرته وإرادته ، وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق فى العالم الذى نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين : حيوان وغير حيوان ، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن ، والنبات أشرف ، وأشار إليه بقوله (فأخرجنا به ثمرات) ثم ذكر المعدن بقوله (ومن الجبال) ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الانسان فقال (ومن الناس) ثم ذكر الدواب ، لأن منافعها فى حياتها والأنعام منفعتها فى الأكل منها ، أو لأن الدابة فى العرف تطلق على الفرس وهو بعد الانسان أشرف من غيره ، وقوله (مختلف ألوانه) القول فيه كما أنها فى أنفسها دلائل ، كذلك فى اختلافها دلائل . وأما قوله (مختلف ألوانه) فذكر ليكون الإنسان من جملة المذكورين ، وكون التذكير أعلى وأولى .

ثم قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور)

الخشية بقدر معرفة الخشى ، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه . وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد ، لأن الله تعالى قال (إن أكرمكم عند الله أتقاهم) فبين أن الكرامة بقدر التقوى ، والتقوى بقدر العلم . فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل ، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك فى علمه ، فإن من يراه يقول : لو علم لعمل . ثم قال تعالى (إن الله عزيز غفور) ذكر ما يوجب الخوف والرجاء ، فكونه عزيزاً إذا انتقام يوجب الخوف التام ، وكونه غفوراً لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ . وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله ، معناها إنما يعظم وييجل .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْتِيَهُمَ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ
إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ

ثم قال تعالى ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾

لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه . وقوله (يتلون كتاب الله) إشارة إلى الذكر .

وقوله تعالى ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ إشارة إلى العمل البدني .

وقوله ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ إشارة إلى العمل المالي ، وفي الآيتين حكمة بالغة ، فقوله إنما يخشى الله إشارة إلى عمل القلب ، وقوله (إن الذين يتلون) إشارة إلى عمل اللسان . وقوله (وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم) إشارة إلى عمل الجوارح ، ثم إن هذه الأشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه ، لأننا بينا أن من يعظم ملكاً إذا رأى عبداً من عباده في حاجة يلزمه قضاء حاجته وإن تهاون فيه يخل بالتعظيم ، وإلى هذا أشار بقوله : عبدى مرضت فما عدتني ، فيقول العبد : كيف تمرض وأنت رب العالمين ، فيقول الله مرض عبدى فلان وما زرته ولو زرته لوجدتني عنده ، يعنى التعظيم متعلق بالشفقة حيث لا شفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله .

وقوله تعالى ﴿ سراً وعلانية ﴾ حث على الإنفاق كيفما يتهيأ ، فان تهيأ سراً فذاك ونعم وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ، فان ترك الخير مخافة أن يقال فيه إنه مرء عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بقوله (سراً) أى صدقة (وعلانية) أى زكاة ، فان الإعلان بالزكاة كالإعلان بالفرض وهو مستحب .

وقوله تعالى ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ إشارة إلى الإخلاص ، أى ينفقون لا ليقال إنه كريم ولا لشيء من الأشياء غير وجه الله ، فان غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة .
وقوله تعالى ﴿ ليوفيهم أجورهم ﴾ أى ما يتوقعونه ولو كان أمراً بالغ الغاية ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أى يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل ، ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر إليه كما جاء في تفسير الزيادة ﴿ إنه غفور ﴾ عند إعطاء الأجور ﴿ شكور ﴾ عند إعطاء الزيادة .

ثم قال تعالى ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ﴾
لما بين الأصل الأول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله (والله الذي أرسل

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

الرياح ، وقوله (والله خلقكم) وقوله (ألم تر أن الله أنزل) ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة ، فقال (والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) وأيضاً كأنه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال (والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) تقريراً لما بين من الأجر والثواب في تلاوة كتاب الله فانه حق وصدق فتاليه محق ومحقق وفي تفسيرها مسائل :

(المسألة الأولى) قوله (من الكتاب) يحتمل أن يكون لا ابتداء الغاية كما يقال أرسل إلى كتاب من الأمير أو الوالي وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعنى الذى أوحينا من اللوح المحفوظ إليك حق ، ويمكن أن يكون المراد هو القرآن يعنى الإرشاد والتبيين الذى أوحينا إليك من القرآن ويحتمل أن يكون للبيان كما يقال أرسل إلى فلان من الثياب والقماش جملة .

(المسألة الثانية) قوله (هو الحق) آكد من قول القائل الذى أوحينا إليك حق من وجهين (أحدهما) أن تعريف الخبر يدل على أن الأمر فى غاية الظهور لأن الخبر فى الأكثر يكون نكرة ، لأن الإخبار فى الغالب يكون إعلاما بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع كقولنا زيد قام فان السامع يفهم أن يكون عارفاً بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به ، فاذا كان الخبر أيضاً معلوماً فيكون الإخبار للتنبه فيعرفات باللام كقولنا زيد العالم فى هذه المدينة إذا كان عليه مشهوراً .

(المسألة الثالثة) قوله (مصدقا لما بين يديه) حال مؤكدة لكونه حقاً لأن الحق إذا كان لاخلاف بينه وبين كتب الله يكون خالياً عن احتمال البطلان وفى قوله مصدقا تقرير لكونه وحياً لأن النبى ﷺ لما لم يكن قارئاً كاتباً وأتى ببيان ما فى كتب الله لا يكون ذلك إلا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والإنجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال التوراة والإنجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه إن كان فى التوراة فهو حق وباق على ما نزل ، وإن لم يكن فيه ويكون فيه خلافة فهو ليس من التوراة ، فالقرآن مصدق للتوراة (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال إن هذا الوحي مصدق لما تقدم لأن الوحي لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام فى إنزال التوراة والإنجيل فاذا وجد الوحي ونزل على محمد ﷺ علم جوازه وصدق به ما تقدم ، وعلى هذا ففيه لطيفة : وهى أنه تعالى جعل القرآن مصدقاً لما مضى مع أن ما مضى أيضاً مصدق له لأن الوحي إذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو محمد ﷺ ولم يجعل ما تقدم مصدقاً للقرآن لأن القرآن كونه معجزة يكفى فى تصديقه بأنه وحى ، وأما ما تقدم فلا بد معه من معجزة تصدقه .

إِنَّ اللَّهَ بَعْبَادِهِ لَخَيْرٌ بَصِيرٌ «٣١» ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ

(المسألة الرابعة) قوله (إن الله بعباده لخير بصير) فيه وجهان (أحدهما) أنه تقرير لكونه هو الحق لأنه وحى من الله والله خير عالم بالباطن بصير عالم بالظواهر ، فلا يكون باطلا في وحيه لا في الباطن ولا في الظاهر (وثانيهما) أن يكون جواباً لما كانوا يقولونه إنه لم ينزل على رجل عظيم؟ فيقال إن الله بعباده لخير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم فاختر محمداً عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل .

ثم قال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى (جنات عدن يدخلونها) أخبر بدخولهم الجنة وكلمة (ثم أورثنا) أيضاً تدل عليه لأن الإيراث إذا كان بعد الإيحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والإيراث المراد منه الاعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى ، ويحتمل أن يقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما في قوله تعالى (جاءتهم رسالهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) والمعنى على هذا: إنا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الأنبياء ويدل عليه أن لفظ المصطفى على الأنبياء إطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم ولأن قوله (من عبادنا) دل على أن العباد أكبر مكرمون بالاضافة إليه ، ثم إن المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق بمن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالماً مع أن لفظ الظالم أطلقه الله في كثير من المواضع على الكافر وسمى الشرك ظالماً ، وعلى الوجه الأول الظاهر بين معناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه وافترقوا (فمنهم ظالم) وهو المسمى (ومنهم مقتصد) وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً (ومنهم سابق بالخيرات) وهو الذي أخلص العمل لله وجرده عن السيئات ، فان قال قائل كيف قال في حق من ذكر في حقه أنه من عباده وأنه مصطفى إنه ظالم؟ مع أن الظالم يطلق على الكافر في كثير من المواضع ، فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه في غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية وإليه الإشارة بقوله ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ويصحح هذا قول عمر رضى الله عنه عن النبي ﷺ « ظالمنا مغفور له » وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى (ربنا ظلمنا أنفسنا) وأما الكافر فيضع قلبه الذي به اعتبار الجسد في غير موضعه فهو ظالم على الإطلاق ، وأما قلب المؤمن فمطمئن بالإيمان لا يضعه في غير التفكير في آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله ، وفي المراتب الثلاث أقوال كثيرة (أحدها) الظالم هو الراجح السيئات والمقتصد هو الذي

ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ «٣٢»

تساوت سيئاته وحسناته والسابق هو الذي ترجحت حسناته (ثانيها) الظالم هو الذي ظاهره
 خير من باطنه ، والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه ، والسابق من باطنه خير (ثالثها) الظالم هو
 الموحد بلسانه الذي تخالفه جوارحه ، والمقتصد هو الموحد الذي يمنع جوارحه من المخالفة
 بالتكليف ، والسابق هو الموحد الذي ينسيه التوحيد عن التوحيد (ورابعها) الظالم صاحب
 الكبيرة ، والمقتصد صاحب الصغيرة ، والسابق المعصوم (خامسها) الظالم التالى للقرآن غير
 العالم به والعامل بموجبه ، والمقتصد التالى العالم ، والسابق التالى العالم العامل (سادسها)
 الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم (سابعها) الظالم أصحاب المشامة ، والمقتصد
 أصحاب الميمنة ، والسابق السابقون المقربون (ثامنها) الظالم الذى يحاسب فيدخل النار ،
 والمقتصد الذى يحاسب فيدخل الجنة ، والسابق الذى يدخل الجنة من غير حساب (تاسعها) الظالم
 المصر على المعصية ، والمقتصد هو النادم والتائب ، والسابق هو المقبول التوبة (عاشرها) الظالم الذى
 أخذ القرآن ولم يعمل به ، والمقتصد الذى عمل به ، والسابق الذى أخذ وعمل به وبين للناس العمل
 به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل ، والمقتصد كامل والظالم ناقص ، والمختار هو أن الظالم من خالف
 فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فانه واضع للشيء فى غير موضعه ، والمقتصد هو المجتهد فى ترك
 المخالفة وإن لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصد عنه إثم فانه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق
 هو الذى لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى (باذن الله) أى اجتهد ووفق لما اجتهد فيه
 وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع فى قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع فى قلبه
 فتردده النفس ، والظالم تغلبه النفس ، ونقول بعبارة أخرى من غلبته النفس الأمانة وأمرته
 فأطاعها ظالم ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقصد ومن قهر نفسه فهو السابق
 وقوله (ذلك هو الفضل الكبير) يحتمل وجوهاً (أحدها) التوفيق المدلول عليه بقوله (باذن
 الله ذلك هو الفضل الكبير) ، (ثانيها) السبق بالخيرات هو الفضل الكبير (ثالثها) الإيرات
 فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير ، أما الوجه الآخر وهو أن يقال (ثم أورثنا الكتاب)
 أى جنس الكتاب ، كما قال تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) يرد عليه
 أسئلة (أحدها) ثم للتراخي وإيتاء الكتاب بعد الإيحاء إلى محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فما
 المراد بكلمة ثم ؟ نقول معناه إن الله خير بصير خيرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه
 قال تعالى إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عباداً (ثم أورثناهم الكتاب) ، (ثانيها)
 كيف يكون من الأنبياء ظالم لنفسه؟ نقول منهم غير راجع إلى الأنبياء المصطفين ، بل المعنى إن الذى
 أوحينا إليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلاً وآتيناهم كتباً ، ومنهم أى من قومك

جَنَاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسَهُمْ

فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾

ظالم كفر بك وبما أنزل إليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحاً (وثالثها) قوله (جنات عدن يدخلونها) الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلاً، نقول الداخلون هم السابقون، وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولاً ثم يدخل الجنة والبيان لأول الأمر لما بعده، ويدل عليه قوله (يحلون فيها من أساور من ذهب) وقوله (أذهب عنا الحزن).

ثم قال ﴿ جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفي الداخلين وجوه (أحدها) الأقسام الثلاثة وهي على قولنا أن الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين (والثاني) الذين يتلون كتاب الله (والثالث) هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولأنه ذكر إكرامهم بقوله (يحلون) فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه أبحاث:

﴿ الأول ﴾ تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى إذا كان المفعول حقيقياً كقولنا (الله خلق السموات) وقول القائل: زيد بنى الجدار فإن الله موجود قبل كل شيء، ثم له فعل هو الخلق، ثم حصل به المفعول وهو السموات، وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه، وإذا لم يكن المفعول حقيقياً كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمراً فإن الدار في الحقيقة ليس مفعولاً للداخل وإنما فعل من أفعاله تحقق بالنسبة إلى الدار، وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمى مفعولاً لا يحصل هذا الترتيب، ولكن الأصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول عمراً ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة إليه وحيث يطول الكلام فلا يختاره الحكيم إلا لفائدة، فما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذي هو الدخول وإعادة ذكر بالهاء في يدخلونها، وما الفرق بين هذا وبين قول القائل يدخلون جنات عدن؟ نقول السامع إذا علم أن له مدخلاً من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فإذا قيل له أنت تدخل فإلى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أي المداخل يكون، فإذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار، يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولا يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار، فإن بين المدخلين بوناً بعيداً (الثاني) قوله (يحلون فيها) إشارة إلى سرعة الدخول فإن التحلية لو وقعت خارجاً لكان فيه تأخير الدخول فقال (يدخلونها) وفيها تقع تحليتهم (الثالث) قوله (من أساور) بجمع الجمع فإنه جمع أسورة وهي جمع سوار، وقوله (ولباسهم فيها حرير) ليس كذلك لأن الإكثار من اللباس

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ

يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والا كشار من الزينة لا يدل إلا على الغنى (الرابع) ذكر الأساور من بين سائر الحلى في كثير من المواضع منها قوله تعالى (وحلوا أساور من فضة) وذلك لأن التحلى بمغنيين (أحدهما) إظهار كون المتحلى غير مبتذل في الأشغال لأن التحلى لا يكون حالة الطبخ والغسل (وثانيهما) إظهار الاستغناء عن الأشياء وإظهار القدرة على الأشياء وذلك لأن التحلى إما بالآلىء والجواهر وإما بالذهب والفضة والتحلى بالجواهر والآلىء يدل على أن المتحلى لا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكبيرة عند الحاجة حيث يعجز عن الوصول إلى الأشياء القليلة الوجود لا حاجة ، والتحلى بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية وإلا صرف الذهب والفضة إلى دفع الحاجة ، إذا عرفت هذا فنقول الأساور محلها الأيدي وأكثر الأعمال باليد فانها للبطش ، فاذا حليت بالأساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ إشارة إلى النوعين اللذين منهما الحلى .

ثم قال تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

في الحزن أقوال كثيرة والأولى أن يقال المراد إذهب كل حزن والآلف واللام للجنس واستغراقه وإذهب الحزن بحصول كل ما ينبغي وبقائه دائماً فان شيئاً منه لو لم يحصل لكان الحزن موجوداً بسببه وإن حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله وخوف فواته ، وقوله (إن ربنا لغفور شكور) ذكر الله عنهم أموراً كلها تفيد الكرامة من الله (الأول) الحمد فان الحامد مثاب (الثاني) قولهم ربنا فان الله لم يناد بهذا اللفظ إلا واستجاب لهم ، اللهم إلا أن يكون المنادى قد ضيع الوقت الواجب أو طلب مالا يجوز كالرد إلى الدنيا من الآخرة (الثالث) قولهم (غفور) ، (الرابع) قولهم (شكور) والغفور إشارة إلى ما غفر لهم في الآخرة بما وجد لهم من الحمد في الدنيا ، والشكور إشارة إلى ما يعطيهم ويزيد لهم بسبب ما وجد لهم في الآخرة من الحمد .

ثم قال تعالى ﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ أي دار الإقامة ، لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا (الذي أحلنا دار المقامة) أي الإقامة والمفعول ربما يحىء للمصدر من كل باب يقال ماله معقول أى عقل ، وقال تعالى (مدخل صدق) وقال تعالى (ومزقناهم كل ممزق) وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لأن المصدر هو المفعول في الحقيقة ، فانه هو الذي فعل فجاز إقامة المفعول مقامه وفي قوله (دار المقامة) إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور ومنها إلى منزلة

لَا يَمْسُنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمْسُنَا فِيهَا لُغُوبٌ «٣٥» وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ
عَلَيْهِمْ فِيْمُوتُوا وَلَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ «٣٦»

العرصة التي فيها الجمع ومنها التفريق . وقد تكون النار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة ، وكذلك النار لأهلها وقولهم (من فضله) أي بحكم وعده لا بإيجاب من عنده .

وقوله تعالى ﴿ لا يمسننا فيها نصب ولا يمسننا فيها لغوب ﴾ . اللغوب الإعياء والنصب هو السبب للإعياء فان قال قائل إذا بين أنه (لا يمسنهم فيها نصب) علم أنه (لا يمسنهم فيها لغوب) ولا ينفي المتكلم الحكيم السبب ، ثم ينفي مسبيه بحرف العطف فلا يقول القائل لا أكلت ولا شبعت أو لا قتت ولا مشيت والعكس كثير فانه يقال لا شبعت ولا أكلت لما أن نفي الشبع لا يلزمه إنتفاء الأكل وسياق ما تقرر أن يقال لا يمسننا فيها إعياء ولا مشقة ، فنقول ما قال الله في غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل ، ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فان الدنيا أما كنها على قسمين : (أحدهما) موضع تمس فيه المشاق والمتاعب كالبراري والصحاري والطرق والاراضي (والآخر) موضع يظهر فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التي في الأسفار من الخانات فان من يكون في مباشرة شغل لا يظهر عليه الإعياء إلا بعد ما يستريح فقال تعالى (لا يمسننا فيها نصب) أي ليست الجنة كالمواضع التي في الدنيا مظان المتاعب بل هي أفضل من المواضع التي هي مواضع مرجع العبي ، فقال (ولا يمسننا فيها لغوب) أي ، لا نخرج منها إلى مواضع تعب ونرجع إليها فيمسننا فيها الإعياء وقرىء (لغوب) بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال لا تعب ولا يمسننا ما يصلح لذلك ، وهذا لأن القوى السوى إذا قال ماتعبت اليوم لا يفهم من كلامه أنه ما عمل شيئاً لجواز أنه عمل عملاً لم يكن بالنسبة إليه متعباً لقوته ، فإذا قال ما مسنى ما يصلح أن يكون متعباً يفهم أنه لم يعمل شيئاً لأن نفس العمل قد يصلح أن يكون متعباً لضعيف أو متعباً بسبب كثرتة ، واللغوب هو ما يلغب منه وقيل النصب التعب الممرض ، وعلى هذا فحسن الترتيب ظاهر كأنه قال لا يمسننا مرض ولا دون ذلك وهو الذي يعيا منه مباشرة .

ثم قال تعالى ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم ﴾ عطف على قوله (إن الذين يتلون كتاب الله) وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله (جنات عدن يدخلونها) قد ذكرنا أنه على بعض الأقوال راجع إلى (الذين يتلون كتاب الله) .

ثم قال تعالى ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ أي لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم .
وقوله تعالى ﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كافر ﴾ أي النار وفيه لطائف

وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

(الأولى) أن العذاب في الدنيا إن دام كثيراً يقتل فان لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجاً فاسداً متمكناً لا يحس به المعذب، فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا، إما أن يفنى، وإما أن يألفه البدن بل هو في كل زمان شديد والمعذب فيه دائم (الثانية) راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لأن الترتيب أن لا ينقطع العذاب، ولا يفتر فقال لا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولا يجابون كما قال تعالى (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) أي بالموت (الثالثة) في المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم، ولم يقل تزيدهم عذاباً. وفي المثابين ذكر الزيادة بقوله (ويزيدهم من فضله) ثم لما بين أن عذابهم لا يخفف.

قال تعالى (وهم يصطرون فيها) أي لا يخفف وإن اضطربوا واضطربوا لا يخفف الله من عنده إنعاماً إلى أن يطلبوه بل يطلبون ولا يجدون والاضطراب من الصراخ والصراخ صوت المعذب وقوله تعالى (ربنا أخرجنا) أي صراخهم بهذا أي يقولون (ربنا أخرجنا) لأن صراخهم كلام وفيه إشارة إلى أن إيلاهم تعذيب لا تأديب، وذلك لأن المؤدب إذا قال لمؤدبه: لا أرجع إلى ما فعلت وبئسما فعلت يتركه، وأما المعذب فلا ورتيبه حسن وذلك لأنه لما بين أنه لا يخفف عنهم بالكيفية ولا يعفو عنهم بين أنه لا يقبل منهم وعداً وهذا لأن المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فإذا طال لبثه تطلب الإخراج من غير قطيعة على نفسه فان لم يفده يقطع على نفسه قطيعة ويقول أخرجني أفعل كذا وكذا.

واعلم أن الله تعالى قد بين أن من يكون في الدنيا ضالاً فهو في الآخرة ضال كما قال تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى) ثم إنهم لم يعلموا أن العود إلى الدنيا بعيد محال بحكم الإخبار. وعلى هذا قالوا (نعمل صالحاً) جازمين من غير استعانة بالله ولا مشاورة فيه، ولم يقولوا إن الأمر بيد الله، فقال الله لهم إذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرناكم مقداراً يمكن التذكر فيه والإتيان بالإيمان والإقبال على الأعمال.

وقولهم (غير الذي كنا نعمل) إشارة إلى ظهور فساد عملهم لهم وكان الله تعالى كما لم يهدم في الدنيا لم يهدم في الآخرة، فما قالوا ربنا زدنا للحسنين حسنات بفضلك لا بعملهم ونحن أحوج إلى تخفيف العذاب منهم إلى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظراً إلى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظراً إلى عدلك وانظر إلى مغفرتك الهاطلة ولا تنظر إلى معذرتنا الباطلة، وكما هدى الله المؤمن في الدنيا هداه في العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الإجابة وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الإنابة فقالوا الحمد لله وقالوا ربنا غفور اعترافاً بتقصيرهم شكوراً لإقراراً بوصول ما لم يخطر ببالهم إليهم وقالوا (أحلنا دار المقامة من فضله) أي لا عمل لنا بالنسبة إلى نعم الله وهم قالوا (أخرجنا نعمل صالحاً)

أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
نَصِيرٍ «٣٧» إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٣٨»

إغماضاً في حق تعظيمه وإعراضاً عن الاعتراف بعجزهم عن الإتيان بما يناسب عظمته ، ثم إنه تعالى بين أنه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل في المحل ، فان النبي ﷺ كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادات .

فقال تعالى ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾ فإن المانع إما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله . وإما أن يكون في مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم .

ثم قال تعالى ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ وقوله (فذوقوا) إشارة إلى الدوام وهو أمر إهانة ، فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم في غير موضعها وأنوا بالمعذرة في غير وقتها من نصير في وقت الحاجة ينصرهم ، قال بعض الحكماء قوله (فما للظالمين من نصير) وقوله (وما للظالمين من أنصار) يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلاً مركباً ، وهو الذي يعتقد الباطل حقاً في الدنيا (وما له من نصير) أي من علم ينفعه في الآخرة ، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى سمي البرهان سلطاناً ، كما قال تعالى (فأتوا بسطان) والسلطان أقوى ناصر إذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم ، لأن الله لا ينصره وليس غيره نصيراً فما لهم من نصير أصلاً ، ويمكن أن يقال إن الله تعالى قال في آل عمران (وما للظالمين من أنصار) وقال (فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين) وقال ههنا (فما للظالمين من نصير) أي هذا وقت كونهم واقعين في النار ، فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق إلا توقعهم من الله فقال (ما لكم من نصير) أصلاً ، وهناك كان الأمر محكياً في الدنيا أو في أوائل الحشر ، فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾ تقريراً لدوامهم في العذاب ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ولا يزداد عليها ، فلو قال قائل : الكافر ما كفر بالله إلا أياماً معدودة ، فكان ينبغي أن لا يعذب إلا مثل تلك الأيام ، فقال تعالى إن الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما في الصدور ، وكان يعلم من الكافر أن في قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده . وفي قوله تعالى (بذات الصدور) مسألة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى ، وهي أن لقائل أن يقول الصدور هي ذات اعتقادات وظنون ، فكيف سمي الله الاعتقادات بذات الصدور ؟

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا
«٣٩» قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا
مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلِ
إِن يَعْذِرِ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا «٤٠»

ويقرر السؤال قولهم أرض ذات أشجار وذات جنى إذا كان فيها ذلك ، فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد ، فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال الدار ذات زيد ، ويصح أن يقال زيد ذو دار وماك وإن كان هو فيها .

ثم قال تعالى ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾

تقريراً لقطع حججهم فانهم لما قالوا (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً) وقال تعالى (أولم نعمركم ما يتذكروا) إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتكم وزاد عليه بقوله (وجاءكم النذير) أي آتيناكم عقولاً ، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) أي نبهكم بمن مضى وحال من انقضى فانكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف ، لكن أمهاتكم وعمرتكم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف في الأرض ، أي خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين ﴿ فمن كفر ﴾ بعد هذا كله ﴿ فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ لأن الكافر السابق كان ممقوتاً كالعبد الذي لا يخدم سيده واللاحق الذي أنذره الرسول ولم ينتبه أمقت كالعبد الذي ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصيح ولا يسعده والتالي لهم الذي رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه أمقت الكل .

ثم قال تعالى ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ أي الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلا المقت ، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يفيدهم إلا الخسارة ، فان العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح ، ومن اشترى به سخطة خسر .

ثم قال تعالى ﴿ قل أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا
مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

تقريراً للتوحيد وإبطالاً للشرك، وقوله (أرأيتم) المراد منه أخبروني، لأن الاستفهام يستدعي جواباً، يقول القائل أرأيت ماذا فعل زيد؟ فيقول السامع باع أو اشتري، ولولا تضمنه معنى أخبرني وإلا لما كان الجواب إلا قوله لا أو نعم، وقوله (شركاءكم) إنما أضاف الشركاء إليهم من حيث إن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله، وإنما هم جعلوها شركاء، فقال شركاءكم، أي الشركاء يجعلكم ويحتمل أن يقال شركاءكم، أي شركاءكم في النار لقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وهو قريب، ويحتمل أن يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الأول وقوله (أروني) بدل عن (أرأيتم) لأن كليهما يفيد معنى أخبروني، ويحتمل أن يقال قوله (أرأيتم) استفهام حقيقي و (أروني) أمر تعجيز للتبيين، فلما قال (أرأيتم) يعنى أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة، فإن كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها؟ وإن كان وقع لكم أن لها قدرة فأروني قدرتها في أي شيء هي، أهي في الأرض: كما قال بعضهم: إن الله إله السماء وهؤلاء آلهة الأرض، وهم الذين قالوا أمور الأرض من الكواكب والأصنام صورها؟ أم هي في السموات، كما قال بعضهم: إن السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء في خلق السموات، وهذه الأصنام صورها؟ أم قدرتها في الشفاعة لكم، كما قال بعضهم إن الملائكة ما خلقوا شيئاً ولكنهم مقربون عند الله فعبيدها ليشفعوا لنا، فهل معهم كتاب من الله فيه إذنه لهم بالشفاعة؟ وقوله (أم آتيناكم كتاباً) في العائد إليه الضمير وجهان (أحدهما) أنه عائد إلى الشركاء، أي هل آتينا الشركاء كتاباً (وثانيتها) أنه عائد إلى المشركين، أي هل آتينا المشركين كتاباً وعلى الأول فمعناه ما ذكرنا، أي هل مع ما جعل شريكاً كتاب من الله فيه أن له شفاعة عند الله، فإن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه، وعلى الثاني معناه أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزءاً من الأجزاء ولا في السماء شيئاً من الأشياء، وإما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتاباً فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولو أمرنا لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم وإلى جهة الكعبة، فهذه العبادة لاعقلية ولا نقلية فوجد بعضهم بعضاً ليس إلا غروراً غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الأصنام. ثم لما بين أنه لا خلق للأصنام ولا قدرة لها ولا على جزء من الأجزاء بين أن الله قدير بقوله ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ ويحتمل أن يقال لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والأرض كما قال تعالى (تكاد السموات يتنطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نَفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ

للرحمن ولداً) ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية (إنه كان حليماً غفوراً) كان حليماً ما ترك تعذيبهم إلا حليماً منه وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم وإنما آخر إزالة السموات إلى قيام الساعة حليماً ، وتحتل الآية وجهاً (ثالثاً) وهو أن يكون ذلك من باب التسليم وإثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضاً كأنه تعالى قال شركاؤكم ما خلقوا من الأرض شيئاً ولا في السماء جزءاً ولا قدروا على الشفاعة ، فلا عبادة لهم . وهب أنهم فعلوا شيئاً من الأشياء فهل يقدرون على إمساك السموات والأرض ؟ ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون لأنهم ما كانوا يقولون به ، كما قال تعالى عنهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ويؤيد هذا قوله (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد بعده) فاذا تبين أن لا معبود إلا الله من حيث إن غيره لم يخلق من الأشياء وإن قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خاق فلا شريك له إنه كان حليماً غفوراً ، حليماً حيث لم يعجل في اهلاكهم بعد إصرارهم على إشراكهم وغفوراً يغفر لمن تاب ويرحمه وإن استحق العقاب .

ثم قال تعالى ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير لئكونن أهدي من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ، استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ .

لما بين إنكارهم للتوحيد ذكر تكذيبهم الرسول ومبالغتهم فيه حيث إنهم كانوا يقسمون على أنهم لا يكذبون الرسل إذا تبين لهم كونهم رسلاً وقالوا إنما نكذب بمحمد ﷺ لكونه كاذباً ، ولو تبين لنا كونه رسلاً لا لنا كما قال تعالى عنهم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) وهذا مبالغة منهم في التكذيب ، كما أن من ينكر دين إنسان قد يقول والله لو علمت أن له شيئاً على لقبضته وزدته ، إظهاراً لسكونه مطالباً بالباطل ، فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدي الأمم فلما جاءهم نذير أي محمد ﷺ جاءهم أي صح بجيوه لهم بالبينة ما زادهم إلا نفوراً ، فإنهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولأنهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا ، بعد الرسالة وقال بعض المفسرين إن أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على أنهم كذبوا برسولهم لما جاءهم وقالوا لو جاءنا رسول لأطعناه

واتبعناه ، وهذا فيه اشكال من حيث إن المشركين كانوا منكرين للرسالة والحشر مطلقاً ، فكيف كانوا يعترفون بالرسول ، فمن أين عرفوا أن اليهود كذبوا وما جاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون أنهم صدقوا شيئاً وكذبوا في شيء ؟ بل المراد ما ذكرنا أنهم كانوا يقولون نحن لو جاءنا رسول لا ننكره وإنما ننكر كون محمد رسولا من حيث إنه كاذب ولو صح كونه رسولا لآمنا وقوله (فلما جاءهم) أي فلما صح لهم بحيثه بالمعجزة ، وفي قوله (أهدى) وجهان (أحدهما) أن يكون المراد أهدى بما نحن عليه وعلى هذا فقوله (من إحدى الأمم) للنبين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا) أي صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى (وثانيهما) أن يكون المراد أن نكون أهدى من إحدى الأمم كما يقول القائل زيد أولى من عمرو ، وفي الأمم وجهان (أحدهما) أن يكون المراد العموم أي أهدى من أي إحدى الأمم وفيه تعريض (وثانيهما) أن يكون المراد تعريف العهد أي أمة محمد وموسى وعيسى ومن كان في زمانهم .

ثم قال تعالى (استكباراً في الأرض) ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون حالا أي مستكبرين في الأرض (وثانيها) أن يكون مفعولاً له أي للاستكبار (وثالثها) أن يكون بدلا عن النفور وقوله (ومكر السيئ) إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال علم الفقه وحرقة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكرأ سيئاً ثم عرف لظهور مكرهم ، ثم ترك التعريف باللام وأضيف إلى السيئ لكون السوء فيه أبين الأمور ، ويحتمل أن يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا في قوله تعالى (والذين يمكرون السيئات) أي يعملون السيئات ، ومكرهم السيئ ، وهو جميع ما كان يصدر منهم من القصد إلى الإيذاء ومنع الناس من الدخول في الإيمان واطهار الإنكار ، ثم قال (ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله) أي لا يحيط إلا بفاعله وفي قوله (ولا يحق) وقوله (إلا بأهله) فوائد ، أما في قوله (يحق) فهي أنها تنبئ عن الإحاطة التي هي فوق اللحوق وفيه من التحذير ما ليس في قوله ولا يلحق أو ولا يصل ، وأما في قوله (بأهله) ففيه ما ليس في قول القائل ولا يحق المكر السيئ إلا بالمساكر ، كي لا يأمن المسيئ فإن من أساء ومكره سيئ آخر قد يلحقه جزاء على سيئه ، وأما إذا لم يكن سيئاً فلا يكون أهلاً فيأمن المكر السيئ ، وأما في النفي والإثبات ففائدته الحصر بخلاف ما يقول القائل المكر السيئ يحق بأهله ، فلا ينبئ عن عدم الحيق بغير أهله ، فان قال قائل كثيراً ما نرى أن المساكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك ، فنقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) أن المكر المذكور في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي ﷺ من العزم على القتل والإخراج ولم يحق إلا بهم ، حيث قتلوا يوم بدر وغيره (وثانيها) هو أن نقول المكر السيئ عام وهو الأصح فان النبي عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبي ﷺ أنه قال « لا تمكروا ولا تعينوا ما كرا فان الله يقول ولا يحق المكر السيئ »

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ

لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

إلا بأهله « وعلى هذا فذلك الرجل المذكور به [لا] يكون أهلاً فلا يرد نقضاً (وثالثها) أن الأمور يعواقبها ، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز والمساكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا ، ويبين هذا المعنى قوله تعالى (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) يعنى إذا كان لمكرهم في الحال رواج فالعاقبة للتقوى والأمور بخواتيمها ، فيها يكون كما هلك الأولون .

وقوله تعالى ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ أى ليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك وهو سنة الأولين وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هو سنة الله بالأولين ، فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المصدر الذى هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمراً عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ماله من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحكمة فكذلك سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها سنة سنت بهم وأضافها إلى نفسه بعدها بقوله :

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ لأنها سنة من سنن الله ، إذا علمت هذا فنقول أضافها في الأول إليهم حيث قال (سنة الأولين) لأن سنة الله الإهلاك بالاشراك والاكرام على الاسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما فاذا قال سنة الأولين تميزت وفي الثانى أضافها إلى الله ، لأنها لما علمت فالإضافة إلى الله تعظيمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع (وثانيهما) أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الإنكار واستكبارهم عن الإقرار ، وسنة الله استئصالهم باصرارهم فكأنه قال أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتى بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ التبديل تحويل فما الحكمة في التكرار ؟ نقول بقوله (فلن تجد لسنة الله تبديلاً) حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره ، وبقوله (ولن تجد لسنة الله تحويلاً) حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسىء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المخاطب بقوله (فلن تجد) يحتمل وجهين وقد تقدم مراراً (أحدهما) أن يكون عاماً كأنه قال فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلاً (والثانى) أن يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فكأنه قال سنة الله أنه لا يهلك ما بقى في القوم من كتب الله إيمانه ، فاذا

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

آمن من في علم الله أنه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح (إنك إن تذرهم) أي تمهل الأمر وجاء وقت سنتك .

ثم قال تعالى ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ﴾ .

لما ذكر أن للأولين سنة وهي الإهلاك نبههم بتذكير حال الأولين فانهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم ، أما الأول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم ، وأما عملهم فلأنهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمداً وأتم بأهل مكة كذبتهم محمداً ومن تقدمه ، وقوله تعالى (وكانوا أشد منهم قوة) قد ذكرناه في سورة الروم ، بقى فيه أبحاث :
﴿ الأول ﴾ قال هناك (كانوا أشد) من غير واو ، وقال ههنا بالواو فما الفرق ؟ نقول قول القائل : أما رأيت زيدا كيف أكرمني وأعظم منك ، يفيد أن القائل يخبره بأن زيدا أعظم ، وإذا قال أما رأيتك كيف أكرمني هو أعظم منك يفيد أنه تقرر أن كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثاني في الظهور مثل الأول بحيث لا يحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار ، إذا علمت هذا فنقول المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير ، ولعل ذلك كان ظاهراً عندهم فقال بالواو أي نظرتم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم ، وأما هناك فالمدكور أشياء كثيرة فانه قال (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها) وفي موضع آخر قال (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض) ولعل عليهم لم يحصل بآثارهم الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلوماً عندهم فان كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم أنهم أقوى منهم ولا نزاع فيه .

وقوله تعالى ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾
يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون بياناً لهم أي أن الأولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لا يعجزوه (والثاني) أن يكون قطعاً لأطباع الجهال فان قائلوا لو قال هب أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعماراً لكننا نستخرج بذلك ما يزيد على قواهم ونستعين

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار فقال تعالى (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً) بأفعالهم وأقوالهم (قديراً) على إهلاكهم واستئصالهم . ثم قال تعالى ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ .

لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون عجل لنا عذابنا فقال الله : للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الله الناس بنفس الظلم فإن الإنسان ظلوم جهول ، وإنما يؤاخذ بالاصرار وحصول يأس الناس عن إيمانهم ووجود الإيمان من كتب الله إيمانه فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم إهلاك وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون ؟ نقول الجواب من وجوه (أحدها) أن خلق الدواب نعمة فإذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لأن المفرد أولاً ثم المركب والمركب إما أن يكون معدنياً وإما أن يكون نامياً والنامي إما أن يكون حيواناً وإما أن يكون نباتاً ، والحيوان إما إنسان وإما غير إنسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للإنسان (الثاني) هو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فإن بقاء الأشياء بالإنسان كما أن بقاء الإنسان بالأشياء وذلك لأن الإنسان يدبر الأشياء ويصلحها فتبقى الأشياء ثم ينتفع بها الإنسان فيبقى الإنسان فإذا كان الهلاك عاماً لا يبقى من الإنسان من يعمر فلا تبقى الأبنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الأهلية لأن بقاءها بحفظ الإنسان إياها عن التلف والهلاك بالسقي والعلف (الثالث) هو أن إنزال المطر هو إنعام من الله في حق العباد فإذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض وتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى (ما ترك على ظهرها من دابة) (الوجه الثالث) لأن بسبب انقطاع الأمطار تموت حيوانات البر ، أما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (على ظهرها) كناية عن الأرض وهي غير مذكورة فكيف علم ؟ نقول بما تقدم وبما تأخر ، أما ما تقدم فقوله (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض) فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها ، وأما ما تأخر فقوله (من دابة) لأن الدواب على ظهر الأرض ، فإن قيل كيف يقال لما عليه الخلق من الأرض وجه الأرض

وظهر الأرض ، مع أن الوجه مقابل الظهر كالمضاد ؟ نقول من حيث إن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الأرض ، ومن حيث إن ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها ، على أن الظهر في مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب ، فوجه الأرض ظهر لأنه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن .

(المسألة الثالثة) في قوله تعالى (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) وجوه : (أحدها) إلى يوم القيامة وهو مسمى مذكور في كثير من المواضع (ثانيها) يوم لا يوجد في الخلق من يؤمن على ما تقدم (ثالثها) لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد ﷺ أيام القتل والأسر كيوم بدر وغيره .

(المسألة الرابعة) قوله تعالى (فإذا جاء أجلهم ، فإن الله كان بعباده بصيراً) تسلية للمؤمنين للمؤمنين ، وذلك لأنه تعالى لما قال (ما ترك على ظهرها من دابة) وقال (لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال فإذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير ، إما أن ينجيهم أو يكون توفيقهم تقريباً من الله لا تعذيباً ، لا يقال قد ذكرت أن الله لا يؤخذ بمجرد الظلم ، وإنما يؤخذ حين يجتمع الناس على الضلال ونقول بأنه تعالى عند الإهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا ، نقول قد ذكرنا أن الإمامة والإفناء إن كان للتعذيب فهو مؤاخذه بالذنب وإهلاك ، وإن كان لإيصال الثواب فليس بإهلاك ولا بمؤاخذه ، والله لا يؤخذ الناس إلا عند عموم الكفر ، وقوله (بصير) اللفظ أتم في التسليّة من العليم وغيره لأن البصير بالشئ الناظر إليه أولى بالإنجاء من العالم بحالة دون أن يراه والله أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(سورة يس)

(ثمانون وثلاث آيات مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يس « ١ » وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ « ٢ »

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يس والقرآن الحكيم) قد ذكرنا كلاماً كلياً في حروف التهجى في سورة العنكبوت وذكرنا أن في كل سورة بدأ الله فيها بحروف التهجى كان في أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن ولذا ذكر ههنا أبحاثاً:

(البحث الأول) هو أن في ذكر هذه الحروف في أوائل السور أموراً تدل على أنها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الانسان لا يصل إليها بعينها فنقول ما هو الكلى من الحكمة فيها، أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة فهو أن الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهي أربعة عشر حرفاً وهي نصف ثمانية وعشرين حرفاً، وهي جميع الحروف التي في لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة، ثم إنه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الألف إلى الذال وتسعة أحرف آخر في آخر الحروف من الفاء إلى الياء وعشرة من الوسط من الراء إلى الغين، وذكر من القسم الأول حرفين هما الألف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة، ولم يترك من القسم الأول من حروف الخلق والصدر إلا واحداً لم يذكره وهو الحاء، ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة إلا واحداً لم يتركه وهو الميم، والعشر الأواسط ذكر منها حرفاً وترك حرفاً فذكر الراء وترك الزاى وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين، وليس هذا أمراً يقع اتفاقاً بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة، وأما أن عينها غير معلومة فظاهر وهب أن واحداً يدعى فيه شيئاً فماذا يقول في كون بعض السور مفتوحة بحرف كسورة ن. وق. و ص. وبعضها بحرفين كسورة حم. ويس. وطس. وطه. وبعضها بثلاثة أحرف كسورة الم. وطسم، والر. وبعضها بأربعة كسورتي المر. والمص. وبعضها بخمسة أحرف كسورتي جمسق. وكهيعص. وهب أن قائلاً يقول إن هذا إشارة إلى أن الكلام، إما حرف، وإما فعل، وإما اسم، والحرف كثيراً ما جاء على حرف كواو العنان وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الالتصاق

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ « ٣ »

وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبويض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وأن للشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كإلى وعلى في الحرف وإلى وعلى في الاسم وألا يالو وعلا يعلو في الفعل ، والاسم والفعل جاء على أربعة ، والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفجّل وسجّل وجرّد حل فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه ، فإذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر إلا الله ومن أعلمه الله به ، إذا علمت هذا فنقول اعلم أن العبادة منها قلبية ، ومنها لسانية ، ومنها جارحية ، وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم ، أما القلبية مع أنها أبعد عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلا ، وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعاً كالصراط الذي [هو] أرق من الشعرة وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذي توزن به الأعمال التي لا ثقل لها في نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فان هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي ، وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول ، وكذلك في العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كقذاير النصب وعدد الركعات ، وقد ذكرنا الحكمة فيه وهي أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة لا يكون إلا آتياً بمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فرمما يأتي به للفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبدته انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في النقل فنقلها ولو قال انقلها فان تحتها كنزاً هو لك ينقلها وإن لم يؤمن ، إذا علم هذا فكذلك في العبادات اللسانية الذكورية وجب أن يكون منها ما لا يفهم معناه حتى إذا تكلم به العبد علم منه أنه لا يقصد غير الانقياد لأمر المعبود الأمر الناهي فاذا قال (حمّ ، يسّ ، ألم ، طسّ) علم أنه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه أو يفهمه فهو يتلفظ به إقامة لما أمر به .

(البحث الثاني) قيل في خصوص يس إنه كلام هو نداء معناه يا إنسان ، وتقريره هو أن تصغير إنسان أنيسين فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال (يس) أي أنيسين ، وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد ﷺ ويدل عليه قوله تعالى بعده (إنك لمن المرسلين) .

(البحث الثالث) قرئ يس إما بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف هو قوله هذه كأنه قال هذه يس ، وإما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبنى كحيث ، وقرئ يس إما بالنصب على معنى اتل يس وإما بالفتح كآين وكيف ، وقرئ يس بالسكسر كجبر لإسكان الياء وكسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالجر لأن إضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر وقوله تعالى (والقرآن الحكيم) أي ذى الحكمة كعيشة راضية أي ذات رضا أو على أنه ناطق بالحكمة فهو كالحى المتكلم .

وقوله تعالى (إنك لمن المرسلين) مقسم عليه وفيه مسائل :

عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ « ٤ »

(المسألة الأولى) الكفار أنكروا كون محمد رسلاً والمطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة في الإقسام ؟ نقول فيه وجوه (الأول) هو أن العرب كانوا يتوقون الإيمان الفاجرة وكانوا يقولون إن اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وضح النبي ﷺ ذلك بقوله « اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع » ثم إنهم كانوا يقولون إن النبي ﷺ يصيبه من آلهتهم عذاب وهي الكواكب فكان النبي ﷺ يحلف بأمر الله وإنزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة ، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنًا وأمنع مكانًا فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب (الثاني) هو أن المتناظرين إذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المطلوب إنك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير في نفسك بضعف مقالك وتعلم أن الأمر ليس كما تقول وإن أقمت عليه صورة دليل وعجزت أنا عن القدح فيه ، وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتي هو بدليل آخر ، لأن الساكت المنقطع يقول في الدليل الآخر ما قاله في الأول فلا يجد أمراً إلا اليمين ، فيقول والله إنى لست مكابراً وإن الأمر على ما ذكرت ولو علمت خلافه لرجعت إليه فهنا يتعين اليمين ، فكذلك النبي ﷺ لما أقام البراهين وقالت الكفرة (ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم) وقالوا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) تعين التمسك بالإيمان لعدم فائدة الدليل (الثالث) هو أن هذا ليس مجرد الحلف ، وإنما هو دليل خرج في صورة اليمين لأن القرآن معجزة ودليل كونه رسلاً هو المعجزة والقرآن كذلك فإن قيل فلم يذكر في صورة الدليل ؟ وما الحكمة في ذكر الدليل في صورة اليمين ؟ قلنا الدليل أن ذكره (١) في صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فاذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع لا سيما من العظيم الأعلى أمر عظيم والأمر العظيم تتوفر الدواعي على الإصغاء إليه فلصورة اليمين تشرّب إليه الأجسام ، ولكونه دليلاً شافياً يتشربه الفؤاد فيقع في السمع وينفع في القلب .

(المسألة الثانية) كون القرآن حكيمًا عندهم لكون محمد رسلاً ، فلمهم أن يقولوا إن هذا ليس بقسم ، نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن كون القرآن معجزة بين إن أنكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله (والثاني) أن العاقل لا يثق بيمين غيره إلا إذا حلف بما يعتقد عظمته ، فالكافر إن حلف بمحمد لا تصدقه كما تصدقه لو حلف بالصليب والصنم ، ولو حلف بديننا الحق لا يوثق بمثل ما يوثق به لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم أن النبي ﷺ وأصحابه يعظمون القرآن خلفه به هو الذي يوجب ثقتهم به .

وقوله تعالى (على صراط مستقيم) خبر بعد خبر أي إنك على صراط مستقيم والمستقيم

(١) في الأصل ، أن ذكر لا ، ولما كان لا معنى لها فما لاشك فيها أنها مصحفة عما ذكرناه ، لأن كتابة الهاء المربوطة في الخط قرينة من ، لا ، في الصورة فهي مصحفة عنها .

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لَتَنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾

أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد والدين كذلك فإنه توجه إلى الله تعالى وتولى عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه إلى المقصد أقرب إليه من المولى عنه والمتحرف منه ولا يذهب فهم أحد إلى أن قوله إنك منهم على صراط مستقيم يميز له عن غيره كما يقال إن محمداً من الناس مجتبي لأن جميع المرسلين على صراط مستقيم ، وإنما المقصود بيان كون النبي صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم الذى يكون عليه المرسلون وقوله (على صراط مستقيم) فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباكية الذين يقولون المكلف يصير واصلاً إلى الحق فلا يبقى عليه تكليف وذلك من حيث إن الله بين أن المرسلين ما داموا في الدنيا فهم سالكون سائحون مهتدون منتهجون إلى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز .

وقوله تعالى ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ قرىء بالجر على أنه بدل من القرآن كأنه قال (والقرآن الحكيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، إنك لمن المرسلين لتنذر) وقرىء بالنصب وفيه وجهان (أحدهما) أنه مصدر فعله منوى كأنه قال نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن أو الكتاب الحكيم (والثاني) أنه مفعول فعل منوى كأنه قال والقرآن الحكيم أعنى تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر ، وهذا ما اختاره الزمخشري وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ منوى كأنه قال هذا تنزيل العزيز الرحيم لتنذرو ويحتمل وجهاً آخر على هذه القراءة وهو أن يكون مبتدأ خبره لتنذر كأنه قال تنزيل العزيز للانداز وقوله (العزيز الرحيم) إشارة إلى أن الملك إذا أرسل رسولا فالمرسل إليهم إما أن يخالفوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم إلا إذا كان عزيزاً أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ يرحمهم الملك ، أو نقول المرسل يكون معه في رسالته منع عن أشياء وإطلاق لأشياء فالمنع يؤكد العزة والإطلاق يدل على الرحمة .

وقوله تعالى ﴿ لتنذر قوماً ما أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ .

قد تقدم تفسيره في قوله (لتنذر قوماً ما أُنذِرَ من نذير من قبلك) وقيل المراد الإثبات وهو على وجهين (أحدهما) لتنذر قوماً ما أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ ، فتكون ما مصدرية (الثاني) أن تكون موصولة معناه : لتنذر قوماً الذين أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ، فعلى قولنا ما نافية تفسيره ظاهر فإن من لم ينذر آبَاؤَهُ وبعد الإنذار عنه فهو يكون غافلاً ، وعلى قولنا هي الإثبات كذلك لأن معناه لتنذرهم إنذار آبائهم فانهم غافلون ، وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضى أن لا يكون آبَاؤُهُمْ منذرين والآخر يقتضى أن يكونوا منذرين وبينهما تضاد ؟ نقول على قولنا ما نافية معناه ما أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ وإنذار آبائهم الأولين لا ينافي أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين والمتأخرون منهم غير منذرين .

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ « ٧ »

(المسألة الثانية) قوله (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) يقتضى أن لا يكون النبي صلى الله عليه وسلم مأموراً بانذار اليهود لأن آباءهم أنذروا ، نقول ليس كذلك ، أما على قولنا ما للاثبات لا للنفي فظاهر ، وأما على قولنا هي نافية فكذلك ، وقد بينا ذلك فى قوله تعالى (بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وقلنا إن المراد أن آباءهم قد أنذروا بعد ضلالهم وبعد إرسال من تقدم فان الله إذا أرسل رسولا فما دام فى القوم من يبين دين ذلك النبي ويأمر به لا يرسل الرسول فى أكثر الأمر ، فاذا لم يبق فيهم من يبين ويضل الكل ويتباعد العهد ويفشو الكفر يبعث رسولا آخر مقررآ لدين من كان قبله أو واضعاً لشرع آخر ، فمعنى قوله تعالى (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) أى ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم واليهود والنصارى دخلوا فيه لأنهم لم تنذر آباؤهم الأذنون بعد ما ضلوا ، فهذا دليل على كون النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثاً بالحق إلى الخلق كافة .

(المسألة الثالثة) قوله (فهم غافلون) دليل على أن البعثة لا تكون إلا عند الغفلة ، أما إن حصل لهم العلم بما أنزل الله بأن يكون منهم من يبلغهم شريعة ويخالفونه فحق عليهم الهلاك ولا يكون ذلك تعذيباً من قبل أن يبعث الله رسولا ، وكذلك من خالف الأمور التي لا تفتقر إلى بيان الرسل يستحق الإهلاك من غير بعثة ، وليس هذا قولاً بمذهب المعتزلة من التحسين والتقيح العقلى بل معناه أن الله تعالى لو خلق فى قوم علماء بوجوب الأشياء وتركوه لا يكونون غافلين فلا يتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل .

ثم قال تعالى ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

لما بين أن الإرسال أو الإنزال للانذار ، أشار إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء ، وإنما عليه الإنذار وقد لا يؤمن من المنذرين كثير وفى قوله تعالى (لقد حق القول) وجوه (الأول) وهو المشهور أن المراد من القول هو قوله تعالى (حق القول منى لأملأن جهنم منك ومن تبعك) ، (الثانى) هو أن معناه لقد سبق فى علمه أن هذا يؤمن وأن هذا لا يؤمن فقال فى حق البعض أنه لا يؤمن ، وقال فى حق غيره أنه يؤمن (فحق القول) أى وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره (الثالث) هو أن يقال المراد منه لقد حق القول الذى قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبأن برهانه فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك لأن من يتوقف لاستماع الدليل فى مهلة النظر يرجى منه الايمان إذا بان له البرهان ، فاذا تحقق وأكد بالإيمان ولم يؤمن أكثرهم فأكثرهم تبين أنهم لا يؤمنون لمضى وقت رجاء الايمان ولا أنهم لم يؤمنوا عند ما حق القول واستمروا فان كانوا يريدون شيئاً أوضح من البرهان فهو العيان

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾

وعند العيان لا يفيد الإيمان ، وقوله (على أكثرهم) على هذا الوجه معناه أن من لم تبلغه الدعوة والبرهان قليلون فحق القول على أكثر من لم يوجد منه الإيمان وعلى الأول والثاني ظاهر فإن أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا (وفيه وجه رابع) وهو أن يقال لقد حقت كلمة العذاب العاجل على أكثرهم فهم لا يؤمنون وهو قريب من الأول .

ثم قال تعالى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ .
لما بين أنهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال (إنا جعلنا) وفيه وجوه ١ أحدها أن المراد إنا جعلناهم مسكين لا ينفقون في سبيل الله كما قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) (والثاني) أن الآية نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنه يرضخ رأس محمد ، فرآه ساجداً فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه . (والثالث) وهو الأقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو أن ذلك كناية عن منع الله إياهم عن الاهتداء وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هل للوجهين الأولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام ؟ نقول : (الوجه الأول) له مناسبة وهي أن قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) يدخل فيه أنهم لا يصلون كما قال تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون ، وأما على الوجه الثاني فمناسبة خفية وهي أنه لما قال (لقد حق القول على أكثرهم) وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من إرسال الحجر وهو يضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلاً والتفسير هو الوجه الثالث .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فهي) راجعة إلى ماذا ؟ نقول فيها وجهان (أحدهما) أنها راجعة إلى الأيدي وإن كانت غير مذكورة ولكنها معلومة لأن المخلول تكون أيديه مجموعة في الغل إلى عنقه (وثانيهما) وهو ما اختاره الزمخشري أنها راجعة إلى الأغلال ، معناه إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ثقلاً غلاظاً بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المخلول معها من أن يطأطأ رأسه .
﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف يفهم من الغل في العنق المنع من الإيمان حتى يجعل كناية فنقول المخلول الذي بلغ الغل إلى ذقنه وبقي مقمحاً رافع الرأس لا يبصر الطريق الذي عند قدمه وذكر بعده أن بين يديه سداً ومن خلفه سداً فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته وقد ذكر من قبل أن المرسل على صراط مستقيم فهذا الذي يهديه النبي إلى الصراط المستقيم العقلي جعل ممنوعاً كالمخلول الذي يجعل ممنوعاً من إبصار الطريق الحسي ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يقال الأغلال في الأعناق

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهْمَهُمْ

لَا يَبْصُرُونَ « ٩ »

عبارة عن عدم الانقياد فان المنقاد يقال فيه إنه وضع رأسه على الخط وخضع عنقه والذي في رقبته الغل الثخين إلى الذقن لا يطأطىء رأسه ولا يحركه تحريك المصدق ، ويصدق هذا قوله (مقمحون) فان المقمح هو الرافع رأسه كالمتابي يقال بعير قاح إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والإيمان كالماء الزلال الذي به الحياة وكأنه تعالى قال (إننا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهم مقمحون) لا يخضعون الرقاب لأمر الله .

وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ يكون متمماً لمعنى جعل الله إياهم مغلولين لأن قوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً) إشارة إلى أنهم لا ينتهجون سبيل الرشاد فكأنه قال لا يبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولا ينقادون لك فيبصرون الحق فينقادون له لمكان الغل والإيمان المورث للايقان . أما باتباع الرسول أولاً فتلوح له الحقائق ثانياً وإما بظهور الأمور أولاً واتباع الرسول ثانياً ، ولا يتبعون الرسول أولاً لأنهم مغلولون فلا يظهر لهم الحق من الرسول ثانياً ، ولا يظهر لهم الحق أولاً لأنهم واقعون في السد فلا يتبعون الرسول ثانياً (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال المانع ، إما أن يكون في النفس ، وإما أن يكون خارجاً عنها ، ولهم المانعان جميعاً من الإيمان ، أما في النفس فالغل ، وأما من الخارج فالسد ، ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التي في أنفسهم كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) وذلك لأن المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه ، ولا يقع نظرهم على الآفاق لأن من بين السدين لا يبصرون الآفاق فلا تبين لهم الآيات التي في الآفاق وعلى هذا فقوله (إننا جعلنا في أعناقهم) (وجعلنا من بين أيديهم) إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق ، وفي تفسير قوله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم سداً) مسائل :

(المسألة الأولى) السد من بين الأيدي ذكره ظاهر الفائدة فانهم في الدنيا سالكون وينبغي أن يسلكوا الطريقة المستقيمة (ومن بين أيديهم سداً) فلا يقدر على السلوك ، وأما السد من خلفهم ، فما الفائدة فيه ؟ فنقول الجواب عنه من وجوه : (الأول) هو أن الانسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها وهداية نظرية والكافر ما أدركها فكأنه تعالى يقول (جعلنا من بين أيديهم سداً) فلا يسلكون طريقة الاهتداء التي هي نظرية (وجعلنا من خلفهم سداً) فلا يرجعون إلى الهداية الجبلية التي هي الفطرية (الثاني) هو أن الانسان مبدأه من الله ومصيره إليه فعمى الكافر لا يبصر ما بين يديه من

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

المصير إلى الله ولا ما خلفه من الدخول في الوجود بخلق الله (الثالث) هو أن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فان انسد الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع وإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذي هو فيه لا يكون موضع إقامة لأنه مهلك فقوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم) إشارة إلى إهلاكم .

(المسألة الثانية) قوله تعالى (فأغشيناهم) بحرف الغاء يقتضى أن يكون الإغشاء بالسد تعلق ويكون الإغشاء مرتباً على جعل السد فكيف ذلك ؟ فنقول ذلك من وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك بياناً لأمر مترتبة يكون بعضها سبباً للبعض فكأنه تعالى قال (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً) فلا يبصرون أنفسهم لإقحامهم (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً) فلا يبصرون ما في الآفاق وحينئذ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله (وجعلنا على أبصارهم غشاوة) فلا يبصرون شيئاً أصلاً (وثانيهما) هو أن ذلك بيان لسكون السد قريباً منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم فان من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقاً بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئاً ، أما غير السد فلا حجاب ، وأما عين السد فلكون شرط المرئى أن لا يكون قريباً من العين جداً .

(المسألة الثالثة) ذكر السدين من بين الأيدي ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه ؟ فنقول ، أما على قولنا إنه إشارة إلى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر ، وأما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة ، لأنهم إن قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء ومولين عن شيء فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك ، فكيفما يتوجه الكافر يجعل الله بين يديه سداً (ووجه آخر) أحسن مما ذكرنا وهو أننا لما بيننا أن جعل السد صار سبباً للإغشاء كان السد ملتزقاً به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة يمنة ولا يسرة فلا حاجة إلى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) يحتمل ما ذكرنا أنهم لا يبصرون شيئاً ، ويحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مسدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد . فيظن أنه على الطريقة المستقيمة ، وغير ضال .

ثم إنه تعالى بين أن الإنذار لا ينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والإغشاء والإعماء . بقوله تعالى ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ أى الإنذار وعدمه بيان بالنسبة إلى الإيمان منهم إذ لا وجود له منهم على التقديرين ، فان قيل إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار ؟ نقول قد أجبنا في غير هذا الموضع أنه تعالى قال (سواء عليهم) وما قال سواء

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ

كَرِيمٍ «١١»

عليك فالإنذار بالنسبة إلى النبي ﷺ ليس كعدم الإنذار لأن أحدهما مخرج له عن العهدة وسبب في زيادة سيادته عاجلاً وسعاده آجلاً، وأما بالنسبة إليهم على السواء فالإنذار النبي ﷺ ليخرج عما عليه وينال ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار في دار القرار.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ والترتيب ظاهر وفي التفسير مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ قال من قبل (لتنذر) وذلك يقتضي الإنذار العام على ما بيننا وقال (إنما تنذر) وهو يقتضي التخصيص فكيف الجمع بينهما؟ نقول من وجوه: (الأول) هو أن قوله (لتنذر) أي كيفما كان سواء كان مفيداً أو لم يكن وقوله (إنما تنذر) أي الإنذار المفيد لا يكون إلا بالنسبة إلى من يتبع الذكر ويحشى (الثاني) هو أن الله تعالى لما قال إن الإرسال والانزال، وذكر أن الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى أهل العناد قال لنبيه ليس إنذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم وإنما تنذر بذلك الإنذار العام من يتبع الذكر كأنه يقول يا محمد إنك بإنذارك تهدي ولا تدرى من تهدي فأنذر الأسود والأحمر ومقصودك من يتبع إنذارك وينتفع بذكراك (الثالث) هو أن نقول قوله (لتنذر) أي أولاً فإذا أنذرت وبالغت وبلغت واستهزأ البعض وتولى واستكبر وتولى، فأعرض بعد ذلك فإما تنذر الذين اتبعوك (الرابع) وهو قريب من الثالث إنك تنذر الكل بالأصول، وإنما تنذر بالفروع من ترك الصلاة والزكاة من اتبع الذكر وآمن.

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (من اتبع الذكر) يحتمل وجوهاً (الأول) وهو المشهور من اتبع القرآن (الثاني) من اتبع ما في القرآن من الآيات ويدل عليه قوله تعالى (والقرآن ذى الذكر) فما جعل القرآن نفس الذكر (الثالث) من اتبع البرهان فانه ذكر يكمل الفطرة وعلى كل وجه فمعناه: إنما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فقوله (اتباع الذكر) أي آمن، وقوله (وخشى الرحمن) أي عمل صالحاً وهذا الوجه يتأيد بقوله (فبشره بمغفرة وأجر كريم) لأننا ذكرنا مراراً أن الغفران جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور والأجر الكريم جزاء العمل كما قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) وتفسير الذكر بالقرآن يتأيد بتعريف الذكر بالألف واللام، وقد تقدم ذكر القرآن في قوله تعالى (والقرآن الحكيم) وقوله (وخشى الرحمن) فيه لطيفة وهي أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن ورحيم فالعاقل

إِنَّا نَحْنُ نَحْيُ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي
 إِمَامٍ مُّبِينٍ «١٢»

لا ينبغي أن يترك الخشية فان كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر فالخوف منه أتم مخافة أن
 يقطع عنه النعم المتواترة (وتكلمة اللطيفة) هي أن من أسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن
 كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) حتى قال بعض الأئمة هما علمان إذا عرفت هذا
 فالله اسم ينبي عن الهيبة والرحمن ينبي عن العاطفية فقال في موضع يرجو الله ، وقال ههنا (وخشى
 الرحمن) يعني مع كونه ذاهبية لا تقطعوا عنه رجاءكم ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه ، وقوله (بالغيب)
 يعني بالدليل وإن لم ينته إلى درجة المرئي المشاهد فان عند الانتهاء إلى تلك الدرجة لا يبقى للخشية
 فائدة ، والمشهور أن المراد بالغيب ما غاب عنا وهو أحوال القيامة ، وقيل إن الوجدانية تدخل
 فيه ، وقوله (فبشره) فيه إشارة إلى الأمر الثاني من أمرى الرسالة فان النبي صلى الله عليه وسلم
 بشير ونذير وقد ذكر أنه أرسل لينذر وذكر أن الانذار النافع عند اتباع الذكر ، فقال بشر : كما
 أنذرت ونفعت ، وقوله (بمغفرة) على التنكير أى بمغفرة واسعة تستر من جميع الجوانب حتى
 لا يرى عليه أثر من آثار النفس ويظهر عليه أنوار الروح الزكية (وأجر كريم) أى ذى كرم ،
 وقد ذكرنا ما فى الكريم فى قوله (ورزق كريم) وفى قوله (ورزقا كريما) .
 ثم قال تعالى ﴿ إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام
 مبين ﴾ .

فى الترتيب وجوه (أحدها) أن الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الأصول الثلاثة
 التى يصير بها المكلف مؤمناً مسلماً ذكر أصلاً آخر وهو الحشر (وثانيها) وهو أن الله تعالى لما
 ذكر الانذار والبشارة بقوله (فبشره بمغفرة) ولم يظهر ذلك بكامله فى الدنيا فقال إن لم ير فى
 الدنيا فالله يحيى الموتى ويجزى المنذرين ويجزى المبشرين (وثالثها) أنه تعالى لما ذكر خشية
 الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكد وهو إحياء الموتى وفى التفسير مسائل :
 ﴿ المسألة الأولى ﴾ (إنا نحن) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مبتدأ وخبراً كقول
 القائل : أنا أبو النجم وشعرى شعرى

ومثل هذا يقال عند الشهرة العظيمة ، وذلك لأن من لا يعرف يقال له من أنت ؟ فيقول أنا ابن
 فلان فيعرف ومن يكون مشهوراً إذا قيل له من أنت يقول أنا أى لا يعرف لى أظهر من نفسى
 فقال إنا نحن معروفون بأوصاف الكمال ، وإذا عرفنا بأنفسنا فلا تنكبر قدرتنا على إحياء الموتى
 (وثانيهما) أن يكون الخبر (نحي) كأنه قال إنا نحن نحي الموتى ، (ونحن) يكون تأكيداً والأول أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنا نحن فيه إشارة إلى التوحيد لأن الاشتراك يوجب التمييز بغير النفس فان زيدا إذا شاركه غيره في الاسم ، فلو قال أنا زيد لم يحصل التعريف التام ، لأن للسامع أن يقول : أيما زيد؟ فيقول ابن عمرو ولو كان هناك زيد آخر أبوه عمرو لا يكفي قوله ابن عمرو ، فلما قال الله (إنا نحن) أي ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى تقول أنا كذا فتمتاز ، وحينئذ تصير الأصول الثلاثة مذكورة ؛ الرسالة والتوحيد والخشوع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وتكتب ما قدموا) فيه وجوه (أحدها) المراد ما قدموا وأخروا فاكتفى بذكر أحدهما كما في قوله تعالى (سراييل تقيمكم الحر) والمراد والبرد أيضاً (وثانيها) المعنى ما أسلفوا من الأعمال سالحة كانت أو فاسدة وهو كما قال تعالى (بما قدمت أيديهم) أي بما قدمت في الوجود على غيره وأوجدته (وثالثها) نكتب نيانهم فانها قبل الأعمال وآثارهم أي أعمالهم على هذا الوجه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ وآثارهم فيه وجوه (الأول) آثارهم أقدامهم فان جماعة من أصحابه بعدت دورهم عن المساجد فأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم » (والثاني) هي السنن الحسنة ، كالكتب المصنفة والقناطر المبنية ، والحبائس الدارة ، والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التي وضعها ظالم والكتب المضلة ، وآلات الملاهي وأدوات المناهي المعمولة الباقية ، وهو في معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجر العامل شيء ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم أفعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها (والثالث) ما ذكرنا أن الآثار الأعمال وما قدموا النيات فان النية قبل العمل

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الكتابة قبل الإحياء فكيف أخر في الذكر حيث قال نحى ونكتب ولم يقل نكتب ما قدموا ونحىهم نقول الكتابة معظمة لأمر الإحياء لأن الإحياء إن لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة في نفسها إن لم تكن إحياء وإعادة لا يبقى لها أثر أصلاً فالإحياء هو المعبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره ، فلهذا قدم الإحياء ولأنه تعالى لما قال (إنا نحن) وذلك يفيد العظمة والجبروت ، والإحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه فقرن بالتعريف الأمر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم وقوله (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون ذلك بياناً لكون ما قدموا وآثارهم أمراً مكتوباً عليهم لا يبدل ، فان القلم جف بما هو كائن فلما قال (نكتب ما قدموا) بين أن قبل ذلك كتابة أخرى فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه (وثانيها) أن يكون ذلك مؤكداً لمعنى قوله (ونكتب) لأن من يكتب شيئاً في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين وهذا كقوله تعالى (عليها عند ربى فى كتاب لا يضل رى ولا ينسى) (وثالثها) أن يكون ذلك تعميماً بعد

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾

التخصيص كأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه ، بل كل شيء محصى في إمام مبین ، وهذا يفيد أن شيئاً من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته ، وهذا كقوله تعالى (وكل شيء فعلوه في الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر) يعنى ليس ما فى الزبر منحصرأ فيما فعلوه بل كل شيء فعلوه مكتوب ، وقوله (أحصيناه) أبلغ من كتبناه لأن من كتب شيئاً مفرقاً يحتاج إلى جمع عدده فقال هو محصى فيه وسمى الكتاب إماماً لأن الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق وإحياء وإماتة اتبعوه وقيل هو اللوح المحفوظ ، وإمام جاء جمعاً فى قوله تعالى (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) أى بأئمتهم وحينئذ فإمام إذا كان فرداً فهو ككتاب وحجاب وإذا كان جمعاً فهو كجبال وحبال والمبين هو المظهر للأمر لكونه مظهراً للملائكة ما يفعلون وللناس ما يفعل بهم وهو الفارق يفرق بين أحوال الخلق فيجعل فريقاً فى الجنة وفريقاً فى السعير .

ثم قال تعالى ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾

وفيه وجهان ، والترتيب ظاهر على الوجهين (الوجه الأول) هو أن يكون المعنى واضرب لأجلهم مثلاً (والثانى) أن يكون المعنى واضرب لأجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلاً أى مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية وعلى الأول نقول لما قال الله (إنك لمن المرسلين) وقال (لتندر) قال قل لهم (ما كنت بدعاً من الرسل) بل قبلى بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الإقامة ، وعلى الثانى نقول لما قال الله تعالى إن الانذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبي عليه الصلاة والسلام فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلاً ، أى مثل لهم عند نفسك مثلاً حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والإيذاء ، وأنت جنتهم واحداً وقومك أكثر من قوم الثلاثة فإنهم جاؤا قرية وأنت بعثت إلى العالم ، وفى التفسير مسائل :

(المسألة الأولى) ما معنى قول القائل ضرب مثلاً ؟ وقوله تعالى (واضرب) مع أن الضرب فى اللغة ، إما إمساس جسم جسم بعنف ، وإما السير إذا قرن به حرف فى كقوله تعالى (إذا ضربتم فى الأرض) ؟ نقول قوله ضرب مثلاً معناه مثل مثلاً ، وذلك لأن الضرب اسم للنوع يقال هذه الأشياء من ضرب واحد أى اجعل هذا وذلك من ضرب واحد .

(المسألة الثانية) أصحاب القرية ، معناه واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية فترك المثل وأقيم الأصحاب مقامه فى الإعراب كقوله (وأسأل القرية) هذا قول الزمخشري فى الكشاف ، ويحتمل أن يقال لا حاجة إلى الإضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلاً أو مثل أصحاب القرية بهم .

(المسألة الثالثة) إذ جاءها المرسلون ، إذ منصوبة لأنها بدل من أصحاب القرية كأنه قال تعالى

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا

(واضرب لهم) وقت مجيء المرسلين ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك ، وهذا أيضاً قول الزمخشري وعلى قولنا إن هذا المثل مضروب لنفس محمد صلى الله عليه وسلم تسلية فيحتمل أن يقال إذ ظرف منصوب بقوله (اضرب) أى اجعل الضرب ، كأنه حين مجيئهم وواقع فيه ، والقرية أنطاكية والمرسلون من قوم عيسى وهم أقرب مرسل أرسل إلى قوم إلى زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة كما بين الله تعالى وقوله (إذ أرسلنا) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون إذ أرسلنا بدلا من إذ جاءها كأنه قال اضرب لهم مثلا ، إذ أرسلنا إلى أصحاب القرية اثنين (وثانيهما) وهو الأصح والأوضح أن يكون إذ ظرفا والفعل الواقع فيه جاءها أى جاءها المرسلون حين أرسلناهم إليهم أى لم يكن مجيئهم من تلقاء أنفسهم وإنما جاءوهم حيث أمروا ، وهذا فيه لطيفة : وهى أن فى الحكاية أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم إلى انطاكية فقال تعالى إرسال عيسى عليه السلام هو إرسالنا ورسول رسول الله بإذن الله رسول الله فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وأنت رسول الله فإن تكذيبهم كتكذيبك فتم التسلية بقوله (إذ أرسلنا) وهذا يؤيد مسألة فقهية وهى أن وكيل الوكيل بإذن الموكل وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا يعزل بعزل الوكيل إياه ويعزل إذا عزله الموكل الأول ، وهذا على قولنا (واضرب لهم مثلا) ضرب المثل لأجل محمد ﷺ ظاهر .

وقوله ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ﴾

فى بعثة الاثنين حكمة بالغة وهى أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى بإذن الله فكان عليهما انتهاء الأمر إلى عيسى والإتيان بما أمر الله ، والله عالم بكل شىء لا يحتاج إلى شاهد يشهد عنده ، وأما عيسى فهو بشر فأمره الله بإرسال اثنين ليكون قولها على قومهما عند عيسى حجة تامة .

وقوله ﴿ فعززنا بثالث ﴾ أى قويننا وقرىء فعززنا بثالث مخففاً ، من عز إذا غلب فكأنه قال فغلبنا نحن وقهرنا بثالث والأول أظهر وأشهر وترك المفعول حيث لم يقل فعززناهما لمعنى لطيف وهو أن المقصود من بعثتهما نصرة الحق لانصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين ، وفيه مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ النبى صلى الله عليه وسلم بعث رسله إلى الأطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث اثنين ، نقول النبى بعث لتقرير الفروع وهو دون الأصول فاكتفى بواحد فان خبر الواحد فى الفروع مقبول ، وأما هما فبعثنا بالأصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين وإلا لما كفى إرسال اثنين أيضاً ولا ثلاثة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الله تعالى لموسى عليه السلام (سنشد عضدك) فذكر المفعول هناك ولم يذكره ههنا مع أن المقصود هناك أيضاً نصرة الحق ، نقول موسى عليه السلام كان أفضل من هرون

إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ «١٤» قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ «١٥» قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ «١٦»

وهرون بعث معه بطلبه حيث قال (فأرسله معي) فكان هرون مبعوثاً ليصدق موسى فيما يقول
ويقوم بما يأمره ، وأما هما فكل واحد مستقل ناطق بالحق فكان هناك المقصود تقوية موسى
وإرسال من يؤنس معه وهو هرون ، وأما ههنا فالمقصود تقوية الحق فظهر الفرق .
ثم بين الله ما جرى منهم وعليهم مثل ما جرى من محمد ﷺ وعليه فقالوا ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾
كما قال (إنك لمن المرسلين) وبين ما قال القوم بقوله ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ
الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ جعلوا كوجههم بشراً مثلهم دليلاً على عدم الإرسال ، وهذا عام من المشركين
قالوا في حق محمد (أنزل عليه الذكر) وإنما ظنوه دليلاً بناء على أنهم لم يعتقدوا في الله الاختيار ،
وإنما قالوا فيه إنه موجب بالذات وقد استوينا في البشرية فلا يمكن الرجحان ، والله تعالى رد
عليهم قَوْلهم بقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وبقوله (الله يجتبي إليه من يشاء) إلى غير ذلك ،
وقوله (وما أنزل الرحمن من شيء) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متما لما ذكره فيكون
الكل شبهة واحدة ، ووجهه هو أنهم قالوا أنتم بشر فما نزلتم من عند الله وما أنزل الله إليكم أحداً ،
فكيف صرتم رسلاً لله ؟ (وثانيهما) أن يكون هذا شبهة أخرى مستقلة ووجهه هو أنهم لما قالوا أنتم
بشر مثلنا فلا يجوز رجحانكم علينا ذكرنا الشبهة من جهة النظر إلى المرسلين ، ثم قالوا شبهة أخرى
من جهة المرسل ، وهو أنه تعالى ليس ينزل شيئاً في هذا العالم ، فإن تصرفه في العالم العلوي
وللعاليات التصرف في السفليات على مذهبهم ، فإله تعالى لم ينزل شيئاً من الأشياء في الدنيا
فكيف أنزل إليكم ، وقوله (الرحمن) إشارة إلى الرد عليهم ، لأن الله لما كان رحمن الدنيا والإرسال
رحمة ، فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمن ، فقال إنهم قالوا : ما أنزل الرحمن شيئاً ، وكيف لا ينزل
الرحمن مع كونه رحمن شيئاً ، هو الرحمة الكاملة .

ثم قال تعالى ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ أي ما أنتم إلا كاذبين .
﴿ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا ،
بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين و (قالوا ربنا يعلم إننا إليكم لمرسلون)
وأكدوه باللام ، لأن يعلم الله بجرى مجرى القسم ، لأن من يقول يعلم الله فيما لا يكون فقد نسب
الله إلى الجهل وهو سبب العقاب ، كما أن الحنث سببه ، وفي قوله (ربنا يعلم) إشارة إلى الرد عليهم
حيث قالوا أنتم بشر ، وذلك لأن الله إذا كان يعلم أنهم لمرسلون ، يكون كقوله تعالى (الله أعلم
حيث يجعل رسالته) يعني هو عالم بالأمور وقادر ، فاختارنا بعلمه لرسالته .

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطِيرُنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَذْتَهُوا لَنرَجْمَنَّكُمْ
وَلَيْسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذَكَرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
مُسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

ثم قال ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ تسليّة لأنفسهم ، أي نحن خرجنا عن عهدة ما علينا
وحتاً لهم على النظر ، فإنهم لما قالوا (ما علينا إلا البلاغ) كان ذلك يوجب تفكيرهم في أمرهم
حيث لم يطلبوا منهم أجراً ولا قصدوا رياسة ، وإنما كان شغلهم التبليغ والذكر ، وذلك بما يحمل
العاقل على النظر (والمبين) يحتمل أموراً (أحدها) البلاغ المبين للحق عن الباطل ، أي الفارق
بالمعجزة والبرهان (وثانيها) البلاغ المظهر لما أرسلنا للبعث ، أي لا يكفي أن نبلغ الرسالة إلى
شخص أو شخصين (وثالثها) البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن ، فإذا تم ذلك ولم يقبلوا بحق
هنالك الهلاك .

ثم كان جوابهم بعد هذا أنهم ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم ﴾ وذلك أنه لما ظهر من الرسل المبالغة
في البلاغ ظهر منهم الغلو في التكذيب ، فلما قال المرسلون (إنا إليكم المرسلون) قالوا (إن أنتم إلا
تكذبون) ولما أكد الرسل قولهم بالبين حيث قالوا (ربنا يعلم) أكدوا قولهم بالتطير بهم
فكأنهم قالوا في الأول كنتم كاذبين ، وفي الثاني صرتم مصرين على الكذب ، حالفين مقسمين
عليه ، و«اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع» فتشام منابكم ثانياً ، وفي الأول كما تر كنتم في الثاني لا تترككم
لكون الشؤم مدر كنا بسبيكم فقالوا ﴿ لئن لم تذتهوا لَنرَجْمَنَّكُمْ وَلَيْسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقوله
لَنرَجْمَنَّكُمْ يحتمل وجهين (أحدهما) لنشتمنكم من الرجم بالقول وعلى هذا فقوله (وليسنكم) ترق
كأنهم قالوا ولا يكتفي بالشتم ، بل يؤدي ذلك إلى الضرب والإيلام الحسى (وثانيهما) أن يكون
المراد الرجم بالحجارة ، وحينئذ فقوله (وليسنكم) بيان للرجم ، يعنى ولا يكون الرجم رجماً قليلاً
نرجمكم بحجر وحجرين ، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت وهو عذاب أليم ، ويكون المراد (لنرجمنكم
وليسنكم) بسبب الرجم عذاب منا أليم ، وقد ذكرنا في الأليم أنه بمعنى المؤلم ، والفعيل بمعنى مفعول
قلييل ، ويحتمل أن يقال هو من باب قوله (عيشة راضية) أي ذات رضا ، فالعذاب الأليم هو
ذو ألم ، وحينئذ يكون فعيلاً بمعنى فاعل وهو كثير .

ثم أجابهم المرسلون بقولهم ﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ أي شؤمكم معكم وهو الكفر .
ثم قالوا ﴿ أئن ذكرتم ﴾ جواباً عن قولهم (لنرجمنكم) يعنى أتفعلون بنا ذلك ، وإن ذكرتم
أي بين لكم الأمر بالمعجز والبرهان ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ حيث تجعلون من يتبرك به كن

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)

يشاءم به وتقصدون إيلاام من يجب في حقه الإكرام أو (سرفون) حيث تكفرون ، ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان ، فان الكافر مسيء فاذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل ويصر يكون مسرفاً ، والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك في كثير من الأشياء ، أما في التبرك والتشاوم فقد علم وكذلك في الإيلاام والإكرام ، وأما في الكفر فلائن الواجب اتباع الدليل ، فان لم يوجد به فلا أقل من أن لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الإيمان ، فان قيل بل للاضراب فما الأمر المضرب عنه ؟ نقول يحتمل أن يقال قوله (أن ذكرتم) وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل إلى الكذب بقولهم (إن أنتم إلا تكذبون) فكأنهم قالوا نحن كاذبون وإن جئنا بالبرهان ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) ويحتمل أن يقال أنحن مشرّمون ، وإن جئنا ببيان صحة ما نحن عليه ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) ويحتمل أن يقال أنحن مستحقون للرجم والإيلاام ، وإن بينا صحة ما أتينا به ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) وأما الحكاية المشهورة ، وهي أن عيسى عليه السلام بعث رجلاين إلى أنطاكية فدعيا إلى التوحيد وأظهرا المعجزة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فحبسهما الملك ، فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة ، وقرب نفسه إلى الملك بحسن التدبير ، ثم قال له : إني أسمع أن في الحبس رجلين يدعيان أمراً بديعاً ، أفلا يحضران حتى نسمع كلامهما ؟ قال الملك بلى ، فأحضر اودكرا مقالتهما الحقة ، فقال لها شمعون : فهل لكماينة ؟ قالانعم ، فأبرآ الأكمه والأبرص وأحييا الموتى ، فقال شمعون : أيها الملك ، إن شئت أن تغلبهم ، فقل للآلهة التي تعبدونها تفعل شيئاً من ذلك ، قال الملك : أنت لا يخفي عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم ، فقال شمعون : فإذا ظهر الحق من جانبهم ، فآمن الملك وقوم وكفر آخرون ، وكانت الغلبة للمكذبين .

ثم قال تعالى ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ .
وفي فائدته وتعلقه بما قبله وجهان : (أحدهما) أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعي ، وعلى هذا فقوله (من أقصى المدينة) فيه بلاغة باهرة ، وذلك لأنه لما (جاء من أقصى المدينة رجل) وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة (وثانيهما) أن ضرب المثل لما كان لمحمد ﷺ تسلياً لقلبه ذكر بعد الفراغ من ذكر الرسل يسعى المؤمنين في تصديق رسلهم وصبرهم على ما أودوا ، ووصول الجزاء الأوفى اليهم ليكون ذلك تسلياً لقلب أصحاب محمد ، كما أن ذكر المرسلين تسلياً لقلب محمد ﷺ ، وفي التفسير مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (وجاء من أقصى المدينة رجل) في تنكير الرجل مع أنه كان معروفاً معلوماً عند الله فائدتان : (الأولى) أن يكون تعظيماً لشأنه أي رجل كامل في الرجولية

اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مَهْتَدُونَ ﴿٢١٥﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي

(الثانية) أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال إنهم تواطؤوا ، والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الأصنام وقد آمن بمحمد ﷺ قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله ، ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته .

(المسألة الثانية) قوله (يسعى) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ، ليكونوا في النصح باذلين جهدهم ، وقد ذكرنا فائدة قوله (من أقصى المدينة) وهي تبليغهم الرسالة بحيث انتهى إلى من في (أقصى المدينة) والمدينة هي أنطاكية ، وهي كانت كبيرة شاسعة وهي الآن دون ذلك ومع هذا فهي كبيرة وقوله تعالى (قال يا قوم اتبعوا المرسلين) فيه معان لطيفة (الأول) في قوله (يا قوم) فانه ينبيء عن إشفاق عليهم وشفقة فان إضافتهم إلى نفسه بقوله (يا قوم) يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيراً ، وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون يا قوم اتبعوني فان قيل قال هذا الرجل (اتبعوا المرسلين) وقال ذلك اتبعوني فما الفرق ؟ نقول هذا الرجل جاءهم وفي أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته ، فقال اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل ، وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مراراً فقال اتبعوني في الإيمان بموسى وهرون عليهما السلام ، واعلموا أنه لو لم يكن خيراً لما اخترته لنفسى وأنتم تعلمون أنى اخترته ، ولم يكن للرجل الذى جاء من أقصى المدينة أن يقول أنتم تعلمون اتبعوا لهم (الثانى) جمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه فقوله (اتبعوا) نصيحة وقوله (المرسلين) إظهار أنه آمن (الثالث) قدم إظهار النصيحة على إظهار الإيمان لأنه كان ساعياً في النصح ، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل وقوله (رجل يسعى) يدل على كونه مريداً للنصح وما ذكر في حكايته أنه كان يقتل وهو يقول « اللهم اهد قومى » .

ثم قال تعالى ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ وهذا في غاية الحسن وذلك من حيث إنه لما قال (اتبعوا المرسلين) كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لاشك أن الخلق في الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة ، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل بحسب اتباعه ، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين ، إما مخالفة الدليل في طلب الأجرة ، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفة الطريق ، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق ، فببأنهم ليسوا بمرسلين هادين ، أليسوا بمهتدين ، فاتبعوهم .

ثم قال تعالى ﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرني ﴾ لما قال (وهم مهتدون) بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجواد إلى عبادة الخى القيوم ، ومن عبادة ما لا ينفع إلى عبادة من منه كل نفع (وفيه لطائف) الأولى قوله (مالى) أى مالى مانع من جانبى . إشارة إلى أن الأمر من جهة المعبود ظاهر لا خفاء فيه ، فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولا مانع من جانبى فلا جرم

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾

عبدته ، وفي العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة أخرى (ولطيفة ثانية) وهي أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذي فطركم ، لم يكن في البيان مثل قوله (ومالي) لأنه لما قال (ومالي) وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لأنه أعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع ، وأما لو قال (مالكم) جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه ، فإن قيل قال الله (مالكم لا ترجون لله وقاراً) نقول القائل هناك غير مدعو ، وإنما هو داع وههنا الرجل مدعو إلى الإيمان فقال (ومالي لا أعبد) وقد طلب مني ذلك (الثانية) قوله (الذي فطرني) إشارة إلى وجود المقتضى فإن قوله (ومالي) إشارة إلى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى ، فقوله (الذي فطرني) ينبئ عن الاقتضاء ، فإن الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك إكرامه وتعظيمه ، ومنعم بالإيجاد والمنعم يجب على المنعم شكر نعمته (الثالثة) قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى مع أن المستحسن تقديم المقتضى حيث وجد المقتضى ولا مانع ، فيوجد لأن المقتضى لظهوره كان مستغنياً عن البيان رأساً فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان لوجود الحاجة إليه (الرابعة) اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال (ومالي لا أعبد) باسناد العبادة إلى نفسه اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة على نفسه ، وبيان ذلك هو أن خالق عمرو يجب على زيد عبادته لأن من خلق عمراً لا يكون إلا كامل القدرة شامل العلم واجب الوجود وهو مستحق للعبادة بالنسبة إلى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر إيجاباً .

وأعلم أن المشهور في قوله (فطرني) خلقني اختراعاً وابتداعاً ، والغريب فيه أن يقال (فطرني) أي جعلني على الفطرة كما قال الله تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها) وعلى هذا فقوله (ومالي لا أعبد) أي لم يوجد في مانع فأنا باق على فطرة ربي الفطرة كافية في الشهادة والعبادة فإن قيل فعلى هذا يختلف معنى الفطر في قوله (فاطر السموات) فنقول قد قيل بأن (فاطر السموات) من الفطر الذي هو الشق فالمحدور لازم أو نقول المعنى فيهما واحد كأنه قال فطر المكلف على فطرته واطر السموات على فطرتها والأول من التفسير أظهر .

وقوله تعالى ﴿ وإليه ترجعون ﴾ إشارة إلى الخوف والرجاء كما قال ادعوه خوفاً وطمئناً وذلك لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى وفيه أيضاً معنى لطيف وهو أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مراراً (فالأول) عابد يعبد الله ، لكونه الهاً مالكا سواء أنعم بعد ذلك أو لم ينعم ، كالعبد الذي يجب عليه خدمة سيده سواء أجنس إليه أو أساء (والثاني) عابد يعبد

أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً

الله للنعمة الواصلة إليه (والثالث) عابد يعبد الله خوفاً مثال الأول من يخدم الجواد ، ومثال الثاني من يخدم الغاشم فجعل القائل نفسه من القسم الاعلى وقال (ومالى لأعبد الذى فطرنى) أى هو مالكى أعبده لأنظر إلى ماسيعطينى ولأنظر إلى أن لا يعذبنى وجعلهم دون ذلك فقال (وإليه ترجعون) أى خوفكم منه ورجاؤكم فيه فكيف لا تعبدونه ، ولهذا لم يقل وإليه أرجع كما قال فطرنى لأنه صار عابداً من القسم الأول فرجوعه إلى الله لا يكن إلا للاكرام وليس سبب عبادته ذلك بل غيره .

ثم قال تعالى ﴿ أتأخذ من دونه آلهة ﴾ ليتم التوحيد ، فان التوحيد بين التعطيل والاشراك ، فقال ومالى لا أعبد إشارة إلى وجود الإله وقال (أتأخذ من دونه) إشارة إلى نفي غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله ، وفي الآية أيضاً لطائف (الأولى) ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر ، وذلك أن من أخبر عن شيء فقال مثلاً لا أتأخذ يصح من السامع أن يقول له لم لا تتخذ فيسأله عن السبب ، فاذا قال (أتأخذ) يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذى يطالب به عند الإخبار ، كأنه يقول استشرتك فدانى والمستشار يتفكر ، فكأنه يقول تفكر فى الأمر تفهم من غير إخبار منى (الثانية) قوله من دونه وهى (لطيفة عجيبة) وبيانها هو أنه لما بين أنه يعبد الله بقوله (الذى فطرنى) بين أن من دونه لا تجوز عبادته فان عبد غير الله وجب عبادة كل شيء مشارك للمعبود الذى أتخذ غير الله ، لأن الكل محتاج مفتقر حادث ، فلو قال لا أتأخذ آلهة لقليل له ذلك يختلف إن اتخذت إلهاً غير الذى فطرك ، ويلزمك عقلاً أن تتخذ آلهة لاحصر لها ، وإن كان إلهك ربك وخالقتك فلا يجوز أن تتخذ آلهة (الثالثة) قوله (أتأخذ) إشارة إلى أن غيره ليس بإله لأن المتخذ لا يكون إله ، ولهذا قال تعالى (ما أتخذ صاحبة ولا ولداً) وقال (الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) لأنه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز ، وإنما النصارى قالوا تبنى الله عيسى وسماه ولداً فقال (ولم يتخذ ولداً) ولا يقال قال الله تعالى (فاتخذوه وكيلاً) فى حق الله تعالى حيث قال (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذوه وكيلاً) نقول ذلك أمر متجدد ، وذلك لأن الإنسان فى أول الأمر يكون قليل الصبر ضعيف القوة ، فلا يجوز أن يترك أسباب الدنيا ويقول إني أتوكل فلا يحسن من الواحد منا أن لا يشتغل بأمر أصلاً ويترك أطفاله فى ورطة الحاجة ولا يوصل إلى أهله نفقتهم ويجلس فى مسجد وقلبه متعلق بعباءة زيد وعمرو ، فاذا قوى بالعبادة قلبه ونسى نفسه فضلاً عن غيره وأقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا وأسبابها وفوض أمره إلى الله حينئذ يكون من الأبرار الأخيار ، فقال الله لرسوله أنت علمت أن الأمور كلها بيد الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت أن المشرق والمغرب ، وما فيهما وما يقع بينهما بأمر الله ، ولا إله يطلب لقضاء

إِنْ يَرِدُنِ الرَّحْمَنُ بَضْرًا لَا تَغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِدُونِ ﴿٢٣﴾

الحواش إلهو فاتخذة وكيلا ، وفوض جميع أمورك اليه فقد ارتقيت عن درجة من يؤمر بالكسب الحلال وكنت من قبل تتجر في الحلال ومعنى قوله (فاتخذة وكيلا) أى فى جميع أمورك وقوله تعالى (لا تغن عني) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون كالوصف كأنه قال أأخذ آلهة غير مغنية عند إرادة الرحمن بى ضراً (وثانيهما) أن يكون كلاماً مستأنفاً كأنه قال لا أأخذ من دونه آلهة . ثم قال تعالى ﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون ﴾ وفيه مسائل : (المسألة الأولى) قال (إن يردن الرحمن بضر) ولم يقل إن يرد الرحمن بى ضراً ، وكذلك قال تعالى (إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره) ولم يقل إن أراد الله بى ضراً ، نقول الفعل إذا كان متعدياً إلى مفعول واحد تعدى إلى مفعولين بحرف كاللزام يتعدى بحرف فى قولهم ذهب به وخرج به ، ثم إن المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ما هو أولى بوقوع الفعل عليه ويجعل الآخر مفعولاً بحرف فإذا قال القائل مثلاً ؟ كيف حال فلان : يقول اختصه الملك بالكرامة والنعمة فإذا قال كيف كرامة الملك ؟ يقول اختصها بزيد فيجعل المسئول بمفعولاً بغير حرف لأنه هو المقصود إذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقبله كيف يشاء فى البؤس والرخاء ، وليس الضر بمقصود بيانه ، كيف والقائل مؤمن برجو الرحمة والنعمة بناء على إيمانه بحكم وعد الله ويؤيد هذا قوله من قبل الذى فطرنى حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الإرادة وذكر الضر وقع تبعاً وكذا القول فى قوله تعالى (إن أرادنى الله بضر) المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله وليس الضر بخصوصه مقصوداً بالذكر ويؤيده ما تقدم حيث قال تعالى (أليس الله بكاف عبده) يعنى هو تحت إرادته ويتأيد ما ذكرناه بالنظر فى قوله تعالى (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً) حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر والمفعول بحرف هو المكلف ، وذلك لأن المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلاً له ، وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر مقصوداً بالذكر لجزهم ، فإن قيل فقد ذكر الله الرحمة أيضاً حيث قال (أو أراد بكم رحمة) نقول المقصود ذلك ، ويدل عليه قوله تعالى (من بعده ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) وإنما ذكر الرحمة تنمة للأمر بالتقسيم الحاصر ، وكذلك إذا تأملت فى قوله تعالى (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً) فإن الكلام أيضاً مع الكفار وذكر النفع وقع تبعاً لحصر الأمر بالتقسيم ، ويدل عليه قوله تعالى (بل كان الله بما تعملون خبيراً) فإنه للتخويف ، وهذا كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ، والمقصود إني على هدى وأنتم فى ضلال ، ولو قال هكذا لمنع مانع فقال بالتقسيم كذلك هنا

إِنِّي إِذَا لَنِي ضَلَّالٌ مُّبِينٌ «٢٤» إِنِّي ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ «٢٥»

المقصود الضر واقع بكم ولأجل دفع المانع قال الضر والنفع .
 (المسألة الثانية) قال ههنا (إن يردن الرحمن) وقال في الزمر (إن أرادني الله) فما الحكمة في اختيار صيغة الماضي هنالك واختيار صيغة المضارع ههنا وذكر المرید باسم الرحمن هنا وذكر المرید باسم الله هناك ؟ نقول أما الماضي والمستقبل فان إن في الشرط تصير الماضي مستقبلاً وذلك لأن المذکور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال في قوله (أتأخذ) وقوله (وما لي لا أعبد) والمذکور هناك من قبل بصيغة الماضي في قوله (أفأرأيتم) وكذلك في قوله تعالى (وإن يمسك الله بضر) لكون المتقدم عليه مذكوراً بصيغة المستقبل وهو قوله (من يصرف عنه) وقوله (إني أخاف إن عصيت) والحكمة فيه هو أن الكفار كانوا يخوفون النبي صلى الله عليه وسلم بضر يصيبه من آلهتهم فكانه قال صدر منكم التخويف ، وهذا ما سبق منكم ، وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير ، والجواب ما كان يمكن صدوره منهم فافترق الأمران ، وأما قوله هناك (إن أرادني الله) فنقول قد ذكرنا أن الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) والله للهيبة والعظمة والرحمن للرافة والرحمة ، وهناك وصف الله بالعزة والانتقام في قوله (أليس الله بعزيز ذي انتقام) وذكر ما يدل على العظمة ما يدل على العظمة بقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض) فذكر الاسم الدال على العظمة وقال ههنا ما يدل على الرحمة بقوله (الذي فطرني) فانه نعمة هي شرط سائر النعم فقال (إن يردن الرحمن بضر) ثم قال تعالى (لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون) على ترتيب ما يقع من العقلاء ، وذلك لأن من يريد دفع الضر عن شخص أضر به شخص يدفع بالوجه الآخر فيشفع أولاً فان قبله وإلا يدفع فقال (لا تغن عني شفاعتهم) ولا يقدر على إنقاذي بوجه من الوجوه ، وفي هذه الآيات حصل بيان أن الله تعالى معبود من كل وجه إن كان نظراً إلى جانبه فهو فاطر ورب مالك يستحق العبادة سواء أحسن بعد ذلك أو لم يحسن وإن كان نظراً إلى إحسانه فهو رحمن ، وإن كان نظراً إلى الخوف فهو يدفع ضره ، وحصل بيان أن غيره لا يصلح أن يعبد بوجه من الوجوه ، فإن أدنى مراتبه أن يعد ذلك ليوم كرهية وغير الله لا يدفع شيئاً إلا إذا أراد الله وإن يرد فلا حاجة إلى دافع .

ثم قال تعالى ﴿ إني إذا لني ضلال مبين ﴾ . يعني إن فعلت فأنا ضال ضلالاً بيناً ، والمبين مفعول بمعنى فاعيل كما جاء عكسه فاعيل بمعنى مفعول في قوله ألم أي مؤلم ، ويمكن أن يقال ضلال مبين أي مظهر الأمر للناظر والأول هو الصحيح .

ثم قال تعالى ﴿ إني آمنتم بربكم فاسمعون ﴾ في المخاطب بقوله (بربكم) وجوه (أحدها)

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي

هم المرسلون ، قال المفسرون أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال : إني آمنت بربكم فاسمعوا قولي واشهدوا لي (وثانيها) هم الكفار كأنه لما نصحهم وما نفعهم قال فأنا آمنت فاسمعون (وثالثها) بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم ، كما قلنا في قول الواعظ حيث يقول يامسكين ما أكثر أملك وما أنزر عمك يريد به كل سامع يسمعه وفي قوله (فاسمعون) فوائد (أحدها) أنه كلام مترو متفكر حيث قال (فاسمعون) فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين يتفكر (وثانيها) أنه ينبه القوم ويقول إني أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك (وثالثها) أن يكون المراد السماع الذي بمعنى القبول ، يقول القائل نصحته فسمع قولي أي قبله ، فإن قلت لم قال من قبل (ومالي لا أعبد الذي فطرنى) وقال ههنا (آمنت بربكم) ولم يقل آمنت بربى ؟ نقول قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر ، لأنه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذي دعوه إليه ولو قال بربى لعلمهم كانوا يقولون كل كافر يقول لي رب وأنا مؤمن بربى ، وأما على قولنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد ، وذلك لأنه لما قال (أعبد الذي فطرنى) ثم قال (آمنت بربكم) فهم أنه يقول ربى وربكم واحد وهو الذي فطرنى وهو بعينه ربكم ، بخلاف ما لو قال آمنت بربى فيقول الكافر وأنا أيضاً آمنت بربى ومثل هذا قوله تعالى (الله ربنا وربكم) .

ثم قال تعالى ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه قتل ثم قيل له ادخل الجنة بعد القتل (وثانيهما) قيل ادخل الجنة عقيب قوله آمنت وعلى الأول .

فقوله تعالى ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ يكون بعد موته والله أخبر بقوله وعلى الثانى قال ذلك فى حياته وكأنه سمع الرسل أنه من الداخلين الجنة وصدقهم وقطع به وعلمه ، فقال يا ليت قومي يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت وفى معنى قوله تعالى (قيل) وجهان كما أن فى وقت ذلك وجهان (أحدهما) قيل من القول (والثانى) ادخل الجنة ، وهذا كما فى قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن) ليس المراد القول فى وجه بل هو الفعل أى يفعله فى حينه من غير تأخير وتراخ وكذلك فى قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعى) فى وجه جعل الأرض بالعة ماها .

وفى قوله تعالى ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ وجوه (أحدها) أن ما استفهامية كأنه قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربى حتى يشتغلوا به وهو ضعيف ، وإلا لكان الأحسن أن تكون ما محذوفة الألف يقال بم وفيم وعم ولم (وثانيها) خبرية كأنه قال يا ليت قومي يعلمون بالذى غفر لي ربى (وثالثها) مصدرية ، كأنه قال يا ليت قومي يعلمون بمغفرة ربى لي ، والوجهان الآخران هما المختاران .

وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ

ثم قال تعالى ﴿ وجعلني من المكرمين ﴾ قد ذكرنا أن الإيمان والعمل الصالح يوجبان أمرين هما الغفران والإكرام كما في قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) والرجل كان من المؤمنين الصالحاء ، والمكرم على ضد المهان والإهانة بالحاجة والإكرام بالاستغناء فيغني الله الصالح عن كل أحد ويدفع جميع حاجاته بنفسه .

ثم إنه تعالى لما بين حاله بين حال المتخلفين المخالفين له من قومه بقوله تعالى ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾ إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً على أسهل وجه فانه لم يحتاج إلى إرسال جند يهلكهم ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ههنا (وما أنزلنا) بإسناد الفعل إلى النفس ، وقال في بيان حال المؤمن قيل ادخل الجنة بإسناد القول إلى غير مذكور ، وذلك لأن العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم ، وأما في (ادخل الجنة) فقال قيل ليكون هو كالمهناً بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه ادخل الجنة خالداً فيها ، وكثيراً ما ورد في القرآن قوله تعالى (وقيل ادخلوا) إشارة إلى أن الدخول يكون دخولاً يكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رؤوس الأشهاد بهنئه كل أحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم أضاف القوم إليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قوماً لهم فان الواحد يكون له قوم هم آله وأصحابه والرسول لكونه مرسلًا يكون جميع الخلق وجميع من أرسل إليهم قوماً له ؟ نقول لو جهين (أحدهما) ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة أكرم أحدهما غاية الإكرام بسبب الإيمان وأهين الآخر غاية الإهانة بسبب الكفر ، وهذا من قوم أولئك في النسب (وثانيتها) أن العذاب كان مختصاً بأقارب ذلك ، لأن غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصيبهم العذاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ خصص عدم الإنزال بما بعده والله تعالى لم ينزل عليهم جنداً قبله أيضاً فما فائدة التخصيص ؟ نقول استحقاقهم العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الهلاك أنه لم يكن بجند .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (من السماء) وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل إليهم جنداً من الأرض فما فائدة التقييد ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون المرادوما أنزلنا عليهم جنداً بأمر من السماء فيكون للعموم (وثانيتها) أن العذاب نزل عليهم من السماء فبين أن النازل لم يكن جنداً لهم عظيمة وإنما كان ذلك بصيحة أخذت نارهم وخربت ديارهم .

وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ «٢٨» إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَبِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ «٢٩»

يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ

(المسألة الخامسة) ، (وما كنا منزلين) أية فائدة فيه مع أن قوله (وما أنزلنا) يستلزم أنه لا يكون من المنزلين؟ نقول قوله (وما كنا) أى ما كان ينبغى لنا أن نزل لأن الأمر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال ، أو نقول (وما أنزلنا ، وما كنا منزلين) فى مثل تلك الواقعة جنداً فى غير تلك الواقعة ، فإن قيل فكيف أنزل الله جنوداً فى يوم بدر وفى غير ذلك حيث قال (وأنزل جنوداً لم تروها)؟ نقول ذلك تعظيماً لمحمد صلى الله عليه وسلم وإلا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافياً فى استئصالهم وما كان رسل عيسى عليه السلام فى درجة محمد ﷺ . ثم بين الله تعالى ما كان بقوله (إن كانت) الواقعة (إلا صبيحة) وقال الزمخشري أصله إن كان شئ إلا صبيحة فكان الأصل أن يذكر، لكنه تعالى أنت لما بعده من المفسر وهو الصبيحة . وقوله تعالى (واحدة) تأكيد لكون الأمر هيناً عند الله .

وقوله تعالى (فاذا هم خامدون) فيه إشارة إلى سرعة الهلاك فإن خمودهم كان مع الصبيحة وفى وقتها لم يتأخر، ووصفهم بالخمود فى غاية الحسن وذلك لأن الحى فيه الحرارة الغريزية وكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم وهم كانوا كذلك ، أما الغضب فانهم قتلوا مؤمناً كان ينصحهم ، وأما الشهوة فلأنهم احتملوا العذاب الدائم بسبب استيفاء اللذات الحالية فاذن كانوا كالنار الموقدة ، ولأنهم كانوا جبارين مستكبرين كالنار ومن خلق منها فقال (فاذا هم خامدون) (وفيه وجه آخر) وهو أن العناصر الأربعة يخرج بعضها عن طبيعته التى خلقه الله عليها ويصير العنصر الآخر بارادة الله فالأحجار تصير مياهاً ، والمياه تصير أحجاراً وكذلك الماء يصير هواء عند الغليان والسخونة والهواء يصير ماء للبرد ولكن ذلك فى العادة بزمان ، وأما الهواء فيصير ناراً والنار تصير هواء بالاشتعال والخمود فى أسرع زمان ، فقال خامدين بسببها نخمود النار فى السرعة كاطفاء سراج أو شعلة .

ثم قال تعالى (يا حسرة على العباد) أى هذا وقت الحسرة فاحضري يا حسرة والتشكير للتكثير ، وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) الألف واللام فى العباد يحتمل وجهين (أحدهما) للمعمود وهم الذين أخذتهم الصبيحة فيا حسرة على أولئك (وثانيهما) لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين . (المسألة الثانية) من المتحسر؟ نقول فيه وجوه (الأول) لا متحسر أصلاً فى الحقيقة إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب .

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾

(وههنا بحث لغوي) وهو أن المفعول قد يرفض رأساً إذا كان الغرض غير متعلق به يقال إن فلاناً يعطى ويمنع ولا يكون هناك شيء معطى إذ المقصود أن له المنع والاعطاء ، ورفض المفعول كثير وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل ، والوجه فيه ما ذكرنا ، أن ذكر المتحسر غير مقصود وإنما المقصود أن الحسرة متحققة في ذلك الوقت (الثاني) أن قائل يا حسرة هو الله على الاستعارة تعظيماً للأمر وتهويلاً له وحينئذ يكون كالألفاظ التي وردت في حق الله كالضحك والذسيان والسخر والتعجب والتنى ، أو نقول ليس معنى قولنا يا حسرة وياندامة ، أن القائل متحسر أو نادم بل المعنى أنه مخبر عن وقوع الندامة ولا يحتاج إلى تجوز في بيان كونه تعالى قال (يا حسرة) بل يخبر به على حقيقته إلا في النداء ، فان النداء مجاز والمراد الاخبار (الثالث) المتلهفون من المسلمين والملائكة ألا ترى إلى ما حكى عن حبيب أنه حين القتل كان يقول اللهم اهد قومي وبعد ما قتلوه وأدخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون ، فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم له وعليه .

(المسألة الثالثة) قرىء (يا حسرة) بالتنوين ، و(يا حسرة العباد) بالإضافة من غير كلمة على ، وقرىء يا حسرة على بالهاء إجراء للوصول مجرى الوقف .

(المسألة الرابعة) من المراد بالعباد ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) الرسل الثلاثة كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس يا حسرة عليهم ياليتهم كانوا حاضرين شأننا لتؤمن بهم (وثانيها) هم قوم حبيب (وثالثها) كل من كفر وأصر واستكبر وعلى الأول فاطلاق العباد على المؤمنين كما في قوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقوله (يا عبادى الذين أسرفوا) وعلى الثانى فاطلاق العباد على الكفار ، و فرق بين العبد مطلقاً وبين المضاف إلى الله تعالى فان الإضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفاً تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف ما لا يكون في قولك البيت ، وعلى هذا فقوله تعالى (وعباد الرحمن) من قبيل قوله (ان عبادى) وكذلك (عباد الله) .

ثم بين الله تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون ﴾ وهذا سبب الندامة وذلك لأن من جاءه ملك من بادية ، وأعرفه نفسه ، وطلب منه أمراً هيناً فكذبه ولم يجبه إلى ما دعاه ، ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه أنه ذلك ، يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه ، فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم باعزاز الله إياهم وجعلهم نوابه كما قال (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وجاءوا وعرفوا أنفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة في الحس ، ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس ظهرت عظمتهم عند الله لهم ، وكان ما يدعون إليه أمراً هيناً نفعه عائد إليهم من عبادة الله وما كانوا يسألون عليه أجراً ، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة ، وكيف لا وهم لم يقتنعوا بالإعراض حتى آذوا واستهزأوا واستخفوا واستهانوا

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾

وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله (ما يأتيهم) الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى قوم حبيب ، أى ما يأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة (إلا كانوا به يستهزؤون) على قولنا الحسرة عليهم ، ويجوز أن يكون عائداً إلى الكفار المصرين .

ثم إن الله تعالى لما بين حال الأولين قال للحاضرين (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون) أى الباقون لا يرون ما جرى على من تقدمهم ، ويحتمل أن يقال : إن الذين قيل في حقهم (يا حسرة) هم الذين قال في حقهم (ألم يروا) ومعناه أن كل مهلك تقدمه قوم كذبوا وأهلكوا إلى قوم نوح وقبلة .

وقوله (أنهم إليهم لا يرجعون) بدل في المعنى عن قوله (كم أهلكنا) وذلك لأن معنى (كم أهلكنا) ألم يروا كثرة إهلاكنا ، وفيه معنى ، ألم يروا المهلكين الكثيرين أنهم إليهم لا يرجعون ، وحينئذ يكون كبدل الاشتغال ، لأن قوله (أنهم إليهم لا يرجعون) حال من أحوال المهلكين ، أى أهلكوا بحيث لا رجوع لهم إليهم فيصير كقولك : ألا ترى زيدا أدبه ، وعلى هذا فقوله (أنهم إليهم لا يرجعون) فيه وجهان (أحدهما) أهلكوا إهلاكاً لا رجوع لهم إلى من في الدنيا (وثانيهما) هو أنهم لا يرجعون إليهم ، أى الباقون لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة ، يعنى أهلكناهم وقطعنا نسلهم ، ولا شك في أن الإهلاك الذى يكون مع قطع النسل أتم وأعم ، والوجه الأول أشهر نقلاً ، والثانى أظهر عقلاً .

ثم قال تعالى (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) لما بين الإهلاك بين أنه ليس من أهلكه الله تركه ، بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب ، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ، ونعم ما قال القائل :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى

ولكننا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شى

وقوله (وإن كل لما) فى إن وجهان (أحدهما) أنها مخففة من الثقيلة واللام فى لما فارقة بينها وبين النافية ، وما زائدة مؤكدة فى المعنى ، والقراءة حينئذ بالتخفيف فى لما (وثانيهما) أنها نافية ولما بمعنى إلا ، قال سيديويه : يقال نشدتك بالله لما فعلت ، بمعنى إلا فعلت ، والقراءة حينئذ بالتشديد فى لما ، يؤيد هذا ما روى أن أياً قرأ (وما كل إلا جميع) وفى قول سيديويه لما بمعنى إلا وازد معنى مناسب وهو أن لما كأنها حرفاً نفي جمعاً وهما لم وما فتاً كد النفي ، ولهذا يقال فى

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا
مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

جواب من قال قد فعل لما يفعل ، وفي جواب من قال فعل لم يفعل ، وإلا كأنها حرفا نفي إن ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر ، قال الزمخشري : فان قال قائل كل وجميع بمعنى واحد ، فكيف جعل جميعاً خبراً لكل حيث دخلت اللام عليه ، إذ التقدير وإن كل لجميع ، نقول معنى جميع مجموع ، ومعنى كل كل فرد بحيث لا يخرج عن الحكم أحد ، فصار المعنى كل فرد بمجموع مع الآخر مضموم إليه ، ويمكن أن يقال محضرون ، يعني عما ذكره ، وذلك لأنه لو قال: وإن جميع لجميع محضرون ، لكان كلاماً صحيحاً ولم يوجد ما ذكره من الجواب ، بل الصحيح أن محضرون كالصفة للجميع ، فكأنه قال جميع جميع محضرون ، كما يقال الرجل رجل عالم ، والنبي نبي مرسل ، والواو في وإن كل لعطف الحكاية على الحكاية ، كأنه يقول بينت لك ما ذكرت ، وأبين أن كلا لدينا محضرون ، وكذلك الواو في قوله تعالى :

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجَّرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾
كأنه يقول : وأقول أيضاً آية لهم الأرض الميتة وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما وجه تعلق هذا بما قبله ؟ نقول مناسب لما قبله من وجهين (أحدهما) أنه لما قال (وإن كل لما جميع) كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعاً لإنكارهم واستبعادهم وإصرارهم وعنادهم ، فقال (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) كذلك نحى الموتى (وثانيهما) أنه لما ذكر حال المرسلين وإهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر ما يدل عليه ، وبدأ بالأرض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم منها عند الحركة والسكون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأرض آية مطلقاً فلم خصصها بهم حيث قال (وآية لهم) نقول : الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشيء بأبلغ الوجوه ، وأما من عرف الشيء بطريق الرؤية لا يذكر له دليل ، فان النبي وعباد الله المخلصين عرفوا الله قبل الأرض والسماء ، فليست الأرض معرفة لهم ، وهذا كما قال تعالى (سنبينهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقال (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) يعني أنت كفاك ربك معرفاً ، به عرفت كل شيء فهو شهيد لك على كل شيء ، وأما هؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والأنفس ، وكذلك ههنا آية لهم .

(المسألة الثالثة) إن قلنا إن الآية مذكورة للاستدلال على جواز إحياء الموتى فيكفي قوله (أحييناها) ولا حاجة إلى قوله (وأخرجنا منها حباً) وغير ذلك ، وإن قلنا إنها للاستدلال على وجود الإله ووحدته فلا فائدة في قوله (الأرض الميتة أحييناها) لأن نفس الأرض دليل ظاهر وبرهان باهر ، ثم هب أنها غير كافية فقوله (الميتة أحييناها) كاف في التوحيد فما فائدة قوله (وأخرجنا منها حباً) نقول مذكورة للاستدلال عليها ولكل ما ذكره الله تعالى فائدة . أما قوله (وأخرجنا منها حباً) فله فائدة بالنسبة إلى بيان إحياء الموتى ، وذلك لأنه لما أحيى الأرض وأخرج منها حباً كان ذلك إحياء تاماً لأن الأرض المخضرة التي لا تثبت الزرع ولا تخرج الحب دون ما تثبت في الحياة ، فكأنه قال تعالى الذي أحيى الأرض إحياء كاملاً منبتاً للزرع يحيى الموتى إحياء كاملاً بحيث تدرك الأمور ، وأما بالنسبة إلى التوحيد فلأن فيه تعديد النعم كأنه يقول آية لهم الأرض فانها مكانهم ومهدم الذي فيه تحريكهم واسكانهم والأمر الضروري الذي عنده وجودهم وامكانهم وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهي مكان لهم لا بد لهم منها فهي نعمة ثم إحيائها بحيث تخضر نعمة ثانية فإنها تصير أحسن وأنزه ، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة فإن قوتهم يصير في مكانهم ، وكان يمكن أن يجعل الله رزقهم في السماء أو في الهواء فلا يحصل لهم الوثوق ، ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لأن الأرض تثبت الحب في كل سنة ، وأما الأشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجوداً ، ثم فجرنا فيها العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم أنها أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر وبالنسبة إلى بيان إحياء الموتى كل ذلك مفيد وذلك لأن قوله (وأخرجنا منها حباً) كالإشارة إلى الأمر الضروري الذي لا بد منه وقوله (وجعلنا فيها جنات) كالأمر المحتاج إليه الذي إن لم يكن لا يغنى الإنسان لكنه يبقى محتال الحال وقوله (وججرنا فيها من العيون) إشارة إلى الزينة التي إن لم تكن لا تغنى الإنسان ولا يبقى في ورطة الحاجة ، لكنه لا يكون على أحسن ما ينبغي ، وكأن حال الإنسان بالحب كحال الفقير الذي له ما يسد خلته من بعض الوجوه ولا يدفع حاجته من كل الوجوه وبالثمار ويعتبر حاله كحال المكنتى بالعيون الجارية التي يعتمد عليها الإنسان ويقوى بها قلبه كالمستغنى الغنى المدخر لقوت سنين ، فيقول الله عز وجل كما فعلنا في موات الأرض كذلك نفعل في الأموات في الأرض فنحييهم ونعطيهم ما لا بد لهم منه في بقائهم وتكوينهم من الأعضاء المحتاج إليها وقواها كالعين والقوة الباصرة والأذن والقوة السامعة وغيرهما ونزيد له ما هو زينة كالعقل الكامل والإدراك الشامل فيكون كأنه قال نحى الموتى إحياء تاماً كما أحيينا الأرض إحياء تاماً .

(المسألة الرابعة) قال عند ذكر الحب (فنه يأكلون) وفي الأشجار والثمار قال (ليأكلوا من ثمره) وذلك لأن الحب قوت لا بد منه فقال (فنه يأكلون) أى هم آكلوه ، وأما الثمار ليست كذلك ، فكأنه تعالى قال إن كنا ما أخرجناها كانوا يبقون من غير أكل فأخرجناها ليأكلوها .

(المسألة الخامسة) خصص النخيل والأعناب بالذكر من سائر الفواكه لأن الأذ المطعوم الحلاوة ، وهي فيها أتم ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة ، ولا كذلك غيرها ولأنهما أعم نفعاً فإنها تحمل من البلاد إلى الأماكن البعيدة ، فإن قيل فقد ذكر الله الرمان والزيتون في الأنعام والقضب والزيتون والتين في مواضع ، نقول في الأنعام وغيرها المقصود ذكر الفواكه والثمار ألا ترى إلى قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) وإلى قوله (فلينظر الإنسان إلى طعامه) فاستوفى الأنواع بالذكر وههنا المقصود ذكر صفات الأرض فاختر منها الألبان الأتفع ، وقد ذكرنا في سورة الأنعام ما يستفاد منه الفوائد ويعلم منه فائدة قوله تعالى (فاكهة ونخل ورمان) .

(المسألة السادسة) في المواضع التي ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر بلفظ شجرته وهي النخلة ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والأعناب ، ولم يذكر الكرم وذلك لأن العنب شجرته بالنسبة إلى ثمرته حقيرة قليلة الفائدة والنخل بالنسبة إلى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى ، فإن كثيراً من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولها شبه بالحيوان فاختر منها ما هو الأجدب منها ، وقوله تعالى (وفجرنا فيها من العيون) آية عظيمة لأن الأرض أجزاءها بحكم العادة لا تصعد ونحن نرى منابع الأنهار والعيون في المواضع المرتفعة وذلك دليل القدرة والاختيار والقائلون بالطبائع قالوا إن الجبال كالباب المبنية والأبخرة ترتفع إليها كما ترتفع إلى سقوف الحمامات وتتكون هناك قطرات من الماء ثم تجتمع ، فإن لم تكن قوية تحصل المياه الرائدة كالأبار وتجري في القنوات ، إن كانت قوية تشق الأرض وتخرج أنهاراً جارياً وتجمع فتحصل الأنهار العظيمة وتمدها مياه الأمطار والثلوج ، فنقول اختصاص بعض الجبال بالعيون دليل ظاهر على الاختيار وما ذكره تعسف ، فالحق هو أن الله تعالى خلق الماء في المواضع المرتفعة وساقها في الأنهار والسواقي أو صعد الماء من المواضع المنخفضة إلى الأماكن المرتفعة بأمر الله وجري في الأودية إلى البقاع التي أنعم الله على أهلها .

ثم قال تعالى (لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) والترتيب ظاهر ويظهر أيضاً في التفسير وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) لم أخرج التنبيه على الانتفاع بقوله (لياكلوا) عن ذكر الثمار حتى قال (وفجرنا فيها من العيون) وقال في الحب (فمنه يأكلون) عقيب ذكر الحب ، ولم يقل عقيب ذكر النخيل والأعناب لياكلوا ؟ نقول الحب قوت وهويتم وجوده بمياه الأمطار ولهذا يرى أكثر البلاد لا يكون بها شيء من الأشجار والزرع والحراثة لا تبطل هناك اعتماداً على ماء السماء وهذا لطف من الله حيث جعل ما يحتاج إليه الإنسان أعم وجوداً ، وأما الثمار فلا تتم إلا بالأنهار ولا تصير الأشجار حاملة للثمار إلا بعد وجود الأنهار فلماذا أخر .

(المسألة الثانية) الضمير في قوله (من ثمره) عائد إلى أي شيء ؟ نقول المشهور أنه عائد إلى الله أي

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا

لَا يَعْلَمُونَ «٣٦»

ليأكلوا من ثمرة الله (وفيه لطيفة) وهي أن الثمار بعد وجود الأشجار وجريان الأنهار لم توجد إلا بالله تعالى ولولا خلق الله ذلك لم توجد فالثمر بعد جميع ما يظن الظان أنه سبب وجوده ليس إلا بالله تعالى وإرادته فهي ثمرة ، ويحتمل أن يعود إلى النخيل وترك الأعناب لحصول العلم بأنها في حكم النخيل ويحتمل أن يقال هو راجع إلى المذكور أي من ثمرة ما ذكرنا ، وهذان الوجهان نقلهما الزمخشري ، ويحتمل وجهاً آخر أعرب وأقرب وهو أن يقال المراد من الثمر الفوائد يقال ثمرة التجارة الربح ويقال ثمرة العبادة الثواب ، وحينئذ يكون الضمير عائداً إلى التفجير المدلول عليه بقوله (وجرنا فيها من العيون) تفجيراً ليأكلوا من فوائد ذلك التفجير وفوائده أكثر من الثمار بل يدخل فيه ما قال الله تعالى (إنا صببنا الماء صباً) إلى أن قال (فأخرجنا به حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأبا) والتفجير أقرب في الذكر من النخيل ، ولو كان عائداً إلى الله لقال من ثمرة كما قال وجعلنا وفجرنا .

(المسألة الثالثة) ما في قوله (وما عملته) من أي المئات هي ؟ تقول فيها وجوه : (أحدها) نافية كأنه قال (وما عملت) التفجير أيديهم بل الله فجر (وثانيها) موصولة بمعنى الذي كأنه قال والذي عملته أيديهم من الفراس بعد التفجير يأكلون منه أيضاً ويأكلون من ثمرة الله الذي أخرجه من غير سعي من الناس ، فعطف الذي عملته الأيدي على ما خلقه الله من غير مدخل الإنسان فيه (وثالثها) هي مصدرية على قراءة من قرأ وما عملت من غير ضمير عائده معناه ليأكلوا من ثمرة وعمل أيديهم يعني يغرسون والله ينبتها ويخلق ثمرها فيأكلون بمجموع عمل أيديهم وخلق الله ، وهذا الوجه لا يمكن على قراءة من قرأ مع الضمير .

(المسألة الرابعة) على قولنا ما موصولة ، يحتمل أن تكون بمعنى وما عملته أي بالتجارة كأنه ذكر نوعي ما يأكل الإنسان بهما ، وهما الزراعة والتجارة ، ومن النبات ما يؤكل من غير عمل الأيدي كالعنب والتمر وغيرهما ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالأشياء التي لا تؤكل إلا مطبوخة أو كالزيتون الذي لا يؤكل إلا بعد إصلاح ، ثم لما عدد النعم أشار إلى الشكر بقوله (أفلا يشكرون) وذكر بصيغة الاستفهام لما بينا من فوائد الاستفهام فيما تقدم .

ثم قال تعالى (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) قد ذكرنا أن لفظة سبحان علم دال على التسبيح وتقديره سبح تسبيح الذي خلق الأزواج كلها ، ومعنى سبح نزه ، ووجه تعلق الآية بما قبلها هو أنه تعالى لما قال (أفلا يشكرون) وشكر

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

الله بالعبادة وهم تركوها ولم يقتنعوا بالترك بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك فقال (سبحان الذى خلق الأزواج) وغيره لم يخلق شيئاً فقال أو نقول ، لما بين أنهم أنكروا الآيات ولم يشكروا بين ما ينبغى أن يكون عليه العاقل فقال (سبحان الذى خلق الأزواج كلها) أو نقول لما بين الآيات قال : (سبحان الذى خلق) ما ذكره عن أن يكون له شريك أو يكون عاجزاً عن إحياء الموتى وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قوله (كلها) يدل على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن الزوج هو الصنف وأفعال العباد أصناف ولها أشباه هي واقعة تحت أجناس الأعراض فتكون من الكل الذى قال الله فيها إنه خلق الأزواج كلها ، لا يقال مما تنبت الأرض ، يخرج الكلام عن العموم لأن من قال أعطيت زيدا كل ما كان لى يكون للعموم إن اقتصر عليه ، فاذا قال بعده من الثياب لا يبقى الكلام على عمومته لأننا نقول ذلك إذا كانت من لبيان التخصيص ، أما إذا كانت لتأكيد العموم فلا ، بدليل أن من قال أعطيته كل شيء من الدواب والثياب والعبيد والجوارى يفهم منه أنه يعدد الأصناف لتأكيد العموم ويؤيد هذا قوله تعالى فى حم (الذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) من غير تقييد .

(المسألة الثانية) ذكر الله تعالى أموراً ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله (مما تنبت الأرض) يدخل فيها ما فى الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله (ومن أنفسهم) يدخل فيها الدلائل النفسية وقوله (ومما لا يعلمون) يدخل ما فى أقطار السموات وتخوم الأرضين وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا فى المثال .

(المسألة الثالثة) قوله (ومما لا يعلمون) فيه معنى لطيف وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقاً لينزه الله عن الشريك فان المخلوق لا يصلح شريكاً للخلق ، لكن التوحيد الحقيقى لا يحصل إلا بالاعتراف بأن لا إله إلا الله ، فقال تعالى اعلموا أن المانع من التشريك فيما تعلمون وما لا تعلمون لأن الخلق عام والمانع من الشركة الخلق فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون فانكم تعلمون أنه مخلوق ومما لا تعلمون فانه عند الله كله مخلوق لكون كله ممكناً .

ثم قال تعالى ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ﴾ .

لما استدلل الله بأحوال الأرض وهى المكان الكلى استدلل بالليل والنهار وهو الزمان الكلى فان دلالة المكان والزمان مناسبة لأن المكان لا تستغنى عنه الجواهر والزمان لا تستغنى عنه الأعراض ، لأن كل عرض فهو فى زمان ومثله مذكور فى قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار

والشمس والقمر) ثم قال بعده (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضاً ، لكن المقصود أولاً هناك إثبات الوجدانية بدليل قوله تعالى (لا تسجدوا للشمس) ثم الحشر بدليل قوله تعالى (إن الذي أحيأها لمحي الموتى) وههنا المقصود أولاً إثبات الحشر لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر ، يدل عليه النظر في السورة ، وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى فيه (قل أنكم لتكفرون بالذي خالق الأرض في يومين) إلى غيره وآخر السورتين يبين الأمر ، وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) المكان يدفع عن أهل السنة شبه الفلاسفة ، والزمان يدفع عنهم شبه المشبهة . (أما بيان الأول) فذلك لأن الفلاسفة يقول لو كان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل ، وقبل وبعد لا يتحقق إلا بالزمان ، فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه وهو محال ، فنقول لهم قد وافقتمونا على أن الأمكنة متناهية ، لأن الأبعاد متناهية بالاتفاق ، فإذا فوق السطح الأعلى من العالم يكون عدماً وهو موصوف بالفوقية ، وفوق وتحت لا يتحقق إلا بالمكان فقروق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه ، فإن أجابوا بأن فوق السطح الأعلى لا خلا ولا مالا ، نقول قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود .

(وأما بيان الثاني) فلأن المشبهى يقول لا يمكن وجود موجود إلا في مكان ، فالله في مكان . فنقول فيلزمكم أن تقولوا الله في زمان لأن الوهم كما لا يمكنه أن يقول هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول هو كان موجوداً ولا زمان وكل زمان فهو حادث وقد أجمعنا على أن الله تعالى قديم .

(المسألة الثانية) لو قال قائل إذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان فلم اختار الليل حيث قال (وآية لهم الليل) ؟ نقول لما استدل بالمكان الذي هو المظلم وهو الأرض وقال (وآية لهم الأرض) استدل بالزمان الذي فيه الظلمة وهو الليل (ووجه آخر) وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدوء الأصوات وفيه النوم وهو كالموت ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ في الصور فيتحرك الناس فذكر الموت كما قال في الأرض (وآية لهم الأرض الميتة) فذكر من الزمانين أشبههما بالموت كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت .

(المسألة الثالثة) ما معنى سلبخ النهار من الليل ؟ نقول معناه تمييزه منه يقال انسلخ النهار من الليل إذا أتى آخر النهار ودخل أول الليل وسلبخه الله منه فانسلبخ هو منه ، وأما إذا استعمل بغير كنية من فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت في آخره ، فان قيل فالليل في نفسه آية فأية حاجة إلى قوله (نسلخ منه النهار) ؟ نقول الشيء تتبين بضده منافعه ومحاسنه ، ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية في موضع من المواضع إلا وذكر آية النهار معها ، وقوله (فاذا هم مظلون) أى داخلون في الظلام ، وإذا للمفاجأة أى ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولا بد لهم من الدخول فيه .

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ «٣٨»

وقوله تعالى ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .
 يحتمل أن يكون الواو للعطف على الليل تقديره : وآية لهم الليل نسلخ والشمس تجري والقمر قدرناه ، فهي كلها آية ، وقوله (والشمس تجري) إشارة إلى سبب نسلخ النهار فانها تجري لمستقر لها وهو وقت الغروب فينسلخ النهار ، وفائدة ذكر السبب هو أن الله لما قال نسلخ منه النهار وكان غير بعيد من الجهال أن يقول قائل منهم نسلخ النهار ليس من الله إنما يسلخ النهار بغروب الشمس فقال تعالى (والشمس تجري لمستقر لها) بأمر الله فغرب الشمس سالخ للنهار فبذكر السبب يتبين صحة الدعوى ويحتمل أن يقال بأن قوله (والشمس تجري لمستقر لها) إشارة إلى نعمة النهار بعد الليل كأنه تعالى لما قال (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) ذكر أن الشمس تجري فتطالع عند انقضاء الليل فيعود النهار بمنافعه ، وقوله (لمستقر) اللام يحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) ووجه استعمال اللام للوقت هو أن اللام المكسورة في الأسماء لتحقيق معنى الإضافة لكن إضافة الفعل إلى سببه أحسن الإضافات لأن الإضافة لتعريف المضاف بالمضاف إليه كما في قوله : دار زيد لكن الفعل يعرف بسببه فيقال أجرة الريح واشترى الأكل ، وإذا علم أن اللام تستعمل للتعليل فنقول وقت الشيء يشبه سبب الشيء لأن الوقت يأتي بالأمر الكائن فيه ، والأمور متعلقة بأوقاتها فيقال خرج لعشر من كذا (وأقم الصلاة لدلوك الشمس) لأن الوقت معرف كالسبب وعلى هذا فعناها تجري الشمس وقت استقرارها أي كلما استقرت زماناً أمرت بالجرى فجرت ، ويحتمل أن تكون بمعنى إلى أي إلى مستقر لها وتقديره هو أن اللام تذكر للوقت وللوقت طرفان ابتداء وانتهاء يقال سرت من يوم الجمعة إلى يوم الخميس فجاز استعمال ما يستعمل فيه في أحد طرفيه لما بينهما من الاتصال ويؤيد هذا قراءة من قرأ (والشمس تجري إلى مستقر لها) وعلى هذا ففي ذلك المستقر وجوه (الأول) يوم القيامة وعنده تستقر ولا يبقى لها حركة (الثاني) السنة (الثالث) الليل أي تجري إلى الليل (الرابع) أن ذلك المستقر ليس بالنسبة إلى الزمان بل هو المكان وحينئذ ففيه وجوه (الأول) هو غاية ارتفاعها في الصيف وغاية انخفاضها في الشتاء أي تجري إلى أن تبلغ ذلك الموضع فترجع (الثاني) هو غاية مشارقتها فان في كل يوم لها مشرق إلى ستة أشهر ثم تعود إلى تلك المقنطرات وهذا هو القول الذي تقدم في الارتفاع فان اختلاف المشارق بسبب اختلاف الارتفاع (الثالث) هو وصولها إلى بيتها في الابتداء (الرابع) هو الدائرة التي عليها حركتها حيث لا تميل عن منطقة البروج على مرور الشمس وسنذكرها ، ويحتمل أن يقال لمستقر لها أي تجري مجرى مستقرها . فإن أصحاب الهيئة قالوا الشمس في فلك والفلك يدور فيدير الشمس

وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مِنْ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

فالشمس تجرى مجرى مستقرها ، وقالت الفلاسفة تجرى لمستقرها أى لآمر لو وجدها لاستقر وهو استخراج الأوضاع الممكنة وهو فى غاية السقوط ، وأجاب الله عنه بقوله (ذلك تقدير العزيز العليم) أى ليس لإدارتها وإنما ذلك بارادة الله وتقديره وتديره وتسخيره إياها ، فان قيل عدت الوجوه الكثيرة وما ذكرت المختار ، فما الوجه المختار عندك ؟ نقول المختار هو أن المراد من المستقر المكان أى تجرى لبلوغ مستقرها وهو غاية الارتفاع والانخفاض فان ذلك يشمل المشارق والمغرب والمجرى الذى لا يختلف والزمان وهو السنة والليل فهو أتم فائدة ، وقوله (ذلك) يحتمل أن يكون إشارة إلى جرى الشمس أى ذلك الجرى تقدير الله ويحتمل أن يكون إشارة إلى المستقر أى لمستقر لها وذلك المستقر تقدير الله والعزيز الغالب وهو بكامل القدرة يغلب ، والعليم كامل العلم أى الذى قدر على إجرائها على الوجه الأنفع وعلم الأنفع فأجراها على ذلك ، وبيانه من وجوه (الأول) هو أن الشمس فى ستة أشهر كل يوم تمر على مسامته شئ لم تمر من أمسها على تلك المسامته ، ولو قدر الله مرورها على مسامته واحدة لاحتقرت الأرض التى هى مسامته لمرها وبقي المجموع مستولياً على الأماكن الأخر فقدر الله لها بعداً لتجمع الرطوبات فى باطن الأرض والأشجار فى زمان الشتاء ثم قدر قريباً بتدريج لتخرج النبات والثمار من الأرض والشجر وتنضج وتجفف ، ثم تبعد لئلا يحترق وجه الأرض وأغصان الأشجار (الثانى) هو أن الله قدر لها فى كل يوم طلوعاً وفى كل ليلة غروباً لئلا تكل القوى والأبصار بالسر والتعب ولا يخرب العالم بترك العبارة بسبب الظلمة الدائمة ، (الثالث) جعل سيرها أبطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لأنها كاملة النور فلو كانت بطيئة السير لدامت زمناً كثيراً فى مسامته شئ واحد فتحرقه ، ولو كانت سريعة السير لما حصل لها لبث بقدر ما ينضج الثمار فى بقعة واحدة .

ثم قال تعالى ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ .

قال الزمخشري لا بد من تقدير لفظ يتم به معنى الكلام لأن القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى أنا قدرنا سيره منازل وعلى ما ذكره يحتمل أن يقال المراد منه ، والقمر قدرناه ذامنازل لأن ذال الشئ قريب من الشئ ولهذا جاز قول القائل عيشة راضية لأن ذال الشئ كالقائم به الشئ فأتوا بلفظ الوصف . وقوله (حتى عاد كالعرجون القديم) أى رجع فى الدقة إلى حالته التى كان عليها من قبل (والعرجون) من الانعراج يقال لعود العذق عرجون ، والقديم المتقادم الزمان ، قيل إن ما عبر عليه سنة فهو قديم ، والصحيح أن هذه بعينها لا تشترط فى جواز إطلاق القديم عليه وإنما تعتبر العادة ، حتى لا يقال لمدينة بنيت من سنة وستين إنها بناء قديم أو هى قديمة

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ «٤٠»

ويقال لبعض الأشياء إنه قديم ، وإن لم يكن له سنة ، ولهذا جاز أن يقال بيت قديم وبناء قديم ولم يجز أن يقال في العالم إنه قديم ، لأن القدم في البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه ، وإطلاق القديم على العالم لا يعتاد إلا عند من يعتقد أنه لا أول له ولا سابق عليه .

ثم قال تعالى ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرک القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ . إشارة إلى أن كل شيء من الأشياء المذكورة خلق (١) على وفق الحكمة ، فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرک القمر وإلا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فلا تدرک الثمار وقوله (ولا الليل سابق النهار) قيل في تفسيره إن سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهي سلطان النهار ، وقيل معناه ولا الليل سابق النهار أي الليل لا يدخل وقت النهار والثاني بعيد لأن ذلك يقع إيضاحاً للواضح والأول صحيح إن أريد به ما بينته وهو أن معنى قوله تعالى (ولا الليل سابق النهار) أن القمر إذا كان على أفق المشرق أيام الاستقبال تكون الشمس في مقابلته على أفق المغرب ، ثم إن عند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر ، كأن لها حركة واحدة مع أن الشمس تتأخر عن القمر في لينة مقداراً ظاهراً في الحس ، فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدرکه الشمس ؛ وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرک القمر ؛ لبقى القمر والشمس مدة مديدة في مكان واحد ، لأن حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى في جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة ، وهي الدورة اليومية وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكباً أصلاً ، لأن كل كوكب من الكواكب إذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب إلى الموضع الذي فيه الكوكب الآخر بالنسبة إلينا تقدم ذلك الكوكب ، فهذه الحركة لا يسبق القمر الشمس ، فتبين أن سلطان الليل لا يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس ، فقوله (لا الشمس ينبغي لها أن تدرک القمر) إشارة إلى حرکتها البطيئة التي تتم الدورة في سنة وقوله (ولا الليل سابق النهار) إشارة إلى حرکتها اليومية التي بها تعود من المشرق إلى المشرق مرة أخرى في يوم وليلة ، وعلى هذا ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الحكمة في إطلاق الليل وإرادة سلطانه وهو القمر ، وما ذا يكون لو قال ولا القمر سابق الشمس ؟ نقول لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم أن الإشارة إلى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض ، فإن الشمس إذا كانت لا تدرک القمر والقمر أسرع ظاهراً ، وإذا قال

(١) في الطبعة الأميرية (خلقها) وهو تحريف واضح .

ولا القمر سابق يظن أن القمر لا يسبق فليس بأسرع، فقال الليل والنهار ليعلم أن الإشارة إلى الحركة التي بها تتم الدورة في مدة يوم وليلة، ويكون لجميع الكواكب أو عليها طلوع وغروب في الليل والنهار .

(المسألة الثانية) ما الفائدة في قوله تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك) بصيغة الفعل وقوله (ولا الليل سابق النهار) بصيغة اسم الفاعل ، ولم يقل ولا الليل يسبق ولا قال مدركة القمر؟ نقول الحركة الأولية التي للشمس ، ولا يدرك بها القمر مختصة بالشمس ، فجعلها كالصادرة منها ، وذكر بصيغة الفعل لأن صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل فلا يقال هو يخطط ولا يكون يصدر منه الخياطة . والحركة الثانية ليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشتركة بسبب حركة فلك ليس ذلك فلنالكوكب من الكواكب ، فالحركة ليست كالصادرة منه فأطلق اسم الفاعل لأنه لا يستلزم صدور الفعل يقال فلان خياط وإن لم يكن خياطاً ، فإن قيل قوله تعالى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) يدل على خلاف ما ذكرتم ، لأن النهار إذا كان يطلب الليل فالليل سابقه ، وقلتم إن قوله (ولا الليل سابق النهار) معناه ما ذكرتم فيكون الليل سابقاً ولا يكون سابقاً ، نقول قد ذكرنا أن المراد بالليل ههنا سلطان الليل وهو القمر ، وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة ، والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقيب الآخر فكأنه طالبه ، فإن قيل فلم ذكر ههنا (سابق النهار) وقد ذكر هناك يطلبه ، ولم يقل طالبه؟ نقول ذلك لما بينا من أن المراد في هذه السورة من الليل كواكب الليل ، وهي في هذه الحركة كأنها لا حركة لها ولا تسبق ، ولما من شأنها أنها سابقة ، والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان والزمان لا قرار له فهو يطلب حثيثاً لصدور التقصى منه ، وقوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) يحقق ما ذكرنا أي لكل طلوع وغروب في يوم وليلة لا يسبق بعضها بعضاً ، بالنسبة إلى هذه الحركة وكل حركة في فلك تخصه وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) التنوين في قوله وكل عوض عن الإضافة معناه كل واحد وإسقاط التنوين للإضافة حتى لا يجتمع التعريف والتشكيك في شيء واحد فلما سقط المضاف إليه لفظاً رد التنوين عليه لفظاً ، وفي المعنى معرف بالاضافة ، فإن قيل فهل يختلف الأمر عند الإضافة لفظاً وتركها؟ فنقول نعم ، وذلك لأن قول التائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم إلى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه ، فإذا قال كل كذا يدخل في الفهم عموم أكثر من العموم عند الإضافة ، وهذا كما في قبل وبعد إذا قلت افعل قبل كذا فإذا حذف المضاف وقلت افعل قبل أفاد فهم الفعل قبل كل شيء ، فإن قيل فهل بين قولنا كل منهم وبين قولنا كلهم وبين كل فرق؟ نقول نعم عند قولك كلهم تثبت الأمر للاقتصار عليهم ، وعند قولك كل منهم تثبت الأمر أولاً للعموم ، ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم ، وعند قولك كل تثبت الأمر على العموم وتركة عليه .

(١) في طبعة بولاق هذا ، للإضافة ، وهو خطأ واضح .

(المسألة الثانية) إذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال (يسبحون) ؟ نقول الجواب عنه من وجوه : (أحدها) ما بينا أن قوله كل للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب في السماء سيار (ثانيها) أن لفظ كل يجوز أن يوحد نظراً إلى كونه لفظاً موحداً غير مثنى ولا مجموع ، ويجوز أن يجمع لكون معناه جمعاً ، وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلى هذا يحسن أن يقول القائل زيد وعمرو كل جاء أو كل جاءوا ولا يقول كل جاء بالتثنية (وثالثها) لما قال (ولا الليل سابق النهار) والمراد ما في الليل من الكواكب قال (يسبحون)

(المسألة الثالثة) الفلك ماذا ؟ نقول الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لأن أهل اللغة اتفقوا على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هي الخشبة المسطحة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهي صفحة مستديرة ، فإن قيل فعلى هذا تكون السماء مستديرة . وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة ليس لها أطراف على جبال وهي كالسقف المستوي . ويدل عليه قوله تعالى (والسقف المرفوع) نقول ليس في النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة ، ودل الدليل الحسى على كونها مستديرة فوجب المصير إليه . أما الأول فظاهر لأن السقف المقبب لا يخرج عن كونه سقفاً ، وكذلك كونها على جبال ، وأما الدليل الحسى فوجوه (أحدها) أن من أمعن في السير في جانب الجنوب يظهر له كواكب مثل سهيل وغيره ظهوراً أبدياً حتى أن من يرصد يراه دائماً ويخفى عليه بنات نعش وغيرها خفاءً أبدياً ، ولو كان السماء مسطحاً مستويماً لبان الكل للكل بخلاف ما إذا كان مستديراً فإن بعضه حينئذ يستتر بأطراف الأرض فلا يرى (الثاني) هو أن الشمس إذا كانت مقارنة للحمل (١) مثلاً فإذا غربت ظهر لنا كوكب في منطقة البروج من الحمل إلى الميزان ثم في قليل يستتر الكوكب الذي كان غروبه بعد غروب الشمس ويظهر الكوكب الذي كان طلوعه بعد طلوع الشمس وبالعكس وهو دليل ظاهر وإن بحث فيه يصير قطعياً (الثالث) هو أن الشمس قبل طلوعها وبعد غروبها يظهر ضوءها ويستتير الجو بعض الاستنارة ثم يطلع ولولا أن بعض السماء مستتر بالأرض وهو محل الشمس فلا يرى جرمها وينتشر نورها لما كان كذا بل كان عند إعادتها إلى السماء يظهر لكل أحد جرمها ونورها معاً لكون السماء مستوية حينئذ مكشوفة كلها لكل أحد (الرابع) القمر إذا انكسف في ساعة من الليل في جانب الشرق ، ثم سئل أهل المغرب عن وقت الكسوف أخبروا عن الكسوف في ساعة أخرى قبل تلك الساعة التي رأى أهل المشرق فيها الكسوف لكن الكسوف في وقت واحد في جميع نواحي العالم والليل مختلف فدل على أن الليل في جانب المشرق قبل الليل في جانب المغرب فالشمس غربت من عند أهل المشرق وهي بعد في السماء ظاهرة لأهل المغرب فعلم استنارها بالأرض ولو كانت مستوية

(١) الحمل من بروج الشمس الاثني عشر وقد نظمت في قول الشاعر : حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان ورمى عقرب بقوس الجدى نزع الدلو بركة الحيتان

لما كان كذلك (الخامس) لو كانت السماء مبسوطة لكان القمر عند ما يكون فوق رؤوسنا على المسامته أقرب إلينا وعند ما يكون على الأفق أبعد منا لأن العموم أصغر من القطر والوتر، وكذلك في الشمس والكواكب كان يجب أن يرى أكبر لأن القريب يرى أكبر وليس كذلك فان قيل جاز أن يكون وهو على الأفق على سطح السماء وعند ما يكون على مسامته رؤوسنا في بحر السماء غائراً فيها لأن الخرق جائز على السماء، نقول لا تنازع في جواز الخرق لكن القمر حينئذ تكون حركته في دائرة لا على خط مستقيم وهو غرضنا ولأننا نقول لو كان كذلك لكان القمر عند أهل المشرق وهو في منتصف نهارهم أكبر مقداراً لكونه قريباً من رؤوسهم ضرورة فرضه على سطح السماء الأدنى وعندنا في بحر السماء، وبالجملة الدلائل كثيرة. والاكثر منها يليق بكتب الهيئة التي الغرض منها بيان ذلك العلم، وليس الغرض في التفسير بيان ذلك غير أن القدر الذي أوردناه يكفي في بيان كونه فلما مستديراً.

(المسألة الرابعة) هذا يدل على أن لكل كوكب فلكا، فما قولك فيه؟ نقول: أما السبعة السيارة (١) فللك فلك، وأما الكواكب الأخر فقيل لكل فلك واحد، ولندكر كلاماً مختصراً في هذا الباب من الهيئة حيث وجب الشروع بسبب تفسير الفلك فنقول: قيل إن للقمر فلكا لأن حركته أسرع من حركة الستة الباقية، وكذلك لكل كوكب فلك لاختلاف سيرها بالسرعة والبطء والممر، فان بعضها يمر في دائرة وبعضها في دائرة أخرى حتى في بعض الأوقات يمر بعضها ببعض ولا يكسفه وفي بعض الأوقات يكسفه فللك كوكب فلك، ثم إن أهل الهيئة قالوا فلك فلك هو جسم كرة وذلك غير لازم بل اللازم أن نقول لكل فلك هو كرة أو صفحة أو دائرة يفعلها الكواكب بحركته، والله تعالى قادر على أن يخلق الكواكب في كرة يكون وجوده فيها كوجود مسمار مغرق في ثخن كرة مجوفة ويدبر الكرة فيدور الكواكب بدوران الكرة، وعلى مذهب أرباب الهيئة حركة الكواكب السيارة على هذا الوجه، وكذلك قادر على أن يخلق حلقة يحيط بها أربع سطوح متوازية بها فانها أربع دوائر متوازية كحجر الرحي إذا قورناه وأخرجنا من وسطه طاحونة من طواحين اليد ويبقى منه حلقة يحيط بها سطوح ودوائر كما ذكرنا وتكون الكواكب فيه وهو فلك فتدور تلك الحلقة وتدبر الكواكب، والحركة على هذا الوجه وإن كانت مقدورة لكن لم يذهب إليه أحد ممن يعتبر وكذلك هو قادر على أن يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة في الماء على وجهه تنزل من جانب وتصعد إلى موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) والظاهر أن حركة الكواكب على هذا الوجه، وأرباب الهيئة أنكروا ذلك وقالوا لا تجوز الحركة

(١) نظم بعضهم السبعة السيارة في بيت وهو: زحل شرى مريخ من شمنه فزاهرت لعطارد الأقمار والمراد من قوله شرى كوكب المشتري: ولم يكن معروفاً غير هذه السبعة عند القدماء، وقد اكتشف المحدثون كواكب أخرى جديدة منها نبتون وأورانوس.

على هذا الوجه لأن الكوكب له جرم فاذا شق السماء وتحرك فاما أن يكون موضع دورانه ينشق ويلتئم كالماء تحركه السمكة أو لا ينشق ولا يلتئم ، بل هناك خلاء يدور الكوكب فيه ، لكن الخلاء محال والسماء لا تقبل الشق والالتئام ، هذا ما اعتمدوا عليه ، ونحن نقول كلاهما جائز . أما الخلاء فلا يحتاج إليه ههنا ، لأن قوله تعالى (يسبحون) يفهم منه أنه بشق والتئام ، وأما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه وشبهتهم في المحدد للجهات وهي هناك ضعيفة ، ثم إنهم قالوا على ما بينا تخرج الحركات وبه علمنا الكسوفات ، ولو كان لها حركات مختلفة لما وجب الكسوف في الوقت الذي يحكم فيه بالكسوف والخسوف وذلك لأننا نقول للشمس فلكان (أحدهما) مركزه مركز العالم (ثانيهما) مركزه فوق مركز العالم وهو مثل بياض البيض بين صفرتيه وبين القميص والشمس كرة في الفلك الخارج المركز تدور بدورانه في السنة دورة ، فاذا جعلت في الجانب الأعلى تكون بعيدة عن الأرض فيقال إنها في الأوج ، وإذا حصلت في الجانب الأسفل تكون قريبة من الأرض فتكون في الحضيض ، وأما القمر فله فلك شامل لجميع أجزائه وأفلاكه وفلك آخر هو بعض من الفلك الأول محيط به كالقشرة الفوقانية من البصلة وفلك ثالث في الفلك التحتاني كما كان في الفلك الخارج المركز في فلك الشمس وفي الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفي الكرة القمر مركز كسبار في كرة مغرق فيها ويسمى الفلك الفوقاني الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتاني الذي فيه الفلك الحامل الفلك المائل والكرة التي في الحامل تسمى فلك التدوير ، وكذلك قالوا في الكواكب الخمسة الباقية من السيارات غير أن الفوقاني الذي سموه فلك الجوزهر لم يثبتوه لها فأثبتوا أربعة وعشرين فلكا ، الفلك الأعلى وفلك البروج ، ولزحل ثلاثة أفلاك الممثل والحامل وفلك التدوير ، وللشترى ثلاثة كما لزحل ، وللبريخ كذلك ثلاثة ، وللشمس فلكان الممثل والخارج المركز ، وللزهرة ثلاثة أفلاك كما للعلويات ، ولعطارد أربعة أفلاك الثلاثة التي ذكرناها في العلويات ، وفلك آخر يسمونه المدير ، وللقمر أربعة أفلاك والرابع يسمونه فلك الجوزهر والمدير ليس كالجوزهر لأن المدير غير محيط بأفلاك عطارد وفلك الجوزهر محيط ، ومنهم من زاد في الخمسة في كل فلك فلكن آخرين وجعل تدويراتها مركبة من ثلاثة أفلاك ، وقالوا إن بسبب هذه الأجرام تختلف حركات الكواكب ويكون لها عروض ورجوع واستقامة وبطء وسرعة . هذا كلامهم على سبيل الاقتصاص والإقتصار ونحن نقول لا يبعد من قدرة الله خلق مثل ذلك ، وأما على سبيل الوجوب فلا نسلم ورجوعها واستقامتها بإرادة الله وكذلك عرضها وطولها وبطؤها وسرعتها وقربها وبعدها هذا تمام الكلام .

(المسألة الخامسة) قال المنجمون الكواكب أحياء بدليل أنه تعالى قال (يسبحون) وذلك لا يطلق إلا على العاقل ، نقول إن أردتم القدر الذي يصح به التسييح فنقول به لأنه ما من شيء من هذه الأشياء إلا وهو يسبح بحمد الله وإن أردتم شيئا آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما في قوله تعالى في حق الأصنام (ما لكم لا تنطقون) وقوله (ألا تنطقون) .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ «٤١»

ثم قال تعالى ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ﴾ ولها مناسبة مع ما تقدم من وجهين (أحدهما) أنه تعالى لما من بإحياء الأرض وهي مكان الحيوانات بين أنه لم يقتصر بل جعل للإنسان طريقاً يتخذ من البحر خيراً ويتوسطه أو يسير فيه كما يسير في البر وهذا حينئذ كقوله (وحملناكم في البر والبحر) ويؤيد هذا قوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) إذا فسرناه بأن المراد الإبل فإنها كسفن البراري (وثانيهما) هو أنه تعالى لما بين سباحة الكواكب في الأفلاك وذكر ما هو مثله وهو سباحة الفلك في البحار ، ولها (وجه ثالث) وهي أن الأمور التي أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والأول للحاجة والثاني للزينة فخلق الأرض وإحيائها من القبيل الأول فإنها المكان الذي لولاه لما وجد الإنسان ولولا إحيائها لما عاش والليل والنهار في قوله (وآية لهم الليل) أيضاً من القبيل الأول ، لأنه الزمان الذي لولاه لما حدث الإنسان ، والشمس والقمر وحركتهما لو لم تكن لما عاش ، ثم إنه تعالى لما ذكر من القبيل الأول آيتين ذكر من القبيل الثاني وهو الزينة آيتين (إحداهما) الفلك التي تجرى في البحر فيستخرج من البحر ما يتزين به كما قال تعالى (ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر) (وثانيتهما) الدواب التي هي في البر كالفلك في البحر في قوله (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) فإن الدواب زينة كما قال تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وقال (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) فيكون استدلالاً عليهم بالضرورة والنافع لا يقال بأن النافع ذكره في قوله (جنات من نخيل وأعناب) فإنها للزينة لأننا نقول ذلك حصل تبعاً للضرورة ، لأن الله تعالى لما خلق الأرض منبتة لدفع الضرورة وأنزل الماء عليها كذلك لزم أن يخرج من الجنة النخيل والأعناب بقدره الله ، وأما الفلك فمقصود لا تبع ، ثم إذا علمت المناسبة فلي الآيات أبحاث لغوية ومعنوية :

(أما اللغوية) قال المفسرون الذرية هم الآباء أي حملنا آباءكم في الفلك والآلاف واللام للتعريف أي فلك نوح وهو المذكور في قوله (واصنع الفلك) ومعلوم عند العرب فقال الفلك ؛ هذا قول بعضهم ، وأما الآكثرون فعلى أن الذرية لا تطلق إلا على الولد وعلى هذا فلا بد من بيان المعنى ، فنقول الفلك إما أن يكون المراد الفلك المعين الذي كان لنوح ، وإما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) وقال تعالى (وترى الفلك فيه مواخر) وقال تعالى (فاذا ركبوا في الفلك) إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف في الفلك لبيان الجنس ، فإن كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه (الأول) أن المراد إنا حملنا أولادكم إلى يوم القيامة في ذلك الفلك ، ولولا ذلك لما بقى الآدمي نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله

(حملنا ذريتهم) بدل قوله (حملناهم) إشارة إلى كمال النعمة أي لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعددة إلى أعقابكم إلى يوم القيامة ، هذا ما قاله الزمخشري ، ويحتمل عندي أن يقال على هذا إنه تعالى إنما خص الذرية بالذكر ، لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة في وجودهم فقال (حملنا ذريتهم) أي لم يكن الحمل حملاً لهم ، وإنما كان حملاً لما في أصلابهم من المؤمنين كما أن من حمل صندوقاً لا قيمة له وفيه جواهر إذا قيل له لم تحمل هذا الصندوق وتعب في حمله وهو لا يشتري بشيء؟ يقول لا أحمل الصندوق وإنما أحمل ما فيه (الثاني) هو أن المراد بالذرية الجنس معناه حملنا أجناسهم وذلك لأن ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء نهي النبي ﷺ عن قتل الذراري ، أي النساء وذلك لأن المرأة وإن كانت صنفاً غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذراريها أي أمثالنا فقوله (أنا حملنا ذريتهم) أي أمثالهم وآباؤهم حينئذ تدخل فيهم (الثالث) هو أن الضمير في قوله (وآية لهم) عائد إلى العباد حيث قال (يا حسرة على العباد) وقال بعد ذلك (وآية لهم الأرض) وقال (وآية لهم الليل) وقال (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) إذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير في الموضوعين أشخاصاً معينين كما قال تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) ويريد بعضهم بعضاً ، وكذلك إذا تقابل قوم ومات الكل في القتال ، يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم ، فهم في الموضوعين يكون عائداً إلى القوم ولا يكون المراد أشخاصاً معينين ، بل المراد أن بعضهم قتل بعضاً ، فكذلك قوله تعالى (وآية لهم) أي آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم ، أو ذرية بعض منهم . وأما إن قلنا إن المراد جنس الفلك فهو أظهر ، لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها ، فأما جنس الفلك فانه ظاهر لكل أحد ، وقوله تعالى في سفينة نوح (وجعلناها آية للعالمين) أي بوجود جنسها ومثلها ، ويؤيده قوله تعالى (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) فنقول قوله تعالى (حملنا ذريتهم) أي ذريات العباد ولم يقل حملناهم ، لأن سكون الأرض عام لكل أحد يسكنها فقال (وآية لهم الأرض الميتة) إلى أن قال (فمنه يأكلون) لأن الأكل عام ، وأما الحمل في السفينة فمن الناس من لا يركبها في عمره ولا يحمل فيها ، ولكن ذرية العباد لا بد لهم من ذلك فان فيهم من يحتاج إليها فيحمل فيها .

(المسألة الثانية) جعل الفلك تارة جمعاً حيث قال (وترى الفلك فيه مواخر) جمع ماخرة وأخرى فرداً حيث قال (في الفلك المشحون) نقول فيه تدقيق مليح من علم اللغة ، وهو أن الكلمة قد تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة في الصورة ، والحركتان مختلفتان في المعنى مثالها قولك : يسجد يسجد سجوداً للمصدر وهم قوم يسجدون في جمع ساجد ، تظن أنهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك ، بل السجود عند كونه مصدرأ حركته أصلية إذا قلنا إن الفعل مشتق من المصدر

وحرارة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة من حيث إن الجمع يشتق من الواحد ، وينبغي أن يلحق المشتق تغيير في حركة أو حرف أو في مجموعهما ، فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه ، وجئنا بلفظ السجود ، فإذا السجود للبصير والجمع ليس من قبيل الألفاظ المشتركة التي وضعت بحركة واحدة لمعنيين ، إذا عرفت هذا فنقول الفلك عند كونه واحداً مثل قفل وبرد ، وعند كونها جمعاً مثل خشب ومرد وغيرهما ، فإن قلت فإذا جعلته جمعاً ماذا يكون واحداً ؟ نقول جاز أن يكون واحداً فلسنة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل ، وكذا القول في (إمام مبین) وفي قوله (ندعوا كل أناس (١) بامامهم) أي بأئمتهم عند قوله تعالى (إمام مبین) إمام كزمام وكتاب وعند قوله تعالى (كل أناس (١) بامامهم) إمام كسهم وكرام وجعاب وهذا من دقيق التصريف (وأما المعنوية) فنذكرها في مسائل :

(المسألة الأولى) قال ههنا (حملنا ذريتهم) من عليهم بحمل ذريتهم ، وقال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) من هناك عليهم بحمل أنفسهم ، نقول لأن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ، ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير ، بل يكون قد نفعه مثاله من أحسن إلى ولد إنسان وفرحه وفرح بفرحه أبوه ، وإذا دفع واحد الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ولا يكون في الحقيقة قد أزال الألم عن أبيه ، فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر ، ولو قال دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بيان دفع الضرر عنهم ، وههنا أراد بيان المنافع فقال (حملنا ذريتهم) لأن النفع حاصل بنفع الذرية ويدل على هذا أن ههنا قال (في الفلك المشحون) فإن امتلاء الفلك من الأموال يحصل بذكره بيان المنفعة ، وأما دفع المضرة فلا ، لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به أبطأ وهنالك السلامة ، فاختر ههنا ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجرى ، وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن ، فإن قيل قال تعالى (وحملناهم في البر والبحر) ولم يقل (وحملنا ذريتهم) مع أن المقصود في الموضوعين بيان النعمة ، لا دفع النعمة ، نقول لما قال (في البر والبحر) عم الخلق ، لأن ما من أحد إلا وحمل في البر أو البحر ، وأما الحمل في البحر فلم يعم ، فقال إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهكم أمره من الأولاد والأقارب والإخوان والأصدقاء .

(المسألة الثانية) قوله (المشحون) يفيد فائدة أخرى غير ما ذكرنا وهي أن الأدمى يرسب في الماء ويغرق ، فحمله في الفلك واقع بقدرته ، لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب في الماء ، لأن الخفيف يطلب جهة فوق فقال (الفلك المشحون) أثقل من الثقال التي ترسب ، ومع هذا حمل الله الإنسان فيه مع ثقله ، فإن قالوا ذلك لامتناع الخلاء نقول قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء في الكتب العقلية ، فإذن ليس حفظ الثقل فوق الماء إلا بإرادة الله .

(١) من يجب أن نسخة المطبعة الأميرية رسم فيها ، أنا ، هكذا بالاء في الموضين وهو تحريف ظاهر وخطأ في القرآن .

وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ

(المسألة الثالثة) قال تعالى (وآية لهم الأرض) وقال (وآية لهم الليل) ولم يقل وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم ، وذلك لأن حملهم في الفلك هو العجب . أما نفس الفلك فليس بعجب لأنه كبيت مبنى من خشب . وأما نفس الأرض فعجب ونفس الليل عجب لا قدرة عليهما لأحد إلا الله . ثم قال تعالى (وخلقنا لهم من مثله مايركبون) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) من حيث اللغة والمعنى . أما اللغة فقوله لهم يحتمل أن يكون عائداً إلى الذرية ، أى حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين مايركبون ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى العباد الذين عاد إليهم قوله (وآية لهم) وهو الحق لأن الظاهر عود الضمائر إلى شيء واحد .

(المسألة الثانية) (من) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون صلة تقديره وخلقنا لهم مثله ، وهذا على رأى الأخصش ، وسيبويه يقول : من لا يكون صلة إلا عند النفي ، تقول ماجاءنى من أحد كما فى قوله تعالى (وما مسنا من لغوب) ، (وثانيهما) هى مبينة كما فى قوله تعالى (يغفر لكم من ذنوبكم) كأنه لما قال (خلقنا لهم) والمخلوق كان أشياء قال من مثل الفلك للبيان .

(المسألة الثالثة) الضمير فى (مثله) على قول إلا كثيرين عائد إلى الفلك فيكون هذا كقوله تعالى (وآخر من شكله أزواج) وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود فى زمانهم ويؤيد هذا هو أنه تعالى قال (وإن نشأ نغرقهم) ولو كان المراد الإبل على ما قاله بعض المفسرين لكان قوله (وخلقنا لهم من مثله مايركبون) فاصلاً بين متصلين ، ويحتمل أن يقال الضمير عائد إلى معلوم غير مذكور تقديره أن يقال : وخلقنا لهم من مثل ما ذكرنا من المخلوقات فى قوله (خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) وهذا كما قالوا فى قوله تعالى (لياكلوا من ثمرة) أن الهاء عائد إلى ما ذكرنا ، أى من ثم ما ذكرنا ، وعلى هذا فقوله (خلقنا لهم) فيه لطيفة ، وهى أن ما من أحد إلا وله ركوب مركوب من الدواب وليس كل أحد يركب الفلك فقال فى الفلك حملنا ذريتهم وإن كنا ما حملناهم ، وأما الخلق فلهم عام ومايركبون فيه وجهان : (أحدهما) هو الفلك الذى مثل فلك نوح (ثانيهما) هو الإبل التى هى سفن البر ، فان قيل إذا كان المراد سفينة نوح فما وجه مناسبة الكلام ؟ تقول ذكرهم بحال قوم نوح وأن المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم إن آمنوا يفوزوا وإن كذبوا يهلكوا .

ثم قال تعالى (وإن نشأ نغرقهم) إشارة إلى فائدتين : (إحداهما) أن فى حال النعمة ينبغى أن لا يأمنوا عذاب الله (وثانيتهما) هو أن ذلك جواب سؤال مقدر وهو أن الطبيعى يقول السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لا يرسب فقال ليس كذلك بل لو شاء الله أغرقهم وليس ذلك بمقتضى الطبع ولو صح كلامه الفاسد لكان لقائل أن يقول : ألسنت توافق أن من السفن ما ينقلب

فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَنْقُذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾
وَأِذَا قِيلَ لَهُم اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾

وينكسر ومنها ما يثقبه ثاقب فيرسب وكل ذلك بمشيئة الله فان شاء الله إغراقهم أغرقهم من غير شيء من هذه الأسباب كما هو مذهب أهل السنة أو بشيء من تلك الأسباب كما تسلم أنت .

وقوله تعالى ﴿ فلا صريح لهم ﴾ أي لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق .
وقوله تعالى ﴿ ولا هم ينقذون ﴾ إذا أدركهم الغرق وذلك لأن الخلاص من العذاب ، إما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال لا صريح لهم يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه ، وهذا مثل قوله تعالى (لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) فقوله (لا صريح لهم ولا هم ينقذون) فيه فائدة أخرى غير الحصر وهى أنه تعالى قال لا صريح لهم ولم يقل ولا منقذ لهم وذلك لأن من لا يكون من شأنه أن ينصر لا يشرع فى النصره مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه ، وإنما ينصر ويغيث من يكون من شأنه أن يغيث فقال لا صريح لهم ، وأما من لا يكون من شأنه أن ينقذ إذا رأى من يعز عليه فى ضر يشرع فى الإنقاذ ، وإن لم يثق بنفسه فى الإنقاذ ولا يغلب على ظنه . وإنما يبذل المجهود فقال (ولا هم ينقذون) ولم يقل ولا منقذ لهم .

ثم استثنى فقال ﴿ إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ وهو يفيد أمرين : (أحدهما) انقسام الإنقاذ إلى قسمين الرحمة والمتاع ، أى فىمن علم الله منه أنه يؤمن فىنقذه الله رحمة ، وفىمن علم أنه لا يؤمن فىلتمتع زماناً ويزداد إثمأ (وثانيهما) أنه بيان لسكون الإنقاذ غير مفيد للدوام بل الزوال فى الدنيا لا بد منه فىنقذه الله رحمة ويمتعه إلى حين ، ثم يميتة فالزوال لازم أن يقع .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما عدد الآيات بقوله (وآية لهم الأرض ، وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تقدم اليقين ، قال فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فان من أخبر بوقوع عذاب يتقيه ، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطاً فقال تعالى إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به وإذا قيل لهم اتقوا لا يتقون فهم فى غاية الجهل ونهاية الغفلة ، لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان ، ولا مثل العامة الذين يبنون الأمر على الاحوط ، ويدل على ما ذكرنا قوله تعالى (لعلكم ترحمون) بحرف التمنى أى فى ظنكم فان من يخفى عليه وجه البرهان لا يترك طريقة الاحتراز والاحتياط ، وجواب قوله (إذا قيل لهم اتقوا) محذوف معناه وإذا قيل لهم ذلك لا يتقون أو يعرضون ، وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه وهو قوله تعالى (وما تأتهم من آية من آيات ربهم) وفى قوله تعالى (ما بين أيديكم وما خلفكم)

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا

وجوه : (أحدها) (ما بين أيديكم) الآخرة فإنهم مستقبلون لها (وما خلفكم) الدنيا فانهم تاركون لها (وثانيها) (ما بين أيديكم) من أنواع العذاب مثل الفرق والحرق ، وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى (وإن نشأ نغرقهم فلا صرئخ لهم ولا هم ينقذون) وما خلفكم من الموت الطالب لكم إن نجوتم من هذه الأشياء فلا نجاه لكم منه يدل عليه قوله تعالى (ومتاعا إلى حين) (وثالثها) ما بين أيديكم من أمر محمد ﷺ فانه حاضر عندهم وما خلفكم من أمر الحشر فإنكم إذا اتقيتم تكذيب محمد ﷺ والتكذيب بالحشر رحمكم الله وقوله تعالى (لعلمكم ترحمون) مع أن الرحمة واجبة ، فيه وجوه ذكرناها مراراً ونزيد ههنا وجهاً آخر وهو أنه تعالى لما قال (اتقوا) بمعنى أنكم إن لم تقطعوا بناء على البراهين فاتقوا احتياطاً قال (لعلمكم ترحمون) يعني أرباب اليقين يرحمون جزماً وأرباب الاحتياط يرجى أن يرحموا ، والحق ما ذكرنا من وجهين : (أحدهما) اتقوا راجين الرحمة فان الله لا يجب عليه شيء . (وثانيهما) هو أن الاتقاء نظراً إليه أمر يفيد الظن بالرحمة فان كان يقطع به أحد الأمر من خارج فذلك لا يمنع الرجاء فان الملك إذا كان في قلبه أن يعطي من يخدمه أكثر من أجرته أضعافاً مضاعفة لكن الخدمة لا تقتضي ذلك ، يصح منه أن يقول افعل كذا ولا يبعد أن يصل إليك أجرتك أكثر مما تستحق .

ثم قال تعالى ﴿ وما تأتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ .

وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) : (وما تأتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) يعني إذا جاءتهم الرسل كذبوهم فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا إليها وقوله (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون) إلى قوله (لعلمكم ترحمون) كلام بين كلامين متصلين ويحتمل أن يقال هو متصل بما قبله من الآية وبيانه هو أنه تعالى لما قال (وإذا قيل لهم اتقوا) وكان فيه تقدير أعرضوا قال ليس إعراضهم مقتصر على ذلك بل هم عن كل آية معرضون أو يقال إذا قيل لهم اتقوا اقترحوا آيات مثل إنزال الملك وغيره فقال (وما تأتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) وعلى هذا كانوا في المعنى يكون زائداً معناه إلا يعرضون عنها أي لا تنفعهم الآيات ومن كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل .

وقوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من

﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ «٤٧»

لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴿

إشارة إلى أنهم يبتخلون بجميع ما على المكلف ، وذلك لأن المكلف عليه التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم اتقوا ، فلم يتقوا وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم (أنفقوا) فلم ينفقوا (وفيه لطائف) الأولى خوطبوا بأدنى الدرجات في التعظيم والشفقة فلم يأتوا بشيء منه وعباد الله المخلصون خوطبوا بالأدنى فأتوا بالأعلى إنما قلنا ذلك لأنهم في التقوى أمروا بأن يتقوا ما بين أيديهم من العذاب أو الآخرة وما خلفهم من الموت أو العذاب وهو أدنى ما يكون من الاتقاء ، وأما الخاص فيتقى تغيير قلب الملك عليه وإن لم يعاقبه ومتى العذاب لا يكون إلا للبعيد ، فهم لم يتقوا معصية الله ولم يتقوا عذاب الله ، والمخلصون اتقوا الله واجتنبوا مخالفته سواء كان يعاقبهم عليه أو لا يعاقبهم ، وأما في الشفقة فقليل لهم (أنفقوا) أي بعض ما هو لله في أيديكم فلم ينفقوا ، والمخلصون آثروا على أنفسهم وبذلوا كل ما في أيديهم ، بل أنفسهم صرفوها إلى نفع عباد الله ودفع الضرر عنهم (الثانية) كما أن في جانب التعظيم ما كان فائدة التعظيم راجعة إلا إليهم فإن الله مستغن عن تعظيمهم كذلك في جانب الشفقة ما كان فائدة الشفقة راجعة إلا إليهم ، فإن من لا يرزقه المتمول لا يموت إلا بأجله ولا بد من وصول رزقه إليه ، لكن السعيد من قدر الله إيصال الرزق على يده إلى غيره (الثالثة) قوله (مما رزقكم) إشارة إلى أمرين (أحدهما) أن البخل به في غاية القبح فإن أبخل البخل من يبخل بمال الغير (وثانيهما) أنه لا ينبغي أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فإن الله رزقكم فإذا أنفقتم فهو يخلفه لكم ثانياً كما رزقكم أولاً وفيه مسائل أيضاً :

(المسألة الأولى) عند قوله تعالى (وإذا قيل لهم أنفقوا) حذف الجواب ، وهما أجاب وأتى بأكثر من الجواب وذلك لأنه تعالى لو قال (وإذا قيل لهم أنفقوا) قالوا (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) لكان كافياً ، فما الفائدة في قوله تعالى (قال الذين كفروا للذين آمنوا) ؟ نقول الكفار كانوا يقولون بأن الإطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به ، وإنما أرادوا بذلك القول رداً على المؤمنين فقالوا نحن نطعم الضيوف معتقدين بأن أفعالنا ثناء ، ولو لا إطعامنا لما اندفع حاجة الضيف وأنتم تقولون إن إلهكم يرزق من يشاء ، فلم تقولون لنا أنفقوا ؟ فليسا كان غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الإطعام ؛ قال تعالى عنهم (قال الذين كفروا للذين آمنوا) إشارة إلى الرد ، وأما في قولهم (اتقوا ما بين أيديكم) فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا وأعرض الله عن ذكر إعراضهم لحصول العلم به .

(المسألة الثانية) ما الفائدة في تغيير اللفظ في جوابهم حيث لم يقولوا أنفق على من لو يشاء الله رزقه ، وذلك لأنهم أمروا بالإنفاق في قوله (وإذا قيل لهم أنفقوا) فكان جوابهم بأن

يقولوا أنفق فلم قالوا (أنطعم) ؟ نقول فيه بيان غاية مخالفتهم وذلك لأنهم إذا أمروا بالإنفاق والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره لم يأتوا بالإنفاق ولا بأقل منه وهو الإطعام وقالوا لا نطعم ، وهذا كما يقول القائل لغيره أعط زيداً ديناراً يقول لا أعطيه درهما مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه ديناراً ولكن المبالغة في هذا الوجه أتم فكذلك ههنا .

(المسألة الثالثة) كان كلامهم حقاً فإن الله لو شاء أطعمه فلماذا ذكره في معرض الذم ؟ نقول لأن مرادهم كان الإنكار لقدرة الله أو لعدم جواز الأمر بالإتفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد بين الله ذلك في قوله (مما رزقكم) فإنه يدل على قدرته ويصح أمره بالإعطاء لأن من كان له في يد الغير مال وله في خزائنه مال فهو مخير إن أراد أعطى عما في خزائنه وإن أراد أمر من عنده المال بالإعطاء ولا يجوز أن يقول من بيده ماله في خزائنه أكثر مما في يدي أعطه منه ، وقوله (إن أتم إلا في ضلال مبين) إشارة إلى اعتقادهم أنهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وأن أمرهم بالإنفاق مع قولهم بقدره الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفساد وفيه مباحث لغوية ومعنوية .

(أما اللغوية) فنقول (إن) وردت للنفي بمعنى ما ، وكان الأرض في إن أن تكون للشرط والأصل في ما أن تكون للنفي لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتقارضا واستعمل ما في الشرط واستعمل إن في النفي ، أما الوجه المشترك فهو أن كل واحد منهما حرف مركب من حرفين متقاربين فإن الهمزة تقرب من الألف والميم من النون ولا بد من أن يكون المعنى الذي يدخل عليه ما وأن لا يكون ثابتاً ، أما في ما فظاهر ، وأما في إن فلأنك إذا قلت إن جاءني زيد أكرمه ينبغي أن لا يكون له في الحال مجيء . فاستعمل إن مكان ما ، وقيل إن زيد قائم أي ما زيد بقائم واستعمل ما في الشرط تقول ما تصنع أصنع ، والذي يدل على ما ذكرنا أن ما النافية تستعمل حيث لا تستعمل إن وذلك لأنك تقول ما إن جلس زيد فتجعل إن صلة ولا تقول إن جلس زيد بمعنى النفي وبمعنى الشرط تقول إما ترين فتجعل إن أصلا وما صلة ، فدلنا هذا على أن إن في الشرط أصل وما دخيل وما في النفي بالعكس .

(البحث الثاني) قد ذكرنا أن قوله (إن أتم إلا) يفيد مالا يفيد قوله (أتم في ضلال) لأنه يوجب الحصر وأنه ليسوا في غير الضلال .

(البحث الثالث) وصف الضلال بالمبين قد ذكرنا معناه أنه لظهوره بين نفسه أنه ضلال أي في ضلال لا يتخفى على أحد أنه ضلال .

(البحث الرابع) قد ذكرنا أن قوله (في ضلال) يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين ، وقوله في مواضع على بينة (وعلى هدى) إشارة إلى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه (وأما المعنوية) فهي أنهم إنما وصفوا الذين آمنوا بكونهم في ضلال مبين لكونهم ظانين أن المؤمن كلامه متناقض ومن تناقض كلامه يكون في غاية الضلال ، إنما قلنا ذلك لأنهم قالوا (أنطعم من

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً

لو يشاء الله أطعمه) إشارة إلى أن الله إن شاء أن يطعمهم كان يطعمهم فلا تقدر على إطعامهم لأنه يكون تحصيلاً للحاصل ، وإن لم يشأ الله إطعامهم لا يقدر أحد على إطعامهم لامتناع وقوع ما لم يشأ الله فلا قدرة لنا على الإطعام ، فكيف تأمرونا بالإطعام (ووجه آخر) وهو أنهم قالوا أراد الله تجويعهم فلو أطعمناهم يكون ذلك سعيًا في إبطال فعل الله وأنه لا يجوز وأنت تقولون أطعموهم فهو ضلال ولم يكن في الضلال إلا هم حيث نظروا إلى المراد ولم ينظروا إلى الطلب والأمر ، وذلك لأن العبد إذا أمره السيد بأمر لا ينبغي أن يكشف سبب الأمر والاطلاع على المقصود الذي أمر به لأجله . مثاله : الملك إذا أراد الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال لعبده أحضر المركوب ، فلو تطلع واستكشف المقصود الذي لأجله الركوب لنسب إلى أنه يريد أن يطلع عدوه على الخدر منه وكشف سره ، فالأدب في الطاعة وهو اتباع الأمر لا تتبع المراد ، فالله تعالى إذ قال (أنفقوا بما رزقكم) لا يجوز أن يقولوا : لم لم يطعمهم الله بما في خزائنه .

ثم قال تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وهو إشارة إلى ما اعتقدوه وهو أن التقوى المأمور بها في قوله (وإذا قيل لهم اتقوا) والإنفاق المذكور في قوله تعالى (وإذا قيل لهم أنفقوا) لا فائدة فيه لأن الوعد لا حقيقة له وقوله (متى هذا الوعد) أي متى يقع الموعد به ، وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) وهي أن إن للشرط وهي تستدعي جزاء ومتى استفهام لا يصلح جزاء فما الجواب؟ نقول هي في الصورة استفهام ، وفي المعنى إنكار كأنهم قالوا إن كنتم صادقين في وقوع الحشر فقولوا متى يكون .

(المسألة الثانية) الخطاب مع من في قولهم (إن كنتم)؟ نقول الظاهر أنه مع الأنبياء لأنهم

لما أنكروا الرسالة قالوا إن كنتم يا أيها المدعون للرسالة صادقين فأخبرونا متى يكون .

(المسألة الثالثة) ليس في هذا الموضع وعد فالإشارة بقوله (هذا الوعد) إلى أي وعد؟

نقول هو ما في قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم) من قيام الساعة ، أو نقول هو

معلوم وإن لم يكن مذكوراً لكون الأنبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب .

ثم قال تعالى ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة ﴾ أي لا ينظرون إلا الصيحة المعلومة والتسكير

للتكثير ، فإن قيل هم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يحزمون بعدمها ، فنقول الانتظار فعلي لأنهم كانوا

يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وقدرته وعلمه

فإنهم لا يقولون أو نقول لما لم يكن قوله متى استفهاماً حقيقياً قال ينتظرون انتظاراً غير حقيقي ،

لأن القائل متى يفهم منه الانتظار نظراً إلى قوله . وقد ذكروا ههنا في الصيحة أموراً تدل على

تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾

هو لها وعظمتها (أحدها) التنكير يقال لفلان مال أى كثير وله قلب أى جرى. (وثانيها) واحدة أى لا يحتاج معها إلى ثانية (وثالثها) تأخذهم أى تعمهم بالأخذ وتصل إلى من فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولا شك أن مثلها لا يكون إلا عظيمًا .

وقوله (تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) مما يعظم به الأمر لأن الصيحة المعتادة إذا وردت على غافل يرجف فان المقبل على مهم إذا صاح به صاح يرجف فواده بخلاف المنتظر للصيحة ، فإذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذى هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والإيخاف أعظم ، ويحتمل أن يقال (يخصمون) فى البعث ويقولون لا يكون ذلك أصلاً فيكونون غافلين عنه بخلاف من يعتقد أنه يكون فيتهباله وينتظر وقوعه فانه لا يرتجف وهذا هو المراد بقوله تعالى (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء) من اعتقد وقوعها فاستعد لها ، وقد مثلنا ذلك فيمن شام برقاً وعلم أن سيكون رعد ومن لم يشمه ولم يعلم ثم رعد الرعد ترى الشائم العالم ثابتاً والغافل الذاهل مغشياً عليه ، ثم بين شدة الأخذ وهى بحيث لا تمهلهم إلى أن يوصوا . وفيه أمور مبينة للشدة (أحدها) عدم الاستطاعة فان قول القائل فلان فى هذه الحال لا يوصى دون قوله لا يستطيع التوصية لأن من لا يوصى قد يستطيعها (الثانى) التوصية وهى بالقول والقول يوجد أسرع مما يوجد الفعل فقال (لا يستطيعون) كلمة فكيف فعلاً يحتاج إلى زمان طويل من أداء الواجبات ورد المظالم (الثالث) اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لا قدرة له على أهم الكلمات فان وقت الموت الحاجة إلى التوصية أمس (الرابع) التنكير فى التوصية للتعميم أى لا يقدر على توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة ، ولأن التوصية قد تحصل بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها (الخامس) قوله (ولا إلى أهلهم يرجعون) بيان لشدة الحاجة إلى التوصية لأن من يرجو الوصول إلى أهله قد يمسك عن التوصية لعدم الحاجة إليها ، وأما من يقطع بأنه لا وصول له إلى أهله فلا بد له من التوصية ، فإذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة .

وفى قوله (ولا إلى أهلهم يرجعون) وجهان (أحدهما) ما ذكرنا أنهم يقطعون بأنهم لا يميلون إلى أن يجتمعوا بأهاليهم وذلك يوجب الحاجة إلى التوصية (وثانيهما) أنهم إلى أهلهم لا يرجعون ، يعنى يموتون ولا رجوع لهم إلى الدنيا ، ومن يسافر سافراً ويعلم أنه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتى بالتوصية .

ثم بين ما بعد بالصيحة الأولى فقال (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون)

أى نفخ فيه [مرة] أخرى كما قال تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) وفيه مسائل :
 (المسألة الأولى) قال تعالى في موضع آخر (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون)
 وقال ههنا (فاذا هم من الأجدات إلى ربهم ينسلون) والقيام غير النسلان وقوله في الموضعين
 (فاذا هم) يقتضى أن يكونا معاً نقول (الجواب) عنه من رجهين (أحدهما) أن القيام لا ينافى المتى
 السريع لأن الماشى قائم ولا ينافى النظر (وثانيهما) أن السرعة بحىء الأمور كأن الكل فى زمان
 واحد كقول القائل :

مكر مفر مقبل مدبر معاً [جلبود صخر حطه السيل من عل]

(المسألة الثانية) كيف صارت النفختان مؤثرتين فى أمرين متضادين الأحياء والإماتة ؟
 نقول لا مؤثر غير الله والنفخ علامة ، ثم إن الصوت الهائل يزلزل الأجسام فعند الحياة كانت
 أجزاء الحى مجتمعة فزلزلها فحصل فيها تفريق ، وحالة الموت كانت الأجزاء متفرقة فزلزلها فحصل
 فيها اجتماع فالخاصل أن النفختين يؤثران تزلزلاً وانتقالاً للأجرام فعند الاجتماع تتفرق وعند
 الافتراق تجتمع .

(المسألة الثالثة) ما التحقيق فى إذا التى للمفاجأة ؟ نقول هى إذا التى للظرف معناه نفخ فى
 الصور فاذا نفخ فيه هم ينسلون لكن الشىء قد يكون ظرفاً للشىء معلوماً كونه ظرفاً ، فعند الكلام
 يعلم كونه ظرفاً وعند المشاهدة لا يتجدد علم كقول القائل إذا طلعت الشمس أضاء الجو وغير
 ذلك ، فاذا رأى إضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد ، وأما إذا قلت خرجت فاذا أسد الباب
 كان ذلك الوقت ظرف كونه الأسد بالباب . لكنه لم يكن معلوماً فاذا رآه عليه فحصل العلم بكونه
 ظرفاً له مفاجأة عند الإحساس فقول إذا للمفاجأة .

(المسألة الرابعة) أين يكون فى ذلك الوقت أجدات وقدزلزلت الصيحة الجبال ؟ نقول يجمع
 الله أجزاء كل واحد فى الموضع الذى قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدته .

(المسألة الخامسة) الموضع موضع ذكر الهيبة وتقدم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على
 الرحمة فلو قال بدل الرب المضاف إليهم لفظاً دالاً على الهيبة هل يكون أليق أم لا ؟ قلنا : هذا
 اللفظ أحسن ما يكون ، لأن من أساء واضطر إلى التوجه إلى من أحسن إليه يكون ذلك أشد ألماً
 وأكثر ندماً من غيره .

(المسألة السادسة) المسىء إذا توجه إلى المحسن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، والنسلان هو
 سرعة المشى فكيف يوجد منهم ذلك ؟ نقول (ينسلون) من غير اختيارهم ، وقد ذكرنا فى تفسير
 قوله (فاذا هم ينظرون) أنه أراد أن يبين كمال قدرته ونفوذ إرادته حيث ينفخ فى الصور ، فيكون
 فى وقته جمع وتركيب وإحياء وقيام وعدو فى زمان واحد ، فقوله (فاذا هم من الأجدات إلى ربهم
 ينسلون) يعنى فى زمان واحد ينتهون إلى هذه الدرجة وهى النسلان الذى لا يكون إلا بعد مراتب .

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾

ثم قال تعالى ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾
يعنى لما بعثوا قالوا ذلك ، لأن قوله (ونفخ في الصور) يدل على أنهم بعثوا وفيه مسائل :
﴿ المسألة الأولى ﴾ لو قال قائل : لو قال الله تعالى فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون يقولون
يا ويلنا كان أليق ، نقول معاذ الله ، وذلك لأن قوله (فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) على
ما ذكرنا إشارة إلى أنه تعالى في أسرع زمان يجمع أجزاء ثم ويؤلفها ويحييها ويحركها ، بحيث يقع
نسلانهم في وقت النفخ ، مع أن ذلك لا بدله من الجمع والتأليف ، فلو قال يقولون ، لكان ذلك
مثل الحال لينسلون ، أى ينسلون قائلين يا ويلنا وليس كذلك ، فان قولهم يا ويلنا قبل أن ينسلوا ،
وإنما ذكر النسلان لما ذكرنا من الفوائد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل : قد عرفنا معنى النداء في مثل يا حسرة ويا حسرتا ويا ويلنا ،
ولكن ما الفرق بين قولهم وقول الله حيث قال (يا حسرة على العباد) من غير إضافة ، وقالوا
يا حسرتا ويا حسرتنا ويا ويلنا ؟ نقول حيث كان القائل هو المكلف لم يكن لأحد علم إلا بحاله
أو بحال من قرب منه ، فكان كل واحد مشغولاً بنفسه ، فكان كل واحد يقول : يا حسرتنا
ويا ويلنا ، فقوله (قالوا يا ويلنا) أى كل واحد قال يا ويلى ، وأما حيث قال الله قال على سبيل
العموم لشمول علمه بحالهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما وجه تعلق (من بعثنا من مرقدنا) بقولهم (يا ويلنا) نقول لما بعثوا
تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل ، فقالوا (يا ويلنا من بعثنا) أبعثنا الله البعث الموعود به أم
كنا نياماً فنبهنا ؟ وهذا كما إذا كان إنسان موعوداً بأن يأتيه عدو لا يطيقه ، ثم يرى رجلاً هائلاً
يقبل عليه فيرتجف في نفسه ويقول : هذا ذلك أم لا ؟ ويدل على ما ذكرنا قولهم (من مرقدنا)
حيث جعلوا القبور موضع الرقاد إشارة إلى أنهم شكوا في أنهم كانوا نياماً فنبهوا أو كانوا موتى
وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الأمرين ، فقالوا (من بعثنا) إشارة إلى ظنهم أنه
بعثهم الموعود به ، وقالوا (من مرقدنا) إشارة إلى توهمهم احتمال الانتباه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا إشارة إلى ما ذا ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) أنه إشارة إلى المرقد
كانهم قالوا (من بعثنا من مرقدنا هذا) فيكون صفة للمرقد يقال كلامى هذا صدق (وثانيهما)
هذا إشارة إلى البعث ، أى هذا البعث ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إذا كان هذا صفة للمرقد فكيف يصح قوله تعالى (ما وعد الرحمن وصدق
المرسلون) ؟ نقول يكون ما وعد الرحمن ، مبتدأ خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمن حق ،
والمرسلون صدقوا ، أو يقال ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون حق ، والأول أظهر لقلة

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾
فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

الإضمار، أو يقال ما وعد الرحمن خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ما وعد الرحمن من البعث ليس تنبيهاً من النوم، وصدق المرسلون فيما أخبروكم به .

(المسألة السادسة) إن قلنا (هذا) إشارة إلى المرقد أو إلى البعث، فجواب الاستفهام بقولهم من بعثنا أين يكون؟ نقول: لما كان غرضهم من قولهم (من بعثنا) حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه حصل الجواب بقوله هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيهاً، كما أن الخائف إذا قال لغيره ماذا تقول أيقنتني فلان؟ فله أن يقول لا تخف ويسكت، لعلمه أن غرضه إزالة الرعب عنه وبه يحصل الجواب .

ثم قال تعالى ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾

أى ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة، يدل على النفخة قوله تعالى (ونفخ في الصور) ويحتمل أن يقال إن كانت الواقعة، وقرئت الصيحة مرفوعة على أن كان هي التامة، بمعنى ما وقعت إلا صيحة، وقال الزمخشري: لو كان كذلك لكان الأحسن أن يقال: إن كان، لأن المعنى حينئذ ما وقع شيء إلا صيحة: لكن التأنيث جائز إحالة على الظاهر، ويمكن أن يقول الذى قرأ بالرفع أن قوله (إذا وقعت الواقعة) تأنيث تهويل ومبالغة، يدل عليه قوله (ليس لوقعتها كاذبة) فإنها للمبالغة فكذلك ههنا قال (إن كانت إلا صيحة) مؤنثة تأنيث تهويل، ولهذا جاءت أسماء يوم الحشر كلها مؤنثة كالقيامة والقارعة والحاقة والطامة والصاخة إلى غيرها، والزمخشري يقول كاذبة بمعنى ليس لوقعتها نفس كاذبة، وتأنيث أسماء الحشر لكون الحشر مسمى بالقيامة، وقوله (محضرون) دل على أن كونهم (ينسلون) إجبارى لا اختياري .

ثم بين ما يكون في ذلك اليوم بقوله تعالى ﴿ فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾

فقوله (لا تظلم نفس) ليأمن المؤمن (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) ليبأس المجرم الكافر

وفيه مسائل:

(المسألة الأولى) ما الفائدة في الخطاب عند الإشارة إلى بأس المجرم بقوله (ولا تجزون) وترك الخطاب في الإشارة إلى أمان المؤمن من العذاب بقوله (لا تظلم) ولم يقل ولا تظلمون أيها المؤمنون؟ نقول لأن قوله (لا تظلم نفس شيئاً) يفيد العموم وهو كذلك فإنها لا تظلم أبداً (ولا تجزون) مختص بالكافر، فإن الله يجزي المؤمن وإن لم يفعل فإن الله فضلاً مختصاً بالمؤمن وعدلاً عاماً، وفيه بشارة .

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ «٥٥» هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ
عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكئونَ «٥٦» لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ «٥٧»

(المسألة الثانية) ما المقتضى لذكر فاء التعقيب ؟ نقول لما قال (محضرون) بمجموعون والجمع للفصل والحساب ، فكأنه تعالى قال إذا جمعوا لم يجمعوا إلا للفصل بالعدل ، فلا ظلم عند الجمع للعدل ، فصار عدم الظلم مترتباً على الإحضار للعدل ، ولهذا يقول القائل للوالى أو للقاضى : جلست للعدل فلا تظلم ، أى ذلك يقتضى هذا ويستعقبه .

(المسألة الثالثة) لا يجوزون عين ما كانوا يعملون ، بل يجوزون بما كانوا أو على ما كانوا وقوله (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) يدل على أن الجزاء بعين العمل ، لا يقال جزى يتعدى بنفسه وبالباء ، يقال جزيته خيراً وجزيته بخير ، لأن ذلك ليس من هذا لأنك إذا قلت جزيته بخير لا يكون الخير مفعولك ، بل تسكون الباء للمقابلة والسببية كأنك تقول جزيته جزاء بسبب ما فعل ، فنقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) أن يكون ذلك إشارة على وجه المبالغة إلى عدم الزيادة وذلك لأن الشيء لا يزيد على عينه ، فنقول قوله تعالى (يجزون بما كانوا يعملون) فى المساواة كأنه عين ما عملوا يقال فلان يجاوبنى حرفاً بحرف أى لا يترك شيئاً ، وهذا يوجب اليأس العظيم (الثانى) هو أن ما غير راجع إلى الخصوص ، وإنما هى للجنس تقديره ولا تجزون إلا جنس العمل أى إن كان حسنة فحسنة ، وإن كانت سيئة فسيئة فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة ، وهذا كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

ثم بين حال المحسن وقال (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) .

وقوله (فى شغل) يحتمل وجوهاً : (أحدها) (فى شغل) عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب ، فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب ، وقوله (فاكهون) يكون متمماً لبيان سلامتهم فإله لو قال (فى شغل) جاز أن يقال هم فى (شغل) عظم من التفكير فى اليوم وأهواله ، فإن من يصيبه فتنه عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع فى ماله ، يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه ، فقال (فاكهون) أى شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور (وثانيها) أن يكون ذلك بياناً لحالهم ولا يريد أنهم شغلوا عن شىء بل يكون معناه هم فى عمل ، ثم بين عملهم بأنه ليس بشاق ، بل هو ملذ محبوب (وثالثها) فى شغل عما توقعوه فانهم تصوروا فى الدنيا أموراً وقالوا نحن إذا دخلنا الجنة لا نطلب إلا كذا وكذا ، فرأوا ما لم يخطر ببالهم فاشتغلوا به ، وفيه وجوه : غير هذه ضعيفة (أحدها) قيل افتضاض الأبقار وهذا ما ذكرناه فى الوجه الثالث أن الانسان

قد يرجع في نظره الآن مداعبة الكواكب فيقول في الجنة ألتذ بها ، ثم إن الله ربما يؤتبه ما يشغله عنها (وثانيها) قيل في ضرب الأوتار وهو من قبيل ما ذكرناه توهم (وثالثها) في التزاور (ورابعها) في ضيافة الله وهو قريب مما قلنا لأن ضيافة الله تكون بالذما يمكن وحينئذ تشغله تلك عما توهمه في دنياه وقوله (فاكهون) خبر إن ، و (في شغل) بيان ما فكاهتهم فيه يقال زيد على عمله مقبل ، وفي بيته جالس فلا يكون الجار والمجرور خبراً ولو نصبت جالساً لكان الجار والمجرور خبراً . وكذلك لو قال في شغل فاكهين لكان معناه أصحاب الجنة مشغولون فاكهين على الحال وقرئ بالنصب والفاكهة (١) الملتذ المتعم به ومنه الفاكهة لأنها لا تكون في السعة إلا للذة فلا تؤكل لدفع ألم الجوع ، وفيه معنى لطيف ، وهو أنه أشار بقوله (في شغل) عن عدمهم الألم فلا ألم عندهم ، ثم بين بقوله (فاكهون) عن وجدانهم اللذة وعدم الألم قد لا يكون واجداً للذة . فبين لهم على أنهم حال ثم بين السكال بقوله (هم وأزواجهم) وذلك لأن من يكون في لذة قد تنغص عليه بسبب تفكره في حال من يهمله أمره فقال (هم وأزواجهم) أيضاً فلا يبقى لهم تعلق قلب ، وأما من في النار من أقاربهم وإخوانهم فيكونون هم عنهم في شغل ، ولا يكون منهم عندهم ألم ولا يشتهون حضورهم والأزواج يحتمل وجهين : (أحدهما) أشكاهم في الإحسان وأمثالهم في الإيمان كما قال تعالى (من شكاه أزواج) ، (وثانيهما) الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل كما في قوله تعالى (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) وقوله تعالى (ويذرون أزواجاً) فإن المراد ليس هو الإشكال ، وقوله (في ظلال) جمع ظل وظلال جمع ظلة والمراد به الوقاية عن مكان الألم ، فإن الجالس تحت كن لا يخشى المطر ولا حر الشمس فيكون به مستعداً لدفع الألم ، فكذلك لهم من ظل الله ما يقيهم الأسواء ، كما قال تعالى (لا يمسنها فيها نصب ولا يمسنها فيها لغوب) وقال (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) إشارة إلى عدم الآلام (وفيه لطيفة) أيضاً وهي أن حال المكلف ، إما أن يكون اختلالها بسبب ما فيه من الشغل ، وإن كان في مكان عال كالقاعد في حر الشمس في البستان المنتزه أو يكون بسبب المكان ، وإن كان الشغل مطلوباً كملاعبة الكواكب في المكان المكشوف ، وإما أن يكون بسبب المأكل كالمترج في البستان إذا أعوزه الطعام ، وإما بسبب فقد الحبيب ، وإلى هذا يشير أهل القلب في شرائط السماع بقولهم : الزمان والمكان والإخوان فقال تعالى (في شغل فاكهون) إشارة إلى أنهم ليسوا في تعب وقال (هم وأزواجهم) إشارة إلى عدم الوحدة الموحشة وقال (في ظلال على الأرائك متكئون) إشارة إلى المكان وقال (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) إشارة إلى دفع جميع حوائجهم وقوله (متكئون) إشارة إلى أدل وضع على القوة والفراغة فإن القائم قد يقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم . وأما المتكئ فلا يتكئ إلا عند الفراغ والقدرة لأن المريض لا يقدر على الإتكاء ، وإنما يكون مضطجعاً أو مستلقياً (والأرائك) جمع أريكة وهي السرير الذي عليه الفرش وهو تحت الحجلات فيكون مرئياً هو

(١) في طبعة بولاق ، والفاكهة ، وهو خطأ واضح ، والفاكهة اسم فاعل من فسكه والنفكه التمتع والتعجب ، والفاكهة المزاج .

وما فوقه وقوله (لهم فيها فاكهة) إشارة إلى أن لاجوع هناك ، وليس الأكل لدفع ألم الجوع ، وإنما ما كولهم فاكهة ، ولو كان لحماً طرياً ، لا يقال قوله تعالى (ولحم طير مما يشتهون) يدل على التغير وصدق الشهوة وهو الجوع لأننا نقول قوله (مما يشتهون) يؤكد معنى عدم الألم لأن أكل الشيء قد يكون للتداوى من غير شهوة فقال مما يشتهون لأن لحم الطير في الدنيا يؤكل في حالتين (إحداهما) حالة التنعم (والثانية) حالة ضعف المعدة وحينئذ لا يأكل لحم طير يشتهيه ، وإنما يأكل ما يوافقه ويأمره به الطبيب ، وأما أنه يدل على التغير ، فنقول مسلم ذلك لأن الخاص يخالف العام ، على أن ذلك لا يقدر في غرضنا ، لأننا نقول إنما اختار من أنواع المأكول الفاكهة في هذا الموضع لأنها أدل على التنعم والتلذذ وعدم الجوع والتكثير لبيان الكمال ، وقد ذكرناه مراراً وقوله (لهم فيها فاكهة) ولم يقل يأكلون ، إشارة إلى كون زمام الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين وقوله (ولهم ما يدعون) فيه وجوه : (أحدها) (لهم فيها ما يدعون) لأنفسهم أى دعاؤهم مستجاب ، وحينئذ يكون هذا افتعالاً بمعنى الفعل كلاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحيل ، وعلى هذا فليس معناه أنهم يدعون لأنفسهم دعاء فيستجاب دعاؤهم بعد الطلب بل معناه ولهم ما يدعون لأنفسهم أى ذلك لهم فلا حاجة لهم إلى الدعاء والطلب ، كما أن الملك إذا طلب منه مملوكه شيئاً يقول لك ذلك فيفهم منه تارة أن طلبك مجاب وأن هذا أمر هين بأن تعطى ما طلبت ، ويفهم تارة منه الرد وبيان أن ذلك لك حاصل فلم تطلبه فقال تعالى (ولهم ما يدعون) ويطلبون فلا طلب لهم وتقريره هو أن يكون ما يدعون بمعنى ما يصح أن يطلب ويدعى يعنى كل ما يصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب ، أو نقول المراد الطلب والإجابة وذلك لأن الطلب من الله أيضاً فيه لذة فلو قطع الله الأسباب بينهم وبينه لما كان يطيب لهم فأبقى أشياء يعظمهم إياها عند الطلب ليسكون لهم عند الطلب لذة وعند العطاء ، فإن كون المملوك بحيث يتمكن من أن يخاطب الملك في حوائجه منصب عظيم ، والملك الجبار قد يدفع حوائج المماليك بأسرها قصداً منه لئلا يخاطب (الثانى) ما يدعون ما يتدعون وحينئذ يكون افتعالاً بمعنى التفاعل كالاقتتال بمعنى القتال ، ومعناه ما ذكرناه أن كل ما يصح أن يدعو أحد صاحبه إليه أو يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم (الثالث) ما يتمنونه (الرابع) بمعنى الدعوى ومعناه حينئذ أنهم كانوا يدعون في الدنيا أن لهم الله وهو مولاهم وأن الكافرين لا مولى لهم . فقال لهم في الجنة ما يدعون به في الدنيا ، فتكون الحكاية محكية في الدنيا ، كأنه يقول في يومنا هذا لكم أيها المؤمنون غداً ماتدعون اليوم ، لا يقال بأن قوله (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال) يدل على أن القول يوم القيامة لأننا نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن قوله (هم) مبتدأ (وأزواجهم) عطف عليهم فيحتمل أن يكون هذا الكلام في يومنا هذا يخبرنا أن المؤمن وأزواجه في ظلال غداً وله ما يدعونه (والجواب الثانى)

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾

وهو أولى هو أن نقول : معناه لهم ما يدعون أى ما كانوا يدعون . لا يقال بأنه إضمار حيث لا ضرورة وإنه غير جائز لأننا نقول على ما ذكرنا يبقى الادعاء مستعملاً في معناه المشهور لأن الدعاء هو الإتيان بالدعوى وإنما قلنا إن هذا أولى لأن قوله (سلام قولاً من رب رحيم) هو في دار الآخرة وهو كالتفسير لقوله (ما يدعون) ولأن قوله (ما يدعون) مذكور بين جمل كلها في الآخرة فما يدعون أيضاً ينبغي أن يكون في الآخرة وفي الآخرة لا يبقى دعوى وبينه لظهور الأمور والفصل بين أهل الثبور والخبور .

وقوله تعالى ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ هو أكمل الأشياء وهو آخرها الذي لا شيء

فوقه ولنبيته في مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الرفع لقوله (سلام) ؟ نقول يحتمل ذلك وجوهاً (أحدها) هو بدل مما يدعون كأنه تعالى لما قال (لهم ما يدعون) بينه بيده فقال لهم سلام فيكون في المعنى كالمبتدأ الذي خبره جار ومجرور، كما يقال في الدار رجل ولزيد مال ، وإن كان في النحوليس كذلك بل هو بدل وبدل النكرة من المعرفة جائز فتكون ما بمعنى الذي معرفة وسلام نكرة ، ويحتمل على هذا أن يقال ما في قوله تعالى (ما يدعون) لا موصوفة ولا موصولة بل هي نكرة تقديره لهم شيء يدعون ثم بين بذكر البدل فقال (سلام) والأول هو الصحيح (وثانيها) سلام خبر ما ولهم لبيان الجهة تقديره ما يدعون سالم لهم أى خالص والسلام بمعنى السالم الخالص أو السليم يقال عبد سلام أى سليم من العيوب كما يقال لزيد الشرف متوفر والجار والمجرور يكون لبيان من له ذلك والشرف هو المبتدأ ومتوفر خبره (وثالثها) قوله تعالى (سلام) منقطع عما تقدم وسلام مبتدأ وخبره محذوف تقديره سلام عليهم فيكون ذلك إخباراً من الله تعالى في يومنا هذا كأنه تعالى حكى لنا وقال (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل) ثم لمسا بين كمال حالهم قال سلام عليهم ، وهذا كما في قوله تعالى (سلام على نوح ، سلام على المرسلين) فيكون الله تعالى أحسن إلى عباده المؤمنين كما أحسن إلى عباده المرسلين وهذا وجه مبتكر جيد ما يدل عليه منقول ، أو نقول تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعاً من الالتفات حيث قال لهم كذا وكذا ، ثم قال سلام عليكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قولاً ، منصوب بماذا ؟ نقول يحتمل وجوهاً (أحدها) نصب على المصدر تقديره على قولنا المراد لهم سلام هو أن يقال لهم سلام يقوله الله قولاً أو تقوله الملائكة قولاً وعلى قولنا ما يدعون سالم لهم تقديره قال الله ذلك قولاً وعدم بأن لهم ما يدعون سالم وعداً وعلى قولنا سلام عليهم تقديره أقوله قولاً وقوله (من رب رحيم) يكون لبيان أن السلام منه أى سلام عليهم من رب رحيم أقوله قولاً ، ويحتمل أن يقال على هذا إنه تمييز لأن السلام قد يكون قولاً وقد

وَأَمْتَاذُوا الْيَوْمَ أَيَّهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٥٩﴾

يكون فعلاً فإن من يدخل على الملك فيطأطئه رأسه يقول سلمت على الملك ، وهو حينئذ كقول القائل البيع موجود حكماً لاحساً وهذا ممنوع عنه قطعاً لاظناً .

(المسألة الثالثة) قال في السلام من رب رحيم وقال في غيره من أنواع الإكرام (نزلاً من غفور رحيم) فهل بينهما فرق؟ نقول نعم ، أما هناك فلأن النزول ما يرزق النزول أولاً ، وذلك وإن كان يدل عليه ما بعده فإن النزول إذا أكرم أولاً يدل على أنه مكرم وإذا أخل يا كرامه في الأول يدل على أنه مهان دائماً غير أن ذلك غير مقطوع به ، لجواز أن يكون الملك واسع الرزق فيرزق نزله أولاً ولا يمنع منه الطعام والشراب ويناقشه في غيره فقال غفور لما صدر من العبيد ليأمن العبد ولا يقول بأن الإطعام قد يوجد ممن يعاقب بعده والسلام يظهر مزية تعظيمه للمسلم عليه لا بمغفرة فقال (رب غفور) لأن رب الشيء مالكة الذي إذا نظر إلى علو مرتبته لا يرجى منه الالتفات إليه بالتعظيم ، فإذا سلم عليه يعجب منه وقيل انظر هو سيده ويسلم عليه .

ثم قال تعالى ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ وفيه وجوه منها تبيين وجه الترتيب أيضاً (الأول) امتازوا في أنفسكم وتفرقوا كما قال تعالى (تكاد تميز من الغيظ) أي بعضه من بعض غير أن تميزهم من الحسرة والندامة ووجه الترتيب حينئذ أن المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته ونزول دركته وضعته فيتحسر فيقال لهم (امتازوا اليوم) إذ لا دواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم (الثاني) امتازوا عن المؤمنين وذلك لأنهم يكونون مشاهدين لما يصل إلى المؤمن من الثواب والإكرام ثم يقال لهم تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم أبداً (الثالث) امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان الذي أشار إليه بقوله تعالى (هم وأزواجهم) فأهل النار يكون لهم العذاب الآليم وعذاب الفرقة أيضاً ولا عذاب فوق الفرقة ، بل العقلاء قالوا بأن كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال ، فإن من قطعت يده أو أحرقت جسمه فإنما يتألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض ، لكن التفرق الجسمي دون التفرق العقلي (الرابع) امتازوا عن شفعاكم وقرنائكم فما لكم اليوم حميم ولا شفيع (الخامس) امتازوا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير ، والمجرم هو الذي يأتي بالجريمة ، ويحتمل أن يقال إن المراد منه أن الله تعالى يقول امتازوا فيظهر عليهم سيما يعرفون بها ، كما قال تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم) وحينئذ يكون قوله تعالى امتازوا أمر تكوين ، كما أنه يقول (كن فيكون) كذلك يقول امتازوا فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم أو في وجوههم سواء .

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾

ثم قال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين كان لقائل أن يقول : إن الإنسان كان ظلوماً جهولاً ، والجهل من الأعداء ، فقال الله ذلك عند عدم الإنذار ، وقد سبق إيضاح السبل بإيضاح الرسل ، وعهدنا إليكم وتلونا عليكم ما ينبغي أن تفعلوه وما لا ينبغي ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في اللغات التي في (أعهد) وهي كثيرة (الأولى) كسر همزة إعهد وحروف الاستقبال كلها تكسر إلا الياء فلا يقال يعلم ويعلم (الثانية) كسر الهاء من باب ضرب يضرب (الثالثة) قلب العين جيماً ألم أجهد (١) وذلك في كل عين بعدها هاء (الرابعة) إدغام الهاء في الحاء بعد القلب فيقال ألم أحد ، وقد سمع قوم يقولون دحا محاً ، أى دعها معها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في معنى أعهد وجوه أقربها وأقواها ألم أوص إليكم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في هذا العهد وجوه (الأول) أنه هو العهد الذي كان مع أئبنا آدم بقوله (وعهدنا إلى آدم) ، (الثاني) أنه هو الذي كان مع ذرية آدم بقوله تعالى (أست بر بكم قالوا بلى) فان ذلك يقتضى أن لا نعبد غير الله (الثالث) وهو الأقوى ، أن ذلك كان مع كل قوم على لسان رسول ، ولذلك اتفق العقلاء على أن الشيطان يأمر بالشر ، وإن اختلفوا في حقيقته وكيفيته .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (لا تعبدوا الشيطان) معناه لا تطيعوه ، بدليل أن المنهى عنه ليس هو السجود له فحسب ، بل الانقياد لأمره والطاعة له فالطاعة عبادة ، لا يقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الأمرأ حيث أمرنا بطاعتهم في قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) لأننا نقول طاعتهم إذا كانت بأمر الله ، لا تكون إلا عبادة لله وطاعة له ، وكيف لا ونفس السجود والركوع للغير إذا كان بأمر الله لا يكون إلا عبادة لله ، ألا ترى أن الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك إلا عبادة لله ، وإنما عبادة الأمرأ هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه ، فان قيل بماذا تعلم طاعة الشيطان من طاعة الرحمن ، مع أنا لا نسمع من الشيطان خيراً ولا نرى منه أثراً؟ نقول عبادة الشيطان في مخالفة أمر الله أو الإتيان بما أمر الله لا لأنه أمر به ، ففي بعض الأوقات يكون الشيطان يأمرك وهو في غيرك ، وفي بعض الأوقات يأمرك وهو فيك ، فاذا جاءك شخص يأمرك بشيء ، فانظر إن كان ذلك موافقاً لأمر الله أو ليس موافقاً ، فان لم يكن موافقاً فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به ، فان أطعته فقد عبدت الشيطان ، وإن دعثك نفسك إلى فعل فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أو ليس كذلك ، فان لم يكن مأذوناً فيه فنفسك هي الشيطان ، أو معها الشيطان يدعوك ، فان اتبعته فقد عبدته ، ثم إن الشيطان يأمر أولاً بمخالفة

(١) هكذا في مطبعة بولاق أجهد بالجيم ويظهر أن الصواب هكذا . قلب العين حاء ألم أجهد . بدليل ما سيذكره في اللغة الرابعة

الله ظاهراً ، فمن أطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه ، بل يقول له اعبد الله كي لا تهان ، ولا يرتفع عند الناس شأنك ، وينتفع بك إخوانك وأعدائك ، فان أجاب إليه فقد عبده لكن عبادة الشيطان على تفاوت ، وذلك لأن الأعمال منها ما يقع والعامل موافق فيه جنانه ولسانه وأركانه ، ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح أو للأركان ، فمن الناس من يرتكب جريمة كارهاً بقلبه لما يقترف من ذنبه ، مستغفراً لربه ، يعترف بسوء ما يقترف فهو عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة ، ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب ، كما أنك تجد كثيراً من الناس يفرح بكونه متردداً إلى أبواب الظلمة للسعاية ، ويعد من المحاسن كونه سارياً مع الملوك ويفتخر به بلسانه ، وتجدهم يفرحون بكونهم أمراء الملك بالظلم والملك ينقاد لهم ، أو يفرحون بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون ، فرحين بما ورد عليهم من الأمر ، إذا عرفت هذا فالساعة التي بالأعضاء الظاهرة ، والبواطن طاهرة مكفرة بالأسقام والآلام ، كما ورد في الأخبار ، ومن ذلك قوله ﷺ « الحمى من فيح جهنم » وقوله ﷺ « السيف محاء للذنوب » أي لمثل هذه الذنوب ، ويدل عليه ما قال ﷺ في الحدود « إنها كفارات » وما يكون بالقلوب فلا خلاص عنه إلا بالتوبة والندم وإقبال القلب على الرب ، وما يكون باللسان فهو من قبيل ما يكون بالقلب في الظاهر ، والمثال يوضح الحال فنقول إذا كان عند السلطان أمير وله غلمان هم من خواص الأمير وأتباع بعدهم من عوام الناس ، فاذا صدر من الأمير مخالفة ومسارة مع عدو السلطان ومصادقة بينهما ، لا يعفو الملك عن ذلك إلا إذا كان في غاية الصفح ، أو يكون للأمير عنده يد سابقة أو توبة لاحقة ، فان صدر من خواص الأمير مخالفة وهو به عالم ولم يزره ، عدت المخالفة موجودة منه ، وإن كان كارهاً وأظهر الإنكار حسنت معاقبته دون معاقبته ، لأن إقدام خواصه على المخالفة دليل على سوء التربية ، فان كان الصادر من الخواشي الأباعد وبلغ الأمر ولم يزره عوتب الأمير ، وإن زجرهم استحق الأمير بذلك الزجر الإكرام ، وحسن من الملك أن يسدى إلى المزجور الإحسان والإنعام إن علم حصول انزجاره ، إذا علمت هذا فالقلب أمير واللسان خاصته والأعضاء خدمه ، فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب ، فإن أقبل على محبة غير الله فهو الويل العظيم والضلال المبين المستعقب للعقاب الأليم والعذاب الممhin ، وما يصدر من اللسان فهو محسوب على القلب ولا يقبل قوله إن لم ينكر فعله وما يصدر من الأعضاء والقلب قد أظهر عليه الإنكار وحصل له الانزجار فهو الذنب الذي حكي النبي ﷺ عن ربه أنه قال « لو لم تذنبوا لخلقنا أقواماً يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم » ، (وهنا لطيفة) وهي أن الشيطان قد يرجع عن عبد من عباد الله فرحاً فيظن أنه قد حصل مقصوده من الإغواء حيث يرى ذلك العبد ارتكب الذنب ظاهراً ويكون ذلك رافعاً لدرجة العبد ، فان بالذنب ينكسر قلب العبد فيتخلص من الإعجاب بنفسه وعبادته ، ويصير أقرب من المقربين ، لأن من يذنب مقرب عند الله كما قال تعالى (لهم درجات عند ربهم) والمذنب التائب النادم منكسر القلب والله عنده كما قال ﷺ حاكياً عن ربه « أنا عند المنكسرة قلوبهم » وفرق

بين من يكون عند الله، وبين من يكون عنده الله، ولعل ما يحكى من الذنوب الصادرة عن الأنبياء من هذا القبيل لتحصل لهم الفضيلة على الملائكة حيث تبجحوا بأنفسهم بقولهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وقد يرجع الشيطان عن آخر يكون قد أمره بشئ، فلم يفعل والشخص يظن أنه غلب الشيطان ورده خائباً فيتبجح في نفسه وهو لا يعلم أن الشيطان رجع عنه محصل المقصود مقبولاً غير مردود. ومن هذا يتبين أمر أصولي وهو أن الناس اختلفوا في أن المذنب هل يخرج من الإيمان أم لا؟ وسبب النزاع وقوع نظر الخصمين على أمرين متباينين فالذنب الذي بالجسد لا بالقلب لا يخرج بل قد يزيد في الإيمان والذي بالقلب يخاف منه الخروج عن ربة الإيمان ولذلك اختلفوا في عصمة الأنبياء من الذنوب، والأشبه أن الجسدي جائز عليهم والقرآن دليل عليه، والقلبي لا يجوز عليهم، ثم إنه تعالى لما نهى عباده عن عبادة الشيطان ذكر ما يحملهم على قبول ما أمروا به والالتفاء عما نهوا عنه بقوله (إنه لكم عدو مبين) وفيه مسائل:

(المسألة الأولى) من أين حصلت العداوة بين الشيطان والإنسان؟ فنقول ابتداءً من الشيطان وسببه تكريم الله بنبي آدم، لما رأى إبليس ربه كرم آدم وبنه عاداهم فعاداه الله تعالى والأولى منه ثم والثاني من الله كرم، أما الأول فلأن الملك إذا أكرم شخصاً ولم ينقص من الآخر شيئاً إذ لا ضيق في الخزانة، فعداوة من يعادى ذلك المكرم لا تكون إلا لؤماً، وأما الثاني فلأن الملك إذا علم أن إكرامه ليس إلا منه وذلك لأن الضعيف ما كان يقدر أن يصل إلى بعض تلك المنزلة لولا إكرام الملك، يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك أو ينسب إلى خزائنه ضيقاً، وكلاهما يحسن التعذيب عليه فيعاديه إتماماً للإكرام وإكالا للافضال، ثم إن كثيراً من الناس على مذهب إبليس إذا رأوا واحداً عند ملك محترماً بغضوه وسعوا فيه إقامة لسنة إبليس، فالملك إن لم يكن متخلقاً بأخلاق الله لا يبعد الساعى ويسمع كلامه ويترك إكرام ذلك الشخص واحترامه.

(المسألة الثانية) من أين إبانة عداوة إبليس؟ نقول لما أكرم الله آدم عاداه إبليس وظن أنه يبقى في منزلته وادم في منزلته مثل متباغضين عند الملك والله كان عالماً بالضائر فأبعده وأظهر أمره فأظهر هو من نفسه ما كان يخفيه لزوال ما كان يحمله على الإخفاء فقال (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) وقال (لاحتسكن ذريته).

(المسألة الثالثة) إذا كان الشيطان للإنسان عدواً مبيناً فما بال الإنسان يميل إلى مرضيه من الشرب والزنا، ويكره مساخطه من المجاهدة والعبادة؟ نقول سبب ذلك استعانة الشيطان بأعوان من عند الإنسان وترك استعانة الإنسان بالله، فيستعين بشهوته التي خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سبباً لفساد حاله ويدعوه بها إلى مسالك المهالك، وكذلك يستعين بغضبه الذي خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سبباً لوباله وفساد أحواله، ويميل الإنسان إلى المعاصي كميل المريض إلى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال، فترى المحموم يريد الماء البارد

وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

وهو يريد في مرضه . ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء يميل إلى الأكل الكثير ولا يشبع بشيء . وهو يزيد في معدته فساداً ، وصحيح المزاج لا يشتهي إلا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبى . لا يستغنى الإنسان فيه عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له غير إصلاح الهواء بالروائح الطيبة والأشياء الزكية والرش بالخلل والماورد من جملة المصلحات ، فكذلك الإنسان في الدنيا لا يستغنى عن أمورها وهي المعينات للشيطان وطريقه ترك الهوى وتقليل التأميل وتحريف الهوى بالذكر الطيب والزهد ، فإذا صح مزاج عقله لا يميل إلا إلى الحق ولا يبقى عليه في التكاليف كلفة ويحصل له مع الأمور الإلهية ألفة ، وهناك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان .

ثم قال تعالى ﴿ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ لما منع عبادة الشيطان حمل على عبادة الرحمن والشارع طيب الأرواح كما أن الطبيب طيب الأشباح ، وكما أن الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا وهي الحمية التي هي رأس الدواء لئلا يزيد مرضه ، ثم يقول له تناول الدواء الفلاني تقوية لقوته المقاومة للبرص ، كذلك الشارع منع من المفسد وهو اتباع الشيطان وحمل على المصلح وهو عبادة الرحمن وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عند المنع من عبادة الشيطان قال (إنه لكم عدو مبين) لأن العداوة أبلغ الموانع من الاتباع ، وعند الأمر بعبادة الرحمن لم يقل إنه لكم حبيب لأن المحبة لا توجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة . فيقول إنه يحبني فلا حاجة إلى تحمل المشقة في تحصيل مرضيه ، بل ذكر ما هو أبلغ الأشياء في الحمل على العبادة وذلك كونه طريقاً مستقيماً ، وذلك لأن الإنسان في دار الدنيا في منزل قفر مخوف وهو متوجه إلى دار إقامة فيها إخوانه ، والنازل في بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شيء أحب من طريق قريب آمن ، فلما قال الله تعالى (هذا صراط مستقيم) كان ذلك سبباً حاثاً على السلوك ، وفي ضمن قوله تعالى (هذا صراط) إشارة إلى أن الإنسان مجتاز لأنه لو كان في دار إقامة فقوله (هذا صراط مستقيم) لا يكون له معنى لأن المقيم يقول وماذا أفعل بالطريق وأنا من المقيمين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ماذا يدل على كونه طريقاً مستقيماً ؟ نقول الإنسان مسافر إما مسافرة راجع إلى وطنه ، وإما مسافرة تاجر له متاع يتجر فيه ، وعلى الوجهين فالله هو المقصد ، وأما الوطن فلأنه لا يوطن إلا في مأمّن ولا أمن إلا بملك لا يزول ملكه لأن عند زوال ملك الملوك لا يبقى الأمن والراحة ، والله سبحانه هو الذى ملكه دائم وكل ما عداه فهو فان ، وأما التجارة فلأن التاجر لا يقصد إلا إلى موضع يسمع أو يعلم أن لمتاعه هناك رواجاً والله تعالى يقول إن العمل الصالح

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي

كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾

عنده مثاب عليه مقابل بأضعاف ما يستحق ، والله هو المقصد ، وعبادته توجه إليه ، ولا شك أن المقصد لجهة إذا توجه إليها يكون على الطريق المستقيم .

(المسألة الثالثة) العبادات تنبئ عن معنى التذلل ، فلما قال لا تعبدوا الشيطان لزم أن يتكبر الإنسان على ما سوى الله ولما قال (وأن إعبدونني) ينبغى أن لا يتكبر على الله لكن التكبر على ما سوى الله ليس معناه أنه يرى نفسه خيراً من غيره ، فإن نفسه من جملة ما سوى الله ، فينبغى أن لا يلتفت إليها ولو كانت متجملة بعبادة الله ، بل معنى التكبر على ما سوى الله أن لا ينقاد لشيء إلا بإذن الله وفي هذا التكبر غاية التواضع فانه حينئذ لا ينقاد إلى نفسه وحظ نفسه في التفوق على غيره فلا يتفوق فيحصل التواضع التام ولا ينقاد لأمر الملوك إذا خالفوا أمر الله فيحصل التكبر التام فيرى نفسه بهذا التكبر دون الفقير وفوق الأمير .

ثم إن الله تعالى ذكر ما ينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى ﴿ ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ وفي الآية مسائل :

(المسألة الأولى) في الجبل ست لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد وكسرها مع التخفيف وضمهما معه وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسرها .

(المسألة الثانية) في معنى الجبل الجيم والباء واللام لا تخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الأجسام الكثيرة ، وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب ، وشاة لجباء إذا كانت مجتمععة اللبن الكثير ، لا يقال البلجة نقض على ما ذكرتم فإنها تنبئ عن التفريق فإن الأبلج خلاف المقرون لأننا نقول هي لاجتماع الأماكن الخالية التي تسع المتمكنات ، فإن البلجة والبلدة بمعنى والبلد سمي بلداً للاجتماع لا للتفريق ، فالجبل الجمع العظيم حتى قيل إن دون العشرة آلاف لا يكون جبلا وإن لم يكن صحيحاً .

(المسألة الثالثة) كيف الإضلال ؟ نقول على وجهين : (أحدهما) أن الإضلال تولية عن المقصد وصد عنه فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله وعبادة غيره فهو تولية فان لم يقدر يأمره بعبادة الله لأمر غير الله من رياسة وجاه وغيرهما فهو صد ، وهو يفضي إلى التولية لأن مقصوده لو حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فتحصل التولية .

ثم بين ما آل أهل الضلال بقوله تعالى ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .
وحال الضلال كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدوه فوقع في مشقة ولو أقام في وطنه لعل

أَصْلُوها الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾

ذلك العدو كان لا يظفر به أو يرحمه ، كذلك حال من لم يتحرك لطاعة ولا عصيان كالمجانين وحال من استعمل عقله فأخطأ الطريق ، فإن المجنون من أهل النجاة وإن لم يكن من أهل الدرجات ، وقد قيل بأن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بترأ ، وذلك ظاهر في المحسوس فإن من لم يعرف الطريق إذا أقام بمكانه لا يبعد عن الطريق كثيراً ومن سار إلى خلاف المقصد يبعد عنه كثيراً . ثم بين أنهم واصلون إليها حاصلون فيها بقوله تعالى ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ . وفي هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه : (أحدها) قوله تعالى (اصلوها) فانه أمر تنكيل وإهانة كقوله ذق (إنك أنت العزيز الكريم) ، (والثاني) قوله (اليوم) يعني العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وأيامها قد انقضت وبقى اليوم العذاب (الثالث) وقوله تعالى (بما كنتم تكفرون) فإن الكفر والكفران ينبيء عن نعمة كانت يكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام . ولهذا كثيراً ما يقول العبد المجرم افعلوا بي ما يأمر به السيد ولا تحضروني بين يديه وإلى هذا المعنى أشار القائل :

أليس بكاف لذي نعمة حياء المسيء من المحسن

ثم قال تعالى ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ في الترتيب وجوه : (الأول) أنهم حين يسمعون قوله تعالى (بما كنتم تكفرون) يريدون [أن] ينكروا كفرهم كما قال تعالى عنهم ما أشركنا وقالوا آمنا به فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الإنكار وينطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم (الثاني) لما قال الله تعالى لهم (ألم أعهد إليكم) لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان ، وفي الختم على الأفواه وجوه : أقواها ، أن الله تعالى يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه في قدرة الله يسير ، أما الإسكات فلا خفاء فيه ، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على الممكنات والوجه الآخر أنهم لا يتكلمون بشيء لانقطاع أعضائهم وانتهاك أستارهم فيقفون ناكس الرأس وقوف القنوط اليؤوس لا يجد عذراً فيعتذرو ولا مجال توبة فيستغفر ، وتكلم الأيدي ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار حتى تنطق به الأيدي والأبصار ، كما يقول القائل : الحيطان تبكي على صاحب الدار ، إشارة إلى ظهور الحزن ، والأول الصحيح وفيه لطائف لفظية ومعنوية .

أما اللفظية (فالأولى منها) هي أن الله تعالى أسند فعل الختم إلى نفسه وقال (نختم) وأسند

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِضِيًّا وَلَا يُرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل ، لأنه لو قال تعالى (نختم على أفواههم) وتنطق أيديهم يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبراً وقهراً والإقرار بالإجبار غير مقبول فقال تعالى (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) أي باختيارها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم (الثانية) منها هي أن الله تعالى قال (تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) جعل الشهادة للأرجل والكلام للأيدي لأن الأفعال تسند إلى الأيدي قال تعالى (وما عملته أيديهم) أي ما عملوه وقال (ولا تلقوا بأيديكم) أي ولا تلقوا بأنفسكم فإذا الأيدي كالعامة ، والشاهد على العامل ينبغي أن يكون غيره فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود لبعد إضافة الأفعال إليها ، وأما المعنوية (فالأولى) منها أن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة ، وإن كان من الشهود العدول وغير الصديقين من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة فجعل الله الشاهد عليهم منهم ، لا يقال الأيدي والأرجل أيضاً صدرت الذنوب منها فهي فسقة فينبغي أن لا تقبل شهادتها ، لآنا نقول في رد شهادتها قبول شهادتها ، لأنها إن كذبت في مثل ذلك اليوم فقد صدر الذنب منها في ذلك اليوم ، والمذنب في ذلك اليوم مع ظهور الأمور ، لا بد من أن يكون مذنباً في الدنيا ، وإن صدقت في ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب في الدنيا ، وهذا كمن قال لفاسق: إن كذبت في نهار هذا اليوم فعبدى حر ، فقال الفاسق: كذبت في نهار هذا اليوم عتق العبد ، لأنه إن صدق في قوله كذبت في نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووجب الجزاء ، وإن كذب في قوله كذبت فقد كذب في نهار ذلك اليوم ، فوجد الشرط أيضاً بخلاف ما لو قال في اليوم الثاني كذبت في نهار اليوم الذي علقت عتق عبدك على كذبي فيه .

(المسألة الثانية) الختم لازم الكفار في الدنيا على قلوبهم وفي الآخرة على أفواههم ، ففي الوقت الذي كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم ، كما قال تعالى (ذلك قولهم بأفواههم) فلبس ختم على أفواههم أيضاً لزم أن يكون قولهم بأعضائهم ، لأن الإنسان لا يملك غير القلب واللسان والأعضاء ، فاذا لم يبق القلب والفم تعين الجوارح والأركان .

ثم قال تعالى ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكاتبتهم فما استطاعوا مضيّاً ولا يرجعون ﴾

قد ذكرنا مراراً أن الصراط المستقيم هو بين الجبر والقدر وهو الطريقة الوسطى ، والله تعالى في كل موضع ذكر ما يتمسك به المجبرة ذكر عقبيه ما يتمسك به القدرية وبالعكس ، وههنا

وَمِنْ نِعْمِهِ نَنكَسُهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

كذلك لما قال الله تعالى (وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقال (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) وكان ذلك متمسك القدرية حيث أسند الله الكفر والكسب إليهم وأحال الخير وانشر عليهم ، ذكر عقبيه ما يدل على أن كفرهم وكسبهم بمشيئة الله ، وذلك لأن الكفر يعنى البصيرة ويضعف القوة العقلية ، وعمى البصيرة بإرادة الله ومشئته ، إذا شاء أعمى البصائر ، كما أنه لو شاء لطمس على أعينهم المبصرة ، وسلب القوة العقلية باختياره ومشئته ، كما أن سلب القوة الجسمية بمشيئته ، حتى لو شاء لمسح المكلف على مكانته وأقامه بحيث لا يتحرك يمنة ولا يسرة ، ولا يقدر على المضى والرجوع ، فأعماء البصائر عنده كإعماء الأبصار ، وسلب القوة العقلية كسلب القوة الجسمية ، فقال (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) إشارة إلى أنه لو شاء وأراد إعماء بصائرهم فضلوا ، وأنه لو شاء طمس أعينهم لما اهتمدوا إلى طريقهم الظاهرة ، وشاء واختار سلب قوة عقولهم فزلوا ، وأنه لو شاء سلب قوة أجسامهم ومسخرهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر . وفي الآيتين أبحاث لفظية :

(البحث الأول) في قوله (فاستبقوا الصراط) قال الزمخشري فيه وجوه (الأول) أنه يكون فيه حذف حرف إلى واتصال الفعل من غير حرف وأصله فاستبقوا إلى الصراط (الثانى) أن يكون المراد من الاستباق الابتداء فأعمله أعمال الابتداء (الثالث) أن يجعل الصراط مستبقاً لا مستبقاً إليه ، يقال استبقنا فسبقتم وحينئذ يكون مبالغة في الاهتداء إلى الطريق ، كأنه يقول الصراط الذى هو معهم ليسوا طالبين له قاصدين إياه ، وإنما هم عليه إذا طمس الله على أعينهم لا يبصرونه ، فكيف إن لم يكونوا على الصراط .

(البحث الثانى) قدم الطمس والإعماء على المسخ والإعجاز ليكون الكلام مدرجاً ، كأنه قال إن أعماهم لم يروا الطريق الذى هم عليه وحينئذ لا يهتدون إليه ، فان قال قائل الأعمى قد يهتدى إلى الطريق بأمارات عقلية أو حسية غير حس البصر كالأصوات والمشى بحس اللمس ، فارتقى وقال فلو مسخرهم وسلب قوتهم بالسكينة لا يهتدون إلى الصراط بوجه من الوجوه .

(البحث الثالث) قدم المضى على الرجوع ، لأن الرجوع أهون من المضى ، لأن المضى لا يبنى عن سلوك الطريق من قبل ، وأما الرجوع فيبنى عنه ، ولا شك أن سلوك طريق قد رؤى مرة أهون من سلوك طريق لم ير فقال (لا يستطيعون مضياً) ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذى هو أهون من المضى .

ثم قال تعالى (ومن نعمة ننكسه في الخلق أفلا يعقلون)

فقد ذكرنا أن قوله تعالى (ألم أعهد إليكم) قطع للأعداء بسبق الإنذار ، ثم لما قرر ذلك

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾

وأتمه شرع في قطع عذر آخر ، وهو أن الكافر يقول لم يكن لبثنا في الدنيا إلا يسيراً ، ولو عمرتنا لما وجدت منا تقصيراً ، فقال الله تعالى (أفلا تعقلون) أنكم كلما دخلتم في السن ضعفتكم وقد عمرناكم مقدار ما تتمكنون من البحث والإدراك ، كما قال تعالى (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ثم إنكم علمتم أن الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم فضعفتم زمان الإمكان ، فلو عمرناكم أكثر من ذلك لكان بعده زمان الإزمان ، ومن لم يأت بالواجب زمان الإمكان ما كان يأتي به زمان الإزمان .

ثم قال تعالى ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ في الترتيب وجهان ، قد ذكرنا أن الله في كل موضع ذكر أصلين من الأصول الثلاثة ، وهي الوجدانية والرسالة والحشر ، ذكر الأصل الثالث منها ، وههنا ذكر الأصلين الوجدانية والحشر ، أما الوجدانية ففي قوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان) وفي قوله (وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) وأما الحشر ففي قوله تعالى (اصلوها اليوم) وفي قوله (اليوم نختم على أفواههم) إلى غير ذلك ، فلما ذكرهما وبينهما ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة فقال (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) وقوله (وما علمناه الشعر) إشارة إلى أنه معلم من عند الله فعله ما أراد ولم يعلمه ما لم يرد ، وفي تفسير الآية مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ خص الشعر بنفي التعليم ، مع أن الكفار كانوا ينسبون إلى النبي ﷺ أشياء من جملتها السحر ، ولم يقل وما علمناه السحر وكذلك كانوا ينسبونه إلى الكهانة ، ولم يقل وما علمناه الكهانة ، فنقول أما الكهانة فكانوا ينسبون النبي ﷺ إليها عندما كان يخبر عن الغيوب ويكون كما يقول . وأما السحر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكلم الحصى والجذع وغير ذلك . وأما الشعر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدى إلا بالقرآن ، كما قال تعالى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) إلى غير ذلك ، ولم يقل إن كنتم في شك من رسالتي فأنطقوا الجذوع أو أشبعوا الخلق العظيم أو أخبروا بالغيوب ، فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه إلى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفي التعليم .

﴿ البحث الثاني ﴾ ما معنى قوله (وما ينبغي له) ؟ قلنا قال قوم ما كان يتأتى له ، وآخرون ما يتسهل له حتى أنه إن تمثل بيت شعر سمع منه مزاحفاً يروى أنه كان يقول صلى الله عليه وسلم « ويأتيك من لم تزود بالأخبار (١) » . (وفيه وجه) أحسن من ذلك وهو أن يحمل ما ينبغي له على مفهومه الظاهر وهو أن الشعر ما كان يليق به ولا يصلح له ، وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير

(١) وأصل البيت : ويأتيك بالأخبار من لم تزود . فقد أخرجه التفسير عن الوزن الشعري .

لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ، فالشارع يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى ، والشاعر يكون المعنى منه تبعاً للفظ ، لأنه يقصد لفظاً به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ ، وعلى هذا نقول : الشعر هو الكلام الموزون الذي قصد إلى وزنه قصداً أولاً ، وأما من يقصد المعنى فيصدر موزوناً مقفى فلا يكون شاعراً ، ألا ترى إلى قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ليس بشعر ، والشاعر إذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعدد ما في الآية تقطيعه بفاعلاتن فاعلاتن يكون شعراً لأنه قصد الإتيان بالألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك والمعنى تبعه ، والحكيم قصد المعنى فجاء على تلك الألفاظ ، وعلى هذا يحصل الجواب عن قول من يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر بيت شعر وهو قوله :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

أو بيتين لأننا نقول ذلك ليس بشعر لعدم قصده إلى الوزن والقافية ، وعلى هذا لو صدر من النبي صلى الله عليه وسلم كلام كثير موزون مقفى لا يكون شعراً ، لعدم قصده اللفظ قصداً أهلياً ، ويؤيد ما ذكرنا أنك إذا تتبعت كلام الناس في الأسواق تجد فيه ما يكون موزوناً واقعاً في بحر من بحور الشعر ولا يسمى المتكلم به شاعراً ولا الكلام شعراً لفقد القصد إلى اللفظ أولاً ، ثم قوله تعالى (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) يحقق ذلك المعنى أي هو ذكر وموعظة للقصد إلى المعنى ، والشعر لفظ مزخرف بالقافية والوزن (وههنا لطيفة) وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من الشعر لحكمة » يعنى قد يقصد الشاعر اللفظ فيوافقه معنى حكيم كما أن الحكيم قد يقصد معنى فيوافقه وزن شعري ، لكن الحكيم بسبب ذلك الوزن لا يصير شاعراً والشاعر بسبب ذلك الذكر يصير حكيماً حيث سمى النبي ﷺ شعره حكمة ، ونفى الله كون النبي شاعراً ، وذلك لأن اللفظ قالب المعنى والمعنى قلب اللفظ وروحه فاذا وجد القلب لا نظر إلى القالب . فيكون الحكيم الموزون كلامه حكيماً ، ولا يخرج عن الحكمة وزن كلامه ، والشاعر الموعظ كلامه حكيماً .

ثم قال تعالى ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ .

قرئ بالتاء والياء ، بالتاء خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم وبالياء على وجهين (أحدهما) أن يكون المنذر هو النبي صلى الله عليه وسلم حيث سبق ذكره في قوله (وما علمناه) وقوله (وما ينبغي له) . (وثانيهما) أن يكون المراد أن القرآن ينذر والأول أقرب إلى المعنى (والثاني) أقرب إلى اللفظ ، أما الأول فلأن المنذر صفة للرسول أكثر وروداً من المنذر صفة للكتب (وأما الثاني) فلأن القرآن أقرب المذكورين إلى قوله (لينذر) وقوله (من كان حياً) أي من

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾
 وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَنَّاعٌ وَمَشَارِبٌ
 أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

كان حى القلب ، ويحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد من كان حياً فى علم الله فينذره به
 فيؤمن (الثانى) أن يكون المراد لينذر به من كان حياً فى نفس الأمر ، أى من آمن فينذره بما
 على المعاصى من العقاب وبما على الطاعة من الثواب (ويحق القول على الكافرين) أما قول
 العذاب وكلمته كما قال تعالى (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)
 وقوله تعالى (حقت كلمة العذاب) وذلك لأن الله تعالى قال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)
 فإذا جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب ، وأما القول المقول فى الوجدانية والرسالة
 والحشر وسائر المسائل الأصولية الدينية فان القرآن فيه ذكر الدلائل التى بها تثبت المطالب .
 ثم إنه تعالى أعاد الوجدانية ودلائل دالة عليها فقال تعالى ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم بما عملت أيدينا
 أنعاماً ﴾ أى من جملة ما عملت أيدينا أى ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وإرادتنا .
 وقوله تعالى ﴿ فهم لها مالكون ﴾ إشارة إلى إتمام الإنعام فى خلق الأنعام ، فانه تعالى لو
 خلقها ولم يملكها الإنسان ما كان ينتفع بها .

وقوله ﴿ وذلّلناها لهم ﴾ زيادة إنعام فإن المملوك إذا كان آياً متمرداً لا ينفع ، فلو كان
 الإنسان يملك الأنعام وهى نادة صادة لما تم الإنعام الذى فى الركوب وإن كان يحصل الآكل
 كما فى الحيوانات الوحشية ، بل ما كان يكمل نعمة الآكل أيضاً إلا بالتعب الذى فى الاصطياد ،
 ولعل ذلك لا يتهيأ [إلا] (١) للبعض وفى البعض .

وقوله تعالى ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ بيان لمنفعة التذليل إذ لولا التذليل لما وجدت
 إحدى المنفعتين وكانت الأخرى قليلة الوجود .

ثم بين تعالى غير الركوب والآكل من الفوائد بقوله تعالى ﴿ ولهم فيها منافع ومشارب ﴾ وذلك
 لأن من الحيوانات ما لا يركب كالغنم فقال منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة ، إن قلنا بأن المراد
 جمع مشرب وهو الآنية فان من الجلود ما يتخذ أوانى للشرب والأدوات من القرب [وغيرها] ، وإن
 قلنا إن المراد المشروب وهو الألبان والأسمان فهى مختصة بالإناث ولكن بسبب الذكور فان
 ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والإناث .

ثم قال تعالى ﴿ أفلا يشكرون ﴾ هذه النعم التى توجب العبادة شكراً ، ولو شكرتم لزيدكم

(١) ما بين المربعين زيادة اقتضاهما السياق .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ
وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ

من فضله ، ولو كفرتم لسلبها منكم ، فما قولكم ، أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها ؟
ثم قال تعالى ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلمهم ينصرون ﴾ إشارة إلى بيان زيادة ضلالهم
ونهايتها ، فإنهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكراً لأنعمه ، فتركوها وأقبلوا على عبادة من
لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصره مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم (حرقوه وانصروا
آلهتكم) وفي الحقيقة لا هي ناصرة ولا منصوره .

وقوله تعالى ﴿ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾ إشارة إلى الحشر بعد تقرير
التوحيد ، وهذا كقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون)
وقوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى
صراط الجحيم) وقوله (أولئك في العذاب محضرون) وهو يحتمل معنيين (أحدهما) أن
يكون العابدون جنداً لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا (الثاني) أن يكون الأصنام جنداً للعابدين ، وعلى
هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال (لا يستطيعون نصرهم) أكدها بأنهم لا يستطيعون
نصرهم حال ما يكونون جنداً لهم ومحضرون لنصرتهم فان ذلك دال على عدم الإستطاعة ، فان من حضر
واجتمع ثم عجز عن النصره يكون في غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهباً ولم يجمع أنصاره .
وقوله تعالى ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ إشارة إلى الرسالة لأن الخطاب معه بما يوجب تسليته
قلبه دليل اجتنائه واختياره إياه .

وقوله تعالى ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون ذلك تهديداً
للمنافقين والكافرين فقوله (ما يسرون) من النفاق (وما يعلنون) من الشرك (والثاني) ما يسرون من
العلم بك وما يعلنون من الكفر بك (الثالث) ما يسرون من العقائد الفاسدة وما يعلنون من الأفعال القبيحة .
ثم إنه تعالى لما ذكر دليلاً من الآفاق على وجوب عبادته بقوله (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما
عملت أيدينا أنعاماً) ذكر دليلاً من الأنفس .

فقال ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ قيل إن المراد بالإنسان أبي بن خلف فان
الآية وردت فيه حيث أخذ عظامه بالياً وأتى النبي ﷺ وقال إنك تقول إن إلهك يحيي هذه العظام
فقال رسول الله ﷺ نعم ويدخلك جهنم ، وقد ثبت في أصول الفقه أن الاعتبار بعموم اللفظ

فَاذَا هُوَ خَصِيمٌ مَّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ

لا بخصوص السبب ، ألا ترى أن قوله تعالى (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) نزلت في واحدة وأراد الكل في الحكم فكذلك كل إنسان ينكر الله أو الخشر فهذه الآية رد عليه إذا علمت عمومها فنقول فيها لطائف :

(اللطيفة الأولى) قوله (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا) معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة ، أو لم يروا خلق الأنعام لهم وعلى هذا فقوله تعالى (أو لم ير الإنسان) كلام أعم من قوله (أو لم يروا) لأنه مع جنس الإنسان وهو مع جمع منهم فنقول سبب ذلك أن دليل الأنفس أشمل وأكمل وأتم وألزم ، فإن الإنسان قد يغفل عن الإنعام وخلقها عند غيبتها ولكن [لا يغفل] هو مع نفسه متى ما يكون وأينما يكون . فقال : إن غاب عن الحيوان وخلقها فهو لا يعيب عن نفسه ، فما باله أو لم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة ، فإن سائر النعم بعد وجوده وقوله (من نطفة) إشارة إلى وجه الدلالة ، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو ، وكذلك الحال في كل عضو ، ولما كان خلقه عن نطفة متشابهة الأجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة وإلى هذا أشار بقوله تعالى (يسقى بماء واحد) .

وقوله ﴿ فاذا هو خصيم مبين ﴾ (فيه لطيفة) غريبة وهي أنه تعالى قال اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهناك ما هو أظهور وهو نطقه وفهمه ، وذلك لأن النطفة جسم ، فبأن جاهلاً يقول إنه استحال وتكون جسماً آخر ، لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما النطفة ؟ فإبداع النطق والفهم أعجب وأغرب من إبداع الخلق والجسم وهو إلى إدراك القدرة والاختيار منه أقرب فقوله (خصيم) أي ناطق وإنما ذكر الخصيم مكان الناطق لأنه أعلى أحوال الناطق ، فإن الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره ، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصماً لا يبين ولا يجتهد مثل ما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه وقوله (مبين) إشارة إلى قوة عقله ، واختار الإبانة لأن العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه ، لأن المبين بان عنده الشيء ثم أبانه فقوله تعالى (من نطفة) إشارة إلى أدنى ما كان عليه وقوله (خصيم مبين) إشارة إلى أعلى ما حصل عليه وهذا مثل قوله تعالى (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) إلى أن قال تعالى (ثم أنشأناه خلقاً آخر) فما تقدم من خلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظماً إشارة إلى التغيرات في الجسم وقوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) إشارة إلى ما أشار إليه بقوله (فاذا هو خصيم مبين) أي ناطق عاقل .

ثم قوله تعالى ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ﴾ إشارة إلى بيان الخشر وفي هذه الآيات إلى

قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ
بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

آخر السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الإمكان إن شاء الله تعالى ، فنقول المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلاً ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الأكثرون ، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم في كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال (وقالوا أنذا ضلنا في الأرض أننا لفي خلق جديد ، أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون ، أئنا لمن المصدقين ، أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمدينون) إلى غير ذلك فكذلك ههنا قال ﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ على طريق الاستبعاد فبدأ أولاً بإبطال استبعادهم بقوله (ونسى خلقه) أي نسي أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم جعلنا لهم من النواصي إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجرام وهو النطق والعقل الذين [إن] بهما استحقوا الإكرام فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قدرة لم تكن محل الحياة أصلاً ، ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانوا فيه ، ثم إن استبعادهم كان من جهة ما في المعاد من التفتت والتفرق حيث قالوا (من يحيي العظام وهي رميم) اختاروا العظم للذكر لأنه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلى والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما في المعيد من القدرة والعلم فقال (وضرب لنا مثلاً) أي جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب وبدأه الغريب ، ومنهم من ذكر شبهة وإن كانت في آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد وهي على وجهين (أحدهما) أنه بعد العدم لم يبق شيئاً فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود ، وأجاب عن هذه الشبهة .

بقوله تعالى ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ يعني كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً (وثانيها) أن من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه في أبدان السباع وبعضه في جدران الرباع كيف يجمع ؟ وأبعد من هذا هو أن إنساناً إذا أكل إنساناً وصار أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فإن أعيد فأجزاء المأكول ، إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه ، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء .

فقال تعالى في إبطال هذه الشبهة ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ ووجهه هو أن في الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية ، وفي المأكول كذلك ، فإذا أكل إنساناً صار الأصلي من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل والأجزاء الأصلية للآكل هي ما كان له قبل الأكل (والله بكل

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾
 أَوَّلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ
 الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

خلق عليم) يعلم الأصلي من الفضلي فيجمع الأجزاء الأصلية الآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الأجزاء الأصلية للبا كؤل وينفخ فيها روحه ، وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع ، المبددة في الاصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة .

ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وإبطال إنكارهم وعنادهم . فقال تعالى ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه ، وهي كحرارة جارية فيه فان استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه ، فان النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون ، وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فان الله خلق السموات والأرض فبان لطف قوله تعالى (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون) .

وقوله تعالى ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ قدم ذكر النار في الشجر على ذكر الخلق الأكبر ، لأن استبعادهم كان بالصریح واقعاً على الأحياء حيث قالوا (من يحيى العظام) ولم يقولوا من يجمعها ويؤلفها والنار في الشجر تناسب الحياة .

وقوله تعالى ﴿ بلى وهو الخلاق ﴾ إشار إلى أنه في القدرة كامل .

وقوله تعالى ﴿ العليم ﴾ إشارة إلى أن علمه شامل .

ثم أكد بيانه بقوله تعالى ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وهذا إظهار فساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا الله مثلاً وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا قياساً للغائب على الشاهد فقال في الشاهد الخلاق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع إلا في الأزمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون ، فكيف تضربون المثل الأدنى وله المثل الأعلى من أن يدرك . وفي الآية مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن المعدوم شيء لأنه يقول لما أراده (كن فيكون) فهو قبل القول له كن لا يكون وهو في تلك الحالة شيء حيث قال (إنما أمره إذا أراد شيئاً) والجواب أن هذا بيان لعدم تخلف الشيء عن تعلق إدارته به ، فقوله (إذا) مفهوم

الجين والوقت والآية دالة على أن المراد شيء . حين تعلق الإرادة به ولا دلالة فيها على أنه شيء . قبل ما إذا أراد وحينئذ لا يرد ما ذكره لأن الشيء . حين تعلق الإرادة به شيء . موجود لا يريد في زمان ويكون في زمان آخر بل يكون في زمان تعلق الإرادة ، فإذا الشيء . هو الموجود لا المعدوم لا يقال كيف يريد الموجود وهو موجود فيكون ذلك إيجاداً لموجود ؟ نقول هذا الإشكال من باب المعقولات ونجيب عنه في موضعه ، وإنما غرضنا إبطال تمسكهم باللفظ ، وقد ظهر أن المفهوم من هذا الكلام أنه يريد ما هو شيء . إذا أراد ، وليس في الآية أنه إذا أراد ما كان شيئاً قبل تعلق الإرادة .

(البحث الثاني) قالت الكرامية لله إرادة محدثة بدليل قوله تعالى (إذا أراد) ووجه دلالة من أمرين : (أحدهما) من حيث إنه جعل للإرادة زماناً ، فإن إذا ظرف زمان وكل ما هو زمانى فهو حادث (وثانيهما) هو أنه تعالى جعل إرادته متصلة بقوله (كن) وقوله (كن) متصل بكون الشيء . ووقوعه لأنه تعالى قال (فيكون) بفاء التعقيب لكن الكون حادث . وما قبل الحادث متصل به حادث ، والفلاسفة وافقوهم في هذا الإشكال من وجه آخر فقالوا إرادته متصلة بأمره وأمره متصل بالكون ولكن إرادته قديمة فالكون قديم فمكونات الله قديمة ، وجواب الضالين من التمسك باللفظ هو أن المفهوم من قوله (إذا أراد) من حيث اللغة إذا تعلق إرادته بالشيء لأن قوله (أراد) فعل ماض ، وإذا دخلت كلمة إذا على الماضى يجعله في معنى المستقبل ، ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد ويريد وعلم ويعلم يجوز أن يدخله الحدوث ، وإنما نقول لله تعالى صفة قديمة هي الإرادة وتلك الصفة إذا تعلق بشيء نقول أراد ويريد ، وقبل التعلق لا نقول أراد وإنما نقول له إرادة وهو بها يريد ، ولنضرب مثلاً للأفهام الضعيفة ليزول ما يقع في الأوهام السخيفة ، فنقول قولنا فلان خياط يراد به أن له صنعة الخياطة فلو لم يصح منا أن نقول إنه خاط ثوب زيد أو يخيط ثوب زيد لا يلزم منه نفي صحة قولنا إنه خياط بمعنى أن له صنعة بها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة في ثوب زيد في زمان ماض خاط ثوبه ، وبها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة في ثوب زيد في زمان مستقبل يخيط ثوبه ، والله المثل الأعلى فافهم أن الإرادة أمر ثابت إن تعلق بوجود شيء . نقول أراد وجوده أى يريد وجوده ، وإذا علمت هذا فهو في المعنى من كلام أهل السنة تعلق الإرادة حادث وخرج بما ذكرنا جواب الفريقين .

(البحث الثالث) قالت المعتزلة والكرامية كلام الله حرف وصوت وحادث لأن قوله (كن) كلام (وكن) من حرفين ، والحرف من الصوت ، ويلزم من هذا أن كلامه من الحروف والأصوات ، وأما أنه حادث فلما تقدم من الوجهين : (أحدهما) أنه زمانى (والثانى) أنه متصل بالكون والكون حادث ، والجواب يعلم مما ذكرنا ، وذلك لأن الكلام صفة إذا تعلق بشيء . تقول قال ويقول فتعلق الخطاب حادث والكلام قديم فقوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فيه تعلق وإضافة لأن قوله تعالى (يقول له) باللام للإضافة صريح في التعلق

فَسَبِّحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

ونحن نقول إن قوله للشئ الحادث حادث لأنه مع التعلق ، وإنما القديم قوله وكلامه لامع التعلق وكل قديم وحادث إذا نظرت إلى مجموعهما لا تجدهما في الأزل وإنما تجدهما جميعاً فيما لا يزال فله معنى الحدوث ولكن الإطلاق موهم ، فتفكر جداً ولا تقل المجموع حادث من غير بيان مرادك ، فان ذلك قد يفهم منه أن الجميع حادث ، بل حقق الإشارة وجود العبارة وقل أحد طرفي المجموع قديم والآخر حادث ولم يكن الآخر معه في الأزل ، وأما قوله (كن) من الحروف ، نقول الكلام يطلق على معنيين (أحدهما) ما عند المتكلم (والثاني) ما عند السامع ، ثم إن أحدهما يطلق عليه أنه هو الآخر ومن هذا يظهر فوائد . أما بيان ما ذكرناه ، فلأن الإنسان إذا قال لغيره عندي كلام أريد أن أقوله لك غداً ، ثم إن السامع أتاه غداً وسأله عن الكلام الذي كان عنده أمس ، فيقول له إنى أريد أن تحضر عندي اليوم ، فهذا الكلام أطلق عليه المتكلم أنه كان عندك أمس ولم يكن عند السامع ، ثم حصل عند السامع بحرف وصوت ويطلق عليه أن هذا الذي سمعت هو الذي كان عندي ، ويعلم كل عاقل أن الصوت لم يكن عند المتكلم أمس ولا الحرف ، لأن الكلام الذي عنده جاز أن يذكره بالعربي فيكون له حروف ، وجاز أن يذكره بالفارسية فيكون له حروف آخر ، والكلام الذي عنده ووعده به واحد والحروف مختلفة كثيرة ، فإذا معنى قوله هذا ما كان عندي ، هو أن هذا يؤدي إليك ما كان عندي ، وهذا أيضاً مجاز ، لأن الذي عنده ما انتقل إليه ، وإنما علم ذلك وحصل عنده به علم مستفاد من السمع أو البصر في القراءة والكتابة أو الإشارة ، إذا علمت هذا فالكلام الذي عند الله وصفة له ليس بحرف على ما بان ، والذي يحصل عند السامع حرف وصوت وأحدهما الآخر لما ذكرنا من المعنى وتوسع الإطلاق ، فإذا قال تعالى (يقول له) حصل قائل و سامع . فاعتبرها من جانب السامع لكون وجود الفعل من السامع لذلك القول فعبر عنه بالكاف والنون الذي يحدث عند السامع ويحدث به المطلوب .

ثم قال تعالى ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾
لما تقررت الوجدانية والاعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة ، قال تعالى وتنزه عن الشريك (الذي بيده ملكوت كل شيء) وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكاً ، وقالوا بأن الإعادة لا تكون ، فقال (وإليه ترجعون) رداً عليهم في الأمرين ، وقد ذكرنا ما يتعلق بالنحو في قوله : سبحان ، أي سبحوا تسبيح الذي أو سبح من في السموات والأرض تسبيح الذي (فسبحان) علم للتسبيح ، والتسبيح هو التنزيه ، والمملكة ملكوت مبالغة في الملك كالرحمت والرهبت ، وهو فعلول أو فعلوت فيه كلام ، ومن قال هو فعلول جعلوه ملحقاً به .

ثم إن النبي ﷺ قال « إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس » وقال الغزالي فيه : إن ذلك لأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر ، والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه ، فجعله قلب القرآن لذلك ، واستحسنه فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى (١) سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين فابتدأها ببيان الرسالة بقوله (إنك لمن المرسلين) ودليلها ما قدمه عليها بقوله (والقرآن الحكيم) وما أخره عنها بقوله (لتتذروا ما) وانتهأؤها ببيان الوحدانية والحشر بقوله (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء) إشارة إلى التوحيد ، وقوله (وإليه ترجعون) إشارة إلى الحشر ، وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه ، ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذي بالجنان . وأما وظيفة اللسان التي هي القول فكما في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً) وفي قوله تعالى (ومن أحسن قولا) وقوله تعالى (بالقول الثابت ، وألزمهم كلمة التقوى ، وإليه يصعد الكلم الطيب) إلى غير هذه مما في غير هذه السورة ووظيفة الأركان وهو العمل ، كما في قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقوله تعالى (ولا تقربوا الزنا . . . ولا تقتلوا النفس) وقوله (واعملوا صالحاً) وأيضاً مما في غير هذه السورة ، فلما لم يكن فيها إلا أعمال القلب لا غير سماها قلباً ، ولهذا ورد في الأخبار أن النبي ﷺ نذب إلى تلقين يس لمن دنا منه الموت ، وقرامتها عند رأسه ، لأن في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة ، والأعضاء الظاهرة ساقطة البنية ، لكن القلب يكون قد أقبل على الله ورجع عن كل ما سواه ، فيقرأ عند رأسه ما يزداد به قوة قلبه ، ويشهد تصديقه بالأصول الثلاثة وهي شفاء له وأسرار كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ لا يعلمها إلا الله ورسوله ، وما ذكرناه ظن لا نقطع به ، ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين .

تم تفسير هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين .

(١) قوله ، واستحسنه فخر الدين الرازي إلخ ، يفيد أن المتكلم غير المؤلف ، فلهذا هذا الكلام زيادة علق بها تلميذ المؤلف رحمه الله

﴿سورة الصافات﴾

(مائة واثنان وثمانون آية مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا «١» فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا «٢» فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا «٣» إِنَّ
إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ «٤» رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ «٥»

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿والصافات صفاً ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً ، إن إلهكم لواحد ، رب السموات
والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾ وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ أبو عمرو وحمة (والصافات صفاً) بإدغام التاء فيما يليه ، وكذلك
في قوله (فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً) والباقون بالإظهار ، وقال الواحدى رحمه الله :
إدغام التاء في الصاد حسن لمقاربة الحرفين ، ألا ترى أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا
يسمعان في الهمس ، والمدغم فيه يزيد على المدغم بالإطباق والصفير ، وإدغام الأنقص في الأزيد
حسن ، ولا يجوز أن يدغم الأزيد صوتاً في الأنقص ، وأيضاً إدغام التاء في الزاى في قوله
(فالزاجرات زجراً) حسن لأن التاء مهموسة والزاى مجهورة وفيها زيادة صفير كما كان في الصاد ،
وأيضاً حسن إدغام التاء في الذال في قوله (فالتاليات ذكراً) لاتفاقهما في أنهما من طرف اللسان
وأصول الثنايا ، وأما من قرأ بالإظهار وترك الإدغام فذلك لاختلاف المخارج والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ في هذه الأشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل أن تكون صفات
ثلاثة لموصوف واحد ، ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة ، أما على التقدير الأول ففيه
وجوه (الأول) أنها صفات الملائكة ، وتقديره أن الملائكة يقفون صفوفاً . إما في السموات لأداء
العبادات كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا (وإنا لنحن الصافون) وقيل إلهم يصفون أجنحتهم في الهواء
يقفون منتظرين وصول أمر الله إليهم ، ويحتمل أيضاً أن يقال معنى كونهم صفوفاً أن لكل واحد
منهم مرتبة معينة ودرجة معينة في الشرف والفضيلة أو في الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة
باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف .

وأما قوله (فالزاجرات زجراً) فقال الليث يقال زجرت البعير فأنا أزجره زجراً إذا حثثته
ليمضى ، وزجرت فلاناً عن سوء فأنزجر أى نهيته فأنهى ، فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللإنسان

كالنهي ، إذا عرفت هذا فنقول في وصف الملائكة بالزجر وجوه (الأول) قال ابن عباس يريد الملائكة الذي وكلوا بالسحاب يزجرونها بمعنى أنهم يأتون بها من موضع إلى موضع (الثاني) المراد منه أن الملائكة لهم تأثيرات في قلوب بني آدم على سبيل الإلهامات فهم يزجرونهم عن المعاصي زجراً (الثالث) لعل الملائكة أيضاً يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم بالشرب والإيذاء ، وأقول قد ثبت في العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الأثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الموجودات ومتأثر لا يؤثر وهم عالم الأجسام وهو أخس الموجودات وموجود يؤثر في شيء ويتأثر عن شيء آخر وهو عالم الأرواح وذلك لأنها تقبل الأثر عن عالم كبرياء الله ، ثم إنها تؤثر في عالم الأجسام ، واعلم أن الجهة التي باعتبارها تقبل الأثر من عالم كبرياء الله غير الجهة التي باعتبارها تستولى على عالم الأجسام وتتدر على التصرف فيها وقوله (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى الأشرف من الجهة التي باعتبارها تقوى على التأثير في عالم الأجسام إذا عرفت هذا فقوله (والصفات صفاء) إشارة إلى وقوفها صفاء صفاء في مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهي الجهة التي باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الأنوار الإلهية والكجالات الصمدية وقوله تعالى (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى تأثير الجواهر الملكية في تنوير الأرواح القدسية البشرية وإخراجها من القوة إلى الفعل ، وذلك لما ثبت أن هذه الأرواح النطقية البشرية بالنسبة إلى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة إلى البحر وكالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، وأن هذه الأرواح البشرية إنما تنتقل من القوة إلى الفعل في المعارف الإلهية والكجالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) وقوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقوله تعالى (فالمنقيات ذكراً) إذا عرفت هذا فنقول في هذه الآية دقيقة أخرى وهي أن الكمال المطلق للشيء إنما يحصل إذا كان تاماً وفوق التام والمراد بكونه تاماً أن تحصل جميع الكجالات اللائقة به حصولاً بالفعل والمراد بكونه فوق التام أن تفيض منه أصناف الكجالات والسعادات على غيره ، ومن المعلوم أن كونه كاملاً في ذاته مقدم على كونه مكملاً لغيره ، إذا عرفت هذا فقوله (والصفات صفاء) إشارة إلى استكمال جواهر الملائكة في ذواتها وقت وقوفها في مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة وقوله تعالى (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إزالة ما لا ينبغي عن جواهر الأرواح البشرية وقوله تعالى (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إفاضة الجلايا القدسية والأنوار الإلهية على الأرواح الناطقة البشرية ، فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الألفاظ الثلاثة ، قال أبو مسلم الأصفهاني لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرءون عن هذه الصفة ، والجواب من وجهين (الأول) أن الصفات جمع الجمع فإنه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صفات (والثاني) أنهم مبرءون عن التأنيث المعنوي ، أما التأنيث في

اللفظ فلا ، وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة في هذا الوجه (الثاني) أن تحمل هذه الصفات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الأرض وبيانهم من وجهين (الأول) أن قوله تعالى (والصفات صفاء) المراد الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى قراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن إلقاء الوسوس في قلوبهم في أثناء الصلاة وقوله (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى قراءة القرآن في الصلاة وقيل (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت ، روى أنه ﷺ طاف على بيوت أصحابه في الليالي فسمع أبا بكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع فسأل أبا بكر لم تقرأ هكذا؟ فقال المعبود سميع عليم وسأل عمر لم تقرأ هكذا فقال أوقف الوسنان وأطرد الشيطان (الوجه الثاني) في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة في هذه الآية أن المراد من قوله (والصفات صفاء) الصفوف الحاصلة من العلماء المحققين الذين يدعون إلى دين الله تعالى والمراد من قوله (والزاجرات زجراً) اشتغالهم بالزجر عن الشهوات والشهوات ، والمراد من قوله تعالى (فالتاليات ذكراً) اشتغالهم بالدعوة إلى دين الله والترغيب في العمل بشرائع الله (الوجه الثالث) في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نعملها على أحوال الغزاة والمجاهدين في سبيل الله فقوله (والصفات صفاء) المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاء) وأما (الزاجرات زجراً) فالزجرة والصيحة سواء ، والمراد منه رفع الصوت بزجر الخيل ، وأما (التاليات ذكراً) فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهن في محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله تعالى بالتهليل والتقديس (الوجه الرابع) في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نجعلها صفات لآيات القرآن فقوله (والصفات صفاء) المراد آيات القرآن فإنها أنواع مختلفة بعضها في دلائل التوحيد وبعضها في دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها في دلائل النبوة وبعضها في دلائل المعاد وبعضها في بيان التكاليف والأحكام وبعضها في تعليم الأخلاق الفاضلة ، وهذه الآيات مرتبة ترتيباً لا يتغير ولا يتبدل فهذه الآيات تشبه أشخاصاً واقفين في صفوف معينة وقوله (فالزاجرات زجراً) المراد منه الآيات الزاجرة عن الأفعال المنكرة وقوله (فالتاليات ذكراً) المراد منه الآيات الدالة على وجوب الإقدام على أعمال البر والخير وصف الآيات بكونها تالية على قانون ما يقال شعر شاعر وكلام قائل قال تعالى (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) وقال (يس والقرآن الحكيم) قيل الحكيم بمعنى الحاكم فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير أن تجعل هذه الألفاظ الثلاثة صفات لشيء واحد (وأما الاحتمال الثاني) وهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة أشياء متغايرة فقيل المراد بقوله (والصفات صفاء) الطير من قوله تعالى (والطيير صفات) (والزاجرات) كل ما زجر عن معاصي الله (والتاليات) كل ما يتلى من كتاب الله وأقول فيه

وجه آخر وهو أن مخلوقات الله إما جسمانية وإما روحانية ، أما الجسمانية فإنها مرتبة على طبقات ودرجات لا تتغير البتة ، فالأرض وسط العالم وهي محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء ، والهواء محفوف بالنار ، ثم هذه الأربعة محفوفة بكرات الأفلاك إلى آخر العالم الجسماني فهذه الأجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى ، وأما الجواهر الروحانية فهي على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة في صفتين أحدهما التأثير في عالم الأجسام بالتحريك والتصريف وإليه الإشارة بقوله (فالزاجرات زجراً) فإنا قد بينا أن المراد من هذا الزجر السوق والتحريك ، والثاني الإدراك والمعرفة والاستغراق في معرفة الله تعالى والثناء عليه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (فالتاليات ذكراً) ولما كان الجسم أدنى منزلة من الأرواح المستقلة فالتصرف في الجسمانيات أدون منزلة من الأرواح المستغرقة في معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) لاجرم بدأ في المرتبة الأولى بذكر الأجسام فقال (والصفات صفاء) ثم ذكر في المرتبة الثانية الأرواح المدبرة لأجسام هذا العالم ثم ذكر في هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهي الأرواح المقدسة المتوجهة بكليتها إلى معرفة جلال الله والاستغراق في الثناء عليه ، فهذه احتمالات خطرت بالبال ، والعالم بأسرار كلام الله تعالى ليس إلا الله .

(المسألة الثالثة) للناس في هذا الموضع قولان (الأول) قول من يقول المقسم به ههنا خالق هذه الأشياء لا أعيان هذه الأشياء ، واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله (والثاني) أن الحلف بالشئ في مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به ، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله . (والثالث) أن هذا الذي ذكرناه تأكد بما أنه تعالى صرح به في بعض السور وهو قوله تعالى (والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها) ، (والقول الثاني) قول من يقول إن القسم واقع بأعيان هذه الأشياء واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أن القسم وقع بهذه الأشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل (والثاني) أنه تعالى قال (والسماء وما بناها) فعلق لفظ القسم بالسماء ، ثم عطف عليه القسم بالبانى للسماء ، فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد وأنه لا يجوز (الثالث) أنه لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم من الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها ، لا سيما إذا حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فإنه تكون الحكمة في القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها والله أعلم ، فإن قيل ذكر الحلف في هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه (الأول) أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر والأول باطل لأن المؤمن مقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل ، فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات

(الثاني) أنه تعالى حلف في أول هذه السورة على أن الإله واحد ، وحلف في أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال (والذاريات ذروا) إلى قوله (إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع) وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء ، والجواب من وجوه (الأول) أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية ، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيداً لما تقدم لاسيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (والوجه الثاني) في الجواب أنه تعالى لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى (إن إلهكم لواحد) ذكر عقبيه ما هو كالدليل اليقيني في كون الإله واحداً ، وهو قوله تعالى (رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) وذلك لأنه تعالى بين في قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أن انتظام أحوال السموات والارض يدل على أن الإله واحد ، فهنا لما قال (إن إلهكم لواحد) أردفه بقوله (رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) كأنه قيل قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم يدل على كون الإله واحداً فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد (الوجه الثالث) في الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله مثل هذه الحجة والله أعلم .

(المسألة الرابعة) أما دلالة أحوال السموات والارض على وجود الإله القادر العالم الحكيم ، وعلى كونه واحداً منزهاً عن الشريك فقد سبق تقريرها في هذا الكتاب مراراً وأطواراً وأما قوله تعالى (ورب المشارق) فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدي المشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب فإنه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم في مغرب ، ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لأن لكل كوكب مشرقاً ومغرباً ، فإن قيل لم اكتفى بذكر المشارق ؟ قلنا لوجهين (الأول) أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله (تقيمكم الحر) والثاني أن الشرق أقوى حالا من الغروب وأكثر نفعاً من الغروب فذكر الشرق تنبيهاً على كثرة إحسان الله تعالى على عباده ، ولهذا الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق) .

(المسألة الخامسة) احتج الأصحاب بقوله تعالى (رب السموات والارض وما بينهما) على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد ، قالوا لأن أعمال العباد موجودة فيما بين السموات والارض ، وهذه الآية دالة على أن كل ما حصل بين السموات والارض فإله ربه ومالكه ، فهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلاق الله ، وإن قالوا الأعراض لا يصح وصفها بأنها حصلت بين السموات والارض لأن هذا الوصف إنما يليق بما يكون حاصلاً في حيز وجهة والأعراض ليست كذلك ، قلنا إنما لما

إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ «٦» وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ
 «٧» لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ «٨» دَحُورًا وَلَهُمْ
 عَذَابٌ وَاصِبٌ «٩» إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ «١٠»

كانت حاصلة في الأجسام الحاصلة بين السموات والأرض فهي أيضاً حاصلة بين السماء والأرض
 ثم قال تعالى ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون
 إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحوراً ولهم عذاب واصل ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه
 شهاب ثاقب ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم زينة منونة الكواكب بالجر وهو قراءة
 مسروق بن الأجدع ، قال الفراء وهورد معرفة على نكرة كما قال (بالناصية ناصية) فرد نكرة على
 معرفة وقال الزجاج الكواكب بدل من الزينة ، لأنها هي كما تقول مررت بأبي عبد الله زيد . وقرأ
 عاصم بالتثنية في الزينة ونصب الكواكب قال الفراء يريد زينا الكواكب ، وقال الزجاج يجوز
 أن تكون الكواكب في النصب بدلا من قوله بزينة ، لأن بزينة في موضع نصب وقرأ الباقون
 بزينة الكواكب بالجر على الإضافة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ بين تعالى أنه زين السماء الدنيا ، وبين أنه إنما زينها لمنفعتين (إحداهما)
 تحصيل الزينة (والثانية) الحفظ من الشيطان المارد ، فوجب أن نحقق الكلام في هذه المطالب
 الثلاثة (أما الأول) وهو تزوين السماء الدنيا بهذه الكواكب ، فلنقتل أن يقول إنه ثبت في علم
 الهيئة أن هذه الثوابت مركوزة في الكرة الثامنة ، وأن السيارات الستة مركوزة في الكرات
 الست المحطية بسماء الدنيا فكيف يصح قوله (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) والجواب
 أن الناس الساكنين على سطح كرة الأرض إذا نظروا إلى السماء فانهم يشاهدونها مزينة بهذه
 الكواكب ، وعلى أننا قد بينا في علم الهيئة أن الفلاسفة لم يتم لهم دليل في بيان أن هذه الكواكب
 مركوزة في الفلك الثامن ، ولعلنا شرحنا هذا الكلام في تفسير سورة (تبارك الذي بيده الملك)
 في تفسير قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) ، (وأما المطلوب الثاني) وهو كون هذه
 الكواكب زينة السماء الدنيا فقيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ أن الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزن به ، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة
 قال صاحب الكشاف وقوله (بزينة الكواكب) يحتملها فان أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل
 أي بأن زينتها الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أي بأن زان الله الكواكب وحسنها ، لأنها

إنما زينت السماء بحسنها في أنفسها ، وإن أردت الاسم فإضافة وجهان أن تقع الكواكب بياناً للزينة ، لأن الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها ، وأن يراد ما زينت به الكواكب .

(البحث الثاني) في بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء وجوه : (الأول) أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها ، فإن تحصل هذه الكواكب المشرقة المضئية في سطح الفلك لا جرم بقي الضوء والنور في جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس (بزينة الكواكب) أي بضوء الكواكب (الوجه الثاني) يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها (الوجه الثالث) يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها (الوجه الرابع) أن الإنسان إذا نظر في الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلاثة على ذلك السطح الأزرق ، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها في التركيب والجوهر ، وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة (وأما المطلوب الثالث) وهو قوله (وحفظاً من كل شيطان مارد) ففيه بحثان :

(البحث الأول) فيما يتعلق باللغة فقوله (وحفظاً) أي وحفظناها ، قال المبرد إذا ذكرت فعلاً ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله ، مثل قولك أفعل وكرامة لأنه لما قال أفعل علم أن الأسماء لا تعطف على الأفعال ، فكان المعنى أفعل ذلك وأكرمك كرامة ، قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب و (من كل شيطان مارد) يريد الذي تمرد على الله قيل إنه الذي لا يتمكن منه ، وأصله من الملاسة ومنه قوله (صرح بمرد) ومنه الأمرد وذكرونا تفسير المارد عند قوله (مردوا على النفاق) .

(البحث الثاني) فيما يتعلق بالمباحث العقلية في هذا الموضوع ، فنقول الاستقصاء فيه مذكور في قوله تعالى (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) قال المفسرون الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب فانه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها ، وبقي ههنا سؤالات :

(السؤال الأول) هذه الشهب هل هي من الكواكب التي زين الله السماء بها أم لا ؟ والأول باطل لأن هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير من أعداد كواكب السماء ، ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد البتة فإن أعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير البتة ، وأيضاً فجعلها رجوماً للشياطين مما يوجب وقوع النقصان في زينة السماء فكان الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض ، وأما القسم الثاني : وهو أن يقال إن هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة في الفلك فهذا أيضاً مشكل لأنه تعالى قال في سورة (تبارك الذي بيده الملك) ، (ولقد زيننا السماء الدنيا

بمصاييح (وجعلناها رجوماً للشياطين) فالضمير في قوله (وجعلناها) عائد إلى المصاييح ، فوجب أن تكون تلك المصاييح هي الرجوم بأعيانها من غير تفاوت ، والجواب أن هذه الشهب غير تلك الثواب الباقية . وأما قوله تعالى (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصاييح وجعلناها رجوماً للشياطين) فنقول كل نير يحصل في الجو العالى فهو مصاييح لأهل الأرض إلا أن تلك المصاييح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التخير والفساد ، ومنها ما لا يكون كذلك ، وهى هذه الشهب التى يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوماً للشياطين ، وبهذا التقدير فقد زال الإشكال ، والله أعلم .

(السؤال الثانى) كيف يجوز أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون بالتجويز . أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم البتة ، وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل ، فكيف من الشياطين الذين لهم منزلة فى معرفة الحيل الدقيقة (والجواب) أن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين وإلا لم يذهبوا إليه ، وإنما يمنعون من المصير إلى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة ، وربما صاروا إلى موضع تصيبهم فيه الشهب ، وربما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب ، فلما هلكوا فى بعض الأوقات ، وسلموا فى بعض الأوقات ، جاز أن يصيروا إلى مواضع يغلب على ظنونهم أنه لا تصيبهم الشهب فيها ، كما يجوز فيمن يسلك البحر أن يسلكه فى موضع يغلب على ظنه حصول النجاة ، هذا ما ذكره أبو على الجبائى من الجواب عن هذا السؤال فى تفسيره ، ولقائل أن يقول : إنهم إذا صعدوا فإما أن يصلوا إلى مواضع الملائكة ، أو إلى غير تلك المواضع ، فإن وصلوا إلى مواضع الملائكة احترقوا ، وإن وصلوا إلى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلاً ، فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل ، وإذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود محال وجب أن يمتنعوا عن هذا العمل وأن لا يقدموا عليه أصلاً بخلاف حال المسافرين فى البحر ، فإن الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود ، أما ههنا فالشيطان الذى يسلم من الإحترق إنما يسلم إذا لم يصل إلى مواضع الملائكة ، وإذا لم يصل إلى تلك المواضع لم يفز بالمقصود ، فوجب أن لا يعود إلى هذا العمل البتة ، والأقرب فى الجواب أن نقول هذه الواقعة إنما تتفق فى الندرة ، فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين والله أعلم .

(السؤال الثالث) قالوا دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلًا قبل مجيء النبي ﷺ ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي ﷺ بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا فى سبب حدوثه ، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجيء النبي ﷺ امتنع حمله على مجيء النبي ﷺ ، أجب القاضى بأن الأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي ﷺ لكنها كثرت فى زمان النبي ﷺ فصارت بسبب الكثرة معجزة .

(السؤال الرابع) الشيطان مخلوق من النار ، قال تعالى حكاية عن إبليس (خلقتني من نار) وقال (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) ولهذا السبب يقدر على الصعود إلى السموات ، وإذا كان كذلك فكيف يعقل إحراق النار بالنار ؟ والجواب يحتمل أن الشياطين وإن كانوا من النيران إلا أنها نيران ضعيفة ، فاذا وصلت نيران الشهب إليهم ، وتلك النيران أقوى حالا منهم لا جرم صار الأقوى مبطلاً للأضعف ، ألا ترى أن السراج الضعيف إذا رجع في النار القوية فانه ينطفئ . فكذلك ههنا .

(السؤال الخامس) أن مقر الملائكة هو السطح الأعلى من الفلك ، والشياطين لا يمكنهم الوصول إلا إلى الأقرب من السطح الأسفل من الفلك ، فيبقى جرم الفلك مانعاً من وصول الشياطين إلى القرب من الملائكة ، ولعل الفلك عظيم المقدار دفع حصول هذا المانع العظيم ، كيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة ، فان قلت إن الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، فنقول فعلى هذا التقدير إذا كان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، وجب أن لا ينفى سمع الشيطان ، وإن كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة في رمية بالرجوم ؟ (فالجواب) مذهبنا أن أفعال الله تعالى غير معللة ، فيفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله ، فهذا ما يتعلق بمباحث هذا الباب ، وإذا أضيف ما كتبناه ههنا إلى ما كتبناه في سورة الملك ، وفي سائر الآيات المشتملة على هذه المسألة بلغ تمام الكفاية في هذا الباب ، والله أعلم .

وأما قوله (لا يسمعون إلى الملائكة الأُعلى) ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (لا يسمعون) بتشديد السين والميم وأصله يتسمعون ، فأدغمت التاء في السين لاشتراكهما في الهمس ، والتسمع تطلب السماع يقال تسمع سمع أو لم يسمع ، والباقون بتخفيف السين ، واختار أبو عبيد التشديد في يسمعون ، قال لأن العرب تقول سمعت إلى فلان ويقولون سمعت فلاناً ، ولا يكادون يقولون سمعت إلى فلان ، وقيل في تقوية هذه القراءة إذا نفي التسمع ، فقد نفي سمعه ، وحجة القراءة الثانية قوله تعالى (إنهم عن السمع لمعزولون) وروى مجاهد عن ابن عباس : أن الشياطين يسمعون إلى الملائكة الأُعلى ، ثم يمنعون فلا يسمعون ، وللاولين أن يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لا يمنع من كونهم معزولين أيضاً عن التسمع بدلالة هذه الآية ، بل هو أقوى في ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء ، فان الذي منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعاً من السمع أولى .

(المسألة الثانية) الفرق بين قولك سمعت حديث فلان ، وبين قولك سمعت إلى حديثه ، بأن قولك سمعت حديثه يفيد الإدراك ، وسمعت إلى حديثه يفيد الإصغاء مع الإدراك .

(المسألة الثالثة) في قوله (لا يسمعون إلى الملائكة الأُعلى) قولان (الأول) وهو المشهور أن تقدير الكلام لئلا يسمعوا ، فلما حذف الناصب عاد الفعل إلى الرفع كما قال (يبين الله لكم أن تضلوا) وكما قال (رواسي أن تميد بكم) قال صاحب الكشاف : حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده . أما اجتماعهما فمن المنكرات التي يجب صون القرآن عنها (والقول الثاني) وهو الذي اختاره صاحب الكشاف أنه كلام مبتدأ منقطع عما قبله ، وهو حكاية حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدر أن يسمعوا إلى كلام الملائكة ويتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب ، مدحورون عن ذلك المقصود .

(المسألة الرابعة) الملائكة الأُعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات . وأما الإنس والجن فهم الملائكة الأسفل لأنهم سكان الأرض .
واعلم أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاثة (الأولى) أنهم لا يسمعون (الثانية) أنهم يقذفون من كل جانب دحوراً ، وفيه أبحاث :

(الأول) قد ذكرنا معنى الدحور في سورة الأعراف عند قوله (اخرج منها مذموماً مدحوراً) قال المبرد الدحور أشد الصغار والذل وقال ابن قتيبة دحرت دحراً ودحوراً أي دفعته وطرده .

(البحث الثاني) في انتصاب قوله (دحوراً) وجوه (الأول) أنه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحوراً ، ودل على الفعل قوله تعالى (ويقذفون) (الثاني) التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام (الثالث) قال مجاهد دحوراً مطرودين ، فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور .

(البحث الثالث) قرأ أبو عبد الرحمن السلمي دحوراً بفتح الدال قال الفراء كأنه قال يقذفون يدحرون بما يدحور ، ثم قال ولست أشتهي الفتح ، لأنه لو وجد ذلك على صحة لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة إلا أنه جائز في الجملة كما قال الشاعر :

تعال اللحم للأضياف ندياً

أي تعال باللحم (الصفة الثالثة) قوله تعالى (ولهم عذاب واصل) والمعنى أنهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام ، وذكرنا تفسير الواصب في سورة النحل عند قوله تعالى (وله الدين واصباً) قالوا كلهم إنه الدائم ، قال الواحدي ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير .

ثم قال تعالى (إلا من خطف الخطفة) ذكرنا معنى الخطف في سورة الحج قال الزجاج وهو أخذ الشيء بسرعة ، وأصل خطف اختطف قال صاحب الكشاف (من) في محل الرفع بدل من الواو في لا يسمعون أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خطف الخطفة أي اختلس الكلمة على

فَاسْتَفْتَهُمْ أَهْمٌ أَسَدٌ خَلَقًا أَمْ مِّنْ خَلْقِنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾

وجه المسارقة (فأتبعه) يعنى لحقه وأصابه يقال تبعه وأتبعه إذا مضى في أثره وأتبعه إذا لحقه وأصله من قوله تعالى (فأتبعه الشيطان) وقد مر تفسيره وقوله تعالى (شهاب ثاقب) قال الحسن ثاقب أى مضى وأقول سمي ثاقباً لأنه يثقب بنوره الهواء، قال ابن عباس في تفسير قوله (والنجم الثاقب) قال إنه رجل (١) سمي بذلك لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات والله أعلم .

قوله تعالى ﴿فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب﴾ في الآية مسائل :
 (المسألة الأولى) في بيان النظم اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الأقصى من هذا الكتاب الكريم إثبات الأصول الأربعة وهي الإلهيات والمعاد والنبوة وإثبات القضاء والتقدير . فنقول إنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات ما يدل على وجود الصانع ويدل على وحدانيته وهو خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب ، فلما أحكم الكلام في هذا الباب فرع عليها إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة .

واعلم أن الكلام في هذه المسألة يتعلق بطرفين أولهما إثبات الجواز العقلي وثانيهما إثبات الوقوع أما الكلام في المطلوب الأول فاعلم أن الاستدلال على الشيء يقع على وجهين (أحدهما) أن يقال إنه قدر على ما هو أصعب وأشد وأشق منه فوجب أيضاً أن يقدر عليه (والثاني) أن يقال إنه قدر عليه في إحدى الحالتين والفاعل والقابل باقين كما كانا ، فوجب أن تبقى القدرة عليه في الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقتين في بيان أن القول بالبعث والقيامة أمر جائز ممكن . (أما الطريق الأول) فهو المراد من قوله (فاستفتهم أهم أشد خلقاً) والتقدير كأنه تعالى يقول استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم أشد خلقاً من خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك ، ولا شك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشق وأشد في العرف من خلق القسم الأول ، فلما ثبت بالدلائل المذكورة في إثبات التوحيد كونه تعالى قادراً على هذا القسم الذي هو أشد وأصعب ، فبأن يكون قادراً على إعادة الحياة في هذه الأجساد كان أولى ، ونظير هذه الدلالة قوله تعالى في آخر يس (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) (وأما الطريق الثاني) فهو المراد من قوله (إنا خلقناهم من طين لازب) والمعنى أن هذه الأجسام قابلة للحياة إذ لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حية في المرة الأولى والإله قادر على خلق هذه الحياة في هذه الأجسام ، ولولا كونه تعالى قادراً على هذا المعنى لما حصلت الحياة في المرة الأولى ، ولا شك أن قابلية تلك الأجسام باقية وأن قادية الله تعالى باقية لأن هذه القابلية وهذه القادية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت بهذين الطريقتين أن القول بالبعث والقيامة أمر

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب إنه نجم . إذ لا معنى لكونه رجلاً .

ممكن ، ولما بين تعالى إمكان هذا المعنى بهذين الطريقتين بين وقوعه بقوله (قل نعم وأنتم داخرون) وذلك لأنه ثبت صدق الرسول ﷺ لأجل ظهور المعجزات عليه والصادق إذا أخبر عن أمر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو في غاية الحسن والله أعلم .

(المسألة الثانية) في تفسير ألفاظ هذه الآية ، أما قوله (فاستفتهم) يعني أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة كونه تعالى خالقاً للسموات والأرض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم (أهم أشد خلقاً) أم هذه الأشياء التي بيننا كونه تعالى خالقاً لها ولم يحك عنهم أنهم أقروا أن خلق هذه الأشياء أصعب لأجل أن ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة أن يحكى عنهم صحة أن الأمر كذلك .

ثم قال تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) يعني أنا لما قدرنا على خلق الحياة في ذواتهم أولاً وجب أن نبقي قادرين على خلق الحياة فيهم ثانياً ، لما بينا أن حال القابل وحال الفاعل تمتنع التغير . وفيه دققة أخرى وهي أن القوم قالوا كيف يعقل تولد الانسان لا من النطفة ولا من الأبوين ؟ فكأنه قيل لهم إنكم لما أقررتم بحدوث العالم واعترفتم بأن السموات والأرض وما بينهما إنما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلا بد وأن تعترفوا بأن الإنسان الأول إنما حدث لا من الأبوين ؟ فإذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم الانسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الأبوين ، وأيضاً قد اشتهر عند الجمهور أن آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة في الطين للازب فكيف يعجز عن إعادة الحياة إلى هذه الذوات . وأما كيفية خلق الإنسان من الطين اللازب فهي مذكورة في السورة المتقدمة ، واعلم أن هذا الوجه إنما يحسن إذا قلنا المراد من قوله تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) هو أنا خلقنا أباهم آدم من طين لازب ، وفيه وجوه أخر وهو أن يكون المراد أنا خلقنا كل إنسان من طين لازب ، وتقديره أن الحيوان إنما يتولد من المنى ودم الطمث والمنى يتولد من الدم فالحيوان إنما يتولد من الدم والدم إنما يتولد من الغذاء ، والغذاء إما حيواني وإما نباتي أما تولد الحيوان الذي صار غذاء فالكلام في كيفية تولده كالكلام في تولد الإنسان ، فثبت أن الأصل في الأغذية هو النبات ، والنبات إنما يتولد من امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن كل الخلق متولدون من الطين اللازب ، وإذا ثبت هذا فنقول إن هذه الأجزاء التي منها تركيب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها ، وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة في كل الأوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة ، وأما اللازب فقييل اللاصق ، وقيل اللزج وقيل الحثد ، وأكثر أهل اللغة على أن الباء في لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم .

بَلْ عَجَبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾

ثم قال تعالى ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ تقرير الكلام أن يقال إن هؤلاء المنكرين أفروا بأنه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من إعادة الحياة إلى هذه الأجساد ، وقد تقرر في صرائح العقول أن القادر على الأشق الأشد يكون قادراً على الأسهل الأيسر ، ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقي هؤلاء الأقوام مصرين على إنكار البعث والقيامة وهذا في موضع التعجب الشديد فان مع ظهور هذه الحجة الجليلة الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الإصرار فيه . فأنت يا محمد تتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم في طرف الإنكار وصلوا إلى حيث يسخرون منك في قولك يا ثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، فهذا هو المراد من قوله (بل عجبت ويسخرون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ حمزه والكسائي (عجبت) بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدي والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم ويحيى بن وثاب والأعمش وقراءة أهل الكوفة واختيار أبي عبيدة ، أما الذين قرأوا بالفتح فقد احتجوا بوجوه (الأول) أن القراءة بالضم تدل على إسناد العجب إلى الله تعالى وذلك محال ، لأن التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشيء ومعلوم أن الجهل على الله محال (والثاني) أن الله تعالى أضاف التعجب إلى محمد صلى الله عليه وسلم في آية أخرى في هذه المسألة فقال (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً) ، (والثالث) أنه تعالى قال (بل عجبت ويسخرون) والظاهر أنهم إنما سخروا لأجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب أن يكون ذلك التعجب صادراً منه ، وأما الذين قرأوا بضم التاء ، فقد أجابوا عن الحجة الأولى من وجوه (الأول) أن القراءة بالضم لا نسلم أنها تدل على إسناد التعجب إلى الله تعالى ، ويانه أنه يكون التقدير قل يا محمد (بل عجبت ويسخرون) ونظيره قوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) معناه أن هؤلاء ما تقولون فيه أنتم هذا النحو من الكلام ، وكذلك قوله تعالى (فما أصبرهم على النار) (الثاني) سلينا أن ذلك يقتضى إضافة التعجب إلى الله تعالى فلم قلتم إن ذلك محال ؟ ويروى أن شريحاً كان يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لا يليق إلا بمن لا يعلم ، قال الأعمش فذكرت ذلك لإبراهيم فقال إن شريحاً يعجب بعلمه وكان عبد الله أعلم ، وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه أن نقول : دل القرآن والخبر على جواز إضافة العجب إلى الله تعالى ، أما القرآن فقوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم) والمعنى وإن تعجب يا محمد من قولهم ، فهو أيضاً عجب عندي ، وأجيب عنه أنه لا يمتنع أن يكون المراد وإن تعجب فعجب قولهم عندكم ، وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم « عجب ربكم من إلكم وقنوطكم ، وعجب ربكم من شاب ليست له صبوة » وإذا ثبت هذا فنقول العجب من الله تعالى خلاف العجب من الأدميين كما قال (ويمسكرون ويمسكروا »

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا
 إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّنا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾
 أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾

الله) وقال (سخر الله منهم) وقال تعالى (وهو خادعهم) والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الأحوال من العباد ، وقد ذكرنا أن القانون في هذا الباب أن هذه الألفاظ محمولة على نهايات الأعراض لا على بدايات الأعراض . وكذلك همنا من تعجب من شيء فانه يستعظمه فالتعجب في حق الله تعالى محمول على أنه تعالى يستعظم تلك الحالة إن كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه ، وإن كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه ، فهذا تمام الكلام في هذه المناظرة ، والأقرب أن يقال القراءة بالضم إن ثبتت بالتواتر وجب المصير إليها ويكون التأويل ما ذكرناه وإن لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء أولى والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قرر الدليل القاطع في إثبات إمكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء أولها : أن النبي صلى الله عليه وسلم يتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم يسخرون منه في إصراره على الإثبات ، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم مع أولئك الأقوام كانوا في غاية التباعد وفي طرفي النقيض وثانيها قوله (وإذا ذكروا لا يذكرون) ، وثالثها قوله (وإذا رأوا آية يستسخرون) ويجب أن يكون المراد من هذا الثاني والثالث غير الأول لأن العطف يوجب التغاير ولأن التكرير خلاف الأصل ، والذي عندي في هذا الباب أن يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون من مات وصار تراباً وتفرقت أجزاءه في العالم كيف يعقل عوده بعينه ؟ وبلغوا في هذا الاستبعاد إلى حيث كانوا يسخرون ممن يذهب إلى هذا المذهب وإذا كان كذلك فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين (أحدهما) أن يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل أن يقال لهم : هل تعلمون أن خلق السموات والأرض أشد وأصعب من إعادة إنسان بعد موته ؟ وهل تعلمون أن القادر على الأصعب الأشق يجب أن يكون قادراً على الأسهل الأيسر ؟ فهذا الدليل وإن كان جلياً قوياً إلا أن أولئك المنكرين إذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لا يفهمونها ولا يففون عليها ، وإذا ذكروا لم يذكروها لشدة

بلادتهم وجهلهم ، فلا جرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان .
 (الطريق ، الثاني) أن يثبت الرسول ﷺ جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز
 كوني رسولا صادقا من عند الله فأنا أخبركم بأن البعث والقيامة حق ، ثم إن أولئك المنكرين
 لا ينتفعون بهذا الطريق أيضاً لأنهم إذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحراً
 وسخروا بها واستهزؤا منها وهذا هو المراد من قوله (وإذا رأوا آية يستسخرون) فظهر بالبيان
 الذي ذكرناه أن هذه الألفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة .
 واعلم أن أكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق ، فقالوا إنه تعالى قال (بل عجبت ويسخرون) .
 ثم قال (وإذا رأوا آية يستسخرون) فوجب أن يكون المراد من قوله (يستسخرون) غير
 ما تقدم ذكره من قوله (ويسخرون) فقال هذا القائل المراد من قوله (ويسخرون) اقدامهم
 على السخرية والمراد من قوله (يستسخرون) طلب كل واحد منهم من صاحبه أن يقدم على
 السخرية وهذا التكليف إنما يلزمهم لعدم وقوفهم على الفوائد التي ذكرناها والله أعلم (والرابع)
 من الأمور التي حكاها الله تعالى عنهم أنهم قالوا (إن هذا إلا سحر مبين) يعني أنهم إذا رأوا آية
 ومعجزة سخروا منها ، والسبب في تلك السخرية اعتقادهم أنها من باب السحر وقوله (مبين) معناه
 أن كونه سحراً أمر بين لا شبهة لأحد فيه ، ثم بين تعالى أن السبب الذي يحملهم على الاستهزاء
 بالقول بالبعث وعلى عدم الإلتفات إلى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع
 المعجزات هو قولهم إن الذي مات وتفرقت أجزاؤه في جملة العالم فما فيه من الأرضية اختلط بتراب
 الأرض وما فيه من المائيه والهوائية اختلط بينخارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه
 حياً فاهماً ؟ فهذا الكلام هو الذي يحملهم على تلك الأحوال الثلاثة المتقدمة ، ثم إنه تعالى لما حكى
 عنهم هذه الشبهة قال قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب
 لأنه ذكر في الآية المتقدمة بالبرهان اليقيني القطعي أنه أمر ممكن وإذا ثبت الجواز القطعي فلا
 سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق ، فلما قامت المعجزات على صدق محمد ﷺ كان
 واجب الصدق فكان مجرد قوله (قل نعم) دليلاً قاطعاً على الوقوع . ومن تأمل في هذه الآيات
 علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب ، وذلك لأنه بين الإمكان بالدليل العقلي وبين وقوع
 ذلك الممكن بالدليل السمعي ، ومن المعلوم أن الزيادة على هذا البيان كالأمر الممتنع .
 أما قوله (أو آباؤنا) فالمعنى أو تبعت آباؤنا وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف
 وقرأ نافع وابن عامر ههنا ، وفي سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام في هذا في سورة
 الأعراف عند قوله (أو أمن أهل القرى) .
 أما قوله تعالى (قل نعم) فنقول قرأ الكسائي وحده نعم بكسر العين .
 أما قوله تعالى (وأنتم داخرون) أي صاغرون ، قال أبو عبيد الدخور أشد الصغار ، وذكرنا
 تفسير هذه اللفظة عند قوله (سجداً لله وهم داخرون) .

فَإِمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ «١٩» وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ

الَّذِينَ «٢٠» هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ «٢١»

قوله تعالى ﴿ فإمّا هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ، وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما يدل على إمكان البعث والقيامة ، ثم أردفه بما يدل على وقوع القيامة ، ذكر في هذه الآيات بعض تفاصيل أحوال القيامة ، وأنه تعالى ذكر في هذه الآية أنواعاً من تلك الأحوال (فالحالة الأولى) قوله تعالى (فإمّا هي زجرة واحدة ، فإذا هم ينظرون) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (فإمّا) جواب شرط مقدر والتقدير إذا كان كذلك فما هي إلا زجرة واحدة .

﴿ البحث الثاني ﴾ الضمير في قوله (فإمّا هي) ضمير على شريطة التفسير ، والتقدير فإمّا البعث زجرة واحدة .

﴿ البحث الثالث ﴾ الزجرة في اللغة الصيحة التي يزجر بها كالزجرة بالنعيم والابل عند الحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وإن لم يكن فيها معنى الزجر كما في هذه الآية وأقول لا يبعد أن يقال إن تلك الصيحة إنما سميت زجرة لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور في موقف القيامة ، فإذا عرفت هذا فنقول المراد من هذه الزجرة ما ذكره الله تعالى في قوله (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) فبالنفخة الأولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون ، وههنا سوالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الفائدة في هذه الصيحة فإن القوم في تلك الساعة أموات لأن النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت أن هذه الصيحة إنما حصلت حال كون الخلق أمواتاً ، فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهي عبث والعبث لا يجوز في فعل الله (والجواب) أما أصحابنا فيقولون يفعل الله ما يشاء ، وأما المعتزلة فقال القاضي فيه وجهان (الأول) أن تعتبر بها الملائكة (الثاني) أن تكون الفائدة التخويف والإرهاب .

﴿ السؤال الثاني ﴾ هل لتلك الصيحة تأثير في إعادة الحياة ؟ الجواب لا ، بدليل أن الصيحة الأولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لا أثر لها في الموت ولا في الحياة ، بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال (الذي خلق الموت والحياة) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداءً ؟ (الجواب) الكل

جائز إلا أنه روى أن الله تعالى يأمر إسرافيل حتى ينادي : أيتها العظام النخرة والجلود البالية والأجزاء المتفرقة اجتمعوا باذن الله تعالى (اللفظ الرابع) من الألفاظ المذكورة في هذه الآية قوله تعالى (فاذا هم ينظرون) فيحتمل أن يكون المراد ينظرون ما يحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم إلى بعض وأن يكون المراد ينظرون إلى البعث الذي كذبوا به (الحالة الثانية) من وقائع القيامة ما أخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا (يا ويلنا هذا يوم الدين) قال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا (هذا يوم الدين) أى يوم الجزاء هذا ، والمقصود أن الله تعالى ذكر في آيات كثيرة من القرآن ، أنا نرى في الدنيا محسناً ومسيئاً وعاصياً وصديقاً وزنديقاً ، ورأينا أنه لم يصل إليهم في الدنيا ما يليق بهم من الجزاء فوجب القول باثبات القيامة (ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) وبالجمله فهذا يدل على أن الجزاء إنما يحصل بعد الموت ، والكفار وإن سمعوا هذا الدليل القوي لكنهم أنكروا وتمردوا ثم إنه تعالى إذا أحياهم يوم القيامة فإذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون (هذا يوم الدين) أى يوم الجزاء الذى ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه في القرآن فكفرنا بها ، ونظيره أن من خوف بشيء ولم يلتفت اليه ، ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول هذا يوم الواقعة الفلانية فكذا ههنا ، وفيه احتمال آخر وهو أنه تعالى قال في سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) فبين أنه لا مالك في ذلك اليوم إلا الله فقولهم هذا يوم الدين ، إشارة إلى أن هذا هو اليوم الذى لا حكم فيه لاحد إلا الله ، وإنما ذكره لما حصل في قلوبهم من الخوف الشديد .

أما قوله تعالى (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) ففيه بحثان :

(الأول) اختلفوا في أن هذا هل هو من بقية كلام الكفار أو يقال تم كلامهم عند قوله تعالى (هذا يوم الدين) . وأما قوله (هذا يوم الفصل) فهو كلام غيرهم ، فبعضهم قال بالأول وزعم أن قوله (هذا يوم الفصل) الآية من كلام بعضهم لبعض ، والأكثر على القول الثانى واحتجوا بوجهين : (الأول) أن قوله (كنتم به تكذبون) من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جميع الكفار فقائل هذا القول لابد وأن يكون غير الكفار (الثانى) أن قوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) منسوق على قوله (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) فلبا كان قوله (احشروا الذين ظلموا) كلام غير الكفار فكذلك قوله (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) يجب أن يكون كلام غير الكفار ، وعلى هذا التقدير فقوله (هذا يوم الدين) من كلام الكفار ، وقوله (هذا يوم الفصل) من كلام الملائكة جواباً لهم ، والوجه في كونه جواباً لهم أن أولئك الكفار ، إنما اعتقدوا في أنفسهم كونهم محقين في إنكار دعوة الأنبياء عليهم السلام وكونهم محقين في تلك الأديان الفاسدة فقالوا (هذا يوم الدين) أى هذا اليوم الذى يصل فيه إلينا جزاء طاعتنا وخيراتنا ، فالملائكة يقولون لهم إنه لا اعتبار بظواهر الأمور في هذا لليوم فإن هذا اليوم

أَحْشِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾

يفصل فيه الجزاء الحقيقي عن الجزاء الظاهري وتميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة فهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جواباً لما ذكره الكفار .
ثم قال تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ وفي الآية إبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ اعلم أنه لا نزاع في أن هذا من كلام الملائكة فان قيل ما معنى (احشروا) مع أنهم قد حشروا من قبل وحضروا في محفل القيامة وقالوا (هذا يوم الدين) وقالت الملائكة لهم بل (هذا يوم الفضل) أجاب القاضي عنه ، فقال المراد احشروهم إلى دار الجزاء وهي النار ، ولذلك قال بعده (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أي خذوهم إلى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال كيف يصح ذلك وقد قال بعده وقفوههم إنهم مسئولون ومعلوم أن حشرهم إلى الجحيم ، إنما يكون بعد المسألة ، وأجاب أنه ليس في العطف بحرف الواو ترتيب فلا يمتنع أن يقال احشروهم وقفوههم ، مع أنا بعقولنا نعلم أن الوقوف كان قبل الحشر إلى النار ، هذا ما قاله القاضي ، وعندى فيه وجه آخر وهو أن يقال إنهم إذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة تلحقهم بسبب معاينة أهوال القيامة ، ثم إن الله تعالى يقول للملائكة : احشروا الذين ظلموا واهدوهم إلى صراط الجحيم ، أي سوقوهم إلى طريق جهنم وقفوههم هناك وتحصل المسألة هناك ثم من هناك يساقون إلى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه .

﴿ البحث الثاني ﴾ الأمر في قوله تعالى (احشروا الذين ظلموا) هو الله فهو تعالى أمر الملائكة أن يحشروا الكفار إلى موقف السؤال والمراد من الحشر أن الملائكة يسوقونهم إلى ذلك الموقف .
﴿ البحث الثالث ﴾ أن الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء : الظالمين ، وأزواجهم ، والأشياء التي كانوا يعبدونها . وفيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أنه تعالى قال (احشروا الذين ظلموا) ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على أن كل وعيد ورد في حق الظالم فهو مصروف إلى الكفار وما يؤكد هذا قوله تعالى (والكافرون هم الظالمون)
﴿ الفائدة الثانية ﴾ اختلفوا في المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة أقوال : (الأول) المراد بأزواجهم أشباههم أي أحزابهم ونظراؤهم من الكفر فاليهودي مع اليهودي والنصراني مع النصراني والذي يدل على جواز أن يكون المراد من الأزواج الأشباه وجوه : (الأول) قوله تعالى (وكنتم

أزواجاً ثلاثة) أى أشكالا وأشباهاً (الثانى) أنك تقول عندى من هذا أزواج أى أمثال وتقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين فى أكثر أحكام النكاح وكذلك تعدد الزوج سمي بهذا الاسم لكون كل واحد من سميه مثالا للقسم الثانى فى العدد الصحيح ، قال الواحدى فعلى هذا القول يجب أن يكون المراد بالذين ظلموا الرؤساء لأنك لو جعلت الذين ظلموا عاماً فى كل من أسرك لم يكن للأزواج معنى (القول الثانى) فى تفسير الأزواج أن المراد قرنائهم من الشياطين لقوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم فى النفى ثم لا يقصرون) ، (والقول الثالث) أن المراد نساؤهم اللواتى على دينهم . أما قوله (وما كانوا يعبدون من دون الله) ففيه قولان : (الأول) المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت ، ونظيره قوله (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة) قيل المراد بالناس عباد الأوثان والمراد بالحجارة الأصنام التى هى أحجار منحوتة ، فان قيل إن تلك الأحجار جمادات فما الفائدة فى حشرها إلى جهنم ؟ أجاب القاضى بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيا لتحصل المبالغة فى توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول هب أن الله تعالى يحيى تلك الأصنام إلا أنه لم يصدر عنها ذنب ، فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها ؟ والأقرب أن يقال إن الله تعالى لا يحيى تلك الأصنام بل يتركها على الجمادية . ثم يلقبها فى جهنم لأن ذلك مما يزيد فى تخجيل الكفار (القول الثانى) أن المراد من قوله (وما كانوا يعبدون من دون الله) الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة ما عبدوا فلبسوا قبلوا منهم ذلك الدين صاروا كالعابدين لأولئك الشياطين وتأكدهذا بقوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان) والقول الأول أولى لأن الشياطين عقلاء وكلمة ما لا تليق بالعقلاء والله أعلم .

ثم قال (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) قال ابن عباس : دلوهم يقال هديت الرجل إذا دلته وإنما استعملت الهداية ههنا ، لأنه جعل بدل الهداية إلى الجنة ، كما قال (فبشرهم بعذاب أليم) فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لأولئك ، وعن ابن عباس (فاهدوهم) سوقوهم وقال الأصم : قدموهم ، قال الواحدى : وهذا وهم . لأنه يقال هدى إذا تقدم ومنه الهداية والهواذى والهاديات الوحش ، قال ولا يقال هدى بمعنى قدم ، ثم قال وقفوهم ، يقال وفقت الدابة اقفها وقفاً فوقفت هى وقوفاً ، والمعنى احبسوهم وفى الآية قولان (أحدهما) على التقييم والتأخير ، والمعنى قفوهم واهدوهم ، والأصوب أنه لا حاجة إليه ، بل كأنه قيل (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) فإذا انتهوا إلى الصراط قيل وقفوهم ، فإن السؤال يقع هناك وقوله (إنهم مسئولون) قيل عن أعمالهم فى الدنيا وأقوالهم ، وقيل المراد سألهم الخزنة (ألم يأتكم رسل منكم بالبينات ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) ويجوز أن يكون هذا السؤال ما ذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى (مالكم لا تناصرون) أى أنهم يسألون توبيخاً لهم ، فيقال (مالكم لا تناصرون) قال ابن عباس

وَقَفَّوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ
 مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ
 تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا
 عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ
 ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَانْهَمُ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾
 إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ

رضى الله عنهما : لا ينصر بعضهم بعضاً كما كنتم في الدنيا ، وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر :
 نحن جميع منتصر ، ف قيل لهم يوم القيامة ما لكم غير متناصرين ، وقيل يقال للكفار ما لشركائكم
 لا يمنعونكم من العذاب .

ثم قال تعالى ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ يقال استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع ، ومعناه
 في الأصل طلب السلامة بترك المنازعة ، والمقصود أنهم صاروا منقادين لا حيلة لهم في دفع تلك
 المضار لا العابد ولا المعبود .

ثم قال تعالى ﴿ وأقبل بعضهم على بعض ﴾ قيل هم والشياطين ، وقيل الرؤساء والأتباع .
 ﴿ يتساءلون ﴾ أى يسأل بعضهم بعضاً ، وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت
 يقولون غررتمونا ، ويقول أولئك لم قبلتم منا ، وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين ، بل هو
 تساؤل التوبيخ واللوم ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا
 عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ، فحق علينا قول ربنا إِنَّا لَذَائِقُونَ ، فأغويناكم إِنَّا كُنَّا
 غاوين ، فانهم يومئذ في العذاب مشتركون ، إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ، إنهم كانوا إذا قيل لهم
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يستكبرون ، ويقولون أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ، بل جاء بالحق وصدق

بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٨﴾ وَمَا تَجْزُونَ
إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

المرسلين ، إنكم لذائقوا العذاب الأليم ، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ، إلا عباد الله المخلصين)
واعلم أن الله تعالى لما حكى عنهم أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك
التساؤل فقالوا (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) وهذا قول الأتباع لمن دعاهم إلى الضلالة ، وفي تفسير
اليمين وجوه (الأول) أن لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات ، وبيان كيفية
هذه الاستعارة ، أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر لوجوه (أحدها) اتفاق الكل على
أن أشرف الجانبين هو اليمين (والثاني) لا يباشرون الأعمال الشريفة إلا باليمين مثل مصافحة
الأخيار والأكل والشرب وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى (الثالث) أنهم كانوا
يتفألون وكانوا يقيمون بالجانب الأيمن ويسمونهم بالبارح (الرابع) أن النبي صلى الله عليه وسلم
كان يحب التيامن في كل شيء (الخامس) أن الشريعة حكمت بأن الجانب الأيمن لكاتب الحسنات
والأيسر لكاتب السيئات (السادس) أن الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه ، والمسيء
أن يؤتى كتابه بيساره ، فثبت أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر ، وإذا كان كذلك
لا جرم ، استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات ، فقوله (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين)
يعنى أنكم كنتم تخذعوننا وتوهمون لنا أن مقصودكم من الدعوة إلى تلك الأديان نصره الحق
وتقوية الصدق (والوجه الثاني) في التأويل أنه يقال فلان يمين فلان ، إذا كان عنده بالمنزلة
الحسنة ، فقال هؤلاء الكفار لا أئمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر : إنكم كنتم تخذعوننا
وتوهمون لنا ، أننا عندكم بمنزلة اليمين ، أى بالمنزلة الحسنة ، فوثقنا بكم وقبلنا عنكم (الوجه الثالث)
أن أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق ، فوثقوا بإيمانهم
وتمسكوا بعهودهم التي عهدوها لهم ، فمعنى قوله (كنتم تأتوننا عن اليمين) أى من ناحية المواثيق
والإيمان التي قدمتموها لنا (الوجه الرابع) أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر ، لأن اليمين
موصوفة بالقهر وبها يقع البطش ، والمعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر ، وتقصدوننا عن
السلطان والغلبة حتى نحملونا على الضلال وتعيرونا عليه ، ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء أنهم
أجابوا الأتباع من وجوه (الأول) أنهم قالوا لهم (بل لم تكفروا مؤمنين) يعنى أنكم ما كنتم
موصوفين بالإيمان حتى يقال إنا أزلناكم عنه (الثاني) قولهم (وما كان لنا عليكم من سلطان) يعنى
لا قدرة لنا عليكم حتى نقهركم ونجبركم (الثالث) (بل كنتم قوماً طاغين) أى ضالين غالين
في معصية الله (الرابع) قولهم (لحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) والمعنى أن الله تعالى لما أخبر عن

وقوعنا في العذاب ، فلو لم يحصل وقوعنا في العذاب لما كان خبر الله حقاً ، بل كان باطلاً ، ولما كان خبر الله أمراً واجباً لاجرم ، كان الوقوع في العذاب الإلزامياً ، قال مقاتل قوله تعالى (فحق علينا قول ربنا) إشارة إلى قول الله لإبليس (لا ملأئ من جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) وقوله تعالى (إنا لذائقون) يعني لما وجب أن يحق علينا قول ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب (الخامس) قولهم (فأغويننا كم إنا كنا غاوين) والمعنى أنا إنما أقدمنا على أغوائكم لأننا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية ، وفيه دققة أخرى ، كأنهم قالوا إن اعتقدتم أن غوايتكم بسبب إغوائنا فغوايتنا إن كانت بسبب إغواء غاؤ آخر ولزم التسلسل وذلك محال ، فعلينا أن حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا ، بل من قبل غيرنا ، وذلك الغير هو الذي ذكره فيما قبل ، وهو قوله (فحق علينا قول ربنا) ولما حكى الله تعالى كلام الأتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للاتباع قال بعده (فانهم يومئذ في العذاب مشتركون) يعني فالمتبوع والتابع والمخدوم والخدام مشتركون في الوقوع في العذاب كما كانوا في الدنيا مشتركين في الغواية ، ثم قال أيضاً (إنا كذلك نفعل بالجرمين) وعنى بالجرمين ، ههنا الكفار بدليل أنه تعالى قال بعد هذه الكلمة (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) والضمير في قوله (إنهم) عائد إلى المذكور السابق وهو قوله (بالجرمين) وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مختص في القرآن بالكافر ، ثم بين تعالى أنهم إنما وقعوا في ذلك العذاب لأنهم كانوا مكذبين بالتوحيد وبالنبوة ، أما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) يعني ينكرون ويتعصبون لإثبات الشرك ويستنكفون عن الإقرار بالتوحيد . وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم (أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) ويعنون محمداً ، ثم إنه تعالى كذبهم في ذلك الكلام فقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلون) وتقرير هذا الكلام أنه جاء بالدين الحق لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الضد والند والشريك فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بتقرير هذه المعاني كان مجيئه بالدين الحق ، قرأ ابن كثير (أننا لتاركوا آلهتنا) بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد ، وقرأ نافع في رواية قالون وأبو عمرو على هذا التفسير يمدان والباقون بهمزتين بلا مد وقوله تعالى (وصدق المرسلون (١)) يعني صدقهم في مجيئهم بالتوحيد ونفي الشرك ، وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الأنبياء ، ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد والنبوة نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور فقال (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) كأنه قيل فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عباده فأجاب عنه بقوله (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) والمعنى أن الحكم يقتضى الأمر بالحسن والطاعة والنهي عن القبيح والمعصية والأمر والنهي لا يكمل المقصود منهما

(١) وصدق المرسلون في المصحف مرفوعة بالواو والنون . ولكن المفسر جرى في تفسيره على أنها منصوبة بالياء والنون ومعنى قراءة الرفع أن المرسلين صدقوا في كل ما أخبروا به وإنما شدد الدال من صدق للبالغة في وصفهم بالصدق . وقراءة الرفع عامة تشمل جميع الأنبياء ومنهم محمد ، وأما قراءة النصب فلا تشمل نبينا عليه السلام إذ يكون الخطاب به .

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهِمْ مَكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ
 ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِيضَاءَ لَذَّةٍ
 لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ
 الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ
 يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾

إلا بالترغيب في الثواب والترهيب بالعقاب وإذا وقع الإخبار عنه وجب تحقيقه صوتاً للكلام
 عن الكذب ، فهذا السبب وقعوا في العذاب ثم قال (إلا عباد الله المخلصين) يعني ولكن عباد
 الله [المخلصين ناجون وهو] من الاستثناء المنقطع .

قوله تعالى ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ، فواكِهِمْ مَكْرَمُونَ ، في جنات النعيم ، على سرر متقابلين ،
 يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ، وعندهم
 قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون . فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصف أحوال المتكبرين عن قبول التوحيد المصرين على إنكار النبوة أردفه
 بذكر حال المخلصين في كيفية الثواب ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكرنا في فتح اللام وكسرها من المخلصين قرأتين فالفتح أن الله تعالى
 أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو أنهم أخلصوا الطاعة لله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أنه تعالى وصف رزقهم بكونه معلوماً ، ولم يبين أن أي الصفات
 منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الأقوال ، وقيل معناه إن ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار
 غدوة وعشية وإن لم يكن ثمة لا بكرة ولا عشية ، قال تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) ،
 وقيل معناه أن ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصاً بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم
 ورائحة ولذة وحسن منظر ، وقيل معناه أنهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذي لا يعلم متى
 يحصل ولا متى ينقطع ، وقيل معناه : القدر الذي يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم ،
 وقد بين الله تعالى أنه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل ، ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقاً بين
 التلذذ لا لاجل الحاجة ، وأرزاق أهل الجنة كلهم فواكِهِمْ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات

فإنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد ، فكل ما يأكرونه فهو على سبيل التلذذ (والثاني) أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالأدنى على الأعلى ، يعني لما كانت الفاكهة حاضرة أبداً كان الأدام أولى بالحضور ، والقول الأول أقرب إلى التحقيق ، واعلم أنه تعالى لما ذكر الأكل بين أن ذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم فقال (وهم مكرمون) لأن الأكل الخالي عن التعظيم يليق بالبهائم . ولما ذكر تعالى ما كولههم وصف تعالى مساكنهم فقال (في جنات النعيم ، على سرر متقابلين) ومعناه أنه لا كلفة عليهم في التلاقي للأنس والتخاطب ، وفي بعض الأخبار أنهم إذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم ، ولا يجوز أن يكونوا متقابلين إلا مع حصول الخواطر والسرائر وإن يكونوا كذلك إلا مع الفسحة والسعة ، ولا يجوز أن يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد إلا بأن يقوى الله أبصارهم وأسماعهم وأصواتهم ، ولما شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال (يطاف عليهم بكأس من معين) يقال للزجاجة التي فيها الخمر كأس وتسمى الخمرة نفسها كأساً قال : وكأس شربت على لذة [وأخرى تدأوبت منهاها]

وعن الأخفش : كل كأس في القرآن فهي الخمر ، وقوله (من معين) أي من شراب معين ، أو من نهر معين ، المعين مأخوذ من عين الماء أي يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمى معيناً لظهوره يقال عان الماء إذا ظهر جارياً ، قاله ثعلب فهو مفعول من العين نحو مبيع ومكيل ، وقيل سمي معيناً لأنه يجري ظاهر العين ، ويجوز أن يكون فعلاً من المعين وهو الماء الشديد الجرى ومنه أمعن في المسير إذا اشتد فيه ، وقوله (بيضاء) صفة للخمر ، قال الأخفش . خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وقوله (لذة) فيه وجوه (أحدها) أنها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم إذا أرادوا المبالغة في وصفه بهاتين الصفتين (وثانيها) قال الزجاج أي ذات لذة فعلى هذا حذف المضاف (وثالثها) قال الليث : اللذ واللذيد يجريان مجرى واحداً في النعت ويقال شراب لذ ولذيد قال تعالى (بيضاء لذة الشارين) وقال تعالى (من خمر لذة للشاربين) ولذلك سمي النوم لذاً لاستلذاذه ، وعلى هذا لذة بمعنى لذيدة ، والأقرب من هذه الوجوه الأول . ثم قال تعالى (لافيهما غول) وفيه أبحاث :

(البحث الأول) قال الفراء العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء ، وقال أبو عبيدة الغول أن يغتال عقولهم ، وأنشد قول مطيع بن إياس :

وما زالت الكأس تغتالهم وتذهب بالأول الأول

وقال الليث : الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما في خمر الدنيا ، قال الواحدى رحمه الله وحقيقته الإهلاك ، يقال غاله غولا أي أهلكه ، والغول والغائل المهلك ، ثم سمي الصداع غولا لأنه يؤدي إلى الهلاك .

ثم قال تعالى (ولا هم عنها ينزفون) وقرئ بكسر الزاي قال الفراء من كسر الزاي فله معنيان يقال أنزف الرجل إذا نفذت خمرته ، وأنزف إذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاي فمعناه

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ إِذَا
 مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ، إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أُنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ
 فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأَتْرَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي
 لَكُنْتُ مِنَ الْمَحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ
 بِمُعَذِّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾

لا يذهب عقولهم أى لا يسكرون يقال نرف الرجل فهو منزوف ونزيف ، والمعنى ليس فيها قط
 نوع من أنواع الفساد التى تكون فى شرب الخمر من صداع أو نحر أو عريضة ولا هم يسكرون
 أيضاً ، وخصه بالذكر لأنه أعظم المفاسد فى شرب الخمر ، ولما ذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر
 عقبيه صفة منسكوحهم من ثلاثة أوجه (الأول) قوله (وعندهم قاصرات الطرف) ومعنى القصر
 فى اللغة الحبس ومنه قوله تعالى (حور مقصورات فى الخيام) والمعنى أنهن يحبسن نظرهن ولا
 ينظرن إلى غير أزواجهن .

(الصفة الثانية) قوله تعالى (عين) قال الزجاج كبار الأعين حسانها واحدها عيناء .
 (الصفة الثالثة) قوله تعالى (كأنهن بيض مكنون) المكنون فى اللغة المستور يقال كندت الشئ
 وأكندته ، ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة ، فإذا كان مكنوناً كان
 مصوناً عن الغبرة والفترة ، فكان هذا اللون فى غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء ببيضات الخدور .
 ولما تم الله صفات أهل الجنة قال (فأقبل بعضهم على بعض يتساملون) فان قيل على أى
 شئ عطف قوله (فأقبل بعضهم على بعض يتساملون) ؟ قلنا على قوله (يطاف عليهم) والمعنى
 يشربون ويتحدثون على الشراب قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الكرام على المدام

والمعنى فيقبل بعضهم على بعض يتساملون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا .
 قوله تعالى (قال قائل منهم إني كان لي قرين ، يقولون أنك لمن المصدقين ، أنذا متنا وكنا تراباً
 وعظاماً أننا لمدِينُونَ ، قال هل أنتم مطلعون ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، قال تالله إن كدت لتردين ،
 ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين ، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ، إن هذا
 هو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون) فى الآية مسائل :
 (المسألة الأولى) اعلم أنه تعالى كما ذكر فى أهل الجنة أنهم يتساملون عند الاجتماع على

شرب خمر الجنة فان محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشرب من الأمور اللذيذة ، وتذكر الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الأمور اللذيذة ، ذكر تعالى في هذه الآية أن أهل الجنة إذا اجتمعوا على الشرب وأخذوا في المكالمة والمساملة كان من جملة تلك الكلمات أنهم يتذكرون أنهم كان قد حصل لهم في الدنيا ما يوجب لهم الوقوع في عذاب الله ، ثم إنهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الأبدية ، والمقصود من ذكر هذه الأشياء أن أهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم .

أما قوله (قال قائل منهم إني كان لي قرين) أي قال قائل من أهل الجنة إني كان لي قرين في الدنيا (يقول أئنك لمن المصدقين) أي كان يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجباً (أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) أي لمحاسبون ومجازون ، والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار ، ثم إن ذلك الرجل الذي هو من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم إلى كمال السرور بالاطلاع إلى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته (هل أتمم مطلعون ، فاطلع) والأقرب أنه تكلف أمراً اطلع معه لأنه لو كان مطلعاً بلا تكلف لم يكن إلى اطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم إنه ذهب إلى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها إلى النار (فرآه في سواء الجحيم) أي في وسط الجحيم قال له موبخاً (تالله إن كدت لتردين) أي تهلكني بدعائك إياي إلى إنكار البعث والقيامة (ولولا نعمة ربى) بالإرشاد إلى الحق والعصمة عن الباطل (لكنت من المحضرين) في النار مثلك ، ولما تم ذلك الكلام مع الرجل الذي كان في الدنيا قريناً له وهو الآن من أهل النار عاد إلى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال (أفما نحن بميتين) وفيه قولان (الأول) أن أهل الجنة لا يعلمون في أول دخولهم في الجنة أنهم لا يموتون ، فاذا جرى بالموت على صورة كبش أملح وذبح فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون فاعل هذا الكلام حصل قبل ذبح الموت (والثاني) أن الذي يتكامل خيره وسعادته فاذا عظم تعجبه بها قد يقول أيديوم هذا لي ؟ أفسبق هذا لي ؟ وإن كان على يقين من دوامه ، ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون (إن هذا هو الفوز العظيم)

وأما قوله (لمثل هذا فليعمل العاملون) فقيل إنه من بقية كلامهم ، وقيل إنه ابتداء كلام من الله تعالى أي اطلب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون .

(المسألة الثانية) قال بعضهم المراد من هذا القائل ومن قرينه ما ذكره الله تعالى في سورة الكهف في قوله (واضرب لهم مثلاً رجلين) إلى آخر الآيات ، وروى أن رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى داراً بألف دينار فأراها صاحبه وقال كيف ترى حسنها فقال ما أحسنها فخرج وقال اللهم إن صاحبي هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وإني أسألك داراً من دور الجنة ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه تزوج بامرأه حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لأجل أن يزوجه الله من الحور العين ، ثم إن صاحبه اشترى بساتين بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار ، ثم إن الله أعطاه في الجنة ما طلب

أَذْكَ خَيْرِ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ «٦٢» إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ «٦٣» إِنَّمَا
شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ «٦٤» طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ «٦٥» فَإِنَّهُمْ
لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ «٦٦» ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ «٦٧»
ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ «٦٨» إِنَّهُمْ أَقْبَاءُ هُمْ ضَالِّينَ «٦٩» فَهُمْ عَلَى

فَعِنْدَ هَذَا قَالَ (إِنْ كَانَ لِي قَرِينٌ - إِلَى قَوْلِهِ - فَاطْلَعُ فَرَأَهُ فِي سِوَاهِ الْجَحِيمِ) .

(المسألة الثالثة) قوله (أذلك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكننا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون)
اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة قرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير مدودة
والثالثة بكسر الألف من غير استفهام ، ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين ، وقرأ
ابن عامر الأولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الألف من غير استفهام ، وقرأ الباقون
بالاستفهام في جميعها ، ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعدها ياء ساكنة
خفيفة ، وأبو عمرو مطولة ، وعاصم وحمزة بهمزتين .
وأما قوله (إن كدت لتردين) قرأ نافع برواية ورش لترديني بإثبات الياء في الوصل
والباقون بحذفها .

(المسألة الرابعة) احتج أصحابنا على أن الهدى والضلال من الله تعالى بقوله تعالى (ولولا
نعمة ربى لكانت من المحضرين) وقالوا مذهب الخصم أن كل ما فعله الله تعالى من وجوه الإنعام
في حق المؤمن فقد فعله في حق الكافر ، وإذا كان ذلك الإنعام مشتركاً فيه امتنع أن يكون سبباً
لحصول الهداية للمؤمن . وأن يكون سبباً لخلاصه من الكفر والردى فوجب أن تكون تلك
للنعمة المنصوصة أمراً زائداً على تلك الإنعامات التي حصل الاشتراك فيها ، وما ذلك إلا بقوة
الداعى إلى الإيمان وتكميل الصارف عن الكفر .

(المسألة الخامسة) احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذى من أهل الجنة (أفما نحن
بميتين إلا موتتنا الأولى) فهذا يدل على أن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة ولو حصلت الحياة
فى القبر لكان الموت حاصلًا مرتين (والجواب) أن قوله (إلا موتتنا الأولى) المراد منه كل
ما وقع فى الدنيا والله أعلم

قوله تعالى (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنه للظالمين ، إنما شجرة تخرج فى
أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، فإنهم لا يكونون منها فمالئون منها البطون ، ثم إن لهم عليها

ءِثَارَهُمْ يَهْرَعُونَ «٧٠» وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ «٧١» وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
فِيهِمْ مُنذِرِينَ «٧٢» فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ «٧٣» إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
الْمُخْلِصِينَ «٧٤»

لشوباً من حميم، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم، إنهم ألفوا أبا هم ضالين، فهم على آثارهم يهرعون، ولقد
ضل قبلهم أكثر الأولين، ولقد أرسلنا فيهم منذرين، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين، إلا عباد
الله المخلصين .

إعلم أنه تعالى لما قال بعد ذكر أهل الجنة ووصفها (لمثل هذا فليعمل العاملون) أتبعه بقوله
(أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يورد ذلك على كفار
قومه ليصير ذلك زاجراً لهم عن الكفر، وكما وصف من قبل ما آكل أهل الجنة ومشاربهم وصف
أيضاً في هذه الآية ما آكل أهل النار ومشاربهم .

أما قوله (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) فالمعنى أن الرزق المعلوم المذكور لأهل الجنة
(خير نزلا) أى خير حاصل (أم شجرة الزقوم) وأصل النزل الفضل الواسع فى الطعام يقال
طعام كثير النزل، فاستعير للحاصل من الشيء، ويقال أرسل الأمير إلى فلان نزلا وهو الشيء
الذى يصلح حال من ينزل بسببه، إذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لأهل الجنة اللذة
والسرور، وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم، ومعلوم أنه لانسبة لأحدهما إلى الآخر فى الخيرية
إلا أنه جاء هذا الكلام، إما على سبيل السخرية بهم أولاً لجل أن المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم
إلى الرزق الكريم، والكافرين اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم فقبل لهم ذلك توبيخاً لهم على
سوء اختيارهم، وأما (الزقوم) فقال الواحدى رحمه الله لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيراً إلا
الكلبى فانه روى أنه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبيرى أكثر الله فى بيوتكم الزقوم، فان أهل
اليمين يسمون التمر والزبد بالزقوم، فقال أبو جهل لجاربه زقمينا فأنته بزبد وتمر، وقال تزقموا . ثم
قال الواحدى ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر، قال ابن دريد لم يكن للزقوم
اشتقاق من التزقم وهو الإفراط من أكل الشيء حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم . وظاهر
لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الحشونة موصوفة بصفات كل من
تناولها عظم من تناولها، ثم إنه تعالى يكره أهل النار على تناول بعض أجزائها .

أما قوله تعالى (إنا جعلناها فتنة للظالمين) ففيه أقوال : (الأول) أنها إنما ضارت فتنه
للظالمين، من حيث إن الكفار لما سمعوا هذه الآية، قالوا كيف يعقل أن تنبت الشجرة فى جهنم

مع أن النار تحرق الشجرة؟ والجواب عنه أن خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر، ولأنه إذا جاز أن يكون في النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن إحراقهم فلم لا يجوز مثله في هذه الشجرة؟ إذا عرفت هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو أنهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة في قلوبهم وصارت تلك الشبهة سبباً لتماديهم في الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم (والوجه الثاني) في التفسير أن يكون المراد صيرورة هذه الشجرة فتنة لهم في النار لأنهم إذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم، فحينئذ يصير ذلك فتنة في حقهم (الوجه الثالث) أن يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار، فإن هذا شيء بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف، فإذا ورد على سمع المؤمن فوض عليه إلى الله وإذا ورد على الزنديق توصل به إلى الطعن في القرآن والنبوة .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات : (الصفة الأولى) قوله إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم قيل منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها (الصفة الثانية) قوله (طلعتها كأنه رموس الشياطين) قال صاحب الكشاف : الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها، إما استعارة لفظية أو معنوية، وقال ابن قتيبة سمي (طلعاً) لطلوعه كل سنة، ولذلك قيل طلع النخل لأول ما يخرج من ثمره، وأما تشبيه هذا الطلع برموس الشياطين ففيه سؤال، لأنه قيل إنا ما رأينا رموس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شيء بها؟ وأجابوا عنه من وجوه : (الأول) وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة والسيرة، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير النكال والفضيلة في قوله (إن هذا إلا ملك كريم) فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برموس الشياطين في القبح وتشويه الخلقة، والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل، كأنه قيل إن أقبح الأشياء في الوهم والخيال هو رموس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها في قبح النظر وتشويه الصورة، والذي يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديداً الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة، قالوا إنه شيطان، وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة، قالوا إنه ملك، وقال امرؤ القيس :

أتقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(والقول الثاني) أن الشياطين حيات لها رموس وأعراف، وهي من أقبح الحيات، وبها يضرب المثل في القبح، والعرب إذا رأت منطراً قبيحاً قالت كأنه شيطان الحماطة، والحماطة شجرة معينة (والقول الثالث) أن رموس الشياطين، نبت معروف قبيح الرأس، والوجه الأول هو الجواب الحق، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين أن الكفار (لا يكون منها فمالتون منها البطون) واعلم أن إقدامهم على ذلك الأكل يحتمل وجهين : (الأول) أنهم أكلوا منها لشدة الجوع، فإن قيل وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونقمتها ومرارة

طعمها ؟ قلنا إن الواقع في الضرر العظيم ربما استروح منه إلى ما يقاربه في الضرر ، فاذا جوعهم الله الجوع الشديد فزعوا في إزالة ذلك الجوع إلى تناول هذا الشيء وإن كان بالصفة التي ذكرتموها (الوجه الثاني) أن يقال الزبانية يكرهونهم على الأكل من تلك الشجرة تكميلاً لعذابهم .

واعلم أنهم إذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون إلى الشراب ، فعند هذا وصف الله شرابهم ، فقال (ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم) قال الزجاج : الشوب اسم عام في كل ما خلط بغيره ، والحميم الماء الحار المنتهى في الحرارة ، والمعنى أنه إذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم ، فحينئذ يشرب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما .

واعلم أن الله وصف شرابهم في القرآن بأشياء منها كونه غساقاً ، ومنها قوله (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم) ومنها ما ذكره في هذه الآية ، فإن قيل ما الفائدة في كلمة (ثم) في قوله (ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم) ؟ قلنا فيه وجهان (الأول) أنهم يملأون بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم ، ثم إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب ، (والثاني) أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة ، ثم وصف الشراب بما هو أشبع منه ، فكان المقصود من كلمة ثم بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال الماء كقول ، ثم قال تعالى (ثم إن مرجعهم ل إلى الجحيم) قال مقاتل : أي بعد أكل الزقوم وشرب الحميم ، وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم ، وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم ، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب كما تورد الأبل إلى الماء ، ثم يوردون إلى الجحيم ، فهذا قول مقاتل ، واحتج على صحته بقوله تعالى (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) وذلك يدل على صحة ما ذكرناه ، ثم إنه تعالى لما وصف عذابهم في أكلمهم وشرابهم قال (إنهم ألفوا آباهم ضالين فهم على آثاءهم يهرعون) قال الفراء : الإهراع الإسراع يقال هرع وأهرع إذا استحث ، والمعنى أنهم يتبعون آباهم اتباعاً في سرعة كأنهم يزعمون إلى اتباع آبائهم ، والمقصود من الآية أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين وترك اتباع الدليل ، ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد لكنى .

ثم إنه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له في كفرهم وتكذيبهم ، فقال (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ، ولقد أرسلنا فيهم منذرين) فبين تعالى أن إرساله للرسول قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف ، ويجب أن يكون له ﷺ أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ، ويستمر على الدعاء إلى الله وإن تمردوا ، فليس عليه إلا البلاغ .

ثم قال تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المندرين) وهذا وإن كان في الظاهر خطاباً مع الرسول ﷺ ، إلا أن المقصود منه خطاب الكفار لأنهم سمعوا بالأخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم ، فإن لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن

وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْنَعْمَ الْمَجِيْبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
 ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ
 عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾

يكون زاجراً لهم عن كفرهم . وقوله تعالى (إلا عباد الله المخلصين) فيه قولان (أحدهما) أنه استثناء من قوله (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) (والثاني) أنه استثناء من قوله (كيف كان عاقبة المنذرين) فانها كانت أقبح العواقب وأفظعها إلا عاقبة عباد الله المخلصين ، فانها كانت مقرونة بالخير والراحة .

(القصة الأولى - قصة نوح عليه السلام)

قوله تعالى (ولقد نادانا نوح فلنعلم المجيبون ، ونجيناها وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على نوح في العالمين ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، ثم أغرقنا الآخرين) .
 اعلم أنه تعالى لما قال من قبل (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وقال (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أتبعه بشرح وقائع الأنبياء عليهم السلام (فالقصة الأولى) حكاية حال نوح عليه السلام وقوله (ولقد نادانا نوح فلنعلم المجيبون) فيه مباحث :
 (الأول) أن اللام في قوله (فلنعلم المجيبون) جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف ، أي فلنعلم المجيبون نحن .

(البحث الثاني) أنه تعالى ذكر أن نوحاً نادى ولم يذكر أن ذلك النداء في أي الوقائع كان ؟ لا جرم حصل فيه قولان (الأول) وهو المشهور عند الجمهور أنه نادى الرب تعالى في أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة (والقول الثاني) أن نوحاً عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه إلى الدين الحق بالغوا في إيذائه وقصدوا قتله ، ثم إنه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفر قومه ، فأجاب الله تعالى ومنعهم من قتله وإيذائه ، واحتج هذا القائل على ضعف القول الأول بأنه عليه السلام إنما دعا عليهم لاجل أن ينجيه الله تعالى وأهله ، وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن في دعائه ، وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة . ثم إنه تعالى لما حكى عن نوح أنه ناداه قال بعده (فلنعلم المجيبون) وهذه اللفظة تدل على أن

وَإِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِأَبْرَاهِيمَ «٨٣» إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ «٨٤» إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ
 وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ «٨٥» أَتُفَكِّرُونَ إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ «٨٦» فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ «٨٧» فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ «٨٨» فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ «٨٩» فَتَوَلَّوْا عَنْهُ

تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة ، وبيانه من وجوه (الأول) أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال (ولقد نادانا نوح) والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم (والثاني) أنه أعاد صيغة الجمع في قوله (فلنعم المجيبون) وذلك أيضاً يدل على تعظيم تلك النعمة . لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة (والثالث) أن الفاء في قوله (فلنعم المجيبون) يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء ، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضى كونه معللاً به ، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة ، ثم إنه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال ، بين أن الإنعام حصل في تلك الإجابة من وجوه (الأول) قوله تعالى (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو على القول الأول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق ، وعلى الثاني الكرب الحاصل من أذى قومه (والثاني) قوله (وجعلنا ذريته هم الباقين) يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فوا ، قال ابن عباس ذريته بنوه الثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب وفارس والروم ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك .

(النعمة الثالثة) قوله تعالى (وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على نوح في العالمين) يعني يذكرون هذه الكلمة . فان قيل فما معنى قوله (في العالمين) قلنا معناه الدعاء بثبوت هذه النعمة فيهم جميعاً أى لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم ، ثم إنه تعالى لما شرح تفاصيل إنعامه عليه قال (إنا كذلك نجزي المحسنين) والمعنى أنا إنما خصصنا نوحاً عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوأة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن في السنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسناً ، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً لله مؤمناً ، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته .

(القصة الثانية - قصة إبراهيم عليه السلام)

قوله تعالى ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم ، إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أتفكروا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ، فنظر نظرة في النجوم ، فقال إني سقيم ، فتولوا ﴾

مُدْبِرِينَ «٩٠» فَرَاغَ إِلَىٰ آلهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ «٩١» مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ

«٩٢» فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ «٩٣» فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ «٩٤»

عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ، ما لكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون) في الآية مسائل :

(المسألة الأولى) الضمير في قوله من شيعته إلى ماذا يعود؟ فيه قولان (الأول) وهو الأظهر أنه عائد إلى نوح عليه السلام أي من شيعته نوح أي من أهل بيته وعلى دينه ومنهجه لإبراهيم ، قالوا وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح ، وروى صاحب الكشاف أنه كان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة (الثاني) قال الكلبي المراد من شيعته محمد لإبراهيم بمعنى أنه كان على دينه ومنهجه فهو من شيعته وإن كان سابقاً له والأول أظهر ، لأنه تقدم ذكر نوح عليه السلام ، ولم يتقدم ذكر النبي ﷺ فعود الضمير إلى نوح أولى .

(المسألة الثانية) العامل في (إذ) ما دل عليه قوله (وإن من شيعته) من معنى المشايعة يعني وإن من شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم .
أما قوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) في قوله (بقلب سليم) قولان (الأول) قال مقاتل والكلبي يعني خالص من الشرك ، والمعنى أنه سلم من الشرك فلم يشرك بالله (والثاني) قال الأصوليون المراد أنه غاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصي ، فيدخل فيه كونه سليماً عن الشرك وعن الشرك وعن الغل والغش والحقد والحسد . عن ابن عباس أنه كان يحب للناس ما يحب لنفسه ، وسلم جميع الناس من غشه وظلمه وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحداً ، واحتج الزاهبون إلى القول الأول بأنه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة إنكاره على قومه الشرك بالله ، وهو قوله (إذ قال لآبيه وقومه ماذا تعبدون) واحتج الزاهبون إلى القول الثاني بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة ، ويتأكد هذا بقوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) مع أنه تعالى قال (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) فإن قيل ما معنى المحيى بقلبه ربه ؟ قلنا معناه أنه أخلص لله قلبه ، فكأنه أتخف حضرة الله بذلك القلب ، ورأيت في التوراة أن الله قال لموسى أجب إلهك بكل قلبك .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد فقال (إذ قال لآبيه وقومه ماذا تعبدون) والمقصود من هذا الكلام تهجين تلك الطريقة وتقييحها .

ثم قال (ائفكاً آلهة دون الله تريدون) قال صاحب الكشاف ائفكاً مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه إفكاً ، وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية و قدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يقرر عندهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم ، ويجوز أن يكون إفكاً مفعولاً به يعني أتريدون إفكاً ، ثم فسر الإفك بقوله (آلهة دون الله) على أنها إفك في أنفسها ، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى تريدون آلهة من دون الله آفكين .

ثم قال (فما ظنكم برب العالمين) وفيه وجهان (أحدهما) أظنون برب العالمين أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له في العبودية (وثانيها) أظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الأجسام حتى جعلتموها مساوية له في العبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثلته شيء .

ثم قال (فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم) عن ابن عباس أنهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم ، وذلك أنه أراد أن يكأيدهم في أصنامهم ليلزمهم الحججة في أنها غير معبودة وكان لهم من الفد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خالياً في بيت الأصنام فيقدر على كسرها وهمنا سؤالان (الأول) أن النظر في علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم (والثاني) أنه عليه السلام ما كان سقيماً فلما قال إني سقيم كان ذلك كذباً ، واعلم أن العلماء ذكروا في الجواب عنهما وجوهاً كثيرة (الأول) أنه نظر نظرة في النجوم في أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى في بعض ساعات الليل والنهار ، فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة وقال (إني سقيم) فجعله عذراً في تخلفه عن العيد الذي لهم وكان صادقاً فيما قال ، لأن السقم كان يأتيه في ذلك الوقت ، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم (الوجه الثاني) في الجواب أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور ، فلذلك نظر إبراهيم في النجوم أي في علوم النجوم وفي معانيه لأنه نظر بعينه إليها ، وهو كما يقال فلان نظر في الفقه وفي النحو وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال (إني سقيم) سكنوا إلى قوله .

أما قوله (إني سقيم) فعناه سأسقم كقوله (إنك ميت) أي ستموت (الوجه الثالث) أن قوله (فنظر نظرة في النجوم) هو قوله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً) إلى آخر الآيات وكان ذلك النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هي قديمة أو محدثة ، وقوله (إني سقيم) يعني سقيم القلب غير عارف بربي وكان ذلك قبل البلوغ (الوجه الرابع) قال ابن زيد كان له نجم مخصوص ، وكما طالع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم ولأجل هذا الاستقرار لما رآه في ذلك الوقت طالعاً على تلك الصفة المخصوصة قال (إني سقيم) أي هذا السقم واقع لا محالة (الوجه الخامس) أن قوله (إني سقيم) أي مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك ، قال تعالى لمحمد ﷺ (لعلك باخع نفسك) (الوجه السادس) في الجواب أنا لا نسلم أن النظر في

علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام ، لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص ، فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل . وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله (إني سقيم) على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة ، إما في بدنه وإما في قلبه وكل ذلك سقم . (الوجه السابع) قال بعضهم ذلك القول عن إبراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات » قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول ؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوى وبين نسبه إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبه إلى الراوى أولى ، ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذاباً خبراً شديداً بالكذب ؟ (والوجه الثامن) أن المراد من قوله فنظر نظرة في النجوم أى نظر في نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم ، فإن الأشياء التي تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أى متفرقة ومنه نجوم الكتابة ، والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كي يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذراً أحسن من قوله (إني سقيم) والمراد أنه لا بد من أن أصير سقيماً كما تقول لمن رأيتَه على أوقات السفر إنك مسافر . واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما قال (إني سقيم) تولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه في أن لا يخرج اليوم فكان ذلك مراده (فراغ إلى آلهتهم) يقال راغ إليه إذا مال إليه في السر على سبيل الخفية ، ومنه روغان الثعلب . وقوله (ألا تأكلون) يعنى الطعام الذى كان بين أيديهم ، وإنما قال ذلك استهزاء بها ، وكذا قوله (ما لكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً) فأقبل عليهم مستخفياً كأنه قال فضرهم ضرباً لأن راغ عليهم فى معنى ضرهم أو فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً . وفى قوله (باليمين) قولان (الأول) معناه بالقوة والشدة لأن اليمين أقوى الجارحتين (والثانى) أنه أتى بذلك الفعل بسبب الحلف ، وهو قوله تعالى عنه (وتالله لا كيدن أصنامكم) ثم قال (فأقبلوا إليه يزفون) قرأ حمزة (يزفون) بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان ، قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف ، ومن قرأ بالضم فهو من أزف يزف ، قال الزجاج : يزفون يسرعون وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها ، وقرأ حمزة يزفون أى يحملون غيرهم على الزفيف ، قال الأصمعى يقال أزففت الإبل إذا حملتها على أن تزف ، قال وهو سرعة الخطوة ومقاربة المشى والمفعول محذوف على قرأته كأنهم حملوا دوابهم على الإسراع فى المشى ، فان قيل مقتضى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا إليه وأخذوه ، وقال فى سورة أخرى فى عين هذه القصة (قالوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا قتي يذكرهم يقال له إبراهيم) وهذا يقتضى أنهم فى أول الأمر ما عرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض ؟ قلنا لا يبعد أن يقال إن جماعة

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا

ابنوا له بنياناً فالقوه في الجحيم ﴿٩٧﴾ فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴿٩٨﴾

وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴿٩٩﴾ رب هب لي من الصالحين ﴿١٠٠﴾

فبشرناه بغلام حليم ﴿١٠١﴾

عرفوه فعمدوا إليه مسرعين . والأكثر من ماعرفوه فتعرفوا أن ذلك الكاسر من هو ، والله أعلم .
قوله تعالى ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ، قالوا ابنوا له بنياناً فالقوه
في الجحيم ، فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ، وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ، رب هب لي
من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن القوم لما عاتبوا إبراهيم على كسر الأصنام فهو أيضاً ذكر لهم
الدليل الدال على فساد المصير إلى عبادتها فقال (أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون)
ووجه الاستدلال ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والإصلاح ما كان معبوداً للإنسان
البتة . فاذا نحتت وشكلت على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه ، فلو صار معبوداً عند ذلك
لكان معناه أن الشيء الذي ما كان معبوداً لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبوداً عند ذلك .
وفساد ذلك معلوم بيديهة العقل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج جمهور الأصحاب بقوله (والله خلقكم وما تعملون) على أن فعل
العبد مخلوق لله تعالى فقال النحويون : اتفقوا على أن لفظ ما مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله
(وما تعملون) معناه وعملكم ، وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم ، فإن
قيل هذه الآية حجة عليكم من وجوه (الأول) أنه تعالى قال (أتعبدون ما تنحتون) أضاف
العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ولو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلاً
للعبد (الثاني) أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام ، لأنه تعالى بين أنه
خالقهم وخالق تلك الأصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق . فلما تركوا عبادته سبحانه
وهو خالقهم وعبدوا الأصنام لاجرم أنه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم فقال :
(أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) ولولم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها
سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لانسليم أنها حجة لكم ، قوله لفظة ما مع ما بعدها في
تقدير المصدر ، قلنا هذا ممنوع ويانه أن سيئويه والأخفش اختلفا في أنه هل يجوز أن يقال أعجبني

ماقت أى قيامك فخوزه سيبيويه ومنعه الأخفش وزعم أن هذا لا يجوز إلا فى الفعل المتعدى وذلك يدل على أن ما مع ما بعدها فى تقدير المفعول عند الأخفش ، سلمنا أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر . لكنه أيضاً قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه (الأول) قوله (أتعبدون ما تنحتون) والمراد بقوله (ما تنحتون) المنحوت لا النحت لأنهم ما عبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله (ما تعملون) المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر (والثانى) أنه تعالى قال (فاذا هى تلقف ما يأفكون) وليس المراد أنها تلقف نفس الإفك بل أراد العصى والحبال التى هى متعلقات ذلك الإفك فكذا ههنا (الثالث) أن العرب تسمى محل العمل عملاً يقال فى الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة ما مع بعدها كما تجىء بمعنى المصدر فقد تجىء أيضاً بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول أولى لأن المقصود فى هذه الآية تزييف مذهبهم فى عبادة الأصنام لا بيان أنهم لا يوجدون أفعال أنفسهم ، لأن الذى جرى ذكره فى أول الآية إلى هذا الموضع هو مسألة عبادة الأصنام لا خلق الأعمال ، واعلم أن هذه السؤالات قوية وفى دلائلنا كثيرة ، فالأولى ترك الاستدلال بهذه الآية والله أعلم .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدرُوا على الجواب عدلوا إلى طريق الإبذاء (فقالوا ابنوا له بنياناً) واعلم أن كيفية ذلك البناء لا يدل عليها لفظ القرآن ، قال ابن عباس : بنو حاططاً من حجر طوله فى السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملاؤه ناراً فطرحوه فيها ، وذلك هو قوله تعالى (فألقوه فى الجحيم) وهى النار العظيمة ، قال الزجاج : كل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم ، والالف واللام فى الجحيم يدل على النهاية والمعنى فى جحيمه ، أى فى جحيم ذلك البنيان ، ثم قال تعالى (فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) والمعنى أن فى وقت الحاجة حصلت الغلبة له ، وعندما ألقوه فى النار صرف الله عنه ضرر النار ، فصار هو الغالب عليهم . واعلم أنه لما انقضت هذه الواقعة قال إبراهيم (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) ونظير هذه الآية قوله تعالى (وقال إني مهاجر إلى ربي) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) دلت هذه الآية على أن الموضع الذى تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته ، وذلك لأن إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، مع أن الله سبحانه خصه بأعظم أنواع النصر ، لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار ، فلأن يجب ذلك على الغير كان أولى

(المسألة الثانية) فى قوله (إني ذاهب إلى ربي) قولان (الأول) المراد منه مفارقة تلك الديار ، والمعنى إني ذاهب إلى مواضع دين ربي (والقول الثانى) قال الكلبى : ذاهب بعبادتي إلى ربي ، فعلى القول الأول المراد بالذهاب إلى الرب هو الهجرة من الديار ، وبه اقتدى موسى حيث قال (كلا إن معي ربي سيهدين) وعلى القول الثانى المراد رعاية أحوال القلوب ، وهو أن لا يأتي

بشيء من الأعمال إلا لله تعالى ، كما قال (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) قيل إن القول الأول أولى ، لأن المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته إلى أرض الشام ، وأيضاً يبعد حمله على الهداية في الدين ، لأنه كان على الدين في ذلك الوقت إلا أن يحمل ذلك على الثبات عليه ، أو يحمل ذلك على الاهتداء إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في أمر الدين .

(المسألة الثالثة) قوله (سيهدين) يدل على أن الهداية لا تحصل إلا من الله تعالى ، كما يقول أصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الأدلة وإزاحة الأعذار ، لأن كل ذلك قد حصل في الزمان الماضي ، وقوله (سيهدين) يدل على اختصاص تلك الهداية بالمستقبل ، فوجب حمل الهداية في هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة في قلبه ، فإن قيل إبراهيم عليه السلام جزم في هذه الآية بأنه تعالى سيهديه ، وأن موسى عليه السلام لم يجزم به ، بل قال (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) فما الفرق؟ قلنا العبد إذا تجلى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود ، وإذا تجلى له مقامات كونه غنياً عن العالمين ، فحينئذ يستحقر نفسه فلا يجزم ، بل لا يظهر إلا الرجاء والطمع .

(المسألة الرابعة) قوله تعالى (إني ذاهب إلى ربي) يدل على فساد تمسك المشبهة بقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) لأن كلمة إلى موجودة في قوله (إني ذاهب إلى ربي) مع أنه لم يلزم أن يكون الإله موجوداً في ذلك المكان ، فكذلك ههنا .

واعلم أنه صلوات الله عليه لما هاجر إلى الأرض المقدسة أراد الولد فقال (هب لي من الصالحين) أي هب لي بعض الصالحين ، يريد الولد ، لأن لفظ الهبة غلب في الولد ، وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) وقال تعالى (ووهبنا له إسحق ويعقوب ووهبنا له يحيى) وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم حين هنأه بولده : على أبي الأملاك شكرت الواهب ، وبورك لك في الموهوب ، ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى وبهبة الواهب وبموهوب ووهب .

واعلم أن هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة أشياء : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ الحلم ، وأنه يكون حليماً ، وأي حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه أبوه الذبح (قال ستجدني إن شاء الله من الصابرين) ثم استسلم لذلك ، وأيضاً فإن إبراهيم عليه السلام كان موصوفاً بالحلم ، قال تعالى (إن إبراهيم لأواه حلیم . إن إبراهيم لحليم أواه منيب) فبين أن ولده موصوف بالحلم ، وأنه قائم مقامه في صفات الشرف والفضيلة ، واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه ، فقال (رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين) وطلبه للولد فقال (رب هب لي من الصالحين) وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته في الدين والدنيا ، فقال (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد .

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى
 قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ «١٠٢» فَلَمَّا أَسْلَمَا
 وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ «١٠٣» وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ «١٠٤» قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «١٠٥» إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ «١٠٦» وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ
 «١٠٧» وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ «١٠٨» سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ «١٠٩» كَذَلِكَ
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «١١٠» إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ «١١١» وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ
 الصَّالِحِينَ «١١٢» وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
 مُبِينٌ «١١٣»

قوله تعالى ﴿ فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفدیناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخريين ، سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ، وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال (فبشرناه بغلام حلیم) أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه ، فقال (فلما بلغ معه السعي) ومعناه فلما أدرك وبلغ الحد الذي يقدر فيه على السعي ، وقوله (معه) في موضع الحال والتقدير كأنه معه ، والفائدة في اعتبار هذا المعنى أن الأب أرفق الناس بالولد ، وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحکم قوته ، قال بعضهم كان في ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة ، والمقصود من هذا الكلام أن الله تعالى لما وعده في الآية الأولى بكون ذلك الغلام حلیم ، بين في هذه الآية ما يدل على كمال حلمه ، وذلك لأنه كان به من كمال الحلم وفسحه الصدر ما فواه على احتمال تلك البلية العظيمة ، والإتيان بذلك الجواب الحسن .

أما قوله (إني أرى في المنام أني أذبحك) ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) في تفسير هذه اللفظة وجهان (الأول) قال السدي : كان إبراهيم حين بشر بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذن لله ذبيح فقيل لإبراهيم قد نذرت نذراً فف بنذرك فلما أصبح (قل يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك) .

وروى من طريق آخر أنه رأى ليلة التروية في منامه ، كأن قاتلاً يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح إلى الرواح ، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فمن سمى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله فسمى يوم عرفة ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر ، وهذا هو قول أهل التفسير وهو يدل على أنه رأى في المنام ما يوجب أن يذبح ابنه في اليقظة ، وعلى هذا فتقدير اللفظ : إني أرى في المنام ما يوجب أن أذبحك (والقول الثاني) أنه رأى في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء عليهم السلام من باب الوحي ، وعلى هذا القول فالمرئى في المنام ليس إلا أنه يذبح ، فإن قيل إيمان يقال إنه ثبت بالدليل عند الأنبياء عليهم السلام أن كل ما رآه في المنام فهو حق حجة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم ، فإن كان الأول فلمراجع الولد في هذه الواقعة ، بل كان من الواجب عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور ، وأن لا يراجع الولد فيه ، وأن لا يقول له (فانظر ماذا ترى) وأن لا يوقف العمل على أن يقول له الولد (افعل ما تؤمر) ؟ ، وأيضاً فقد قلتم إنه بقي في اليوم الأول متفكراً ، ولو ثبت عنده بالدليل أن كل ما رآه في النوم فهو حق لم يكن إلى هذا التروى والتفكر حاجة ، وإن كان الثاني ، وهو أنه لم يثبت بالدليل عندهم أن ما يروونه في المنام حق ، فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة ؟ (والجواب) لا يبعد أن يقال إنه كان عند الرؤيا متردداً فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحي الصريح ، والله أعلم .

(المسألة الثانية) اختلفوا في أن هذا الذبيح من هو ؟ فقيل إنه إسحق وهذا قول عمر وعلى والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل رضي الله عنهم ، وقيل إنه اسماعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي ، واحتج القائلون بأنه اسماعيل بوجوه : (الأول) أن رسول الله ﷺ قال « أنا ابن الذبيحين » وقال له أعرابي « يا ابن الذبيحين فبسم فسئل عن ذلك فقال : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله ثمن سهل الله له أمرها ليدبحن أحد ولده ، فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له أفد إبنك بمائة من الإبل ، ففداه بمائة من الإبل ، والذبيح الثاني إسماعيل . »

(الحجة الثانية) نقل عن الأصمعي أنه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال يا أصمعي أين عقلك ، ومتى كان إسحق بمكة وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحرج بمكة ؟ . (الحجة الثالثة) أن الله تعالى وصف اسماعيل بالصبر دون إسحق في قوله (وإسماعيل)

واليسع وذا الكفل كل من الصابرين) وهو صبره على الذبح، ووصفه أيضاً بصدق الوعد في قوله (إنه كان صادق الوعد) لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به.

(الحجة الرابعة) قوله تعالى (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) فنقول لو كان الذبيح إسحق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب، منه أو بعد ذلك (فالأول) باطل لأنه تعالى لما بشرها بإسحق، وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه، وإلا حصل الخلف في قوله (ومن وراء إسحق يعقوب) (والثاني) باطل لأن قوله (فلما بلغ معه السعي، قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك) يدل على أن ذلك الإبن لما قدر على السعي ووصل إلى حد القدرة على الفعل أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه، وذلك يناقض وقوع هذه القصة في زمان آخر، فثبت أنه لا يجوز أن يكون الذبيح هو إسحق.

(الحجة الخامسة) حكى الله تعالى عنه أنه قال (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) ثم طلب من من الله تعالى ولداً يستأنس به في غربته فقال (رب هب لي من الصالحين) وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد، لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد، لأن طلب الحاصل محال وقوله (هب لي من الصالحين) لا يفيد إلا طلب الولد الواحد، وكلمة من للتبويض وأقل درجات البعضية الواحد فكان قوله (من الصالحين) لا يفيد إلا طلب الولد الواحد فثبت أن هذا السؤال لا يحسن إلا عند عدم كل الأولاد فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول، وأجمع الناس على أن إسماعيل متقدم في الوجود على إسحق، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء وهو إسماعيل، ثم إن الله تعالى ذكر عقبيه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل.

(الحجة السادسة) الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكباش بالكعبة، فكان الذبيح بمكة. ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح بالشام، واحتج من قال إن ذلك الذبيح هو إسحق بوجهين: (الوجه الأول) أن أول الآية وآخرها يدل على ذلك، أما أولها فإنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال (إني ذاهب إلى ربي سيهدين) وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته إلى الشام ثم قال (فبشرناه بغلام حلیم) فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحق، ثم قال بعده (فلما بلغ معه السعي) وذلك يقتضي أن يكون المراد من هذا الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحق، وأما آخر الآية فهو أيضاً يدل على ذلك لأنه تعالى لما تم قصه الذبيح قال بعده (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين) ومعناه أنه بشره بكونه نبياً من الصالحين، وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على أنه تعالى إنما بشره بهذه النبوة لأجل أنه تحمل هذه الشدائد في قصة الذبيح، فثبت بما ذكرنا أن أول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحق عليه السلام.

(الحجة الثانية) على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف عليه السلام من

يعقوب اسراييل نبي الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فهذا جملة الكلام في هذا الباب ، وكان الزجاج يقول الله أعلم أيهما الذبيح والله أعلم . واعلم أنه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم في موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو إسماعيل قالوا كان الذبح بمنى ، والذين قالوا إنه إسحق قالوا هو بالشام وقيل بيت المقدس ، والله أعلم .

(المسألة الثالثة) اختلف الناس في أن ابراهيم عليه السلام كان مأموراً بهذا بما رأى ، وهذا الاختلاف مفرع على مسألة من مسائل أصول الفقه ، وهي أنه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال أكثر أصحابنا إنه يجوز ، وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية إنه لا يجوز ، فعلى القول الأول أنه سبحانه وتعالى أمره بالذبح ، ثم إنه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته ، وعلى القول الثاني أنه تعالى ما أمره بالذبح ، وإنما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسألة شريفة من مسائل باب النسخ ، واحتج أصحابنا على أنه يجوز نسخ الأمر قبل مجيء مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ، ثم إنه تعالى نسخه عنه قبل إقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب إنما قلنا إنه تعالى أمره بذبح الولد لوجهين (الأول) أنه عليه السلام قال لولده إني أرى في المنام أني أذبحك فقال الولد افعل ما تؤمر وهذا يدل على أنه عليه السلام كان مأموراً بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح ، ثم إنه أتى بمقدمات الذبح وأدخلها في الوجود ، فحينئذ يكون قد أمر بشيء وقد أتى به ، وفي هذا الموضع لا يحتاج إلى الفداء ، لكنه احتاج إلى الفداء بدليل قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) فدل هذا على أنه أتى بالمأمور به ، وقد ثبت أنه أتى بكل مقدمات الذبح ، وهذا يدل على أنه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح ، وإذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل إثباته وذلك يدل على المقصود ، وقالت المعتزلة لانسلم أن الله أمره بذبح الولد بل نقول إنه تعالى أمره بمقدمات الذبح ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه ما أتى بالذبح وإنما أتى بمقدمات الذبح ، ثم إن الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل قوله تعالى (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وذلك يدل على أنه تعالى إنما أمره في المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن إضجاعه ووضع السكين على حلقه ، والعزم الصحيح على الإتيان بذلك الفعل إن ورد (الأمر الثاني) الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل إبراهيم عليه السلام قطع الحلقوم إلا أنه كلما قطع جزءاً أعاد الله التأليف إليه ، فلهذا السبب لم يحصل الموت (والوجه الثالث) وهو الذي عليه تعويل القوم أنه تعالى لو أمر شخصاً معيناً بإيقاع فعل معين في وقت معين ، فهذا يدل على أن إيقاع ذلك الفعل في ذلك الوقت حسن ، فإذا أنهاه عنه فذلك النهي يدل على أن إيقاع ذلك الفعل في ذلك الوقت قبيح ، فلو حصل هذا النهي عقيب ذلك الأمر لزم أحد أمرين ، لأنه تعالى إن كان عالماً بحال ذلك الفعل لزم أن يقال إنه أمر بالقبيح أو نهى عن الحسن ، وإن لم يكن عالماً به لزم جهل الله تعالى وإنه محال ، فهذا تمام الكلام في هذا الباب (والجواب) عن الأول أنا قد دللنا على أنه تعالى إنما أمره بالذبح .

أما قوله تعالى (قد صدقت الرؤيا) فهذا يدل على أنه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على أنه أتى بكل ما رآه في ذلك المنام . وأما قوله ثانياً كلما قطع إبراهيم عليه السلام جزءاً أعاد الله تعالى التأليف إليه ، فنقول هذا باطل لأن إبراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج إلى الفداء وحيث احتاج إليه علمنا أنه لم يأت بما أمر به . وأما قوله ثالثاً إنه يلزم ، إما الأمر بالتقيح وإما الجهل ، فنقول هذا بناء على أن الله تعالى لا يأمر إلا بما يكون حسناً في ذاته ولا ينهى إلا عما يكون قبيحاً في ذاته ، وذلك بناء على تحسين العقل وتقيحه وهو باطل ، وأيضاً فهب أنا نسلم ذلك إلا أنا نقول لم لا يجوز أن يقال إن الأمر بالشيء تارة يحسن لكون المأمور به حسناً وتارة لأجل أن ذلك الأمر يفيد صحة مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به حسناً ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يروض عبده ، فانه يقول له إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلاني ، ويكون ذلك الفعل من الأفعال الشاقة ، ويكون مقصود السيد من ذلك الأمر ليس أن يأتي ذلك العبد بذلك الفعل ، بل أن يوطن العبد نفسه على الإنقياد والطاعة ، ثم إن السيد إذا علم منه أنه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل الألم عنه ذلك التكليف ، فكذا ههنا ، فما لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم .

(المسألة الرابعة) احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه ، والدليل عليه أنه أمر بالذبح وما أراد وقوعه ، أما أنه أمر بالذبح فلما تقدم في المسألة الأولى . وأما أنه ما أراد وقوعه فلأن عندنا أن كل ما أراد الله وقوعه فانه يقع ، وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا أنه تعالى ما أراد وقوعه ، وأما عند المعتزلة فلأن الله تعالى نهى عن ذلك الذبح ، والنهي عن الشيء يدل على أن الناهي لا يريد وقوعه فثبت أنه تعالى أمر بالذبح ، وثبت أنه تعالى ما أراد ، وذلك يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة ، وتتمام الكلام في أن الله تعالى أمر بالذبح ما تقدم في المسألة المتقدمة ، والله أعلم .

(المسألة الخامسة) في بيان الحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة وبيانه من وجوه (الأول) أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح ، فورد أولاً في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة ، فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً (الثاني) أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقاً ، قال الله تعالى في حق محمد ﷺ (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام) وقال عن يوسف عليه السلام (إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) وقال في حق إبراهيم عليه السلام (إني أرى في المنام أني أذبحك) والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين ، لأن الحال إما حال يقظة وإما حال منام ، فإذا انتظرت الحالتان على الصدق ، كان ذلك هو النهاية في بيان كونهم محقين صادقين في كل الأحوال ، والله أعلم .

ثم نقول مقامات الأنبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها ما يقع على وفق الرؤية كما في قوله تعالى في حق رسولنا ﷺ (لتدخلن المسجد الحرام) ثم وقع ذلك الشيء بعينه ، ومنها ما يقع على الضد كما في حق إبراهيم عليه السلام فانه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة ، ومنها ما يقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما في رؤيا يوسف عليه السلام ، فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة .

(المسألة السادسة) قرأ حمزة والكسائي (ترى) بضم التاء وكسر الراء ، أن ماترى من نفسك من الصبر والتسليم ؟ وقيل ماتشير ، والباقون بفتح التاء ، ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل .

(المسألة السابعة) الحكمة في مشاورة الإبن في هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرّة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم ، وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالمية ويحصل للأبن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا ، ثم إنه تعالى حكى عن ولد إبراهيم عليه السلام أنه قال افعل ما تؤمر ، ومعتاه افعل ما تؤمر به ، فحذف الجار كما حذف من قوله :

أمرتك الخبر فافعل ما أمرت [به]

ثم قال (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) وإنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتمين ، وأنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله .

ثم قال تعالى (فلما أسلما) يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد ، وقد قرىء بهن جميعاً إذ انقاد له وخضع ، وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خالص له ، ومعناه سلم من أن ينازع فيه ، وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة ، وحقيقة معناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة ، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة في أسلمها أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ، ثم قال تعالى (وتله للجبين) أي صرعه على شقه فوق أحد جبينيه على الأرض وللوجه جبينان ، والجهة بينهما ، قال ابن الأعرابي التليل والمتلول المصروع والمتل الذي يتل به أي يصرع ، فالعنى أنه صرعه على جبينه ، وقال مقاتل كبه على جهته ، وهذا خطأ لأن الجبين غير الجهة .

ثم قال تعالى (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وفيه قولان (الأول) أن هذا جراب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة (والقول الثاني) أن عند البصريين لا يجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير : فلما فعل ذلك وناداه الله أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب ، قالوا وحذف الجواب ليس بغريب في القرآن والفائدة فيه أنه إذا كان محذوفاً كان أعظم وأنخم ، قال المفسرون لما أضجعه للذبح نودي من الجبل (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) قال المحققون السبب في هذا التكليف كمال طاعة إبراهيم لتكليف الله تعالى فلما كافه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد ، لا جرم قال قد صدقت الرؤيا ، يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا

وقوله (إنا كذلك نجزي المحسنين) ابتداء إخبار من الله تعالى ، وليس يتصل بما تقدم من الكلام ، والمعنى أن إبراهيم وولده كانا محسنين في هذه الطاعة ، فكما جزينا هذين المحسنين فكذلك نجزي كل المحسنين .

ثم قال تعالى (إن هذا هو البلاء المبين) أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التى لا محنة أصعب منها (وفديناه بذبح عظيم) الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضاً ما يذبح وهو المراد فى هذه الآية ، وههنا مباحث تتعلق بالحكايات (فالأول) حكى فى قصة الذبيح أن إبراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال يا بنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نختطب ، فلما توسطنا شعب ثبير أخبره بما أمر به ، فقال يا أبت اشدد رباطى فى كيلا أضطرب ، واكفف عني ثيابك لا يفتضح عليها شيء من دمي فتراه أمى فتحزن ، واستحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلقى ليكون أهون فان الموت شديد ، واقرأ على أمى سلامى وإن رأيت أن ترد قيمتى على أمى فافعل فانه عسى أن يكون أسهل لها ، فقال إبراهيم عليه السلام نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال كنى على وجهى فانك إذا نظرت وجهى رحمتى وأدركتك رقة وقد تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودى يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .

(البحث الثانى) اختلفوا فى ذلك الكبش فقيل إنه الكبش الذى تقرب به هايل ابن آدم إلى الله تعالى فقبله ، وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به إسماعيل ، وقال آخرون أرسل الله كبشاً من الجنة قدرعى أربعين خريفاً ، وقال السدى نودى إبراهيم فالتفت فإذا هو بكبش أملح انحط من الجبل ، فقام عنه إبراهيم فأخذه فذبحه ، وخلي عن ابنه ، ثم اعتنق ابنه وقال يا بنى اليوم وهبت لى ، وأما قوله (عظيم) فقيل سمي عظيماً لعظمه وسمته ، وقال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيماً وقد رعى فى الجنة أربعين خريفاً ، وقيل سمي عظيماً لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد إبراهيم ، ثم قال تعالى (إنه من عبادنا المؤمنين) الضمير فى قوله (إنه) عائد إلى إبراهيم ، ثم قال تعالى (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) فقوله (نبياً) حال مقدرة أى بشرناه بوجود إسحاق مقدرة نبوته ، ولمن يقول إن الذبيح هو إسماعيل أن يحتج بهذه الآية ، وذلك لأن قوله (نبياً) حال ولا يجوز أن يكون المعنى فبشرناه بإسحاق حال كون إسحاق نبياً لأن البشارة به متقدمة على صيرورته نبياً ، فوجب أن يكون المعنى وبشرناه بإسحاق حال ما قدرناه نبياً ، وحال ما حكمنا عليه فصبر ، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ كانت هذه البشارة بشارة بوجود إسحاق حاصلة بعد قصة الذبيح ، فوجب أن يكون الذبيح غير إسحاق ، أقصى ما فى الباب أن يقال لا يبعد أن يقال هذه الآية وإن كانت متأخرة فى التلاوة عن قصة الذبيح إلا أنها كانت متقدمة عليها فى الوقوع والوجود ، إلا أنا نقول الأصل رعاية الترتيب وعدم التدرج فى النظم ، والله أعلم بالصواب .

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ السُّكْرِبِ
 الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ
 ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾
 سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ
 عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

ثم قال تعالى (وباركنا عليه وعلى اسحق) وفي تفسير هذه البركة وجهان (الأول) أنه تعالى أخرج جميع أنبياء بني إسرائيل من صلب اسحاق (والثاني) أنه أبقي الشئ الحسن على إبراهيم واسحاق إلى يوم القيامة ، لأن البركة عبارة عن الدوام والثبات ، ثم قال تعالى (ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) وفي ذلك تذييه على أنه لا يلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن ، لئلا يصير هذه الشبهة سبباً لمفاخرة اليهود ، ودخل تحت قوله (محسن) الأنبياء والمؤمنون وتحت قوله (ظالم) الكافر والفاسق والله أعلم .

﴿ قصة موسى وهرون عليهما السلام ﴾

قوله تعالى ﴿ ولقد مننا على موسى وهارون ، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ، وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم ، وتركنا عليهما في الآخريين ، سلام على موسى وهارون ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ .
 اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص من المذكرة في هذه السورة ، واعلم أن وجوه الأنعام وإن كانت كثيرة إلا أنها محصورة في نوعين إيصال المنافع إليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين ههنا ، فقوله (ولقد مننا على موسى وهارون) إشارة إلى إيصال المنافع إليهما ، وقوله (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) إشارة إلى دفع المضار عنهما .

﴿ أما القسم الأول ﴾ وهو إيصال المنافع ، فلا شك أن المنافع على قسمين : منافع الدنيا ومنافع الدين ، أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما ، وأما منافع الدين فالعلم والطاعة ، وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة ، ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل في سائر السور ، لا جرم اكتفى ههنا بهذا الرمز .

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمَنْ الْمُرْسَلِينَ «١٢٣» إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ «١٢٤» أَتَدْعُونَ
بِعَلًّا وَتَدْرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ «١٢٥» اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ «١٢٦»
فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ «١٢٧» إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ «١٢٨» وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي
الْآخِرِينَ «١٢٩» سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ «١٣٠» إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «١٣١»
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ «١٣٢»

(وأما القسم الثاني) وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله (ونجيناها وقومها من الكبر
العظيم) وفيه قولان : قيل إنه الفرق ، أغرق الله فرعون وقومه ، ونجى الله بنى إسرائيل ، وقيل
المراد أنه تعالى نجاهم من إيذاء فرعون حيث كان يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم .
واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه من على موسى وهرون ، فصل أقسام تلك المنة والهاء في قوله
(ونصرناهم) أى نصرنا موسى وهرون وقومهما (وكانوا هم الغالبين) فى كل الأحوال بظهور الحججة
وفى آخر الأمر بالدولة والرفعة (وثانيتها) قوله تعالى (وآتيناهما الكتاب المستبين) والمراد منه
التوراة ، وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التى يحتاج إليها فى مصالح الدين والدنيا ، كما قال
(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ، (وثالثها) قوله تعالى (وهديناها الصراط المستقيم) أى دللناهما
على طريق الحق عقلا وسمعا ، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة ، وتشديه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم
واضح (ورابعها) قوله تعالى (وتركنا عليهما فى الآخريين) وفيه قولان (الأول) أن المراد (وتركنا
عليهما فى الآخريين) وهم أمة محمد ﷺ قولهم (سلام على موسى وهرون) (والثانى) أن المراد (وتركنا
عليهما فى الآخريين) وهم أمة محمد ﷺ الشاء الحسن والذكر الجميل ، وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك
(سلام على موسى وهرون) هو كلام الله تعالى ، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الأربعة من أبواب
التعظيم والتفضيل قال (إنا كذلك نجزي المحسنين) وقد سبق تفسيره ، ثم قال تعالى (إنهما من عبادنا
المؤمنين) والمقصود التنبيه ، على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى وأكمل من كل
الفضائل ، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهرون بكونهما من المؤمنين ، والله أعلم .
(قصة إلياس عليه السلام)

قوله تعالى (وإن إلياس لمن المرسلين ، إذ قال لقومه ألا تتقون ، أتدعون بعلا وتذرون
أحسن الخالقين ، الله ربكم ورب آبائكم الأولين ، فكذبوه فانهم لمحضرون ، إلا عباد الله المخلصين ،
وتركنا عليه فى الآخريين ، سلام على إبراهيم ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين)

اعلم أن هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ ابن عامر (وإن إلياس) بغير همزة على وصل الألف والباقون بالهمزة وقطع الألف ، قال أبو بكر بن مهران : من ذكر عند الوصل الألف فقد أخطأ ، وكان أهل الشام ينكرونه ولا يعرفونه ، قال الواحدى وله وجهان (أحدهما) أنه حذف الهمزة من إلياس حذفاً ، كما حذفها ابن كثير من قوله (إنها لإحدى الكبر) وكقول الشاعر :

ويلها في هواء الجو طالبة

والآخر أنه جعل الهمزة التي تصحب اللام للتعريف كقوله (واليسع) .

(المسألة الثانية) في إلياس قولان : يروى عن ابن مسعود أنه قرأ وإن إدريس ، وقال إن إلياس هو إدريس ، وهذا قول عكرمة ، وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو إلياس بن ياسين من ولد هرون أخى موسى عليهم السلام ، ثم قال تعالى (إذ قال لقومه ألا تتقون) والتقدير اذكر يا محمد لقومك (إذ قال لقومه ألا تتقون) أى ألا تخافون الله ، وقال الكلبى ألا تخافون عبادة غير الله . واعلم أنه لما خوفهم أولاً على سبيل الإجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) وفيه أبحاث :

(الأول) في بعل قولان (أحدهما) أنه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل ، وقيل كان من ذهب ، وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه ، وفتنوا به وعظموه ، حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء ، وكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشام ، وبه سميت مدينتهم بعلبك . واعلم أن قولهم بعل اسم لصنم من أصنامهم لا بأس به ، وأما قولهم إن الشيطان كان يدخل في جوف بعلبك ويتكلم بشريعة الضلالة ، فهذا مشكل لأننا إن جوزنا هذا كان ذلك قادحاً في كثير من المعجزات ، لأنه نقل في معجزات النبي ﷺ كلام الذئب معه وكلام الجمل معه وحنين الجذع ، ولو جوزنا أن يدخل الشيطان في جوف جسم ويتكلم ، فحينئذ يكون هذا الاحتمال قائماً في الذئب والجمل والجذع ، وذلك يقدح في كون هذه الأشياء معجزات (القول الثانى) أن البعل هو الرب بلغة اليمن ، يقال من بعل هذه الدار ، أى من ربها ، وسمى الزوج بعلا لهذا المعنى ، قال تعالى (وبعولتهن أحق بردهن) وقال تعالى (وهذا بعل شينخاً) فعلى هذا التقدير المعنى ، أتعبدون بعض البعول وتركون عبادة الله .

(البحث الثانى) المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقاً لأفعال نفسه ، فقالوا لو لم يكن غير الله خالقاً لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين ، والكلام فيه قد تقدم في قوله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

(البحث الثالث) كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول لو قيل : أتدعون بعلا وتدعون أحسن الخالقين . أوهم أنه أحسن ، لأنه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التحسين (وجوابه) أن فصاحة

وَإِنَّ لَوْطًا مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا
فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٢٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ
﴿١٢٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٨﴾

القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف ، بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ . واعلم أنه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفى الشركاء ، فقال (الله ربكم ورب آبائكم الأولين) وفيه مباحث :
(الاول) أنا ذكرنا في هذا الكتاب أن حدوث الأشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار ، وكيف يدل على وحدته وبرامته عن الأضداد والأنداد ، فلا فائدة في الإعادة .
(البحث الثاني) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (الله ربكم ورب آبائكم) كلها بالنصب على البدل من قوله (أحسن الخالقين) والباقون بالرفع على الاستئناف ، والاول اختيار أبي حاتم وأبي عبيد ، ونقل صاحب الكشاف أن حمزة إذا وصل نصب ، وإذا وقف رفع ، ولما حكى الله عنه أنه قرر مع قومه التوحيد قال (فكذبوه فانهم لمحضرون) أي لمحضرون النار غداً ، وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله (لكنك من المحضرين) ثم قال تعالى (إلا عباد الله المخلصين) وذلك لأن قومه ما كذبوه بكليتهم ، بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فهذا قال تعالى (إلا عباد الله المخلصين) يعنى الذين أتوا بالتوحيد الخالص فانهم لا يحضرون ثم قال (وتركنا عليه في الآخرين سلام على إيل ياسين) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين على إضافة لفظ آل إلى لفظ ياسين والباقون بكسر الألف وجزم اللام موصولة بياسين ، أما القراءة الأولى ففيها وجوه : (الاول) وهو الأقرب أنا ذكرنا أنه إلياس بن ياسين فكان الياس آل ياسين (الثاني) آل ياسين آل محمد ﷺ (والثالث) أن ياسين اسم القرآن ، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذي هو ياسين ، والوجه هو الأول لأنه أليق بسياق الكلام ، وأما القراءة الثانية ففيها وجوه (الاول) قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكالين ، فكذا ههنا إلياس وإلياسين (والثاني) قال الفراء هو جمع وأراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين ، كقولهم المهلبون والسعدون قال :

أنا ابن سعد أكرم السعدينا

(فصة لوط عليه السلام)

ثم قال تعالى (إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين) وقد سبق تفسيره والله أعلم ، قوله تعالى (وإن لوطاً لمن المرسلين ، إذ نجيناها وأهلها أجمعين ، إلا عجوزاً في الغابرين ، ثم دمرنا

الآخرين ، وإنكم تمرُّون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون)

وَإِن يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ «١٣٩» إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ «١٤٠»
 فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ «١٤١» فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ «١٤٢» فَلَوْلَا أَنَّهُ
 كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ «١٣٤» لَلَبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ «١٤٤» فَنبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ
 وَهُوَ سَقِيمٌ «١٤٥» وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ «١٤٦» وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ
 أَوْ يَزِيدُونَ «١٤٧» فَأَمِنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ «١٤٨»

هذا هو القصة الخامسة ، وإنه تعالى إنما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركو العرب ، فان الذين
 كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا ، وقد تقدم شرح هذه القصة ، وقد نبههم بقوله تعالى
 (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل) وذلك لأن القوم كانوا يسافرون إلى الشام والمسافر في
 أكثر الأمر إنما يمشي في الليل وفي أول النهار ، فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين .
 ثم قال تعالى (أفلا تعقلون) يعني أليس فيكم عقول تعتبرون بها ، والله أعلم .

(قصة يونس عليه السلام)

قوله تعالى (وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ،
 فالتقمه الحوت وهو ملِيم . فلولا أنه كان من المسبحين ، للبت في بطنه إلى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء
 وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعنناهم إلى حين)
 أعلم أن هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة في هذه السورة ، وإنما صارت
 هذه القصة خاتمة للقصص ، لأجل أنه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق إلى الفلك وقع في تلك
 الشدائد فيصير هذا سبباً لتصبر النبي ﷺ على أذى قومه .

أما قوله (وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون) ففيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال صاحب الكشاف قرئ يونس بضم النون وكسر ها .

(المسألة الثانية) دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة إنما وقعت ليونس عليه السلام بعد أن

صار رسولا ، لأن قوله (وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك) معناه أنه كان من المرسلين
 حينما أبق إلى الفلك ، ويمكن أن يقال إنه جاء في كثير من الروايات أنه أرسله ملك زمانه إلى
 أولئك القوم ليدعوهم إلى الله ، ثم أبق والتقمه الحوت فعند ذلك أرسله الله تعالى ، والحاصل أن قوله
 (لمن المرسلين) لا يدل على أنه كان في ذلك الوقت مرسلا من عند الله تعالى ، ويمكن أن يجاب بأنه
 سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف في معرض تعظيمه ، ولن يفيد هذه الفائدة إلا إذا كان المراد من

قوله (لمن المرسلين) أنه من المرسلين عند الله تعالى .

(المسألة الثالثة) أبق من إباق العبد وهو هربه من سيده ، ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم إنه أبق من الله تعالى ، وهذا بعيد لأن ذلك لا يقال إلا فيمن يتعمد مخالفة ربه ، وذلك لا يجوز على الأنبياء واختلفوا فيما لأجله صار مخطئاً ، فقيل لأنه أمر بالخروج إلى بني اسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضباً لربه ، وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحي أو بلسان نبي آخر ، وقيل إن ذنبه أنه ترك دعاء قومه ، ولم يصبر عليهم . وهذا أيضاً بعيد لأن الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه ، والأقرب فيه وجهان : (الأول) أن ذنبه كان لأن الله تعالى وعده إنزال الإهلاك بقومه الذين كذبوه فظن أنه نازل لا محالة ، فلأجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم ، فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وإن أنزله ، وهذا هو الأقرب لأنه إقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمداً للمعصية ، وإن كان الأولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد أنه أخطأ في ذلك الظن ، لأجل أنه ظهر الإيمان منهم فعنى قوله (إذ أبق إلى الفلك) ما ذكرناه (الوجه الثاني) أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصده البحر وركب السفينة ، فذلك هو قوله (إذ أبق إلى الفلك) وتمام الكلام في مشكلات هذه الآية ذكرناه في قوله تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه) وقوله (إلى الفلك المشحون) مفسر في سورة يونس والسفينة إذا كان فيها الحمل الكثير والناس يقال إنها مشحونة ، ثم قال تعالى (فساهم) المساهمة هي المقارعة ، يقال أسهم القوم إذا اقترعوا ، قال المبرد وإنما أخذ من السهام التي تجال للقرعة (فكان من المدحضين) أي المغلوبين يقال أدحض الله حجته فدحضت أي أزالتها فزالت وأصل الكلمة من الدحض الذي هو الزلق ، يقال دحضت رجل البعير إذا زلقت ، وذكر ابن عباس في قصة يونس عليه السلام أنه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبي منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقى سبطان ونصف ، وكان الله تعالى أوحى إلى بني اسرائيل إذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم ، فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين إلى نبي من أنبيائهم أن اذهب إلى ملك هؤلاء الاقوام وقل له حتى يبعث إلى بني اسرائيل نبياً ، فاختر يونس عليه السلام لقوته وأمانته ، قال يونس الله أمرك بهذا قال لا ولكن أمرت أن أبعث قوياً أميناً وأنت كذلك ، فقال يونس وفي بني اسرائيل من هو أقوى مني فلم لا تبعثه ، فأوحى الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم ووجد سفينة مشحونة فحملوه فيها ، فلما دخلت لجة البحر أشرفت على الغرق ، فقال الملاحون إن فيكم عاصياً وإلام يحصل في السفينة ما نراه من غير ربح ولا سبب ظاهر ، وقال التجار قد جربنا مثل هذا فإذا رأيناه نقترع ، فمن خرج سهمه نغرقه ، فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس ، فقال التجار نحن أولى بالمعصية من نبي الله ، ثم عادوا ثانياً وثالثاً يقترعون فيخرج سهم

يونس ، فقال يا هؤلاء أنا العاصي وتلفف في كساء ورمى بنفسه فابتلغته السمكة فأوحى الله تعالى إلى الحوت « لا تكسر منه عظماً ولا تقطع له وصلاً » ثم إن السمكة أخرجته إلى نيل مصر ثم إلى بحر فارس ثم إلى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء ، وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم ، فأنت الله عليه شجرة من يقطين ، فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد ، ثم إن الأرض أكلتها فخرت من أصلها فحزن يونس لذلك حزناً شديداً ، فقال يارب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت ، فقيل له يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة واقتلعت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركنهم ! انطلق إليهم ، والله أعلم بحقيقة الواقعة .

ثم قال تعالى (فالتقمه الحوت وهو مليم) يقال التقمه والتهمه والكل بمعنى واحد ، وقوله تعالى (وهو مليم) يقال الام إذا أتى بما يلام عليه ، فالمليم المستحق للوم الآتي بما يلام عليه .
ثم قال تعالى (فلو لا أنه كان من المسبحين ، للبت في بطنه إلى يوم يبعثون) وفي تفسير كونه من المسبحين قولان (الأول) أن المراد منه ما حكى الله تعالى عنه في آية أخرى أنه كان يقول في تلك الظلمات لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (الثاني) أنه لو لا أنه كان قبل أن التقمه الحوت من المسبحين يعني المصلين وكان في أكثر الأوقات مواظباً على ذكر الله وطاعته للبت في بطن ذلك الحوت ، وكان بطنه قبراً له إلى يوم البعث ، قال بعضهم اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، فان يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذا كرا لله تعالى ، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى فلو لا أنه كان من المسبحين للبت في بطنه إلى يوم يبعثون ، وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً ، فلما أدركه الغرق قال (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) قال الله تعالى (آلآن وقد عصيت قبل) واختلفوا في أنه كم لبث في بطن الحوت ، ولفظ القرآن لا يدل عليه . قال الحسن لم يلبث إلا قليلاً وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه ، وعن مقاتل ابن حيان ثلاثة أيام وعن عطاء سبعة أيام وعن الضحاك عشرين يوماً وقيل شهراً ولا أدري بأي دليل عينوا هذه المقادير ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « سبح يونس في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، فقال ذلك عبدي يونس عصاني فخبسته في بطن الحوت في البحر ، فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم ، فشفعوا له فأمر الحوت فلقه في الساحل » فذاك هو قوله (فنبتناه بالعراء) وفيه مباحث :

(الأول) العراء المكان الخالي قال أبو عبيدة إنما قيل له العراء لأنه لا شجر فيه ولا شيء يغطيه .

(الثاني) أنه تعالى قال (فنبتناه بالعراء) فأضاف ذلك النبت إلى نفسه ، والنبت إنما حصل

بفعل الحوت ، وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى .

فَاسْتَفْتَهُمُ الرَّبُّكَ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الْبَنُونَ «١٤٩» أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ

ثم قال تعالى (وهو سقيم) قيل المراد أنه بلى لحمه وصار ضعيفاً كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذي ليس عليه ريش ، وقال مجاهد سقيم أى سليب .

ثم قال تعالى (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) ظاهر اللفظ يدل على أن الحوت لما نبذه في العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجز له ، قال المبرد والزجاج كل شجر لا يقوم على ساق وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين ، نحو الدباء والحنظل والبطيخ ، قال الزجاج أحسب اشتقاقها من قطن بالمكان إذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض فلذلك قيل له اليقطين ، روى الفراء أنه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع ، فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطيناً كل ورقة اتسعت وسترت فهي يقطين ، قال الواحدى رحمه الله والآية تقتضى شيئين لم يذكرهما المفسرون (أحدهما) أن هذا اليقطين لم يكن قبل فأنبته الله لأجله (والآخر) أن اليقطين كان معروشاً ليحصل له ظل ، لأنه لو كان منبسطاً على الأرض لم يمكن أن يستظل به

ثم قال تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) وفيه مباحث :

(الأول) يحتمل أن يكون المراد وأرسلناه قبل أن يلتقمه الحوت وعلى هذا الإرسال وإن ذكر بعد الالتقام ، فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع ، ويحتمل أن يكون المراد به الإرسال بعد الالتقام ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ، وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل إلى قوم آخرين سوى القوم الأول ، ويجوز أن يكون أرسل إلى الأولين ثانياً بشريعة فآمنوا بها .

(البحث الثانى) ظاهر قوله (أو يزيدون) يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى (عذراً أو نذراً) وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) وقوله تعالى (لعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً) وقوله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وقوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) وأجابوا عنه من وجوه كثيرة والأصح منها وجه واحد وهو أن يكون المعنى أو يزيدون فى تقدير لم بمعنى أنهم إذا رأهم الرأى قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة ، وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا .

ثم قال تعالى (فآمنوا فمتعنهم إلى حين) والمعنى أن أولئك الأقسام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله إلى حين ، أى إلى الوقت الذى جعله الله أجلاً لكل واحد منهم .

قوله تعالى (فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ،

شَاهِدُونَ «١٥٠» أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكَهِمْ لَيَقُولُونَ «١٥١» وَوَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
 «١٥٢» أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ «١٥٣» مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ «١٥٤» أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ «١٥٥» أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ «١٥٦» فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
 «١٥٧» وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجَنَّةَ إِنَّهُمْ لِمُحْضَرُونَ «١٥٨»
 سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ «١٥٩» إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ «١٦٠»

ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف
 تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ، فاتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه
 وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين)
 وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) اعلم أنه تعالى لما ذكر أقاصيص الأنبياء عليهم السلام عاد إلى شرح
 مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها ، ومن جملة أقوالهم الباطلة أنهم أثبتوا الأولاد لله سبحانه
 وتعالى ، ثم زعموا أنها من جنس الإناث لا من جنس الذكور فقال (فاستفتهم الربك البنات
 ولهم البنون) وهذا معطوف على قوله في أول السورة (فاستفتهم أم أشد خلقاً أمن خلقنا)
 وذلك لأنه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً ثم
 ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض إلى أن أمره بأن يستفتيهم في أنهم لم أثبتوا لله سبحانه البنات
 ولا أنفسهم البنين ، ونقل الواحدى عن المفسرين أنهم قالوا إن قريشاً وأجناس العرب جهينة وبنى
 سلمة وخزاعة وبنى مليح قالوا الملائكة بنات الله ، واعلم أن هذا الكلام يشتمل على أمرين :
 (أحدهما) إثبات البنات لله وذلك باطل لأن العرب كانوا يستنكفون من البنت ، والشئ الذى
 يستنكف المخلوق منه كيف يمكن إثباته للخالق (والثانى) إثبات أن الملائكة إناث : وهذا
 أيضاً باطل لأن طريق العلم إما الحس وإما الخبر وإما النظر ، أما الحس ففقودها لأنهم ما شهدوا
 كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله (أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون)
 وأما الخبر ففقود أيضاً لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقاً قطعاً وهؤلاء الذين يخبرون
 عن هذا الحكم كذابون أفاكون ، لم يدل على صدقهم لادلالة ولا أمارة ، وهو المراد من قوله
 (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون) وأما النظر ففقود وبيانه من وجهين

(الاول) أن دليل العقل يقضى فساد هذا المذهب . لأن الله تعالى أكمل الموجودات ، والأكمل لا يليق به اصطفاؤه الأخرس وهو المراد من قوله (أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون) يعنى إسناد الأفضل إلى الأفضل أقرب عند العقل من إسناد الأخرس إلى الأفضل ، فان كان حكم العقل معتبراً في هذا الباب كان قولكم باطلا (والوجه الثانى) أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم ، بل نطالبهم بإثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم فاذا لم يجدوا ذلك الدليل فضده يظهر أنه لم يوجد ما يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله (أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) فثبت بما ذكرنا أن القول الذى ذهبوا إليه لم يدل على صحته ، لا الحس ولا الخبر ولا النظر ، فكان المصير إليه باطلا قطعاً ، واعلم أنه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل ذلك على أن التقليد باطل ، وأن الدين لا يصح إلا بالدليل .

(المسألة الثانية) قوله (أصطفى البنات على البنين) قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من (أصطفى) ثم بحذف ألف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقرير ، كقوله تعالى (أم اتخذ مما يخلق بنات) وقوله تعالى (أم له البنات ولكم البنون) وقوله تعالى (ألمكم الذكر وله الأنثى) ولما أن هذه المواضع كلها استفهام فكذلك في هذه الآية ، وقرأ نافع في بعض الروايات (لكاذبون اصطفى) موصولة بغير استفهام ، وإذا ابتداء كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات في زعمهم كقوله (ذق إنك أنت العزيز الكريم) في زعمه واعتقاده .

ثم قال تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) واختلفوا في المراد بالجنة على وجوه (الاول) قال مقاتل أثبتوا نسباً بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله ، وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموها جنأ لا جتناهم عن الأبصار أو لأنهم خزان الجنة ، وأقول هذا القول عندى مشكل ، لأنه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ، ثم عطف عليه قوله (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) والعطف يقتضى كون المعطوف مغايراً للمعطوف عليه ، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم (الثانى) قال مجاهد قالت كفار قريش الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم ؟ قالوا أسرات الجن ، وهذا أيضاً عندى بعيد لأن المصاهرة لا تسمى نسباً (والثالث) رويناه في تفسير قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) أن قوماً من الزنادقة يقولون الله وإبليس أخوان فالله الخير الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الحسيس ، فقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) المراد منه هذا المذهب ، وعندى أن هذا القول أقرب الأقاويل . وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن (١) ثم قال تعالى (ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون) أى قد علمت الجنة أن الذين قالوا هذا القول محضرون النار ويعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة أنهم سيحضرون في العذاب ، فعلى القول الأول الضمير عائد إلى قائل هذا القول ، وعلى القول الثانى عائد إلى الجنة أنفسهم ، ثم إنه تعالى

(١) يزدان واهرمن أى الشر والخير أو النور والظلمة وهذا المذهب هو المذهب المعروف بمذهب المانوية نسبة إلى مانى ، أول من قال به . وهو مذهب باطل لما فيه من الاشرار بالله .

فَانَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ «١٦١» مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ «١٦٢» إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ
الْجَحِيمِ «١٦٣» وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ «١٦٤» وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ «١٦٥»
وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ «١٦٦» وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ «١٦٧» لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا
مِّنَ الْأُولِينَ «١٦٨» لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ «١٦٩» فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ «١٧٠»

نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال (سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين) وفي هذا الاستثناء وجوه ، قيل استثناء من المحضرين ، يعني أنهم ناجون ، وقيل هو استثناء من قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) وقيل هو استثناء منقطع من المحضرين ، ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك ، والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله وبفتحها من أخلصه الله بلطفه والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ فانكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ، وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين ، لكننا عباد الله المخلصين ، فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار أتبعه بما نبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرّون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان قد سبق حكم الله في حقه بالعذاب والوقوع في النار ، وذكر صاحب الكشاف في قوله (فانكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين) قولين (الأول) الضمير في (عليه) لله عز وجل معناه فانكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علم الله كونهم من أهل النار ، فان قيل كيف يفتنونهم على الله ؟ قلنا يفتنونهم عليه بإغوائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أقسدها عليه : (والوجه الثاني) أن تكون الواو في قوله (وما تعبدون) بمعنى مع كما في قولهم كل رجل وضيعته ، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته ، فكذلك جاز أن يسكت على قوله (فانكم وما تعبدون) لأن قوله (وما تعبدون) ساد مسد الخبر ، لأن معناه فانكم مع ما تعبدون ، والمعنى فانكم مع آلهتكم أي فانكم قرناؤهم وأصحابهم لا تتركون عبادتها ، ثم قال تعالى (ما أنتم عليه) أي على ما تعبدون (بفاتنين) بياعثن أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال (إلا من هو صال الجحيم) مثلكم . وقرأ الحسن (صال الجحيم) بضم اللام ووجهه أن يكون جمعاً وسقوط واوه لالتقاء

الساكنين ، فان قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله (من هو) قلنا (من) موحد اللفظ بجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه .

(المسألة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا تأثير لإغواء الشيطان وسوسته ، وإنما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره ، لأن قوله تعالى (فانكم وما تعبدون ما أتم عليه بفاتين) تصريح بأنه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لأحوال معبوديهم في وقوع الفتنة والضلال ، وقوله تعالى (إلا من هو صال الجحيم) يعنى إلا من كان كذلك في حكم الله وتقديره ، وذلك تصريح بأن المقتضى لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى ، وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية في إثبات هذا المطلوب ، قال الجبائي المراد أن الذين عبدوا الملائكة يزعمون أنهم بنات الله لا يكفرون أحداً إلا من ثبت في معلوم الله أنه سيكفر ، فدل هذا على أن من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه وإلا كان يمنع الشيطان ، فصح بهذا أن كل من يعصى لم يكن يصلح عنه شيء من الأفعال (والجواب) حاصل هذا الكلام أنه لا تأثير لإغواء شياطين الإنس والجن . وهذا النزاع فيه إلا أن وجه الاستدلال أنه تعالى بين أنه لا تأثير لكلامهم في وقوع الفتنة ، ثم استثنى منه ما في قوله تعالى (إلا من هو صال الجحيم) فوجب أن يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكوماً عليه بأنه صال الجحيم ، وذلك تصريح بأن حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذى يؤثر في حصول الشقاوة والسعادة . واعلم أن أصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو أنه حج آدم موسى ، قال القاضى هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد ، لأنه يوجب أن لا يلام أحد على شيء من الذنوب ، لأنه إن كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه ، فكذلك كل مذنب . فان صححت هذه الحجة لآدم عليه السلام ، فلماذا قال موسى عليه السلام في الوكزة هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ؟ ولماذا قال فلن أكون ظهيراً للمجرمين ؟ ولماذا لأم فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم ؟ ومن عجيب أمرهم أنهم يكفرون القدرية ، وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدراً ، فلزمهم أن يكفروه ، وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) أن يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه ، وقد كتب عليه ذلك قبل أن يخلقه ، هذا جملة كلام القاضى فيقال له هب أنك لا تقبل ذلك الخبر ، فهل ترد هذه الآية أم لا ، فإننا بينا أن صريح هذه الآية يدل على أنه لا تأثير للوساوس في هذا الباب ، فان الكل يحصل بحكمة الله تعالى ، والذى يدل عليه وجوه (الأول) أن الكافر إن ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان إن كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال ، وإن انتهى إلى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب (الثانى) أن كل أحد يريد أن يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق ، فحصل ضده يدل على أن ذلك ليس منه (الثالث) أن الأفعال موقوفة على الدواعى وحصول الدواعى بخلق الله ، فيكون الكل

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾

وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ

من الله تعالى (الرابع) أنه تعالى لما اقتضت حكمته شيئاً ، وعلم وقوعه ، فلو لم يقع ذلك الشيء ، لزم انقلاب ذلك الحكم كذباً وانقلاب ذلك العلم جهلاً وهو محال ، وأما الآيات التي تمسك بها القاضى فهي معارضة بالآيات الدالة على أن الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من هذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التي ذكرناها سليمة ، والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿ (وما منا إلا له مقام معلوم) فالجمهور على أنهم الملائكة ، ووصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية ، فانهم يصطفون للصلاة والتسبيح ، والغرض منه التثنية على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله وذلك لأن مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية ، واعلم أن هذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة (فأولها) قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لا يتعدى عنها ، وتلك الدرجات إشارة إلى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم وإلى درجاتهم في معرفة الله تعالى أما درجاتهم في التصرفات والأفعال فهي قوله (وإنا لنحن الصافون) والمراد كونهم صافين في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية ، وأما درجاتهم في المعارف فهي قوله تعالى (وإنا لنحن المسبحون) والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به .

واعلم أن قوله (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) يفيد الحصر ومعناه أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم وأنهم هم المسبحون لا غيرهم ، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم ، حتى يصح هذا الحصر . وبالجملة فهذه الألفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات الملائكة فكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال البشر تقرب درجته من الملك فضلا عن أن يقال هل هو أفضل منه أم لا .

وأما قوله (وإن كانوا يقولون لو أن عندنا ذكرأ من الأولين لكننا عباد الله المخلصين) فالمعنى أن مشركى قريش وغيرهم كانوا يقولون (لو أن عندنا ذكرأ) أى كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله ، ولما كذبنا كما كذبوا . ثم جاءهم الذكر الذى هو سيد الأذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب ، وهو القرآن فكفروا به . ونظير هذه الآية قوله تعالى (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً) ثم قال تعالى (فسوف يعلمون) أى فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب .

قوله تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ،

يَبْصُرُونَ « ٧٥ » أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ « ١٧٦ » فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ
 الْمُنذِرِينَ « ١٧٧ » وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ « ١٧٨ » وَأَبْصُرْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ « ١٧٩ »
 سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ « ١٨٠ » وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ « ١٨١ »
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ « ١٨٢ »

فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون ، فإذا نزل بساحتهم فسَاء صباح المنذرين ، وتولَّى عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴿

اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بقوله تعالى (فسوف يعلمون) أى عاقبة كفرهم أردفه بما يقوى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون) فبين أن وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، وأيضاً أن الخير مقضى بالذات ، والشر مقضى بالعرض ، وما بالذات أقوى بما بالعرض ، وأما النصرة والغلبة فقد تكون بقوة الحجّة ، وقد تكون بالدولة والاستيلاء ، وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وإن صار مغلوباً فى بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب ، ولا يلزم على هذه الآية أن يقال : فقد قتل بعض الأنبياء وقد هزم كثير من المؤمنين ، ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم (فتول عنهم حتى حين) والمراد ترك مقاتلتهم والثقة بما وعدناهم إلى حين يتمتعون ، ثم تحل بهم الحسرة والندامة ، واختلف المفسرون فقيل المراد إلى يوم بدر ، وقيل إلى فتح مكة ، وقيل إلى يوم القيامة ، ثم قال (وأبصرهم فسوف يبصرون) والمعنى فأبصرهم وما يقضى عليهم من القتل والأسر فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، فسوف يبصرونك مع ما قدر لك من النصرة والتأييد فى الدنيا والثواب العظيم فى الآخرة ، والمراد من الأمر المشاهد بأبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة ، وأن كينوتها قريبة كأنها قدام ناظريك ، وقوله (فسوف يبصرون) للتهديد والوعيد ، ثم قال (أفبعذابنا يستعجلون) والمعنى أن الرسول عليه السلام كان يهددهم بالعذاب ، وما رأوا شيئاً فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء ، فبين تعالى أن ذلك الاستعجال جهل ، لأن لكل شىء من أفعال الله تعالى وقتاً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر ، فكان طلب حدوثه قبل مجىء ذلك الوقت جهلاً ، ثم قال تعالى فى صفة العذاب الذى يستعجلونه (فإذا نزل بساحتهم) أى هذا العذاب (فسَاء صباح المنذرين) وإنما وقع

هذا التعبير عن هذه المعاني كأنهم كانوا يقدمون على العادة في وقت الصباح ، فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العمل ، ثم أعاد تعالى قوله (فتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون) فقيل المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا ، وفي هذه الكلمة أحوال القيامة ، وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل ، وقيل إن المراد من التكرير المبالغة في التهديد والتهويل ، ثم إنه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية ، وذلك لأن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة (فأولها) معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية ، وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع (أحدها) تزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية ، وهو لفظه سبحانه (وثانيها) وصفه بكل ما يليق بصفات الإلهية وهو قوله (رب العزة) فإن الربوبية إشارة إلى التربية وهي دالة على كمال الحكمة ، والرحمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة (وثالثها) كونه منزهاً في الإلهية عن الشريك والنظير ، وقوله (رب العزة) يدل على أنه القادر على جميع الحوادث ، لأن الألف واللام في قوله (العزة) تفيد الاستغراق ، وإذا كان الكل ملكاً له وملكاً له لم يبق لغيره شيء ، فثبت أن قوله (سبحانه ربك رب العزة عما يصفون) كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم (والمهم الثاني) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف ينبغي أن يعامل نفسه ويعامل الخلق في هذه الحياة الدنيوية .

واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكلمهم ، ومرشد يرشدهم ، وهاد يهديهم ، وما ذاك إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكمال ، فنبه على هذا الحرف بقوله (وسلام على المرسلين) لأن هذا اللفظ يدل على أنهم في الكمال اللائق بالبشر فاقروا غيرهم ، ولا جرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم (والمهم الثالث) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت .

واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة ، فالإعتماد فيها على حرف واحد ، وهو أنه إله العالم غني رحيم ، والغنى الرحيم لا يعذب ، فنبه على هذا الحرف بقوله (والحمد لله رب العالمين) وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم ، فبين بهذا كونه منعماً ، وظاهر كونه غنياً عن العالمين ، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم ، فكان هذا الحرف منبهاً على سلامة الحال بعد الموت ، فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من درارى الكراكب ، ونسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة .
تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين .

(سورة ص)
(ثمانون وثمان آيات مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ «١» بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ «٢» كَمْ
أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَاوَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ «٣»

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، بل الذين كفروا في عزة وشقاق ، كم أهلكنا من قبلهم من
قرن فنادوا وولات حين مناص) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) الكلام المستقصى في أمثال هذه الفواتح مذکور في أول سورة البقرة
ولا بأس بإعادة بعض الوجوه (فالأول) أنه مفتاح أسماء الله تعالى التي أولها صاد ، كقولنا صادق
الوعد ، صانع المصنوعات ، صمد (والثاني) معناه صدق محمد في كل ما أخبر به عن الله (الثالث) معناه
صد الكفار عن قبول هذا الدين ، كما قال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) (الرابع)
معناه أن القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن ،
فدل ذلك على أن القرآن معجز (الخامس) أن يكون صاد بكسر الدال من المصاداة وهي المعارضة
ومنها الصدى وهو ما يعارض صوتك في الأما كن الخالية من الأجسام الصلبة ، ومعناه عارض
القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانه عن نواهيه (السادس) أنه اسم السورة والتقدير هذه صاد ،
فإن قيل ههنا إشكالان (أحدهما) أن قوله (والقرآن ذى الذكر) قسم وأين المقسم عليه ؟ (والثاني)
أن كلمة (بل) تقتضى رفع حكم ثبت قبلها ، وإثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق ، فأين هذا
المعنى ههنا ؟ (والجواب) عن الأول من وجوه (الأول) أن يكون معنى صاد ، بمعنى صدق محمد ﷺ ،
فيكون صاد هو المقسم عليه ، وقوله (والقرآن ذى الذكر) هو القسم (الثاني) أن يكون المقسم عليه
مخدوفاً ، والتقدير سورة (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) أنه لكلام معجز ، لانا بينا أن قوله (ص) تنبيه
على التحدى (والثالث) أن يكون صاد اسماً للسورة ، ويكون التقدير هذه ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ،
ولما كان المشهور أن محمداً عليه السلام يدعى في هذه السورة كونها معجزة ، كان قوله هذه (ص)
جارياً مجرى قوله : هذه هي السورة المعجزة ، ونظيره قولك هذا حاتم والله ، أى هذا هو المشهور

بالسحاء (والجواب) عن السؤال الثاني أن الحكم المذكور قبل كلمة (بل) (١) أما ما ذكره المفسر كون محمد صادفياً في تبليغ الرسالة أو كون القرآن أو هذه السورة معجزة والحكم المذكور بعد كلمة (بل) ههنا هو المنازعة والمشاققة في كونه كذلك فحصل المطلوب ، والله أعلم .

(المسألة الثانية) قرأ الحسن صاد بكسر الدال لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد ونون وب حذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم الله لأفعلن ، وأكثر القراء على الجزم لأن الأسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الأواخر .

(المسألة الثالثة) في قوله ذى الذكر وجهان (الأول) المراد ذى الشرف ، قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) وقال تعالى (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم) ومجاز هذا من قولهم لفلان ذكر في الناس ، كما يقولون له صيت (الثاني) ذى البيانين أى فيه قصص الأولين والآخرين ، وفيه بيان العلوم الأصلية والفرعية ومجازة من قوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

(المسألة الرابعة) قالت المعتزلة القرآن ذى الذكر والذكر محدث (بيان الأول) قوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) وهذا ذكر مبارك ، والقرآن ذى الذكر ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) و (بيان الثاني) قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقوله (ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) (والجواب) أنا نصرف دليلكم إلى الحروف والأصوات وهى محدثة .

أما قوله (بل الذين كفروا) فالمراد منه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الإجماع على الحسد والتكبر عن الإنقياد إلى الحق ، والعزة ههنا التعظيم وما يعتقد الإنسان في نفسه من الأحوال التى تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) والشقاق هو إظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضيلة عليه ، وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه فى شق وخصمه فى شق ، ف يريد أن يكون فى شقة نفسه ولا يجرى عليه حكم خصمه ، ومثله المعادة وهو أن يكون أحدهما فى عدوة والآخر فى عدوة ، وهى جانب الوادى ، وكذلك المحادة أن يكون هذا فى حد غير حد الآخر ، ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلاناً أى صار منه على حرف وفى جانب غير جانبه والله أعلم ، ثم إنه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال (كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا) والمعنى أنهم نادوا عند نزول العذاب فى الدنيا ولم يذكر بأى شىء نادوا ، وفيه وجره (الأول) وهو الأظهر أنهم نادوا بالاستغاثة لأن نداء من نزل به العذاب ليس إلا بالاستغاثة (الثانى) نادوا بالإيمان والتوبة عند معاينة العذاب (الثالث) نادوا أى رفعوا أصواتهم ، يقال فلان أندى صوتاً من فلان أى ارفع صوتاً ، ثم قال (ولات حين مناص) يعنى

(١) الحكم الذى قبل كلمة (بل) هو وصف القرآن بأنه تذكير لهم بوجوب التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وكل ما تفيد به ذى الذكر وهذا هو الحكم المتبادر من ظاهر الآية ، وهذا يكون للاضراب بيل معنى ويجرى الكلام على الأساليب العارية . فهو قبيل الاستتاج والاعتماد على ما جاء بعد (بل) من الآيات والاضراب لا يكون عن حكم لم يذكر .

وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ « ٤ »
 أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ « ٥ » وَأَنْطَلِقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ
 أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ « ٦ » مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ
 الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ « ٧ »

ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا) وقال
 (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة
 وكقوله (آلا نوقد عصيت قبل) وقوله (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) بقى ههنا أبحاث :
 ﴿ البحث الأول ﴾ في تحقيق الكلام في لفظ (لات) زعم الخليل وسيبويه أن لات هي لا
 المشبهة بليس زيدت عليها تاء التانيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد ، وبسبب هذه الزيادة حدثت
 لها أحكام جديدة ، منها أنها لا تدخل إلا على الأحيان ، ومنها أن لا يبرز إلا أحد جزئيهما ، إما الاسم
 وإما الخبر ويمتنع بروزهما جميعاً ، وقال الأخفش إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء ونخصت
 بنبي الأحيان (وحين مناص) منصوب بها كأنك قلت ولات حين مناص لهم ويزتفع بالإبتداء أى
 ولات حين مناص كائن لهم .

﴿ البحث الثاني ﴾ الجمهور يقفون على التاء من قوله (ولات) والكسائي يقف عليها بالهاء
 كما يقف على الأسماء المؤنثة ، قال صاحب الكشاف : وأما قول أبي عبيدة التاء داخلة على الحين
 فلا وجه له ، واستشهاده بأن التاء ملثقة بحين في مصحف عثمان فضعيف فكم وقعت في المصحف
 أشياء خارجة عن قياس الخط .

﴿ البحث الثالث ﴾ المناص المنجا والغوث ، يقال ناصه ينوصه إذا أغاثه ، واستنص طلب
 المناص ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة
 إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء
 يراد ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال
 (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) في قوله (منهم) وجهان (الأول) أنهم قالوا إن محمداً مساو لنا في
 الخلفة الظاهرة والأخلاق الباطية والنسب والشكل والصورة ، فكيف يعقل أن يختص من بيننا
 بهذا المنصب العالى والدرجات الرفيعة (والثاني) أن الغرض من هذه النكامة التنبيه على كمال

جهالتهم ، وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب في الآخرة ، والتنفير عن الدنيا ، ثم إن هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيداً من الكذب والتهمة ؛ وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ، ثم إن هؤلاء الأقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله ، ونظيره قوله (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) فقال (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) ومعناه أن محمداً كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساوياً لهم في الأسباب الدنيوية فاستنكفروا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه ، وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة ، وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب إلا الحسد .

ثم قال تعالى (وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) وإنما لم يقل وقالوا بل قال (وقال الكافرون) إظهاراً للتعجب ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام ، فإن الساحر هو الذي يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو الذي يخبر عن الشيء لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الأشياء التي تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذاباً ، ثم إنه تعالى حكى جميع ما عولوا عليه في إثبات كونه كاذباً وهي ثلاثة أشياء (أحدها) ما يتعلق بالإلهيات (وثانيها) ما يتعلق بالنبوات (وثالثها) ما يتعلق بالمعاد ، أما الشبهة المتعلقة بالإلهيات فهي قولهم (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) روى أنه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحاً شديداً وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين فجنناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال ﷺ ماذا يسألونني ، قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال ﷺ أرايتم إن أعطيتكم ما سألتكم أتعطوني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم ؟ قالوا نعم ، قال تقولوا لا إله إلا الله ، فقاموا وقالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) أي بليغ في التعجب وأقول منشأ التعجب من وجهين (الأول) هو أن القوم ما كانوا من أصحاب النظر والاستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للحسوسات فلما وجدوا في الشاهد أن الفاعل الواحد لا تنفي قدرته وعمله بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد ، فقالوا لا بد في حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر (الوجه الثاني) أن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك ، فقالوا من العجب العجيب أن يكون أولئك الأقوام على كثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين ، وهذا الإنسان الواحد يكون محققاً صادقاً ، وأقول لعمرى لو سلنا إجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحنة ، لكانت الشبهة الأولى لازمة ، ولما توافقنا على فسادها علينا أن إجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعاً ، وإذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل أصل كلام المشبهة في الذات وكلام المشبهة في الأفعال ، أما المشبهة

في الذات فهو أنهم يقولون لما كان كل موجود في الشاهد يجب أن يكون جسماً ومختصاً بحيز وجب في الغائب أن يكون كذلك ، وأما المشبهة في الأفعال فهم المعتزلة الذين يقولون إن الأمر الفلاني قبيح منا ، فوجب أن يكون قبيحاً من الله ، فثبت بما ذكرنا أنه إن صح كلام هؤلاء المشبهة في الذات وفي الأفعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين ، وحيث توافقنا على فسادها علمنا أن عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد . وأما الشبهة الثانية فلعمري لو كان التقليد حقاً لكانت هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا أن التقليد باطل بقي ههنا أبحاث :

(البحث الأول) أن العجائب هو العجيب إلا أنه أبلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للبالغ كقوله تعالى (ومكروا مكراً كبيراً) .

(الثاني) قال صاحب الكشاف قرئ عجاب بالتخفيف والتشديد فقال والتشديد أبلغ من التخفيف كقوله تعالى (مكراً كبيراً) .

ثم قال تعالى (وانطلق الملائم منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم) قد ذكرنا أن الملائم عبارة عن القوم الذين إذا حضروا في المجلس فانه تمتلئ القلوب والعيون من مهابتهم وعظمتهم ، وقوله (منهم) أي من قريش انطلقوا عن مجلس أبي طالب ، بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض (أن امشوا واصبروا على آلهتكم) وفيه مباحث :

(البحث الأول) القراءة المشهورة أن امشوا وقرأ ابن أبي عتبة امشوا بحذف أن قال صاحب الكشاف أن بمعنى أي لأن المنطلقين عن مجلس التقاؤل لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما يجري في المجلس المتقدم ، فكان انطلقهم مضمناً معنى القول ، وعن ابن عباس : وانطلق الملائم منهم يمشون .

(البحث الثاني) معنى أن امشوا أنه قال بعضهم لبعض امشوا واصبروا ، فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ، إن هذا لشيء يراد ، وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم ليس له سبب ظاهر يثبت أن تزايد ظهوره ليس إلا لأن الله يريد ، وما أراد الله كونه فلا دفاع له (وثانيها) أن الأمر كشيء من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه (وثالثها) أن دينكم لشيء يراد أي يطلب ليؤخذ منكم ، قال القفال هذه كلمة تذكير للتهديد والتخويف وكأن معناها أنه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين ، وإنما غرضه أن يستولي علينا فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد .

ثم قال (ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة) والملة الآخرة هي ملة النصارى فقالوا إن هذا التوحيد الذي أتى به محمد ﷺ ما سمعناه في دين النصارى ، أو يكون المراد بالملة الآخرة ملة قريش التي أدركوا آباءهم عليها ، ثم قالوا (إن هذا إلا اختلاق) افتعال وكذب ، وحاصل الكلام من هذا الوجه أنهم قالوا نحن ماسمعنا عن أسلافنا القول بالتوحيد ، فوجب أن يكون باطلاً ، ولو كان القول بالتقليد حقاً لكان كلام هؤلاء المشركين حقاً ، وحيث كان باطلاً علمنا أن القول بالتقليد باطل .

أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ
 «٨» أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ «٩» أَمْ لَهُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ «١٠» جند ما هنالك مهزوم من
 الأحزاب «١١»

قوله تعالى ﴿ أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى بل لما يدوقوا عذاب ، أم
 عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ، أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في
 الأسباب ، جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ .

اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لأولئك الكفار وهي الشبهة المتعلقة بالنبوات وهي قولهم إن
 محمداً لما كان مساوياً لغيره في الذات والصفات والخلاقة الظاهرة والأخلاق الباطنة فكيف يعقل
 أن يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة ؟ وهو المراد من قولهم (أنزل عليه الذكر من
 بيننا) فإنه استفهام على سبيل الإنكار ، وحكى الله تعالى عن قوم صالح أنهم قالوا مثل هذا القول
 فقالوا (ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) وحكى الله تعالى عن قوم محمد ﷺ أيضاً
 أنهم قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وتمام الكلام في تقرير هذه
 الشبهة : أنهم قالوا النبوة أشرف المراتب ، فوجب أن لا تحصل إلا لأشرف الناس ومحمد ليس أشرف
 الناس ، فوجب أن لا تحصل له والنبوة ، والمقدمتان الأوليان حقيقتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج
 هذا التغليب عليهم أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان وذلك باطل ، فإن
 مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هي النفسانية وأوسطها هي البدنية وأدونها هي الخارجية
 وهي المال والجاه ، فالقوم عكسوا القضية وظنوا بأخس المراتب أشرفها فلما وجدوا المال والجاه
 عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه ، فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد في أفكارهم ، ثم إنه
 تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه (الأول) قوله تعالى (بل هم في شك من ذكرى بل لما
 يدوقوا عذاب) وفيه وجهان (أحدهما) أن قوله (بل هم في شك من ذكرى) أي من الدلائل
 التي لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لأن كل ما ذكروه من الشبهات فهي كلمات ضعيفة
 وأما الدلائل التي تدل بنفسها على صحة نبوته ، فهي دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل في الكلام
 لو قفوا على ضعف الشبهات التي تمسكوا بها في إبطال النبوة ، ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة
 نبوته ، فحيث لم يعرفوا ذلك كان لأجل أنهم تركوا النظر والاستدلال ، فأما قوله تعالى (بل لما

يدوقوا عذاب) فموقعه من هذا الكلام أنه تعالى يقول هؤلاء إنما تركوا النظر والاستدلال لأنى لم أذقهم عذابي، ولو ذاقوه لم يقع منهم إلا الإقبال على أداء المأمورات والانتها عن المنهيات (وثانيتها) أن يكون المراد من قوله (بل هم في شك من ذكرى هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر، ثم إنهم أصروا على الكفر، ولم ينزل عليهم العذاب، فصار ذلك سبباً لشكهم في صدقه، وقالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) فقال (بل هم في شك من ذكرى) معناه ما ذكرناه، وقوله تعالى (بل لما يدوقوا عذاب) معناه أن ذلك الشك إنما حصل بسبب عدم نزول العذاب (والوجه الثاني) من الوجوه التي ذكرها الله تعالى في الجواب عن تلك الشبهة قوله تعالى (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) وتقرير هذا الجواب أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزاً أى كامل القدرة ووهاباً أى عظيم الجود وذلك هو الله سبحانه وتعالى، وإذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود، لم يتوقف كونه واهباً لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنياً أو فقيراً، ولم يختلف ذلك أيضاً بسبب أن أعداءه يحبونه أو يكرهونه (والوجه الثالث) في الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب) واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الكلام مغايراً للمراد من قوله (أم عندهم خزائن رحمة ربك) والفرق أن خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والأرض، فلما ذكرنا الخزائن أولاً على عمومها أردفها بذكر (ملك السموات والأرض وما بينهما) يعنى أن هذه الأشياء أحد أنواع خزائن الله، فاذا كنتم عاجزين عن هذا القسم، فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى، فهذا ما أمكننى ذكره في الفرق بين الكلامين، أما قوله تعالى (فليرتقوا في الأسباب) فالمعنى أنهم أن ادعوا أن لهم ملك السموات والأرض فعند هذا يقال لهم ارتقوا في الأسباب واصعدوا في المعارج التي يتوصل بها إلى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي على من يختارون، واعلم أن حكماء الاسلام استدلوا بقوله (فليرتقوا في الأسباب) على أن الأجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلى لأن الله تعالى سمي الفلكيات أسباباً وذلك يدل على ما قلناه والله أعلم، أما قوله تعالى (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) ففيه مقامان من البحث (أحدهما) في تفسير هذه الألفاظ (والثاني) في كيفية تعلقها بما قبلها (أما المقام الأول) فقوله (جند) مبتدأ وما للايهام كقوله جئت لأمر ما، وعندى طعام ما، و(من الأحزاب) صفة لجند و(مهزوم) خبر المبتدأ وأما قوله (هنالك) فيجوز أن يكون صفة لجند أى جند ثابت هنالك، ويجوز أن يكون متعلقاً بمهزوم معناه أن الجند من الأحزاب مهزوم هنالك، أى في ذلك للموضع الذي كانوا يذكرون

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ «١٢» وَتَمُودٌ وَقَوْمُ
لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ «١٣» إِنَّ كُلَّ إِذٍ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ
عِقَابُ «١٤» وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْهَاتٍ مِنْ فُوقٍ «١٥»

فيه هذه الكلمات الطاعنة في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأما المقام الثاني) فهو أنه تعالى لما قال إن كانوا يملكون السموات والأرض فليرتقوا في الأسباب ، ذكر عقبيه أنهم جند من الأحزاب منهزموں ضعيفون ، فكيف يكونون مالكي السموات والأرض وما بينهما ، قال قتادة هنالك إشارة إلى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمسكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر ، وقيل يوم الخندق ، والأصوب عندي حملة على يوم فتح مكة ، وذلك لأن المعنى أنهم جند سيصرون منهزمين في الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة ، فوجب أن يكون المراد أنهم سيصرون منهزمين في مكة وما ذاك إلا يوم الفتح ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وتمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إذ كذب الرسل فحق عقاب ، وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الجواب عن شبهة القوم أنهم إنما توانوا وتكاسلوا في النظر والاستدلال ، لأجل أنهم لم ينزل بهم العذاب ، بين تعالى في هذه الآية أن أقوام سائر الأنبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب ، والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول في إخباره عن نزول العقاب عليهم ، فذكر الله ستة أصناف منهم أولهم قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحاً أهلكهم الله بالغرق والطوفان (والثاني) عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح (والثالث) فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق (والرابع) تمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة (والخامس) قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف (والسادس) أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة ، قالوا وإنما وصف الله فرعون بكونه ذا الأوتاد لوجوه (الأول) أن أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنّب بأوتاده ، ثم استعير لإثبات العز والملك قال الشاعر :

واقعد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد

قال القاضي حمل الكلام على هذا الوجه أولى لأنه لما وصف بتكذيب الرسل ، فيجب فيما وصف به أن يكون تفخيماً لأمر ماسكه ليسكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من الهلاك

مع قوة أمره أبلغ (والثاني) أنه كان ينصب الخشب في الهواء وكان يمد يدي المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الأربع ، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتبدأ ، ويتركه معلقاً في الهواء إلى أن يموت (والثالث) أنه كان يمد المعذب بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات (والرابع) قال قتادة كانت أوتاداً وأرساناً وملاعب يلعب بها عنده (والخامس) أن عساكره كانوا كثيرين ، وكانوا كثيرى الأهبة عظيمة النعم ، وكانوا يكثرون من الأوتاد لأجل الخيام فعرف بها (والسادس) ذو الأوتاد والجموع الكثيرة ، وسميت الجموع أوتاداً لأنهم يقرون أمره ويشدون مملكته كما يقوى الوتد البناء (١) . وأما الإيكة فهي الغيضة الملتفة .

ثم قال تعالى (أولئك الأحزاب) وفيه أقوال (الأول) أن هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمم هم الذين تحزبوا على أنبيائهم فأهلكناهم ، فكذلك نفعل بقومك ، لأنه تعالى بين بقوله (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) أن قوم محمد ﷺ جند من الأحزاب ، أى من جنس الأحزاب المتقدمين ، فلما ذكر أنه عامل الأحزاب المتقدمين بالإهلاك كان ذلك تخويفاً شديداً لقوم محمد ﷺ (الثاني) أن معنى قوله (أولئك الأحزاب) مبالغته لوصفهم بالقوة والكثرة ، كما يقال فلان هو الرجل ، والمعنى أن حال أولئك الأحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين . واعلم أن هؤلاء الأقوام إن صدقوا بهذه الأخبار فهو تحذير ، وإن لم يصدقوا بها فهو تحذير أيضاً ، لأن آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوى فيحذرون ، ولأن ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر أيضاً ، ثم قال إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، أى كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم في الترغيب والترهيب ، لا جرم نزل العقاب عليهم وإن كان ذلك بعد حين ، والمقصود منه زجر السامعين ، ثم بين تعالى أن هؤلاء المكذبين وإن تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) وفي تفسير هذه الصيحة قولان (الأول) أن يكون المراد عذاباً يفتجهم ويحيتهم دفعة واحدة ، كما يقال صاح الزمان بهم إذا هلكوا قال الشاعر :
صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

ويشبه أن يكون أصل ذلك من الغارة إذا عافست القوم فوقع الصيحة فيهم ، ونظيره قوله تعالى (فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) الآية (والقول الثاني) أن هذه الصيحة هي صيحة النفخة الأولى في الصور ، كما قال تعالى في سورة يس (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) والمعنى أنهم وإن لم يذوقوا عذابى في الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة ، فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم ، كالرجل الذى ينتظر الشئ . فهو ماد الطرف إليه يطمع كل ساعة في حضوره ، ثم إنه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال (ما لها من فواق) قرأ حمزة والسكسائي (فواق) بضم الفاء ، والباقون بفتحها ، قال السكسائي والفراء

(١) الأولى أن تفسر الأوتاد هنا بالأهرام ، فإنها خاصة بالفراعين في مصر ، وإنما جاز أن نسميها أوتادا تشبيها لها بالجبال في الرسوخ في الأرض والعظم والسموق والعلو والارتفاع ، والله تعالى سمي الجبال أوتادا في القرآن بقوله (الجبال أوتادا) .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قَطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ

وَإِذْ كَرَّ عَبْدُنَا دَاوُدَ ذَا الْإَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

و أبو عبيدة والأخفش : هما لغتان من فواق الناقة . وهو ما بين حلبتي الناقة وأصله من الرجوع ، يقال أفاق من مرضه ، أى رجع إلى الصحة ، فالزمان الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن إلى الضرع يسمى فواقاً بالفتح وبالضم ، كقولك قصاص الشعر وقصاصه . قال الواحدى والفواق والفواق اسمان من الأفاقة ، والأفاقة معناها الرجوع والسكون كأفاقة المريض ، إلا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر ، والفواق بالضم اسم لذلك الزمان الذى يعود فيه اللبن إلى الضرع ، وروى الواحدى فى البسيط عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية « يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الفزع ، قال فيمدها ويطولها » وهى التى يقول (ما لها من فواق) ثم قال الواحدى : وهذا يحتمل معنيين (أحدهما) ما لها سكون (والثانى) ما لها رجوع ، والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع إلى السكون ، ويقال لكل من بقى على حالة واحدة ، إنه لا يفتيق منه ولا يستفيق ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾

اعلم أنا ذكرنا فى تفسير قوله (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) أن القوم إنما تعجبوا لشبهات ثلاثة (أولها) تتعلق بالإلهيات ، وهو قوله (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) (والثانية) تتعلق بالنبوات ، وهو قوله (أنزل عليه الذكر من بيننا) (والثالثة) تتعلق بالمعاد ، وهو قوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب) وذلك لأن القوم كانوا فى نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر ، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته ، والقط القطعة من الشئ لأنه قطع منه من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط ، ولما ذكر رسول الله ﷺ وعد المؤمنين بالجنة ، قالوا على سبيل الاستهزاء : عجل لنا نصيبنا من الجنة ، أو عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها .

واعلم أن الكفار لما بالغوا فى السفاهة على رسول الله ﷺ حيث قالوا (إنه ساحر كذاب) وقالوا له على سبيل الاستهزاء (عجل لنا قطناً) أمره الله بالصبر على سفاهتهم ، فقال (اصبر على ما يقولون) فإن قيل ، أى تعلق بين قوله (اصبر على ما يقولون) وبين قوله (واذكر عبدنا داود) ؟ قلنا بيان هذا التعلق من وجوه (الأول) كأنه قيل إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر ، فاذا ذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن

يوم الحشر ، فإن بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفاً يزداد الضد الآخر نقصاناً (والثاني) كأنه قيل لمحمد ﷺ لا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك ، فإنهم إذا خالفوك فالأكابر من الأنبياء وافقوك (والثالث) أن للناس في قصة داود قولين : منهم من قال إنها تدل على ذنبه ، ومنهم من قال إنها لا تدل عليه (فن قال بالأول) كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل لمحمد ﷺ إن حزنك ليس إلا ، لأن الكهار يكذبونك ، وأما حزن داود فكان بسبب وقوعه في ذلك الذنب ولا شك أن حزنه أشد ، فتأمل في قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما أنت فيه من الحزن (ومن قال بالثاني) قال الخصمان اللذان دخلا على داود كأننا من البشر ، وإنما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهما داود ، ومع ذلك لم يتعرض لإيذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ما سيجيء . تقرير هذه الطريقة فلا جرم أمر الله تعالى محمداً عليه السلام بأن يقتدى به في حسن الخلق (والخامس) أن قريشاً إنما كذبوا محمداً عليه السلام واستخفوا به لقولهم في أكثر الأمر إنه يتيم فقير ، ثم إنه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود ، ثم بين أنه مع ذلك ما سلم من الأحزان والغموم ، ليعلم أن الخلاص عن الحزن لا سبيل إليه في الدنيا (والسادس) أن قوله تعالى (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الأنبياء فكانه قال (اصبر على ما يقولون) واعتبر بحال سائر الأنبياء ليعلم أن كل واحد منهم كان مشغولاً بهم خاص وحزن خاص ، فينشد يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان ، وأن استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا ، وهذه وجوه ذكرناها في هذا المقام وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم ، وسيجيء ذكره إن شاء الله تعالى عند الانتهاء إلى تفسير قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الأنبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الإجمال .

(فالقصة الأولى) قصة داود ، واعلم أن مجامع ما ذكره الله تعالى في هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام (فالأول) تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التي توجب سعادة الآخرة والدنيا (والثاني) شرح تلك الواقعة التي وقعت له من أمر الخصمين (والثالث) استخلاف الله تعالى إياه بعد وقوع تلك الواقعة (أما النوع الأول) وهو شرح الصفات التي آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهي عشرة (الأول) قوله لمحمد صلى الله عليه وسلم (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) فأمر محمداً صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتدى في الصبر على طاعة الله بـداود وذلك تشریف عظيم وإكرام لداود حيث أمر الله أفضل الخلق محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقتدى به في مكارم الأخلاق (والثاني) أنه قال في حقه (عبدنا داود) فوصفه بكونه عبداً له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم ، وذلك غاية التشریف ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمداً عليه السلام ليلة المعراج قال (سبحان الذي أسرى بعبده)

إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ « ١٨ »

فهنا يدل على ذلك التشریف لداود فكان ذلك دليلاً على علو درجته أيضاً ، فان وصف الله تعالى الأنبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة (والثالث) قوله (ذا الأيد) أي ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي ، وذلك لأنه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة موجهة للمدح ، والقوة التي توجب المدح العظيم ليست إلا القوة على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه (والأيد) المذكور هنا كالقوة المذكورة في قوله (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) وقوله تعالى (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء) فخذها بقوة) أي باجتهاد في أداء الأمانة وتشدد في القيام بالدعوة وترك إظهار الوهن والضعف (والأيد) والقوة سواء ومنه قوله تعالى (هو الذي أيدك بنصره) وقوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) وقال (والسما ، بنيناها بأيدي) وعن قتادة أعطى قوة في العبادة وفقهاً في الدين ، وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر (الرابع) قوله (إنه أبواب) أي أن داود كان رجاعاً في أموره كلها إلى طاعتي والأواب فعال من آب إذا رجع كما قال تعالى (إن الينا إياهم) وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فانه أبلغ من قاتل وضارب (الخامس) قوله تعالى إنا (سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق (١)) ونظير هذه الآية قوله تعالى (يا جبال أوبي معه والطير) وفيه مباحث :

(البحث الأول) وفيه وجوه : (الأول) أن الله سبحانه خلق في جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ومنطقاً وحينئذ صار الجبل مسبحاً لله تعالى ونظيره قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل) فان معناه أنه تعالى خلق في الجبل عقلا وفهماً ، ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا (الثاني) في التأويل ما رواه القفال في تفسيره أنه يجوز أن يقال إن داود عليه السلام قد أوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له في الجبال دوى حسن ، وما يصغي الطير إليه لحسنه فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه وإصغائه إليه تسييحاً ، وذكر محمد بن اسحق أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه مثل صوت داود حتى أنه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوجوش حتى يأخذ بأعناقها (الثالث) أن الله سبحانه سخر الجبال حتى أنها كانت تسير إلى حيث يريد داود وجعل ذلك السير تسييحاً لأنه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته .

(البحث الثاني) قال صاحب الكشاف (يسبحن) في معنى مسبحات ، فان قالوا هل من فرق بين يسبحن ومسبحات قلنا نعم ، فان صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد ، وصيغة الاسم على الدوام على ما بينه عيد القاهر النجوى في كتاب دلائل الإعجاز ، إذا ثبت هذا فنقول قوله (يسبحن) يدل على

(١) هنا موضع ذكر قوله تعالى (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن) الآية وقد أدمج المؤلف تفسيرها هنا مع التي قبلها فاضطر إلى الخروج عن طريقته التي سار عليها من ذكر الآية بجملة ثم ذكرها مع تفسيرها منفصلة .

وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلٌّ لَهٗ أَوَابٌ (١٩) ، وَشَدَدْنَا مَلَكَهُ

حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء ، وحالا بعد حال وكان السامع حاضر تلك الجبال يسميها تسبيح .
(البحث الثالث) قال الزجاج يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وقيل
هما بمعنى ، والأول أكثر تقول العرب شرقت الشمس والماء يشرق .

(البحث الرابع) احتجاجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية ، عن أم هانئ قالت دخل
علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى ، وقال يا أم هانئ
هذه صلاة الإشراق ، وعن طاووس عن ابن عباس قال « هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن ؟
قالوا لا ، فقرأ إناسخنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق » وقال كان يصليها داود عليه السلام
وقال لم يزل في نفسى شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها في قوله (يسبحن بالعشى والإشراق) ،
(الصفة السادسة) من صفات داود عليه السلام قوله تعالى (والطيور محشورة كل له أواب (١))
وفيه مباحث :

(البحث الأول) قوله (والطيور) معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطيور محشورة ، قال ابن
عباس رضى الله عنهما كان داود إذا سبج جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه ، واجتماعها
إليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله (فان قيل) كيف يصدر تسبيح الله عن
الطيور مع أنه لا عقل لها ، قلنا لا يبعد أن يقال إن الله تعالى كان يخلق لها عقلا حتى تعرف الله فتسبحه
حينئذ ، وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام .

(البحث الثانى) قال صاحب الكشاف قوله (محشورة) فى مقابلة (يسبحن) إلا أنه ليس فى
الحشر مثل ما كان فى التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء ، فلا جرم جىء به اسماً
لا فعلاً ، وذلك أنه لو قيل وسخرنا الطير محشورة يسبحن على تقدير أن الحشر وجد من حاشرها
جملة واحدة دل على القدر المذكور والله أعلم .

(البحث الثالث) قرئ (والطيور محشورة) بالرفع .
(الصفة السابعة) من صفات داود عليه السلام ، قوله تعالى (كل له أواب) ومعناه كل
واحد من الجبال والطيور أواب أى رجاع ، أى كلما رجع داود إلى التسبيح جاوبته ، فهذه الأشياء
أيضاً كانت ترجع إلى تسبيحاتها ، والفرق بين هذه الصفة وبين ما قبلها أن فيما سبق علمنا أن الجبال والطيور
سبحت مع تسبيح داود عليه السلام ، وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير فى
قوله (كل له أواب) لله تعالى أى كل من دواد والجبال والطيور لله أواب أى مسبح مرجع للتسبيح .
(الصفة الثامنة) قوله تعالى (وشددنا ملكه (٢)) أى قويناه وقال تعالى (سنشد عضدك

(١) ، (٢) كذلك فعل المؤنث هنا وفى الموضعين ما فعله فى الآية التى اشرنا إليها بالهامش فى ص ١٨٥ وقد اضطر إلى ذلك
اضطراراً كما هو ظاهر وليس فى هذا الصنيع أى إخلال بالتفسير وإنما هو مقابلة للتنظيم والتنسيق الحسب .

وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ «٢٠»

بأخيك) وقيل شددنا على المبالغة ، وأما الأسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة ، وهي إما الأسباب الدنيوية أو الدينية ، أما الأول فذكروا فيه وجهين (الأول) روى الواحدى عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل ، فاذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضى عنكم نبي الله ، وزاد آخرون فذكروا أربعين ألفاً . قالوا وكان أشد ملوك الأرض سلطاناً ، وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً ادعى عند دواد على رجل أخذ منه بقرة فأنكر المدعى عليه ، فقال داود للمدعى أقم البينة فلم يقمها ، فرأى داود في منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحي بعد ذلك بأن تقتله فاحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله ، فقال المدعى عليه صدق الله إني كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود . فهذه الواقعة شددت ملكه ، وأما الأسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهي الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل .

(الصفة التاسعة) قوله (وآتيناه الحكمة) واعلم أنه تعالى قال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية ، والفضائل النفسانية محصورة في قسمين العلم والعمل ، أما العلم فهو أن تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية ، وأما العمل فهو أن يكون الإنسان آتياً بالعمل بالأصلح الأصوب بمصالح الدنيا والآخرة ، فهذا هو الحكمة وإنما سمي هذا بالحكمة لأن اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور وتقويتها وتبعيدها عن أسباب الرخاوة والضعف ، والاعتقادات الصائبة الصحيحة لا تقبل النسخ والنقض فكانت في غاية الأحكام ، وأما الأعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فإنها واجبة الرعاية ولا تقبل النسخ والنقض ، فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الأعمال بالحكمة .

(الصفة العاشرة) قوله (وفصل الخطاب) واعلم أن أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام (أحدها) ما تكون خالية عن الإدراك والشعور وهي الجمادات والنباتات (وثانيها) التي يحصل لها إدراك وشعور ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها الأحوال التي عرفوها في الأكثر وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الإنسان (وثالثها) الذي يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأحوال المعلومة له ، وذلك هو الإنسان وقدرته على تعريف الغير الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب ، ثم إن الناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير ، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول ، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه ، ومنهم من يكون قادراً على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ
فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ
وَلَا تُشْطِطْ وَآهَدْنَا إِلَى سِوَاءِ الصَّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ
نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ
ظَلَمْتَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى
بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ
فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى

أقصى الغايات ، وكل من كانت هذه القدرة في حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية في حقه أكمل ، وكل من كانت تلك القدرة في حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف ، ولما بين الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التي لداود بقوله (وآتيناه الحكمة) أردفه ببيان كمال حاله في النطق واللفظ والعبارة فقال وفصل الخطاب وهذا الترتيب في غاية الجلالة ، ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال في كلامه أما بعد ، وأقول حقاً إن الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معاني كلام الله تعالى حرماناً عظيماً (١) والله أعلم ، وقول من قال المراد معرفة الأمور التي بها يفصل بين الخضم وهو طلب البينة واليمين بعيد أيضاً ، لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال ، بحيث لا يختلط شيء بشيء ، وبحيث يفصل كل مقام عن مقام ، وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام والله أعلم ، وههنا آخر الكلام في الصفات العشرة التي ذكرها الله تعالى في مدح داود عليه السلام .

قوله تعالى ﴿ وهل أتاك نباء الخضم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له

(١) يقصد المؤلف بعبارة هذه الذين فسروا إتياء داود الحكمة بأنه أول من قال أما بعد ، ليعلم عن الفهم وعن الصواب ، وقد روى أن أول من قال أما بعد هو قس بن ساعدة الإيادي الخطيب المشهور .

ذلك وإن له عندنا لزلنى وحسن مآبٍ ﴿

اعلم أن الله تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الأحوال الواقعة في هذه القصة لا يبين شيء منها كونه عليه السلام مستحقاً للثناء والمدح العظيم . أما قوله تعالى (وهل أتاك نبا الخصم) فهو نظير قوله تعالى (هل أتاك حديث موسى) وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ، ليكون داعياً إلى الإصغاء لها والاعتبار بها ، وأقول للناس في هذه القصة ثلاثة أقوال (أحدها) ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه (وثانيها) دلالتها على الصغيرة (وثالثها) بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة .

فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها : أن داود عشق امرأة أوريا ، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته ، وعرضاً تلك الواقعة عليه . فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً ، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة .

والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه (الأول) أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجوراً لاستنكف منها والرجل الحشون الخبيث الذي يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه إليها ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه (الثاني) أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعى في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته (أما الأول) فأمر منكر قال ﷺ « من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » (وأما الثاني) فنكر عظيم قال صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وإن أوريا لم يسلم من داود لاني روحه ولا في منكوحه (والثالث) أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة ، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة ، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكرو والعمل القبيح ، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة في البيان .

فنقول (أما الصفات الأولى) فهي أنه تعالى أمر محمداً ﷺ بأن يقتدى بداود في المصابرة مع المكابدة ، ولو قلنا إن داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى في إراقة دم امرئ مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكام الحاكمين أن يأمر محمداً أفضل الرسل بأن يقتدى بداود في الصبر على طاعة الله . (وأما الصفة الثانية) فهي أنه وصفه بكونه عبداً له ، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملاً في موقف العبودية تماماً في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات ، ولو قلنا إن داود عليه السلام اشتغل بتلك الأعمال الباطلة . فحينئذ ما كان داود كاملاً

في عبوديته لله تعالى بل كان كاملاً في طاعة الهوى والشهوة..

(الصفة الثالثة) هو قوله (ذا الأيد) أى ذا القوة ، ولا شك أن المراد منه القوة فى الدين ، لأن القوة فى غير الدين كانت موجودة فى ملوك الكفار ، ولا معنى للقوة فى الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات ، والاجتناب عن المحظورات ، وأى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم ؟ .

(الصفة الرابعة) كونه أو ابناً كثير الرجوع إلى الله تعالى ، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغولاً بالقتل والفجور ؟ .

(الصفة الخامسة) قوله تعالى (إنا سخرننا الجبال معه) أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذها وسيلة إلى القتل والفجور ؟ .

(الصفة السادسة) قوله (والطير محشورة) ، وقيل إنه كان محرماً عليه صيد شئ من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمناً منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه ؟ .

(الصفة السابعة) قوله تعالى (وشددنا ملكه) ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا ، بل المراد أنه تعالى شدد ملكه بما يقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة ، والمراد تشديد ملكه فى الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك ؟ .

(الصفة الثامنة) قوله تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغى علماً وعملاً ، فكيف يجوز أن يقول الله تعالى إنا (آتيناه الحكمة وفصل الخطاب) مع إصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة أخلص أصحابه فى الروح والمنكوح ، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على برامة ساحته عن تلك الأكاذيب .

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهى عشرة (الأول) قوله (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته فى طاعة الله ، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه فى القتل والفجور لم يكن قوله (وإن له عندنا لزلفى) لاثقاً به (الثانى) قوله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه (أحدها) أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأمواهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقبيه أيها العبد إني فوضت إليك خلافتي ونيابتي ، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر ، فأما جعله نائباً وخليفة لنفسه فذلك البتة بما لا يليق (وثانيها) أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف ، فلهذا حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ، ثم قال بعده (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) أشعر هذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة ، ومعلوم أن هذا فاسد ، أما لو

ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب وعلى شدة مصابرتة على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب أن يذكر عقيبه (إنا جعلناك خليفة في الأرض) فثبت أن هذا الذي نختاره أولى (والثالث) وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضاً دالة على ذلك ، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة على المرتبة في طاعة الله يقتل ويزنى ويسرق وقد جعله الله خليفة في أرضه وصوب أحكامه ، وكما أن هذا الكلام مما لا يابق بالعاقل فكنا ههنا ، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب (والرابع) وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا في هذه الرواية أن داود عليه السلام تمنى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد المروجة لكثرة الثواب فأوحى الله إليهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء ، فأوحى الله إليه أنك ستبلى في يوم كذا فبالغ في الاحتراز ثم وقعت الواقعة ، فنقول أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعي في قتل النفس بغير الحق والإفراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة ، وبثبت أن الحكاية التي ذكروها يناقض أولها آخرها (الخامس) أن داود عليه السلام قال (وإن كثيراً من الخلطاء ليبلغ بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا) استثنى الذين آمنوا عن البغي ، فلو قلنا إنه كان موصوفاً بالبغي لزم أن يقال إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه وذلك باطل (السادس) حضرت في بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك ، فقلت له لاشك أن داود عليه كان من أكابر الأنبياء والرسل ، ولقد قال الله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجوز لنا أن نبالغ في الطعن فيه ، وأيضاً بتقدير أنه ما كان نبياً فلا شك أنه كان مسلماً ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم « لاتذكروا موتاكم إلا بخير » ثم على تقدير أننا لانتلفت إلى شيء من هذه الدلائل إلا أنا نقول إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقيقية صحيحة فإن روايتها وذكرها لا يوجب شيئاً من الثواب ، لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب ، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة ، فإن ذكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها ، فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه ، وأن شرح تلك القصة محرم محذور فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت . ولم يذكر شيئاً (السابع) أن ذكر هذه القصة ، وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضى إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرماً لقوله تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا) (الثامن) لو سعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله « من سعى

في دم مسلم ولو بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله « وأيضاً لو فعل ذلك لكان ظالماً فكان يدخل تحت قوله (ألا لعنة الله على الظالمين) (التاسع) عن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال « من حدثكم بحديث داود علي ما يرويه القصاص جلده مائة وستين » وهو حد الفرية على الأنبياء ، ومما يقوى هذا أنهم لما قالوا إن المغيرة بن شعبه زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك ، وأما الرابع فإنه لم يقل بأني رأيت ذلك العمل . يعني فان عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لأجل أنهم قذفوا ، وإذا كان الحال في واحد من آحاد الصحابة كذلك ، فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من أكابر الأنبياء عليهم السلام (العاشر) روى أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما في كتاب الله تعالى فقال لا ينبغي أن يزداد عليها ، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت ، ثم إنه تعالى لم يذكرها لأجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام ، فلا يجوز للعاقل أن يسعى في هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر فقال عمر (١) « سماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس » فثبت بهذه الوجوه التي ذكرناها أن القصة التي ذكرناها فاسدة باطلة ، فان قال قائل إن كثيراً من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة ، فكيف الحال فيها ؟ فالجواب الحقيقي أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى ، وأيضاً فالأصل براءة الذمة ، وأيضاً فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى ، وأيضاً طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا ، وأيضاً فنحن نعلم بالضرورة أن بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لم تسعوا في تشهير هذه الواقعة ؟ وأما بتقدير كونها باطلة فان علينا في ذكرها أعظم العقاب ، وأيضاً فقال عليه السلام « إذا علمت مثل الشمس فاشهد » وههنا لم يحصل العلم ولا الظن في صحة هذه الحكاية ، بل الدلائل القاطعة التي ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها ، وأيضاً كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل إلا كثرون المحققون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد ، وأيضاً إذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقى الرجوع إلى الدلائل التي ذكرناها فهذا تمام الكلام في هذه القصة .

أما الاحتمال الثاني : وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة ، فنقول في كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه : (الأول) أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فأثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (الثاني) قالوا إنه وقع بصره عليها فقال قلبه إليها وليس له في هذا ذنب البتة ، أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بدين ، وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضاً ذنباً لأن هذا الميل ليس في وسعه ، فلا يكون مكلفاً به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذياً عظيماً بسبب

(١) لم ينس فيما سبق على عمر هذا ولم يشر إليه ، والخبر يفيد أن ذلك البعض الذي حكى القول العاشر حكى القصة أمام شخص اسمه عمر فقال هذه الكلمة ولاندرى أمر عمر بن الخطاب أم ابن عبد العزيز أم شخص غيرهما وأمله سقط بيان ذلك من النسخ أو المطبعة الأميرية .

قتله لأجل أنه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو أنه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل (والثالث) أنه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم في هذا المعنى مألوفة معروفة أوى أن الأنصار كانوا يساوون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأه النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهي أم سليمان فقيل له هذا وإن كان جائزاً في ظاهر الشريعة ، إلا أنه لا يليق بك ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل والأولى .

وأما الإحتمال الثالث : وهو أن هذه القصة على وجه لا يلزم إلحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام ، بل يوجب إلحاق أعظم أنواع المدح والثناء به وهو أن نقول روى أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود عليه السلام ، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويستغل بطاعة ربه ، فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم وتسوروا المحراب ، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أفواماً يمنعونه منهم يخافوا فوضعوا كذباً ، فقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض إلى آخر القصة ، وليس في لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به في إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة (أحدها) قوله (وظن داود أنما فتناه) ، (وثانيها) قوله تعالى (فاستغفر ربه) (وثالثها) قوله (وأتاب) (ورابعها) قوله (فغفرنا له ذلك) ثم نقول ، وهذه الألفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكره ، وتقريره من وجوه (الأول) أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق ، وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم ، إلا أنه مال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلباً لمرضاة الله ، قال وكانت هذه الواقعة هي الفتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء والامتحان ، ثم إنه استغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأتاب ، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم (والثاني) أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه ، إلا أنه ندم على ذلك الظن ، وقال لما لم تقم دلالة ولا أمانة على أن الأمر كذلك ، فبئسما علمت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الرديء ، فكان هذا هو المراد من قوله (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب) منه فغفر الله له ذلك (الثالث) أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام ، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله ، كما قال في حق محمد ﷺ (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فداود عليه السلام استغفر لهم وأتاب ، أي رجع إلى الله تعالى في طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل ، وقوله (فغفرنا له ذلك) أي غفرنا له ذلك الذنب لأجل احترام داود ولتعظيمه ، كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) أن معناه أن الله تعالى يغفر لك ولاجلك ما تقدم من ذنب أمتك (الرابع) هب أنه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه ، لكن لا نسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة ، فلم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة إنما حصلت ، لأنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني ، فإنه

لما قال (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) فحكم عليه بكونه ظالماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة ، لكون هذا الحكم مخالفاً للصواب ، فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة ، إلا أن هذا من باب ترك الأفضل والأولى (١) فثبت بهذه البيانات أما إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه ، فإنه لا يلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام ، بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه ، ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه (الأول) أن الأصل في حال المسلم البعد عن المناهي ، لا سيما وهو رجل من أكابر الأنبياء والرسل (والثاني) أنه أحوط (والثالث) أنه تعالى قال في أول الآية لمحمد ﷺ (واصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) فإن قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا (إنه ساحر كذاب) واستهزأوا به حيث قالوا (ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب) فقال تعالى في أول الآية : اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود ، فهذا الذكر إنما يحسن إذا كان داود عليه السلام قد صبر على إيذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب ، وهذا المعنى إنما يحصل إذا حملنا الآية على ما ذكرناه ، أما إذا حملناها على ما ذكرناه صار الكلام متناقضاً فاسداً (والرابع) أن تلك الرواية إنما تسمى إذا قلنا الخصمان كانا مالكين ، ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما محاسبة وما بغى أحدهما على الآخر كان قولها خصمان بغى بعضنا على بعض كذباً ، فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين (أحدهما) إسناد الكذب إلى الملائكة (والثاني) أن يتوسل بإسناد الكذب إلى الملائكة إلى إسناد أخش القبائح إلى رجل كبير من أكابر الأنبياء ، فأما إذا حملنا الآية على ما ذكرنا استغنيا عن إسناد الكذب إلى الملائكة ، وعن إسناد القبيح إلى الأنبياء ، فكان قولنا أولى ، فهذا ما عندنا في هذا الباب ، والله أعلم بأسرار كلامه ، ونرجع الآن إلى تفسير الآيات . أما قوله (وهل أتاك نبأ الخصم) قال الواحدى : الخصم مصدر خصمته أخصمه خصماً ، ثم يسمى به الإثنان والجمع ولا يثنى ولا يجمع ، يقال هما خصم وهم خصم ، كما يقال هما عدل وهم عدل ، والمعنى ذوا خصم وذوو خصم ، وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام ، وقوله تعالى (إذ تسوروا المحراب) يقال تسورت السور تسوراً إذا علوته ، ومعنى (تسوروا المحراب) أى أتوه من سوره وهو أعلاه ، يقال تسور فلان الدار إذا أتاها من قبل سورها . وأما المحراب فالمراد منه البيت الذى كان داود يدخل فيه ويشغل بطاعة ربه ، وسمى ذلك البيت بالمحراب لاشتماله على المحراب ، كما يسمى الشيء بأشرف أجزائه ، وههنا مسألة من علم أصول الفقه ، وهى أن أقل الجمع - اثنان عند بعض الناس ، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية ، لأنه تعالى ذكر صيغة الجمع فى هذه الآيات فى

(١) أقول : لم لا تكون هذه القصة راجعة إلى قصة الغنم التى نفشت فى الزرع وجاء ذكرها فى سورة الأنبياء ، وقد ذكرت هناك بلفظ الغنم وهى بلفظ النعاج وفتنة داود كانت بالاجتهاد فى الحكم والخطأ فيه وقد نص الله على أنه فهمها سليمان عليه السلام ، والقاعدة أن من اجتهد فى حكم وأخطأ وله أجر ، ومن أصاب فله أجران وكانه عليه السلام لم يدرك هذه القاعدة أو لم يكن العمل عليها فى عهده ولهذا استغفر ربه والدلائل على ذلك كثيرة منها ظاهر الآية ولا داعى إلى التأويل بالمرأة أو غيرها ، ومنها قوله وإن كثيراً الخطاء لينى بعضهم على بعض والتعقيب بقوله تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) .

أربعة مواضع (أحدها) قوله تعالى (إذ تسوروا المحراب) ، (وثانيها) قوله (إذ دخلوا) ، (وثالثها) قوله (منهم) ، (ورابعها) قوله (قالوا لا تخف) فهذه الألفاظ الأربعة كلها صيغ الجمع ، وهم كانوا اثنين مدليل أنهم قالوا خصمان ، قالوا فهذه الآية تدل على أن أقل الجمع اثنان (والجواب) لا يمنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعاً كثيرين ، لا ما بيننا أن الخصم إذا جعل اسماً فإنه لا يثنى ولا يجمع ، ثم قال تعالى (إذ دخلوا على داود) والفائدة فيه أنهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه ، فلما قال (إذ دخلوا عليه) دل على أنهم بعد التسور دخلوا عليه ، قال الفراء : وقد يجاء بإذ مرتين ويكون معناها كالواحد ، كقولك ضربتك إذ دخلت على إذ اجترأت ، مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحداً . ثم قال تعالى (ففرغ منهم) والسبب أن داود عليه السلام لما رآها قد دخلوا عليه لا من الطريق المعتاد . علم أنهم إنما دخلوا عليه تنسراً ، فلا جرم فرغ منهم ، ثم قال تعالى (قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) خصمان خبر مبتدأ محذوف ، أي نحن خصمان .

(المسألة الثانية) ههنا قولان (الأول) أنهما كانا ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذي أقدم عليه (والثاني) أنهما كانا إنسانين دخلا عليه للشر والقتل ، فظنا أنهما يجذانه خالياً ، فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر . وأما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين في قولهما خصمان ، فإنه ليس بين الملائكة خصومة ، ولكانا كاذبين في قولهما (بغى بعضنا على بعض) ولكانا كاذبين في قولهما (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة) فثبت أنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى (لا يسبقونه بالقول) ولقوله (و يفعلون ما يؤمرون) أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا إن الملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب ، وأجيب عن هذا الجواب بأن ما ذكرتم يقتضى العدول عن ظاهر اللفظ ، ومعلوم أنه على خلاف الأصل ، أما إذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعنا هذا الحديث الباطل ، فحينئذ لزم إسناد الكذب إلى شخصين فاسقين فكان هذا أولى من القول الأول والله أعلم ، وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه (الأول) اتفاق أكثر المفسرين عليه (والثاني) أنه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية في حال تعبدته فيجب أن يكون ذلك من الملائكة (الثالث) أن قوله تعالى (قالوا لا تخف) كالدلالة على كونهما ملكين لأن من هو من رعيته لا يكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته (الرابع) أن قولهما (ولا تشطط) كالدلالة على كونهما ملكين لأن أحداً من رعيته لا يتجاسر أن يقول له لا تظلم ولا تتجاوز عن الحق ، واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر ، ولا حاجة إلى الجواب ، والله أعلم .

(المسألة الثالثة) (بغى بعضنا على بعض) أى تعدى وخرج عن الحد يقال بغى الجرح

إذا أفرط وجعه وانتهى إلى الغاية ، ويقال بغت المرأة إذا زنت ، لأن الزنا كبيرة منكورة ، قال تعالى (ولا تكرر هوا فتياتكم على البغاء) ثم قال (فاحكم بيننا بالحق) معنى الحكم إحكام الأمر في إمضاء تكليف الله عليهما في الواقعة ، ومنه حكمة الدابة لأنها تمنع من الجماع ، ومنه بناء محكم إذا كان قوياً ، وقوله (بالحق) أى بالحكم الحق وهو الذى حكم الله به (ولا تشطط) يقال شطط الرجل إذا بعد ، ومنه قوله : شطت الدار إذا بعدت ، قال تعالى (لقد قلنا إذا شططاً) أى قولاً بعيداً عن الحق ، فقوله (ولا تشطط) أى لا تبعد في هذا الحكم عن الحق ، ثم قال (واهدنا إلى سواء الصراط) وسواء الصراط هو وسطه ، قال تعالى (فاطلع فرآه في سواء الجحيم) ووسط الشيء أفضله وأعدله ، قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وأقول إنهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث عبارات (أرلها) قولهم فاحكم بالحق (وثانها) قولهم (ولا تشطط) وهى نهى عن الباطل (وثالثها) قولهم (واهدنا إلى سواء الصراط) يعنى يجب أن يكون سعيتك فى إيجاد هذا الحق . وفى الاحتراز عن هذا الباطل أن تردنا من الطريق الباطل إلى الطريق الحق ، وهذا مبالغة تامة فى تقرير المطلوب ، واعلم أنهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل ، فقال (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال صاحب الكشاف (أخى) يدل من هذا أو خبر لقوله (إن) والمراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة ، لقوله تعالى (وإن كثيراً من الخلطاء) وكل واحدة من هذه الأخوات توجب الامتناع من الظلم والاعتداء .

(المسألة الثانية) قال صاحب الكشاف قرىء (تسع وتسعون) بفتح التاء وفتح بكسر النون ، وهذا من اختلاف اللغات نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة وهى الأثى من العقبان .
(المسألة الثالثة) قال اللبث : النعجة الأثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية ، والجمع النعجات ، والعرب جرت عادتهم يجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة .

(المسألة الرابعة) قرأ عبد الله (تسع وتسعون نعجة أثى) وهذا يكون لأجل التأكيد كقوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد) ، ثم قال (أ كفلنيها وعزنى فى الخطاب) قال صاحب الكشاف (أ كفلنيها) حقيقة اجعلنى أ كفلها كما أ كفل ما تحت يدي (وعزنى) غلبنى ، يقال عزه يعزه ، والمعنى جامنى بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أورد به ، وقرىء وعازنى من المعازة ، وهى المغالبة ، واعلم أن الذين قالوا إن هذين الخصمين كانا من الملائكة زعموا أن المقصود من ذكر النعاج التمثيل ، لأن داود كان تحت تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ، فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل .

ثم قال تعالى (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) أى سؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه ، وروى أنه قال له إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى الأنف والجهة

فقال يا داود أنت أحق أن تضرب منك هذا وهذا ، وأنت فعلت كيت وكيت ، ثم نظر داود فلم ير أحداً فعرف الحال ، فان قيل كيف جازل داود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه ؟ قلنا ذكر وافيهِ وجوهاً (الأول) قال محمد بن اسحاق : لما فرغ الخصم الأول من كلامه نظر داود إلى الخصم الذي لم يتكلم وقال لئن صدق لقد ظلمته ، والحاصل أن هذا الحكم كان مشروطاً بشرط كونه صادفاً في دعواه (والثاني) قال ابن الأنباري : لما ادعى أحد الخصمين اعتراف الثاني فحكم داود عليه السلام ولم يذكر الله تعالى ذلك الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه ، كما تقول أمرتك بالتجارة فكسبت تريد تجرت فكسبت ، وقال تعالى (أن اضرب بعصاك البحر فانطلق) أي فاضرب فانطلق ، والثالث أن يكرن التقدير أن الخصم الذي هذا شأنه يكون قد ظلمك . ثم قال تعالى (وإن كثيراً من الخطاء لا يبغى بعضهم على بعض) قال الليث خليط الرجل مخالطه ، وقال الزجاج : الخطاء الشركاء ، فان قيل لم خص داود الخطاء ببغى بعضهم على بعض مع أن غير الخطاء قد يفعلون ذلك ، والجواب لاشك أن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة ، وذلك لأنهما إذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل ما يملكه من الأشياء النفيسة إذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه ، فيفضي ذلك إلى زيادة المخاصمة والمنازعة ، فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخطاء بزيادة البغى والعدوان ، ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن مخالطه هؤلاء لا تكون إلا لأجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية ، فلا جرم مخالطتهم لا توجب المنازعة ، وأما الذين تكون مخالطتهم لأجل حب الدنيا لا بد وأن تصير مخالطتهم سبباً لمزيد البغى والعدوان ، واعلم أن هذا الاستثناء يدل على أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يبغى بعضهم على بعض ، فلو كان داود عليه السلام قد بغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لا يكون هو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ومعلوم أن ذلك باطل ، فثبت أن قول من يقول المراد من واقعة التعجبة قصة داود قول باطل .

ثم قال تعالى (وقليل ما هم) واعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير في القرآن ، قال تعالى (وقليل من عبادي الشكور) وقال داود عليه السلام في هذا الموضوع (وقليل ما هم) وحكى تعالى عن إبليس أنه قال (ولا تجد أكثرهم شاكرين) وسبب القلة أن الدواعي إلى الدنيا كثيرة ، وهي الحواس الباطنة والظاهرة وهي عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع تسعة عشر واقفون على باب جهنم البدن ، وكلها تدعو إلى الخلق والدنيا واللذة الحسية ، وأما الداعي إلى الحق والدين فليس إلا العقل واستيلاء القوة الحسية والطبيعية على الخلق أكثر من القوة العقلية فيهم ، فلهذا السبب وقعت القلة في جانب أهل الخير والكثرة في جانب أهل الشر ، قال صاحب الكشاف وما في قوله (وقليل ما هم) للإبهام وفيه تعجب من قلتهم ، قال وإذا أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس : وحديث ما على قصره - وانظر هل بقي له معنى قط .

ثم قال تعالى (وطن داود إنما فتناه) قالوا معناه وعلم داود إنما فتناه أي امتحناه ، قالوا

والسبب الذي أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا أن داود عليه السلام لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ، ثم صعد إلى السماء قبل وجهه ، فعلم داود أن الله ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك وإنما جاز حمل لفظ الظن على العلم لأن العلم الاستدلالي يشبه الظن مشابهاً عظيمة ، والمشابهة علة لجواز المجاز ، وأقول هذا الكلام إنما يلزم إذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما إذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العلم ، بل لقائل أن يقول إنه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والإنابة .

أما قوله (فاستغفر ربه) أى سأل الغفران من ربه ، ثم ههنا وجهان إن قلنا بأنه قد صدرت زلة منه ، حملنا هذا الاستغفار عليها ، وإن لم نقل به قلنا فيه وجوه (الأول) أن القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله ، وإنه كان سلطاناً شديداً القهر عظيم القوة ، ثم إنه مع أنه مع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول الفرع في قلبه عفا عنهم ولم يقل لهم شيئاً قرب الأمر من أن يدخل في قلبه شيء من العجب ، فاستغفر ربه عن تلك الحالة وأتاب إلى الله ، وأعترف بأن إقدامه على ذلك الخير ما كان إلا بتوفيق الله ، فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر (الثاني) لعله هم يابذاء القوم ، ثم قال إنه لم يدل دليل قاطع على أن هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ثم استغفر عن ذلك لهم (الثالث) لعل القوم تابوا إلى الله وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم لأجل أن يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع إلى الله ، فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه ، وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة ، والقرآن مملوء من أمثال هذه الوجوه وإذا كان اللفظ محتملاً لما ذكرناه ولم يرق دليل قطعي ولا ظني على التزام المنكرات التي يذكرونها ، فما الذي يحملنا على التزامها والقول بها ، والذي يؤكد أن الذي ذكرناه أقرب وأقوى أن يقال ختم الله هذه القصة بقوله (وإن له عندنا لزني وحسن مأب) ومثل هذه الخاتمة إنما تحسن في حق من صدر منه عمل كثير في الخدمة والطاعة ، وتحمل أنواعاً من الشدائد في الموافقة والانقياد ، أما إذا كان المذكور السابق هو الإقدام على الجرم والذنب فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به ، قال مالك بن دينار إذا كان يوم القيامة أتى بمنبر رفيع ويوضع في الجنة ، ويقال يا داود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا والله أعلم . بقي ههنا مباحث : (فالأول) قرى فتناه وفتناه على أن الألف ضمير الملكين (الثاني) المشهور أن الاستغفار إنما كان بسبب قصة النعجة والنعاج ، وقيل أيضاً إنما كان بسبب أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن سمع كلام الثاني وذلك غير جائز (الثالث) قوله (خر راعياً وأتاب) يدل على حصول الركوع ، وأما السجود فقد ثبت بالأخبار وكذلك البكاء الشديد في مدة أربعين يوماً ثبت بالأخبار (الرابع) أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن هذا الموضوع ليس فيه سجدة التلاوة قال لأن توبة نبي فلا توجب سجدة التلاوة (الخامس) استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية في سجود التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود .

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
 الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
 بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ
 ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾
 كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى
 فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ،
 وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ،
 أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب
 أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكروا أولوا الألباب ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما تم الكلام في شرح القصة أردفها بيان أنه تعالى فوض إلى داود خلافة
 الأرض ، وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور في تلك القصة ، لأن من البعيد جداً أن
 يوصف الرجل بكونه ساعياً في سفك دماء المسلمين ، راغباً في انتزاع أزواجهم منهم ثم يذكر عقبيه
 أن الله تعالى فوض خلافة الأرض إليه ، ثم نقول في تفسير كونه خليفة وجهان (الأول)
 جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء في الدعاء إلى الله تعالى ، وفي سياسة الناس لأن خليفة الرجل
 من يخلفه ، وذلك إنما يعقل في حق من يصح عليه الغيبة ، وذلك على الله محال (الثاني) إنا جعلناك
 مالكا للناس ونافذ الحكم فيهم فهذا التأويل يسمى خليفة ، ومنه يقال خلفاء الله في أرضه ، وحاصله
 أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته وحقيقة الخلافة ممتعة في حق الله ، فلما امتنعت
 الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة للزوم في تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم .

ثم قال تعالى (فاحكم بين الناس بالحق) واعلم أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع ، لأن الإنسان
 الواحد لا ينتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة حتى أن هذا يحرث ، وذلك يطحن ، وذلك
 يخبز ، وذلك ينسج ، وهذا يخطط ، وبالجملة فيكون كل واحدة منهم مشغولاً بهم ، وينتظم من

أعمال الجميع مصالح الجميع . فثبت أن الانسان مدني بالطبع وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس ، ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه ، وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق ، وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك ، أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقنة الإلهية انتظمت مصالح العالم ، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه . فهذا هو المراد من قولهم (فاحكم بين الناس بالحق) يعني لا بد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب .

أما المقام الأول : وهو أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره أن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية ، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات ، لأنهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر . أما المقام الثاني : وهو أن الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فالأمر فيه ظاهر لأن الإنسان إذا عظم ألفه بهذه الجسمانيات ونسى بالسكينة أحواله الروحانيات ، فإذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق ، ودخل دياراً ليس له بأهل تلك الديار إلف وليس لعيته قوة مطالعة أنوار تلك الديار ، فكأنه فارق المحبوب ووصل إلى المكروه . فكان لا محالة في أعظم العناء والبلاء ، فثبت أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله . وثبت أن الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب ، وهذا بيان في غاية الكمال .

ثم قال تعالى (بما نسوا يوم الحساب) يعني أن السبب الأول لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب ، لأنه لو كان متذكراً ليوم الحساب لما أعرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد ، ولما صار مستغرقاً في هذه اللذات الفاسدة .

روى عن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لا يجرى عليه القلم ولا يكتب عليه معصية ؟ فقال يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ؟ ثم تلا هذه الآية (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ثم قال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ونظيره قوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) وقوله تعالى (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) احتج الجبائي بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالقاً لأعمال العباد قال لأنها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل . فلما بين تعالى أنه (ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا) دل هذا على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد . ومثله قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وعند المجبرة أنه خلق الكافر لأجل أن يكفر والكافر باطل ، وقد خلق الباطل ، ثم أكد تعالى ذلك بأن قال (ذلك ظن الذين كفروا) أي كل من قال بهذا القول فهو كافر ، فهذا تصريح بأن مذهب المجبرة عين الكفر ، واحتج أصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لكل ما بين السموات والأرض ، وأعمال العباد حاصلة بين السماء والأرض ، فوجب أن يكون الله تعالى خالقاً لها .

(المسألة الثانية) هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة ، وذلك لأنه تعالى خلق الخلق في هذا العالم ، فإما أن يقال إنه خلقهم للاضرار أو للانفاع أو لا للانفعار ولا للاضرار والأول باطل لأن ذلك لا يليق بالرحيم الكريم ، والثالث أيضاً باطل لأن هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين ، فلم يبق إلا أن يقال إنه خلقهم للانفعار ، فنقول وذلك الإنفعار ، إما أن يكون في حياة الدنيا أو في حياة الآخرة ، والأول باطل لأن منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة ، وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ، ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية ، وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة ، واعلم أن هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة ، وقد لخصناها في أول سورة يونس بالاستقصاء ، فلا سبيل إلى التكرير فثبت بما ذكرنا أنه تعالى (ما خلق السماء والأرض وما بينهما باطلا) وإذا لم يكن خلقهما باطلاً كان القول بالحشر والنشر لازماً ، وأن كل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكاً في حكمة الله في خلق السماء والأرض ، وهذا هو المراد من قوله (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ولما بين الله تعالى على سبيل الإجمال أن إنكار الحشر والنشر يوجب الشك في حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل ، فقال (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وتقريره أنا نرى في الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته في الفقر والزمانة وأنواع البلاء ، ونرى الكفرة والفساق في الراحة والغبطة ، فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصي ، وذلك لا يباقي بحكمة الحكيم الرحيم ، وإذا كان ذلك قادحاً في الحكمة ، ثبت أن إنكار الحشر والنشر يوجب إنكار حكمة الله .

ثم قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قالت المعتزلة دلت الآية على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن لأجل الخير والرحمة والهداية ، وهذا يفيد أمرين (أحدهما) أن أفعال الله معللة برعاية المصالح (والثاني) أنه تعالى أراد الإيمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول إنه أراد الكفر من الكافر .

(المسألة الثانية) في تقرير نظم هذه الآيات فنقول ، لسائل أن يسأل فيقول إنه تعالى حكى في أول السورة عن المستهزئين من الكفار ، أنهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة ، وقالوا (ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب) ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب ، بل قال (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) ومعلوم أنه لا تعلق لذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق ، ثم إنه تعالى أطنب في شرح قصة داود ، ثم أتبعه بقوله (وما خلقنا السماء والأرض) ومعلوم أنه لا تعلق لمسألة إثبات حكمة الله بقصة داود ، ثم لما ذكر إثبات حكمة الله وفرع عليه إثبات أن القول بالحشر والنشر حق ، ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ، ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة ، وإذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصلاً متباينة لا تعلق للبعض منها ببعض ، فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتاباً شريفاً فاضلاً ؟ هذا تمام السؤال (والجواب) أن نقول : أن العقلاء قالوا من ابلى بخصم جاهل مصر متعصب ، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار ، وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ، لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرتة عن القبول أشد ، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ، وأن يخوض في كلام آخر أجنبى عن المسألة الأولى بالكلىة ويطنب في ذلك الكلام الأجنبي ، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى ، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسى المسألة الأولى ، حينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول ، فإن ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة ، فإذا سلها ، حينئذ يتمسك بها في إثبات المطلوب الأول ، وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعاً مفجهاً ، إذا عرفت هذا فنقول إن الكفار بلغوا في إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء (ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب) فقال يا محمد اقطع الكلام معهم في هذه المسألة ، واشرع في كلام آخر أجنبى بالكلىة عن هذه المسألة ، وهي قصة داود عليه السلام ، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر ، ثم إنه تعالى أطنب في شرح تلك القصة ، ثم قال في آخر القصة (ياد داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) وكل من سمع هذا قال نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق ، ثم كأنه تعالى قال : وأنا لا أمرك بالحق فقط ، بل أنا مع أنى رب العالمين لا أفعل إلا بالحق ولا أفضى بالباطل ، فههنا الخصم يقول نعم ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق ، فعند هذا يقال لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل ، لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر ، لأنه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحاً على المسلم في إيصال الخيرات إليه ، وذلك ضد الحكمة وعين الباطل ، فهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الإلزام القاطع على منكرى الحشر والنشر إيراداً لا يمكنهم الخلاص عنه ، فصار ذلك الخصم الذى بلغ في إنكار المعاد إلى حد الاستهزاء مفجهاً ملزماً بهذا

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ
بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى
تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَنُفِثَ بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

الطريق ، ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة في الإلزام في القرآن ، لا جرم وصف القرآن
بالكمال والفضل ، فقال (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكروا أولوا الألباب)
فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساءه التوفيق الإلهي لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة
في هذا القرآن العظيم ، حيث يراه في ظاهر الحال مقروناً بسوء الترتيب ، وهو في الحقيقة مشتمل
على أكمل جهات الترتيب ، فهذا ما حضرنا في تفسير هذه الآيات ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ﴾ ، إذ عرض عليه بالعشي الصافنات
الجياد ، فقال إنني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ، ردها علي فنفث
مسحاً بالسوق والأعناق .

واعلم أن هذا هو النص الثاني وقوله (نعم العبد) فيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ نقول المخصوص بالمدح في (نعم العبد) محذوف ، فقيل هو سليمان ، وقيل داود ،
والأول أولى لأنه أقرب المذكورين ، ولأنه قال بعده (إنه أواب) ولا يجوز أن يكون المراد
هو داود ، لأن وصفه بهذا المعنى قد تقدم في الآية المتقدمة حيث قال (واذكر عبدنا داود ذا
الأيدي إنه أواب) فلو قلنا لفظ الأواب ههنا أيضاً صفة داود لزم التكرار ، ولو قلنا إنه صفة
لسليمان لزم كون الابن شبيهاً لآبيه في صفات الكمال في الفضيلة ، فكان هذا أولى .

﴿ البحث الثاني ﴾ أنه قال أولاً (نعم العبد) ثم قال بعده (إنه أواب) وهذه الكلمة للتعليل ،
فهذا يدل على أنه إنما كان (نعم العبد) لأنه كان أواباً ، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله
تعالى في أكثر الأوقات وفي أكثر المهمات كان موصوفاً بأنه (نعم العبد) وهذا هو الحق الذي
لا شبهة فيه ، لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف
ورئيسها معرفة الله تعالى ، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شيء من الخيرات إلا
بإعانة الله تعالى ، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فكان أواباً ، فثبت أن كل من
كان أواباً وجب أن يكون (نعم العبد) .

أما قوله (إذ عرض عليه) ففيه وجوه (الأول) التقدير (نعم العبد) هو إذ كان من أعماله
أنه فعل كذا (الثاني) أنه ابتداء كلام . والتقدير اذكر يا محمد إذ عرض عليه كذا وكذا ، والعشي

هو من حين العصر إلى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر إليها ويقف على كيفية أحوالها ، والصفان الجياد الخيل وصفت بوصفين (أولهما) الصفان ، قال صاحب الصحاح : الصافن الذي يصفن قدميه ، وفي الحديث : كنا إذا صلينا خلفه فرفع رأسه من الركوع قمنا صفونا ، أي قمنا صافين أقدامنا ، وأقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس (والصفة الثانية) للخيل في هذه الآية الجياد ، قال المبرد : والجياد جمع جواد وهو الشديد الجرى ، كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل ، فالقصور وصفها بالفضيلة والكمال حالتى وقوفها وحركتها . أما حال وقوفها فوصفها بالصفون ، وأما حال حركتها فوصفها بالجودة ، يعنى أنها إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواضعها على أحسن الأشكال ، فإذا جرت كانت سراعاً في جريها ، فإذا طلبت لحقت ، وإذا طلبت لم تلحق ، ثم قال تعالى (قال إني أحببت حب الخيل عن ذكر ربى) وفي تفسير هذه اللفظة وجوه (الأول) أن يضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل أنبت حب الخيل عن ذكر ربى (والثاني) أن أحببت بمعنى ألزمت ، والمعنى أنى ألزمت حب الخيل عن ذكر ربى ، أى عن كتاب ربى وهو التوراة ، لأن ارتباط الخيل كما أنه فى القرآن بمدوح فكذلك فى التوراة بمدوح (والثالث) أن الإنسان قد يحب شيئاً لكنه يجب أن لا يحبه كالمرضى الذى يشتهى ما يزيد فى مرضه ، والآب الذى يحب ولده الردى ، وأما من أحب شيئاً ، وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله أحببت حب الخيل بمعنى أحببت حبى لهذه الخيل .

ثم قال (عن ذكر ربى) بمعنى أن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره لاعتن الشهوة والهوى ، وهذا الوجه أظهر الوجوه .

ثم قال تعالى (حتى توارت) أقول الضمير فى قوله (حتى توارت) ، وفى قوله (ردها) يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الشمس ، لأنه جرى ذكر ماله تعلق بها وهو العشى ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الصفان ، ويحتمل أن يكون الأول متعلقاً بالشمس والثانى بالصفان ، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك ، فهذه احتمالات أربعة لا مزيد عليها (فالأول) أن يعود الضميران معانى إلى الصفان ، كأنه قال حتى توارت الصفان بالحجاب ردوا الصفان على ، والاحتمال (الثانى) أن يكون الضميران معاً عائدين إلى الشمس كأنه قال حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر ، فسأل الله أن يرد الشمس فقوله (ردها على) إشارة إلى طلب رد الشمس ، وهذا الاحتمال عندى بعيد والذى يدل عليه وجوه (الأول) أن الصفان مذكورة تصریحاً ، والشمس غير مذكورة وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر (الثانى) أنه قال (إني أحببت حب الخيل عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه السلام كان يقول إني أحببت حب الخيل عن ذكر ربى . وكان يعيد هذه الكلمات إلى أن

توارت بالحجاب ، فلو قلنا المراد حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة إلى أن غابت عن عينه وذلك مناسب ، ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه أنه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر إلى وقت المغرب ، وهذا في غاية البعد (الثالث) أنا لو حكمتنا بعود الضمير في قوله حتى توارت إلى الشمس وحملنا اللفظ على أنه ترك صلاة العصر كان هذا منافياً لقوله (أحببت حب الخير عن ذكر ربي) فان تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسي الصلاة ولما ترك ذكر الله (الرابع) أنه بتقدير أنه عليه السلام بقي مشغولاً بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر ؟ ، فكان ذلك ذنباً عظيماً وجرماً قوياً ، فالأليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة في إظهار التوبة ، فأما أن يقول على سبيل التهور والعظمة لإله العالم ورب العالمين ، ردوها على بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الأدب عقيب ذلك الجرم العظيم ، فهذا لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير ، فكيف يجوز إسناده إلى الرسول المطهر المكرم ! (الخامس) أن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها على ولا يقول ردوها على ، فان قالوا إنما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله (ردوها) لفظ مشعر بأعظم أنواع الإهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم (السادس) أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهداً لكل أهل الدنيا ولو كان الأمر كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وإظهاره ، وحيث لم يقل أحد ذلك علينا فساده (السابع) أنه تعالى قال (إذ عرض بالعشى الصافنات الجياد) ثم قال (حتى توارت بالحجاب ، وعود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى ، وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد ، وأما العشى فأبعدهما فكان عود ذلك الضمير إلى الصافنات أولى ، ثبت بما ذكرنا أن حمل قوله (حتى توارت بالحجاب) على توارى الشمس وأن حمل قوله (ردوها على) على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام في غاية البعد عن النظم .

ثم قال تعالى (فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) أي فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها ، قال الآكثرون معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها أي قطعها ، قالوا إبه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبت اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقرباً إلى الله تعالى ، وعندى أن هذا أيضاً بعيد ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه لو كان معنى مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) قطعها ، وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فرمما فهم منه ضرب العنق ، أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح (الثاني) القائلون بهذا يقول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة (فأولها) ترك الصلاة (وثانيها) أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسي الصلاة ، وقال صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة » (وثالثها)

أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإجابة البتة (ورابعها) أنه خاطب رب العالمين بقوله (ردوها علي) وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس ، (وخامسها) أنه أتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه « نهى عن ذبح الحيوان إلا لما كله » ، فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها (وسادسها) أن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله (وقالوا ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب) وأن الكفار لما بلغوا في السفاهة إلى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر يا محمد على سفاهتهم (واذكر عبدنا داود) وذكر قصة داود ، ثم ذكر عقيبها قصة سليمان ، وكان التقدير أنه تعالى قال لمحمد عليه السلام اصبر يا محمد على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان ، وهذا الكلام إنما يكون لاثناً لو قلنا إن سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة ، وصبر على طاعة الله ، وأعرض عن الشهوات واللذات ، فأما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لاثناً بهذا الموضع ، فثبت أن كتاب الله تعالى ينادى على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والإفساد والإبطال بل التفسير المطابق للحق لألفاظ القرآن والصواب أن نقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في دين محمد ﷺ ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربي ، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره ، ثم أمر الرائيين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور (الأول) تشريفاً لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو (الثاني) أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه (الثالث) أنه كان أعلم بحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطابقاً مطابقاً موافقاً ، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمخذورات ، وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردّها ، وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة ، فإن قيل فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول لنا ههنا مقامان :

(المقام الأول) أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها ، وقد ظهر والحمد لله أن الأمر كما ذكرناه ، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه .

(المقام الثاني) أن يقال هب أن لفظ الآية لا يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس ، فما قولك

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ
 اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
 فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ
 وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخِرِينَ مَقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ
 أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِن لَّهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴿٤٠﴾

فيه وجوابنا أن الدلالة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الأحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية ، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالي بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ﴾ ، قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ، فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

اعلم أن هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام واختلفوا في المراد من قوله (ولقد فتننا سليمان) ولأهل الحشو والرواية فيه قول ، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر ، أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات :

﴿ الأولى ﴾ قالوا إن سليمان بلغه خبر مدينة في البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها ، وأخذ بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها وكانت تبكي أبداً على أبيها فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشياً مع جواربها يسجدن لها ، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله تعالى ، وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوماً ، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان . وقال يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسى سليمان فأتى عليه الطير والجن والإنس ، وتغيرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطرده . فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتسكفف وإذا قال

أنا سليمان حثوا عليه الزراب وسبوه ، ثم أخذ يخدم السما كين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين يوماً عدد ما عبد الوثن في بيته ، فانكر آصف وعظاء نبي إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان ، فقلن ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة ، وقيل بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلغته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطمها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً لله ، ورجع إليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر .

﴿ والرواية الثانية ﴾ للحشوية أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها ، فقال له آصف إنك لمفتون بذنك فتب إلى الله .

﴿ والرواية الثالثة ﴾ لهم قالوا إن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس ؟ فقال أرني خانمك أخبرك فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه ، ثم ذكر الحكاية إلى آخرها .

إذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله (ولقد فتننا سليمان) أن الله تعالى ابتلاه وقوله (وألقينا على كرسيه جسداً) هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه .

﴿ والرواية الرابعة ﴾ أنه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وألقى على سريره شيطان عقوبة له .

واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه (الأول) أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء ، فينتد لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع ، فلعل هؤلاء الذين رأهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال ، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكيفية (الثاني) أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد ، وحينئذ ووجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم ، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق أكبر الأنبياء أولى (والثالث) كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان ؟ ولا شك أنه قبيح (الرابع) لو قلنا إن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه ، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنوب على تلك المرأة ، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه ؟ فأما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء : (الأول) أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين إن عاش صار مسلطاً علينا مثل أبيه فسيبنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يريه في السحاب فبينما هو مشتغل بهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأتاب (الثاني) روى عن النبي ﷺ أنه قال « قال سليمان لا طوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في

سبيل الله ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فحى به على كرسيه فوضع في حجره ، فوالذي نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرساناً أجمعون ، فذلك قوله (ولقد فتنا سليمان) (الثالث) قوله (ولقد فتنا سليمان) بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه ، (وألقينا على كرسيه) منه (جسداً) وذلك لشدة المرض . والعرب تقول في الضعيف إنه لحم على وضم وجسم بلا روح (ثم أناب) أى رجع إلى حال الصحة ، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة البتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة (الرابع) أقول لا يبعد أيضاً أن يقال إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه ، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي ، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف ، وأعادته إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب .

أما قوله تعالى (قال رب اغفر لي) فاعلم أن الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية ، فإنه لو لا تقدم الذنب لما طلب المغفرة ، ويمكن أن يجاب عنه بأن الإنسان لا ينفك البتة عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأنهم أبدأ في مقام هضم النفس ، وإظهار الذلة والخضوع ، كما قال ﷺ « إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى والله أعلم .

ثم قال تعالى (وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم بعده طلب المملكة . وأيضاً الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم توسل به إلى طلب المملكة ، ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضاً لأنه تعالى حكى عنه أنه قال (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين) وقال محمد ﷺ (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك) فإن قيل قوله عليه السلام (ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى) مشعر بالحسد ، والجواب عنه أن القائلين بأن الشيطان استولى على ملكته قالوا معنى قوله لا ينبغي لأحد من بعدى ، هو أن يعطيه الله ملكاً لا تقدر الشياطين أن يقوموا مقامه البتة ، فأما المنكرون لذلك فقد أجابوا عنه من وجوه (الأول) أن الملك هو القدرة فكان المراد أقدرني على أشياء لا يقدر عليها غيري البتة ، ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتى ورسالتى . والدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال (عقيبه فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) فكون الريح جارياً بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب ، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته فكان قوله (هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى) هو هذا المعنى لأن شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها ، فقوله (لا ينبغي لأحد من بعدى) يعنى لا يقدر

أحد على معارضته (والوجه الثاني) في الجواب أنه عليه السلام لما مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا صائرة إلى الغير يارث أو بسبب آخر ، فسأل ربه ملكاً لا يمكن أن ينتقل منه إلى غيره ، وذلك الذي سأله بقوله (ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى) أى ملكاً لا يمكن أن ينتقل عنى إلى غيرى (الوجه الثالث) في الجواب أن الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة عليها ، فكانه قال : يا إلهى أعطنى مملكة فائقة على مالك البشر بالكلية ، حتى أحترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابى أكمل وأفضل (الوجه الرابع) من الناس من يقول إن الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب ، لأن هذه اللذات حاضرة وسعادات الآخرة نسيئة ، والتقد يصعب بيعه بالنسيئة ، فقال سليمان أعطنى يارب مملكة تكون أعظم الممالك الممكنة للبشر ، حتى أنى أبقي مع تلك القدرة الكاملة فى غاية الإحتراز عنها ليظهر للخلق أن حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى (الوجه الخامس) أن من لم يقدر على الدنيا يبقى ملتفت القلب إليها فيظن أن فيها سعادات عظيمة وخيرات نافعة ، فقال سليمان يارب العزة أعطنى أعظم الممالك حتى يقف الناس على كمال حالها ، حينئذ يظهر للعقل أنه ليس فيها فائدة وحينئذ يعرض القلب عنها ولا يلتفت إليها ، وأشتغل بالعبودية ساكن النفس غير مشغول القلب بعلائق الدنيا ، ثم قال (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) رخاء أى رخوة لينة وهى من الرخاوة والريح إذا كانت لينة لاتزعزع ولا تمتنع عليه كانت طيبة ، فان قيل أليس أنه تعالى قال فى آية أخرى (وللسليمان الريح عاصفة تجري بأمره) قلنا الجواب من وجهين (الأول) لا منافاة بين الآيتين فان المراد أن تلك الريح كانت فى قوة الرياح العاصفة إلا أنها لما جرت بأمره كانت لذيدة طيبة فكانت رخاء (والوجه الثاني) من الجواب أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى ولا منافاة بين الأمرين وقوله تعالى (حيث أصاب) أى قصد وأراد ، وحكى الأصمى عن العرب أنهم يقولون أصاب الصواب فأخطأ الجواب . وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما ، فقال أين تصيدان ؟ فقالا هذا مطلوبنا . وبالجملة فالمتصور أنه تعالى جعل الريح مسخرة له حتى صارت تجري بأمره على وفق إرادته ، ثم قال والشياطين كل بناء وغواص ، قال صاحب الكشاف الشياطين عطف على الريح وكل بناء بدل من الشياطين وآخرين عطف على قوله (كل بناء) وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ماشاء من الأبنية ويفرصون له فيستخرجون اللؤلؤ ، وقوله (مقرنين) يقال قرنهم فى الحبال والتشديد للكثرة (والأصفاد) الأغلال واحدها صفد والصفد العطية أيضاً ، قال النابغة :

ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد

فعلى هذا الصفد القييد فكل من شدته شداً وثيقاً فقد صفدته ، وكل من أعطته عطاءً جزيلاً فقد أضفدته ، وههنا بحث ، وهو أن هذه الآيات دالة على أن الشياطين لها قوة عظيمة ، وبسبب تلك القوة قدروا على بناء الأبنية القوية التى لا يقدر عليها البشر ، وقدروا

وَإِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
 أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ
 مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذُكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرُبْ بِهِ

على الفروض في البحار ، واحتاج سليمان عليه السلام إلى قيدهم ، ولقائل أن يقول إن هذه الشياطين إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة ، فإن كان الأول وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة ، إذ لو جاز أن لا يراهم مع كثافة أجسادهم ، فليجز أن تكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة ولا يراها ولا نسمعها ، وذلك دخول في السفسطة ، وإن كان الثاني وهو أن أجسادهم ليست كثيفة ، بل لطيفة رقيقة ، فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفاً بالقوة الشديدة ، وأيضاً لزم أن تتفرق أجسادهم وأن تتمزق بسبب الرياح القوية وأن يموتوا في الحال ، وذلك يمنع من وصفهم ببناء الأبنية القوية ، وأيضاً الجن والشياطين إن كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة ، فلم لا يقتلون العلماء والزهاد في زماننا ؟ ولم لا يخربون ديار الناس ؟ مع أن المسلمين مبالغون في إظهار لعنهم وعداوتهم . وحيث لم يحس شيء من ذلك ، علمنا أن القول بإثبات الجن والشياطين ضعيف .

واعلم أن أصحابنا يجوزون أن تكون أجسامهم كثيفة مع أننا لا نراها ، وأيضاً لا يبعد أن يقال أجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون ، ولكنها صلبة بمعنى أنها لا تقبل التفرق والتمزق . وأما الجباني فقد سلم أنها كانت كثيفة الأجسام ، وزعم أن الناس كانوا يشاهدونهم في زمن سليمان . ثم إنه لما توفي سليمان عليه السلام ، أمات الله أولئك الجن والشياطين ، وخلق نوعاً آخر من الجن والشياطين تكون أجسامهم في غاية الرقة ، ولا يكون لهم شيء من القوة ، والموجود في زماننا من الجن والشياطين ليس إلا من هذا الجنس .

ثم قال تعالى (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) وفيه قولان (الأول) قال ابن عباس رضي الله عنهما : أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب ، أي ليس عليك حرج فيما أعطيت وفيما أمسكت (الثاني) أن هذا في أمر الشياطين خاصة ، والمعنى هؤلاء الشياطين المسخرون عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فحل عنه ، واحبس من شئت منهم في العمل بغير حساب . ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان في الدنيا ، أردفه بإنعامه عليه في الآخرة ، فقال (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وقد سبق تفسيره .

قوله تعالى ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ،

وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب .
اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، واعلم أن داود وسليمان
كانا بمن أفاض الله عليه أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان بمن خصه الله تعالى بأنواع البلاء ،
والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار . كأن الله تعالى قال : يا محمد اصبر على سفاهة قومك
فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاهاً من داود وسليمان عليهما السلام ، وما كان أكثر
بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن
العاقل لا بد له من الصبر على المكروه ، وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال صاحب الكشاف : أيوب عطف بيان ، وإذ بدل اشتغال منه (أنى
مسنى) أى بآنى مسنى حكاية لكلامه الذى ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب ،
وقرى . (بنصب) بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمها ، فالنصب والنصب ، كالرشد
والرشد ، والعدم والعدم ، والسقم والسقم ، والنصب على أصل المصدر ، والنصب تثقيل نصب ،
والمعنى واحد ، وهو التعب والمشقة والعذاب والألم .

واعلم أنه كان قد حصل عنده نوعان من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول
المكروهات ، والألم الشديد فى الجسم ولما حمل هذان النوعان لا جرم ، ذكر الله تعالى
لفظين وهما النصب والعذاب .

(المسألة الثانية) للناس فى هذا الموضع قولان (الأول) أن الآلام والأسقام الحاصلة فى
جسمه إنما حصلت بفعل الشيطان (الثانى) أنها إنما حصلت بفعل الله ، والعذاب المضاف فى هذه
الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة ، وإلقاء الخواطر الفاسدة .

وأما القول الأول : فتقريره ماروى أن إبليس سأل ربه ، فقال هل فى عبيدك من لو سلطنى
عليه يمتنع منى ؟ فقال الله : نعم عبدى أيوب ، فجعل يأتية بوساوسه وهو يرى إبليس عياناً ولا يلتفت
إليه ، فقال يارب إنه قد امتنع على فسلطنى على ماله ، وكان يحيمه ويقول له : هلك من مالك كذا وكذا ،
فيقول الله أعطى والله أخذ ، ثم يحمد الله ، فقال يارب إن أيوب لا يبالي بماله فسلطنى على ولده ،
فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية ، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه ، فقال يارب لا يبالي بماله
ولده فسلطنى على جسده ، فأذن فيه ، فنفتح فى جلد أيوب ، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة
فيه ، فمكث فى ذلك البلاء سنين ، حتى صار بحيث استقدره أهل بلده ، فخرج إلى الصحراء وما كان
يقرب منه أحد ، فجاء الشيطان إلى امرأته ، وقال لو أن زوجك استعان بى لخاصته من هذا البلاء ،
فذكرت المرأة ذلك لزوجها ، فخلف بالله لئن عافاه الله لينجلدها مائة جلدة ، وعند هذه الواقعة قال

(إني مسني الشيطان بنصب وعذاب) فأجاب الله دعاه ، وأوحى إليه (أن اركض برجلك) فأظهر الله من تحت رجله عيناً باردة طيبة فاغتسل منها ، فأذهب الله عنه كل داء في ظاهره وباطنه ، ورد عليه أهله وماله .

والقول الثاني : أن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام ، والدليل عليه وجوه (الأول) أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان ، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان ، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات ، فقد حصل بفعل الشيطان ، وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطى الحياة والموت والصحة والسقم ، هو الله تعالى (الثاني) أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء ، ولم لا يخرّب دورهم ، ولم لا يقتل أولادهم (الثالث) أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر إلا على إلقاء الوسوس والخواطر الفاسدة ، وذلك يدل على قول من يقول إن الشيطان هو الذي ألقاه في تلك الأمراض والآفات ، فإن قال قائل : لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان ؟ فلنا فإذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى ، فأى فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك ؟ بل الحق أن المراد من قوله (إني مسني الشيطان بنصب وعذاب) أنه بسبب إلقاء الوسوس الفاسدة والخواطر الباطنة كان يلقيه في أنواع العذاب والعناء ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أن تلك الوسوس كيف كانت وذكروا فيه وجوهاً (الأول) أن علقته كانت شديدة الألم . ثم طال مدة تلك العلة واستقدره الناس ونفروا عن مجاورته ، ولم يبق له شيء من الأموال البتة . وامراته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت ، ثم بلغت نفرة الناس عنه إلى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم ، والشيطان كان يذكره النعم التي كانت والآفات التي حصلت ، وكان يحتمل في دفع تلك الوسوس ، فلما قويت تلك الوسوس في قلبه خاف وتضرع إلى الله ، وقال (إني مسني الشيطان بنصب وعذاب) لأنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد . (الثاني) أنها لما طال مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع نخاف من تأكد خاطر القنوط في قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال (إني مسني الشيطان) ، (الثالث) قيل إن الشيطان لما قال لامراته لو أطاعني زوجك أزلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك ، فغلب على ظنه أن الشيطان طمع في دينه فشق ذلك عليه فتضرع إلى الله تعالى وقال (إني مسني الشيطان بنصب وعذاب) . (الرابع) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه بقي أيوب في البلاء ثمان عشرة سنة حتى رفضه القريب والبعيد إلا رجلين ، ثم قال أحدهما لصاحبه لقد أذنب أيوب ذنباً ما أتى به أحد من العالمين ، ولولاه ما وقع في مثل هذا البلاء ، فذكروا ذلك

لأيوب عليه السلام ، فقال لا أدري ما تقولان غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأنفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في الحق ، (الخامس) قيل إن امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجيء به إلى أيوب ، فاتفق أنهم ما استخدموها البتة وطلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتها على أن تعطيهما قدر القوت ففعلت ، ثم في اليوم الثاني ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة . وكان أيوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة ، فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية في قلبه واشتد غمه ، فعند ذلك قال (إني مسني الشيطان بنصب وعذاب) ، (السادس) قال في بعض الأيام يارب لقد علمت ما اجتمع على أمران إلا آثرت طاعتك ، ولما أعطيتني المال كنت للأرامل قيمياً ، ولابن السبيل معيناً ، ولليتامى أباً ، فنودي من غمامة يا أيوب ممن كان ذلك التوفيق ؟ فأخذ أيوب التراب ووضعها على رأسه ، وقال منك يارب ثم خاف من الخاطر الأول فقال (مسني الشيطان بنصب وعذاب) وقد ذكروا أقوالاً أخرى ، والله أعلم بحقيقة الحال ، وسمعت بعض اليهود يقول إن لموسى بن عمران عليه السلام كتاباً مفرداً في واقعة أيوب ، وحاصل ذلك الكتاب أن أيوب كان رجلاً كثير الطاعة لله تعالى مواظباً على العبادة ، مبالغاً في التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، ثم إنه وقع في البلاء الشديد والعناء العظيم ، فهل كان ذلك لحكمة أم لا ؟ فان كان ذلك لحكمة فمن المعلوم أنه ما أتى بجرم في الزمان السابق حتى يجعل ذلك العذاب في مقابلة ذلك الجرم ، وإن كان ذلك لكثرة الثواب فالإله الحكيم الرحيم قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الآلام الطويلة والأسقام الكريهة . وحينئذ لا يبقى في تلك الأمراض والآفات فائدة ، وهذه كلمات ظاهرة جلية وهي دالة على أن أفعال ذي الجلال منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد ، والحق الصريح (أنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) .

(المسألة الثالثة) لفظ الآية يدل على أن ذلك النصب والعذاب إنما حصل من الشيطان ثم ذلك العذاب على القول الأول عبارة عما حصل في بدنه من الأمراض ، وعلى القول الثاني عبارة عن الأحزان الحاصلة في قلبه بسبب إلقاء الوسوس ، وعلى التقديرين فيلزم إثبات الفعل للشيطان ، وأجاب أصحابنا رحمهم الله بأننا لا ننكر إثبات الفعل للشيطان لكننا نقول فعل العبد مخلوق لله تعالى على التفصيل المعلوم .

أما قوله تعالى (أرخص برجلك) فالمعنى أنه لما شكى من الشيطان ، فكأنه سأله ربه أن يزيل عنه تلك البلية فأجابه الله إليه بأن قال له (أرخص برجلك) والرخص هو الدفع القوي بالرجل ، ومنه ركضك الفرس ، والتقدير قلنا له أرخص برجلك ، قيل إنه ضرب برجله تلك الأرض فنبعت عين فقيل (هذا مغتسل بارد وشراب) أي هذا ماء تغتسل به فيبرأ باطنك ، وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل فيه وشرب منه . والمفسرون قالوا نبعت له

عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه بإذن الله ، وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها ثم قال تعالى (ووهبنا له أهله) فقد قيل هم عين أهله وزيادة مثلهم ، وقيل غيرهم مثلهم ، (والأول) أولى لأنه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ، ثم اختلفوا فقال بعضهم معناه أزلنا عنهم السقم فعادوا أصحاء ، وقال بعضهم بل حضروا عنده بعد أن غابوا عنه واجتمعوا بعد أن تفرقوا . وقال بعضهم بل تمكن منهم وتمكنوا منه فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة .

أما قوله (ومثلهم معهم) فالأقرب أنه تعالى متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك ، وقال الحسن رحمه الله : المراد نهبه الأهل أنه تعالى أحياهم بعد أن هلكوا .

ثم قال (رحمة منا) أي إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة ، لا على سبيل اللزوم .

ثم قال (وذكرى لأولى الألباب) يعني سلطنا البلاء عليه أولاً فصبر ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه إلى الآلاء والنعماء ، تنبيهاً لأولى الألباب على أن من صبر ظفر ، والمقصود منه التنبية على ما وقع ابتداء الكلام به وهو قوله لمحمد (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) وقالت المعتزلة قوله تعالى (رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) يعني إنما فعلناها لهذه الأغراض والمقاصد ، وذلك يدل على أن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح والكلام في هذا الباب قد مر غير مرة .

أما قوله تعالى (وخذ بيدك ضغثاً) فهو معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك . واعلم أن هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه ، وفي الخبر أنه حلف على أهله ، ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله حلف عليها ، ويبعد ما قيل إنها رغبته في طاعة الشيطان ، ويبعد أيضاً ما روى أنها قطعت الذوائب عن رأسها لأن المضطر إلى الطعام يباح له ذلك بل الأقرب أنها خالفته في بعض المهمات ، وذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضربها مائة إذا برى ، ولما كانت حسنة الخدمة له لا جرم حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها ، وهذه الرخصة باقية ، وعن النبي ﷺ أنه أتى بمجذم خبث بأمة فقال « خذوا عثكالا فيه مائة شراخ فاضربوه به ضربة » .

ثم قال تعالى (إنا وجدناه صابراً) فإن قيل كيف وجدناه صابراً وقد شكى إليه ، والجواب من وجوه : (الأول) أنه شكى من الشيطان إليه وما شكى منه إلى أحد (الثاني) أن الألم حين كان على الجسد لم يذكر شيئاً فلما عظمت الوسوس خاف على القلب والدين فتضرع (الثالث) أن الشيطان عدو ، والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدر في الصبر ، ثم قال (نعم العبد إنه أواب)

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ «٤٥»
 إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ «٤٦» وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارِ
 «٤٧» وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْآخِيَارِ «٤٨»

وهذا يدل على أن تشریف نعم العبد ، إنما حصل لكونه أواباً ، وسمعت بعضهم قال لما نزل قوله تعالى (نعم العبد) في حق سليمان عليه السلام تارة ، وفي حق أيوب عليه السلام أخرى عظم الغم في قلوب أمة محمد ﷺ ، وقالوا إن قوله تعالى (نعم العبد) في حق سليمان تشریف عظيم ، فإن احتجنا إلى اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان حتى يجد هذا التشریف لم نقدر عليه ، وإن احتجنا إلى تحمل بلاء مثل أيوب لم نقدر عليه ، فكيف السبيل إلى تحصيله . فأنزل الله تعالى قوله (نعم المولى ونعم النصير) والمراد أنك إن لم تكن (نعم العبد) فأنا (نعم المولى) وإن كان منك الفضول ، ففي الفضل ، وإن كان منك التقصير ، ففي الرحمة والتيسير .

قوله تعالى ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارِ ، واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الآخيار ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن كثير (عبدنا) على الواحد وهي قراءة ابن عباس ، ويقول إن قوله (عبدنا) تشریف عظيم ، فوجب أن يكون هذا التشریف مخصوصاً بأعظم الناس المذكورين في هذه الآية وهو إبراهيم وقرأ الباقون (عبادنا) قالوا لأن غير إبراهيم من الأنبياء قد أجرى عليه هذا الوصف فجاء في عيسى (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) وفي أيوب (نعم العبد) وفي نوح (إنه كان عبداً شكوراً) فمن قرأ عبدنا جعل إبراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا وهي إسحق ويعقوب ، ومن قرأ عبادنا جعل إبراهيم واسحق ويعقوب عطف بيان لعبادنا .
 ﴿ المسألة الثانية ﴾ تقدير الآية كأنه تعالى قال (فاصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) إلى أن قال (واذكر عبدنا إبراهيم) أي واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين ألقى في النار ، وصبر إسحق للذبح ، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره . ثم قال (أولى الأيدي والأبصار) ، واعلم أن اليد آلة لأكثر الأعمال والبصر آلة لأقوى الإدراكات ، فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر . إذا عرفت هذا فنقول النفس الناطقة الإنسانية لها قوتان عاملة وعاملة ، أما القوة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله ، وأما القوة العاملة فأشرف ما يصدر عنها معرفة

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنِّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَآبٍ «٤٩» جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَفْتُوحَةٌ لَهُمْ
 الْأَبْوَابُ «٥٠» مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ «٥١» وَعِنْدَهُمْ
 قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَمْرَأَاتٌ «٥٢» هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ «٥٣» إِنَّ هَذَا

الله ، وما سوى هذين القسمين من الأعمال والمعارف فكالعبث والباطل ، فقوله (أولى الأيدي
 والأبصار) إشارة إلى هاتين الحالتين .

ثم قال تعالى (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) وفيه مسألتان :

(المسألة الأولى) قوله (بخالصة) قرىء بالتنوين والإضافة فمن نون كان التقدير (أخلصناهم)
 أى جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهى ذكرى الدار ، ومن قرأ بالإضافة
 فالمعنى بما خالص من ذكرى الدار ، يعنى أن ذكرى الدار قد تكون لله وقد تكون لغير الله ،
 فالمعنى إنا أخلصناهم بسبب ما خالص من هذا الذكر .

(المسألة الثانية) فى ذكرى الدار وجوه : (الأولى) المراد أنهم استغرقوا فى ذكرى الدار
 الآخرة وبلغوا فى هذا الذكر إلى حيث نسوا الدنيا (الثانى) المراد حصول الذكر الجليل الرفيع
 لهم فى الدار الآخرة (الثالث) المراد أنه تعالى أتقى لهم الذكر الجليل فى الدنيا وقبل دعاءهم فى قوله
 (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) .

ثم قال تعالى (وإناهم عندنا لمن المصطفين الأختيار) أى المختارين من أبناء جنسهم والأختيار
 جمع خير أو خير على التخفيف كأموات فى جمع ميت أو ميت ، واحتج العلماء بهذه الآية فى إثبات
 عصمة الأنبياء قالوا لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم أختياراً على الإطلاق ، وهذا يعنى حصول الخيرية
 فى جميع الأفعال والصفات بدليل صحة الاستثناء وبدليل دفع الإجمال .

ثم قال (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأختيار) وهم قوم آخرون من
 الأنبياء تحملوا الشدائد فى دين الله ، وقد ذكرنا الكلام فى شرح هذه الأسماء وفى صفات هؤلاء
 الأنبياء فى سورة الأنبياء وفى سورة الأنعام ، فلافائدة فى الإعادة ، وههنا آخر الكلام فى قصص
 الأنبياء فى هذه السورة .

قوله تعالى (هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ، جنات عدن مفتوحة لهم الأبواب ، متكئين فيها
 يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم قاصرات الطرف أتراب ، هذا ما توعدون ليوم الحساب ،

لِرَزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾

إن هذا لرزقنا مله من نفاد ﴿٥٤﴾ .

إعلم أن في قوله (ذكر) وجهين (الأول) أنه تعالى إنما شرح ذكر أحوال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لأجل أن يصبر محمد عليه السلام على تحمل سفاهة قومه فلما تم بيان هذا الطريق وأراد أن يذكر عقبيه طريقاً آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال، وأراد أن يميز أحد البابين عن الآخر، لا جرم قال (هذا ذكر)، ثم شرع في تقرير الباب الثاني فقال (وإن للمتقين) كما أن المصنف إذا تم كلاماً قال هذا باب، ثم شرع في باب آخر، وإذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر قال هذا وقد كان كيت وكيت، والدليل عليه أنما لما تم ذكر أهل الجنة وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال (هذا وإن للطاغين) (الوجه الثاني) في التأويل، أن المراد هذا شرف و ذكر جميل لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام يذكرون به أبداً، والأول هو الصحيح.

أما قوله (وإن للمتقين لحسن مآب) .

فأعلم أنه تعالى لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبي ﷺ بأن وصفوه بأنه ساحر كذاب، وقالوا له على سبيل الاستهزاء (ربنا عمل لنا فطنا) فمند هذا أمر محمداً بالصبر على تلك السفاهة، وبين أن ذلك الصبر لازم من وجهين (الأول) أنه تعالى لما بين أن الأنبياء المتقدمين صبروا على المكاره والشدائد، فيجب عليك أن تقتدى بهم في هذا المعنى (الثاني) أنه تعالى بين في هذه الآية أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا، وكل ذلك يوجب الصبر على تكاليف الله تعالى، وهذا نظم حسن وترتيب لطيف.

أما قوله تعالى (وإن للمتقين لحسن مآب) المرجع، واحتج القائلون بقدم الأرواح بهذه الآية، وبكل آية تشتمل على لفظ الرجوع ووجه الاستدلال، أن لفظ الرجوع إنما يصدق لو كانت هذه الأرواح موجودة قبل الأجساد، وكانت في حضرة جلال الله ثم تعلقت بالأبدان، فعند انفصالها عن الأبدان يسمى ذلك رجوعاً (وجوابه) أن هذا إن دل فإنما يدل على أن الأرواح كانت موجودة قبل الأبدان، ولا يدل على قدم الأرواح.

ثم قال تعالى (جنات عدن) وهو بدل من قوله (لحسن مآب) ثم قال (مفتحة لهم الأبواب)

وفيه مسائل:

(المسألة الأولى) ذكروا في تأويل هذا اللفظ وجوهاً (الأول) قال الفراء: معناه مفتحة لهم أبوابها، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة، تقول العرب: مررت برجل حسن الوجه، فالألف واللام في الوجه بدل من الإضافة (والثاني) قال الزجاج: المعنى (مفتحة لهم الأبواب) منها (الثالث) قال صاحب الكشاف: (الأبواب) بدل من المضمير، وتقديره مفتحة

هي الأبواب ، كقولك ضرب زيد اليد والرجل ، وهو من بدل الاشتغال .
 ﴿ المسألة الثانية ﴾ قرئ . (جنات عدن) مفتحة بالرفع على تقدير أن يكون قوله (جنات عدن) مبتدأ ومفتحة خبره ، وكلاهما خبر مبتدأ محذوف ، أى هو (جنات عدن مفتحة لهم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أنه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة في هذه الآية أشياء (الأول) أحوال مساكنهم ، فقوله (جنات عدن) يدل على أمرين (أحدهما) كونها جنات وبساتين (والثاني) كونها دائماً آمنة من الانقضاء .

وفي قوله (مفتحة لهم الأبواب) وجوه (الأول) أن يكون المعنى أن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها وحيوه بالسلام ، فيدخل كذلك محضوفاً بالملائكة على أعز حال وأجمل هيئة ، قال تعالى (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) ، (الثاني) أن تلك الأبواب كلما أرادوا انفتاحها انفتحت لهم ، وكلما أرادوا انغلاقها انغلق لهم (الثالث) المراد من هذا الفتح ، وصف تلك المساكن بالسعة ، ومسافة العيون فيها ، ومشاهدة الأحوال اللذيذة الطيبة .

ثم قال تعالى (متكئين فيها) يدعون فيها ، وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ أنه تعالى ذكر في هذه الآية كونهم متكئين في الجنة ، وذكر في سائر الآيات كيفية ذلك الاتكاء ، فقال في آية (على الأرائك متكئون) وقال في آية أخرى (متكئين على رفرف خضر) .

﴿ البحث الثاني ﴾ قوله (متكئين فيها) حال قدمت على العامل فيها وهو قوله (يدعون فيها) والمعنى يدعون في الجنات (متكئين فيها) ثم قال (بفأكهة كثيرة وشراب) والمعنى بألوان الفأكة وألوان الشراب ، والتقدير بفأكهة كثيرة وشراب كثير ، والسبب في ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والاشربة ، فرغبهم الله تعالى فيه .

ولما بين تعالى أمر المسكن وأمر الماء كقول والمشروب ذكر عقيبه أمر المنكوح ، فقال (وعندهم قاصرات الطرف) وقد سبق تفسيره في سورة والصافات ، وبالجملة فالمعنى (كونهن قاصرات الطرف) عن غيرهم مقصورات القلب على محبتهم ، وقوله (أتراب) أى على سن واحد ، ويحتمل كون الجوارى أتراباً ، ويحتمل كونهن أتراباً للأزواج ، قال القفال : والسبب في اعتبار هذه الصفة ، أنهن لما تشابهن في الصفة والسن والحلية كان الميل إليهن على السوية ، وذلك يقتضى عدم الغيرة .

ثم قال تعالى (هذا ما توعدون ليوم الحساب) يعنى أن الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة ، ثم إنه تعالى أخبر عن دوام هذا الثواب فقال (إن هذا لرزقنا ماله من نقاد) .

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأَبٍ «٥٥» جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبئْسَ الْمِهَادُ «٥٦» هَذَا
فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ «٥٧» وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ «٥٨» هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ
مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ «٥٩» قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْرَحِبَاءٌ بِكُمْ أَنْتُمْ
قَدِمْتُمُوهُ لَنَا فَبئْسَ الْقَرَارُ «٦٠» قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا
فِي النَّارِ «٦١» وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ «٦٢»
أَتَّخَذْنَاكُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ «٦٣» إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
النَّارِ «٦٤»

قوله تعالى (هذا وإن للطاغين لشر مآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم
وغساق ، وآخِر من شكله أزواج ، هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ، قالوا
بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً
في النار ، وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدُّهم من الأشرار ، اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم
الأبصار ، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) .

اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين ، وصف بعده عقاب الطاغين ، ليكون الوعيد مذكوراً
عقيب الوعد ، والترهيب عقيب الترغيب .

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال أهل النار أنواعاً (فالأول) مرجعهم ومآبهم ، فقال (هذا
وإن للطاغين لشر مآب) وهذا في مقابلة قوله (وإن للمتقين لحسن مآب) فيبين تعالى أن حال
الطاغين مضاد لحال المتقين ، واختلفوا في المراد بالطاغين ، فأكثر المفسرين حملوه على الكفار ،
وقال الجبائي : إنه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفاراً أو لم يكونوا كذلك ، واحتج
الأولون بوجوه (الأول) أن قوله (لشر مآب) يقتضى أن يكون مآبهم شراً من مآب غيرهم ،
وذلك لا يليق إلا بالكفار (الثاني) أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا (اتخذناهم سخرياً) وذلك
لا يليق إلا بالكفار ، لأن الفاسق لا يتخذ المؤمن سخرياً (الثالث) أنه اسم ذم ، والاسم المطلق
محمول على الكامل ، والكامل في الطغيان هو الكافر ، واحتج الجبائي على صحة قوله بقوله تعالى

(إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى) وهذا يدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل في حق صاحب الكبيرة ، ولأن كل من تجاوز عن تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى ، إذا عرفت هذا فنقول : قال ابن عباس رضى الله عنهما . المعنى أن الذين طغوا وكذبوا رسلى لهم شر مآب ، أى شر مرجع ومصير ، ثم قال (جهنم يصلونها) والمعنى أنه تعالى لما حكم بأن الطاغين لهم شر مآب فسره بقوله (جهنم يصلونها) ثم قال (فبئس المهاد) وهو كقوله (لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش) شبه الله ما تحتم من النار بالمهاد الذى يفرشه النائم .

ثم قال تعالى (هذا فليذوقره حميم وغساق) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) فيه وجهان (الأول) أنه على التقديم والتأخير ، والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه (الثانى) أن يكون التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه . ثم يبتدىء فيقول : حميم وغساق .

(المسألة الثانية) الغساق بالتخفيف والتشديد فيه وجوه (الأول) أنه الذى يغسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين إذا سال دمعها . وقال ابن عمر هو القيح الذى يسيل منهم يجتمع فيسقونه (الثانى) قيل الحميم يحرق بحره ، والغساق يحرق ببرده ، وذكر الأزهري : أن الغاسق البارد ، ولهذا قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار (الثالث) أن الغساق المنتن حكى الزجاج لوقطرت منه قطرة في المشرق لانتنت أهل المغرب ، ولوقطرت منه قطرة في المغرب لانتنت أهل المشرق (الرابع) قال كعب : الغساق عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية .

(المسألة الثالثة) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم غساق بتشديد السين حيث كان والباقون بالتخفيف . قال أبو على الفارسي الاختيار التخفيف لأنه إذا شدد لم يخجل من أن يكون اسماً أو صفة ، فإن كان اسماً فالأسماء لم تجب على هذا الوزن إلا قليلاً ، وإن كان صفة فقد أقيم مقام الموصوف والأصل أن لا يجوز ذلك .

ثم قال تعالى (وآخر من شكاه أزواج) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ أبو عمر (وآخر) بضم الألف على جمع أخرى أى أصناف أخر من العذاب ، وهو قراءة مجاهد والباقون آخر على الواحد أى عذاب آخر ، أما على القراءة الأولى فقوله وأخر أى ومدوقات أخر من شكل هذا المدوق ، أى من مثله في الشدة والفظاعة ، أزواج أى أجناس ، وأما على القراءة الثانية فالتقدير وعذاب أو مدوق آخر ، وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضرباً أو صفة للثلاثة وهم حميم وغساق وآخر من شكاه . قال صاحب الكشاف : وقرئ من شكاه بالكسر وهى لغة ، وأما الغنج (١) فبالكسر لا غير .

واعلم أنه تعالى لما وصف مسكن الطاغين وما كولهم حكى أحوالهم الذين كانوا أحببهم لهم

(١) هكذا فى الأصل ولعلها مقارنة لغوية ذكرها المفسر بين الشكل والغنج ولا مناسبة بينهما ظاهرة .

في الدنيا أولاً ، ثم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا ثانياً (أما الأول) فهو قوله (هذا فوج مقتحم معكم) واعلم أن هذا حكاية كلام رؤساء أهل النار يقوله بعضهم لبعض بدليل أن ما حكى بعد هذا من أقوال الأتباع وهو قوله (قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا) ، وقيل إن قوله (هذا فوج مقتحم معكم) كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم ، وقوله (لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار) كلام الرؤساء ، وقوله (هذا فوج مقتحم معكم) أي هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم في الجهل والضلال ، ومعنى اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم ، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها ، والقحمة الشدة .

وقوله تعالى (لا مرحباً بهم) دعاء منهم على أتباعهم ، يقول الرجل لمن يدعو له مرحباً أي أتيت رحباً في البلاد لا ضيقاً أو رحبت ببلادك رحباً ، ثم يدخل عليه كلمة لا في دعاء السوء ، وقوله (بهم) بيان للدعوى عليهم أنهم صالوا النار لتعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها) قالوا أي الأتباع (بل أنتم لا مرحباً بكم) يريدون أن الدعاء الذي دعوتهم به علينا أي الرؤساء أنتم أحق به ، وعللوا ذلك بقولهم (أنتم قدمتموه لنا) والضمير للعذاب أو لصليهم ، فإن قيل ما معنى تقديمهم العذاب لهم ؟ قلنا الذي أوجب التقديم هو عمل السوء قال تعالى (وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم) إلا أن الرؤساء لما كانوا هم السبب فيه ياغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم ، والضمير في قوله (قدمتموه) كناية عن الطغيان الذي دل عليه قوله (وإن للطاغين لشر مآب) وقوله (فبئس القرار) أي بئس المستقر والمسكن جهنم ، ثم قالت الأتباع (ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً) أي مضاعفاً ومعناه ذا ضعف ونظيره قوله تعالى (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً) وكذلك قوله تعالى (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب) فإن قيل كل مقدار يفرض من العذاب فإن كان بقدر الاستحقاق لم يكن مضاعفاً ، وإن كان زائداً عليه كان ظلماً وإنه لا يجوز . قلنا المراد منه قوله عليه السلام « ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » والمعنى أنه يكون أحد القسمين عذاب الضلال ، والثاني عذاب الإضلال والله أعلم .

وههنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحبباً لهم في الدنيا ، وأما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا فهو قوله (وقالوا ما لنا نرى رجلاً كنا نعدم من الأشرار) يعني أن الكفار إذا نظروا إلى جوانب جهنم فيخيلون يقولون (ما لنا نرى رجلاً كنا نعدم من الأشرار) يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه بهم وسموم من الأشرار ، إما بمعنى الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى ، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشراراً ثم قالوا (اتخذناهم سخرياً) وفيه مسائل :

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «٦٥» رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ «٦٦» قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٍ «٦٧» أَتَمَّ عَنْهُ
مَعْرُضُونَ «٦٨» مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذِ يَخْتَصِمُونَ «٦٩» إِنْ يُوحَى
إِلَى إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ «٧٠»

(المسألة الأولى) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (من الأشرار اتخذناهم) بوصل
ألف (اتخذناهم) والباقون بفتحها على الاستفهام ، قال أبو عبيد وبالوصل يقرأ لأن الاستفهام
متقدم في قوله (مالنا لانرى رجالا) ، ولأن المشركين لا يشكون في اتخاذهم المؤمنين في الدنيا سخرياً ،
لأنه تعالى قد أخبر عنهم بذلك في قوله (فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري) فكيف يحسن أن
يستفهموا عن شيء علموه ؟ أجاب الفراء عنه بأن قال هذا من الاستفهام الذي معناه التعجب
والتوبيخ ، ومثل هذا الاستفهام جائز عن الشيء المعلوم ، أما وجه قول من ألحق الهمزة للاستفهام
أنه لا بد من المصير إليه ليعادل قوله (اتخذناهم) بأم في قوله (أم زاغت عنهم) فان قيل فما الجملة
المعادلة لقوله (أم زاغت) على القراءة الأولى ؟ قلنا إنها محذوفة والمعنى المقصودون هم أم زاغت
عنهم الا بصار ،

(المسألة الثانية) قرأ نافع (سخرياً) بضم السين والباقون بكسرها ، وقيل هما بمعنى واحد
وقيل بالكسر هو الهزة وبالضم هو التذليل والتسخير .

(المسألة الثالثة) اختلفوا في نظم الآية على قوانين بناء على القراءتين المذكورتين أما القراءة
على سبيل الإخبار فالتقدير ما لنا لا نراهم حاضرين لأجل أنهم لحقارتهم تركوا ، أو لأجل أنهم
زاغت عنهم الا بصار . ووقع التعبير عن حقارتهم بقولهم (اتخذناهم سخرياً) وأما القراءة على سبيل
الاستفهام ، فالتقدير لأجل أنا قد اتخذناهم سخرياً وما كانوا كذلك فلم يدخلوا النار ، أم لأجل أنه
زاغت عنهم الا بصار ، واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرة قال إن ذلك الذي حكينا عنهم
لحق لا بد وأن يتكلموا به ، ثم بين أن الذي حكينا عنهم ماهو ، فقال (تخاصم أهل النار) وإنما سمي
الله تعالى تلك الكلمات تخاصماً لأن قول الرؤساء (لا مرحباً بهم) وقول الأتباع (بل أنتم لا مرحباً
بكم) من باب الخصومة .

قوله تعالى (قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض
وما بينهما العزيز الغفار ، قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ، ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ
يختصمون ، إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين) .

اعلم أنه تعالى لما حكى في أول السورة أن محمداً ﷺ لما دعا الناس إلى أنه لا إله إلا إله واحد، وإلى أنه رسول مبین من عند الله، وإلى أن القول بالقيامة حق، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب واستهزؤا بقوله. ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين (الأول) ليصير ذلك حاملاً لمحمد ﷺ على الناس بالأنبياء عليهم السلام في الصبر على سفاهة القوم (والثاني) ليصير ذلك رادعاً للكفار على الإصرار على الكفر والسفاهة وداعياً إلى قبول الإيمان، ولما تم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر وهو شرح نعيم أهل الثواب وشرح عقاب أهل العقاب. فلما تم الله تعالى هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة في أول السورة وهي تقرير التوحيد والنبوة والبعث، فقال قل يا محمد إنما أنا منذر ولا بد من الإقرار بأنه ما من إله إلا الله الواحد القهار، فإن الترتيب الصحيح أن تذكر شبهات الخصوم أولاً ويجاب عنها ثم تذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب، فكذا ههنا أجاب الله تعالى عن شبهتهم ونبه على فساد كلماتهم، ثم ذكر عقيبه ما يدل على صحة هذه المطالب، لأن إزالة ما لا ينبغي مقدمة على إثبات ما ينبغي، وغسل اللوح من النقوش الفاسدة مقدم على كتب النقوش الصحيحة فيه، ومن نظري هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة إلى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم. أما قوله (قل إنما أنا منذر) يعني أبلغ أحوال عقاب من أنكروا التوحيد والنبوة والمعاد، وأحوال ثواب من أقر بها، وكما بدأ في أول السورة بأدلة التوحيد حيث حكى عنهم أنهم قالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) فكذلك بدأ ههنا بتقرير التوحيد فقال (وما من إله إلا الله الواحد القهار) وفي هذه الكلمة إشارة إلى الدليل الدال على كونه منزهاً عن الشريك والنظير، وبيانه أن الذي يجعل شريكاً له في الإلهية، إما أن يكون موجوداً قادراً على الإطلاق على التصرف في العالم أو لا يكون كذلك، بل يكون جماداً عاجزاً (والأول) باطل لأنه لو كان شريكاً قادراً على الإطلاق لم يكن هو قادراً قاهراً، لأن بتقدير أن يريد هو شيئاً ويريد شريكه ضد ذلك الشيء لم يكن حصول أحد الأمرين أولى من الآخر، فيفضي إلى اندفاع كل واحد منهما بالآخر، وحينئذ لا يكون قادراً قاهراً بل كان عاجزاً ضعيفاً، والعاجز لا يصلح للإلهية، فقوله (إلا الله الواحد القهار) إشارة إلى أن كونه قهاراً يدل على كونه واحداً (وأما الثاني) وهو أن يقال إن الذي جعل شريكاً له لا يقدر على شيء البتة مثل هذه الأوثان، فهذا أيضاً فاسد لأن صريح العقل يحكم بأن عبادة الإله القادر القاهر أولى من عبادة الجماد الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يفهم شيئاً فقوله (وما من إله إلا الله الواحد القهار) يدل على هذه الدلائل، واعلم أن كونه سبحانه قهاراً مشعراً بالترهيب والتخويف، فلما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال (رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار) فكونه رباً مشعراً بالترغيب والإحسان والكرم والجود، وكونه غفراً مشعراً بالترغيب، وهذا الموجود هو الذي تجب عبادته، لأنه هو الذي يخشى عقابه ويرحى فضله وثوابه.

ونذكر طريقة أخرى فى تفسير هذه الآيات ، فنقول إنه تعالى ذكر من صفاته فى هذا الموضع خمسة الواحد والقهار والرب والعزىز والغفار ، أما كونه واحداً فهو الذى وقع الخلاف فيه بين أهل الحق وبين المشركين واستدل تعالى على كونه واحداً بكونه قهاراً وقد بينا وجه هذه الدلالة إلا أن كونه قهاراً وإن دل على إثبات الوحدانية إلا أنه يوجب الخوف الشديد فأردفه تعالى بذكر صفات ثلاثة دالة على الرحمة والفضل والكرام (أولها) كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما وهذا إنما تم معرفته بالنظر فى آثار حكمة الله تعالى فى خلق السموات والأرض والعناصر الأربعة والمواليد الثلاثة ، وذلك بحر لا ساحل له فاذا تأملت فى آثار حكمته ورحمته فى خلق هذه الأشياء عرفت حينئذ تربيته لكل وذلك يفيد الرجاء العظيم (وثانيها) كونه عزيزاً والفائدة فى ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومربى وكرىم إلا أنه غير قادر على كل المقدورات ، فأجاب عنه بأنه عزيز أى قادر على كل الممكنات فهو يغلب الكل ولا يغلبه شىء (وثالثها) كونه غفاراً والفائدة فى ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومحسن ولكنى يكون كذلك فى حق المطيعين المخلصين فى العبادة ، فأجاب عنه بأن من بقى على الكفر سبعين سنة ثم تاب فأنى أزيل اسمه عن ديوان المذنبين وأستر عليه بفضلى ورحمتى جميع ذنوبه وأوصله إلى درجات الأبرار ، واعلم أنه تعالى لما بين ذلك قال (قل هو نبا عظيم أنتم عنه معرضون) وهذا النبا العظيم يحتمل وجوهاً فىمكن أن يكون المراد أن القول بأن الإله واحد نبا عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول بالنبوة نبا عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول بإثبات الحشر والنشر وبقىامة نبا عظيم ، وذلك لأن هذه المطالب الثلاثة كانت مذكورة فى أول السورة ولا أجلها انجر الكلام إلى كل ما سبق ذكره ، ويمكن أيضاً أن يكون المراد كون القرآن معجزاً لأن هذا أيضاً قد تقدم ذكره فى قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) وهؤلاء الأقوام أعرضوا عنه على ما قال (قل هو نبا عظيم أنتم عنه معرضون) واعلم أن قوله (أنتم عنه معرضون) ترغيب فى النظر والاستدلال ومنع من التقليد ، لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق يفوز بأعظم أبواب السعادة ، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل وقع فى أعظم أبواب الشقاوة فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية نهيية ، وصریح العقل يوجب على الإنسان أن يأتى فيها بالاحتياط التام وأن لا يكتفى بالمساهلة والمساحة .

أما قوله تعالى (ما كان لى من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون) فاعلم أنه تعالى رغب المكلفين فى الاحتياط فى هذه المسائل الأربعة ، وبالغ فى ذلك الترغيب من وجوه : (الأول) أن كل واحد منها نبا عظيم ، والنبا العظيم يجب الاحتياط فيه (الثانى) أن الملا الأعلى احتصموا وأحسن ما قيل فيه أنه تعالى لما قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لاتعدون) والمعنى أنهم قالوا أى فائدة فى خلق

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَأَظَاهِرُ سَوِيَّتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَسَجَدُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ

البشر مع أنهم يشتغلون بقضاء الشهوة وهو المراد من قوله (من يفسد فيها) وبإمضاء الغضب وهو المراد من قوله (ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك) فقال الله سبحانه وتعالى (إني أعلم ما لا تعلمون) وتقرير هذا الجواب والله أعلم ، أن يقال إن المخلوقات بحسب القسمة العقلية على أقسام أربعة : (أحدها) الذين حصل لهم العقل والحكمة ، ولم تحصل لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط (ثانيها) الذين حصل لهم النفس والشهوة ، ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهي البهائم (وثالثها) الأشياء الخالية عن القسمين ، وهي الجمادات وبقي في التقسيم (قسم رابع) وهو الذي حصل فيه الأمران وهو الإنسان والمقصود من تخليق الإنسان ليس هو الجهل والتقليد والتكبر والتمرد فان كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة ، فقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) يعني أن هذا النوع من المخلوقات ، وإن حصلت فيه الشهوة الداعية إلى الفساد والغضب الحامل له على سفك الدماء ، لكن حصل فيه العقل الذي يدعو إلى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة ، وإذا ثبت أنه تعالى إنما أجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الإنسان أن يسعى في تحصيل هذه الصفات ، وأن يجتهد في اكتسابها ، وأن يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والإصرار والتكبر ، وإذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعياً له إلى الجد والاجتهاد في اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة زاجراً له عن أضدادها ومقابلاتها ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام في هذا المقام . فان قيل الملائكة لا يجوز أن يقال إنهم اختصموا بسبب قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فان الخصمة مع الله كفر ، قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب ، وذلك يشابه الخصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز ، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ الخصمة عليه ، ولما أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز أمره أن يقول (إن يوحى إلى أنما أنا نذير مبين) يعني أنا ما عرفت هذه الخصمة إلا بالوحى ، وإنما أوحى الله إلى هذه القصة لأنذركم بها ولتصير هذه القصة حاملة لكم على الإخلاص في الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد .

قوله تعالى ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ،

لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ «٧٥» قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي
 مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ «٧٦» قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَأَنَّكَ رَجِيمٌ «٧٧» وَإِنَّ عَلَيْكَ
 لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ «٧٨» قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ «٧٩» قَالَ فَأَنَّكَ
 مِنَ الْمُنْظَرِينَ «٨٠» إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ «٨١» قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوْيَنَّهُمْ
 أَجْمَعِينَ «٨٢» إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ «٨٣» قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ «٨٤»
 لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «٨٥»

قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير
 منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، قال فأخرج منها فانك رجيم ، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ،
 قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك
 لاغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ، قال فالحق والحق أقول لا ملأن جهنم منك ومن
 تبعك منهم أجمعين)

إعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر ، وذلك لأن إبليس ، إنما
 وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمداً عليه السلام بسبب الحسد
 والكبر ، فإله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين
 والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال ، ومنعهم عن الإصرار والتقليد وذكر
 في تقريره أموراً أربعة (أولها) أنه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه (والثاني) أن قصة سؤال
 الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر يدل على أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة
 لا الجهل والتكبر (الثالث) أن إبليس إنما خصم آدم عليه السلام لأجل الحسد والكبر فيجب
 على العاقل أن يحترز عنهما ، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات ، واعلم أن هذه القصة قد تقدم
 شرحها في سور كثيرة ، فلا فائدة في الإعادة إلا ما لا بد منه وفيها مسائل :

(المسألة الأولى) في قوله (إني خالق بشرأ من طين) سوالات :

(الأول) أن هذا النظم إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين ، كما إذا قيل أنا متخذ

سواراً من ذهب ، فهذا إنما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة .

﴿ الثاني ﴾ ذكر ههنا أنه خلق البشر من طين ، وفي سائر الآيات ذكر أنه خلقه من سائر الأشياء كقوله تعالى في آدم إنه خلقه من تراب و كقوله (من صلصال من حمأ مسنون) و كقوله (خلق الإنسان من عجل) .

﴿ الثالث ﴾ أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه خلق بشراً من طين . لم يقولوا شيئاً ، وفي الآية الأخرى وهي التي قال (إني جاعل في الأرض خليفة) بين أنهم أوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض ، والجواب عن الأول أن التقدير كأنه سبحانه وصف لهم أولاً أن البشر شخص جامع للقوة الهيمية والسبعية والشيطانية والملكية ، فلما قال (إني خالق بشراً من طين) فكأنه قال ذلك اشخص المستجمع لتلك الصفات ، إنما أخلقه من الطين . والجواب عن الثاني أن المادة البعيدة هو التراب ، وأقرب منه الطين ، وأقرب منه الحمأ المسنون ، وأقرب منه الصلصال فثبت أنه لا منافاة بين الكل ، والجواب عن الثالث أنه في الآية المذكورة في سورة البقرة بين لهم أنه مخلوق في الأرض خليفة ، وبالأية المذكورة ههنا بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحي وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم إلا بأمرين التسوية أولاً ، ثم نفخ الروح ثانياً ، وهذا حق لأن الإنسان مركب من جسد ونفس . أما الجسد فإنه إنما يتولد من المني ، والمني إنما يتولد من دم الطمث وهو إنما يتولد من الأخلاط الأربعة ، وهي إنما تتولد من الأركان الأربعة ، ولا بد في حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها ، ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركيباتها ، ومن رعاية المدة التي في مثلها حصل ذلك المزاج الذي لا جله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة .

وأما النفس فإنها الإشارة بقوله (ونفخت فيه من روحي) ولما أضاف الروح إلى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوي قدسي ، وذهبت الجلولية إلى أن كلمة من تدل على التبويض ، وهذا يوهم أن الروح جزء من أجزاء الله تعالى ، وهذا في غاية الفساد ، لأن كل ما له جزء وكل ، فهو مركب ويمكن الوجود لذاته ومحدث .

وأما كيفية نفخ الروح ، فاعلم أن الأقرب أن جوهر النفس عبارة عن أجسام شفاقة نورانية ، علوية العنصر ، قدسية الجوهر ، وهي تسرى في البدن سريان الضوء في الهواء ، وسريان النار في الفحم ، فهذا القدر معلوم . أما كيفية ذلك النفخ فما لا يعلمه إلا الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفاء في قوله (فقعوا له ساجدين) تدل على أنه كما تم نفخ الروح في الجسد توجه أمر الله عليهم بالسجود ، وأما أن المأمور بذلك السجود ملائكة الأرض ، أو دخل فيه ملائكة السموات مثل جبريل وميكائيل ، والروح الأعظم المذكور في قوله (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) ففيه مباحث عميقة . وقال بعض الصوفية : الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم ، هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية ، فإنها في بدن الإنسان خوادم النفس الناطقة ،

وإبليس الذي لم يسجد هو القوة الوهمية التي هي المنازعة لجوهر العقل ، وال كلام فيه طويل . وأما بقية المسائل وهي : كيفية سجود الملائكة لآدم ، وأن ذلك هل يدل على كونه أفضل من الملائكة أم لا ، وأن إبليس هل كان من الملائكة أم لا ، وأنه هل كان كافراً أصلياً أم لا . فكل ذلك تقدم في سورة البقرة وغيرها .

(المسألة الرابعة) احتج من أثبت لأعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) في إثبات يدين الله تعالى ، بأن قالوا ظاهر الآية يدل عليه . فوجب المصير إليه ، والآيات الكثيرة واردة على وفق هذه الآية ، فوجب القطع به .

واعلم أن الدلائل الدالة على نفي كونه تعالى جسماً مركباً من الأجزاء والأعضاء . قد سبقت إلا أنا نذكر ههنا نكتاً جارية مجرى الإلزامات الظاهرة (فالأول) أن من قال إنه مركب من الأعضاء والأجزاء ، فإما أن يثبت الأعضاء التي ورد ذكرها في القرآن ولا يزيد عليها . وإما أن يزيد عليها ، فإن كان الأول لزمه إثبات صورة لا يمكن أن يزداد عليها في القبح ، لأنه يلزمه إثبات وجه بحيث لا يوجد منه إلا مجرد رقعة الوجه لقوله (كل شيء هالك إلا وجهه) ويلزمه أن يثبت في تلك الرقعة عيوناً كثيرة لقوله (تجري بأعيننا) وأن يثبت جنباً واحداً لقوله تعالى (يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله) وأن يثبت على ذلك الجنب أيدي كثيرة لقوله تعالى (مما عملت أيدينا) وبتقدير أن يكون له يدان فإنه يجب أن يكون كلاهما على جانب واحد لقوله ﷺ « الحجر الأسود يمين الله في الأرض » وأن يثبت له ساقاً واحداً لقوله تعالى (يوم يكشف عن ساق) فيكون الحاصل من هذه الصورة ، مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة ، وجنب واحد ويكون عليه أيد كثيرة وساق واحد ، ومعلوم أن هذه الصورة أقرب الصور ، ولو كان هذا عبداً لم يرغب أحد في شرائه ، فكيف يقول العاقل إن رب العالمين موصوف بهذه الصورة .

وأما القسم الثاني : وهو أن لا يقتصر على الأعضاء المذكورة في القرآن ، بل يزيد وينقص على وفق التأويلات ، فحينئذ يبطل مذهبه في الحمل على مجرد الظواهر ، ولا بد له من قبول دلائل العقل .

(الحججة الثانية) في إبطال قولهم إنهم إذا أثبتوا الأعضاء لله تعالى ، فإن أثبتوا له عضو الرجل فهو رجل ، وإن أثبتوا له عضو النساء فهو أنثى ، وإن نفوها فهو خصي أو عنين ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(الحججة الثالثة) أنه في ذاته سبحانه وتعالى ، إما أن يكون جسماً صلباً لا ينغمر البتة ، فيكون حجراً صلباً ، وإما أن يكون قابلاً للانغمار ، فيكون ليناً قابلاً للتفرق والتمزق . وتعالى الله عن ذلك (الحججة الرابعة) أنه إن كان بحيث لا يمكنه أن يتحرك عن مكانه ، كان كالرمن المقعد العاجز ، وإن كان بحيث يمكنه أن يتحرك عن مكانه ، كان محلاً للتغيرات ، فدخل تحت قوله (لأحب الأولين) .

(الحجة الخامسة) إن كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحرك كان كالميت ، وإن كان يفعل هذه الأشياء ، كان إنساناً كثير التهمة محتاجاً إلى الأكل والشرب والوقاع وذلك باطل .

(الحجة السادسة) أنهم يقولون إنه ينزل كل ليلة من العرش إلى السماء الدنيا ، فنقول لهم حين نزوله : هل يبقى مدبراً للعرش ويبقى مدبراً للسماء الدنيا حين كان على العرش ، وحينئذ لا يبقى في النزول فائدة ، وإن لم يبق مدبراً للعرش فعند نزوله يصير معزولاً عن إلهية العرش والسموات .

(الحجة السابعة) أنهم يقولون إنه تعالى أعظم من العرش ، وإن العرش لا نسبة لعظمته إلى عظمة الكرسي ، وعلى هذا الترتيب حتى يذهب إلى السماء الدنيا ، فإذا كان كذلك كانت السماء الدنيا بالنسبة إلى عظمة الله كالذرة بالنسبة إلى البحر ، فإذا نزل فإما أن يقال إن الإله يصير صغيراً بحيث تسعه السماء الدنيا ، وإما أن يقال إن السماء الدنيا تصير أعظم من العرش ، وكل ذلك باطل .

(الحجة الثامنة) ثبت أن العالم كرة ، فإن كان فوق بالنسبة إلى قوم كان تحت بالنسبة إلى قوم آخرين وذلك باطل ، وإن كان فوق بالنسبة إلى الكل ، فحينئذ يكون جسماً محيطاً بهذا العالم من كل الجوانب ، فيكون إله العالم على هذا القول فلما من الافلاك .

(الحجة التاسعة) لما كانت الأرض كرة ، وكانت السموات كرات ، فكل ساعة تفرض الساعات فإنها تكون ثلث الليل في حق أقوام معينين من سكان كرة العوارض ، فلو نزل من العرش في ثلث الليل وجب أن يبقى أبداً نازلاً عن العرش ، وأن لا يرجع إلى العرش البتة .

(الحجة العاشرة) أنا إنما زيفنا إلهية الشمس والقمر لثلاثة أنواع من العيوب (أولها) كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض (وثانيها) كونه محدوداً متناهيماً (وثالثها) كونه موصوفاً بالحركة والسكون والطلوع والغروب ، فإذا كان إله المشبهة مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض كان مركباً ، فإذا كان على العرش كان محدوداً متناهيماً ، وإن كان ينزل من العرش ويرجع إليه كان موصوفاً بالحركة والسكون ، فهذه الصفات الثلاثة إن كانت منافية للألوهية وجب تنزيه الإله عنها بأسرها ، وذلك يبطل قول المشبهة ، وإن لم تكن منافية للألوهية فحينئذ لا يقدر أحد على الطعن في إلهية الشمس والقمر .

(الحجة الحادية عشرة) قوله تعالى (قل هو الله أحد) ولفظ الأحد مبالغة في الوحدة ، وذلك ينافي كونه مركباً من الأجزاء والأبعاض .

(الحجة الثانية عشرة) قوله تعالى (والله الغني وأنتم الفقراء) ولو كان مركباً من الأجزاء والأبعاض لكان محتاجاً إليها وذلك يمنع من كونه غنياً على الإطلاق ، فثبت بهذه الوجوه أن القول بإثبات الأعضاء والأجزاء لله محال ، ولما ثبت بالدلائل اليقينية وجوب تنزيه الله تعالى عن هذه الأعضاء ، فنقول ذكر العلماء في لفظ اليد وجوهاً (الأول) أن اليد عبارة عن القدرة تقول العرب مالي بهذا الأمر من يد ، أي من قوة وطاقة ، قال تعالى (أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح) ،

(الثاني) اليد عبارة عن النعمة يقال أيادي فلان في حق فلان ظاهرة والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة أو نعم الدين والدنيا (الثالث) أن لفظ اليد قد يزداد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى (نشرأ بين يدي رحمته) .

ولقائل أن يقول حمل اليد على القدرة ههنا غير جائز، ويدل عليه وجوه (الأول) أن ظاهر الآية يقتضي إثبات اليدين ، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لزم إثبات قدرتين لله وهو باطل (والثاني) أن الآية تقتضي أن كون آدم مخلوقاً باليدين يوجب فضيلته وكونه مسجوداً للملائكة ، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لكان آدم مخلوقاً بالقدرة ، لكن جميع الأشياء مخلوقة بقدرة الله تعالى فكما أن آدم عليه السلام مخلوق بيد الله تعالى ، فكذلك إبليس مخلوق بيد الله تعالى ، وعلى تقدير أن تكون اليد عبارة عن القدرة ، لم تكن هذه العلة علة لكون آدم مسجوداً لإبليس أولى من أن يكون إبليس مسجوداً لآدم ، وحينئذ يختل نظم الآية ويبطل (الثالث) أنه جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال « كُتِبَ يَدَيْهِ يَمْنَى » ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق بالقدرة .

(وأما التأويل الثاني) وهو حمل اليدين على النعمتين فهو أيضاً باطل لوجوه (الأول) أن نعم الله تعالى كثيرة كما قال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وظاهر الآية يدل على أن اليد لا تزيد على الإثنين (الثاني) لو كانت اليد عبارة عن النعمة فنقول النعمة مخلوقة لله فحينئذ لا يكون آدم مخلوقاً لله تعالى بل يكون مخلوقاً لبعض المخلوقات ، وذلك بأن يكون سبباً لمزيد النقصان أولى من أن يكون سبباً لمزيد الكمال (الثالث) لو كانت اليد عبارة عن النعمة لكان قوله (تبارك الذي بيده الملك) معناه تبارك الذي بنعمته الملك ولكان قوله « بيدك الخير » معناه بنعمتك الخير ولكان قوله (يدها مبسوطتان) معناه نعمته مبسوطتان ، ومعلوم أن كل ذلك فاسد .

(وأما التأويل الثالث) وهو قوله إن لفظ اليد قد يذكر زيادة لأجل التأكيد فنقول لفظ اليد قد يستعمل في حق من يكون هذا العضو حاصله وفي حق من لا يكون هذا العضو حاصله في حقه (أما الأول) فكقوله لهم في حق من جنى بلسانه هذا ما كسبت يداك والسبب في هذا أن محل القدرة هو اليد فأطلق اسم اليد على القدرة ، وعلى هذا التقدير فيصير المراد من لفظ اليد القدرة ، وقد تقدم إبطال هذا الوجه (وأما الثاني) فكقوله (بين يدي عذاب شديد) وقوله (بين يدي الساعة) إلا أنا نقول هذا المجاز بهذا اللفظ مذكور والمجاز لا يقاس عليه ولا يكون مطرداً ، فلا جرم لا يجوز أن يقال إن هذا المعنى إنما حصل بيد العذاب وبيد الساعة ، ونحن نسلم أن قوله (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) قد يجوز أن يراد به التأكيد والصلة ، أما المذكور في هذه الآية ليس هذا اللفظ بل قوله تعالى (خلقت يدي) وإن كان القياس في المجازات باطلا فقد سقط كلامكم بالكلية ، فهذا منتهى البحث في هذا الباب .

والذي تلخص عندي في هذا الباب أن السلطان العظيم لا يقدر على عمل شيء بيده إلا إذا كانت

غاية عنايته مصروفة إلى ذلك العمل ، فإذا كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازاً عنه عند قيام الدلائل القاهرة . فهذا ما لخصناه في هذا الباب ، والله أعلم .

أما قوله تعالى (استكبرت أم كنت من العالين) فالمعنى : استكبرت الآن أم كنت أبداً من المتكبرين العالين ، فأجاب إبليس بقوله (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) فالمعنى أني لو كنت مساوياً له في الشرف لكان يقبح أمرى بسجودى له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيراً منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين ، فصح أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة :

(المقدمة الأولى) أن إبليس مخلوق من النار ، يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه (خلقتني من نار وخلقته من طين) وقوله تعالى (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) .

(المقدمة الثانية) أن النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه (الأول) أن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعدا عنها عنه فوجب كون النار أفضل من الأرض (الثاني) أن النار خليفة الشمس والقمر في إضاءة هذا العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الأرض ، تخليفتهما في الإضاءة أفضل من الأرض (الثالث) أن الكيفية الفاعلة الأصلية ، إما الحرارة أو البرودة والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت (الرابع) الأرض كثيفة والنار لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة (الخامس) النار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة (السادس) النار خفيفة تشبه الروح والأرض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض ولذلك فإن الأطباء أطبقوا على أن العناصر الثقيلين أعون على تركيب الأجساد وأن العناصر الخفيفين أعون على تولد الأرواح (السابع) النار صاعدة والأرض هابطة والصاعد أفضل من الهابط (الثامن) أن أول بروج الفلك هو الحمل لأنه هو الذي يبدأ من نقطة الإستواء الشمالي ، ثم إن الحمل على طبيعة النار وأشرف أعضاء الحيوان والقلب والروح وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضي (التاسع) أن الأجسام الأرضية كلما كانت أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالأرض كانت أخس ، مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والأحجار الصافية النورانية ومثاله أيضاً من الثياب الإبريسم وما يتخذ منه ، وأما أن كل ما كان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالامر ظاهر (العاشر) أن القوة الباصرة قوة في غاية الشرف والجلالة ولا يتم عملها إلا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار (الحادي عشر) أن أشرف أجسام العالم الجسماني هو الشمس ولا شك أنه شبيه بالنار في صورته وطبيعته وأثره (الثاني عشر) أن النضج والهضم والحياة لا تتم إلا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لما تم المزاج وتولدت المركبات (الثالث العاشر) أن أفوى العناصر

الأربعة في قوة الفعل هو النار وأكملها في قوة الإفعال هو الأرض والفعل فضل من الإفعال فالنار أفضل من الأرض . أما القائلون بتفضيل الأرض على النار فذكروا أيضاً وجوهاً (الأول) أن الأرض أمين مصلح فاذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كل ما أسلمته إليها (الثاني) أن الحس البصرى أثنى على النار (١) فليستمع ما يقوله الحس اللمسى (الثالث) أن الأرض مستولية على النار فإنها تطفىء النار ، وأما النار فإنها لا تؤثر في الأرض الخالصة .

(وأما المقدمة الثالثة) فهي أن من كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه ، فاعلم أن هذه المقدمة كاذبة جداً وذلك لأن أصل الرماد النار وأصل البساتين الزهرة والأشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد ، وأيضاً فهب أن اعتبار هذه الجهة يوجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يصير معارضاً بجهة أخرى توجب الرجحان مثل إنسان نسيب عار عن كل الفضائل فإن نسبه يوجب رجحانه ، إلا أن الذى لا يكون نسبياً قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو أفضل من ذلك النسيب بدرجات لا حد لها ، فالمقدمة الكاذبة في القياس الذى ذكره إبليس هو هذه المقدمة ، فإن قال قائل هب أن إبليس أخطأ في هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة ؟ وبيان هذا السؤال من وجوه (الأول) أن قوله (اسجدوا) أمر والأمر لا يقتضى الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لا توجب العصيان فضلاً عن الكفر ، وأيضاً فالذين يقولون إن الأمر للوجوب فهم لا ينكرون كونه محتملاً للندب احتمالاً ظاهراً ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلاً عن الكفر (الثاني) هب أنه للوجوب إلا أن إبليس ما كان من الملائكة فأمر الملائكة بسجود آدم لا يدخل فيه إبليس (الثالث) هب أنه يتناول إلا أن تخصيص العام بالقياس جائز فنخص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس (الرابع) هب أنه لم يسجد مع عليه بأنه كان مأموراً به إلا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه الكفر (والجواب) هب أن صيغة الأمر لا تدل على الوجوب ولكن يجوز أن ينضم إليها من القرائن ما يدل على الوجوب ، وههنا حصلت تلك القرائن وهى قوله تعالى (أستكبرت أم كنت من العالين) فلما أتى إبليس بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك القياس ليتوسل به إلى القدح فى أمر الله وتمكيفه وذلك يوجب الكفر . إذا عرفت هذا فقول إن إبليس لما ذكر هذا القياس الفاسد قال تعالى (اخرج منها فإنك رجيم) .

واعلم أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف وههنا الحكم بكونه رجيماً ورد عقيب ما حكى عنه أنه خصص النص بالقياس ، فهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم ، وقوله (منها) أى من الجنة أو من السموات والرجيم المرجوم وفيه قولان :

(١) العبارة مصحفة لأن الحس البصرى فيما نعلم لم يثن على النار وإنما يتأذى به كما أن الحس اللمسى يحترق بالنار . ولعله نظر إلى المعنى من ناحية أخرى هى أن فضل النار لم يظهره إلا البصر واللمس وهما من طبيعة الأرض . فبسيهما بان فضل الأرض على النار .

(الأول) أنه مجاز عن الطرد ، لأن الظاهر أن من طرد فقد يرمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد فإن قالوا الطرد هو اللعن فلو حملنا قوله (رجم) على الطرد لكان قوله بعد ذلك (وإن عليك لعنتي) تكراراً والجواب من وجهين (الأول) أنا نحمل الرجم على الطرد من الجنة أو من السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله (والثاني) أنا نحمل الرجم على الطرد ونحمل قوله (وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين) على أن ذلك الطرد يمتد إلى آخر القيامة فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكريراً .

(والقول الثاني) في تفسير الرجم أن نحمله على الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب والله أعلم . فإن قيل كلمة إلى لإنتهاء الغاية فقوله (إلى يوم الدين) يقتضى انقطاع تلك اللعنة عند مجيء يوم الدين ، أجاب صاحب الكشف بأن اللعنة باقية عليه في الدنيا فإذا جاء يوم القيامة جعل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير اللعنة مع حضورها منسية .

واعلم أن إبليس لما صار ملأوناً قال (فأظنني إلى يوم يبعثون) قيل إنما طلب الأنظار إلى يوم يبعثون لأجل أن يتخلص من الموت لأنه إذا نظر إلى يوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجيء يوم البعث لا يموت أيضاً فحينئذ يتخلص من الموت فقال تعالى (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) ومعناه إنك من المنظرين إلى يوم يعلمه الله ولا يعلمه أحد سواه ، فقال إبليس (فبعزتك) وهو قسم بعزة الله وسلطانه (لأغوينهم أجمعين) فهنا أضاف الإغواء إلى نفسا وهو على مذهب القدر وقال مرة أخرى (رب بما أغويتني) فأضاف الإغواء إلى الله على ما هو مذهب الجبر وهذا يدل على أنه متحير في هذه المسألة .

وأما قوله (إلا عبادك منهم المخلصين) فقيه فوائده :

(الفائدة الأولى) قيل غرض إبليس من ذكره هذا الاستثناء أن لا يقع في كلامه الكذب لأنه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوى الكل لكان يظهر كذبه حين يدجز عن إغواء عباد الله الصالحين ، فكان إبليس قال إنما ذكرت هذا الاستثناء لتلايق الكذب في هذا الكلام ، وعندهذا يقال إن الكذب شيء يستنكف منه إبليس فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه ؟ فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله (وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) ؟ قلنا إن إبليس لم يقل إني لم أقصد إغواء عباد الله الصالحين بل قال لأغوينهم وهو وإن كان يقصد الإغواء إلا أنه لا يغوينهم .

(الفائدة الثانية) هذه الآية تدل على أن إبليس لا يغوى عباد الله المخلصين ، وقال تعالى في صفة يوسف (إنه من عبادنا المخلصين) فنصل من مجموع هاتين الآيتين أن إبليس ما أغوى يوسف عليه السلام ، وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون إلى يوسف عليه السلام من القبائح . واعلم أن إبليس لما ذكر هذا الكلام قال الله تعالى (فالحق والحق أفول لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) وفيه مسائل :

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذَكَرٌ

لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلِتَعْلَمِنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

(المسألة الأولى) قرأ عاصم وحمزة (فالحق) بالرفع (والحق) بالنصب ، والباقون بالنصب فيهما . أما الرفع فتقديره فالحق قسى . وأما النصب فعلى القسم ، أى فبالحق ، كقولك والله لأفعلن . وأما قوله (والحق أقول) انتصب قوله (والحق) بقوله (أقول) .

(المسألة الثانية) قوله (منك) أى من جنسك ، وهم الشياطين (ومن تبعك منهم) من ذرية آدم ، فإن قيل قوله (أجمعين) تأكيد لماذا ؟ قلنا : يحتمل أن يؤكد به الضمير في منهم . أو الكاف في منك مع من تبعك ، ومعناه لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحداً .

(المسألة الثالثة) احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة أن الكل بقضاء الله من وجوه (الأول) أنه تعالى قال في حق إبليس (اخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) فهذا إخبار من الله تعالى بأنه لا يؤمن ، فلو آمن لانقلب خبر الله الصدق كذباً وهو محال ، فكان صدور الإيمان منه محالاً مع أنه أمر به (والثانى) أنه قال (فبعضتك لأغوينهم أجمعين) فأنه تعالى علم منه أنه يغويهم ، وسمع منه هذه الدعوى ، وكان قادراً على منعه عن ذلك ، والقادر على المنع إذا لم يمنع كان راضياً به ، فإن قالوا لعل ذلك المنع مفسد ، قلنا هذا قول فاسد ، لأن ذلك المنع يخلص إبليس عن الإضلال ، ويخلص بنى آدم عن الضلال ، وهذا عين المصلحة (الثالث) أنه تعالى أخبر أنه يملأ جهنم من الكفرة ، فلو لم يكفروا لزم الكذب والجهل في حق الله تعالى (الرابع) أنه لو أراد أن لا يكفر الكافر لوجب أن يبقى الأنبياء والصالحين ، وأن يميت إبليس والشياطين ، وحيث قلب الأمر علمنا أنه فاسد (الخامس) أن تكليف أولئك الكفار بالإيمان ، يقتضى تكليفهم بالإيمان بهذه الآيات التى هى دالة على أنهم لا يؤمنون البتة ، وحينئذ يلزم أن يصيروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون البتة ، وذلك تكليف بما لا يطاق ، والله أعلم

قوله تعالى (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين) .

اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة ، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقاً كثيرة دالة على وجوب الاحتياط فى طلب الدين ، ثم قال عند الختم : هذا الذى أدعو الناس إليه يجب أن ينظر فى حال الداعى ، وفى حال الدعوة ليظهر أنه حق أو باطل . أما الداعى وهو أنا . فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجراً ومالاً ، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال البتة ، وكان من الظاهر أنه ﷺ كان بعيداً عن الدنيا عديم الرغبة فيها ، وأما كيفية الدعوة

فقال : وما أنا من المتكلمين والمفسرون ، ذكروا فيه وجوها ، والذي يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذي أدعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكاليف الكثيرة ، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته ، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله (أولاً) ثم أدعوكم (ثانياً) إلى تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق به ، يقوى ذلك قوله (ليس كمثل شيء) وأمثاله ، ثم أدعوكم (ثالثاً) إلى الإقرار بكونه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة ، ثم أدعوكم (رابعاً) إلى الإقرار بكونه منزهاً عن الشركاء والإضداد ، ثم أدعوكم (خامساً) إلى الإمتناع عن عبادة هذه الأوثان ، التي هي جمادات خسيسة ولا منفعة في عبادتها ولا مضرة في الإعراض عنها ، ثم أدعوكم (سادساً) إلى تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة ، وهم الملائكة والأنبياء . ثم أدعوكم (سابعاً) إلى الإقرار بالبعث والقيامة (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ثم أدعوكم (ثامناً) إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، فهذه الأصول الثمانية ، هي الأصول القوية المعتبرة في دين الله تعالى ، ودين محمد ﷺ وبدائه العقول ، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول الثمانية ، فثبت أني لست من المتكلمين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها ، بل كل عقل سليم وطبع مستقيم ، فإنه يشهد بصحتها وجلالتها ، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله (إن هو إلا ذكر للعالمين) ولما بين هذه المقدمات قال (ولتعلمن نبأه بعد حين) والمعنى أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد ، وأيتم قبول هذه البيانات التي ذكرناها ، فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيدين في هذا الإعراض أو مخطئين ، وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه في التخويف والترهيب ، والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله عليه : تم تفسير هذه السورة يوم الخميس في آخر الثلاثاء الثاني من شهر ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة ، والحمد لله على آلائه ونعمائه . والصلاة على المطهرين من عباده في أرضه وسماؤه ، والمدح والثناء كما يليق بصفاته وأسمائه ، والتعظيم التام لأنبيائه وأوليائه ، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

﴿سورة الزمر﴾

﴿سبعون وخمس آيات مكية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ «۱» إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
 بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ «۲» أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ
 دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ
 يَخْتَلِفُونَ «۳» إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ «۴» لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ
 وَلَدًا لَا صُطْفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «۵»

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ، لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ .

اعلم أن في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكر الفراء والزجاج : في رفع (تنزيل) وجهين (أحدهما) أن يكون قوله (تنزيل) مبتدأ وقوله (من الله العزيز الحكيم) خبر (والثاني) أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب ، فيضم المبتدأ كقوله (سورة أنزلناها) أي هذه سورة ، قال بعضهم الوجه الأول لوجوه (الأول) أن الإضمار خلاف الأصل ، فلا يصار إليه إلا لضرورة ، ولا ضرورة ههنا (الثاني) أنا إذا قلنا (تنزيل الكتاب من الله) جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة ، وهي أن تنزيل

الكتاب يكون من الله ، لا من غيره وهذا الحصر معنى معتبر ، أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة (الثالث) أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله ، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر ، لأن هذا إشارة إلى السورة ، والسورة ليست نفس التنزيل ، بل السورة منزلة ، فحينئذ يحتاج إلى أن نقول المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لا لضرورة .

(المسألة الثانية) القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا إنه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلاً ومنزلاً ، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمحدث المخلوق (والجواب) أنا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف .

(المسألة الثالثة) الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلاً وآيات أخر تدل على كونه منزلاً .

أما (الأول) فقوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين) ، وقال (تنزيل من حكيم حميد) وقال (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) .

وأما (الثاني) فقوله (إنا نحن نزلنا الذكر) ، وقال (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) وأنت تعلم أن كونه منزلاً أقرب إلى الحقيقة من كونه تنزيلاً ، فكونه منزلاً مجاز أيضاً لأنه إن كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لا يقبل الانفصال والنزول ، وإن كان المراد منه الحروف والأصوات فهي أعراض لا تقبل الانتقال والنزول ، بل المراد من النزول نزول الملك الذي بلغها إلى الرسول ﷺ .

(المسألة الرابعة) قالت المعتزلة العزيز هو القادر الذي لا يغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادراً على ما لا نهاية له والحكيم هو الذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة ، وهذا إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، وأنه غني عن جميع الحاجات إذا ثبت هذا فنقول كونه تعالى (عزيزاً حكيماً) يدل على هذه الصفات الثلاثة ، العلم بجميع المعلومات ، والقدرة على كل الممكنات ، والإستغناء عن كل الحاجات ، فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح ، وإذا كان كذلك فكل ما يفعله يكون حكمة وصواباً. إذا ثبت هذا فنقول الانتفاع بالقرآن يتوقف على أصليين : (أحدهما) أن يعلم أن القرآن كلام الله ، والدليل عليه أنه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقاً ، وثبت بالتواتر أنه كان يقول القرآن كلام الله فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين أن القرآن كلام الله (والأصل الثاني) أن الله أراد بهذه الألفاظ المعاني التي هي موضوعة لها ، أم بحسب اللغة أو بحسب القرينة العرفية أو الشرعية لأنه لو لم يرد بها ذلك لكان تليساً ، وذلك لا يليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا أن الانتفاع بالقرآن لا يحصل إلا بعد تسليم هذين الأصلين ، وثبت أنه لا سبيل إلى إثبات هذين الأصلين إلا بإثبات كونه تعالى حكيماً ، وثبت أن لا سبيل

إلى إثبات كونه حكماً إلا بالبناء على كونه تعالى عزيزاً ، فلهذا السبب قال (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم .

أما قوله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) ففيه سؤالان :

(السؤال الأول) لفظ التنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله عليه نجماً نجماً على سبيل التدرج ولفظ الإنزال يشعر بأنه تعالى أنزله عليه دفعة واحدة فكيف الجمع بينهما (والجواب) إن صح الفرق بين التنزيل وبين الإنزال من الوجه الذي ذكرتم فطريق الجمع أن يقال المعنى إنا حكمنا حكماً كلياً جزءاً بأن يوصل إليك هذا الكتاب ، وهذا هو الإنزال ، ثم أوصلناه نجماً نجماً إليك على وفق المصالح وهذا هو التنزيل .

(السؤال الثاني) ما المراد من قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق)؟ (والجواب) فيه وجهان (الأول) المراد (أنزلنا الكتاب إليك) ملتبساً بالحق والصدق والصواب على معنى كل ما أودعناه فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنواع التكالييف فهو حق وصدق يجب العمل به والمصير إليه (الثاني) أن يكون المراد (إنا أنزلنا إليك الكتاب) بناء على دليل حق دل على أن الكتاب نازل من عند الله ، وذلك الدليل هو أن الفصحاء عجزوا عن معارضته ، ولو لم يكن معجزاً لما عجزوا عن معارضته .

ثم قال (فاعبد الله مخلصاً له الدين) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) أنه تعالى لما بين في قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب أردف هنا بعض ما فيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله تعالى بالكفاية ، فأما اشتغاله بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص فهو المراد من قوله تعالى (فاعبد الله مخلصاً) ، وأما رآته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله (ألا لله الدين الخالص) لأن قوله (ألا لله) يفيد الحصر ، ومعنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور وينتفي عن غير المذكور ، واعلم أن العبادة مع الإخلاص لا تعرف حقيقة إلا إذا عرفنا أن العبادة ماهية وأن الإخلاص ماهو وأن الوجوه المنافية للإخلاص ما هي فهذه أمور ثلاثة لا بد من البحث عنها :

أما العبادة : فهي فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله .

وأما الإخلاص : فهو أن يكون الداعي له إلى الإتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والإمتثال ، فإن حصل منه داع آخر فإما أن يكون جانب الداعي إلى الطاعة راجحاً على الجانب الآخر أو معادلاً له أو مرجوحاً . وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط ، وأما إذا كان الداعي إلى طاعة الله راجحاً على الجانب الآخر فقد اختلفوا في أنه هل يفيد أم لا ، وقد ذكرنا هذه المسألة مراراً ولفظ القرآن يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص ، لأن قوله (فاعبد الله مخلصاً)

صريح في أنه يجب الإتيان بالعبادة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وأما بيان الوجوه المنافية للاخلاص فهي الوجوه الداعية للشريك وهي أقسام : (أحدها) أن يكون للرياء والسمعة فيه ، مدخل (وثانيها) أن يكون مقصوده من الإتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخللاص من النار (وثالثها) أن يأتي بها ويعتقد أن لها تأثيراً في إيجاب الثواب أو دفع العقاب (ورابعها) وهو أن يخلص تلك الطاعات عن الكبار حتى تصير مقبولة ، وهذا القول إنما يعتبر على قول المعتزلة .

(المسألة الثانية) من الناس من قال (فاعبد الله مخلصاً له الدين) المراد منه شهادة أن لا إله إلا الله ، واحتجوا بما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا إله إلا الله - حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي » وهذا قول من يقول : لا تضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر ، وأما الآكثرون فقالوا الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الأوامر والنواهي ، وهذا هو الأولى لأن قوله (فاعبد الله) عام ، وروى أن امرأة الفرزدق لما قرب وفاتها أوصت أن يصلي الحسن البصري عليها ، فلما صلى عليها ودفنت ، قال للفرزدق يا أبا فراس ما الذي أعددت لهذا الأمر؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله ، فقال الحسن رضي الله عنه هذا العمود فأين الطنب؟ فيين بهذا أن عمود الخيمة لا ينتفع به إلا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة ، قال القاضي فأما ما يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وأبي الدرداء « وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء » فإن صح فإنه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة وإلا لم يحز قبول هذا الخبر لأنه مخالف للقرآن ، ولأنه يوجب أن لا يكون الإنسان مزجوراً عن الزنا والسرقه ، وأن لا يكون متعدياً بفعالها لأنه مع شدة شهوته للقبیح يعلم أنه لا يضره مع تمسكه بالشهادتين فكأن ذلك إغراء بالقبیح والكل ينافي حكمة الله تعالى ولا يلزم أن يقال ذلك فالقول بأنه يزول ضرره بالتوبة يوجب أيضاً الإغراء بالقبیح ، لأننا نقول إن من اعتقد أن ضرره يزول بالتوبة فقد اعتقد أن فعل القبیح مضره إلا أنه يزول ذلك الضرر بفعل التوبة بخلاف قول من يقول إن فعل القبیح لا يضر مع التمسك بالشهادتين . هذا تمام كلام القاضي ، فيقال له : أما قولك إن القول بالمغفرة مخالف للقرآن فليس كذلك بل القرآن يدل عليه قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أي حال ظلمهم كما يقال رأيت الأمير على أكله وشربه أي حال كونه آكلاً وشارباً ، وقال (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) ، وأما قوله إن ذلك يوجب الإغراء بالقبیح ، فيقال له إن كان الأمر كذلك وجب أن يقبح غفرانه عقلاً ، وهذا مذهب البغداديين من المعتزلة ، وأنت لا تقول به ، لأن مذهب البصريين أن عذاب المذنب جائز عقلاً ، وأيضاً فيلزم عليه أن لا يحصل الغفران بالتوبة ، لأنه إذا علم أنه إذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم ينزجر وأما

الفرق الذي ذكره القاضي فبيد ، لأنه إذا عزم على أن يتوب عنه في الحال علم أنه لا يضره ذلك الذنب البتة . ثم نقول مذهبنا أنا نقطع بحصول العفو عن الكبائر في الجملة ، فأما في حق كل واحد من الناس فذلك مشكوك فيه لأنه تعالى قال (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فقطع بحصول المغفرة في الجملة ، إلا أنه سبحانه وتعالى لم يقطع بحصول هذا الغفران في حق كل أحد بل في حق من شاء وإذا كان كذلك كان الخوف حاصلًا فلا يكون الإغراء حاصلًا والله أعلم .

(المسألة الثالثة) قال صاحب الكشف قرىء الدين بالرفع ، ثم قال وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام لقوله تعالى (وأخلصوا دينهم لله) حتى يطابق قوله (ألا لله الدين الخالص) والخالص والمخلص واحد إلا أنه وصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر ، واعلم أنه تعالى لما بين أن رأس العبادات ورئيسها الإخلاص في التوحيد أردفه بدم طريقة المشركين فقال (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وتقدير الكلام والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وعلى هذا التقدير نخب الذين محذوف وهو قوله يقولون ، واعلم أن الضمير في قوله (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) عائد على الأشياء التي عبدت من دون الله ، وهي قسبان العقلاء وغير العقلاء ، أما العقلاء فهو أن قوماً عبدوا المسيح وعزيراً والملائكة ، وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة ، وأما الأشياء التي عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهي الأصنام ، إذا عرفت هذا فنقول الكلام الذي ذكره الكفار لائق بالعقلاء ، أما بغير العقلاء فلا يليق ، وبيانه من وجهين (الأول) أن الضمير في قوله (ما نعبدكم) ضمير للعقلاء فلا يليق بالأصنام (الثاني) أنه لا يبعد أن يعتقد أولئك الكفار في المسيح والعزير والملائكة أن يشفعوا لهم عند الله ، أما يبعد من العاقل أن يعتقد في الأصنام والجمادات أنها تقربه إلى الله ، وعلى هذا التقدير فرادهم أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله ، ويمكن أن يقال إن العاقل لا يعبد الصنم من حيث إنه خشب أو حجر ، وإنما يعبدونه لا اعتقادهم أنها تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية ، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين مضوا ، ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى تلك الأشياء التي جعلوا هذه التماثيل صوراً لها .

وحاصل الكلام لعباد الأصنام أن قالوا إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكبر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الأرواح السماوية ، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر ، فهذا هو المراد من قولهم (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .

واعلم أن الله تعالى لما حكى مذاهبهم أجاب عنها من وجوه : (الأول) أنه اقتصر في الجواب على مجرد التهديد فقال (إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون) واعلم أن الرجل المبطل إذا ذكر مذهباً باطلاً وكان مصرأ عليه ، فالطريق في علاجه أن يحتمل بحيلة توجب زوال ذلك الإصرار عن

قلبه ، فإذا زال الإصرار عن قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل الدال على بطلانه ، فيكون هذا الطريق أفضى إلى المقصود . والأطباء يقولون لا بد من تقديم المنضج على سقى المسهل فان تناول المنضج تصير المواد الفاسدة رخوة قابلة للزوال ، فاذا سقىته المسهل بعد ذلك حصل النقاء التام ، فمكذلك ههنا سماع التهديد والتخويف أولاً يجرى مجرى سقى المنضج أولاً ، وإسراع الدليل ثانياً يجرى مجرى سقى المسهل ثانياً . فهذا هو الفائدة في تقديم هذا التهديد .

ثم قال تعالى (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) والمراد أن من أصر على الكذب والكفر بقي محروماً عن الهداية ، والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الأصنام بأنها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها ، والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض ، وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفر الراجع إلى الاعتقاد ، والأمر ههنا كذلك فإن وصفهم لها بالإلهية كذب ، واعتقادهم فيها بالإلهية جهل وكفر . ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة ، والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام ، وذلك المنعم هو الله سبحانه وتعالى وهذه الأوثان لا تدخل لها في ذلك الإنعام فالإشتغال بعبادة هذه الأوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق .

ثم قال تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) والمراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهاً عن الولد وبيانه من وجوه (الأول) أنه لو اتخذ ولداً لما رضى إلا بأكمل الأولاد وهو الإبن فكيف نسبتم إليه البنت (الثاني) أنه سبحانه واحد حقيقي والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد ، أما أنه واحد حقيقي فلأنه لو كان مركباً لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره ، فكان يحتاج إلى غيره والمحتاج إلى الغير يمكن لذاته ، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته ، وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلو جوه (الأول) أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء . ينفصل عنه ، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد . وهذا إنما يعقل في الشيء الذي ينفصل منه جزء . والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه (الثاني) شرط الولد أن يكون مماثلاً في تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين ، وذلك محال لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد ، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلوماً بسبب منفصل ، فلا يكون إلهاً واجب الوجود لذاته . فثبت أن كونه إلهاً واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحداً في حقيقته ، وكونه واحداً في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له ، فثبت أن كونه واحداً يمنع من ثبوت الولد (الثالث) أن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة والزوجان لا بد وأن يكونا من جنس واحد ، فلو كان له ولد لما كان واحداً بل كانت زوجته من جنسه ، وأما أن كونه قهاراً يمنع من ثبوت الولد له ، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذي يموت فيحتاج

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى
 اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ
 ﴿٦﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ
 ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثَ
 ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تَصْرَفُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ تَكْفِيرًا فَإِنَّ اللَّهَ
 غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
 وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
 الصُّدُورِ ﴿٨﴾

إلى ولد يقوم مقامه ، فالمحتاج إلى الولد هو الذي يكون مقهوراً بالموت ، أما الذي يكون قاهراً ولا
 يقهره غيره كان الولد في حقه محالاً ، فثبت أن قوله (هو الله الواحد القهار) ألفاظ مشتملة على دلائل
 قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ،
 وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ، خلقكم من نفس واحدة ثم
 جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد
 خلق في ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأتى تصرفون ، إن تكفروا فإن الله
 غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى
 ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾

اعلم أن الآية المتقدمة دلت على أنه تعالى بين كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً وقهاراً
 غالباً أي كامل القدرة ، فلما نبى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقيبتها ما يدل على كمال القدرة
 وعلى كمال الاستغناء ، وأيضاً فإنه تعالى طعن في إلهية الأصنام فذكر عقيبتها الصفات التي باعتبارها
 تحصل الإلهية ، واعلم أنا بينا في مواضع من هذا الكتاب أن الدلائل التي ذكرها الله تعالى في

إثبات إلهيته ، إما أن تكون فلكية أو عنصرية ، أما الفلكية فأقسام (أحدها) خلق السموات والأرض ، وهذا المعنى يدل على وجود الإله القادر من وجوه كثيرة شرحناها في تفسير قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) ر (الثانى) اختلاف أحوال الليل والنهار وهو المراد ههنا من قوله (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وذلك لأن النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان ، وفى كل يوم يغلب هذا ذاك تارة ، وذاك هذا أخرى . وذلك يدل على أن كل واحد منهما مغلوب مقهور ، ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تديره وقهره وهو الله سبحانه وتعالى ، والمراد من هذا التكوير أنه يزيد فى كل واحد منهما بقدر ما ينقص عن الآخر ، والمراد من تكوير الليل والنهار ماورد فى الحديث « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » أى من الإدبار بعد الإقبال ، واعلم أنه سبحانه وتعالى عبر عن هذا المعنى بقوله (يكور الليل على النهار) وبقوله (يغشى الليل النهار) وبقوله (يوج الليل فى النهار) وبقوله (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر) و (الثالث) اعتبار أحوال الكواكب لاسيما الشمس والقمر ، فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ، وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله (كل يجرى لأجل مسمى) الأجل المسمى يوم القيامة ، لا يزالان يجران إلى هذا اليوم فإذا كان يوم القيامة ذهباً ، ونظيره قوله تعالى (وجمع الشمس والقمر) والمراد من هذا التسخير أن هذه الأفلاك تدور كدوران المنجنون على حد واحد إلى يوم القيامة وعنده تطوى السماء كطى السجل للكتب .

ولما ذكر الله هذه الأنواع الثلاثة من الدلائل الفلكية قال (ألا هو العزيز الغفار) والمعنى أن خلق هذه الأجرام العظيمة وإن دل على كونه عزيزاً أى كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان ، فانه لما كان الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبه فكونه غفراً يوجب كثرة الرحمة ، وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة ، ثم إنه تعالى أتبع ذكر الدلائل الفلكية بذكر الدلائل المأخوذة من هذا العالم الأسفل ، فبدأ بذكر الإنسان فقال (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) ودلالة تسكون الإنسان على الإله المختار قد سبق بيانها مراراً كثيرة ، فان قيل كيف جاز أن يقول (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) والزوج مخلوق قبل خلقهم ؟ أجابوا عنه من وجوه (الأول) أن كلمة ثم كما تجيء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية ، فكذلك تجيء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر ، كقول القائل بلغنى ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت أمس كان أعجب ، ويقول أيضاً قد أعطيتك اليوم شيئاً ، ثم الذى أعطيتك أمس أكثر (الثانى) أن يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها زوجها (الثالث) أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذئب ثم خلق بعد ذلك حواء .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الاستدلال بخلق الإنسان على وجود الصانع ذكر عقبيه الاستدلال

بوجود الحيوان عليه فقال (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وهى الإبل والبقر والضأن والمعز وقد بينا كيفية دلالة هذه الحيوانات على وجود الصانع فى قوله (والأنعام خلقها لكم فيها ذم) وفى تفسير قوله تعالى (وأنزل لكم) وجوه : (الأول) أن قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء لأجل أنه كتب فى اللوح المحفوظ كل كائن يكون (الثانى) أن شيئاً من الحيوان لا يعيش إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء والتراب ، والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه أنزلها (الثالث) أنه تعالى خلقها فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض وقوله (ثمانية أزواج) أى ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز ، والزواج اسم لكل واحد معه آخر ، فإذا انفرد فهو فرد منه قال تعالى (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) .

ثم قال تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق) وفيه إبحاث :

(الأول) قرأ حمزة بكسر الألف والميم ، والكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم ، والباقون أمهاتكم بضم الألف وفتح الميم .

(الثانى) أنه تعالى لما ذكر تخليق الناس من شخص واحد وهو آدم عليه السلام أردفه بتخليق الأنعام ، وإنما خصها بالذكر لأنها أشرف الحيوانات بعد الإنسان ، ثم ذكر عقيب ذكرهما حالة مشتركة بين الإنسان وبين الأنعام وهى كونها مخلوقة فى بطون أمهاتهم وقوله (خلقاً من بعد خلق) المراد منه ما ذكره الله تعالى فى قوله (ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين) وقوله (فى ظلمات ثلاث) قيل الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل الصلب والرحم والبطن ووجه الاستدلال بهذه الحالات قد ذكرناه فى قوله (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) .

واعلم أنه تعالى لما شرح هذه الدلائل ووصفها قال (ذلكم الله ربكم) أى ذلكم الشئ الذى عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم ، وفى هذه الآية دلالة على كونه سبحانه وتعالى منزهاً عن الأجزاء والأعضاء وعلى كونه منزهاً عن الجسمية والمكانية ، وذلك أنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة لم يذكر إلا كونه فاعلاً لهذه الأشياء ، ولو كان جسماً مركباً من الأعضاء لكان تعريفه بتلك الأجزاء والأعضاء تعريفاً للشئ بأجزاء حقيقته ، وأما تعريفه بأحواله وأفعاله وآثاره فذلك تعريف له بأمر خارجة عن ذاته . والتعريف الأول أكمل من الثانى ، ولو كان ذلك القسم ممكناً لكان الاكتفاء بهذا القسم الثانى تقصيراً ونقصاً وذلك غير جائز ، فعلينا أن الاكتفاء بهذا القسم إنما حسن لأن القسم الأول محال تمتنع الوجود ، وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعالياً عن الجسمية والأعضاء والأجزاء .

ثم قال تعالى (له الملك) وهذا يفيد الحصر أى له الملك لا لغيره ، ولما ثبت أنه لا ملك

إلا له وجب القول بأنه لا إله إلا هو لأنه لو ثبت إله آخر ، فذلك الإله إما أن يكون له الملك أولاً يكون له الملك ، فإن كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكا قادراً ويجرى بينهما التماضع كما ثبت في قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وذلك محال ، وإن لم يكن للثاني شيء من القدرة والملك فيكون ناقصاً ولا يصلح للالهية ، فثبت أنه لما دل الدليل على أنه لا ملك إلا الله ، وجب أن يقال لا إله للعالمين ولا معبود للخلق أجمعين إلا الله الأحد الحق الصمد ، ثم اعلم أنه سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته ، رتب عليه تزييف طريقة المشركين والضالين من وجوه : (الأول) قوله (فأني تصرفون) يحتج به أصحابنا ويحتج به المعتزلة . أما أصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية : أنها صريحة في أنهم لم ينصرفوا بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفها عنهم غيرهم ، وما ذاك الغير إلا الله ، وأيضاً فالدليل العقل يقوى ذلك لأن كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب ، فلما لم يحصل ذلك وإنما حصل الجهل والضلال علينا أنه من غيره لا منه ، وأما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم : أن قوله (فأني تصرفون) تعجب من هذا الانصراف ، ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا التعجب معنى .

ثم قال تعالى (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) والمعنى أن الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه منفعة أوليدفع عن نفسه مضرة ، وذلك لأنه تعالى غنى على الإطلاق ، ويمتنع في حقه جر المنفعة ودفع المضرة ، وإنما قلنا إنه غنى لوجوه : (الأول) أنه واجب الوجود لذاته وواجب الوجود في جميع صفاته ، ومن كان كذلك كان غنياً على الإطلاق (الثاني) أنه لو كان محتاجاً لكانت تلك الحاجة إما قديمة وإما حادثة . والأول باطل وإلا لزم أن يخلق في الأزل ما كان محتاجاً إليه وذلك محال ، لأن الخلق والأزل متناقض . والثاني باطل لأن الحاجة نقصان والحكيم لا يدعوه الداعي إلى تحصيل النقصان لنفسه (الثالث) هب أنه يبقى الشك في أنه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه أم لا ؟ أما من المعلوم بالضرورة أن الإله القادر على خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي والعناصر الأربعة ، والمواليد الثلاثة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو ، وأن يضرب بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك ، فثبت بما ذكرنا أن جميع العالمين لو كفروا وأصروا على الجهل فإن الله غنى عنهم .

ثم قال تعالى بعده (ولا يرضى لعباده الكفر) يعني أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفران إلا أنه لا يرضى بالكفر ، واحتج الجبائي بهذه الآية من وجهين : (الأول) أن المجبرة يقولون إن الله تعالى خلق كفر العباد وإنه من جهة ما خلقه حق وصواب ، قال ولو كان الأمر كذلك لكان قد رضى الكفر من الوجه الذي خلقه ، وذلك ضد الآية (الثاني) لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب ، وحيث اجتمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الله وليس أيضاً برضاء الله تعالى ، وأجاب

الإصحاح عن هذا الاستدلال من وجوه (الأول) أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين ، قال الله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) وقال (عينا يشرب بها عباد الله) وقال (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) فعلى هذا التقدير قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) ولا يرضى للمؤمنين الكفر ، وذلك لا يضرنا (الثاني) أنا نقول الكفر بإرادة الله تعالى ولا نقول إنه برضا الله لأن الرضا عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله ، قال الله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين) أى يمدحهم ويثنى عليهم (الثالث) كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمه الله يقول : الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض ، وليس عبارة عن الإرادة ، والدليل عليه قول ابن دريد :

رضيت قسراً وعلى القسر رضا من كان ذا سخط على صرف القضا

أثبت الرضا مع القسر وذلك يدل على ما قلناه و (الرابع) هب أن الرضا هو الإرادة إلا أن قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) عام ، فتخصيصه بالآيات الدالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر كقوله تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) والله أعلم .

ثم قال تعالى (وإن تشكروا يرضه ليكم) والمراد أنه لما بين أنه لا يرضى الكفر بين أنه يرضى الشكر ، وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) اختلف القراء في هاء (يرضه) على ثلاثة أوجه (أحدها) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الهاء مختلصة غير متبعة (وثانيها) قرأ أبو عمرو وحمزة في بعض الروايات يرضه ساكنة الهاء للتخفيف (وثالثها) قرأ نافع في بعض الروايات وابن كثير وابن عامر والكسائي مضمومة الهاء مشبعة ، قال الواحدى رحمه الله من القراء من أشبع الهاء حتى ألحق بها واواً ، لأن ما قبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه وله ، فكما أن هذا مشبع عند الجميع كذلك يرضه ، ومنهم من حرك الهاء ولم يلحق الواو ، لأن الأصل يرضاه والالف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية ، ومع بقاء الألف لا يجوز إثبات الواو فكذا ههنا .

(المسألة الثانية) الشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل (أما القول) فهو الإقرار بحصول النعمة (وأما الاعتقاد) فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم .

ثم قال تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) قال الجبائى هذا يدل على أنه تعالى لا يعذب أحداً على فعل غيره ، فلو فعل الله كفرهم لما جاز أن يعذبهم عليه ، وأيضاً لا يجوز أن يعذب الأولاد بذنوب الآباء ، بخلاف ما يقول القوم . واحتج أيضاً من أنكروا وجوب ضرب الدية على العاقلة بهذه الآية .

ثم قال تعالى (ثم إلى ربكم مرجعكم) واعلم أنا ذكرنا كثيراً أن أهم المطالب للإنسان أن يعرف خالقه بقدر الإمكان ، وأن يعرف ما يضره وما ينفعه في هذه الحياة الدنيوية ، وأن يعرف أحواله بعد الموت ، ففي هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الأعلى والعالم الأسفل على كمال

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ
مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ
بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ «٩» أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا
وَقَائِمًا يَحْذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ «١٠»

قدرة الصانع وعلمه وحكمته، ثم أتبعه بأن أمره بالشكر ونهاه عن الكفر ثم بين أحواله بعد الموت بقوله (ثم إلى ربكم مرجعكم) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) المشبهة تمسكوا بلفظ إلى على أن إله العالم في جهة وقد أجبنا عنه مراراً.

(المسألة الثانية) زعم القوم أن هذه الأرواح كانت قبل الأجساد وتمسكوا بلفظ الرجوع الموجود في هذه الآية وفي سائر الآيات .

(المسألة الثالثة) دلت هذه الآية على إثبات البعث والقيامة .

ثم قال (فينبئكم بما كنتم تعملون) وهذا تهديد للعاصي وبشارة للطبيع ، وقوله تعالى (إنه علم بذات الصدور) كالعلة لما سبق ، يعني أنه يمكنه أن ينبئكم بأعمالكم ، لأنه عالم بجميع المعلومات ، فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف ، وقال ﷺ «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أفعالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» .

قوله تعالى (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ، أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب)

اعلم أن الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك وبين أن الله تعالى هو الذي يجب أن يعبد ، بين في هذه الآية أن طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام متناقضة وذلك لأنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا في طلب دفعه إلا إلى الله ، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام ومعلوم أنهم إنما رجعوا إلى الله تعالى عند حصول الضر ، لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضر ، وإذا عرفوا أن الأمر كذلك في بعض الأحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا

به في كل الأحوال فثبت أن طريقته في هذا الباب متناقضة .
 أما قوله تعالى (وإذا مس الإنسان فقيل المراد بالإنسان أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره ، وقيل المراد به الكافر الذي تقدم ذكره ، لأن الكلام يخرج على معهود تقدم .
 وأما قوله (ضر) فيدخل فيه جميع المكاره سواء كان في جسمه أو في ماله أو أهله وولده ، لأن اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد (ودعا ربه) أي استجار بربه وناداه ولم يؤمل في كشف الضر سواء ، فلذلك قال (منيباً إليه) أي راجعاً إليه وحده في إزالة ذلك الضر لأن الإجابة هي الرجوع (ثم إذا خوله نعمة منه) أي أعطاه ، قال صاحب الكشاف : وفي حقيقة وجهان (أحدهما) جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال ، إذا كان متعهداً له حسن القيام به ومنه ما روى عن رسول الله ﷺ « أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة » (والثاني) جعله يتخول من خال يتخول إذا اختال وافتخر ، وفي المعنى قالت العرب :

إن الغنى طويل الذيل مياس

ثم قال تعالى (نسي ما كان يدعو إليه من قبل) أي نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويتهل إليه ، وما بمعنى من كقوله تعالى (وما خلق الذكر والأنثى) وقوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) وقوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وقيل نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه والمراد من قوله نسي أي ترك دعاءه كأنه لم يفزع إلى ربه ، ولو أراد به النسيان الحقيقي لما ذمه عليه ، ويحتمل أن يكون المراد أنه نسي أن لا يفزع ، وأن لا إله سواه فعاد إلى اتخاذ الشركاء مع الله .

ثم قال تعالى (وجعل الله أندادا ليضل عن سبيله) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بفتح الياء والباقون ليضل بضم الياء على معنى ليضل غيره .

(المسألة الثانية) المراد أنه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين ، فعند الضر يعتقدون أنه لا مفزع إلى ما سواه وعند النعمة يعودون إلى اتخاذ آلهة معه . ومعلوم أنه تعالى إذا كان إنما يفزع إليه في حال الضر لأجل أنه هو القادر على الخير والشر ، وهذا المعنى باق في حال الراحة والفراغ كان في تقرير حالهم في هذين الوقتين ما يوجب المناقضة وقلة العقل .

(المسألة الثالثة) معنى قوله (ليضل عن سبيله) أنه لا يقتصر في ذلك على أن يضل نفسه بل يدعو غيره إما بفعله أو قوله إلى أن يشاركه في ذلك ، فيزداد إثماً على إثمه ، واللام في قوله (ليضل) لام العاقبة كقوله (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال (قل تمتع بكفرك قليلاً) وليس المراد منه الأمر بل

الزجر ، وأن يعرفه قلة تمتعه في الدنيا ، ثم يكون مصيره إلى النار .

ولما شرح الله تعالى صفات المشركين والضالين ، ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح أحوال المحققين الذين لا رجوع لهم إلا إلى الله ولا اعتماد لهم إلا على فضل الله ، فقال (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قرأ نافع وابن كثير وحمزة (أمن) مخففة الميم والباقون بالثشديد ، أما التخفيف ففيه وجهان (الأول) أن الألف ألف الاستفهام داخله على من ، والجواب محذوف على تقدير كن ليس كذلك ، وقيل كالذي جعل الله أندادا فاكنتي بما سبق ذكره (والثاني) أن يكون ألف نداء كأنه قيل يامن هو قانت من أهل الجنة ، وأما التشديد فقال الفراء الأصل أم من فأدغمت الميم في الميم وعلى هذا القول هي أم التي في قولك أزيد أفضل أم عمرو .

(المسألة الثانية) القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « أفضل الصلاة صلاة القنوت » وهو القيام فيها . ومنه القنوت في الصبح لأنه يدعو قائماً . عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وتلا (أمن هو قانت) وعن ابن عباس القنوت طاعة الله ، لقوله (كل له قانتون) أى مطيعون ، وعن قتادة (آناء الليل) ساعات الليل أوله ووسطه وآخره ، وفي هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل وأنه أرجح من قيام النهار ، ويؤكد وجوه (الأول) أن عبادة الليل أستر عن العيون فتكون أبعد عن الرياء (الثاني) أن الظلمة تمنع من الإبصار ونوم الخلق يمنع من السماع ، فإذا صار القلب فارغاً عن الاشتغال بالأحوال الخارجية عاد إلى المطلوب الأصلي ، وهو معرفة الله وخدمته (الثالث) أن الليل وقت النوم فتركه يكون أشق فيكون الثواب أكثر (الرابع) قوله تعالى (إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قبلاً) وقوله (ساجداً) حال ، وقرىء ساجد وقائم على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين .

واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فكونه قانتاً ساجداً قائماً ، وأما العلم فقوله (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية .

(الفائدة الثانية) أنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظباً عليه ، فإن القنوت عبارة عن كون الرجل قائماً بما يجب عليه من الطاعات ، وذلك يدل على أن العمل إنما يفيد إذا واطب عليه الإنسان ، وقوله (ساجداً وقائماً) إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له في الأول مقام القهر وهو قوله (يحذر الآخرة) ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله (ويرجو رحمة ربه) ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ «١١» قُلْ إِنِّي

(الفائدة الثالثة) أنه قال في مقام الخوف (يحذر الآخرة) فما أضاف الحذر إلى نفسه ،
وفي مقام الرجاء أضافه إلى نفسه ، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى .

(المسألة الثالثة) قيل المراد من قوله (أمن هو قانت آناء الليل) عثمان لأنه كان يحيي الليل
في ركعة واحدة ويقرأ القرآن في ركعة واحدة ، والصحيح أن المراد منه كل من كان موصوفاً
بهذه الصفة فيدخل فيه عثمان وغيره لأن الآية غير مقتصرة عليه .

(المسألة الرابعة) لا شبهة في أن في الكلام حذفاً ، والتقدير أمن هو قانت كغيره ، وإنما
حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها (قل
هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وتقدير الآية قل هل يستوى الذين يعلمون وهم
الذين صفتهم أنهم يقتنون آناء الليل سجداً وقياماً ، والذين لا يعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء
والخوف يرحدون وعند الراحة والفراغة يشركون ، فإذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وإنما
وصف الله الكفار بأنهم لا يعلمون ، لأنهم وإن آتاهم الله آلة العلم إلا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم ،
فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولى الأبواب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم .

وأما قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فهو تنبيه عظيم على فضيلة
العلم ، وقد بالغنا في تقرير هذا المعنى في تفسير قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) قال صاحب
الكشاف أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون ، وبالذين لا يعلمون الذين لا يأتون
بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء ، وهو تنبيه على أن من يعمل فهو غير عالم ، ثم قال وفيه
ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقتنون ، ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة .

ثم قال تعالى (إنما يتذكر أولوا الأبواب) يعني هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء
والجهال لا يعرفه أيضاً إلا أولوا الأبواب ، قيل لبعض العلماء : إنكم تقولون العلم أفضل من المال
ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك ، ولا نرى الملوك يجتمعون عند أبواب العلماء ، فأجاب
العالم بأن هذا أيضاً يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه ، والجهال
لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فلا جرم تركوه .

قوله تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة
وأرض الله واسعة ، إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب ، قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً

أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ «١٢» وَأَمَرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ
 «١٣» قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٤» قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ
 مُخْلِصًا لَهُ دِينِي «١٥» فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ الْمَبِينِ «١٦» لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
 ظُلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلٌّ ذَلِكَ يَخُوفُ اللَّهَ بِعِبَادِهِ يَا عِبَادِيَ فَاتَّقُونِ «١٧»

له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ،
 قل الله أعبد مخلصاً له ديني ، فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم
 وأهلهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين ، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ،
 ذلك يخوف الله به عباده يا عبادى فاتقون ﴿

اعلم أنه تعالى لما بين نفي المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم ، أتبعه بأن أمر رسوله بأن
 يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام :

﴿ النوع الأول ﴾ قوله (قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم) والمراد أن الله تعالى أمر
 المؤمنين بأن يضموا إلى الإيمان التقوى ، وهذا من أول الدلائل على أن الإيمان يبقى مع المعصية ،
 قال القاضى أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا إيمانهم ، لأن عند الاتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب
 وبالإقدام عليها يحبط ، فيقال له هذا بأن يدل على ضد قولك أولى ، لأنه لما أمر المؤمنين بالتقوى
 دل ذلك على أنه يبقى مؤمناً مع عدم التقوى ، وذلك يدل على أن الفسق لا يزيل الإيمان .

واعلم أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالاتقاء بين لهم ما فى هذا الاتقاء من الفوائد ، فقال تعالى
 (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) فقوله (فى هذه الدنيا) يحتمل أن يكون صلة لقوله (أحسنوا)
 أو حسنة ، فعلى التقدير الأول معناه للذين أحسنوا فى هذه الدنيا كلهم حسنة فى الآخرة ، وهى
 دخول الجنة ، والتنكير فى قوله (حسنة) للتعظيم يعنى حسنة لا يصل العقل إلى كنه كمالها .
 وأما على (التقدير الثانى) فمعناه الذين أحسنوا فلهم فى هذه الدنيا حسنة ، والقائلون بهذا القول
 قالوا هذه الحسنة هى الصحة والعافية ، وأقول الأولى أن تحمل على الثلاثة المذكورة فى قوله ﷺ
 وثلاثة ليس لها نهاية : الأمن والصحة والكفاية ومن الناس من قال القول الأول أولى ويدل
 عليه وجوه (الأول) أن التنكير فى قوله (حسنة) يدل على النهاية والجلالة والرفعة ، وذلك لا يليق

بأحوال الدنيا ، فإنها خسيسة ومنقطعة ، وإنما يليق بأحوال الآخرة ، فإنها شريفة وآمنة من الانقضاء والانقراض (والثاني) أن ثواب المحسن بالتوحيد والأعمال الصالحة إنما يحصل في الآخرة قال تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) وأيضاً فنعمة الدنيا من الصحة والأمن والكفاية حاصلة للكفار ، وأيضاً فحصولها للكافر أكثر وأتم من حصولها للمؤمن ، كما قال ﷺ « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » وقال تعالى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون) ، (الثالث) أن قوله (الذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) يفيد الحصر ، بمعنى أنه يفيد أن حسنة هذه الدنيا لا تحصل إلا للذين أحسنوا ، وهذا باطل . أما لو حملنا هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر ، فكان حمله على حسنة الآخرة أولى ، ثم قال الله تعالى (وأرض الله واسعة) وفيه قولان (الأول) المراد أنه لا عذر البتة للمقصرين في الإحسان ، حتى إنهم إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفيرة على الإحسان و صرف الهمم إليه ، قل لهم فإن أرض الله واسعة وبلادهم كثيرة ، فتحولوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات ، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ، ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم ، وطاعة إلى طاعتهم ، والمقصود منه الترغيب في الهجرة من مكة إلى المدينة والصبر على مفارقة الوطن ، ونظيره قوله تعالى (قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) و (القول الثاني) قال أبو مسلم : لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة ، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهي خشية الله ، ثم بين أن من اتقى فله في الآخرة الحسنة ، وهي الخلود في الجنة ، ثم بين أن أرض الله ، أي جنته واسعة ، لقوله تعالى (نتبأ من الجنة حيث نشاء) وقوله تعالى (وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) والقول الأول عندي أولى ، لأن قوله (إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب) لا يليق إلا بالأول ، وفي هذه الآية مسائل :

(المسألة الأولى) أما تحقيق الكلام في ماهية الصبر ، فقد ذكرناه في سورة البقرة ، والمراد ههنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرتهم ، وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله تعالى .

(المسألة الثانية) تسمية المنافع التي وعد الله بها على الصبر بالأجر توهم أن العمل على الثواب ، لأن الأجر هو المستحق ، إلا أنه قامت الدلائل القاهرة على أن العمل ليس عليه الثواب ، فوجب حمل لفظ الأجر على كونه أجراً بحسب الوعد ، لا بحسب الاستحقاق .

(المسألة الثالثة) أنه تعالى وصف ذلك الأجر بأنه بغير حساب ، وفيه وجوه (الأول) قال الجبائي : المعنى أنهم يعطون ما يستحقون ويزدادون تفضلاً فهو بغير حساب ، ولو لم يعطوا إلا المستحق لكان ذلك حساباً ، قال القاضي هذا ليس بصحيح ، لأن الله تعالى وصف الأجر

بأنه بغير حساب ، ولو لم يعطوا إلا الأجر المستحق ، والأجر غير التفضل (الثاني) أن الثواب له صفات ثلاثة (أحدها) أنها تكون دائماً الأجر لهم ، وقوله (بغير حساب) معناه بغير نهاية ، لأن كل شيء دخل تحت الحساب فهو متناه ، فما لا نهاية له كان خارجاً عن الحساب (وثانيها) أنها تكون منافع كاملة في أنفسها ، وعقل المطيع ما كان يصل إلى كنهه ذلك الثواب ، قال ﷺ « إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه ، وما لا يتوقعه الإنسان ، فقد يقال إنه ليس في حساب ، فقوله (بغير حساب) محمول على هذا المعنى (والوجه الثالث) في التأويل أن ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال ، روى صاحب الكشاف عن النبي ﷺ أنه قال « ينصب الله الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صياً » قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما به أهل البلاء من الفضل .

(النوع الثاني) من البيانات أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) قال مقاتل : إن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى ! فأنزل الله ، قل يا محمد إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأقول إن التكليف نوعان (أحدهما) الأمر بالاحتراز عما لا ينبغي (والثاني) الأمر بتحصيل ما ينبغي ، والمرتبة الأولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة ، إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قدم الأمر بإزالة ما لا ينبغي فقال (اتقوا ربكم) لأن التقوى هي الإحتراز عما لا ينبغي ثم ذكر عقيبه الأمر بتحصيل ما ينبغي فقال (إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وهذا يشتمل على قيدين : (أحدهما) الأمر بعبادة الله (الثاني) كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلي وشوائب الشرك الخفي ، وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر ليذبه على أن غيره بذلك أحق فهو كالتغيب للغير ، وقوله تعالى (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) لاشبهة في أن المراد إني أول من تمسك بالعبادات التي أرسلت بها ، وفي هذه الآية فائدتان :

(الفائدة الأولى) كأنه يقول إني لست من الملوك الجبارة الذين يأمرؤن الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك ، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعاً فيه وأكثرهم مداومة عليه .

(الفائدة الثانية) أنه قال (إني أمرت أن أعبد الله) والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح ، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح ، فقدم ذكر الجزء الأشرف وهو قوله (مخلصاً له الدين) ثم ذكر عقيبه الأدون وهو عمل الجوارح وهو الإسلام ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم

فسر الإسلام في خبر جبريل عليه السلام بالأعمال الظاهرة ، وهو المراد بقوله في هذه الآية (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) وليس لقائل أن يقول ما الفائدة في تكرير لفظ (أمرت) لأننا نقول ذكر لفظ (أمرت) أولاً في عمل القلب وثانياً في عمل الجوارح ولا يكون هذا تكريراً .
 ﴿ الفائدة الثالثة ﴾ في قوله (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) التنبيه على كونه رسولا من عند الله واجب الطاعة ، لأن أول المسلمين في شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله ، لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ ، ولما بين الله تعالى أمره بالإخلاص بالقلب وبالأعمال المخصوصة ، وكان الأمر يحتمل الوجوب ويحتمل الندب بين أن ذلك الأمر للوجوب فقال (قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) وفيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن الله أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجرى هذا الكلام على نفسه ، والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي ، لأنه مع جلالة قدره وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفاً حذراً عن المعاصي فغيره بذلك أولى .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ دلت الآية على أن المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف من العقاب ، وهذا يطابق قولنا إن الله تعالى قد يعفو عن المذنب والكبيرة ، فيكون اللزوم عند حصول المعصية هو الخوف من العقاب لأنفس حصول العقاب .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ دلت هذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب ، وذلك لأنه قال في أول الآية (إني أمرت أن أعبد الله) ثم قال بعده (قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) فيكون معنى هذا العصيان ترك الأمر الذي تقدم ذكره ، وذلك يقتضي أن يكون ترك الأمر عاصياً ، والعاصي يترتب عليه الخوف من العقاب ، ولا معنى للوجوب إلا ذلك .

﴿ النوع الثالث ﴾ من الأشياء التي أمر الله رسوله أن يذكرها قوله (قل الله أعبد مخلصاً له ديني) فان قيل ما معنى التكرير في قوله (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وقوله (قل الله أعبد مخلصاً له ديني) ؟ قلنا هذا ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة ، والثاني إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحداً غير الله ، وذلك لأن قوله (أمرت أن أعبد الله) لا يفيد الحصر وقوله تعالى (قل الله أعبد) يفيد الحصر يعني الله أعبد ولا أعبد أحداً سواه ، والدليل عليه أنه لما قال بعد (قل الله أعبد) قال بعده (فاعبدوا ما شئتم من دونه) ولا شبهة في أن قوله (فاعبدوا ما شئتم من دونه) ليس أمراً بل المراد منه الزجر ، كأنه يقول لما بلغ البيان في وجوب رعاية التوحيد إلى الغاية القصوى فبعد ذلك أنتم أعرف بأنفسكم ، ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم) لوقوعها في هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه ، وخسروا أهلهم أيضاً لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم . وإن كانوا من أهل الجنة ، فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده البتة . وقال ابن عباس : إن لكل رجل

منزلاً وأهلاً وخداماً في الجنة ، فإن أطاع أعطى ذلك ، وإن كان من أهل النار حرم ذلك فحسر نفسه وأهله وميزله وورثه غيره من المسلمين ، والخاسر المغبون ، ولما شرح الله خسراتهم وصف ذلك الخسران بغاية الفظاظة فقال (ألا ذلك هو الخسران المبين) كان التكرير لأجل التأكيد (الثاني) أنه تعالى ذكر في أول هذه الكلمة حرف الأ وهو للتنبيه ، وذكر التنبيه في هذا الموضع يدل على التعظيم كأنه قيل إنه بلغ في العظمة إلى حيث لا تصل عقولكم إليها فتنهبوا لها (الثالث) أن كلمة (هو) في قوله (هو الخسران المبين) تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران فإنه يصير في مقابلته كلا خسران (الرابع) وصفه بكونه (مبيناً) يدل على التحويل ، وأقول قد بينا أن لفظ الآية يدل على كونه (خسراناً مبيناً) فلنبين بحسب المباحث العقلية كونه خسراناً مبيناً ، وأقول نفتقر إلى بيان أمرين إلى أن يكون خسراناً ثم كونه مبيناً (أما الأول) فتقريره أنه تعالى أعطى هذه الحياة وأعطى العقل ، وأعطى المكنة وكل ذلك رأس المال ، أما هذه الحياة فالمقصود منها أن يكتسب فيها الحياة الطيبة في الآخرة .

وأما العقل فإنه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هي رأس المال والنظر ، والفكر لا معنى له إلا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب إلى تحصيل علوم كسبية ، فتلك العلوم البديهية المسماة بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر في رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء ، وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح ، وأيضاً حصول القدرة على الأعمال يشبه رأس المال ، واستعمال تلك القوة في تحصيل أعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر في رأس المال ، وحصول أعمال الخير والبر يشبه الربح ، إذا ثبت هذا فنقول : إن من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ، ثم إنه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير البتة كان محروماً عن الربح بالكلية ، وإذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية فكان ذلك خسراناً ، فهذا بيان كونه خسراناً (وأما الثاني) وهو بيان كون ذلك الخسران مبيناً فهو أن من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار ، فهذا كما لم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له أيضاً مزيد ضرر ، أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التي هي رأس مالهم في استخراج وجوه الشبهات وتقوية الجهالات والضلالات ، واستعملوا قواهم وقدرهم في أفعال الشر والباطل والفساد ، فهم قد جمعوا بين أمور في غاية الرداءة (أولها) أنهم أتعبوا أبدانهم وعقولهم طلباً في تلك العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة (وثانيها) أنهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة (وثالثها) أن تلك المتاعب الشديدة التي كانت موجودة في الدنيا في نصرة تلك الضلالات تصير أسباباً للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت ، وعند الوقوف على هذه المعاني يظهر أنه لا يعقل خسران أقوى من خسراتهم ، ولا حرمان أعظم من حرمانهم ، ونعوذ بالله منه .

ولما شرح الله تعالى أحوال حرمانهم عن الربح وبين كيفية خسراتهم ، بين أنهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران ، بل ضموا إليه استحقاق العذاب العظيم والعقاب الشديد . فقال (لهم من

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ
عِبَادَ « ١٨ » الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ

فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب ، ونظيره في الأحوال النفسانية إحاطة الجهل والحريمان والجرح وسائر الأخلاق الذميمة بالإنسان ، فان قيل الظلال ما على الإنسان فكيف سمي ماتحته بالظلال؟ والجواب من وجوه (الأول) أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ، (الثاني) أن الذي يكون تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته لأن النار دركات كما أن الجنة درجات (والثالث) أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الحرارة والإحراق والإيذاء ، أطلق اسم أحدهما على الآخر لأجل المماثلة والمشابهة . قال الحسن هم بين طبقتين من النار لا يدرون ما فوقهم أكثر مما تحتهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقوله تعالى (لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش) .

ثم قال تعالى (ذلك يخوف الله به عباده) أي ذلك الذي تقدم ذكره من وصف العذاب فقوله (ذلك) مبتدأ وقوله (يخوف الله به عباده) خبر ، وفي قوله (يخوف الله به عباده) قولان (الأول) التقدير ذلك العذاب المعد للكفار هو الذي يخوف الله به عباده أي المؤمنين ، لأننا بينا أن لفظ العباد في القرآن مختص بأهل الإيمان وإنما كان تخويفاً للمؤمنين لأجل أنهم إذا سمعوا أن حال الكفار ما تقدم خافوا فأخلصوا في التوحيد والطاعة (الوجه الثاني) أن هذا الكلام في تقدير جواب عن سؤال ، لأنه يقال إنه تعالى غنى عن العالمين منزه عن الشهوة والانتقام وداعية الإيذاء ، فكيف يليق به أن يعذب هؤلاء المساكين إلى هذا الحد العظيم ، وأجيب عنه بأن المقصود منه تخويف الكفار والضلال عن الكفر والضلال ، فإذا كان التكليف لا يتم إلا بالتخويف والتخويف لا يكمل الانتفاع به إلا بإدخال ذلك الشيء في الوجود وجب إدخال ذلك النوع من العذاب في الوجود تحصيلاً لذلك المطلوب الذي هو التكليف ، والوجه الأول عندى أقرب ، والدليل عليه أنه قال بعده (يا عباد فاتقون) وقوله (يا عباد) الأظهر منه أن المراد منه المؤمنون فكأنه قيل المقصود من شرح عذاب الكفار للمؤمنين تخويف المؤمنين فيأبىها المؤمنون بالغوا في الخوف والحذر والتقوى .

قوله تعالى ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ، أفمن

وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ «١٨» أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تَنْقُذُ مَنْ
 فِي النَّارِ «١٩» لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ «٢٠»

حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف مبنية تجرى من
 تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد .

اعلم أن الله تعالى لما ذكر وعيد عبدة الأصنام والأوثان ذكر وعد من اجتنب عبادتها
 واحترز عن الشرك ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد أبدأ فيحصل كمال الترغيب والترهيب ، وفيه
 مسائل :

(المسألة الأولى) قال صاحب الكشاف : الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت
 والرحوت إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، وفي هذا اللفظ أنواع من المبالغة (أحدها)
 التسمية بالمصدر كأن عين ذلك الشيء الطغيان (وثانيها) أن البناء بناء المبالغة فإن الرحوت الرحمة
 الواسعة والملكوت الملك المبسوط (وثالثها) ما ذكرنا من تقديم اللام على العين ومثل هذا إنما
 يصار إليه عند المبالغة .

(المسألة الثانية) اختلفوا في أن المراد من الطاغوت ههنا الشيطان أم الأوثان ، فقيل إنه
 الشيطان فان قيل إنهم ما عبدوا الشيطان وإنما عبدوا الصنم ، قلنا الداعي إلى عبادة الصنم لما كان
 هو الشيطان كان الإقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان ، وقيل المراد بالطاغوت الصنم وسميت
 طواغيت على سبيل المجاز لأنه لا فعل لها ، والطاغاة هم الذين يعبدونها إلا أنه لما حصل الطغيان
 عند مشاهدتها والقرب منها ، وصفت بهذه الصفة إطلاقاً لإسم المسبب على السبب بحسب الظاهر ،
 وقيل كل ما يعبد ويطاع من دون الله فهو طاغوت ، ويقال في التواريخ إن الأصل في عبادة
 الأصنام ، أن القوم كانوا مشبهة اعتقدوا في الإله أنه نور عظيم ، وفي الملائكة أنها أنوار مختلفة في
 الصغر والكبر ، فوضعوا تماثيل وصوراً على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل
 على اعتقاد أنهم يعبدون الله والملائكة ، وأقول حاصل الكلام في قوله (والذين اجتنبوا الطاغوت)
 أي أعرضوا عن عبودية كل ما سوى الله . قوله تعالى (وأنابوا إلى الله) أي رجعوا بالكلية إلى
 الله . ورأيت في السفر الخامس من التوراة ، أن الله تعالى قال لموسى : يا موسى أجب إلهك بكل قلبك .
 وأقول مادام يبقى في القلب التفات إلى غير الله فهو ما أجب إلهه بكل قلبه ، وإنما تحصل الإجابة
 بكل القلب إذا أعرض القلب عن كل ما سوى الله من باب الطاعات فكيف يعرض عنها مع

أنه بالحس يشاهد الأسباب المفضية إلى المسببات في هذا العالم ، قلنا ليس المراد من إعراض القلب عنها أن يقضى عليها بالعدم فان ذلك دخول في السفسطة وهو باطل ، بل المراد أن يعرف أن واجب الوجود لذاته واحد ، وأن كل ما سواه فإنه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكناً لذاته فإنه لا يوجد إلا بتكوين الواجب وإيجاده ، ثم إنه سبحانه وتعالى جعل تكوينه للأشياء على قسمين منها ما يكون بغير واسطة وهي عالم السموات والروحانيات ، ومنها ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم الأسفل ، فإذا عرفت الأشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله ومن الله وبالله ، وأنه لا مدبر إلا هو ولا مؤثر غيره ، وحينئذ ينقطع نظره عن هذه الممكنات ويبقى مشغول القلب بالمؤثر الأول والموجد الأول ، فإنه إن كان قد وضع الأسباب الروحانية والجسمانية بحيث يتأدى إلى هذا المطلوب ، فهذا الشيء يحصل وإن كان قد وضع بحيث لا يقضى إلى حصول هذا الشيء لم يحصل ، وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولا يبقى في قلبه التفات إلى شيء إلا إلى الموحود الأول ، وقد اتفق أنى كنت أنصح بعض الصبيان في حفظ العرض والمال فعارضنى وقال لا يجوز الاعتماد على الجهد والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره ، فقلت هذه كلمة حق سمعتها ولكنك ما عرفت معناها ، وذلك لأنه لا شبهة أن الكل من الله تعالى إلا أنه سبحانه دبر الأشياء على قسمين منها ما جعل حدوثه وحصوله معلقاً بأسباب معلومة ومنها ما يحدثه من غير واسطة هذه الأسباب .

(أما القسم الأول) فهو حوادث هذا العالم الأسفل .

(وأما القسم الثانى) فهو حوادث هذا العالم الأعلى ، وإذا ثبت هذا فنقول من طلب حوادث هذا العالم الأسفل لا من الأسباب التى عينها الله تعالى كان هذا الشخص منازعاً لله فى حكمته مخالفاً فى تدبيره ، فإن الله تعالى حكم بحدوث هذه الأشياء بناء على تلك الأسباب المعينة المعلومة وأنت تريد تحصيلها لا من تلك الأسباب ، فهذا هو الكلام فى تحقيق الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقوله تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت) إشارة إلى الإعراض عن غير الله وقوله تعالى (وأبوا إلى الله) إشارة إلى الإقبال بالكلية على عبادة الله ، ثم إنه تعالى وعد هؤلاء بأشياء (أحدها) قوله تعالى (لهم البشرى) واعلم أن هذه الكلمة تتعلق بجہات (أحدها) أن هذه البشارة متى تحصل ؟ فنقول إنها تحصل عند القرب من المرات وعند الوضع فى القبر وعند الوقوف فى عرصة القيامة وعند ما يصير فريق فى الجنة وفريق فى السعير وعند ما يدخل المؤمنون الجنة ، ففي كل موقف من هذه المواقف تحصل البشارة بنوع من الخير والروح والراحة والريحان (وثانيها) أن هذه البشارة فبماذا تحصل ؟ فنقول إن هذه البشارة تحصل بزوال المكروهات وبحصول المرادات ، أما زوال المكروهات فقوله تعالى (أن لا تخافوا ولا تحزنوا) والخوف إنما يكون من المستقبل والحزن إنما يكون بسبب الأحوال الماضية فقوله (أن

لا تخافوا) يعنى لا تخافوا فيما تستقبلونه من أحوال القيامة ولا تحزنوا بسبب ما فاتكم من خيرات الدنيا ، ولما أزال الله عنهم هذه المكروهات بشرهم بحصول الخيرات والسعادات فقال (وأبشروا بالجنة) وقال أيضاً فى آية أخرى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار) وقال أيضاً (وفيهما ما تشتهيہ النفس وتلد الأعين وأتم فيها خالدون) (والثالث) أن المبشر من هو؟ فنقول يحتمل أن يكون هم الملائكة ، إما عند الموت فقوله (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم) وإما بعد دخول الجنة فقوله (الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ويحتمل أن يكون هو الله سبحانه كما قال (تحيتهم يوم يلقونه سلام) .

واعلم أن قوله (لهم البشرى) فيه أنواع من التأكيدات (أحدها) أنه يفيد الحصر فقوله (لهم البشرى) أى لهم لا لغيرهم ، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى وأقبل بالكلية على الله تعالى (وثانيها) أن الألف واللام فى لفظ البشرى مفيد للماهية فيفيد أن هذه الماهية بتامها لهؤلاء ، ولم يبق منها نصيب لغيرهم (وثالثها) أن لافرق بين الإخبار وبين البشارة فالبشارة هو الخبر الأول بحصول الخيرات ، إذا عرفت هذا فنقول كل ما سمعوه فى الدنيا من أنواع الثواب والخير إذا سمعوه عند الموت أو فى القبر فذاك لا يكون إلا إخباراً ، فثبت أن هذه البشارة لا تتحقق إلا إذا حصل الإخبار بحصول أنواع آخر من السعادات فوق ما عرفوها وسمعوها فى الدنيا نسأل الله تعالى الفوز بها ، قال تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) (ورابعها) أن المخبر بقوله (لهم البشرى) هو الله تعالى وهو أعظم العظماء وأكمل الموجودات والشرط المعتبر فى حصول هذه البشارة شرط عظيم وهو الإجتنب عما سوى الله تعالى والإقبال بالكلية على الله والسلطان العظيم إذا ذكر شرطاً عظيماً . ثم قال لمن أتى بذلك الشرط العظيم أبشر فهذه البشارة الصادرة من السلطان العظيم المرتبة على حصول ذلك الشرط العظيم تدل على أن الذى وقعت البشارة به قد بلغ فى الكمال والرفعة إلى حيث لا يصل إلى شرحها العقول والأفكار ، فثبت أن قوله (لهم البشرى) يدل على نهاية الكمال والسعادة من هذه الوجوه والله أعلم .

(واعلم أنه تعالى) لما قال (لهم البشرى) وكان هذا كالمجمل أردفه بكلام يجرى مجرى التفسير والشرح له فقال تعالى (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وأراد بعباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم وهذا يدل على أن رأس السعادات ومركز الخيرات ومعدن الكرامات هو الإعراض عن غير الله تعالى ، والإقبال بالكلية على طاعة الله ، والمقصود من هذا اللفظ التنبيه على أن الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا ، هم الموصوفون بأنهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فوضع الظاهر موضع المضمرة تنبيهاً

على هذا الحرف ، ومنهم من قال إنه تعالى لما بين أن الذين اجتنبوا وأبوا لهم البشرى وكان ذلك درجة عالية لا يصل إليها إلا الأولون ، وقصر السعادة عليهم يقتضى الحرمان للأكثرين ، وذلك لا يليق بالرحمة التامة ، لا جرم جعل الحكم أعم فقال كل من اختار الأحسن في كل باب كان في زمرة السعداء ، واعلم أن هذه الآية تدل على فوائد :

(الفائدة الاولى) وجوب النظر والاستدلال ، وذلك لأنه تعالى بين أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة ، فإنه يختار منها ما هو الأحسن الأصوب ، ومن المعلوم أن تمييز الأحسن الأصوب عما سواه لا يحصل بالسمع ، لأن السماع صار قدراً مشتركاً بين الكل ، لأن قوله (الذين يستمعون القول) يدل على أن السماع قدر مشترك فيه ، فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسمع وإنما يتأتى بحجة العقل ، وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل وبناء الأمر على النظر والاستدلال .

(الفائدة الثانية) أن الطريق إلى تصحيح المذاهب والأديان قسمان (أحدهما) إقامة الحججة والبينة على صحته على سبيل التحصيل ، وذلك أمر لا يمكن تحصيله إلا بالخوض في كل واحد من المسائل على التفصيل (والثاني) أن قبل البحث عن الدلائل وتقريرها والشبهات وتزييفها نعرض تلك المذاهب وأضدادها على عقولنا ، فكل ما حكم أول العقل بأنه أفضل وأكمل كان أولى بالقبول . مثاله أن صريح العقل شاهد بأن الإقرار بأن إله العالم حي عالم قادر حلیم حكيم رحيم ، أولى من إنكار ذلك ، فكان ذلك المذهب أولى ، والإقرار بأن الله تعالى لا يجرى في ملكه وسلطانه إلا ما كان على وفق مشيئته أولى من القول بأن أكثر ما يجرى في سلطان الله على خلاف إرادته ، وأيضاً الإقرار بأن الله فرد أحد صمد منزه عن التركيب والأعضاء أولى من القول بكونه متبعضاً مؤلفاً ، وأيضاً القول باستغنائاه عن الزمان والمكان أولى من القول باحتياجه اليهما ، وأيضاً القول بأن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب أولى من القول بأنه لا يعفو عنه البتة ، وكل هذه الأبواب تدخل تحت قوله (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فهذا ما يتعلق باختيار الأحسن في أبواب الاعتقادات .

وأما ما يتعلق بأبواب التكاليف فهو على قسمين : منها ما يكون من أبواب العبادات ، ومنها ما يكون من أبواب المعاملات ، فأما العبادات فمثل قولنا الصلاة التي يذكر في تحريمها الله أكبر وتكون النية فيها مقاربة للتكبير ، ويقرأ فيها سورة الفاتحة ، ويؤتى فيها بالطمأنينة في المواقف الخمسة ، ويقرأ فيها التشهد ، ويخرج منها بقوله السلام عليكم ، فلا شك أنها أحسن من الصلاة التي لا يراعى فيها شيء من هذه الأحوال ، وتوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة ، وأن يترك ما سواها ، وكذلك القول في جميع أبواب العبادات . وأما المعاملات فكذلك مثل أنه تعالى شرع القصاص والدية والعفو ، ولكنه ندى إلى العفو فقال (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وعن ابن عباس

أن المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث فيه محاسن ومساوىء ، فيحدث بأحسن ما سمع ويترك ما سواه .

واعلم أنه تعالى حكم على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بأن قال (أولئك الذين هدام الله وأولئك هم أولوا الألباب) وفي ذلك دققة عجيبة ، وهي أن حصول الهداية في العقل والروح أمر حادث ، ولا بد له من فاعل وقابل . أما الفاعل فهو الله سبحانه وهو المراد من قوله (أولئك الذين هدام الله) وأما القابل فالإشارة بقوله (وأولئك هم أولوا الألباب) فإن الإنسان ما لم يكن عاقلاً كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحتمية في قلبه . وإنما قلنا إن الفاعل لهذه الهداية هو الله ، وذلك لأن جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحق والاعتقاد الباطل ، وإذا كان الشيء قابلاً للضدين كانت نسبة ذلك القابل إليهما على السوية ، ومتى كان الأمر كذلك امتنع كون ذلك القابل سبباً لرجحان أحد الطرفين ، ألا ترى أن الجسم لما كان قابلاً للحركة والسكون على السوية ، امتنع أن تصير ذات الجسم سبباً لرجحان أحد الطرفين على الآخر ، فإن قالوا لا نقول إن ذات النفس والعقل يوجب هذا الرجحان ، بل نقول إنه يريد تحصيل أحد الطرفين ، فتصير تلك الإرادة سبباً لذلك الرجحان ، فنقول هذا باطل ، لأن ذات النفس كما أنها قابلة لهذه الإرادة ، فكذلك ذات العقل قابلة لإرادة مضادة لتلك الإرادة ، فيمتنع كون جوهر النفس سبباً لتلك الإرادة ، فثبت أن حصول الهداية لا بد لها من فاعل ومن قابل (أما الفاعل) فيمتنع أن يكون هو النفس ، بل الفاعل هو الله تعالى (وأما القابل) فهو جوهر النفس ، فللهذا السبب قال (أولئك الذين هدام الله وأولئك هم أولوا الألباب) ثم قال (أفمن حق عليه العذاب أفأنت تنقذ من في النار) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) في لفظ الآية سؤال وهو أنه يقال إنه قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب) ولا يصح في الكلام العربي أن يدخل حرف الاستفهام على الإسم وعلى الخبر معاً ، فلا يقال أزيد أتقتله ، بل ههنا شيء آخر ، وهو أنه كما دخل حرف الاستفهام على الشرط وعلى الجزاء ، فكذلك دخل حرف الفاء عليهما معاً وهو قوله (أفمن حق) ، (أفأنت تنقذ) ولا أجل هذا السؤال اختلف النحويون وذكروا فيه وجوهاً (الأول) قال الكسائي : الآية جملتان والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب ، أفأنت تحميه ، أفأنت تنقذ من في النار (الثاني) قال صاحب الكشاف : أصل الكلام أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، وهي جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب والتقدير أنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هي الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع من في النار موضع الضمير ، والآية على هذا جملة واحدة (الثالث) لا يبعد أن يقال إن حرف الاستفهام إنما ورد ههنا لإفادة معنى الإنكار ، ولما كان استنكاره هذا

المعنى كاملاً تماماً . لا جرم ذكر هذا الحرف في الشرط وأعادته في الجزاء تنبيهاً على المبالغة التامة في ذلك الإنكار .

(المسألة الثانية) احتج الأصحاب بهذه الآية في مسألة الهدى والضلال ، وذلك لأنه تعالى قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب) فإذا حقت كلمة العذاب عليه امتنع منه فعل الإيمان والطاعة ، وإلا لزم انقلاب خبر الله الصدق كذباً ، وانقلاب عليه جهلاً وهو محال (والوجه الثاني) في الاستدلال بالآية أنه تعالى حكم بأن حقيقة كلمة العذاب توجب الاستنكار التام من صدور الإيمان والطاعة عنه ، ولو كان ذلك ممكناً ولم تكن حقيقة كلمة العذاب مانعة منه لم يبق لهذا الاستنكار والاستبعاد معنى .

(المسألة الثالثة) احتج القاضى بهذه الآية على أن النبي ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر ، قال لأنه حق عليهم العذاب فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى إنقاذهم من النار ، وأن الله تعالى حكم عليهم بالإنكار والاستبعاد ، فيقال له لا نسلم أن أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب وكيف يحق العذاب عليهم مع أن الله تعالى قال (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ومع قوله (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) والله أعلم .

(النوع الثاني) من الأشياء التي وعدها الله هؤلاء الذين اجتنبوا وأتابوا قوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية) وهذا كالمقابل لما ذكر في وصف الكفار (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) فإن قيل مامعنى قوله (مبنية) ؟ قلنا لأن المنزل إذا بنى على منزل آخر تحته كان الفوقانى أضعف بناء من التحتانى فقوله (مبنية) معناه أنه وإن كان فوق غيره لكنه في القوة والشدة مساو للمنزل الأسفل ، والحاصل أن المنزل الفوقانى والتحتانى حصل في كل واحد منهما فضيلة ومنقصة ، أما الفوقانى ففضيلته العلو والارتفاع ونقصانه الرخاوة والسخافة ، وأما التحتانى فبالضد منه ، أما منازل الجنة فإنها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهي عالية مرتفعة وتكون في غاية القوة والشدة ، وقال حكيم الإسلام هذه الغرف المبنية بعضها فوق البعض ، مثاله من الأحوال النفسانية العلوم الكسبية فإن بعضها يكون مبنياً على البعض والنتائج الآخرة التي هي عبارة عن معرفة ذات الله وصفاته تكون في غاية القوة بل تكون في القوة والشدة كالعلوم الأصلية البديهية .

ثم قال (تجرى من تحتها الأنهار) وذلك معلوم ، ثم ختم الكلام فقال (وعد الله لا يخلف الله الميعاد) فقوله (وعد الله) مصدر مؤكد لأن قوله (لهم غرف) في معنى وعدم الله ذلك وفي الآية دققة شريفة ، وهي أنه تعالى في كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله وأنه لا يخلف وعده ولم يذكر في آيات الوعيد البتة مثل هذا التأكيد والتقوية ، وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد بخلاف ما يقوله المعتزلة ، فإن قالوا أليس أنه قال في جانب الوعيد (ما يبديل

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ
 بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرِيهَ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ « ٢١ »

القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) قلنا قوله ما يبدل القول لدى ليس تصریحاً بجانب الوعيد بل هو
 كلام عام يتناول القسمين أعنى الوعد والوعيد ، فثبت أن الترجيح الذي ذكرناه حق والله أعلم .
 قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا
 مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾
 اعلم أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولى الألباب فيها وصف
 الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها ، وذلك أنه تعالى بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر وقيل
 كل ما كان في الأرض فهو من السماء ، ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه
 ينابيع في الأرض ، أى فيدخله وينظمه ينابيع في الأرض عيوناً ، ومسالك ومجاري كالعروق في
 الأجسام ، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ، أو مختلفاً
 أصنافه من بروشعير وسمسم ثم يهيج ، وذلك لأنه إذا تم جفافه جازله أن ينفصل عن منابته ، وإن
 لم تتفرق أجزاؤه ، فتلك الأجزاء كأنها هاجت لأن تتفرق ثم يصير حطاماً يابساً (إن في ذلك
 لذكرى) يعنى أن من شاهد هذه الأحوال في النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك
 وأنه وإن طال عمره فلا بد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون منحطم الأعضاء والأجزاء ،
 ثم تكون عاقبته الموت . فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال في النبات تذكره حصول مثل هذه
 الأحوال في نفسه وفي حياته ، فحينئذ تعظم نفرتة في الدنيا وطيباتها . والحاصل أنه تعالى في الآيات
 المتقدمة ذكر ما يقوى الرغبة في الآخرة ، وذكر في هذه الآية ما يقوى النفرة عن الدنيا ، فشرح
 صفات القيامة يقوى الرغبة في طاعة الله ، وشرح صفات الدنيا يقوى النفرة عن الدنيا ، وإنما
 قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا ، لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات ، والتنفير
 عن الدنيا مقصود بالعرض ، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض ، فهذا تمام الكلام في
 تفسير الآية ، بقى ههنا ما يتعلق بالبحث عن الألفاظ ، قال الواحدى : والينابيع جمع ينبوع وهو
 يفعل من نبع ينبع يقال نبع الماء ينبع وينبع وينبع ثلاث لغات ذكرها الكسائى والفراء ، وقوله
 (ينابيع) نعت بحذف الخافض لأن التقدير فسلكه في ينابيع ثم يهيج أى ينخضر ، والحطام ما يحف
 ويتفتت ويكسر من النبات .

أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية
 قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين «٢٢» الله نزل أحسن الحديث
 كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم
 وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فما له
 من هاد «٢٣» أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين
 ذوقوا ما كنتم تكسبون «٢٤» كذب الذين من قبلهم فاتيهم العذاب من
 حيث لا يشعرون «٢٥» فأذاقهم الله الحزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة
 أكبر لو كانوا يعلمون «٢٦» ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل
 لعلمهم يتذكرون «٢٧» قرء أنا عربياً غير ذى عوج لعلمهم يتقون «٢٨»

قوله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من
 ذكر الله أولئك في ضلال مبين ، الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود
 الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن
 يضل الله فما له من هاد ، أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم
 تكسبون ، كذب الذين من قبلهم فاتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فأذاقهم الله الحزى في
 الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل
 مثل لعلمهم يتذكرون ، قرء أنا عربياً غير ذى عوج لعلمهم يتقون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على
 طاعة الله تعالى ووجوب الإعراض عن الدنيا بين بعد ذلك أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل
 إلا إذا شرح الله الصدور ونور القلوب فقال (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه)
 واعلم أنا بالغنا في سورة الأنعام في تفسير قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)

في تفسير شرح الصدر وفي تفسير الهداية ، ولا بأس بإعادة كلام قليل ههنا ، فنقول إنه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة إلى الإلهيات عظيمة الرغبة في الاتصال بالروحانيات ، وبعضها نذلة كدرة خسيصة مائلة إلى الجسمانيات وفي هذا التفاوت أمر حاصل في جواهر النفوس البشرية ، والاستقرار يدل على أن الأمر كذلك ، إذا عرفت هذا فنقول المراد بشرح الصدر هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود في فطرة النفس ، وإذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلًا كفي خروج تلك الحالة من القوة إلى الفعل بأدنى سبب ، مثل الكبريت الذي يشتعل بأدنى نار ، أما إذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والأحوال الروحانية ، بل كانت مستغرقة في طلب الجسمانيات قليلة التأثير عن الأحوال المناسبة للإلهيات فكانت قاسية كدرة ظلمانية ، وكلما كان إيراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر كانت قسوتها وظلمتها أقل . إذا عرفت هذه القاعدة فنقول . أما شرح الصدر فهو ما ذكرناه ، وأما النور فهو عبارة عن الهداية والمعرفة ، ومالم يحصل شرح الصدر أولاً لم يحصل النور ثانياً ، وإذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الاتِّفَاع البتة بسماع الدلائل ، وربما صار سماع الدلائل سبباً لزيادة القسوة ولشدة النفرة فهذه أصول يقينية يجب أن تكون معلومة عند الإنسان حتى يمكنه الوقوف على معاني هذه الآيات ، أما استدلال أصحابنا في مسألة الجبر والقدر وكلام الخصوم عليه فقد تقدم هناك والله أعلم .

(المسألة الثانية) من محذوف الخبر كما في قوله (أمن هو قانت) والتقدير : أمن شرح الله صدره للإسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته ، والجواب متروك لأن الكلام المذكور دل عليه وهو قوله تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) .

(المسألة الثالثة) قوله (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) فيه سؤال ، وهو أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الإطمئنان كما قال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فكيف جعله في هذه الآية سبباً لحصول قسوة القلب ، والجواب أن نقول إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلى الطباع البهيمية والأخلاق الذميمة ، فإن سماعها لذكر الله يزيد قسوة وكدورة ، وتقرير هذا الكلام بالأمثلة فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه ، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح ، وقد نرى إنساناً واحداً يذكر كلاماً واحداً في مجلس واحد فيستطيعه واحد ويستكرهه غيره ، وما ذلك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس ، ومن اختلاف أحوال تلك النفوس ، ولما نزل قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب وإنسان آخر فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى (ثم أنشأناه خلقاً آخر) قال كل واحد منهم (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال رسول الله ﷺ

« اكتب فهكذا أنزلت » فازداد عمر إيماناً على إيمان وازداد ذلك الإنسان كفراً على كفر ، إذا عرفت هذا لم يبعد أيضاً أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية ، ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية ، إذا عرفت هذا فنقول إن رأس الأدوية التي تفيده الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله تعالى ، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله تعالى سبباً لازدياد مرضها كان مرض تلك النفس مرضاً لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت في نهاية الشر والرداءة ، فلهذا المعنى قال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين) وهذا كلام كامل محقق ، ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان ، والمقصود منه بيان أن القرآن لما كان موصوفاً بهذه الصفات ، ثم إنه في حق ذلك الإنسان صار سبباً لمزيد القسوة دل ذلك على أن جوهر تلك النفس قد بلغ في الرداءة والحساسة إلى أقصى الغايات ، فنقول إنه تعالى وصف القرآن بأنواع من صفات الكمال .

(الصفة الأولى) قوله تعالى (الله نزل أحسن الحديث) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه : (الأول) أنه تعالى وصفه بكونه حديثاً في هذه الآيات وفي آيات أخرى منها قوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله) ومنها قوله تعالى (أفبهذا الحديث أتم مدهنون) والحديث لا بد وأن يكون حادثاً ، قالوا بل الحديث أقوى في الدلالة على الحدوث من الحادث لأنه يصح أن يقال هذا حديث وليس بعتيق ، وهذا عتيق وليس بحادث ، فثبت أن الحديث هو الذي يكون قريب العهد بالحديث ، وسمى الحديث حديثاً لأنه مؤلف من الحروف والكلمات ، وتلك الحروف والكلمات تحدث حالا فخلاً وسائنة فساعة ، فهذا تمام تقرير هذا الوجه .

أما (الوجه الثاني) في بيان استدلال القوم أن قالوا : إنه تعالى وصفه بأنه نزل والمزل يكون في محل تصرف الغير . وما يكون كذلك فهو محدث وحادث .

وأما (الوجه الثالث) في بيان استدلال القوم أن قالوا : إن قوله أحسن الحديث يقتضي أن يكون هو من جنس سائر الأحاديث كما أن قوله زيد أفضل الإخوة يقتضي أن يكون زيد مشاركاً لأولئك الأقوام في صفة الأخوة ويكون من جنسهم ، فثبت أن القرآن من جنس سائر الأحاديث ، ولما كان سائر الأحاديث حادثة وجب أيضاً أن يكون القرآن حادثاً .

أما (الوجه الرابع) في الاستدلال أن قالوا : إنه تعالى وصفه بكونه كتاباً والكتاب مشتق من الكتابة وهي الاجتماع ، وهذا يدل على أنه مجموع جامع ومحل تصرف متصرف ، وذلك يدل على كونه محدثاً (والجواب) أن نقول نحمل هذا الدليل على الكلام المؤلف من الحروف والأصوات والألفاظ والعبارات ، وذلك الكلام عندنا محدث مخلوق والله أعلم .

(المسألة الثانية) كون القرآن أحسن الحديث ، إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه .

(القسم الأول) أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين : (الأول) أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة (الثاني) أن يكون بحسب النظم في الأسلوب ، وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر ، ولا من جنس الخطب . ولا من جنس الرسائل ، بل هو نوع يخالف الكل ، مع أن كل ذي طبع سليم يستطيعه ويستلذه .

(القسم الثاني) أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى ، وفيه وجوه : (الأول) أنه كتاب منزّه عن التناقض ، كما قال تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ومثل هذا الكتاب إذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات (الوجه الثاني) اشتماله على الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل (الوجه الثالث) أن العلوم الموجودة فيه كثيرة جداً . وضبط هذه العلوم أن نقول : العلوم النافعة هي ما ذكره الله في كتابه في قوله (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فهذا أحسن ضبط يمكن ذكره للعلوم النافعة .

(أما القسم الأول) وهو الإيمان بالله ، فاعلم أنه يشتمل على خمسة أقسام : معرفة الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء . أما معرفة الذات فهي أن يعلم وجود الله وقدمه وبقائه . وأما معرفة الصفات فهي نوعان :

(أحدهما) ما يجب تنزيهه عنه ، وهو كونه جوهرًا ومركبًا من الأعضاء والأجزاء وكونه مختصًا بحيز وجهة ، ويجب أن يعلم أن الألفاظ الدالة على التنزيه أربعة : ليس ولم وما ولا ، وهذه الأربعة المذكورة ، مذكورة في كتاب الله تعالى لبيان التنزيه .

أما كلمة ليس ، فقوله (ليس كمثل شيء) وأما كلمة لم ، فقوله (لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) وأما كلمة ما ، فقوله (وما كان ربك نسياً) ، (ما كان لله أن يتخذ من ولد) وأما كلمة لا ، فقوله تعالى (لا تأخذه سنة ولا نوم) ، (وهو يطعم ولا يطعم) ، (وهو يجير ولا يجار عليه) ، وقوله في سبعة وثلاثين موضعاً من القرآن (لا إله إلا الله) .

(وأما النوع الثاني) وهي الصفات التي يجب كونه موصوفاً بها من القرآن (فأولها) العلم بالله ، والعلم بكونه محدثاً خالقاً ، قال تعالى (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) (وثانيها) العلم بكونه قادراً ، قال تعالى في أول سورة القيامة (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) وقال في آخر هذه السورة (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) (وثالثها) العلم بكونه تعالى عالماً ، قال تعالى (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) (ورابعها) العلم بكونه عالماً بكل المعلومات ، قال تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) وقوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) (وخامسها) العلم

بكونه حياً ، قال تعالى (هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين) (وسادسها) العلم بكونه مريداً ، قال الله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) (وسابعها) كونه سمياً بصيراً ، قال تعالى (وهو السميع البصير) وقال تعالى (إنني معكما أسمع وأرى) (وثامنها) كونه متكلماً ، قال تعالى (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) (وتاسعها) كونه أمراً ، قال تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) (وعاشرها) كونه رحماناً رحيماً مالئاً ، قال تعالى (الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) فهذا ما يتعلق بمعرفة الصفات التي يجب اتصافه بها .

(وأما القسم الثالث) وهو الأفعال ، فاعلم أن الأفعال إما أرواح وإما أجسام . أما الأرواح فلا سبيل للوقوف عليها إلا للقليل ، كما قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وأما الأجسام ، فهي إما العالم الأعلى وإما العالم الأسفل . أما العالم الأعلى فالبحث فيه من وجوه (أحدها) البحث عن أحوال السموات ، و (ثانيها) البحث عن أحوال الشمس والقمر كما قال تعالى (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) و (ثالثها) البحث عن أحوال الأضواء ، قال الله تعالى (الله نور السموات والأرض) وقال تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) و (رابعها) البحث عن أحوال الظلال ، قال الله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً) و (خامسها) اختلاف الليل والنهار ، قال الله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) و (سادسها) منافع الكواكب ، قال تعالى (هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) و (سابعها) صفات الجنة ، قال تعالى (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) و (ثامنها) صفات النار ، قال تعالى (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) و (تاسعها) صفة العرش ، قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله) و (عاشرها) صفة الكرسي ، قال تعالى (وسع كرسيه السموات والأرض) و (حادي عشرها) صفة اللوح والقلم . أما اللوح ، فقوله تعالى (بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ) وأما القلم ، فقوله تعالى (ن والقلم وما يسطرون) .

وأما شرح أحوال العالم الأسفل (فأولها) الأرض ، وقد وصفها بصفات كثيرة (إحداهما) كونه مهدياً ، قال تعالى (الذي جعل لكم الأرض مهدياً) و (ثانيها) كونه مهدياً ، قال تعالى (ألم يجعل الأرض مهدياً) و (ثالثها) كونه كفاتاً ، قال تعالى (كفاتاً ، أحياء وأمواتاً) و (رابعها) الذلول ، قال تعالى (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً) و (خامسها) كونه بساطاً ، قال تعالى (والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً) و (ثامنها) البحر ، قال تعالى (وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً) و (ثالثها) الهواء والرياح ، قال تعالى

(وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته) وقال تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) و(رابعها) الآثار العلوية كالرعد والبرق ، قال تعالى (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) وقال تعالى (فترى الودق يخرج من خلاله) ومن هذا الباب ذكر الصواعق والأمطار وتراكم السحاب و(خامسها) أحوال الأشجار والثمار وأواعها وأصنافها ، و(سادسها) أحوال الحيوانات ، قال تعالى (وبث فيها من كل دابة) وقال (والأَنْعام خلقها لكم) و(سابعها) عجائب تكوين الإنسان في أول الخلق ، قال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) و(ثامنها) العجائب في سمعه وبصره ولسانه وعقله وفهمه و(تاسعها) تواريخ الأنبياء والملوك وأحوال الناس من أول خلق العالم إلى آخر قيام القيامة ، و(عاشرها) ذكر أحوال الناس عند الموت وبعث الموت ، وكيفية البعث والقيامة ، وشرح أحوال السعداء والأشقياء ، فقد أشرنا إلى عشرة أنواع من العلوم في عالم السموات ، وإلى عشرة أخرى في عالم العناصر ، والقرآن مشتمل على شرح هذه الأنواع من العلوم العالية الرفيعة .

(وأما القسم الرابع) وهو شرح أحكام الله تعالى وتكاليفه ، فنقول هذه التكاليف إما أن تحصل في أعمال القلوب أو في أعمال الجوارح .

(أما القسم الأول) فهو المسمى بعلم الأخلاق وبيان تمييز الأخلاق الفاضلة والأخلاق الفاسدة والقرآن يشتمل على كل ما لا بد منه في هذا الباب ، قال الله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) ، وقال (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین) .

(وأما الثاني) فهو التكاليف الحاصلة في أعمال الجوارح وهو المسمى بعلم الفقه والقرآن مشتمل على جملة أصول هذا العلم على أكمل الوجوه .

(وأما القسم الخامس) وهو معرفة أسماء الله تعالى فهو مذکور في قوله تعالى (والله الأسماء الحسنی فادعوه بها) فهذا كله يتعلق بمعرفة الله .

(وأما القسم الثاني) من الأصول المعتمدة في الإيمان الإقرار بالملائكة كما قال تعالى (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته) والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الإجمال وأخرى على طريق التفصيل ، أما بالإجمال فقوله (وملائكته) وأما بالتفصيل فمنها ما يدل على كونهم رسل الله قال تعالى (جاعل الملائكة رسلاً) ومنها أنها مدبرات لهذا العالم ، قال تعالى (فالمقسمات أمراً فإلمدبرات أمراً) وقال تعالى (والصفات صفاء) ومنها حملة العرش قال (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) ومنها الحافون حول العرش قال (ورى الملائكة حافين من حول العرش) ومنها خزنة النار قال تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد) ومنها الكرام الكاتبون قال (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين) ومنها المعقبات قال تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشیاطین

(وأما القسم الثالث) من الأصول المعتمدة في الإيمان معرفة الكتب والقرآن يشتمل على شرح أحوال كتاب آدم عليه السلام قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) ومنها أحوال صحف إبراهيم عليه السلام قال تعالى (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) ومنها أحوال التوراة والإنجيل والزبور .

(وأما القسم الرابع) من الأصول المعتمدة في الإيمان معرفة الرسل والله تعالى قد شرح أحوال البعض وأبهم أحوال الباقين قال (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) (القسم الخامس) ما يتعلق بأحوال المكلفين وهي على نوعين (الأول) أن يقرأوا بوجوب هذه التكاليف عليهم وهو المراد من قوله (وقالوا سمعنا وأطعنا) ، (الثاني) أن يعترفوا بصدور التقصير عنهم في تلك الأعمال ثم طلبوا المغفرة وهو المراد من قوله (غفرانك ربنا) ثم لما كانت مقادير رؤية التقصير في مواقف العبودية بحسب المكاشفات في مطالعة عزة الربوبية أكثر ، كانت المكاشفات في تقصير العبودية أكثر وكان قوله (غفرانك ربنا) أكثر .

(القسم السادس) معرفة المعاد والبعث والقيامة وهو المراد من قوله (وإليك المصير) وهذا هو الإشارة إلى معرفة المطالب المهمة في طلب الدين ، والقرآن بحر لانهاية له في تقرير هذه المطالب وتعريفها وشرحها ولا ترى في مشارق الأرض ومغاربها كتاباً يشتمل على جملة هذه العلوم كما يشتمل القرآن عليها . ومن تأمل في هذا التفسير علم أن ما لم نذكر من بحار فضائل القرآن إلا قطرة ، ولما كان الأمر على هذه الجملة ، لاجرم مدح الله عز وجل القرآن فقال تعالى (الله نزل أحسن الحديث) والله أعلم

(الصفة الثانية) من صفات القرآن قوله تعالى (كتاباً متشابهاً) أما الكتاب فقد فسرناه في قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وأما كونه متشابهاً فاعلم أن هذه الآية تدل على أن القرآن كله متشابه . وقوله (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) يدل على كون البعض متشابهاً دون البعض . وأما كونه كله متشابهاً كما في هذه الآية ، فقال ابن عباس معناه أنه يشبه بعضه بعضاً ، وأقول هذا التشابه يحصل في أمور (أحدها) أن الكاتب البليغ إذا كتب كتاباً طويلاً ، فإنه يكون بعض كلماته فصيحاً ، ويكون البعض غير فصيح ، والقرآن يخالف ذلك فإنه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه (وثانيها) أن الفصيح إذا كتب كتاباً في واقعة بالفاظ فصيحة فلو كتب كتاباً آخر في غير تلك الواقعة كان الغالب أن كلامه في الكتاب الثاني غير كلامه في الكتاب الأول ، والله تعالى حكى قصة موسى عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة في الفصاحة (وثالثها) أن كل ما فيه من الآيات والبيانات فإنه يقوى بعضها بعضاً ويؤكد بعضها بعضاً (ورابعها) أن هذه الأنواع الكثيرة من العلوم التي عددناها متشابهة متشاركة في أن المقصود منها بأسرها الدعوة إلى

الدين وتقرير عظمة الله ، ولذلك فأنك لا ترى قصة من القصص إلا ويكون محصلها المقصود الذي ذكرناه . فهذا هو المراد من كونه متشابهاً ، والله الهادي .

(الصفة الثالثة) من صفات القرآن كونه (مثنى) وقد بالغنا في تفسير هذه اللفظة عند قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من المثال) وبالجملة فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين مثل : الأمر والنهي ، والعام والخاص ، والمجمل والمفصل ، وأحوال السموات والأرض ، واللجنة والنار ، والظلمة والضوء ، واللوح والقلم ، والملائكة والشياطين ، والعرش والكرسي ، والوعد والوعيد ، والرجاء والخوف ، والمقصود منه بيان أن كل ما سوى الحق زوج ويدل على أن كل شيء مبتلي بضده ونقيضه وأن الفرد الأحد الحق هو الله سبحانه .

(الصفة الرابعة) من صفات القرآن قوله (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) معنى (تقشعر جلودهم) تأخذهم قشعريرة وهي تغير يحدث في جلد الإنسان عند الوجع والخوف ، قال المفسرون : والمعنى أنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان يحصل لهم الفرح فتلين قلوبهم إلى ذكر الله ، وأقول إن المحققين من العارفين قالوا : السائر في مبدأ جلال الله إن نظروا إلى عالم الجلال طاشوا ، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا ، ويجب علينا أن نذكر في هذا الباب مزيد شرح وتقرير ، فنقول الإنسان إذا تأمل في الدلائل الدالة على أنه يجب تزيه الله عن التحيز والجهة . فهنا يقشعر جلده ، لأن إثبات موجود لا داخل العالم ولا خارج ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم ، مما يصعب تصوره فهنا تقشعر الجلود ، أما إذا تأمل في الدلائل الدالة على أنه يجب أن يكون فرداً أحداً ، وثبت أن كل متحيز فهو منقسم فهنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله . وأيضاً إذا أراد أن يحيط عقله بمعنى الأزل فيتقدم في ذهنه بمقدار ألف سنة ثم يتقدم أيضاً بحسب كل لحظة من لحظات تلك المدة ألف سنة ، ولا يزال يحتال ويتقدم ويتخيل في الذهن ، فاذا بالغ وتوغل وظن أنه استحضر معنى الأزل قال العقل هذا ليس بشيء ، لأن كل ما استحضرت في فهمه المتناه والأزل هو الوجود المتقدم على هذه المدة المتناهية ، فهنا يتحير العقل ويقشعر الجلد ، وأما إذا ترك هذا الاعتبار وقال ههنا موجود والموجود إما واجب وإما ممكن ، فإن كان واجباً فهو دائماً منزّه عن الأول والآخِر وإن كان ممكناً فهو محتاج إلى الواجب فيكون أزلياً أبدياً ، فإذا اعتبر العقل فهم معنى الأزلية فهنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله ، فثبت أن المقامين المذكورين في الآية لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب وآية الرحمة ، بل ذلك أول تلك المراتب وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر في حصول تلك الحاليتين المذكورتين .

(المسألة الثانية) روى الواحدى في البسيط عن قتادة أنه قال : القرآن دل على أن أولياء

الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات ، تارة تقشعر جلودهم وأخرى تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . وليس فيه أن عقولهم تزول وأن أعضاءهم تضطرب ، فدل هذا على أن تلك الأحوال لو حصلت لكانت من الشيطان ، وأقول ههنا بحث آخر وهو أن الشيخ أبانحامد الغزالي أورد مسألة في كتاب إحياء علوم الدين ، وهي أنا نرى كثيراً من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الآيات المشتملة على شرح الوصل والهجر ، وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شيء من هذه الأحوال ، ثم إنه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه كثيرة ، وأنا أقول : إنني خلقت محروماً عن هذا المعنى ، فإني كلما تأملت في أسرار القرآن اقشعر جلدي وقف على شعري وحصلت في قلبي دهشة وروعاً ، وكلما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل على وما وجدت البتة في نفسي منها أثراً ، وأظن أن المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا ، وبيانه من وجوه (الأول) أن تلك الأشعار كلمات مشتملة على وصل وهجر وبغض وحب تليق بالخلق ، وإثباته في حق الله تعالى كبر ، وأما الانتقال من تلك الأحوال إلى معان لا ثقة بجلال الله فلا يصل إليها إلا العلماء الراسخون في العلم ، وأما المعاني التي يشتمل عليها القرآن فهي أحوال لا ثقة بجلال الله ، فمن وقف عليها عظم الوله في قلبه ، فإن من كان عنده نور الإيمان وجب أن يعظم اضطرابه عند سماع قوله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) إلى آخر الآية (والثاني) وهو أني سمعت بعض المشايخ قال كما أن الكلام له أثر فكذلك صدور ذلك الكلام من القائل المعين له أثر ، لأن قوة نفس القائل تعين على نفاذ الكلام في الروح ، والقائل في القرآن هنا هو الله بواسطة جبريل بتبليغ الرسول المعصوم ، والقائل هناك شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور (والثالث) أن مدار القرآن على الدعوة إلى الحق قال تعالى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض) وأما الشعر فمداره على الباطل قال تعالى (والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فهذه الوجوه الثلاثة فروق ظاهرة ، وأما ما يتعلق بالوجدان من النفس فإن كل أحد إنما يخبر عما يجده من نفسه والذي وجدته من النفس والعقل ما ذكرته والله أعلم .

(المسألة الثالثة) في بيان ما بقي من المشكلات في هذه الآية ونذكرها في معرض

السؤال والجواب .

(السؤال الأول) كيف تركيب لفظ القشعريرة (الجواب) قال صاحب الكشاف

تركيبه من حروف التقشع وهو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعياً ودالاً على معنى زائد يقال : اقشعر جلده من الخوف وقف شعره ، وذلك مثل في شدة الخوف .

(السؤال الثاني) كيف قال (تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) وما الوجه في تعديده

بمخرف إلى ؟ (والجواب) التقدير تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها إلى حضرة الله وهو لا يحس بالإدراك .

(السؤال الثالث) لم قال إلى ذكر الله ولم يقل إلى ذكر رحمة الله ؟ (والجواب) أن من أحب الله لأجل رحمته فهو ما أحب الله ، وإنما أحب شيئاً غيره ، وأما من أحب الله لا لشيء سواه فهذا هو المحب الحق وهو الدرجة العالية ، فلهذا السبب لم يقل ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر رحمة الله بل قال إلى ذكر الله ، وقد بين الله تعالى هذا المعنى في قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) وفي قوله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وأيضاً قال لآمة موسى (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) وقال أيضاً لآمة محمد صلى الله عليه وسلم (فاذكروني أذكركم) .

(السؤال الرابع) لم قال في جانب الخوف قشعريرة الجلود فقط ، وفي جانب الرجاء لين الجلود والقلوب معاً ؟ (والجواب) لأن المكاشفة في مقام الرجاء أكمل منها في مقام الخوف ، لأن الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ومحل المكاشفات هو القلوب والأرواح والله أعلم ثم إنه تعالى لما وصف القرآن بهذه الصفات قال (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) فقوله (ذلك) إشارة إلى الكتاب وهو هدى الله يهدي به من يشاء من عباده وهو الذي شرح صدره أولاً لقبول هذه الهداية (ومن يضلل الله) أي من جعل قلبه قاسياً مظلماً بايد الفهم منافياً لقبول هذه الهداية (فما له من هاد) واستدلال أصحابنا بهذه الآية وسؤالات المعتزلة وجوابات أصحابنا عين ما تقدم في قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

أما قوله تعالى (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) فاعلم أنه تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا وبحكم في الآخرة ، أما حكمهم في الدنيا فهو الضلال التام كما قال (ومن يضلل الله فما له من هاد) وأما حكمهم في الآخرة فهو العذاب الشديد وهو المراد من قوله (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) وتقريره أن أشرف الأعضاء هو الوجه لأنه محل الحسن والصباحة ، وهو أيضاً صومعة الخواس ، وإنما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه ، وأثر السعادة والشقاوة لا يظهر إلا في الوجه قال تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ، صاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة) ويقال لمقدم القوم يا وجه العرب ، ويقال للطريق الدال على كنه حال الشيء وجه كذا هو كذا ، فثبت بما ذكرنا أن أشرف الأعضاء هو الوجه ، فإذا وقع الإنسان في نوع من أنواع العذاب فانه يجعل يده وقاية لوجهه وفداء له ، وإذا عرفت هذا فنقول : إذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ما سوى الوجه فداء للوجه لا جرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء ، ونظيره قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب

أى لا عيب فيهم إلا هذا وهو ليس بعيب فلا عيب فيهم إذن بوجه من الوجوه ، فكذا ههنا لا يقدر على الاتقاء بوجه من الوجوه إلا بالوجه وهذا ليس باتقاء ، فلا قدرة لهم على الاتقاء البتة ، ويقال أيضاً إن الذى يلقي فى النار يلقي مغلولة يده إلى عنقه ولا يتهاى له أن يتقى النار إلا بوجهه ، إذا عرفت هذا فنقول : جواهه محذوف وتقديره أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف فى نظائره . وسوء العذاب شدته .

ثم قال تعالى (وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون) ولما بين الله تعالى كيفية عذاب القاسية قلوبهم فى الآخرة بين أيضاً كيفية وقوعهم فى العذاب فى الدنيا فقال (كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) وهذا تنبيه على حال هؤلاء لأن الفاء فى قوله (فأتاهم العذاب) تدل على أنهم إنما أتاهم العذاب بسبب التكذيب ، فاذا كان التكذيب حاصلها ههنا لزم حصول العذاب استدلالاً بالعلة على المعلول ، وقوله (من حيث لا يشعرون) أى من الجهة التى لا يحسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتهم منها ، بينما هم آمنون إذ أتاهم العذاب من الجهة التى توقعوا الأمن منها ، ولما بين أنه أتاهم العذاب فى الدنيا بين أيضاً أنه أتاهم الخزي وهو الذل والصغار والهوان ، والفائدة فى ذكر هذا القيد أن العذاب التام هو أن يحصل فيه الألم مقروناً بالهوان والذل .

ثم قال (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) يعنى أن أولئك وإن نزل عليهم العذاب والخزي كما تقدم ذكره ، فالعذاب المدخر لهم فى يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذى وقع . والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب ، فلما ذكر الله تعالى هذه الفوائد المتكاثرة والنفائس المتوافرة فى هذه المطالب ، بين تعالى أنه بلغت هذه البيانات إلى حد الكمال والتمام فقال (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون) والمقصود ظاهر ، وقالت المعتزلة دلت الآية على أن أفعال الله وأحكامه معللة ، ودلت أيضاً على أنه يريد الإيمان والمعرفة من الكل لأن قوله (ولقد ضربنا للناس) مشعر بالتعليل ، وقوله فى آخر الآية (لعلمهم يتذكرون) مشعر بالتعليل أيضاً ، ومشعر بأن المقصود من ضرب هذه الأمثال إرادة حصول التذكر والعلم ، ولما كانت هذه البيانات النافعة والبيانات الباهرة موجودة فى القرآن ، لا جرم وصف القرآن بالمدح والثناء ، فقال (قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلمهم يتقون) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه (الأولى) أن قوله (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون) يدل على أنه تعالى إنما ذكر هذه الأمثال ليحصل لهم التذكر ، والشئ الذى يؤتى به لغرض آخر يكون محدثاً ، فان القديم هو الذى يكون موجوداً فى الأزل ، وهذا يمتنع أن يقال إنه إنما أتى به لغرض كذا وكذا ،

ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «۳۰» إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ
«۳۱» ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ «۳۲» فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ
عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ «۳۳»

(والثاني) أنه وصفه بكونه عربياً وإنما كان عربياً لأن هذه الألفاظ إنما صارت دالة على هذه المعاني بوضع العرب وباصطلاحهم، وما كان حصوله بسبب أوضاع العرب واصطلاحاتهم كان مخلوقاً محدثاً (الثالث) أنه وصفه بكونه قرآناً والقرآن عبارة عن القراءة والقراءة مصدر والمصدر هو المفعول المطلق فكان فعلاً ومفعولاً (والجواب) أنا نحمل كل هذه الوجوه على الحروف والأصوات وهي حادثة ومحدثة،

(المسألة الثانية) قال الزجاج قوله (عربياً) منصوب على الحال والمعنى ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عربيته وبيانه ويجوز أن ينتصب على المدح .

(المسألة الثالثة) أنه تعالى وصفه بصفات ثلاثة (أولها) كونه قرآناً، والمراد كونه متلواً في المحاريب إلى قيام القيامة، كما قال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، (وثانيتها) كونه عربياً والمراد أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وثالثها) كونه (غير ذي عوج) والمراد برامته عن التناقض، كما قال (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وأما قوله (لعلمهم يتقون) فالمعزلة يتمسكون به في تعليل أحكام الله تعالى .

(وفيه بحث آخر) وهو أنه تعالى قال في الآية الأولى (لعلمهم يتذكرون) وقال في هذه الآية (لعلمهم يتقون) والسبب فيه أن التذكير متقدم على الاتقاء، لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فخاؤه وأحاط بمعناه، حصل الاتقاء والاختراز والله أعلم .

قوله تعالى (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلباً لرجل، هل يستويان مثلاً؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون، إنك ميت وإنهم ميتون، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون، فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين) اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل ما يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقته فقال (ضرب الله مثلاً) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) المتشاكسون المختلفون العسرون يقال شكس يشكس شكوساً وشكساً إذا عسر ، وهو رجل شكس . أى عسر وتشاكس إذا تعاسر ، قال الليث : التشاكس التنازع والاختلاف ، ويقال الليل والنهار متشاكسان ، أى أنهما متضادان إذا جاء أحدهما ذهب الآخر ، وقوله فيه صلة شركاء كما تقول اشركوا فيه .

(المسألة الثانية) قرأ ابن كثير وأبو عمرو سالماً بالألف وكسر اللام يقال سلم فهو سالم والباقون سلمياً بفتح السين واللام بغير الألف ، ويقال أيضاً بفتح السين وكسرها مع سكون العين أما من قرأ سالماً فهو اسم الفاعل تقدير مسلم فهو سالم ، وأما سائر القراءات فهي مصادر سلم والمعنى ذا سلامة ، وقوله (لرجل) أى ذا خلوص له من الشركة من قولهم : سلمت له الضيعة ، وقرئ بالرفع على الابتداء أى وهناك رجل سالم لرجل .

(المسألة الثالثة) تقدير الكلام : اضرب لقومك مثلاً وقل لهم ما يقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع ، كل واحد منهم يدعى أنه جده فهم يتجادبون في حوائجهم وهو متحير في أمره ، فكما أرضى أحدهم غضب الباقيون ، وإذا احتاج في مهم إليهم فكل واحد منهم يرده إلى الآخر ، فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه ، وأيهم يعينه في حاجاته ، فهو بهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم ، ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص ، وذلك المخدوم يعينه على مهماته ، فأى هذين العبدین أحسن حالاً وأحمد شأنياً ، والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى ، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغلبة ، كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقال (ولعلا بعضهم على بعض) فيبقى ذلك المشرك متحيراً ضالاً ، لا يدري أى هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد ، ومن يطلب رزقه ، ومن يلتمس رفقته ، فهمه شفاع ، وقلبه أوزاع . أما من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما استخطه . فكان حال هذا أقرب إلى الصلاح من حال الأول ، وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقييح الشرك وتحسين التوحيد ، فإن قيل : هذا المثال لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنها جمادات ، فليس بينها منازعة ولا مشاكسة ، قلنا إن عبدة الأصنام مختلفون منهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة ، فهم في الحقيقة إنما يعبدون الكواكب السبعة ، ثم إن القوم يثنون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة ، ألا ترى أنهم يقولون زحل هو النحاس الأعظم ، والمشتري هو السعد الأعظم ، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأرواح الفلكية ، والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الأرواح السماوية ، وحينئذ يحصل بين تلك الأرواح منازعة ومشاكسة ، وحينئذ يكون المثل مطابقاً ، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأشخاص من العلماء والزهاد الذين مضوا ، فهم يعبدون هذه التماثيل لتصير أولئك الأشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله ، والقائلون

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ
عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جِزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾ لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ
أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ

بهذا القول تزعم كل طائفة منهم أن المحق هو ذلك الرجل الذي هو على دينه ، وأن من سواه مبطل ، وعلى هذا التقدير أيضاً ينطبق المثال ، فثبت أن هذا المثال مطابق للمقصود .
أما قوله تعالى (هل يستويان مثلاً) فالتقدير هل يستويان صفة ، فقوله (مثلاً) نصب على التمييز ، والمعنى هل تستوي صفتاهما وحالتاهما ، وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ مثلين ، ثم قال (الحمد لله) والمعنى أنه لما بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الحق ، ثبت أن الحمد له لا لغيره ، ثم قال بعده (بل أكثرهم لا يعلمون) أى لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره ، وأن المستحق للعبادة هو الله لا غيره ، وقيل المراد أنه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة والبيئات الباهرة ، قال الحمد لله على حصول هذه البيئات وظهور هذه البيئات ، وإن كان أكثر الخلق لم يعرفوها ولم يقفوا عليها ، ولما تم الله هذه البيئات قال (إنك ميت وإنهم ميتون) والمراد أن هؤلاء الأقسام وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم في الدنيا ، فلا تبال يا محمد بهذا فإنك ستموت وهم أيضاً سيموتون ، ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى ، والعاقل الحق يحكم بينكم فيوصل إلى كل واحد ما هو حقه ، وحينئذ يتميز المحق من المبطل ، والصدق من الزنديق ، فهذا هو المقصود من الآية ، وقوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) أى إنك وإياهم ، وإن كنتم أحياء فإنك وإياهم في أعداد الموتى ، لأن كل ما هو آت آت ، ثم بين تعالى نوعاً آخر من قبائح أفعالهم ، وهو أنهم يكذبون ويضمون إليه أنهم يكذبون القائل المحق . أما أنهم يكذبون ، فهو أنهم أثبتوا لله ولداً وشركاء . وأما أنهم مصرّون على تكذيب الصادقين ، فلأنهم يكذبون محمداً ﷺ بعد قيام الدلالة القاطعة على كونه صادقاً في ادعاء النبوة ، ثم أردفه بالوعيد فقال (أليس في جهنم مثوى للكافرين) ومن الناس من تمسك بهذه الآية في تكفير المخالف من أهل القبلة ، وذلك لأن المخالف في المسائل القطعية كلها يكون كاذباً في قوله ، ويكون مكذباً للذهب الذي هو الحق ، فوجب دخوله تحت هذا الوعيد .

قوله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا

بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٨﴾

يعملون ، أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴿

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين والمكذابين للصادقين ذكر عقبيه وعد الصادقين ووعد المصدقين ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (والذي جاء بالصدق وصدق به) تقديره : والذي جاء بالصدق والذي صدق به ، وفيه قولان (الأول) أن المراد شخص واحد فالذي جاء بالصدق محمد ، والذي صدق به هو أبو بكر ، وهذا القول مروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضى الله عنهم (والثاني) أن المراد منه كل من جاء بالصدق ، فالذي جاء بالصدق الأنبياء ، والذي صدق به الاتباع ، واحتج القائلون بهذا القول بأن الذي جاء بالصدق جماعة وإلا لم يجز أن يقال (أولئك هم المتقون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن الرسالة لا تتم إلا بأركان أربعة : المرسل والمرسل والرسالة والمرسل إليه ، والمقصود من الإرسال إقدام المرسل إليه على القبول والتصديق ، فأول شخص أتى بالتصديق هو الذي يتم به الإرسال ، وسمعت بعض القاصين من الذي يروى عن النبي ﷺ أنه قال « دعوا أبا بكر فإنه من تنمة النبوة » .

واعلم أنا سواء قلنا المراد بالذي صدق به شخص معين ، أو قلنا المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، فإن أبا بكر داخل فيه .

(أما على التقدير الأول) فدخول أبي بكر فيه ظاهر ، وذلك لأن هذا يتناول أسبق الناس إلى التصديق ، وأجمعوا على أن الأسبق الأفضل إما أبو بكر وإما علي ، وحمل هذا اللفظ على أبي بكر أولى ، لأن علياً عليه السلام كان وقت البعثة صغيراً ، فكان كالولد الصغير الذي يكون في البيت ، ومعلوم أن إقدامه على التصديق لا يفيد مزيد قوة وشوكة . أما أبو بكر فإنه كان رجلاً كبيراً في السن كبيراً في المنصب ، فإقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة في الإسلام ، فكان حمل هذا اللفظ على أبي بكر أولى .

(وأما على التقدير الثاني) فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وعلى هذا التقدير يكون أبو بكر داخل فيه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء وصدق بالتخفيف أى صدق به الناس ، ولم

يكذبهم يعني أداء إليهم كما نزل عليه من غير تحريف ، وقيل صار صادقاً به أي بسببه ، لأن القرآن معجزة ، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح فيصير المدعى للرسالة صادقاً بسبب تلك المعجزة وقرئ . وصدق

واعلم أنه تعالى أثبت للذي جاء بالصدق وصدق به أحكاماً كثيرة .

(فالحكم الأول) قوله (أولئك هم المتقون) وتقريره أن التوحيد والشرك ضدان ، وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثاني أخس وأرذل ، ولما كان التوحيد أشرف الأسماء كان الشرك أخس الأشياء ، والآتي بأحد الضدين يكون تاركاً للضد الثاني ، فالآتي بالتوحيد الذي هو أفضل الأشياء يكون تاركاً للشرك الذي هو أخس الأشياء وأرذلها ، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين .

(الحكم الثاني) للمصدقين قوله تعالى (لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) ، وهذا الوعد يدخل فيه كل ما يرغب المكلف فيه ، فإن قيل لاشك أن الكمال محبوب لذاته مرغوب فيه لذاته ، وأهل الجنة لاشك أنهم عقلاء فإذا شاهدوا الدرجات العالية التي هي للأنبياء وأكابر الأولياء عرفوا أنها خيرات عالية ودرجات كاملة ، والعلم بالشئ من حيث إنه كمال ، وخير يوجب الميل إليه والرغبة فيه ، وإذا كان كذلك فهم يشاءون حصول تلك الدرجات لأنفسهم فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية ، وأيضاً فإن لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا في الغصة ووحشة القلب ، وأجيب عنه بأن الله تعالى يزيل الحقد والحسد عن قلوب أهل الآخرة ، وذلك يقتضي أن أحوالهم في الآخرة بخلاف أحوالهم في الدنيا ، ومن الناس من تمسك بهذه الآية في أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة ، قالوا إن الذين يعتقدون أنهم يرون الله تعالى لاشك أنهم داخلون تحت قوله تعالى (وصدق به) لأنهم صدقوا الأنبياء عليهم السلام ، ثم إن ذلك الشخص يريد رؤية الله تعالى فوجب أن يحصل له ذلك لقوله تعالى (لهم ما يشاءون عند ربهم) فان قالوا لا نسلم أن أهل الجنة يشاءون ذلك ، قلنا هذا باطل لأن الرؤية أعظم وجوه التجلي وزوال الحجاب ، ولا شك أنها حالة مطلوبة لكل أحد نظراً إلى هذا الاعتبار ، بل لو ثبت بالدليل كون هذا المطلوب ممتنع الوجود لعينه فإنه يترك طلبه ، لا لأجل عدم مقتضى الطلب ، بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعاً في نفسه ، فثبت أن هذه الشبهة قائمة والنص يقتضي حصول كل ما أرادوه وشاءوه فوجب حصولها .

واعلم أن قوله (عند ربهم) لا يفيد العندية بمعنى الجهة والمكان بل بمعنى الصمدية والإخلاص كما في قوله تعالى (عند مليك مقتدر) واعلم أن المعتزلة تمسكوا بقوله (وذلك جزاء المحسنين) على أن هذا الأجر مستحق لهم على إحسانهم في العبادات .

(الحكم الثالث) قوله تعالى (ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) فقوله (لهم ما يشاءون عند ربهم) يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه

وقوله (ليكفر الله عنهم) يدل على سقوط العقاب عنهم على أكل الوجوه ، فقيل المراد أنهم إذا صدقوا الأنبياء عليهم فيما أوتوا فإن الله يكفر عنهم أسوأ أعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الإيمان ، ويوصل إليهم أحسن أنواع الثواب ، وقال مقاتل يجزيهم بالمحسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوي ، واعلم أن مقاتلا كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لا يضر شيء من المعاصي مع الإيمان ، كما لا ينفع شيء من الطاعات مع الكفر ، واحتج بهذه الآية فقال إنها تدل على أن من صدق الأنبياء والرسل فإنه تعالى يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ، ولا يجوز حمل هذا الأسوأ على الكفر السابق ، لأن الظاهر من الآية يدل على أن التكفير إنما حصل في حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر التي يأتي بها بعد الإيمان ، فتكون هذه الآية تنصيهاً على أنه تعالى يكفر عنهم بعد إيمانهم أسوأ ما يأتون به وذلك هو الكبائر .

(الحكم الرابع) أنه جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك في النفوس والأمر كذلك ، لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غني عن كل الحاجات فهو تعالى عالم حاجات العباد وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات ، وهو ليس بخيلاً ولا محتاجاً حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد ، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات ، فلماذا قال (أليس الله بكاف عبده) ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال (ويخوفونك بالذين من دونه) يعني لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثاً وباطلاً ، قرأ أكثر القراء عبده بلفظ الواحد وهو اختيار أبي عبيدة لأنه قال له (ويخوفونك) روى أن قريشاً قالت للنبي ﷺ إنا نخاف أن تخيلك آلهتنا ، فأزل الله تعالى هذه الآية ، وقرأ جماعة (عباده) بلفظ الجمع قيل المراد بالعباد الأنبياء فإن نوحاً كفاه الغرق ، وإبراهيم النار ، ويونس بالإنجاء مما وقع له ، فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك ، وقيل أمم الأنبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى (وهمت كل أمة برسولهم) وكفاهم الله شر من عاداهم .

واعلم أنه تعالى لما أظنب في شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هي الفصل الحق فقال (ومن يضل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل) يعني هذا الفضل لا ينفع والبيئات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله (أليس الله بعزير ذي ذي انتقام) تهديد للكفار .

واعلم أن أصحابنا يتمسكون في مسألة خلق الأعمال وإرادة الكائنات بقوله (ومن يضل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل) والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي
بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ «٣٦» قُلْ
يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَاتِبَكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ «٤٠» مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ «٤١»

على صحة مذهبهم في هاتين المسألتين بقوله (أليس الله بعزيز ذي انتقام) ولو كان الخالق للكفر
فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به .

قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل أفرايتم ماندعون من
دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته . قل
حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ، قل يا قوم اعملوا على مكاتبتكم إنى عامل فسوف تعلمون ، من يأتيه
عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أطنب في وعيد المشركين وفي وعد الموحدين ، عاد إلى إقامة الدليل على
تزييف طريقة عبدة الأصنام ، وبني هذا التزييف على أصلين :

(الأصل الأول) هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم
وهو المراد بقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) واعلم أن من الناس
من قال إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم
فيه ، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض وفي
عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة
والمصالح العجيبة ، علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم .

(والأصل الثاني) أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله (قل أفرايتم
ماندعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات
رحمته) فثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم ، وثبت أن هذه الأصنام
لا قدرة لها على الخير والشر ، وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية ، وكان الاعتماد عليه كافياً
وهو المراد من قوله (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ
فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤٢﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا
وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسْكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ
أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
شُفَعَاءَ قُلُوبًا أُولَئِكَ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ
جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٥﴾

إلى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) وقرىء (كاشفات ضره ، و ممسكات رحمته) بالتنوين على الاصل وبالإضافة للتخفيف ، فإن قيل كيف قوله (كاشفات) و (ممسكات) على التانيث بعد قوله (ويخوفونك بالذين من دونه) ؟ قلنا المقصود التنبيه على كمال ضعفها فإن الأنوثة مظنة الضعف ولأنهم كانوا يصفونها بالتانيث ويقولون اللات والعزى ومناة ، ولما أورد الله عليهم هذه الحججة التي لا دفع لها قال بعده على وجه التهديد (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم) أى أنتم تعتقدون فى أنفسكم أنكم فى نهاية القوة والشدة فاجتهدوا فى أنواع مكرم وكيدكم ، فإنى عامل أيضاً فى تقرير دينى (فسوف تعلمون) أن العذاب والحزى يصيبنى أو يصيبكم والمقصود منه التخويف .

قوله تعالى ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فأنا يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ، الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن النبي ﷺ كان يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا) وقال (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وقال تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فلما أطب الله تعالى فى هذه الآية فى فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبيانات وتارة بضرب الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد أردفه بكلام يزيل

ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول ﷺ فقال (إنا أنزلنا عليك الكتاب) الكامل الشريف لنفخ الناس ولاهتدائهم به وجعلنا إنزاله مقروناً بالحق وهو المعجز الذي يدل على أنه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود إليه ، ومن ضل فضير ضلاله يعود إليه (وما أنت عليهم بوكيل) والمعنى أنك لست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض إليهم ، وذلك لتسليّة الرسول في إصرارهم على الكفر ، ثم بين تعالى أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، وذلك لأن الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم ، وكما أن الحياة واليقظة وكذلك الموت والنوم لا يحصلان إلا بتخليق الله عز وجل وإيجاده فكذلك الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى في القدر ، ومن عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب ، فيصير التنبيه على هذه الدقيقة سبباً لزوال ذلك الحزن عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا وجه النظم في الآية ، وقيل نظم الآية أنه تعالى ذكر حجة أخرى في إثبات أنه الإله العالم ليدل على أنه بالعبادة أحق من هذه الأصنام .

(المسألة الثانية) المقصود من الآية أنه تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم إلا أنه يمسك الأنفس التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى وهي النائمة إلى أجل مسمى أى إلى وقت ضربه لموتها فقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) يعنى أنه تعالى يتوفى الأنفس التي يتوفاها عند الموت يمسكها ولا يردها إلى البدن وقوله (ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) يعنى أن النفس التي يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة إلى أجل مسمى ، وذلك الأجل هو وقت الموت فهذا تفسير لفظ الآية وهي مطابقة للحقيقة ، ولكن لا بد فيه من مزيد بيان ، فنقول النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء وهو الحياة ، فنقول إنه في وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت ، وأما في وقت النوم فإنه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن ، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه ، وإذا ثبت هذا ظهر أن القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه (أحدها) أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك اليقظة (وثانيها) أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم (وثالثها) أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت فثبت أن الموت والنوم يشتركان في كون كل واحد منهما توفياً للنفس ، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة في صفات معينة ، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم ، وهو المراد من قوله (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ويحتمل أن يكون المراد بهذا أن الدليل يدل على أن الواجب على العاقل أن يعبد إلهاً موصوفاً بهذه القدرة وبهذه الحكمة

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ
الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٦﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٧﴾

وأن لا يعبد الأوثان التي هي جمادات لا شعور لها ولا إدراك ، واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالاً ، فقالوا نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين ، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكبر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال (أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون) وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها (والأول) باطل لأن هذه الجمادات وهي الأصنام لا تملك شيئاً ولا تعقل شيئاً فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها (والثاني) باطل لأن في يوم القيامة لا يملك أحد شيئاً ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله ، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذي يأذن في تلك الشفاعة ، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) ثم بين أنه لا ملك لأحد غير الله بقوله (له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون) ومنهم من تمسك في نفي الشفاعة مطلقاً بقوله تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) وهذا ضعيف لأننا نسلم أنه سبحانه مالم يأذن في الشفاعة لم يقدر أحد على الشفاعة ، فان قيل قوله (الله يتوفى الأنفس حين موتها) فيه سؤال لأن هذا يدل على أن المتوفى هو الله فقط ، وتأكد هذا بقوله (الذي خلق الموت والحياة) وبقوله (ربى الذى يحيى ويميت) وبقوله (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) ثم إن الله تعالى قال في آية أخرى (قل يتوفاكم ملك الموت) وقال في آية ثالثة (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) وجوابه أن المتوفى في الحقيقة هو الله ، إلا أنه تعالى فوض في عالم الأسباب كل نوع من أنواع الأعمال إلى ملك من الملائكة ، ففوض قبض الأرواح إلى ملك الموت وهو رئيس وتحتة أتباع وخدم فأضيف التوفى في هذه الآية إلى الله تعالى بالإضافة الحقيقية ، وفي الآية الثانية إلى ملك الموت لأنه هو الرئيس في هذا العمل وإلى سائر الملائكة لأنهم هم الأتباع لملك الموت والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فُتِنُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ «٤٨» وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ «٤٩»

بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لا فتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبداء لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وبداء لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون .

اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين ، وهو أنك إذا ذكرت الله وحده تقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم ، وذلك يدل على الجهل والخرافة ، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات ، وأما ذكر الأصنام التي هي الجمادات الخسيسة ، فهو رأس الجهالات والخرافات ، فنفرتهم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الأصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحق الشديد ، قال صاحب الكشف وقد يقابل الاستبشار والاشتمزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه لأن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى يظهر أثر ذلك السرور في بشرة وجهه ويتهلل ، والاشتمزاز أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح إلى داخل القلب فيبقى في أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الأرضية ، ولما حكى عنهم هذا الأمر العجيب الذي تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بأمرين (أحدهما) أنه ذكر الدعاء العظيم ، فوصفه أولاً بالقدرة التامة وهي قوله (قل اللهم فاطر السموات والأرض) وثانياً بالعلم الكامل وهو قوله تعالى عالم الغيب والشهادة ، وإنما قدم ذكر القدرة على ذكر العلم لأن العلم بكونه تعالى قادراً متقدماً على العلم بكونه عالماً ، ولما ذكر هذا الدعاء قال (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) يعني أن نفرتهم عن التوحيد وفرحهم عند سماع الشرك أمر معلوم بفساد بديهة العقل ، ومع ذلك ، القوم قد أصروا عليه ، فلا يقدر أحد على إزالتهم عن هذا الاعتقاد الفاسد والمذهب الباطل إلا أنت . عن أبي سلمة قال : سألت عائشة بم كان يفتح رسول الله ﷺ صلواته بالليل ؟ قالت « كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهتدي لما اختلف فيه من الحق يا ذك وانك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر في وعيدهم أشياء (أولها) أن هؤلاء

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ
عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥١﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيَّصِبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٢﴾ أَوَلَمْ
يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٣﴾

الكفار لو ملكوا كل ما في الأرض من الأموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد (وثانيها) قوله تعالى (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) أي ظهرت لهم أنواع من العقاب لم تكن في حسابهم ، وكما أنه ﷺ قال في صفة الثواب في الجنة « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » فكذلك في العقاب حصل مثله وهو قوله (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) (ثالثها) قوله تعالى (وبدا لهم سيئات ما كسبوا) ومعناه ظهرت لهم آثار تلك السيئات التي اكتسبوها أي ظهرت لهم أنواع من العقاب آثار تلك السيئات التي اكتسبوها . ثم قال (وحق بهم) من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به ، فنبه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم .

قوله تعالى ﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا ، ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ، قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فأصابهم سيئات ما كسبوا ، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين ، أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

اعلم أن هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة ، وذلك لأنهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفرعون إلى الله تعالى ، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه ، ثم إنه تعالى إذا خولهم النعمة ، وهي إما السعة في المال أو العافية في النفس ، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه وبسبب جهده وجده ، فإن كان مالا قال إنما حصل بكسبي ، وإن كان صحة قال إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني ، وهذا تناقض عظيم ، لأنه كان في حال العجز والحاجة أضاف الكل

إلى الله ، وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله ، وأسنده إلى كسب نفسه ، وهذا تناقض قبيح ،
فبين تعالى قبح طريقته فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة ، فقال (بل هي فتنة)
يعني النعمة التي حولها هذا الكافر فتنة ، لأن عند حصولها يجب الشكر ، وعند فوائدها يجب الصبر ،
ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من أوتي النعمة ، كما يقال فتنت الذهب
بالنار ، إذا عرضته على النار لتعرف خلاصته .

ثم قال تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) والمعنى ما قدمنا أن هذا التخويل إنما كان لأجل
الاختبار . وبقي في الآية أبحاث نذكرها في معرض السؤال والجواب .

(السؤال الأول) ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء ههنا ، وعطف مثلها في أول السورة
بالواو؟ (والجواب) أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنهم يشتمزون من سماع التوحيد ويستبشرون
بسماع ذكر الشركاء ، ثم ذكر بقاء التعقيب أنهم إذا وقعوا في الضر والبلاء والتجأوا إلى الله تعالى
وحده ، كان الفعل الأول مناقضاً للفعل الثاني ، فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون في
المناقضة الصريحة في الحال ، وأنه ليس بين الأول والثاني فاصل مع أن كل واحد منهما مناقض
للثاني ، فهذا هو الفائدة في ذكر فاء التعقيب ههنا . فأما الآية الأولى فليس المقصود منها بيان
وقوعهم في التناقض في الحال ، فلا جرم ذكر الله بحرف الواو لا بحرف الفاء .

(السؤال الثاني) ما معنى التخويل؟ (الجواب) التخويل هو التفضل ، يعني نحن نتفضل عليه
وهو يظن أنه إنما وجدته بالاستحقاق .

(السؤال الثالث) ما المراد من قوله (إنما أوتيته على علم)؟ (الجواب) يحتمل أن يكون
المراد ، إنما أوتيته على علم الله بكوني مستحقاً لذلك ، ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علمي
بكوني مستحقاً له ، ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علمي لأجل ذلك العلم قدرت على
اكتسابه مثل أن يكون مريضاً فيعالج نفسه ، فيقول إنما وجدت الصحة لعلمي بكيفية العلاج ،
وإنما وجدت المال لعلمي بكيفية الكسب .

(السؤال الرابع) النعمة مؤنثة ، والضمير في قوله (أوتيته) عائد على النعمة ، فضمير
التذكير كيف عاد إلى المؤنث ، بل قال بعده (بل هي فتنة) فجعل الضمير مؤنثاً فما السبب فيه؟
(والجواب) أن التقدير حتى إذا حولناه شيئاً من النعمة ، فلفظ النعمة مؤنث ومعناه مذكر ، فلا
جرم جاز الأمران .

ثم قال تعالى (قد قالها الذين من قبلهم) فما أغنى عنهم الضمير في قالها راجع إلى قوله (إنما
أوتيته على علم عندي) لأنها كلمة أو جملة من المقول (والذين من قبلهم) هم قارون وفومه حيث
قال (إنما أوتيته على علم) عندي وقومه راضون به فكأنهم قالوها ، ويجوز أيضاً أن يكون في
الأمم الخالية قائلون مثلها .

ثم قال تعالى (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى ما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل والقول الفاسد الذى اكتسبوه من عذاب الله شيئاً بل أصابهم سيئات ما كسبوا ، ولما بين فى أولئك المتقدمين أنهم أصابهم سيئات ما كسبوا أى عذاب عقابهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة قال (وما هم بمعجزين) أى لا يعجزوننى فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى (أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى : أو لم يعلموا أن الله تعالى هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويقبض تارة أخرى ، وقوله (ويقدر) أى ويقتر ويضيق ، والدليل عليه أنا نرى الناس مختلفين فى سعة الرزق وضيقه ، ولا بد له من سبب ، وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله ، لأننا نرى العاقل القادر فى أشد الضيق ، ونرى الجاهل المريض الضعيف فى أعظم السعة ، وليس ذلك أيضاً لأجل الطبائع والأنجم والأفلاك لأن فى الساعة التى ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر ، قد ولد فيه أيضاً عالم من الناس وعالم من الحيوانات غير الإنسان ، ويولد أيضاً فى تلك الساعة عالم من النبات ، فلها شاهدنا حدوث هذه الأشياء الكثيرة فى تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة فى السعادة والشقاوة ، علمنا أنه ليس المؤثر فى السعادة والشقاوة هو الطالع ، ولما بطلت هذه الأقسام ، علمنا أن المؤثر فيه هو الله سبحانه ، وضح بهذا البرهان العقلى القاطع على صحة قوله تعالى (أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) .

قال الشاعر :

فلا السعد يقضى به المشتري ولا النحس يقضى علينا زحل

ولكنه حكم رب السما . وقاضى القضاة تعالى وجل

تم بعونه تعالى الجزء السادس والعشرون من التفسير الكبير للأمام الفخر الرازى رحمه الله

تعالى بتصحيح ومراجعة الأستاذ محمد اسماعيل الصاوى الشهير بعبد الله

ويتلوه الجزء السابع والعشرون وأوله تفسير قوله تعالى :

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)

أعان الله على إكماله ، بحق محمد وآله

فهرست

الجزء السادس والعشرون من التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازي

صفحة	صفحة
٢٢	٢
قوله تعالى (إن الذين يتلون كتاب	سورة فاطر
الله) الآيات	قوله تعالى (الحمد لله فاطر السموات
» (إن الله بعباده لخبير بصير) »	الآيات
» (جنات عدن يدخلونها) الآية	» (إن الشيطان لكم عدو) »
» (وقالوا الحمد لله) الآيات	» (أفمن زين له سوء عمله) الآية
» (والذين كفروا لهم نار جهنم)	» (والله الذي أرسل الرياح) »
الآية	» (من كان يريد العزة) »
» (وهم يصرخون فيها) »	» (والله خلقكم من تراب) »
» (أو لم نعمركم ما يتذكرون)	» (وما يستوى البحرين) »
» (فيه من تذكرون) »	» (يولج الليل في النهار) »
» (هو الذي جعلكم خلائف)	» (إن تدعوهم لا يسمعون
في الأرض) الآيات	دعاءكم)
» (إن الله يمسك السموات	» (يا أيها الناس أنتم الفقراء) »
والأرض) الآية	» (إن يشأ يذهبكم) الآيات
» (وأقسموا بالله جهد أيمانكم)	» (إنما تنذروا الذين يخشون ربهم)
الآيات	الآية
» (فهل ينظرون إلا سنت	» (وما يستوى الأعمى
الأولين) الآية	والبصير) الآيات
» (أو لم يسيروا في الأرض) »	» (إن الله يسمع من يشاء) »
» (ولو يؤاخذ الله الناس	» (ثم أخذت الذين كفروا) »
بما كسبوا)	» (ومن الجبال جدد بيض
سورة يس	وحمر) »
» (يس والقرآن الحكيم) »	» (إنما يخشى الله من عباده
» (إنك لمن المرسلين)	العلماء) الآية
» . ٤٠	

صفحة	صفحة
٧١ قوله تعالى (والشمس تجزى لمستقرها)	٤١ قوله تعالى (على صراط مستقيم)
الآية	» » ٤٢ (تزيل العزيز الرحيم) الآية
» » ٧٢ (والقمر قدرناه منازل)	» » ٤٣ (لقد حق القول)
» » ٧٣ (لا الشمس ينبغي لها أن	» » ٤٤ (إنا جعلنا في أعناقهم)
تدرك القمر)	» » ٤٥ (وجعلنا من بين أيديهم)
» » ٧٨ (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم)	» » ٤٦ (وسواء عليهم أنذرتهم)
» » ٨١ (وخلقنا لهم من مثله) الآيات	» » ٤٧ (إما تنذر من اتبع الذكر)
» » ٨٢ (وإذا قيل لهم اتقوا	» » ٤٩ (إنا نحن نحبي الموتى)
ما بين أيديكم) الآية	» » ٥٠ (واضرب لهم مثلاً أصحاب
» » ٨٣ (وما تأتيهم من آية)	(القرية)
» » ٨٤ (وإذا قيل لهم أنفقوا)	» » ٥١ (إذ أرسلنا إليهم اثنين) الآية
» » ٨٦ (ويقولون متى هذا الوعد)	» » ٥٢ (قالوا ما أتم إلا بشر) الآيات
» » ٨٧ (فلا يستطيعون توصية) الآيات	» » ٥٣ (وما علينا إلا البلاغ)
» » ٨٩ (قالوا يا ويلنا من بعثنا) الآية	» » ٥٤ (وجاء من أقصى المدينة) الآية
» » ٩٠ (إن كانت إلا صيحة)	» » ٥٥ (اتبعوا من لا يسألكم أجراً)
» » ٩١ (فاليوم لا تظلم نفس)	» » ٥٧ (أأخذ من دونه آلهة)
» » ٩٤ (إن أصحاب الجنة) الآيات	» » ٥٨ (إن يردن الرحمن بضر)
» » ٩٥ (سلام قولاً من رب) الآية	» » ٥٩ (إني إذا لفي ضلال) الآيات
» » ٩٦ (وامتازوا اليوم)	» » ٦٠ (قيل ادخل الجنة)
» » ٩٩ (ألم أعهد إليكم يا بني آدم)	» » ٦١ (وما أنزلنا على قومه) الآية
» » ١٠٠ (وأن اعبدوني)	» » ٦٢ (إن كانت إلا صيحة
» » ١٠١ (ولقد أضل منكم جبلاً) الآيات	واحدة) الآيات
» » ١٠٢ (إصلوها اليوم بما كنتم	» » ٦٤ (ألم يروا كم أهلكنا)
تكفرون) الآيات	» » ٦٥ (وآية لهم الأرض الميتة)
» » ١٠٣ (ولو نشاء لطمسنا على	» » ٦٨ (سبحان الذي خلق
أعينهم)	الأزواج) الآية
» » ١٠٣ (ومن نعمه ننكسه في	» » ٦٩ (وآية لهم الليل نسلخ منه
الخلق) الآية	النهار)

صفحة	صفحة
١٦٣	١٠٤
قوله تعالى (وإن يونس) الآيات	قوله تعالى (وما علمناه الشعر) الآية
» (فاستفتهم الربك النبات) »	» (لينذر من كان حياً) »
» (فإنكم وما تعبدون) »	» (أولم يروا أنا خلقناهم) الآيات
» (ولقد سبقت كلمتنا) »	» (واتخذوا من دون الله آلهة) »
» سورة (ص والقرآن) »	» (وضرب لنا مثلاً) »
» قوله تعالى (وعجبوا أن جاءهم ذكر) »	» (الذي جعل لكم من
» (أنزل عليه الذكر) »	» الشجر الأخضر) »
» (كذبت قبلهم قوم نوح) »	» (فسبحان الذي بيده
» (وقالوا ربنا عجل لنا) »	» ملكوت كل شيء) الآية
» (إنا سخرنا الجبال معه) الآية	» سورة الصافات
» (والطير محشورة) »	» (والصافات صفوا) الآيات
» (وآتيناها الحكمة) »	» (إنا زينا السماء الدنيا) »
» (وهل أتاك نبأ الخصم) الآيات	» (فاستفتهم أم أشد خلقاً) »
» (ياداود إنا جعلناك خليفة) »	» (بل عجبنا ويسخرون) »
» (ووهبنا لداود سليمان) »	» (وإذاذكروا لا يذكرون) »
» (ولقد فتنا سليمان) »	» (فإنما هي زجرة واحدة) »
» (واذا ذكر عبدنا أيوب) »	» (احشروا الذين ظلموا) »
» (واذا ذكر عبادنا إبراهيم) »	» (وقفوهم إنهم مسئولون) »
» (هذا ذكر وإن للمتقين) »	» (أولئك لهم رزق معلوم) »
» (هذا وإن للطاغين) »	» (قال قائل منهم) »
» (قل إنما أنا منذر) »	» (أذلك خير نزلاً) »
» (إذ قال ربك للملائكة) »	» (ولقد نادانا نوح) »
» (قل ما أسألكم عليه من أجر) »	» (وإن من شيعته لإبراهيم) »
» تفسير سورة الزمر	» (قال أتعبدون ما تنحتون) »
» قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله) »	» (فلما بلغ معه السعى قال) »
» (خلق السموات والأرض) »	» (ولقد مننا على موسى) »
» (وإذا مس الإنسان ضر) »	» (وإن إلياس) »
» (دعا ربه) »	» (وإن لوطاً) »

صفحة	صفحة
٢٦١ ما يتعلق بأبواب التكليف	٢٥١ قوله تعالى (قل يا عباى الذين آمنوا
٢٦٢ قوله تعالى (أولئك الذين هدام الله)	اتقوا ربكم) الآيات
» » (أفمن حق عليه كلمة العذاب)	٢٥٢ » » (للذين أحسنوا فى هذه
٢٦٣ الاحتجاج فى مسألة الهدى والضلال	الدنيا حسنة)
احتج القاضى بأن النبى لا يشفع لأهل	٢٥٣ ماهية الصبر
الكبائر	تسمية المنافع التى وعد الله بها عباده
قوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم)	بالأجر
» » (تجرى من تحتها الأنهار)	وصف الأجر بأنه بغير حساب
٢٦٤ » » (ألم تر أن الله أنزل من	٢٥٤ صفات الثواب الثلاث
السماء ماء)	أمر الرسول بأن يذكر للناس
٢٦٥ » » (أفمن شرح الله صدره للإسلام)	(قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له
تقرير البيانات الدالة على	الدين)
وجوب الإقبال على الطاعة	الأمر بعبادة الله
٢٦٦ قوله تعالى (فويل للقاسية قلوبهم)	بيان أنه ليس من الملوك الجبارة
» » (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)	٢٥٥ التنبيه على أنه رسول الله
٢٦٧ » » (الله نزل أحسن الحديث)	المرتب على المعصية ليس حصول العقاب
٢٦٨ حسن الحديث باللفظ والمعنى	بل الخوف منه)
الإيمان بالله ، صفات القرآن	٢٥٦ بيان الحياة وبيان العقل وما هو ؟
٢٦٩ الأفعال أرواح أو أجسام	٢٥٧ قوله تعالى (ذلك الذين يخوف الله به
أحوال العالم الأعلى	عباده ، والذين اجتنبوا
شرح أحوال العالم الأسفل	الطاغوت)
٢٧٠ شرح أحكام الله وتكاليفه	٢٥٨ بيان المراد من الطاغوت
علم الأخلاق	٢٥٩ حوادث العالم الأعلى والأسفل
التكاليف الحاصلة فى أعمال الجواح	٢٦٠ قوله تعالى (لهم البشرى)
علم الفقه ، معرفة أسماء الله	» » (فبشر عباد الذين يستمعون
بيان الأحوال المعتبرة فى الإيمان	٢٦١ وجوب النظر والاستدلال
الإقرار بالملائكة	الطريق إلى تصحيح المذاهب

صفحة	صفحة
٢٧٧ معنى قوله تعالى (سلماً لرجل) تقدير الكلام اضرب مثلاً لقومك	٢٧١ معرفة الكتب والقرآن معرفة الرسل معرفة المعاد والبعث والقيامة
٢٧٨ قوله تعالى (هل يستويان مثلاً)	كون القرآن متشابهاً
» » (إنك ميت وإنا هم ميتون)	٢٧٢ كون القرآن مثاني
» » (أليس في جهنم مثوى للكافرين)	كون القلوب تقشعر منه معنى القشعريرة
قول الله (والذي جاء بالصدق وصدق به) الآيات	٢٧٣ معنى لين الجلود والقلوب
٢٧٩ بيان المراد من (الذي جاء بالصدق) الخ أركان الرسالة أربعة	٢٧٤ لم قال إلى ذكر الله ، ولم يقل إلى رحمة الله ؟
٢٨٠ قوله تعالى (أولئك هم المتقون)	لم قال في جانب الخوف قشعريرة الجلود ، وفي جانب الرجاء لين الجلود والقلوب ؟
» » (لهم ما يشاءون عند ربهم)	قوله تعالى (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء)
» » (ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزئهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون)	٢٧٤ قوله تعالى (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة)
٢٨١ قوله تعالى (أليس الله بكاف عبده)	٢٧٥ » » (وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون)
» » (ومن يضل الله فما له من هاد)	» » (وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)
٢٨٢ » » (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)	الاحتجاج على حدوث القرآن بهذه الآية
٢٨٢ المشركون يقرون بوحود الله الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر	٢٧٦ وصف القرآن بكونه قرآناً متلوأعريباً بيان الفرق بين يتذكرون ويتقون
٢٨٣ قوله تعالى (قل أفرايتم ماتدعون من دون الله)	قوله تعالى (ضرب الله مثلاً رجلا فيه شركاء متشاكسون)
» » (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون)	٢٧٧ معنى متشاكسون
» » (هل هن كاشفات ضره)	

صفحة	صفحة
٢٨٧ قوله تعالى (فإذا مس الإنسان ضر)	٢٨٣ قوله تعالى (إنا أنزلنا عليك الكتاب
٢٨٨ » » (ولكن أكثر الناس	بالحق)
لا يعلمون)	» » (وما أنت عليهم بوكيل)
بيان معنى التحويل	» » (الله يتوفى الأنفس حين موتها)
المراد بقوله (إنما أو تيته على علم عندي)	بيان النفس الإنسانية
قوله تعالى (قد قالها الذين من قبلهم)	قوله تعالى (إن في ذلك لآيات)
٢٨٩ » » (فما أغنى عنهم ما كانوا	» » (أم اتخذوا من دون الله شفعاء)
يكسبون)	٢٨٤ » » (قل لله الشفاعة جميعاً)
» » (أو لم يعلموا أن الله يبسط	٢٨٥ » » (وإذا ذكر الله وحده
الرزق لمن يشاء ويقدر)	اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون
	بالآخرة)
	٢٨٦ قوله تعالى (ولو أن للذين ظلموا ما في
	الأرض جميعاً ومثله معه)

(تم الفهرست)

